محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية

الدولة العباسية



الشيخ محمد الخضري بك

راجعه واعتنى به

الأستاذة / نجوى عباس

مؤسسة المختار للنشر والتوزيع

أبو علي الكردي
منتدى سور الأزبكية

الدولــة العباسية

الدولة العباسية

محمد الخضرى بك

الطبعــة الأولى
(طبعة مؤسسة المختار الأولى)
١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٧٥٦٤
الترقيم الدولى: ISBN 977 - 5283 - 97 - 3

مؤسسة المختار
للنشــر والتــوزيــع

القاهرة : ٦٥ شارع النزهة - مصر الجديدة
تليفون : ٢٩٠١٥٨٣

محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية



الشيخ محمد الخضري بك

راجعه واعتنى به

الأستاذة/ نجوى عباس



بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله، فإنى أقدم للمشتغلين بالتارخ محاضراتى الثانية فى تاريخ الأمم الإسلامية، وهى تنتظم تاريخ الدولة العباسية السياسى فى المشرق. والتاريخ العباسى جزء عظيم من تاريخ المسلمين يبتدئ من (سنة ١٣٢) إلى (سنة ٦٥٦) أى (٥٢٤سنة)، وقد بقى بيتهم بعد ذلك له اسم الخلافة بمصر إلى (سنة ٩٢٣)، ولكنى لم أسر معهم من العراق إلى مصر، وأبقيت تصاريف أحوالهم هناك إلى تاريخ مصر لما بين التاريخين من الارتباط. وقد بذلت جهدى فى تصوير حالهم السياسى من مبتدأ خلافتهم على أيدى دعاتهم بخراسان والعراق إلى منتهاها على يد هولاكو خان المغولى حفيد جنكيز خان، بينت تلك الحال فى أدوار الدولة المختلفة من قوة وضعف مع توضيح الأسباب التى رفعت هذه الدولة إلى الذروة العليا من سعة الملك ونفوذ الكلمة، والأسباب التى نزلت بها إلى الحضيض من ضيق رقعة الملك وسقوط الهيبة وضعف النفوذ، وقد ختمت الحديث عنها بفصل إجمالى تلك الأسباب.

وتركت تاريخها العلمى لما رأيت من جعل ذلك فى محاضرات خاصة تنتظم تاريخ الإسلام العلمى كله لارتباط بعضه ببعض ولعدم اتباع الحركة العلمية لقوة بنى العباس السياسية، فقد كانت الدولة العباسية فى عهد آل سلجوق فى حال ضعف سياسى شديد، لأن الخلفاء لم يكن لهم إذ ذاك إلا الاسم، ومع ذلك فقد كانت الحركة العلمية قوية.

وإنى أعدُ قُرَّاء كتابى هذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية فى البلاد الإسلامية وأرجو من الله التوفيق.

وقد كانت الأقاليم الإسلامية فى عهد الدولة العباسية ميداناً عظيماً للأفراد الذين ينتمون إلى بيوت قديمة المجد والأفراد العصاميين، يتسابقون إلى التغلب عليها من بلاد الأندلس غرباً إلى بلاد الترك والهند شرقاً. فكم من دول قامت وعظمت مدنيتها ثم انتهت بغلبة غيرها عليها، ومن هذه الدول من كان يقوم باسم الملك تاركاً اسم الخلافة لبنى العباس ومنهم من كان يقوم باسم الملك والخلافة جميعاً كالدولة الأموية بالأندلس، والإدريسية

بالمغرب الأقصى، والفاطمية بأفريقية ومصر، والزيدية بطبرستان، فرأيت من الواجب أن أذكر مع كل خليفة عباسى من كان فى عصره متغلباً على أى إقليم من الأقاليم الإسلامية، وإذا ابتدأت دولة فى عهد خليفة ذكرت عنها جملة مختصرة تبين كيف نشأت والمدة التى قامت فيها وثبت ملوكها، وقصدت بذلك أن تكون الرقعة الإسلامية كلها واضحة الصورة فى جميع العصور. وقد ألممت فى أكثر الأحيان بذكر الملوك المعاصرين فى أوروبا. ولا سيما الذين كانت لهم صلات بالدول المشرقية فى عهد الدولة العباسية كملوك الروم بالقسطنطينية وملوك فرنسا. ومما عنيت به أحوال البيت العلوى الذى ظل ينافس العباسيين من بدء دولتهم إلى سقوطها، وقد كانوا من أكبر الأسباب فى ضعف العباسيين وجرأة المخالفين لهم على خلافهم. فذكرت أحوال طوائفهم الكبرى الثلاث، وهى: الزيدية، والإمامية الاثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية ـ وما قامت به كل طائفة من الرجة فى أنحاء العالم الإسلامى.

وإنى أظن أن هذه المجموعة على صغر حجمها قد سدت حاجة كان المشتغلون بالتاريخ الإسلامى يشعرون بها. وأرجو من الله التوفيق لإتمام سلسلة هذا التاريخ إنه نعم المعين.

الدولة العباسية

البيت العباسى:

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بقى عقبه من كثير من أولاده، ولكن العدد الأكبر والجمهور العظيم كان من ولديه العباس وأبى طالب، فقد ملأ بنوهما السهول والحزون من الأقاليم الإسلامية من أقصى حجر فى بلاد المغرب إلى بلاد ما وراء النهر فى أواسط آسيا.

ولكل من البيتين تاريخ جليل بين تاريخ الأمم الإسلامية. ونحن الآن شارعون فى تاريخ البيت الأول.

العباس بن عبد المطلب:

أمه نتيلة بنت جناب بن كليب من النمر بن قاسط إحدى قبائل ربيعه بن نزار، ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنين، فهو أسن من رسول الله ﷺ بثلاث سنين.

كان العباس من سادات بنى هاشم وعقلائهم وكان صديقاً وفياً لأبى سفيان صخر بن حرب. ولما جاء الإسلام كان من المخلصين لرسول الله ﷺ وإن لم يظهر متابعته. وكان هو الذى تولى إحكام الأمر لرسول الله مع الأنصار حين الهجرة، فقد قال لهم فى ليلة البيعة: يا معشر الخزرج إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ومحمد من أعز الناس فى عشيرته يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعة للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فإنها سترميكم عن قوس واحدة فارتأوا رأيكم واتتمروا أمركم ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع فإن أحسن الحديث أصدقه. وأخرى صفوا لى الحرب كيف تقاتلون عدوكم؟ قال فأسكت القوم وتكلم عبد الله بن عمرو بن جذام فقال: نحن والله أهل حرب غذينا بها ومرنا عليها وورثناها عن آبائنا كابراً عن كابر نرمى بالنبل حتى تفنى ثم نطاحن بالرماح حتى تكسر ثم نمشى بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا فقال العباس: أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع؟ قالوا: نعم شاملة. وقال البراء بن معرور: سمعنا ما قلت، إنَّا والله لو كان فى أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ. وتلا رسول الله

ﷺ القرآن ثم دعاهم إلى الله ورغبهم فى الإسلام وذكر الذى اجتمعوا له. فأجاب البراء بن معرور بالإيمان والتصديق فبايعهم رسول الله ﷺ على ذلك والعباس عبد المطلب آخذ بيد رسول الله ﷺ يؤكد له البيعة تلك الليلة على الأنصار.

ولما خرجت قريش إلى بدر أخرج العباس وبنو أخيه إليها كرهاً، ولذلك قال النبى ﷺ لأصحابه يوم بدر: من لقى منكم العباس وطالباً وعقيلاً ونوفل وأبا سفيان فلا تقتلوهم فإنهم أخرجوا مكرهين. وكان العباس فى جملة أسرى بدر ففدى نفسه وفدى عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب ثم رجع وأقام بمكة، وكان مقامه بها أنه كان لا يغبى على رسول الله ﷺ خبراً يكون إلا كتب به إليه، وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به ويصيرون إليه، وكان لهم عوناً على إسلامهم. ولقد كان يطلب أن يقدم على النبى ﷺ، فكتب إليه عليه والسلام إن مقامكم مجاهد حسن. فأقام بأمر رسول الله ﷺ. وهاجر إلى المدينة قبيل الفتح وحضر معه فتح مكة، وكان سبباً فى نجاة أبى سفيان وفى تشريفه بقول رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن». وحضر غزوة حنين وكان له فيها أحسن بلاء ثم خرج إلى المدينة فأقام بها.

وكان رسول الله ﷺ يحبه ويكرمه وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده وكانت وفاته فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب (سنة ٣٢) وهو ابن ثمان وثمانين سنة ودفن بالبقيع.

وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده، وبه كان يكنى وعبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن وقثم ومعبد وأم حبيبة، وأمهم جميعاً لبابه بنت الحارث بن حزن من بنى هلال بن عامر من قيس عيلان، وفى ولد أم الفضل هؤلاء من العباس يقول عبد الله بن يزيد الهلالى:

ما ولدت نجيبة من فحلِ ... بجبل نعلمه أو سهل

كستة من بطن أم الفضل ... أكرم بها من كهلة وكهل

وكان للعباس من غيرها كثير بن العباس وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد، والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هزيل. وليس للفضل وعبد الرحمن وقثم وكثير وتمام عقب. عقب العباس من سواهم، ولا سيما من عبد الله فإنه هو الذى انتشر منه عقب العباس؛ وهو جد الخلفاء العباسيين.

عبد الله بن العباس:

هو ثانى ولد العباس بن عبد المطلب. ولد قبل الهجرة بسنتين، فكانت سنه حين توفى رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة. وكان عليه السلام يحبه ودعا له فقال: «اللهم علمه التأويل». فكان رضى الله عنه أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه فى الدين على ما أوتيه من لسان طلق، ذلق، غواص على موضع الحجة. وكان عمر رضى الله عنه يحبه ويدخله مع كبار الصحابة فى مجلس شوراه الخاص ويستفتيه فى كثير من المسائل على صغر سنه. وولاه عثمان الموسم (سنة ٥٣) من الهجرة وهو محصور فأقام الموسم. ولما بويع على رضى الله عنه بالخلافة كان له عضداً ونصيراً فى حروبه كلها وولاه البصرة وأعمالها ويقال إنه انحرف عنه أواخر أيامه وترك البصرة ورحل إلى مكة فأقام بالطائف، وقيل: إن ذلك كان بعد مقتل علىّ.

ظل ابن عباس مقيما فى الطائف حياة معاوية كلها وكان معاوية يجله ويتودد إليه كثيراً كما كان يفعل مع سائر بنى هاشم، وكانت وفاته (سنة ٦٨) وعبدالله هو الذى نما من نسله البيت العباسى، لأن أخوته لم يكن لهم نسل باقٍ وعقب عبدالله الذى نما إنما هو من ولده علىّ بن عبدالله بن العباس.

على بن عبد الله بن العباس:

أمه زرعة بنت مشرح بن معد يكرب من كنده. ولد ليلة قتل على بن أبى طالب (سنة ٤٠) من الهجرة، فسمى باسمه وكنى بكنيته أبى الحسن، وهو أصغر أولاد أبيه وكان سيداً شريفاً بليغاً ويقال كان أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمهم وأكثرهم صلاة، وكان مفرطاً فى الطول إذا طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طرله. وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الحميمة بالشراة (وهى صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من إقليم البلقاء) فأقام بها وفيها ولد اكثر أولاده، وكانت وفاته (سنة ١١٧).

وأعقب علىّ اثنين وعشرين ولداً ذكراً وإحدى عشرة أنثى. وذكور أولاده هم محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح وأحمد وبشر ومبشر وإسماعيل وعبد الصمد وعبد الله الأكبر وعبيد الله وعثمان وعبد الرحمن وعبد الله الأصغر ويحيى وإسحاق ويعقوب وعبد العزيز وإسماعيل الأصغر وعبد الله الأوسط. ستة منهم لا عقب لهم والباقون أعقبوا كثيراً. ومنهم انتشر البيت العباسى وكثر جداً وبيت الخلافة فى محمد أكبر أولاده.

محمد بن علي:

هو والد إبراهيم الإمام وأبى العباس السفاح وأبى جعـفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسـية. وهو الذى ابتدأت الدعوة على يديه، وكان ذلك فى حـياة أبيه على، ولكن لم يكن لأبيه ذكر فى هذه الدعوة.

وحيث قد ذكرنا هذا البـيت الرفيع العماد. فلنشرع فى بيان كـيف وجدت فكرة الخلافة عند العبـاسيين وكيف كانـت الدعوة إليهم وكيف تمكنـوا من قلب الدولة الأموية والحلول محلها.

كيف نشأت فكرة الخلافة فى بنى العباس

توفى رسول الله ﷺ وليس يؤثر عنه خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده، وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على على بن أبى طالب أن يدخل على رسول الله ﷺ وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده فإن كانت فيهم وإلا أوصى بهم من سيكون خليفة. فامتنع من ذلك علىّ قائلاً: إنه إن منعنا إياها لا ننالها أبداً.

توفى رسول الله ﷺ والحال ما ذكرنا. فمال الجمهور الإسلامى إلى مبايعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بعد المناظرات التى جرت بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة. وكانت هناك فئة قليلة تميل إلى أن تكون الخلافة فى بنى هاشم رهط النبى الأدنين. ولم يكن فيهم من أعمامه إلا العباس بن عبد المطلب وكان من بنى أعمامه جماعة رأسهم وذو الفضل والسابقة فيهم على بن أبى طالب. ومع أن العباس كان فى ذلك الوقت أسن بنى هاشم لم يكن من هذه الفئة القليلة من يقدمه على علىّ بن أبى طالب لما لعلىّ من المزايا الكثيرة التى بيناها فيما سبق. وكان علىّ نفسه يرى أنه أحق الناس أن يكون خليفة بعد الرسول الله ﷺ وكذلك كانت ترى فاطمة زوجه. ومن أجل ذلك امتنع عن مبايعة أبى بكر مدة حياة فاطمة رضى الله عنها. فلما ماتت دخل فيما دخل فيه الجمهور، وبايع أبا بكر على ملأ من الناس.

عاش علىّ والعباس فى عهد أبى بكر، ثم بايعا عمر لما عهد إليه أبو بكر بالخلافة وظلا مدة حياته محترمين مطيعين. إلى أن استخلف ثالث الخلفاء عثمان بن عفان بعد مناظرات طويلة بين رجال الشورى الذين عهد إليهم عمر اختيار الخليفة من بعده، وكان يرى أن رجال الشورى اتبع كثير منهم هواه فى العدول عنه.

وفى أواخر خلافة عثمان توفى العباس بن عبد المطلب تاركاً عقباً كثيراً أشهرهم عبد الله بن عباس وهو ثانى أولاده ولم يعلم أن أحداً منهم كان يتطلع إلى الخلافة أو يأمل أن تكون له أو لأحد من أولاده.

بعد مضى ست سنوات من خلافة عثمان، وجدت حركة فى بعض النفوس تتجه إلى

نقل الخلافة من عثمان بن عفان إلى علىّ بن أبى طالب، وقام بأمر ذلك دعاة انتشروا فى الأمصار الإسلامية الكبرى وهى الكوفة والبصرة والفسطاط، وتذرعوا إلى ذلك بالعيب فى ولاة عثمان والطعن فيهم بأعمال زعموهم ارتكبوها. وكان من فى مصر يكتب إلى من فى المصر الآخر بما عندهم من ذلك فيشيعونه بين الناس، فيقول الناس: أما نحن ففى عافية مما ابتلى به هؤلاء وجميعهم يكتبون إلى ناس فى المدينة بمثل ذلك حتى ملأوا البلاد طعناً. ولما وجدوا لذلك ارتياحاً من بعض النفوس انتقلوا من ذلك إلى الطعن فى عثمان نفسه، فنسبوا إليه أموراً منها ما هو غير صحيح، ومنها ما هو صحيح وقد فعل أسلافه مثله فلم يقدر أن يطعن فيهم طاعن، وساعدهم لين عثمان وخوفه من فتح أبواب الفتنة على ما قصدوا إليه.

ألفت وفود غوغاء من الأمصار الثلاثة، ممن تأثر بهذه الفتن فذهبت إلى المدينة وهى حرم رسول الله ﷺ وحضارة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة الإسلامية متظاهرين ببث شكواهم من عمال عثمان، فأشكاهم عثمان من جميع ما شكوا منه، ولان لهم جداً حتى لا يوجد لهم سبيلاً إلى الفتنة، فأظهروا الاقتناع وأزمعوا الرحيل إلى أوطانهم، وصار كل وفد فى الطريق التى توصله إلى مصره. وبعد أيام عادت هذه الغوغاء متمسكة بكتاب مزور زعموه صادراً من عثمان إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل رجال الوفد من المصريين عقاباً لهم وتنكيلاً، والكتاب مختوم بخاتم عثمان. فلما أروه إياه حلف لهم أنه ما كتبه ولا أمر بكتابته ، وهو صادق فى يمينه، فاتهموا بذلك كاتبه مروان بن الحكم وطلبوا منه أن يسلمهم إياه فأبى فأعلنوا العداء وصرحوا بما فى أنفسهم من الشر، وحصروا عثمان فى داره مدة ثم اقتحموا عليه داره وقتلوه ظلماً وعدواناً ففتحوا على المسلمين باب فتنة وانقسام لا يغلقه مرور الزمان ولا كر الأيام.

بعد أن تم لهم ما أرادوا عرضوا الخلافة علىّ على بن أبى طالب فقبلها بعد تردد. أمضى رحمه الله حياته فى حرب مخالفيه فى البصرة والنهروان وصفين، ولم تصف له الخلافة يوماً واحداً إلى أن اغتاله أحد الخوارج فى رمضان (سنة ٤٠)من الهجرة من حاضرة خلافته وهى الكوفة.

كان الجمهور الإسلامى فى ذلك الوقت قد انضم إلى خصمه معاوية بن أبى سفيان حيث كان فى بيعته أهل الشام الذين هم أنصاره وأهل الحجاز واليمن ومصر. أما الكوفة فكانت مقراً لشيعة علىّ ومحبيه الذين كان منهم من يرى تفضيله لا على خصمه معاوية فقط بل على من سبقه من الخلفاء أيضاً. ومع هذا فإنه لم ينل منهم ما يناسب تلك العقيدة من الطاعة والإخلاص. بل كثيراً ما أهملوا أوامره التى كان يصدرها إليهم من جهة الاستعداد لحرب أهل الشام. ولذلك أسباب لسنا بصدد بيانها الآن.

لما قتل رحمه الله رأت الشيعة أن يقوم فى الخلافة مقامه ابنه الحسن وهو السيد العظيم الشأن: أبوه علىّ بن أبى طالب وأمه فاطمة بنت محمد ﷺ. وقد رأى رضى الله عنه بثاقب فكره أن الذين لم ينل منهم أبوه ما يرجوه لا يحسن الاعتماد عليهم، ففضل الصلح مع معاوية على شروط واشترطها لنفسه ولأتباعه وتنازل عن الخلافة مفضلاً جمع كلمة المسلمين والسكنى بطيبة مدينة رسول الله ﷺ، وأقام على ذلك حتى توفى بها (سنة ٥٠) من الهجرة.

وظل معاوية يسوس الناس بما عرف عنه من لين العريكة وسخاوة اليد، فاجتمعت الأمة على طاعته والرضا به، وسكنت الدعوة إلى أهل البيت، وخبت نار التشيع إلا أنها كانت مستكنهة فى أنفس ذويها ينتظرون الوقت الملائم للهبوب.

أدلى معاوية بالخلافة لابنه يزيد، فلما تولاها هبت أعاصير الفتنة فى المدينة ومكة والكوفة. فأما المدينة فثارت تطلب عزل يزيد وتولى كبر الثورة بعض أبناء الأنصار ولكن هذه الثورة قمعت بشدة مسلم بن عقبة المرى الذى أوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة، وأما مكة فعاذ بها عبد الله بن الزبير طالباً الخلافة لنفسه.

وأما الكوفة فإن من بها من الشيعة أرسلوا يطلبون إليهم الحسين بن على شقيق الحسن ليبايعوه بالخلافة وينزعوا من أعناقهم بيعة يزيد، فلم يكن من الحسين إلا أن لبى دعوتهم مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه، وسار إليهم من غير جند يركن إليه ولا مال يستعين به. فقابلته ببعض الطريق جنود عبد الله بن زياد عامل يزيد بالعراق وكلها جنود عراقية ليس بها أحد من أهل الشام، فلم يكن له قبل بمدافعتهم وقتل رحمه الله بكربلاء. ولم تقم شيعة أبيه بشىء من المساعدة بل ظلوا فى مساكنهم آمنين مطمئنين ولسان حال الحسين يقول:

لا ألفينك بعد الموت تندبنى ... وفى حياتى ما زودتنى زادى

انتهت هذه الحوادث ومات يزيد،وعظم أمر ابن الزبير ودخل فى دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق، وأبى أن يبايعه رجال بنى هاشم الذين كانوا بمكة كمحمد بن على المشهور بابن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما فاضطهدهم وحبسهم.

ظهر فى تلك الأوقات رجل أراد أن ينتفع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزاً فى البلاد العراقية، مستعيناً بما تضمره قلوب أهل الكوفة من التشيع لأهل البيت، وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى. فذهب إلى الكوفة لابساً ثوب التشيع ناعياً على من قتل الحسين بن

على وداعياً إلى الإمام المهدى وهو محمد بن على الذى صار بعد أخويه أكبر أبناء علىّ رضى الله عنه، وتوسل إلى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقاً كانت أم كذباً، وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه من الأكاذيب التى تؤثر عادة فى أنفس الغوغاء. وقد أمكنه أن يجتذب إلى نفسه رؤساء الشيعة فى الكوفة، وأرسل إلى محمد بن علىّ وهو مضطهد محبوس بمكة جندًا يخلصونه من شدته فنجحوا. واجتمع فى حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية: لواء لابن الزبير، ولواء لبنى أمية، ولواء للخوارج، ولواء لأصحاب محمد بن علىّ، إلا أن الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التى يكره بعضها بعضاً.

لم يطل حبل المختار بالكوفة فإن عبد الله بن الزبير جهز له جيشاً يقوده أخوه مصعب فسار إليه، ومالأه أكثر أشراف أهل العراق لما ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوء طويته، وبذلك كانت الغلبة لمصعب. إلا أن ذلك لم يقضى على التشيع فى بلاد العراق بل ظل كامناً ينتظر من يثيره لينتفع منه.

أما محمد بن علىّ فإنه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الأمر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الأقاليم الإسلامية كلها، ومع قيامه بهذه البيعة لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة إلا أنه مغلوب على أمره، حتى إنه لما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته، وقال: إنه تغيب وسيرجع، وقال فى ذلك شاعرهم السيد الحميرى:

ألا إن الأئمة من قريش	ولاة الحق أربعة سواء
على والأئمة من بنيه	هم الأسباط ليس بها خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى	يقود الخيل يقدمها اللواء

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن علىّ، فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته كما قلنا. ومنهم من تولى بعده ابنه أبا هاشم، ويقال لهذا الفريق والذى قبله الكيسانية؛ ينسبون إلى كيسان وهو لقب للمختار بن أبى عبيد.

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين وهو ممن بايع يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه، قال هؤلاء إن الخلافة محصورة فى أولاد علىّ من فاطمة رضى الله عنها، ولما كان الحسين هو الذى قتل دون الخلافة فهى فى عقبه؛ وعلىّ هو الذى بقى من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء. وقد يقولون: إن علياً هو الوصى أوصى إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخلافة، ثم

الإمام من بعده الحسن، ثم الحسين، ثم على، وهكذا لا بد للأمة من إمام منصوص عليه، ويقال لهؤلاء الشيعة الإمامية.

كان أكبر ولد العباس فى ذلك الوقت على بن عبد الله بن عباس وهو الذى انتشر منه العباسيون. وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحميمة التى أقامه بها بنو أمية والتى أنزله بها الوليد بن عبد الملك. وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة إلى ولد العباس منذ علىّ هذا، ويقال إن السبب فى ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن علىّ بن أبى طالب لما حانت منيته كان مقيماً بالحميمة عند بنى عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة إلى علىّ هذا وأولاده وأوصى أولياءه به فصارت الشيعة الكيسانية فى جانب علىّ بن عبد الله بن عباس.

أما بقية الشيعة فإنهم بعد وفاة علىّ زين العابدين افترقت بهم الطرق: فمنهم من تولى بعده ابنه محمداً الباقر زاعمين أنه الإمام بعد أبيه. ومنهم من قال إن الخلافة حق لكل فاطمى اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء، ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن علىّ بن الحسين، وهم المعروفون بالشيعة الزيدية.

والذين حاولوا الوصول إلى الخلافة وانتزاعها من بنى أمية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا علىّ بن عبد الله، والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيداً وابنه يحيى.

وكانت وفاة علىّ بن عبد الله ومحمد الباقر فى زمن متقارب بالحميمة، فانتقل ولاء الكيسانية إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس لأن أباه أوصى إليه وانتقل ولاء الإمامية إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر، ولم يفعل أنصار الأئمة شيئاً ليرجعوا الخلافة إلى ذوى الحق فيها حسب رأيهم.

أما محمد بن على بن عبد الله بن عباس فهو يعسوب القوم وذو العقل الراجح فيهم. فإنه رأى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبق بإعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل وأن كل محاولة فجائية، لا بد أن تكون عاقبتها الفشل، فرأى أن يسير فى المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم، فعهد إلى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس إلى ولاية أهل البيت بدون أن يسموا أحداً خوفاً من بنى أمية أن يقضوا على المدعو إليه إذا عرف، ورأوا أن أحسن منطقة يبثون فيها الدعوة هى الكوفة وبلاد خراسان. أما الكوفة فهى مهد التشيع لأهل البيت من قديم يمكنهم أن يأووا إليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم. وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين:

الأول: أن فكرة التشيع يفهمها الخراسانى من المسلمين بسهولة لأنه مؤداها نقل الخلافة

إلى بيت النبى ﷺ صاحب الرسالة وسيد الأمة، وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذى يتوارثه أهل بيته، ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك إلا إن كان ذلك عن اختلاس.

الثاني: أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين ولذلك فائدة كبيرة فى حياة النفوس وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد، فكان العنصر العربى بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ولا يتولى من ليس منهم شيئاً من الولايات العامة، فكان أهل فارس مستعدين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة وإخراج الخلافة إلى الدولة المستقبلة كى يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم فى دولة بنى أمية. قال أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمدانى المعروف بابن الفقيه فى كتاب البلدان:

وقد قال محمد بن على بن عبد الله لدعاته حين أراد توجيههم إلى الأمصار: أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده. وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف، تقول: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل. وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى. وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم. وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر. ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة. وبعد فإنى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق.

تأليف الجمعية السرية للدعوة

ابتدأ تأليف هذه الجمعية وعليّ بن عبد الله بن عباس حى لم يمت بعد، لأنها ابتدأت فى أول القرن الثانى وعليّ لم يمت إلا (سنة ١١٧) على قول و(سنة ١١٤) على قول. وكان الخليفة من بنى أمية إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان، وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء.

وجعل للدعوة مركزان: أحدهما: بالكوفة التى اعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها ميسرة مولى على بن عبد الله. والثانى بخراسان التى هى محل الدعوة الحقيقى، ووجه إليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج، واختير من الدعاة اثنا عشر نقيباً وهم:

١ ـ سليمان بن كثير الخزاعى.

٢ ـ مالك بن الهيثم الخزاعى.

٣ ـ صلحة بن زريق الخزاعى.

٤ ـ عمرو بن أعين الخزاعى.

٥ ـ عيسى بن أعين الخزاعى.

٦ ـ قحطبة بن شبيب الطائى.

٧ ـ لاهز بن قريظ التميمى.

٨ ـ موسى بن كعب التميمى.

٩ ـ القاسم بن مجاشع التميمى.

١٠ ـ أبو داود خالد بن إبراهيم الشيبانى.

١١ ـ أبو على الهروى شبل بن طهمان الحنفى.

١٢ ـ عمران بن إسماعيل المعيطى.

واختـار سبعين رجلاً ليكونوا مـؤتمرين بأمر هؤلاء، وكتب إليـهم محمد بن علىّ كـتاباً ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها.

وقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتتح القرن الثانى إلى (سنة ١٣٢)، وهى السنة التى تم فيها النجاح وبويع فيها لأبى العباس السفاح.

وهذه المدة تنقسم إلى قسمين متمايزين: الأول عصر الدعوة المحضة الخالية عن استعمال القوة وذلـك قبل أن ينظم إلى القـوة أبو مسلم الخـراسانى، وذلك فى الوقت الذى كـانت الدولة الأموية فـيه مـتماسكة القـوى لم ينقسم فـيها البـيت المالك على نفسـه ولم تحصل العصبية القومية بين جند هذه الدولة بخـراسان وذلك نحو (٢٧سنة). والعصر الثانى عصر استعمال القوة مع الدعوة حينما تهيأت الأسباب الداعية إلى ذلك.

العصر الأول
(من سنة ١٠٠ إلى سنة ١٢٧)

كان الدعاة فيه يجوبون البلاد الخراسـانية. ظاهر أمرهم التجارة وباطنه الدعوة، ينتهزون الفرص ثم يبلغـون أمرهم إلى القائم بالكوفـة وهو يوصله إلى الحميمـة أو إلى مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج. وكان ذلك المجتمع أعظم ساتر لأمر الدعاة لأنهم كانوا إذا قفلوا من خراسان سافروا حجاجاً. وكانت إقامة مـحمد بن على بالحميمة سبباً آخر فى انتظام المواصلات وكتم سرها.

وكان أول ما ظهـر من أمرهم بخراسان (سنة ١٠٢) حيث جـاء رجل من تميم إلى أمير خراســان سعيد بن عـبد العزيز بن الحارث بن الحـكم بن أبى العاص الذى يقال له سعـيد خذينة وقـال له: إن ههنا قوماً قـد ظهر منهم كلام قـبيح، فبعث إليـهم سعيـد فأتى بهم فسـألهم: من أنتم؟ قالوا: أناس من التجـار؟ قال: فما هذا الـذى يحكى عنكم؟ قالوا: لا ندرى؟ قال: جئتم دعاة؟ فقالوا: إن لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلاً عن هذا. فسأل من يعرف هؤلاء، فجاء أناس من أهل خـراسان جلهم من ربيعة واليمن، فقـالوا: نحن نعرفهم وهم علينا إن أتاك منهم شىء تكرهه. فخلى سبيلهم.

وفى (سنة ١٠٥) انضم إلى هذه الجمعية بكير بن ماهان وهو شيخ عظيم من شيوخ هذه الدولة وكبـار دعاتها وكـان موسراً فـساعد القوم بمالـه، وصادف أن توفى فى ذلك الوقت ميسرة القائم بالكوفة، فأقامه مـحمد بن على مقامه فكان هو ربان هذه الدعوة يأتمر الدعاة بأمره ويسيرون فى الطريق التى يشرعها لهم.

كان من أول النكبات التى لحقت بهم أنه وشى بجـمع من دعاتهم إلى أسد بن عبد الله القـسرى أمير خراسان وهو وال شديد قاس فأتى بهم وفيهم أبو عكرمة وأبو محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادى فقطع أيدى من ظفر به منهم وأرجلهم وصلبهم، وأفلت عمار العـبادى حتى أتى الكوفة فأخـبر بكير بن ماهان بذلك الخـبر المشؤوم، فكتب به إلى

محمد بن على فأجابه: «الحمد لله الذى صدق مقالتكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستقتل» وقد وقع بعد ذلك عمار العبادى فى يد أسد فألحقه بإخوانه.

وكان أسد بن عبد الله أشد ولاة خراسان على الشيعة فكان لا يرحم أحداً منهم وقع فى يده بل شرد بهم ونكل ونفى من نفى وقتل من قتل ولذلك لم يكن للدعوة فى أيامه كبير أثر حتى عزل عن خراسان (سنة ١٠٩) وتلك ولايته الأولى ثم ولى خراسان مرة ثانية فأعاد معهم سيرته الأولى. ففى (سنة ١١٧) أخذ جماعة منهم فقتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس بعضهم وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير شيخ الدعوة ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ وخالد بن إبراهيم وطلحة بن زريق وغيرهم من النقباء فأتى بهم فقال: يافسقة ألم يقل الله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (المائدة: ٩٥) فقال سليمان بن كثير: أتكلم أم أسكت؟ قال: بل تكلم قال: نحن والله كما قال الشاعر:

لو بغير الماء حلقى شرق ... كنت كالغصان بالماء اعتصارى

تدرى ما قصتنا صيدت والله العقارب بيدك أيها الأمير إنا أناس من قومك (اليمن) وإن هذه المضرية إنما رفعوا إليك هذا لأنا كنا أشد الناس على قتيبةً بن مسلم وإنما طلبوا بثأرهم.

فانظر كيف كان القوم يستعملون العصبيات القومية فى أحرج مواقفهم للخلاص مما يقعون فيه أحياناً وقد كان ذلك الجواب سبباً فى خلاص هؤلاء النقباء مما وقعوا فيه حيث وجدوا من قومهم من يدبر مع الأمير أمر خلاصهم وقد خلصوا وكانت وفاة أسد (سنة ١٢٠)فتنفست الشيعة بخراسان بعد وفاته.

حصل بعد ذلك فى العالم الإسلامى ما كان له أعظم الفضل فى نجاح الشيعة وقصور أعدائهم عن فل حدهم وذلك:

أولاً: انشقاق البيت الأموى حتى تزعزع بنيانه وتصدعت أركانه وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك واستعان على ذلك بالقدح فى الوليد ونسبته إلى العظائم من الفسوق والكفر وإحلال ما حرم الله فكان معه قوم ساعدوه على ذلك وكان بعض بنى أمية يتمثل بقول الشاعر:

إنى أعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبال تسامى ثم تندفع

إن البرية قد ملت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم ... إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا

لا تبـــقـــرن بـأيديكـم بطونـكم فـثم لا حسـرة تغنى ولا جـزع

ولما تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان فإنه كتب إلى الغمر بن يزيد أخى الوليد يهيجه للمطالبة بدم أخيه وقال فى ذلك الكتاب: «أما بعد فإن هذه الخلافة من الله على مناهج رسله وإقامة شرائع دينه أكرمهم الله بما قلدهم يعزهم ويعز من يعزهم والحين على من ناوأهم فابتغى غير سبيلهم فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم الله منها يقوم بحقها ناهض بأنصار لها من المسلمين، وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة وأذبه عن حرمه وأوفاه بعهده وأشده نكاية فى مارق مخالف ناكث ناكب عن الحق، فاستدرت نعمة الله عليهم وقد عمر بهم الإسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد نكثوا أمر الله وحاولوا نكث العهود وقام بذلك من أشعل ضرامها وإن كانت القلوب عنه نافرة. والمطلوبون بدم الخليفة ولاته من بنى أمية، فإن دمه غير ضائع وإن سكنت بهم الفتنة والتأمت الأمور فأمر الله لا مرد له وقد كتبت بحلك فيما أبرموا وما ترى فإنى مطرق إلى أن أرى غيراً فأسطوا بانتقام وأنتقم لدين الله المبتول وفرائضه المتروكة مجانة ومعى قوم أسكن الله طاعتى قلوبهم أهل إقدام إلا ما قدمت به عليهم ولهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة لو يجدون منزعاً وللنقمة دولة تأتى من الله ووقت موكل ولم أشبه محمداً ولا مروان غير أن رأيت غيراً إن لم أشمر للقدرية إزارى وأضربهم بسيفى جارحاً وطاعناً يرمى قضاء الله فى ذلك حيث أخذ أو يرمى فى عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه وما إطراقى إلا لما أنتظر مما يأتينى عنك فلا تدعن ثأرك بأخيك فإن الله جارك وكافيك وكفى بالله طالباً ونصيراً».

وكان مروان فى ذلك الوقت أميراً للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يأتمر بأمره ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة مستمسكاً بهذا الحبل حتى نالها ولم يكن نيله لها بمزيل أسباب الخلاف والانشقاق فى هذا البيت ولا شبهة أن انشقاق البيت المالك يحدث بطبيعة الحال انشقاقاً فى قوة الدولة فلا تقوى على مصادمة عدوها.

ثانياً: ظهور العصبية القومية فى خراسان وانشقاق القبائل العربية وذلك أن العرب يرجعون إلى شعبين عظيمين قحطان ونزار، وملك العرب القديم كان فى اليمن، فلما جاء الإسلام تحول إلى نزار لمكان رسول الله ﷺ وكان أمر النبوة والوحى قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة إلى أعدائهم فنالوا فى زمن قليل ما لم تنله أمة قبلهم فى مثل الزمن الذى ارتفع فيه قدرهم.

ولما طال الزمن تراجع الناس إلى شىء مما كانوا عليه فى الجاهلية بسبب أمراء السوء

الذين كانوا يحيون لهم تلك الجاهلية من غير أن ينظروا إلى سوء مغبتها وظهر ذلك فى أقوال شعرائهم التى لها أثر شديد فى أنفسهم وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة من ذلك فقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج الجعدى:

أبيت أرعى النجوم مرتفقاً	إذا استقلت تجرى أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة	قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن	بالشام كل شجاه شاغلها
فالناس منها فى لون مظلمة	دهماء ملتجة غياطلها
يمسى السفيه الذى يعنف بالجهـ	ـل سواء فيها وعاقلها
والناس فى كربة يكاد لها	تنبذ أولادها حواملها
يغدون منها فى كل مبهمة	عمياء تمنى لها غوائلها
لا ينظر الناس فى عواقبها	إلا التى لا يبين قائلها
كرغوة البكر او كصيحة حبـ	ـلى طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا أزرى بوجهته	فيها خطوب حمر زلازلها

وهذا أحسن وصف سمعته وصف الفتن وغمرها الناس كافة من سفيه وحليم. كان بخراسان واليان مختلفان جاء أحدهما بعد الآخر، فأما أولهما فهو أسد بن عبد الله القسرى وهو من اليمن فكان ضلعه مع قومه من أهل اليمن يتعصب لهم وكان شيعته بخراسان قوية إلى قوة الدولة نفسها فلم يكن هناك ما يهيجه. وثانيهما نصر بن سيار وهو من كنانة ثم من مضر فكان ضلعه من قومه إلا أن شيعته بخراسان لم تكون بذاك وقد كان هشام بن عبد الملك بن مروان الذى ولاه يعلم ذلك فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد كان مستشاره يسمى له أشخاصاً بما لهم من محامد ومذام، فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال: إن اغتفرت له واحدة فإنه عفيف مجرب عاقل قال هشام: وما هى؟ فقال المشير: عشيرته بها قليلة، فقال هشام: أتريد عشيرة أكثر منى أنا عشيرته. وهذه جملة صحيحة فى زمن قوة الدولة الناشئة عن اتحاد الفاتحين فأما بعد الانصداع فليست بصحيحة.

ظهر الانشقاق فى عهد نصر بن سيار هذا بين النزارية واليمانية وكان رئيس النزارية وكبيرهم نصر بن سيار الأمير وكبير اليمانية جديع بن شبيب المعنى المعروف بالكرمانى،

وإنما عرف بذلك لأنه وُلِدَ بكرمان، وكان نصر والكرمانى قبل ذلك متصافيين إلا أن الفتنة الناشئة عن حمية الجاهلية فرقت بينهما، وكانت النزارية أيضاً منشقة فربيعة فى جانب ومضر فى جانب. وكان أكثر ربيعة مع شيبان بن سلمة الحرورى الخارج على الدولة يطلب العمل بكتاب الله وسنة رسوله فكانت هذه الفرق الثلاثة متعادية.

حصلت حروب بين نصر والكرمانى وكانت القوة للكرمانى فأجلى نصراً عن مرو حاضرة خراسان فهدم اليمنيون دور المضرية فقالت امرأة من ضبة وهى أم كثير الضبية:

لا بارك الله فى أنثى وعذبها ... تزوجت مضريا آخر الدهر

أبلغ رجال تميم قول موجعة ... أحللتموها بدار الذل والفقر

إن أنتم لم تكروا بعد جولتكم ... حتى تعبدوا رجال الأزد والظهر

إنى استحيت لكم من بذل طاعتكم ... هذا المزونى يجيبكم على قهر

وقال شاعر آخر:

ألا يا نصر قد برح الخفاء ... وقد طال التمنى والرجاء

وأصبحت المزون بأرض مرو ... تقضى فى الحكومة ما تشاء

يجوز قضاؤها فى كل حكم ... على مضر وإن جار القضاء

وحمير فى مجالسها قعود ... ترقرق فى رقابهم الدماء

فإن مضر بذا رضيت وذلت ... فطال لها المذلة والشقاء

وإن هى أعتبت فيها وإلا ... فحل على عساكرها العفاء

وفى أثناء وقوع هذه الحوادث توفى محمد بن على إمام الشيعة الذى يدعون إليه وأدلى بالأمر من بعده إلى ابنه إبراهيم وأعلم الشيعة بذلك، فقاموا بالدعوة إليه مكان أبيه. ثم توفى بكير بن ماهان شيخ الشيعة بالكوفة فأقام إبراهيم بن محمد مكانه حفص بن سليمان المعروف بأبى سلمة الخلال وأصله مولى لبنى الحارث بن كعب وكان صهراً لبكير بن ماهان فأوصى إبراهيم أن يقيمه مكانه.

واتصل بإبراهيم فى تلك الأوقات شاب من نوابغ الشبان وذوى المقدرة والعزيمة وهو أبو مسلم الخراسانى وأصله مولى لعيسى بن معقل العجلى اشتراه منه بكير بن ماهان وعنه تلقى أصول التشيع، ثم اتصل بمحمد بن على (سنة ١٢٥) ثم بابنه إبراهيم وكانت تظهر

عليه مخايل النجابة وقوة العزم، وكانت الشيعة بخراسان فى حاجة إلى مثله ليشرعوا فى العمل بعد أن أمكنتهم الفرصة بما وقعت فيه الدولة الأموية من الخلاف وما يقع فيه عرب خراسان من الانشقاق فاختار إبراهيم أبا مسلم لتلك المهمة وكتب إلى أصحابه إنى قد أمرته بأمرى فاسمعوا منه واقبلوا قوله، فإنى قد أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك وكان مما أوصى به أبا مسلم قوله:

«يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت فاحتفظ وصيتى. وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم وانظر هذا الحى من مضر فإنهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شىء وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ولا تعصه وإن أشكل عليك أمر فاكتف به منى».

وإنما أمره بتقريب أهل اليمن لأنهم أعداء الدولة الحاضرة للعصبية التى كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان إذ ذاك ولهذا السبب أوصاه بالشدة على مضر، فإنهم كانوا أصحاب الدولة. ومما يدل على اعتماد بنى العباس على أهل خراسان دون العرب قول الإمام: (وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل). سار أبو مسلم مزوداً بهذه الوصية حتى حل بخراسان وذلك (سنة ١٢٨) وكانت الحال قد بلغت أشدها بين العرب بخراسان فأقام يدبر الأمور. وبعد سنة تهيأ لزيارة الإمام ومعه عدد كبير من الدعاة، ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الإمام يقول فيه: (إنى قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث ألقاك كتابى ووجه إلى قحطبة بما معك يوافنى به فى الموسم) فعاد أبو مسلم إلى مرو مستعداً للعمل.

دور العمل:

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مرو يقال لها سفيذنج وهناك بث دعاته فى الناس ليجتمعوا إليه فانثال إليه الناس وكان ذلك فى رمضان (سنة ١٢) ولخمس بقين منه عقد اللواء الذى بعث به الإمام ويدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً وعقد الراية التى تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً وهو يتلو قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩) ولبسوا السواد الذى جعل شعاراً للدولة العباسية وقدم على أبى مسلم الدعاة من أهل مرو لمن أجاب الدعوة.

كان أول ما فعله أبو مسلم أن أمر برم حصن سفيذنج وأقام به هو ومن معه ولما حضر

عيد الفطر (سنة ١٢٩) أمر سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة ونصب له منبراً فى العسكر وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة وكانت بنو أمية تبدأ بالخطبة والأذان ثم بالصلاة بالإقامة كصلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوساً فى الجمعة والأعياد. وأمره أن يكبر ست تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن وكانت بنو أمية تكبر فى الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات ولما تمت الصلاة انصرف هو ومن معه إلى طعام أعد لهم مستبشرين.

كتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار يقول له: (أما بعد) فإن الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عيّر أقواماً فى القرآن فقال ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر: ٤٢، ٤٣) فتعاظم نصر الكتاب ولا سيما أنه رأى أبا مسلم بدأ فيه بنفسه.

وكان جوابه أن وجه إلى أبى مسلم مولى له اسمه يزيد فى خيل عظيمة فوجه إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعى فالتقوا بقرية تدعى آلين وكانت بين الفريقين موقعة انتهت بانتصار الشيعة وأسر يزيد رئيس جند نصر بعد أن جرح فأمر أبو مسلم بمداواته حتى برأ ثم خيره بين أن يقيم معه ويدخل فى دعوته وأن يرجع إلى مولاه سالماً ويعطى عهد الله وميثاقه ألا يحاربهم ولا يكذب عليهم وأن يقول فيهم ما رأى فاختار الرجوع إلى مولاه وقال أبو مسلم لمن معه إن هذا سيرد عنكم أهل الورع والصلاح فإنا ما نحن عندهم على الإسلام.

قدم يزيد على نصر فقال له نصر: لا مرحباً بك والله ما ظننت استبقاء القوم إلا ليتخذوك حجة علينا فقال يزيد: هو والله ما ظننت وقد استحلفونى ألا أكذب عليهم، وأنا أقول: إنهم يصلون الصلاة لمواقيتها بأذان وإقامة ويتلون كتاب الله ويذكرون الله كثيراً ويدعون إلى ولاية رسول الله ﷺ وما أحسب أمرهم إلا سيعلو، ولولا أنك مولاى أعتقتنى من الرق ما رجعت إليك ولأقمت معهم. كثرت بعد ذلك وفود الناس على أبى مسلم ووجدت الدعوة فى قلوبهم مكاناً صالحاً فضاقت عليه سفيذنج فرحل إلى الماخوان وهى قرية كبيرة من قرى مرو كانت للعلاء بن حريث ولأبى خالد بن عثمان فحصنها وخندق حولها وكانت عدة من معه فى الخندق سبعة آلاف رجل.

رأى عرب خراسان أن ما بينهم من هذه الفرقة والحروب تشد أزر عدوهم وكانوا ثلاث فرق كما قدمنا وكان الكرمانى قد قتل فى إحدى وقائعه مع نصر وأجلى قومه عن مرو وخلفه فى قيادة اليمانيين ابنه على. فكتب نصر إلى شيبان الحرورى يقول له: إن شئت

فكف عنى حتى أقاتله وإن شئت فاتفق معى على حربه حتى أقتله أو أنفيه ثم نعود إلى أمرنا الذى كنا عليه، فهم شيبان أن يفعل، ولكن أبا مسلم كانت له عين لا تنام فأرسل إلى على بن الكرمانى يقول له: إنك موتور قتل أبوك ونحن نعلم أنك لست على رأى شيبان، وإنما تقاتل لثأرك فامنع شيبان من صلح نصر فدخل ابن الكرمانى على شيبان ولم يزل به حتى ثناه عن رأيه فأرسل نصر إلى شيبان إنك لمغرور وأيم الله ليتفاقمن هذا الأمر حتى تستصغرنى بجانبه.

وفى أثناء ذلك كان أبو مسلم يرسل قواده فيستولون على البلاد من عمال نصر ولا يجدون مقاومة تذكر. ولما رأت ذلك ربيعة وعلمت شدة أمر أبى مسلم أرسلت إلى نصر تطلب منه الموادعة فأجاب إلى ذلك وتوادعوا سنة. بلغ ذلك أبا مسلم فأرسل إلى ابن الكرمانى يهيجه بأخذ الثأر فقال: إنى ما صالحت نصراً وإنما صالحت شيبان وأنا لذلك كاره وأنا موتور ولا أدع قتاله فعاود القتال وأبى شيبان أن يعينه وقال: لا يحل الغدر فأرسل ابن الكرمانى إلى أبى مسلم يستنصره. وهذا كل ما يريده فأرسل إليه إنى معك على نصر، فاشتد ذلك على نصر وكتب إلى أبى مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر وبعثت إليه ربيعة بمثل ذلك كلهم طلب معونة هذا القتال الذى ليست له غاية إلا الفتك بهم جميعاً، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد كل منهم حتى يختار ففعلوا وأمر أبو مسلم متكلمى الشيعة أن يختاروا وفد ربيعة وقحطان، فإن السلطان فى مضر وهم عمال مروان وهم قتلة يحيى بن زيد، ولما قدمت عليه الوفود فعل الشيعة ما أمروا به فنهض وفد مضر تعلوهم المذلة والكآبة ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين ظافرين ولم يدروا ما خبأه لهم الغيب.

وبذلك ظفر أبو مسلم ظفراً عظيماً فإنه فرق كلمة العرب بعد أن كادت تجتمع عليه فقام من الماخوان فى جمادى الأولى (سنة ١٣٠) يريد مرو وأرسل إليه ابن الكرمانى أن ادخل حائط مرو من قبلك وأدخل أنا وعشيرتى من قبلى، فأرسل إليه أبو مسلم أن لست آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على حربى، ولكن ادخل أنت فأنشب الحرب، فدخل ابن الكرمانى وأنشب الحرب وأمر أبو مسلم أحد قواده بدخول مرو فدخلها وأعقبه أبو مسلم. دخل والقتال دائر بين الكرمانى ونصر فأمر الفريقين أن يكفا وهو يتلو: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ (القصص: ١٥). ومضى أبو مسلم حتى دخل دار الإمارة وهرب نصر مستخفياً.

صَفَتْ مرو لأبى مسلم، وأمر أحد النقباء بأخذ البيعة على أهلها ونص البيعة: (أبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى

إلى بيت الله الحرام وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به ولاتكم وإن كان عدو تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم). وأخذ أبو مسلم ثقات أصحاب نصر وصنديدهم فكتفهم وحبسهم ثم قتلهم.

أرسل بعد ذلك إلى شيبان الحرورى يدعوه إلى بيعته فأبى وسار عن مرو إلى سرخس فوجه إليه مسلم جنداً، فكانت هناك موقعة قتل فيها شيبان وعدد عظيم ممن معه. وبعد نيل هذا الانتصار عمد إلى ابنى الكرمانى على وعثمان اللذين ائتمناه على حياتهما فقتلهما وأكثر أصحابهما.

صفت خراسان كلها لأبى مسلم فبعث العمال إلى جميع الولايات وأمر أحد قواده قحطبة بن شبيب أن يتبع نصراً ومعه لواء عقده له إبراهيم الإمام فسار وراءه من بلد إلى بلد حتى مرض نصر بالرى ومات بساوة فأقبل قحطبة بجنوده واستولى على الرى فتم للشيعة خراسان وبلاد الجبل ثم سير قحطبه ابنه الحسن فاستولى على همذان ومنها سار إلى نهاوند فحصرها ولحقه بها أبوه فاجتمعا عليها ثلاثة أشهر ثم فتحت وتلاها شهر زور الموصل. سار قحطبة بعد ذلك واغلاً فى بلاد العراق فقصده ابن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد وكان اجتماعهما غربى الفرات على نحو (٢٣فرسخاً)من الكوفة وقبل أن تقع بينهما الموقعة الكبرى مات قحطبة فولى إمرة الجيش ابنه الحسن وكان قحطبة قبل موته قد قال: إذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد أبو سلمة الخلال فسلموا الأمر إليه.

جرت أثناء ذلك وقائع انهزم فيها ابن هبيرة فسار منها حتى أتى واسطاً. وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة خرج منها محمد بن خالد القسرى مسوداً فاستولى على قصرها ولم يكن قد علم بهلاك قحطبة فكتب إليه يعلمه فوصل الكتاب إلى ابنه الحسن فارتحل إلى الكوفة فدخلها فى المحرم (سنة ١٣٢)وسلم الأمر لأبى سلمة الخلال فوجه الحسن إلى قتال ابن هبيرة بواسط وضم إليه قواداً. ووجه حميد بن قحطبة إلى المدائن. ووجه المسيب بن زهير وخالد بن برمك إلى دير قنى. وبعث المهلبى وشرحبيل إلى عين التمر. وبسام بن إبراهيم إلى الأهواز وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة.

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق ونار الفتنة مشتعلة بالشام والحجاز.

افتضاح الأمر:

مضت هذه المدة كلها وليس عند بنى أمية علم بمن تدعو إليه الشيعة، فإنهم كانوا يدعون إلى الرضا من آل محمد ﷺ ولا يعلم السر إلا النقباء والدعاة. أما العامة فمبلغ علمها

أنها تدعى لرجل من آل البيت حتى وقع فى يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم إلى أبى مسلم جواب كتاب لأبى مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان فأرسل مروان فى الحال إلى عامله بدمشق يأمره بالكتاب إلى صاحبه بالبلقاء أن يسير الحميمة ويأخذ إبراهيم بن محمد يوجه به إليه ففعل العامل ما أمر به وقبض على إبراهيم، ولما أحس إبراهيم بما يراد به نعى نفسه إلى أهل بيته وأوصى إلى أخيه أبى العباس وأمر أهله بالسير إلى الكوفة والسمع والطاعة لأبى العباس. أما إبراهيم فحبس فى سجن حران مع جماعة من أعداء مروان من بنى أمية، ولم يزل فى سجنه حتى مات. وكيفية موته مبهمة اختلف فيها المؤرخون فمنهم من قال: إنه سقى سماً، ومنهم من قال: هدم عليه بيت فمات، ومما قيل فى رثائه:

قد كنت أحسبنى جلداً فضعضعنى ... قبر بحران فيه عصمة الدين

فيه الإمام وخير الناس كلهم ... بين الصفائح والأحجار والطين

فيه الإمام الذى عمت مصيبته ... وعيلت كل ذى مال ومسكين

فلا عفا الله عن مروان مظلمة ... لكن عفا الله عمن قال آمين

وأما أهل بيته فتجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها فى صفر (سنة ١٣٢) ورئيس القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال الذى كان يعرف فى ذلك الوقت بوزير آل محمد فأنزلوهم فى إحدى دور الكوفة وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة وكان لا يزال فى معسكره بحمام أعين خارج الكوفة.

ويقال إنه لما سبر أحوالهم عزم على العدول عنهم إلى بنى على، فكاتب ثلاثة من أعيانهم: جعفر الصادق بن محمد الباقر وعبد الله المحض بن حسن بن حسن وعمر الأشرف زين العابدين، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم، وقال له: اقصد أولاً جعفر بن محمد، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين، فإن لم يجب فالق عبد الله المحض فإن أجاب فأبطل كتاب عمر وإن لم يجب فالق عمر فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولاً ودفع إليه كتاب أبى سلمة فقال: مالى ولأبى سلمة وهو صنعة لغيرى؟ فقال له الرسول: اقرأ الكتاب، فقال جعفر لخادمه: أدن السراج منى، فأدناه فوضع الكتاب على النارحتى احترق فقال الرسول: ألا تجيبه فقال: قد رأيت الجواب. ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبله وركب فى الحال إلى جعفر وقال: هذا كتاب أبى سلمة يدعونى فيه إلى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان فقال له

جعفر: ومتى صار أهل خراسان شيعتك. أنت وجهت إليهم أبا مسلم هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبد الله: كأن هذا الكلام منك لشيء، فقال جعفر: قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم فكيف أدخره عنك فلا تمن نفسك الأباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك، فانصرف عبد الله من عنده غير راض، وأما عمر بن زين العابدين فإنه رد الكتاب وقال: أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه. أحس بعض القواد بأمر أبي سلمة فأحبطوا ما أراده وذهبوا إلى الكوفة فقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل كما فعلوا وقد أبقى هذا العمل في نفس أبي العباس ما أبقى فترتب عليه ما يأتي ذكره.

خرج أبو العباس يوم الجمعة (١٣ربيع الأول) فصلى بالناس وكان في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه أن افتخر بقرابته من رسول الله ﷺ ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بني حرب وبني مروان أثرتهم وظلمهم. ثم قال: «وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءهم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المتيح» وبهذه الجملة الأخيرة لُقبَ السفاح.

كان السفاح إذ ذاك موعوكاً فاشتد به الوعك فجلس على المنبر وصعد داود بن عليّ عمه وكان من أفصح بني العباس فخطب خطبة جاء فيها: «إنا والله ما خرجنا في هذا الأمر لنكثر لجيناً ولا عقياناً ولا نحفر نهراً ولا نبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم، لكم ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزله الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسير رسول الله ﷺ» ثم منىّ الكوفة بما يحلو في أسماعهم ومدح أهل خراسان بما قاموا به من نصر أهل بيت النبي ﷺ وإعادة حقوقهم. وقال في آخر خطبته: «ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار بيده إلى أبي العباس فاعلموا أن هذا الأمر فينا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم صلوات الله عليه».

بعد أن تمت الخطبتـان والصلاة خرج السفاح إلى القـصر وأجلس أخاه أبا جعفـر ليأخذ البيعة عـلى الناس فى المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم حـتى صلى بهم العصر، ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل. ثم خرج أبو العبـاس إلى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داود بن علىّ.

بعد أن بلغوا هذا المبلغ بقى عليهم أن يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التى بالجزيرة وعلى ابن هبيرة والقوة التى معه بواسط.

كان مروان بحران معـه قوة عظيمة ومنها سار حتى أتى الموصل فاختـار أبو العباس من أهل بيتـه عمه عـبد الله بن على ليكون قـائداً للجنود التى اختـيرت لحرب مـروان. وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الأعلى وهو أحـد روافد نهر دجلة يأتيها من الشرق، وكانت الواقعة شديدة جـداً انتهت بانتصار عبد الله وجنده فهرب مـروان واحتوى عبد الله معسكره كله وذلك لإحـدى عشرة خلون من جمادى الآخـرة (سنة ١٣٢) وكان مع مروان من الجنود (١٢٠ألفاً) من نخـبة أهل الشام وخـيرة جنودها. انهزم مروان حـتى أتى حران وعاملها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد فأقام بها نيفًا وعشرين عاماً، ولما دنا منه عبد الله رحل عنها بأهله وولده وقدم عبد الله فلقيـه أبان مسوداً له ودخل فى طاعته فأمَّنه ومن كان بحران والجزيرة.

مضى مروان حتى أتى قنسرين وعبد الله يتبعه ثم مضى منه إلى حمص، ثم أتى دمشق وعليها الوليـد بن معاوية بن مروان، فلما أحس باقـتراب عبد الله رحل عنها فجـاءها عبد الله ودخلها عنوة معترضاً أهلها وقتل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قتل.

مر مروان بالأردن وفلسطين ومضى حتى أتى الفسطاط ومنه خرج إلى بوصير وهى قرية من مركز الواسطى ببنى سويف.

أما عبـد الله بن على فجاءه كتـاب من أبى العباس يأمره أن يوجـه صالح بن على فى ملاحـقة مروان فـسار صـالح فى ذى القعدة (سـنة ١٣٢) وكان يسـير على ساحل البـحر والسفن حذاءه حـتى وصل إلى مصر. ومن هناك سار حتى أتى بوصيـر وهناك قتل مروان بن محمـد لثلاث بقين من ذى الحجـة (سنة ١٣٢) وبقتله انتهت دولة بنى أميـة من المشرق وتوطدت دعائم الدولة.

وأما يزيد بن عميـر بن هبيرة فإنه لما انهزم من جيش خـراسان أتى واسطاً وتحصن بها، وكان مشـيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب إلى الكوفـة فيقاتل حتى يقـتل أو يظفر وحذروه

واسطاً كيلا يصير فى حصار وليس بعد الحصار إلا القتل، فخالف تلك الشورى فسير أبو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة فكانت بينهم وقائع ثم احتمى ابن هبيرة ومن معه بحصونهم. ولما طال الأمر أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيش فاحتدم القتال بين الفريقين وظلوا هكذا أحد عشر شهراً. ولما أتى ابن هبيرة قتل مروان بن محمد طلب من معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين أبى جعفر حتى جعل له أماناً وكتب به كتاباً مكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أنفذه إلى أبى جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى السفاح فأمر بإمضائه وكان رأى أبى جعفر الوفاء له بما أعطاه، وكان السفاح لا يقطع أمراً دون أبى مسلم فكتب أبو مسلم إلى السفاح يقول له: إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة.

ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبى جعفر فدخل عليه وحادثه ساعة وبعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة ومداد الأمان لم يجف وقتل معه عدة من وجوه أصحابه ورثاه منقذ بن عبد الرحمن الهلالى بقوله:

منع العزاء حرارة الصدر   والحزن عقد عزيمة الصبر

لما سمعت بوقعة شملت   بالشيب لون مفارق الشعر

أفنى الحماة الغر أن عرضت   دون الوفاء حبائل الغدر

مالت حبائل أمرهم بفتى   مثل النجوم حففن بالبدر

على نعيهم فقلت له   هلا أتيت بصيحة الحشر

لله درك من زعمت لنا   أن قد حوته حوادث الدهر

من للمنابر بعد مهلكهم   أو من يسد مكارم الفخر

فإذا ذكرتهم شكا ألما   قلبى لفقد فوارس زهر

قتلى بدجلة ما ينهنهم   إلا عباب زواخر البحر

فلتبك نسوتنا فوارسهم   خير الحماة ليالى الذعر

وبقتل ابن هبيرة انطفأ مصباح للدولة الأموية.

قامت الدولة العباسية ودخل فى حوزتها هذا الملك الطويل العريض الذى وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب ومكن قواعـده وزان جوانبه بنو أمـية بن عبـد شمس وسنأتى على وصفـه بعد أن نبدى ملاحظة بشأن قيام هذه الدولة.

قامت هذه الدولة باسم الدين. والسلاح الذى استعمل فيها للتأثير فى العقول هو إعادة الأمر لآل محمـد ﷺ ونزعه من آل مروان الذين وصفهم الداعون بما شاؤوا من صفات النقص والبـعد عن الدين ووضـعوا فى ذمـهم أحاديث أسندوها إلى رسـول الله ﷺ لا يعرفها رجال النقد من المحدثين.

كان ذلك السلاح يصل إلى شغاف القلوب فيثيرها من مكمنها.

اختار القوم لغرس دعوتهم بلاداً كانت قـبل مهداً للتشيع وحب آل البيت وهى الكوفة وخراسان فقديماً قامت بلاد العراق بـنصر على بن أبى طالب وقامت لتثأر بالحسين بن على وجاهدت فى نصـرة زيد بن الحسين وابنه يحـيى، فلم تترك فرصـة لذلك إلا انتهـزتها ثم اختاروا بلاد خراسـان لتكون مشرقاً لقوتهم وأذاعوا فى ذلك أحاديث كثـيرة فأعدوا قلوب أهليها لذلك. وكان الذين دخلوا فى الإسلام من الفـرس أقرب من غيرهـم إلى التأثر بآراء الشيعة لأنهم لا يفرقون بين خلافة وملك وكان الملك عندهم ينال بالإرث وهو منحة يمنحها الله للأسرة المالكة فمن عارضها فيه فهـو خارج عليها يستحق المقت واللعنة فإذا ألقى إليهم فى التعاليم أن بنى أمية غصبوا أهل بيت النبى حقهم سهلت إلى ذلك إجابتهم واعتقدوا أن بنى أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المـقدس منهم، ولهذا كان من الوصايا التى بنيت عليها سيـاسة الدعوة العباسيـة: (إن قدرت ألا تبقى بخراسان من يتكلم بالعـربية فافعل). وهى وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وإنما لو حظت فيها الفوائد العاجلة.

وفوق ما تقـدم كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قـديم وكانت لها السيـادة على أكثر الأمم العربية بالعراق واليمن ثم رأوا دولتهم قد دالت وصاروا موالى للعرب يتحكم العرب فى رقابهم وفى أمـوالهم فوجدوا هـذه فرصة يستـردون بها شيـئاً مما كان لـهم من العظمة التاريخـية ويذلون هؤلاء العـرب الذين سطوا عليهم، فـرأوا أنهم بمساعدتهـم لهذه الدولة الجديدة يكونون أصـحاب الكلمة المسـموعة فيـها والسلطان النافذ. وتأثيـر هذا السبب فى الخاصة أكثر منه فى العامة: فهذا النزاع كان فى الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بنى أمية وبنى العباس وحدهم.

استعان القوم يأمر هذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذى أحيته العصبية الجاهلية، وهذه العصبيات عند العرب لا يمكن إخمادها إلا من طريق الدين. وكان تأثيـره قد ضـعف إذ ذاك. على أن الأمراء كـانوا يزيدون من سـورته حدة كـأنهم رأوا أن

سلطانهم لا يتم إلا إذا اجتمعت الأمة وقد أثبت التاريخ أن جميع الأغبياء من الملوك والأمراء متى رأوا مصلحتهم فى إيقاع الخلاف والنفرة بني أممهم وعملوا بذلك يزول بسرعة ملكهم.

استعمل فى الوصول إلى إحياء الدولة العباسية عسف شديد جداً، فقد كان من الوصايا التى ألقيت إلى أبى مسلم: (واقتل من شككت فيه) ولا يخفى أن حزم أبى مسلم كان يسوقه إلى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة فى قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل إلى غرضه. وسنبين أن هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبى مسلم أيضاً. وقد أحصى من قتله أبو مسلم صبراً فكان ستمائة ألف.

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب فى جاهليتهم وفى بدء إسلامهم وفى فتوحهم، فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ووصايا أمرائهم فى ذلك معروفة مشهورة، فلما دخل بينهم هؤلاء الأغنام سهلوا طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته واستحقوا بذلك ما حلاهم به محمد بن على بن طباطبا فى كتابه المعروف بالفخرى فى الآداب السلطانية قال: اعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة.

وصف المملكة الإسلامية حين استيلاء بنى العباس:

كانت المملكة الإسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر إلى السوس الأقصى على شاطئ بحر الظلمات وطولها على ما ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى المعروف بالبشارى فى كتابه الموسوم «بأحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» (٢٦٠٠ فرسخ) وتمتد عرضاً من شاطئ بح قزوين إلى أواخر بلاد النوبة وهى منقسمة إلى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات: وها نحن أولاء نذكر هذه الأقسام وما فيها من الولايات:

١ ـ جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة:

الأولى: الحجاز وقصبته مكة ومن مدنه، طيبة وينبع والجار وجدة والطائف وغيرها.

الثانية: اليمن وما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة وقصبته زبيد وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبته صنعاء.

الثالثة: عمان وقصبتها صحار على شاطئ بحر الهند.

الرابعة: هجر وقصبته الأحساء.

ويتبع اليمن من النواحي: الأحقاف وبها من المدن حضرموت. ومهرة وبها من المدن الشحر. ويتبع هجر اليمامة وقصبتها حجر. ويتبع الحجاز وادى القرى وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت الله الحرام والكعبة المقدسة التى جعلها الله قياماً للناس وهى قبلة المسلمين كافة فى صلاتهم - وبها طيبة وهى مهاجر رسول الله ﷺ ومبعث النور الإسلامى.

أمة هذا القسم عربية محضة تتكلم اللسان العربى إلا بصحار فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن لغتهم لغة عربية، ومذاهبهم السياسية التشيع ببلاد اليمن والخوارج بعمان وهجر والسنة فيما عداهما. وبشمال هذا القسم بادية العرب وهى بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفيفة الطرق طيبة الهواء ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق ولا مدينة إلا تيماء وفيها اثنا عشر طريقاً توصل إلى مكة منها تسع طولاً يؤدين إلى مكة وثلاث عرضاً يؤدين إلى الشام وبها طريق آخر لوادى القرى يؤدى إليها من البصرة ثم إلى مصر وهذه الطرق هى:

١ - طريق مصر.

٢ - طريق الرمة.

٣ - طريق الشراة.

٤ - طريق تبوك.

٥ - طريق وبير.

٦ - طريق بطن السر.

٧ - طريق الرحبة.

٨ - طريق هيت.

٩ - طريق الكوفة.

١٠ - طريق القادسية.

١١ - طريق واسط.

١٢ ـ طريق وادى القرى.

١٣ ـ طريق البصرة.

وقد أجاد وصف هذه الطرق البشارى فى كتابه «أحسن التقاسيم» (ص ٢٤٩) وما بعدها فراجعه.

٢ـ إقليم العراق وبه ست كور:

الأولى: الكوفة وقصبتها الكوفة وهى من المدن الإسلامية وبها من المدن: القادسية وعين التمر.

الثانية: البصرة وقصبتها البصرة، وهى من المدن الإسلامية، وبها من المدن: الأبلة وعبادان.

الثالثة: واسط وقصبتها واسط، وهى من المدن الإسلامية، وبها من المدن: فم الصلح.

الرابعة: المدائن وقصبتها المدائن، وهى مدينة كسروية، وبها النهروان والدسكرة وجلولاء.

الخامسة: حلوان، وقصبتها حلوان وبها من المدن خانقين والسيروان.

السادسة: سامراء، وقصبتها سامراء وبها من المدن الكرخ وكعبرا والأنبار وهيت وتكريت.

وهذا الإقليم كان يسمى فى القديم إقليم بابل، وهكذا كان اسمه فى التقويم الأول عهد العباسيين، ولقد كان زهرة ملك العباسيين وأجمل بلدان الدنيا وأثرها وروافده الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا.

وأمة هذا الإقليم نبطية دخل عليها العرب فى بلادها فزاحموها وصارت كأنها لهم، ولذلك صارت لغة هذا الإقليم عربية وأصح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية وبعدهم عن النبط. وأما البطائح فنبط والذين نزلوا بهذا الإقليم من العرب أكثر من الذين نزلوا منهم بأى إقليم آخر ما عدا الشام والجزيرة وقد كانوا بهذه الأقاليم الثلاثة قبل الإسلام، وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق والغساسنة بالشام إلا أنهم لم يكونوا مستقلين بالملك بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم. فلما جاء الإسلام اتسق لهم الملك بالإقليمين وكان الشام مهد الدولة الأموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية.

ومساحة العراق طولاً من البحر إلى السن (١٢٥فرسخاً) وعرضه من العذيب إلى عقبة حلوان (٨٠فرسخاً) فإذا كسرته كان (١٠٠٠٠فرسخ).

٣ـ إقليم الجزيرة:

جزيرة أقور أو أثور أو آشور، وهى ما بين دجلة والفرات وبها ثلاث كور:

الأولى: ديار ربيعة وقصبتها الموصل، ومن مدنها: الحديثة وسنجار ونصيبين ودارا ورأس العين وثمانين وبها ناحية جزيرة ابن عمر.

الثانية: ديار مضر وقصبتها الرقة، وبها من المدن: باجروان وحصن مسلمة وحران والرها.

الثالثة: ديار بكر وقصبتها آمد، وبها من المدن: ميافارقين وحصن كيفا.

وقد نزل العرب قبل الإسلام بهذا الإقليم وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سميت كوره بأسمائهم، ولذلك يعتبر إقليماً عربياً محضاً، لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم. وينتهى هذا الإقليم إلى حدود الروم وأرمينية.

٤ ـ إقليم الشام وبه ست كور:

الأولى: قنسرين وقصبتها حلب ومن مدنها أنطاكية وبالس وسميساط ومنبج وقنسرين ومرعش وإسكندرونة ومعرة النعمان.

الثانية: حمص، وقصبتها حمص ومن مدنها سلمية وتدمر واللاذقية والطرسوس.

الثالثة: دمشق، وقصبتها دمشق ومن مدنها بانياس وصيدا وبيروت وطرابلس.

الرابعة: الأردن وقصبتها طبرية، ومن مدنها صور وعكا وبيسان وأذرعات.

الخامسة: فلسطين وقصبتها الرملة، وبها بيت المقدس وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية وأريحا وعمان.

السادسة: الشراة وقصبتها صفد ومن مدنها مآب وعمان وتبوك وأذرح. وهذا الإقليم دخله العرب قبل الإسلام وملكوا به وزاحموا من كان به من الأمم القديمة.

ولما جاء الإسلام كان مهداً عظيماً من مهاد الحضارة العربية الإسلامية ولغة أهله عربية.

وحدود هذا الإقليم من الشمال بلاد الروم وكانت المدن التى على حدوده وحدود الجزيرة

يغزى لها الثغور، وعندها يكون الجهاد لرد غارة الروم وحفظ البلاد الإسلامية وفتح ما يمكن فتحه من البلدان.

وبهذا الإقليم بيت المقدس وهو ثالث المساجد المقدسة بناه سليمان بن داود عليهما السلام حينما كان ملكاً على بنى إسرائيل، واحتفل فى بنائه كثيراً ويعظمه جميع الأديان من موسوى وعيسوى وإسلامى.

٥ ـ إقليم مصر وبه سبع كور على حسب التقويم القديم:

الأولى: الجفار وقصبتها الفرما، وبها من المدن البقارة الواردة والعريش.

الثانية: الحوف وقصبتها بلبيس، وبها من المدن مشتول وفاقوس وغيرهما.

الثالثة: الريف وقصبتها العباسية، وبها من المدن دمنهور وسنهور وبنها العسل وشطنوف ومليج والمحلة الكبيرة ودقهلة.

الرابعة: اسكندرية وقصبتها اسكندرية، وبها من المدن رشيد ومريوط والبرلس وذات الخمام.

الخامسة: مقدونيا وقصبتها الفسطاط، ومن مدنها العزيزية والجيزة وعين شمس.

السادسة: الصعيد وقصبتها أسوان، وبه من المدن قوص وإخميم والبلينا والفيوم وغيرها.

السابعة: الواحات.

وأمة هذا الإقليم كانت فى القديم مصرية قبطية ساكنها كثير من الأمم التى ملكتها كاليونان والرومان وغيرهم، وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم فيها. ولما جاء الإسلام جاءها كثير من العرب الفاتحين فأقاموا فى مدنها الكبرى ثم جاءت قبائل كثيرة من قيس فى عهد الدولة الأموية وأقامت بالحوف (الشرقية) ثم اختلطت هذه الأمة الفاتحة بالمصريين تمام الاختلاط فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان العربى والدين الإسلامى وذلك بعد تملك الدولة العباسية.

أما أول عهدها فكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطاً لا يزالون على دينهم.

٦ ـ إقليم المغرب وهو ثمانى كور:

الأولى: برقة وقصبتها برقة، وبها من المدن رمادة وطرابلس.

الثانية: إفريقية وقصبتها القيروان، وبها من المدن أسفاقس وسوسة وتونس وبونة وجزيرة بنى زغنايه ومفستير.

الثالثة: تاهرت، وقصبتها تاهرت وبها من المدن مطماطة ووهران وغيرهما.

الرابعة: سجلماسة، وقصبتها سجلماسة وبها من المدن درعة وأمصلى وتازروت.

الخامسة: فاس وقصبتها فاس وتسمى هذه الكورة السوس الأدنى. وأما فاس فمحدثة بعد عهد العباسيين. ومن مدنها البصرة وورغة وصنهاجة وهوارة وسلا.

السادسة: السوس الأقصى وقصبتها طرفانة ومن مدنها إغمات وماسة وغيرهما.

السابعة: الأندلس وقصبتها قرطبة وكانت لعهد بنى أمية تتبع أمير أفريقية وعليها وال من قبله. وهذا الإقليم كان يسكنه قبل الإسلام البربر وساكنهم فيه كثير من الرومان والويزيغوط الذين ملكوا المغرب قبل الإسلام. فلما جاء الإسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر. إلا أنهم لم يكثروهم لقلتهم ولم يكثر العنصر العربى بها إلا بعد ذلك فى منتصف القرن الخامس. فأمة هذا الإقليم الغالبة عليه لهذا العهد بربرية واللسان الغالب هو اللسان البربرى.

٧ ـ إقليم المشرق:

وهو إقليم ذو جانبين: الأول فى الشرق وهو ما كان شرقى جيحون أو أموداريا، ويسمى بما وراء النهر أو هيطل، والثانى فى الغرب وهو ما كان غربى جيحون ويسمى خراسان.

١ـ ما وراء النهر قال البشارى: هذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها خيراً وفقها وعمارة ورغبة فى العلم واستقامة فى الدين وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدروا وأرغب فى الجماعات مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم.

(أ) وبهذا القسم ست كور:

الأولى: فرغانة وقصبتها أخسيكت، ومن مدنها: نصراباذ وأوزكند ومرغينان وغيرها.

الثانية: أسبيجاب وقصبتها أسبيجاب، ومن مدنها فاراب وترار وطراز وبلاسكون وغيرها.

الثالثة: الشاش وقصبتها بنكث، ومن مدنها بنكث وغيرها.

الرابعة: أشر وسنة وقصبتها بنجكث.

الخامسة: الصغد وقصبتها سمرقند وهى مصر الإقليم.

السادسة: بخارى وقصبتها بخارى، ومن مدنها بيكند.

وهذا الإقليم يمر به نهر جيحون العظيم ويتشعب منه أنهار كثيرة، ويقلب فيه أنهار ستة وعليه كور ومدن. فالكور هى الختل وقصبتها هلبك. ثم قواديان ومدينتها نير. ثم خوارزم وهى على حافتى جيحون، قصبتها العظمى شرقى النهر وهى كاث، ولها قصبة أخرى غربية وهى الجرجانية وعلى النهر من المدن ترمذ وكالف ونويدة زم وفربر وآمل.

(ب) خراسان وبها تسع كور:

الأولى: بلخ قصبتها بلخ، وبها ناحية صخارستان، ومن مدنها ولوالج والطالقان.

الثانية: غزنين وقصبتها غزنين، وبها من المدن كابل.

الثالثة: بست وقصبتها بست. وبعض الناس يجمع غزنين إلى بست وجعلهما كورة واحدة يسميها كابلستان.

الرابعة: سجستان وقصبتها زرتج.

الخامسة: هراة وقصبتها هراة ومن مدنها باذغيس.

السادسة: جوزجانان وقصبتها اليهودية.

السابعة: مرو الشاهجان وهى القصبة وبها ناحية مرو الروز.

الثامنة: نيسابور والقصبة إيرانشهر، وبها من المدن نبهق وطوس ونسا وأبيورد.

التاسعة: قهستان وقصبتها قاين.

وهذا الإقليم من أعمر الإقاليم الإسلامية وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها ومعظمهم كان شيعة لهم. أما أهل ما وراء النهر فجلهم من التركمان ولم يكن الإسلام قد شملهم لأول عهد العاسيين. وقد دخل العرب هذا الإقليم ولم يتجاوزوا النهر إلا فى عهد الدولة الأموية وقد كثرت فتوحهم فيما وراء النهر فى عهد قتيبة بن مسلم الباهلى العامل من قبل الحجاج. ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الإقليم وما يأتى بعد من الأقاليم الفارسية، ولكن الدين الإسلامى شملهم فصار منهم أمة إسلامية

قادرة عمها العلم ولا سيما الدينى ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء فى العلوم كافة.

قال البشارى فى أحسن التقاسيم: وألسنتهم مختلفة. أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء وفيه رخاوة ولجاج، وأهل طوس ونسا أحسن لساناً، وفى كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم يجهرون فيه. ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين غير أن فيه تحاملاً وطولاً ومداً فى أواخر الكلم. ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح. ولسان هراة وحش تراهم ينقمون ويتكلفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثاً بالقوة إلى آخر ما قال.

٨ ـ إقليم الديلم به خمس كور:

الأولى: قومس وقصبتها الدامغان، ومن مدنها سمنان وبسطام.

الثانية: جرجان وقصبتها شهرستان، ومن مدنها استراباذ وآبسكون.

الثالثة: طبريستان وقصبتها آمل، ومن مدنها سالوس وسارية.

الرابعة: الديلمان وقصبتها بروان.

الخامسة: الخزر وقصبتها إتل، ومن مدنها بلغار وسمدر وبهذه الكورة نهر إتل وهذا الإقليم لم يفش الإسلام به إلا فى عهد الدولة العباسية ولم يتأثر كثيراً باللغة العربية.

٩ـ إقليم الرحاب وهو ثلاث كور:

الأولى: أران وقصبتها برذعة، ومن مدنها تفليس وشروان وباب الأبواب وملازكرد.

الثانية: أرمينية وقصبتها أردبيل، ومن مدنها مدليس وخلاط وخوى وسلماس وأرمية ومراغة ومرتد وقاليقلا.

الثالثة: أذربيجان وقصبتها أردبيل، ومن مدنها تبريز.

وهذا الإقليم به كثير من الأجناس والألسنة فيه الكرد والأرمن والفرس وغيرهم ويخترقه نهر الكر وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس وبه نهر الرس ونهر الملك ولم يفش الإسلام بهذه البلاد إلا فى عهد الدولة العباسية واللغة العربية به قليلة.

١٠ـ إقليم الجبال وبه ثلاث كور:

الأولى: الرى وقصبتها الرى وبها من المدن آوة وساوة وقزوين وأبهر.

الثانية: همذان وهى القصبة ومصر الإقليم.

الثالثة: أصفهان وقصبتها اليهودية.

١١- إقليم خوزستان ويعرف بالأهواز وبه سبع كور وهى:

الأولى: السوس وهى تتاخم العراق والجبال.

الثانية: جنديسابور وهى القصبة وكانت مصر الإقليم.

الثالثة: تستر وهى القصبة وليس بالإقليم أجل منها.

الرابعة: عسكر مكرم وهى القصبة وبها من المدن جوبك وزيدان وسوق الثلاثاء.

الخامسة: الأهواز وبها من المدن تيرى ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى.

السادسة: الدورق كورة تتاخم العراق من مدنها آزر وأجم وغيرهما. قصبتها الدورق.

السابعة: رامهرمز كورة تتاخم فارس وهى القصبة.

ولهذا الإقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزى.

١٢- إقليم فارس وبه ست كور:

الأولى: أرجان وهى القصبة.

الثانية: أردشير خرة وقصبتها سيراف، وهى ممتدة على البحر.

الثالثة: دارايجرد وهى القصبة، وكانت فى القديم مصر الإقليم.

الرابعة: شيراز قصبتها على اسمها، وهى مصر الإقليم وبها من المدن البيضاء وفسا.

الخامسة: سابور وقصبتها شهرستان، ومن مدنها كازرون والنوبندجان وتوز.

السادسة: اصطخر وهى أوسع الكور، وقصبتها على اسمها.

وبهذا الإقليم عدد عظيم من الأكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها.

١٣- إقليم كرمان وبه خمس كور:

الأولى: بردسير وقصبتها على اسمها، ومن مدنها ماهان وكوغون وزرند.

الثانية: نرماسير وهى القصبة.

الثالثة: السيرجان وقصبتها على اسمها. وهى مصر الإقليم.

الرابعة: بم وهى تتاخم فارس.

الخامسة: جيرفت وهى على البحر.

١٤ـ إقليم السند وبه خمس كور:

الأولى: مكران وقصبتها بنجبور.

الثانية: طوران وقصبتها قصدار.

الثالثة: السند وقصبتها المنصورة ومن مدنها ديبل.

الرابعة: ويهند والقصبة باسمها.

الخامسة: قنوج وهى القصبة.

وبهذا الإقليم نهر مهران وهو يشبه النيل فى الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح. فهذه أربعة عشر إقليماً منها ستة عربية وثمانية أعجمية والمراد بكونها عربية، تغلب اللسان العربى على أهلها وإلا فأصل إقليم العرب هو جزيرتهم فحسب.

وتشتمل هذه الأقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجبى منه جميعها الخراج إلى حاضرة الدولة حيث يحمل منها ما بقى عن مصروفها وذلك شئ عظيم.

هذا هو الملك الطويل العريض الذى ورثه العباسيون بهمة شيعتهم من أهل خراسان. وليس عدد ولاة هذه الدولة بعدد الأقاليم التى بيناها بل كان بعض الأقاليم فيه الواليان والثلاثة وبعضها قد يضم إلى إقليم آخر حسب الأحوال.

ففى بعض أيام بنى أمية قد جمع العراقان وفارس كلها لوال واحد كما كان الحجاج بن يوسف. فقد كان أمير المشرق كله من نهر الفرات إلى نهر جيحون، وله ولاة من قبله على الأقاليم أو الكور التى تحت يده وفى بعض الأحيان كانت تضم أفريقية كلها إلى والى مصر ويرسل من قبله والياً على أفريقية.

والجزيرة العربية لم تجتمع كلها لوال واحد بل كان للحجاز وال ولليمن وال. أما اليمامة وعمان فربما أضيفتا إلى والى العراق، كما كان الحجاج بن يوسف. ونحن الآن شارعون فى تفصيل أحوال بنى العباس وتبيين ما فعلوه فى هذا الميراث مقارنين ذلك عند اللزوم بما كان عليه الحال فى الدولة الأموية.

فصل فى ولاية العهد والبيعة:

الأصل فى انتخاب الخليفة رضا الأمة فمن ذلك يستمد قوته. هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختياراً منهم. لا استناداً إلى نص أو أمر من صاحب الشريعة ﷺ. وبعد أن انتخبوه بايعوه ومعنى ذلك عاهدوه على السمع والطاعة فيما فيه رضا الله سبحانه كما أنه عاهدهم على العمل فيهم بأحكام الدين من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. وهذا التعاهد المتبادل بين الخليفة والأمة هو معنى البيع تشبيهاً له بفعل البائع والمشترى فإنهما كانا يتصافحان بالأيدى عند إجراء عقد البيع.

فمن هذه البيعة تكون قوة الخليفة الحقيقية وكانوا يرون الوفاء بها من ألزم ما يوجبه الدين وتحتمه الشريعة.

وقد سن أبو بكر رضى الله عنه طريقة أخرى فى انتخاب الخليفة، وهى أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة، وقد وافق الجمهور الإسلامى على هذه الطريقة ورأى أن هذا مما تجب الطاعة فيه وذلك العمل هو ولاية العهد.

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الأدنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط. وقد بينا فى تاريخ الدولة الأموية الأغلاط التى ارتكبها الأمويون فى ولاية العهد وأنها كانت من الأسباب التى قضت عليهم.

اتبع بنو العباس فى ولاية العهد الأسلوب الذى سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والإخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر الخلف بما أصاب السلف كما يتضح مما يأتى:

ولى السفاح عهده رجلين يلى أحدهما الآخر أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على. فلما تولى أبو جعفر وشب ابنه محمد المهدى عز عليه أن يلى عنه ابن أخيه ويحرم ابنه فساوم عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون رتبته تلو رتبة المهدى فأظهر عيسى إباء فساموه خطة لا يرضى بها إلا الذليل حتى أظهرت ذات نفسه فى شعر قاله وهو:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما ... إما صغار وإما فتنة عمم

وقد هممت مراراً أن أساجلهم ... كأس المنية لولا الله والرحم

ويقال إن أبا جعفر سقاه شراباً يتلفه فكاد يموت منه، ولكنه أبل من علته، فقال فى ذلك شعراء الدولة:

أفلت من شربة الطبيب كما	أفلت ظبى الصريم من فتره
من قانص ينفذ الفريص إذا	ركب سهم الحتوف فى وتره
دفع عنك المليك صولة ليـ	ـث يريد الأسد فى ذرى خمره
حتى أتانا وفيه داخلة	تعرف فى سمعه وفى بصره
أزعر قد طار عن مفارقه	وحفّ أثيث النبات من شعره

ثم أجاب عيسى إلى ما طلب منه هذا مع ما كان من حسن أثر عيسى بن موسى فى الدولة واستهدافه للنوائب وقوده الكتائب لشد دولة المنصور.

لما ولى المهدى وشب ابناه موسى وهارون أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى بن موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولى المهدى العهد ولده، فكان ما أراد بعد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الأذى ومع ما رآه المهدى من نتائج تولية اثنين للعهد لم يتعظ بل ولى ولديه موسى الهادى فهارون الرشيد.

جاء الهادى فحاول أن يخلع أخاه هارون مع أن ابنه لم يبلغ الحلم فلم يفلح لأن الدفاع عن الرشيد كان قوياً وقربت منية الهادى، فأخرت النتائج السيئة ويقال إنه مات مسموماً.

ولى الرشيد ففكر فى ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون فعدل عنه إلى أخيه محمد الأمين، لأنه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور والمأمون أمه أمة جلبية من بلاد فارس، وكان ذلك العقد (سنة ١٧٣) وسن الأمين لا تتجاوز ثلاث سنوات وبعد عشر سنين رأى أن يضم المأمون ليكون ولى العهد بعد الأمين وذلك برأى جعفر بن يحيى البرمكى وسعيه فعقد له (سنة ١٨٣). ثم طلب عبد الملك بن صالح بن علىّ من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد ففعل وسماه المؤتمن وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والرى إلى همذان وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم، فألقى بذلك بأسهم بينهم ووضع بيده بذور الفتنة والشر حتى قال بعض شعراء العصر:

أقول لغمة فى النفس منى	ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للهول عدته بحزم	ستلقى ما سيمنعك الرقادا

فـإنك إن بقيت رأيت أمـراً ... يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى ... لقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم ... لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ... وأورث شمل ألفتهم بدادا
وألقح بينهم حرباً عواناً ... وسلس لا جتنابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان ... وألزمها التضعضع والفسادا
ستجرى من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبداً عليهم ... أغياً كان ذلك أم رشادا

وحج الرشيد بعقب ذلك وهناك كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم وجعل الكتابين فى البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد وإشهاده عليها بها الله وملائكته ومن كان فى الكعبة من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب فى البيت الحرام وتقدم إلى الحجبة فى حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما وقرئ الكتابان فى داخل البيت الحرام بمحضر من الأخوين وشهد عليهما الحاضرون.

وقد أكد الأمر فى العهدين تأكيداً بلغ الغاية من التشديد، ولكن طبيعة الملك غلابة. ما عتم الأمين أن استخلف حتى حاك فى صدره ما حاك فى صدر أسلافه وهو تقديم ابنه فى ولاية العهد على أخيه وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقواده بخراسان فأباه طبعاً لأن من ورائه قوة تدفع عنه، وكان من جراء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفظعة التى كانت بين جند الأمين والمأمون وتعطلت المسالك والدروب وحصرت بغداد حصراً شنيعاً وانتهى الأمر بخلع الأمين ثم قتله. وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة فى أكثر البلدان الإسلامية ولو كانت لخصومهم من آل علىّ قوة منظمة لنجحوا وثلوا عرش ملك العباسيين.

لم يعهـد المأمون إلا لأخيه المعـتصم وكذلك المعـتصم لم يعهـد إلا لابنه الواثق ومات الواثق عن غير عهد فاختير للخلافة أخوه المتوكل اختاره لها كبار الدولة بعد موت الواثق.

جاء المتـوكل وغلط غلطة جده الرشيـد فبايع بولاية العـهد لأولاده الثلاثة وهم محـمد المنتصر بالله ومحمد المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله، وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهود والآخر أبيض وهو لواء العمل، فأقطع أكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله والعواصم والثغور جميعها الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والأهواز والسند ومكران. وأقطع ثانيـهما خراسـان وما يضاف إليـها وصبـرستان والرى وأرمـينية وأذربيجان وكور فارس، وأقطع ثالثـهم جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين. حذا هذا الرجل حذو جده مع ما رأى من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق ثم زاد الطين بلة فعزم فى أخريات أيامه أن يخلع المنتصر أكبر الإخوة من ولاية العهـد فتمالأ المنتصر وجماعة من الأتراك على قتله فقتلوه، وتولى المنتصر وبايعه أخواه ولم يلبث أن خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته. فأما المؤيد فقابل ذلك بالسمع والطاعـة، وأما المعتز فأبى وقال: إن أردتم القتل فشأنكم. ثم أجاب بعـد تهديد ووعيد وأشهد كلا الأخوين على نفـسه بالخلع القضاة وبنى هاشم والقواد ووجوه الناس ؛ هذا مع أن المنتصر لم يكن له ابن كبير يصح أن يلى العهد. وأعقب ذلك موت المنتصر فلم يتمتع بما استعجل به فمات من غير عهد.

اختير للخلافة بعده أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم أخرجها الموالى عن أولاد المتوكل خوفاً أن يفتكوا بهم لقتلهم أباهم.

اختـل نظام الخلافـة ببغـداد فى ذلك الوقت إذ صار كـبار الأتراك الذين هم من بقـايا المعتصم ومن مـعهم من رجال الدولة يولون من شاءوا وبعد زمن يخلعـونه ثم يولون غيره حتى أتى المعتمد بالله وهو الخامس عشر منهم فعـهد إلى ابن أخيه أحمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل وعهد المعتضـد إلى ابنه المكتفى ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل فى الخلفاء حتى جاءت دولة بنى بويه. وفى عهدهم لم يكن للخلفاء إلا الاسم، والتولية والعزل لبنى بويه وجمـيع الخلفاء الذين ولوا فى عهدهم خلعـوا إلا أحمد القادر بالله فـإنه طال حكمه وعهد من بعده إلى ابنه القائم.

بعد ذلك تسلسلت الخـلافة من الخليفة إلى ابنه حـتى انتهت الدولة بظهور التـتار حيث أغار هولاكو خـان حفيد جنكيـزخان موحد التتـر وقتل المستعـصم (سنة ٦٥٦). وخلاصة القول أن ولاية العـهد فى النصف الأول من خـلافة بنى العـباس كانت جـارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد، فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت

أحد منهم لوضع نظام، لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان. أما البيعة فكانت فى الصدر الأول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ثم زيدت عليه أيمان فى أواخر الدولة الأموية وزادت الأيمان كثيراً فى أوائل عهد الدولة العباسية، ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين واللذين كتبهما الأمين والمأمون وحفظا فى البيت الحرام. وقد أثارت تلك الأيمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الأهمية.

أولاهما: طلاق المكره لأنه لا يخفى أن من ضمن تلك الأيمان يمين الطلاق. من رأى فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سبباً لإهانات شديدة أصابته فى عهد المنصور ثانى خلفاء العباسيين، وقد تغلب بسبب ذلك رأى فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع.

الثانية: إضافة الطلاق إلى الزوجة التى لم تكن وقت اليمين، فإن البيعة لم تكن لتكتفى بطلاق الزوجات الموجودات بل تعدت ذلك إلى من يتزوجهن الحالف إلى خمسين سنة أو ثلاثين سنة وكذلك إضافة العتق إلى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة إلى أجل معين أو غير معين. قال فقهاء العراق: إن ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الحالف. وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعى محمد بن إدريس، وقد تغلب طبعاً رأى فقهاء العراق.

١
السفاح

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس. وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثى. ولد (سنة ١٠٤) بالحميمة وهى القرية التى كان أبوه وجده نازلين بها، وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لابنه إبراهيم ولما أحس إبراهيم باقتراب منيته عهد لأخيه أبى العباس وأمره أن يسير بأعمامه وأهل بيته إلى الكوفة، فسار إليها وبويع بالخلافة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول (سنة ١٣٢) (٣٠ أكتوبر سنة ٧٤٩) وكان مروان لا يزال حياً، ثم قتل مروان لثلاث بقين من ذى الحجة (سنة ١٣٢) (٥اغسطس ٧٥٠). ومن هذا اليوم يبتدئ التاريخ خلافة أبى العباس ولم يزل خليفة إلى أن توفى بمدينة الأنبار يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة (سنة ١٣٦)(٩يونية سنة ٧٥٤) فتكون خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر من لدن بويع إلى أن مات وأربع سنوات وأربعة عشر يوماً من لدن قُتِل مروان.

وكان يعاصره فى مملكة الروم الشرقية بالقسطنطينية قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) وكان يملك فرنسا فى عهده بابن بيراف من العائلة الثانية الكارولونجيانية، ابتدأ ملك أبى العباس بالكوفة ومنها انتقل إلى الحيرة ثم إلى الأنبار ولم يكن بنو العباس يشقون بأهل الكوفة، لأنهم كانوا يتشيعون لآل أبى طالب.

الأحوال الداخلية:

لم تكن هزيمة مروان وقتله منتهى متاعب العباسيين فإنه كان لا يزال فى الأمة العربية قواد ضلعهم مع بنى أمية، ولا يزال عندهم شئ من القوة فكانوا يثورون إما خوفاً على أنفسهم من بنى العباس الذين أظهروا قسوة شديدة فى معاملة مغلوبيهم وإما طمعاً فى إعادة تلك الدولة العربية التى كان لهم منها نصيب وافر. فقضى أبو العباس أكثر حياته فى إخماد تلك الثورات التى كانت كثيرة ولا سيما بالشام والجزيرة والتغلب على يزيد بن هبيرة الذى

كان أمير العراق لمروان بن محمد وتحصن بمدينة واسط بعد غلبة العباسيين على الكوفة وما معها.

وقد كانت حياته مفعمة بحوادث القسوة التى لم يشهد التاريخ مثلها مع بقايا بنى أمية ومع غيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم الأثر المحمود فى إحيائها.

من الناس من إذا ظفر بخصومه قابلهم بالعفو عن ماضيهم واستصلح بذلك قلوبهم، ولعمرى إن ذلك لمن عزم الأمور، وليس يكون إلا ممن استشعر من نفسه تمام القدرة ورأى أن سلطانه إنما يتم إذا ائتلفت القلوب المتنافرة. فأما من خاف عود القوة إلى عدوه المغلوب، أو كان يرى سلطانه لا يكون إلا على فرقة رعيته فإنه يقسو على من ظفر به قسوة تختلف بحسب الأحوال والاستعداد.

انظروا إلى ما فعله رسول الله ﷺ حينما ظفر بخصومه أهل مكة وهم الذين تحالفوا على قتله وأخرجوه من بلده ثم جردوا السيوف لحربه وهيجوا الأحزاب من قبائل العرب ليكونوا عليه فى دار هجرته إنهم فعلوا ذلك. لكنه لما ظفر بهم فى السنة الثامنة من الهجرة قال لهم: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيراً أخٌ كريم وابن أخٍ كريم ! فقال لهم كما قال يوسف الصديق: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين». أما بنو العباس فقد قسوا فى معاملة بنى أمية قسوة ربما لم نجد لها مثلاً فى الدول التى قامت على أثر دولة أخرى. فعل ذلك السفاح بالعراق وعبد الله بن على بالشام ونهر أبى فطرس وسليمان بن على بالبصرة وداود بن على بالحجاز.

فأما السفاح فقد روى أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه الأغانى بسنده قال: كان أبو العباس جالساً فى مجلسه على سريره وبنو هاشم دونه على الكراسى وبنو أمية على الوسائد قد ثنيت لهم، وكانوا فى أيام دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسى فدخل الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين بالباب رجل حجازى أسود راكب على نجيب متلثم يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف ألا يحسر اللثام عن وجهه حتى يراك، قال: هذا مولاى سديف يدخل فدخل، فلما نظر إلى أبى العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه وأنشأ يقول:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بنى العباس

بالصدور المقدمين قديمًا ... والرؤوس القماقم الرؤاس

يا أمير المطهرين من الذم ويا ... رأس منتهى كل رأس

أنت مهدى هاشم وهداها — كم أناس رجوك بعد إياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً — واقطعن كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله — بدار الهوان والأتعاس
خوفهم أظهر التودد منهم — وبهم منكم كحز المواسى
أقصهم أيها الخليفة واحسم — عنك بالسيف شأفة الأرجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيداً — وقتيلاً بجانب المهراس
والإمام الذى بحران أمسى — رهن قبر ذى غربة وتناسى

فتغير لون أبى العباس وأصابه زمع ورعدة فالتفت بعض ولد سليمان بن عبد الملك إلى رجل منهم فقال: قتلنا والله العبد، ثم أقبل أبو العباس عليهم وقال: يا بنى الفواعل أرى قتلاكم من أهلى قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون بالدنيا خذوهم فأخذتهم الخراسانية بالكافر كوبات فأهمدوا، إلا ما كان من أمر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فإنه استجار بداود بن على فأجاره واستوهبه من السفاح.

وهذا عمل شنيع جداً ولولا تضافر الروايات بالحادثة لما تحملنا عناء تسطيرها، وقد بلغ الضعف الإنسانى حده بالرجل ولا يستغرب هذا الفعل من جماعة كان أصولهم قتل أوليائهم لأقل ريبة أو شبهة. وهؤلاء أعداؤهم بالأمس يخافون أن يكون لهم أنصار فيعيدون الحرب جذعة.

ودخل سديف هذا على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك فأنشدة:

لا يغرنك ما ترى من أناس — إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى — لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح بسليمان فقتل. ومما قاله سديف هذا يهيج السفاح:

كيف بالعفو عنهم وقديمًا — قتلوهم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحيى بن زيد — يا لها من مصيبة وترات
والإمام الذى أصيب بحرا — ن إمام الهدى ورأس الثقات
قتلوا آل أحمد لا عفا الذنب — لمروان غافر السيئات

وأما عبد الله بن على فكان للأمويين منه يوم عصيب بنهر أبى فطرس بالشام تتبع من كان بالشام من أولاد الخلفاء وغيرهم، فأخذوهم ولم يفلت منهم أحد إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس فقتلهم، ولما فرغ من قتلهم قال:

بنى أمية قد أفنيت جمعكم ... فكيف لى منكم بالأول الماضى

يطيب النفس أن النار تجمعكم ... عوضتم من لظاها شر معتاض

منيتم لا أقال الله عثرتكم ... بليث غاب إلى الأعداء نهاض

إن كان غيظى لفوت منكم فلقد ... منيت منكم بما ربى به راضى

ولم يكفه ذلك بل عمد إلى قبور بنى أمية فنبشها حتى يمحو آثارهم، فنبش قبر معاوية بن أبى سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء، ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد. ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد فى القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً لم تبل منه إلا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه بالريح.

وأما سليمان بن علىّ فإنه قتل بالبصرة جماعة منهم أحضرهم وعليهم الثياب الموشية فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فقتلوا على الطريق.

وأما دواد بن علىّ فقتل منهم بمكة والمدينة عدداً وافراً، وكان قد حضر إلى مكة ومعه عدد من بنى هاشم وعدد من بنى أمية فأنشده إبراهيم بن هرمة قصيدة يقول فيها:

فلا عفا الله عن مروان مظلمة ... ولا أمية بئس المجلس البادى

كانوا كعاد فأمسى الله أهلكهم ... بمثل ما أهلك الغاوين من عاد

فلن يكذبنى من هاشم أحد ... فيما أقول ولو أكثرت تعدادى

فتشمر عن ساعده فى قتل الأمويين حتى لم يبق أحداً إرضاء لشهوة الانتقام التى تمكنت من قلوب بنى العباس ولم تخجلهم تلك الوحشية القاسية.

ومما قيل من الكلام الجيد فى رثاء هؤلاء التعساء ما قاله مولاهم عبد الله بن عمر تغبلى:

تقول أمامة لما رأت ... نشوزى عن المضجع الأنفس

وقلة نومى على مضجعى ... لدى هجعة الأعين النعس

أبى مـا عـراك؟ فـقلت الـهـمـو ... م عـــرون أباك فـــلا تـبلسى
لفـــقـــد الأحـــبـــة إذ نـالهـــا ... ســـهـــام من الحـــدث المبـئس
رمـــتـــهـــا المنون بـكل نـكل ... ولا طـائـشـــــات ولا نـكـس
بأســـهـــمـــهـــا المتلفـات النفـو ... س متى ما تـصب مهجة تخلس
فـصـــرعـــاهم فى نـواحى البـــلا ... د ملـقـى بـأرض ولـم يـرمـس
تـقـى أصــــــيـب وأثـوابه ... من الـعـيب والـعـــار لم تـدنس
وآخـــر قـــد دس فى حـــفـــرة ... وآخـــر قـــد طـار لم يحـــس
إذ عـن ذكـــــرهـم لـم ينـم ... أبـوك وأوحـش فـى المجـلـس
فـذلـك الذى غـالـنى فـاعـلمى ... ولا تسـألى بامـــرئ مـتـعـس
أذلـو قنـاتـى لمن رامـــهـــا ... وقـــد ألصـــقـوا الرغم بالمعطس

وكانت هذه المعاملة الشنيعة سبباً لهروب يـعسوبهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى المغرب وتأسيسه بها مملكة واسعة الأطراف أعاد فيها مجد بيته وكانت تناصى فى العلو والاحترام خلافة بنى العباس فى المشرق على صغر رقعتها.

لم يزل بنو العباس يسومون بقايا بنى أمية ســوء العذاب فاختفى بعضهم وهرب بعضهم وكان ممن اختفى عمرو بن معاوية بن عمـرو بن عتبة بن أبى سفيان، فلما رأى أنه لا يكون فى قبيلة ولا ناحـية إلا شهر أمـره بها اعتزم أن يفدى حـرمه بنفسه وصار إلـى سليمان بن على بالبـصرة فقـال له: أصلح الله الأميـر لفظتنى البلاد إليـك ودلنى فضلك عليك فـإما قبلتنى غانماً وإما رددتنى سالماً فقال: ومن أنت؟ ما أعرفك فانتسب له فقال سليمان: مرحباً بك اقعد نتكلم آمنا غانماً ما حاجتك؟ فـقال: إن الحرم اللواتى أنت أقرب الناس إليهن معنا وأولى الناس بهن بعدنا قـد خفن لخوفنا ومن خاف خـيف عليه، فدمعت عينـا سليمان ثم قال: يا ابن أخى يحقن الله دمك ويحفظك فى حرمك ويوفر عليك مالك والله لو أمكننى ذلك فى جميع أهلك لفعلت فكن متوارياً كظاهر وآمنا كخائف ولتأتنى رقاعك فكان عمرو يكتب إليه كما يكتب الرجل إلى أبيه وعمه. ثم كتب سليمان إلى السفاح: (يا أمير المؤمنين إنه قد وفـد وافد من بنى أميـة علينا وإنا إنما قتلناهم على عـقوقهم لا على أرحـامهم إننا يجمعنا وإياهم عبد مناف والرحم تبل ولا تقطع وترفع ولا توضع فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لى فليفعل وإن فعل فيجعل كـتاباً عاماً إلى البلدان نشكر الله تعالى على نعمه عندنا

وإحسانه إلينا) فأجابه إلى ما سأل، فكان هذا أول أمان بنى أمية بعد أن بدد شمل سرواتهم قتـلاً وتشريداً واطمأن من جهـتهم بال السفـاح، ولكن بعد أن فتح على نفـسه وعلى من يخلفه بعـده من آل بيته فتـحاً لا يمكنه رتقه، وهو وجود خـلافة أخرى إسلامـية بالجنوب الغربى من قارة أوروبا.

ولم تكن الشدة فى المـعاملة قاصـرة على أعدائهم بل نال أولياءهم مـنها شىء عظيم لا ننسى أن من أعظم الرجال أثراً فى قـيام هذه الدولة أبا سلمة حفص بن سليـمان الذى كان يقال له وزير آل محمد: لما تم الأمر لبنى العبـاس اتهموه بأنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل على بن أبى طالب وكانوا يريدون قـتله لكنهم أحبوا مشـاورة أبى مسلم فى ذلك، فبعث السـفاح أخاه أبا جعفر إلى خـراسان لمقابلة أبى مسلم واستشـارته فى ذلك فسار أبو جعفـر حتى جاء مرو، وهناك اخـبر أبا مسلم خبر أبى سلمـة فقال: أكفـيكموه ثم انتدب رجلاً وأمره أن ينطلق إلـى الكوفة فيقتل أبا سلمـة حيث لقيه فقـدم الرجل الكوفة وتربص لأبى سلمة حتى خرج من عند السفاح وقتلـه غيلة فى طريقه وأشاعوا أن الخوارج قتلوه ثم قتل بعد ذلك أبو مسلم جميع عماله بفارس هكذا ذهبت حياة هذا الرجل ذى الأثر الصالح فى دولتهم من غيـر تحقيق أمره ولا استـماع لحجته بل فـعلوا به فِعْلَ من لا نظام لهم ولا دولة.

وفى هذا الوقت اتهم أبو مسلم بتلك التهمـة رجلاً آخر لا يقل أثراً عن أبى سلمة وهو سليمان بن كثـير الذى قال فى حقه إبراهيم الإمام (ولا تخـالف هذا الشيخ ولا تعصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى) فأحضره وقال له: أتحفظ قول الإمام لى من اتهمته فاقتله؟ قال: نعم قال: فإنى قد اتهمتـك فقال: أنشدك الله قال: لا تناشدنى الله وأنت منطو على غش الإمام فأمر به فضرب عنقه. قتل الرجل بعد استقرار الأمر بمجرد تهمة لم تظهر للناس صحتها ولم تنفعه سابقته ولا حسن أثره.

وعلى الجملة فإن حيـاة أبى العباس انقضت كلها فى الخلاص من بـنى أمية والاطمئنان من جهة كل من يرتابون فى إخـلاصه فسفكت دماء كـثيرة وأحدثت قدوة سـيئة فى نكث العهود واغتيال المخالفين.

وكان أكبر الرجال فى عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة ثلاثة رجال:

١ - أبو مسلم الخراسانى بالمشرق.

٢ - أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق.

٣ ـ عبد الله بن علىّ بالشام ومصر، فهؤلاء الثلاثة كانوا أساطين دولته وعلى أيديهم كان كل ما يجرى فيها من خير وشر إلا أن هؤلاء الثلاثة لم يكن عندهم إخلاص بعضهم لبعض فإن أبا جعفر كان يحسد أبا مسلم على سلطانه النافذ وكلمته المطاعة حتى طلب من السفاح أن يغتاله وأكثر فى ذلك، وكان السفاح يوافقه لولا خوفه من الخراسانية أن يعيدوا الحرب جذعة. وعبد الله بن علىّ كان يطمع أن تكون الخلافة له بعد السفاح لما له من سابق الخدمة فى تأسيس الدولة وأنه الذى قام بهزيمة مروان وقطع دابر بنى أمية وكان يخاف أن يفوز بها أبو جعفر. فكانت هذه الأفكار سبباً فى حوادث جسام سيمر بكم ذكرها.

أراد أبو مسلم القدوم من مرو على السفاح فكتب إليه يستأذنه فى الحج وأذن له، ولما كان السفاح لا يميل إلى تولية أبى مسلم موسم الحج أرسل إلى أخيه أبى جعفر يأمره أن يستأذنه فى الحج ففعل وأذن له وبطبيعة الحال ولاه الموسم، ولم يكن لأبى مسلم أن يظهر اشمئزازه من تقدم أبى جعفر عليه وإن كان قد قال شيئاً من ذلك لبعض خاصته حيث قال: أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا.

ولما وصل أبو مسلم الأنبار قال له السفاح: لولا أن أبا جعفر أرسل إلىّ يستأذننى فى الحج هذا العام لوليتك الموسم. وقد حج فى هذا العام وهو (سنة ١٣٦) فحلان ومرا من طريق واحدة يقدم أحدهما الآخر، وكان أبو مسلم يظهر من قوته وكرمه فى الطريق ما يزيد فى حسد أبى جعفر له وكان ذلك من متممات عزمه على الفتك به.

وكان معظم الولاة للسفاح من أعمامه وبنى أعمامه. وكان فى عهده من الإصلاح الداخلى ضرب المنار والأميال من الكوفة إلى مكة وكانوا يمسحون الأرض بالذراع الهاشمية وعند تمام الميل يكتبون عليه كلمة واحد ثم اثنين وهكذا وقد جعلوا فى الطريق مناراً به يأمن السارون الضلال فى تلك الفيافى وهو عمل عظيم.

وكانت قاعدة الخلافة فى عهد السفاح الكوفة أولاً ثم انتقل منها إلى الحيرة ثم انتقل أخيراً إلى الأنبار ونقل إليها دواوينه وهى التى بات فيا.

ولاية العهد:

فى (سنة ١٣٦) عقد السفاح لأخيه أبى جعفر الخلافة من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ومن بعد أبى جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن على وكتب العهد بذلك وصيره فى ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى، وقد

ابتدأ السفاح بفعله هذا الغلطة الشنيعة التى سبق بها فى عهد بنى أمية وهى تولية اثنين العهد وكانت من أسباب ما أصاب بنى أمية من الخلاف والفرقة.

وفاة السفاح:

أصيب السفاح بالجدرى وهو بالأنبار وتوفى بها فى (١٣ ذى الحجة ١٣٦) ودفن بالأنبار فى قصره وبلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته.

٢
المنصـــور

هو أبو جعفـر عبد الله بن محـمد بن على، وأمه أم ولد اسمهـا سلامة ولد بالحمـيمة (سنة ١٠١) ولما انتقل أبـو العباس من الحـيمية إلى الكوفة كان فـيمن معـه. ولما أفضت الخلافة. إلى أبى العـباس كان عضده الأقـوى وساعده الأشد فى تدبيـر الخلافة وفى السنة التى توفى فيهـا أبو العباس عقد العهـد لأخيه أبى جعفر وكـان إذ ذاك أميراً على الحج ثم توفى السفاح وأبو جعفـر بالحجاز فأخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيـه عيسى بن موسى وكتب إليه يعلمه وفـاة السفاح والبيعة له فلقـيه الرسول بأحد المنازل عائداً بعد انـتهاء الحج. وقد تمت البيعة له فى اليوم الذى توفى فيه أخوه (٨ يونيه سنة ٧٥٤) استمر خليفة إلى أن توفى يوم الأحد سـابع ذى الحجة (سنة ١٥٨) (٨ أكـتوبر سنة ٧٧٥) فكانت خلافـته (٢٢سنة) هلالية إلا ستة أيام.

وكان يعـاصره فى الأندلس عـبد الرحـمن الداخل بن معـاوية بن هشام بن عـبد الملك (١٣٨-١٧٢).

ويعـاصره فى فـرنسا بابن بيـراق ثم شـرلمان (٧٦٨ - ٨١٤) ويعاصـره فى مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين الخامس.

الأحوال عهد المنصور:

تولى المنصور الخلافـة ولم تكن قد توطدت دعائمها ولم يكن يخـاف عليها من الدولة البائدة دولة الأمويين، لأنه لم تبق لهم بقية يخـاف منها وإنما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات:

الأولى: منافسة عـمه عبد الله بن على له فى الأمر لما كـان له من نباهة الذكر فى بنى العباس ولأنه كـان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خراسـان وأهل الشام والجزيرة والموصل

الذى أمره عليـهم السفاح قـبل وفاته ليغزو بهم الروم وقـد أظهر المنصور خـوفه هذا لأبى مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له.

الثانية: من عظمة أبى مسلم الخراسـانى مؤسس الدولة فإنه كان يرى له من الصولة وشدة التمكن فى حـياة أخيه مـا لم يكن يرى معه أمراً ولا حـكماً ومثل المنصور فى علو نفـسه لا يرضيـه أن يكون له فى الأمر شريك ذو سطوة وسلطان مـثل أبى مسلم بأمر خـراسان ويخلع المنصور ثم يختار للخلافة رجلاً آخر يكون تحت تصرفه وسلطانه فيعود الأمر لأهل فارس.

الثالثة: وهى أقوى هذه الجهات الثلاث خوفه من بنى عمه آل على بن ابى طالب الذين لا يزال لهم فى قلوب الناس مكان مكين وأخصهم محمد بن عبد الله بن حسن بن زيد بن حسن بن على بن أبـى طالب لما سيأتى بيـانه فكان المنصور يتـخوف أن يخرج عليـه طالباً بالخلافة والذى كان يزيد هواجسه أنه عام حج فى حيـاة أخيه لم يحضره محمد ولا أخوه إبراهيم ابنا عبد الله مع من شهده من سائر بنى هاشم.

كان المنصور يجمع إلى الجرأة وبعد الهمة: المكر والدهاء فعزم أن يضرب أعداءه بعضهم ببعض حتى يستريح منهم جميعاً.

عبد الله بن على:

أرسل عيسى بن موسى إلى عبد الله بن على ببيـعة المنصور وعبد الله غاز فانصرف بمن معـه من الجيوش قد بايع لنـفسه حتى بلغ حـران وقد علم بذلك المنصور وقـد نزل الأنبار وجمع بها خزانته ودواوينه فاستحضر أبا مـسلم وسيره لحرب عبد الله فسار أبو مـسلم نحو عبد الله بحران وقد جمع إليه الجنود والسـلاح والطعام والعلوفة وما يصلحه وخندق حول معسكره وكان جنده مـؤلفاً من أهل الشام والجزيرة وأهل خراسان فـخاف ألا يناصحه أهل خراسان إذا رأوا أبا مسلم مطلاً فقتل منهم نحو سبعة عشر ألفاً أمر صاحب شرطته فقتلهم وربما كان هذا العدد مبالغاً فيه ولكنه على كل حال قـتل منهم عدداً كبيراً فضعضع من قوته وجلل نفسه من العار ما لا يمحوه الزمان باعتدائه الفظيع على جزء عظيم من جنده لم يظهر لهم جرم. ومما دل على قلة حـزمه أنه كان من ضمن القواد الذين مـعه حميـد بن قحطبة وهو من كبار القواد فى الدولة العباسيـة فأراد أن يستريح منه، ولكنه لم يجرؤ أن يقتله فى المعسكر خوفاً من تغير الجند فكتب له كتـاباً ووجهه إلى حلب وعليها زفر بن عاصم. وفى الكتاب إذا قدم عليك حميد فاضرب عنقـه، ولما كان حميد ممن لا تغرهم هذه الخدعة فك الكتاب فى الطريق وقرأه ولما علم ما فيه دعا أناساً من خاصـته فأخبرهم الخبر وأفشى إليهم

أمره وشاورهم وقال: من أراد منكم أن ينجو ويهـرب فليسر معى فإنى أريد أن آخذ طريق العراق ومن يرد منكم أن يحمل نفـسه على السير، فلا يفشين سـرى وليذهب حيث أحب فاتبعه على ذلك ناس من أصحابه وبذلك فقد عبد الله قائداً محنكاً مثل حميد:

ترك عبد الله مدينة حـران وأقبل على نصيبين فاتخذها معسكراً وحصـنها فأقبل إليه أبو مسلم وكان داهية قد مارس الحروب ومعه جند مدرب لا يفسد عليه بالعصيان تدبيره، فأراد أن يحتل مـوقع عبد الله لحـصانته فكتـب إليه: لم أومر بقـتالك ولم أوجه له ولكن أمـير المؤمنين ولانى الشـام وإنما أريدها ولم تكن هذه الحيلة لتنطـلى على عبد اللـه، لأنه يعرف مكايد خصمه ولكن جند الشام الذين معه قالوا له: كيف نقيم معك وهذا يأتى بلادنا وفيها حرمنا فـيقتل من قدر عليـه من رجالنا ويسبى ذرارينا ولكنا نخـرج إلى بلادنا فنمنع حرمنا وذرارنيا ونقاتله إن قاتلنا، فقال لهم عبد الله: والله ما يريد الشام. فارتحل عبد الله متوجها إلى الشام وحينئذ تحول أبو مسلم حتى نزل معسكر عبد الله بن على ولما بلغ ذلك عبد الله علم أن الحيلة قد تمت عليه وعاد فنزل معسكر أبى مسلم.

كان أهل الشام أكـثر فرساناً وأكـمل عدة، ولكن المركز الحصين الذى احـتله أبو مسلم عوض عليه كثـرة عدوه وبذلك استمر القتـال بين الفريقين نحو ستة أشهـر والحرب بينهما سجال إلا أن القوة راجحة فى معسكر أهل الشام حتى إذا كان يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة (سنة ١٣٧) كانت بينهما الموقعة الفاصلة، وقد استعمل فيها أبو مسلم دهاءه الحربى فـاكتسب الظفـر وذلك أنه أرسل إلى الحسن بن قـحطبة وكان على الميـمنة أن أعر الميمنة وضم أكثرها إلى الميسرة وليكن فى الميمنة حـماة أصحابك، فلما رأى ذلك عبد الله أعرى ميـسرته لمقـاتلة ميمنة أبى مسلم وضم أكثر جنودها إلى الميمنة بإزاء مـيسرة أبى مـسلم ثم أرسل أبو مـسلم إلـى الحسن أن مر أهل القلب فليـحملوا مع من يبقى فـى الميمنة على ميسرة أهل الشام فـحملوا عليها فحطموها وجاء أهل القلب والميـمنه وركبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة.

وهنا فعل عـبد الله بن على فـعلاً لا يليق بشرف بنى هاشـم وعلو اسمهم فى مـيادين القتال، فإنهم كانوا يرون الفرار عاراً لا تحتمله أنفسهم الأبية، فإما ظفر أو قتل، ولكن عبد الله قال لأحـد قواده: ما ترى؟ فقـال: أرى أن تصبر وتقـاتل حتى تموت فإن الفرار قـبيح بمثلك، وقبل عبت على مروان، فقلت: قبح الله مروان جزع من الموت ففر فلم يعجبه هذا الرأى وفر إلى العراق تاركـاً معكسره فاحـتواه أبو مـسلم فأمن الناس ولم يقـتل أحداً وأمر بالكف عنهم.

أما عبـد الله فإنه سار إلى البصرة وكـان أميرها أخاه سليمـان بن علىّ فآواه وأقام عنده مدة متوارياً، ولما عـلم المنصور بذلك أرسل إلى سليمان يأمره بإشخـاص عبد الله بن علىّ إليه وأعطاه من الأمـان لعبد الله مـا رضيه ووثق به، فخـرج به سليمان حـتى قدم به إلى المنصور(سنة ١٣٩) فأمـر بحبسه وحبس من كـان معه ثم أمر بقتل بعـضهم وأرسل آخرين منهم إلى خراسان فقتلوا هناك واستمر عبد الله فى محبسه حتى مات (سنة ١٤٧).

هذه كـانت خاتمة حـياة ذلك البطل الذى كـان على يده أكبـر عمل فى تأسـيس الدولة العباسية كما كان على يده أكبر الفظائع فى إهلاك البقايا من بنى أمية ولا نحجم عن إظهار نفورنا من هذه الطرق التى يلجأ إليها ذوو الخدع والمكر لتنفـيذ أغراضهم وتأييد ملكهم غير ناظرين إلى النتائج الخـبيثة التى تجلب الشـر على أمنهم فإن المنصور لم يعـبأ بتلك المواثيق التى أعطاها لعبـد الله واستخف بها كـما استخف بأمـان ابن هبيرة قبل ذلك، كـما أنا لا نحجم عن أن نقول: إن عبد الله ختم حياته شـر ختام بهربه من ميدان القتال، فإن طلاب العظائم إذا حـال القدر بينهم وبينهـا لا يرضون الدنيـة لأنفسهم ويموتـون دون العار الذى يلحقهم ويلحق أهل بيتهم بسببهم.

أبو مسلم:

استراح المنصور من عبد الله بن علىّ على يد أبى مـسلم، فوجه الهمة إلى الراحة من هذا العدو الثانى الـذى لا يطمئن على ملكه وهو حى، لأنه أصبح صاحب الشـوكة والسلطان فى الدولة وليس المنصور ممن يمكنه الصبر على ذلك، والذى زاد الأمر عنده أنه قد ألقى إليه أن أبا مـسلم لا يحترم كتبه ويستهزئ بها إذا وردت إليه فصمم على الفتك بأبى مسلم.

حـصلت حادثـة أوقعت الريبـة فى قلب أبى مـسلم وذلك أنه بعـد تمام الهـزيمة أرسل المنصور من قبله رسولاً ليحصى المغانم التى غنمت من عبد الله، فلما ورد الرسول المعسكر غضب أبو مسـلم وكاد يقتل الرسول لولا أن قيـل له: ما ذنبه إنما هو رسول فخلـى سبيله ولم يمكنه مما جاء لـه وقال: أأكون أميـناً على الدماء غيـر أمين على الأموال فعـاد الرسول وأخـبر المنصـور، لم يكن يحب أن تـدخل أبا مسلـم أقل ريبة منه لخـوفـه أن يمضى إلى خراسان، وبذلك لا يتمكن منه إلا بعد معاناة شدائد يريد اختصارها وليأمن من ذلك كتب إلى أبى مسلم: (إنى قد وليتك مصر والشام فهى خير لك من خراسان فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام حـتى تكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيـته من قريب) فلما جاء الكتـاب أبا مسلم غضب وقـال: هو يولينى الشام ومـصر وخراسـان لى وصمم على

المضى إلى خراسان وأقبل من الجزيرة مجمعاً على الخلاف مريداً خراسان. رأى المنصور أنه لم يبق إلا استعمال الدهاء لإيقاع أبى مسلم فى فخ ينصبه له حتى لا يثير حرباً شعواء لا تعلم نتيجتها فتوجه إلى المدائن وكتب إلى أبى مسلم بالمصير إليه فكتب إليه أبو مسلم: (إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة، فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيد فإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى) وهذا الكتاب مما زاد النار اشتعالاً فى قلب المنصور، لأنه كتاب رجل مدل بما له من القوة حتى وضع نفسه قرناً للخليفة إدلالاً بمركزه وسابقته فى إقامة دعائم الخلافة العباسية فكتب إليه المنصور: (قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فإنما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سماع ولا طاعة، وحمل إليه أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك).

أرسل هذا الكتاب مع عيسى بن موسى ووجه معه أبا حميد المروزى وأمره أن يكلم أبا مسلم بألين ما يكلم به أحداً وأن يمنيه فإن أبى قال له: يقول لك أمير المؤمنين لست للعباس وأنا برئ من محمد إن مضيت مشاقاً ولم تأتنى إن وكلت أمرك لأحد سواى، وإن لم آل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار اقتحمتها وراءك اقتلك أو أموت قبل ذلك.

سار أبو حميد حتى ورد على أبى مسلم فكلمه كلاماً رقيقاً فيه نصيحة وتذكير بحقوق الإمام وتخويف من تفريق الكلمة فاستشار أبو مسلم مختصيه فأشاروا عليه بألا يقدم على المنصور، لأنه لم يعد يأمنه بعد أن وقع فى نفسه ما وقع فقال لأبى حميد: ارجع إلى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه وحينئذ بلّغه أبو حميد الرسالة الأخيرة فوجم لها أبو مسلم، لأن هؤلاء الجبابرة يعتريهم طائف من الجبن إذا هم وصلوا إلى قمة علوهم فمثل هذه الكلمات القاسية من المنصور جعلته يخنع ويلين والذى زاده حيرة وارتباكاً ما فعله المنصور من التدبير العظيم الذى يضعف آمال أبى مسلم من خراسان وجنودها ذلك أنه كتب إلى خليفة أبى مسلم على جند خراسان يعطيه إمامة خراسان ما عاش ولا شىء أكبر من

ذلك يقطع صلته بأبى مسلم فكتب إليه حين بلغته الأخبار بقرب مجيئه إلى خراسان (إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ فلا تخالفن إمامك ولاترجعن إلا بإذنه) فوافاه هذا الكتاب حين مجيء رسالة المنصور فزاده ذلك رعباً ولم يجد بداً من أن يحول وجهه عن خراسان ويقصد المنصور. كان المنصور مصمماً على قتل أبى مسلم ولكن اجتهد أن يكون الرجل آمنا لا يحس بشيء من الجفاء، فما قارب أبو مسلم المدائن أمر الناس وبنى هاشم فتلقوه حتى إذا دخل على المنصور وسلم عليه سلاماً لا يشوبه شيء مخيف أمره أن ينصرف ويزيل وعثاء السفر ويستريح ليلة. ولما جاء الغد أمر عثمان بن نهيك رئيس الشرطة فجاء بأربعة رجال من الحرس وأمرهم أن يكونوا خلف الرواق فإذا هو صفق خرجوا فقتلوا أبا مسلم. ثم دعاه فدخل عليه فأقبل يحدثه. ومن تمام تدبيره أنه شرع يسأله عن نصلين أصابهم فى متاع عبد الله بن علىّ فقال: هذا أحدهما للذى هو معه، فقال المنصور: أرنيه فانتضاه وناوله إياه فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه: وإنما فعل ذلك ليأمن على نفسه أن يفتك به أبو مسلم إذا أحس بالشر ثم صار يسأله عن أشياء أخذها عليه وأخيراً سأله عن سبب قصده خراسان مراغماً، فقال دع هذا فما أصبحت أخاف أحداً إلا الله فصفق حينئذ المنصور بيديه فخرج أولئك الحرس الأربعة فاعتوروه بسيوفهم حتى ذهب نفسه. ثم أراد أن يفرق الجمع الذى أقبل مع أبى مسلم فأعطاهم جوائز ألهتهم عن التفكير فى الخلاف ثم أرسل إلى القواد الذين فى جيش أبى مسلم جوائز سنية وأرضى جميع الجند حتى رضوا.

وبقتل أبى مسلم عرف المنصور أنه ابتدأ سلطانه الحقيقى الذى لا يشارك فيه ولم يأس على أبى مسلم، لأنه رأى أمام نظره كثيرين من القواد يقومون مقامه.

من الضرورى أن ننبه الأفكار إلى أن نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء وأسسوا ملكهم تنتهى حياتهم فى الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبى مسلم، وسبب ذلك أن هؤلاء القواد يكونون فى بادئ الأمر ذوى الكلمة المسموعة والسلطان الواسع بين جنودهم لأنهم هم مباشرون للحروب والوقائع وهم الذين يقدمون للجند أعطياتهم فإذا ساعدهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصارات الباهرة وقامت الدولة ببأسهم وشدة حزمهم، لم يكن لنفوذهم فى الدولة حد يقفون عنده، لأنهم يرون الأمر إنما جاء لصاحبهم بفضل مجهودهم الذى بذلوه فإذا كان الخليفة بعيد الهمة ذكى الفؤاد لم يسعه أن يحمل كل هذا وإذا ألجأته الضرورة حمله على مضض وإذا أمكنته الفرصة لم يتأخر عن انتهازها. وليس من طبيعة القائد الفاتح أن يضرب صفحاً عماله من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت إدراكها.

ومع ما بدا من أبى مسلم من العسف الشديد لا نبخسه حقه ونتأخر عن الاعتراف بأنه

كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام ولو كانت الضحايا التى ذهبت فى تأسيس الدولة أقل مما ضحى لعددناه من كبار السواس إلا أنه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة فى نظره كافية لإزهاق نفس المتهم فمثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات والدهاء ولكن لا نصفه بحسن السياسة وما رأيت أجهل من أبى مسلم فى قدومه على المنصور بعد ما أحتج به على سليمان بن كثير شيخ الدعوة بقوله أتذكر قول الإمام لى من اتهمته فاقتله. فإذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها واجباً أفلا يكون فيما صنعه مع أبى جعفر ما يدعو إلى الريبة فيه واستحقاقه القتل، فهو إذا كان قادماً على القتل بمقتضى أصل كثيراً ما نفذه ولذا لا يكون قتله محلاً للنظر والاستغراب: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٩).

محمد بن عبد الله وبنو الحسن بن على:

قدمنا أن المتشيعين لآل البيت كانوا فرقاً ثلاثة: فرقة ترى أن إمام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد ﷺ وهؤلاء إمامية، وكانوا يتولون إلى وقت المنصور جعفر بن محمد بن على بن الحسين المعروف بالصادق. وفرقة ترى أن إمام المسلمين يكون من بنى فاطمة إلا أنه معين بالوصف لا بالاسم وهؤلاء إمامية زيدية يرون الخروج مع كل من دعا إلى نفسه من بنى فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب أن تكون فى الإمام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك، وهم نصراء زيد بن على وابنه يحيى. وفرقة ترى إمامة أهل البيت من غير تقييد ببنى فاطمة وهم الذين نصروا بنى العباس وكانت الفرقتان الأوليان منتشرتين فى كثير من الأقاليم العربية والأعجمية وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة لأنها كانت أقرب إلى الرضا من أهل بيت النبى ﷺ، فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعاتها نفس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدُّوهم غاصبين للأمر كما عَدُّوا بنى أمية من قبلهم وأعظمهم فى ذلك رجلان، أحدهما جعفر الصادق إمام الإمامية. ولكنه رضى بما تم ولم يحرك ساكناً وكان يوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة، لأنه لم ير فرصة معقولة. وثانيهما محمد بن عبد الله بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب، وهذا كان أطمع فى الأمر لما زعموه من أن بنى هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها فى أواخر عهد بنى أمية، وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور، فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لأبى العباس ولا لأبى جعفر ولما حج أبو جعفر فى عهد أخيه حضره بالمدينة بنو هاشم جميعاً إلا محمد بن عبد الله وأخاه إبراهيم فسأل المنصور عنهما فقال له زياد بن عبد الله الحارثى أمير المدينة: ما يهمك من أمرهما أنا آتيك بهما فضمنه إياهما وأبقاه عاملاً

على المدينة. ثم إنه دعا بنى هاشم رجـلاً رجلاً كلهم يخليه فيـسأله عن محمد فـيقول: يا أمير المؤمنين قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك معصية وما أشبه هذه المقالة إلا حسن بن زيد بن حسن بن على، فإنه أخبره خبره وقال: والله ما آمن وثوبه عليك فر رأيك فأيقظ بقوله من لا ينام.

صار المنصـور يحتال بأنواع الحيل ليعرف الأخبـار عن محمـد واستخراج مـا عند أبيه عبدالله بن حسن من أخباره، ولما علم أن عبدالله يعرف نية ابنه حج (١٤٠) وسأل عبدالله عن ابنيه فأنكر أن [يكون] عنده علم بهما فتيقن المنصور كذبه وحبسه وصادر أمواله.

لم ير المنصور بعـد ذلك من ابن زياد صدقـا فى الحصول على مـحمد وإبراهيم فـعزله وولى بدله على المدينة محمـد بن خالد بن عبد الله القسرى وبسط يده فى النـفقة فى طلبه فأنفق كثيـراً من المال فى هذه السبيل وبحث بحثاً كثيـراً فى المدينة وخارجها فلم يصل إلى نتيجة، فعزله المنصور وأشير عليه أن يولى المدينة رجلاً من آل الزبير ليكون ما بين آل الزبير وآل على من العداوة سائغاً له إلى البحث الـشديد والجد فى الأمر، فلم يرق هذا فى عينى المنصـور وقال: أعـاهد الله ألا أثأر من أهـل بيتى بعـدوى وعـدوهم ولكن أبعث عليـهم صعلوكاً من صعـاليك العرب فولى على المدينة رياح بن عثمان بـن حيان المرى فورد المدينة فى شهر رمضان (١٤٤) وهو عازم على عسف الأعراب الذين يستخفى محمد بن عبد الله عندهم، فكان أول شىء فـعله أن استهـان بمحمـد بن خالد القسـرى الذى كان قـبله والياً وعذبه هو وكاتبه ثم أرهق محمد بن عبـد الله طلباً حتى لقى شدائد ما كان يراها فى عهد أسلافه من ولاة المدينة فقال فى ذلك:

منخـرف السـربال يشكـو الوجى	تنـكبـــه أطراف مـــر وحـــداد
شـــــرده الخـــوف وأزرى بـه	كـــذاك من يـكره حـــر الجـــلاد
قـــد كـــان فى الموت له راحـــة	والموت حـتم فى رقـاب العبـاد

وزاد المنصـور فى إرهاق محـمد فأمـر بأخذ بنى الحسن كلهم نحـو ثلاثة عشـر رجلاً وحبسـهم بالمدينة، ولما علم محمد بذلـك جاء إلى أمه هند وقال لها: إنى قـد حملت أبى وعمـومتى مـا لا طاقة لهم بـه، ولقد همـمت أن أضع يدى فى أيديهم فعـسى أن يخلى عنهم، فتنكرت هند ولبست أطماراً ثم جاءت السجن كهـيئة الرسول، فأذن لها، فلما رآها عبد الله أبو محمد أثبتها فنهض إليها فأخـبرته بما قال محمد فقال: كلا بل نصبر، فو الله إنى لأرجو أن يفـتح الله به خيراً قولى له فـليدع إلى أمره وليجـد فيه فإن فـرجنا بيد الله فانصرفت وتم محمد على اختفائه.

لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح بالمدينة حتى حج أبو جعفر (سنة ١٤٤)، فلما لم يجد عندهم ما يبرد غلته من جهة محـمد وأخيه إبراهيم أمر بحملهم إلى العراق وأشخص معهم مـحمد بن عبـد الله بن عمرو بن عثـمان بن عفان وهو أخـو بنى حسن بن زيد بن حسن لأمهم وأمهم جميعاً فاطمة بنت حسين بن علىّ وكان إبراهيم بن عبد الله صهره على ابنته فحملوا مـقيدين بالأغلال والأثقال وسير بهم على شـر ما يكون حتى أتى بهم العراق فحـبسـوا بقصر ابن هبـيرة وهو بلد شـرقى الكوفة مما يلى بغـداد على نهر الفـرات. وقد استعمل معهم المنصور من الفظائع مـا لا طاقة للإنسـان على تسطيره وكان أعظم فظائعه مع محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمـان، وكانت نتيجة هذا الحبس الشديد أن مات أكثرهم فى الحبس مع أن بنى العباس ملأوا الدنيا تهويلاً ورياء بأنهم خرجوا انتقاماً من قتلة الحسين بن علىّ وزيد بن حسن ويحيـى بن زيد وهؤلاء إنما قتلوا فى ميادين القتـال وهم خارجون ولم يقتل بنو أمـية أحداً من آل علىّ بالشكل الفظيع الذى ذهب به بنو حسـن فى عهد بنى عمهم من آل العباس.

كانت نتـيجة هذا الإخـراج وهذه الفظائع أن عزم محـمد على الظهـور بالمدينة وتحدث أهلها بذلك وعلم به رياح أمـير المدينة فأحب أن يعد عـدته لذلك فعوجل. دخل مـحمد المدينة ومعه (١٥٠رجـلاً) فأتى السجن ففتـحه وأخرج من فيه ولم يـقاومه أهل المدينة بل أعانوه وخذلوا رياحاً وكان خروجه فى أول يوم من رجب (سنة ١٤٥)وبعد أن استولى على البلد صعد منبر الحرم وقال: (أيها الناس إنه كان أمـرنا وأمر الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القـبة الخضـراء التى بناها معانداً الله فى ملكه وتصـغيراً للكعـبة الحرام، وإنما أخذ الله فرعون حين قـال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المؤمنين، اللهم إنهم أحلوا حرامك وحرموا حلالك وأمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت، اللهم فأحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً أيها الناس إنى والله مـا خرجت بين أظهـركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شـدة ولكن اختـرتكم لنفسى والله ما جئت هذه وفى الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذت لى فيه البيعة).

وكان الذى أوقع محـمداً فى هذا الغلط وجعله يفهم أن دعوته عمت البـقاع أن المنصور كان يكتب لمحمـد على ألسن قواده، يدعونه إلى الظهور ويخـبرونه أنهم معه فكان مـحمد يقول: لو القيـنا مال إلى القواد كلهم فهـذا الذى جعله يظن هذا الظن. ومما زاده خطأ فى قوة نفسه أنه كان متفقاً مع أخيه إبراهيم أن يـخرج بالبصرة فى اليوم الذى يخرج فيه محمد بالمدينة حتى يهـول أمرهما أبا جـعفر فـيفت ذلك فى عضده ولـكن إبراهيم لم يخرج هذا اليوم لمرض أصابه أو أن محمداً سبق الميعاد والنتيجة أنهما لم يخرجا معاً وأعظم خطر على

الإنسان ما يصيبه من قبل فهمـه فى نفسه فإنه إذا خاض العظائم وهو يظن لنفسه من القوة ما ليس لها كان حرياً بالفشل والخيبة.

على أنه فضلاً عن ذلك كله جعل نفسه محصوراً بالمدينة وهى ليست بمركز حربى يمكن القائد أن يبقى فيه على الدفاع طويلاً وحياتها من خـارجها فلا تحتمل الحصار إلا قليلاً فلم يكن محمـد موفقاً فى تدبيره مع مـا كان يتحلى به من الخصال التى كـانت ترفعه فى أعين أهل المدينة على أبى جـعفر فإنـهم كانوا لا يرون فيـه غشم أبى جعـفر ولا ميله للتـعسف والظلم بل كان يكره سـفك الدماء ويتجنبه مـا وجد إلى ذلك سبيلاً ويحب الخـير للناس، وكان لذلك يلقب عندهم بالنفـس الزكية وبالمهد. ولما اسـتفتى مالك إمام دار الـهجرة فى الخروج مع مـحمد وقيل له: إن فى أعناقنا بيـعة للمنصور قـال: إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين، ولكن هذا كله لا يفيد مع ضعف المركز الطبـيعى، ولذا قال له محمد بن خالد القسرى لما ظهر إنك قد خرجت فى هذا البلد والله لو وقف على نقب من أنقابه لمات أهله جوعـاً وعطشاً فانهض مـعى فإنما هى عشر حـتى أضربه بمائة ألف سيف فـأبى عليه ذلك. ولما علم المنصـور بخروجه قـال للربيع بن عبيـد الله بن عبـد المدان خرج محـمد. فقال: أين؟ قال: بالمدينة، فقال الربيع: هلك والله خرج فى غير عدد ولا رجال.

كان المنصور حين بلوغه الخبر منشغلاً ببناء بغـداد فسار إلى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه لأن أهلها شيعة لآل علىّ ويخاف منهم أن يخرجوا لمسـاعدة محمد، فأقفل أبوابها حتى لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد، ثم أحب أن يراسل محمداً قبل الحرب فكتب إليه كتاباً هذه نسخته: (بسم الله الرحـمن الرحيم من عبد الله عبد الله أميـر المؤمنين إلى محمد بن عبد الله، أما بعد ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣، ٣٤). ولك عهـد الله وميثاقه وحـق نبيه محمـد ﷺ إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك وأن أعطيك ألف ألف درهـم وأن أنزلك من البـلاد حـيث شـئت وأقـضى لك مـا شـئت من الحاجات وأن أطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتبع أحداً منكم بمكروه فإن شئت أن تتـوثق لنفسك فوجه إلىّ من يأخـذ لك من الميثاق والعهـد والأمان ما أحببت والسلام).

فكتب إليه محـمد بن عبد الله:(بسم الله الرحـمن الرحيم من عبد الله محـمد المهدى أمير المؤمنين إلى عـبد الله بن محمـد. أما بعد: ﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)

نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴿٣﴾ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴿٤﴾ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴿٥﴾ ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ (القصص: ١-٦). وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخطبتموه بفضلنا، وإن أبانا علياً عليه السلام كان الوصى والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا وإنا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم وبنو ابنته فاطمة فى الإسلام من بينكم فأنا أوسط بنى هاشم نسباً وخيرهم أما وأبا لم تلدنى العجم ولم تعرف فى أمهات الأولاد وإن الله تبارك وتعالى لم يزل يختر لنا، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد ﷺ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبى طالب، ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين فى الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ثم قد علمت أن هاشماً ولد علياً مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله ﷺ ولدنى مرتين من قبل جدى الحسن والحسين فما زال الله يختار لى حتى اختار لى فى النار فولدنى أرفع الناس درجة فى الجنة وأهون أهل النار عذاباً أفأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك عهد الله إن دخلت بيعتى أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك فى ذلك، فأنا أوفى للعهد منك وأحرى لقبول الأمان، فأما أمانك الذى عرضت على فأى الأمانات هو؟ أأمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن على أم أمان أبى مسلم؟ والسلام).

فكتب إليه أبو جعفر: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله. أما بعد، فقد أتانى كتابك وبلغنى كلامك فإذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء ولقد جعل العم أباً وبدأ به على الولد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام: ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ (يوسف: ٣٨). ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمد ﷺ وعمومته أربعة فأجابه اثنان أحدهما أبى وكفر به اثنان أحدهما أبوك فأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه فأما ما ذكرت من فاطمة أم

بنى طالب فإن الله لم يهـد من ولدها أحداً إلى الإسلام ولو فـعل لكان عبد الله بن عـبد المطلب أولاهم بكل خير فى الآخرة والأولى وأسـعدهم بدخول الجنة غداً، ولكن الله أبى ذلك فقال: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦). فأما ما ذكرت من فاطمـة بنت أسد أم على بن أبى طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشـماً ولد علياً مرتين وأن عبـد المطلب ولد الحسن مرتين فـخير الأولين والآخرين محـمد ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله فإن الله عز وجل أبى ذلك فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤٠) ولكنكم بنو ابنتـه، وإنها لقرابة قـريبة غير أنهـا لا تجوز الميراث ولا يجـوز أن تؤم فكيف تورث الإمامة من قـبلها ولقد طالب بهـا أبوك بكل وجه فأخرجهـا تخاصم ومرضها سراً ودفنهـا ليلاً فأبى الناس إلا تقديم الشيخـين . ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله ﷺ فأم بالصلاة غيره ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً، فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان فى أصحـاب الشورى فكل دفعه عنه وبايع عبد الرحمن عثمان وقـبلها عثمان وحارب أبوك طلحـة والزبير ودعـا سعداً إلى بيـعته فـأغلق بابه دونه ثم بايع معـاوية بعده وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فـسلمه إلى مـعاويه بخرق ودراهم وأسلم فى يديه شيعته وخرج إلى المدينة فـدفع الأمر إلى غير أهله وأخـذ مالاً من غير حله، فـإن كان لكم شىء فقد بعـتموه. فأما قـولك: إن الله اختار لك فى الكفر فجـعل أباك أهون أهل النار عذاباً فليـس فى الشر خـيار ولا من عذاب الله هين ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالـله واليوم الآخر أن يفخر بالنار وسـترد فتعلم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧). وأما قولك: أنـك لم تلدك العجم ولم تعرف فيك أمـهات الأولاد وأنك أوسط بنى هاشم نسباً وخيـرهم أما وأبا فقد رأيتك فخرت علـى بنى هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخرًا وأصلاً وفضلاً فخرت على إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وعلى والد ولده فـانظر ويحك أين تكون من الله غـداً وما ولد فـيكم مـولود بعد رسـول الله ﷺ أفضل من علىّ بن الحسين وهو لأم ولد، ولقد كان خـيراً من جدك حسن بن حسن ثم ابنه محمد بن على خير من أبيك وجدته أم ولد ثم ابنه جعفر خير منك، ولقد علمت أن جدك علياً حكم حكمين واعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه. ثم خرج عمك الحسين بن علىّ على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على القتـاب بغير أوطبـة كالسبى المجلوب إلى الشـام ثم خرج منكم غيـر واحد فقتلتكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبـوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركـوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعـد أن كانوا يلعنون أباك فى أدبار الصلوات المكتوبة كمـا تلعن الكفرة فعنفناهم وكفرناهم وبينا فـضله وأشدنا بذكره

فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا لما ذكرنا من فضل عليّ أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم وابتلى أبوك بالدماء، ولقد علمت أن مآثرنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون إخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر، وتوفى رسول الله ﷺ وليس من عمومته أحد حياً إلا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب. وطلب الخلافة غير واحد من بنى هاشم فلم ينلها إلا ولده فاجتمع للعباس أنه أب رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القديم والحديث ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات عماك طالب وعقيل جوعاً أن يلحسان جفان عتبة وشيبة فأذهب عنهما العار والشنار. ولقد جاء الإسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التى أصابتهم ثم فدى عقيلاً يوم بدر فقدمناكم فى الكفر وفديناكم من الأسر وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزنا شرف الآباء وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام).

بعد هذه المكاتبة التى لم تجد إلا إظهار العيوب لم يكن إلا الجد فى الأمر وكان المنصور يتخوف أن يبلغ خروج محمد أهل خراسان فتفسد قلوبهم فكان يعمى الأخبار عليهم. واختار لمناضلة محمد عيسى بن موسى الذى كان السفاح جعله ولى عهد بعد المنصور فقال عيسى للمنصور: شاور عمومتك، فقال: امض أيها الرجل فوالله ما يراد غيرى وغيرك وما هو إلا أن تشخص أو أشخص وزوّد عيسى بوصية يحمد عليها إذ قال: يا عيسى إنى بعثتك إلى ما بين هذين (وأشار إلى جنبيه) فإن ظفرت بالرجل فشم سيفك وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به فإنهم يعرفون مذاهبه. وجهز المنصور الجيش أحسن جهاز، فلما وصل إلى فيد بعث إلى رجال من أهل المدينة فى خرق من الحرير، فلما وردت كتبه المدينة تفرق ناس عن محمد وخرج بعضهم إلى عيسى ومنهم ناس من آل على.

ولما شعر محمد بقرب عيسى بن موسى خندق حول المدينة، أما عيسى فإنه أهل بجنوده حتى وصل إلى المدينة وهناك أرسل فصيلة من جنوده تحرس طريق مكة حتى إذا أراد محمد الهرب إليها لم يجد طريقاً وكان نزول عيسى على المدينة فى (١٢ رمضان سنة ١٤٥)وقبل اللقاء قدم دعوة محمد إلى الخضوع فلم يجبه ثم درات الموقعة بين الفرقين وقد ظهرت شجاعة محمد بن عبد الله ظهوراً عظيماً ولكن عدوه كان عظيماً فلم يلبث أن قتل وظهرت الأعلام السوداء على مرتفعات المدينة وعلى منارة المسجد النبوى فسلم المحاربون وكان قتل محمد لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان.

وعند ذلك أرسل عيسى إلى أبى جعفر ببشارة الفتح وبرأس محمد بن عبد الله وأمن المدينة وأهلها فى (١٩رمضان) وشخص يريد مكة بعد أن قبض أموال بنى حسن كلها وكان مكث محمد منذ قام إلى أن قتل شهرين. (١٧يوماً).

إبراهيم بن عبد الله:

هو أخو محـمد دخل البصرة ودعـا الناس سراً إلى أخيه فبـايعه كثير مـن أهلها وأجابه فتيـان من العرب، وكان أبو جعفر يظن أنه يخـرج بها، فإنه لما بلغه خروج مـحمد بالمدينة استشار جعفر بن حنظلة البهرانى وكان صاحب رأى فقال: حصن البصرة لأن محمداً ظهر بالمدينة وليسوا أهل حرب بحسبهم أن يقـيموا شأن أنفسهم وأهل الكوفة تحت قدمك وأهل الشام أعداء آل أبى طالب فلم يبق إلا البـصرة فـاهتم بإرسال الجنود وإقـامة المسـالح بين الكوفة والبصرة لئلا يخرج أهل الكوفة لمساعدة إبراهيم.

ظهر إبراهيم بالبـصرة، واستولى علـيها وعلى ما قـرب منها والأهواز وواسط ولم يزل على أمره ذلك حتى أتاه نعى أخـيه محمد قبل فطر (سـنة ١٤٥) بثلاثة أيام فصلى بالناس يوم الفطر وعليه أثر الانكسار.

أرسل أبو جعفر إلى عيـسى بن موسى يستحثه للقدوم ليتولى حرب إبراهيم فجاء مسرعاً وسار نحو البصرة وخرج إبراهيم لملاقاته، فالتقيا عـند باخمرى وكانت العاقبة لعيسى فقتل إبراهيم لخمس ليال بقين من ذى القعدة (سنة ١٤٥).

وكان محمـد وأخوه إبراهيم من أحسن الطالبيين خلقاً وأنظفهم تاريخـاً لم يعرف عنهما ما يشـينهما فى معـاملة الناس وفى صدق العزيمة إلا أن الحظ خـانهما. وللمنصـور خطبة بليغـة يبرر بها عمله مع بنى الحسن أمام شيعته من أهل خراسان وغيرهم قال فيها: (يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعـتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا وإن أهل بيـتى هؤلاء من ولد على بن أبـى طالب تركناهم والذى لا إله إلا هو والخـلافـة فلم نعرض لـهم فيهـا بقليل ولا كثـير فـقام علىّ بن أبى طالب فـتلطخ وحكمّ عليه الحـكمان فافترقت عنه الأمة واخـتلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعتـه وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فـقتلوه. ثم قـام من بعده ابنه الحسـن فوالله ما كـان فيهـا برجل قد عـرضت عليه الأموال فقبلها فـدس إليه معاوية إنى أجعلك ولى عهدى من بعدى فـخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة، فيطلقها غداً فلم يزل على ذلك حتى مـات على فراشه ثم قـام من بعده الحسـين بن علىّ فخدعـه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والنفاق والإغـراق والفتن أهل هذه المدرة السوداء (وأشار إلى الكوفة) فوالله ما هى بحرب فـأحاربها ولا سلم فأسالمها، فرق الله بينى وبينهـا فخذلوه وأسلموه. ثم قام من بعده زيد بن علىّ فـخدعه أهل الكوفة وغروه. فلما أخـرجوه أظهروه وأسلموه وقد كـان أتى محـمد بن على فناشـده فى الخروج وسـأله أن لا يقبل أقاويل أهـل الكوفة

وقال: إنا نجد فى بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا خائف أن تكون ذلك المصلوب وناشده عمى داود بن علىّ وحذوه أهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ فقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا وبغياً لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ.

جهلاً على وجبناً عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

إنى والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهلة. بلغنى عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالاً فقلت: قم يا فلان قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علىّ فلا ترون أني أتيت ذلك على غير يقين، ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ (سبأ: ٥٤).

وقد بقيت بقايا بنى الحسن مشردين فى عهد أبى جعفر بعد أن قتل منهم من قتل ومات من مات وحبس من حبس. ومن غريب ما رأيت من رواية محمد بن جرير الطبرى أن المهدى آلت إليه خزانة مما خلف والده فدخلها مع زوجته ريطة فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين وفى آذانهم رقاع فيها أنسابهم وإذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ عدة كثيرة، فلما رأى ذلك المهدى ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان. اهـ. هذه كبرى الحوادث التى حصلت لعهد المنصور.

وكانت الطريقة التى تدار بها البلاد لا تختلف عن طريقة بنى أمية فكان فى كل ولاية وال يعينه الخليفة وأعماله هى إقامة الصلاة للمسلمين وجهاد العدو وجباية الخراج وحفظ الأمن وفصل الخصومات بين الناس وقد كان الوالى تسند إليه أحياناً هذه الأمور الخمسة فيكون إمام القوم وقائد الجند وينتدب للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلاً للقيام بها

ـ حياناً يكون إليـه الصلاة والشرطة والجهاد والخـراج ويكون للحرب أمير آخر مـستقل عن ـير الصلاة ويعين القاضى من قبل الخليفة رأساً.

ولم تكن الولاية متعـينة العدد بل تارة تضم ولايتان إلى والٍ واحد وتارة يفـصل بينهما حسـب مـا يراه الخليفة فى مـقدرة الوالى فكان أبو مسلم مـثلاً والياً لخرا سـان كلها وبلاد ـرى والجبـل وعليهـا ولاة من قِبلِه. وكـان أكثر الولاة لـعهد المنصـور من أهل بيـته وممن ـصطنعهم من العرب، والموالى ولم يكونوا يحبـون أن تطول مدة الوالى فى ولاية ولا سيما ـى الأطراف كمصر وخراسان خوفاً أن تحدثه نفسه بالاستقلال عن الخليفة وقد حصلت من ـث حوادث فى خراسان تلافاها المنصور بحيلته وقوته.

وجميع أمور الولايات ترجع إلى الخليفة الذى هو صاحب الأمر المطاع ومعينوه هم:

أولاً: الوزير. والوزارة لم تكن مـعروفة بهـذا الاسم فى عهد الـدولة الأموية وأول من ـمى بها لعهد أبى العـباس السفاح أبو سلمة الخلال شيخ الدعوة بالكوفـة فقد كان يعرف ـزير آل محمد وأصله مولى لبـنى الحارث بن كعب وكان سمحاً كريماً مطعامـاً كثير البذل ـشـغوفاً بالتـنوف فى السلاح والدواب نصيـحاً عالماً بـالأخبار والأشـعار والسيـر والجدل ـلتفسير حـاضر الحجة ذا يسار ومروءة ظاهرة. وقدمنا خبر اتهـامه بالميل لآل علىّ ومقتله ـسـبب ذلك فقال الشاعر فى رثائه:

إن الوزيـر وزير آل مـحـمـد   أودى فـمن يشـناك كـان وزيرا

إن الســلامـة قـد تبين وربما   كـان السـرور بما كـرهت جـديرا

فاستوزر السـفاح بعده أبا الجهم إلى أن مات السفاح وولى المنـصور فكان فى نفسه منه شىء فـيقال: إنه سمـه والصحيح أن السفـاح استوزر بعد أبى سلمة خـالد بن برمك جد ـبرامكة الذين طهر مجدهم فى عهد هارون الرشيد، وكان خالد من رجال الدعوة العباسية ـذين أقاموا دولتها وهو من أبناء رؤساء الفرس الذين كـانت إليهم بيوت العبادة قبل شيوع ـلإسلام بالبلاد الفارسـية وهو أول من اعتنق الإسلام من أهل بيته وكان خـالد فاضلاً كريماً حزماً يقـظاً استوزره السفاح ويقـال: إنه لم يكن يتسمى باسم الوزير تطيـراً مما جرى على ـى سلمة فكان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً.

ـا تولى المنصور لـم تكن للوزارة فى أيامه أبهة ولا كـبير قـدر لما كان موصـوفاً به من ـلاستبـداد بأموره أبقى فى وزارتـه خالداً مـدة ليست بالطـويلة ثم أعفـاه وولى أبا أيوب ـموريانى.

أبو أيوب سليمان بن أبى سليمان مخلد المورياني الخوزي:

وموريان قرية من قرى الأهواز. كان فى أواخر دولة بنى أمية كاتباً لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة، وكان المنصور فى ذاك الزمن ينوب عن سليمان هذا فى بعض كور فارس فاتهمه بأنه احتجز مالاً لنفسه فضربه بالسياط ضرباً شديداً وكان يريد الفتك به بعد ضربه فخلصه منه أبو أيوب فاعتدها المنصور يداً له فضلاً عما عرف به أبو أيوب من المقدرة والنباهة فاستوزره المنصور وخف على قلبه وتمكن منه وكان يخشى المنصور جداً وترعد فرائصه إذا دعاه إليه. روى ابن خلكان أن خالد بن يزيد الأرقط قال: بينما أبو أيوب جالس فى أمره ونهيه أتاه رسول المنصور فتغير لونه، فلما رجع تعجبنا من حالته فضرب مثلاً لذلك وقال: زعموا أن البازى قال للديك: ما فى الأرض حيوان أقل وفاء منك قال: وكيف ذلك؟ قال: أخذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم وأطعموكِ فى أكفهم ونشأت بينهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت ههنا وههنا وصوت وأخذت أنا مسنا من الجبال فعلمونى وألفونى ثم يخلى عنى فآخذ صيداً فى الهواء وأجئ به إلى صاحبى فقال له الديك: إنك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم المعدة للشى مثل الذى رأيت من الديوك لكنت أنفر منى ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ما ترون من تمكن حالى.

وقد كان ما خافه أبو أيوب، فإن المنصور غضب عليه (سنة ١٥٢) وعذبه وأخذ أمواله وحبس أخاه وبنى أخيه سعيداً ومسعوداً ومخلداً ومحمداً وطالبهم وكانت منازلهم المناذر وقد قال فى هذه النكبة أحد شعراء العصر:

قد وجدنا الملوك تحسد	من تعطيه طوعاً أزمة التدبير
فإذا ما رأوا له النهى والأمر	أتوه من بأسهم بنكير
شرب الكأس بعد حفص	سليمان ودارت عليه كف المدير
ونجا خالد بن برمك منها	إذ دعوه من بعدها بالأمير
أسوأ العالمين حالاً لديهم	من تسمى بكاتب أو وزير

وهذه الأبيات القليلة تشرح لنا ما كان يدور على ألسنة القوم إذ ذاك فى نكبات الوزراء التى لم تكن قليلة بل قلما نجد فى وزراء بنى العباس من سلم منها. ويقال إن سبب نكبة أبى أيوب سعى أبان بن صدقة كاتبه به عند المنصور وكان موته (سنة ١٥٤).

الربيع بن يونس:

استوزر المنصور بعد أبى أيوب الربيع بن يونس كان أحد جدوده أبو فروة كيسان مولى عثمان بن عفاف من سبى جبل الخليل ونشأ أولاده فى الكتابة فى عهد بنى أمية، ولما جاءت الدولة العباسية كان الربيع ممن يخدم المنصور وكان كثير الميل إليه حسن الاعتماد عليه فكانت إليه الحجابة وهى من الوظائف الكبرى فى الدولة وسيأتى شرحها.

ولما قبض المنصور على أبى أيوب استوزره بعد فظَّل فى خدمته إلى أن مات المنصور. وكان الربيع عارفاً بخدمة الخلفاء محبوباً عندهم ولا سيما المنصور وكان جليلاً نبيلاً منفذاً للأمور مهيباً فصيحاً كافياً حازماً عاقلاً فطناً خبيراً بالحساب والأعمال حاذقاً بأمر الملك بصيراً بما يأتى ويذر محباً لفعل الخير.

ولما مات المنصور بمكة كان معه وهو الذى أخذ البيعة للمهدى بعده وكان ذلك مما جعل المهدى يبقيه على درجته التى كان عليها فى عهد أبيه إلا أنه كان حاجباً لا وزيراً وكانت وفاته (سنة ١٧٠) فى عهد الهادى، ويقال إنه سمهً.

ثانيا: الحاجب وهو موظف كبير لا يمثل أحد بين يدى الخليفة إلا بإذنه وقد وجد الحاجب فى عهد بنى أمية وقد أحدثوه لما خشوا على أنفسهم من الفتاكين بعد حادثة الخوارج مع على وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان مع ما فى فتح أبوابهم من ازدحام الناس عليهم وشغلهم به عن المهمات فاتخذوا من يقول لهم بذلك وسموه الحاجب. وقد روى أن عبد الملك قال لحاجبه: قد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعى الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد، وكان إلى الحاجب التقديم والتأخير فى الإذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم.

وقد ظلت الحجابة فى ارتقاء كلما ارتفعت الحضارة وقد سار خلفاء بنى العباس على خط بنى أمية فى ذلك، وكان للحاجب فى عصرهم مرتبة علية وكثيراً ما كان يستشار فى الأمور التى تنزل بالخلافة.

ثالثا: الكاتب هو الذى يتولى مخاطبة من بعد عن الحضرة من الملوك والأمراء وغيرهم وكثيراً ما كان يتولى الخليفة نفسه تلك الكتابة، كما ورد أن المنصور لما جاءته رسالة محمد بن عبد الله قال له كاتبه: دعنى أجبه عليها فقال أبو جعفر: لا بل أنا أجيبه عنها إذ تقارعنا على الأحساب فدعنى وإياه. وأحياناً كان يتولى الكتابة الوزير.

رابعاً: صاحب الشرط. وهو المحافظ على الأمن وكان المنصور يختار صاحب الشرط

آمن الرجال وأشدهم وكان له سلطان عظيم على المربيين والجناة إلا أن استبداد المنصور بالأمور ومباشرته لصغيرها وكبيرها كانا يقللان من أهمية كل عامل.

خامساً: القاضى وكان ينظر فى قضايا مدينة المنصور وحدها ولم يكن له سلطان على قضاة الأقاليم، لأن منصب قاضى القضاة لم يكن أنشىء بعد. ومن مشهورى قضاة المنصور محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى. ولد (سنة ٧٤ للهجرة) وتفقه بالشعبى أقام قاضياً بالكوفة ثلاثين سنة فى الدولتين الأموية والعباسية وهو معدود من فقهاء أهل الرأى، وكان بينه وبين أبى حنيفة الإمام وحشة يسيرة، وقد كان أبو حنيفة يعترض عليه فى بعض أحكامه وهو أصغر منه سناً فشكاه ابن أبى ليلى للأمير فمنعه الأمير من الفتيا وكانت وفاة ابن أبى ليلى (سنة ١٤٨).

هذه المناصب الخمسة هى أهم المناصب فى الدولة وجميع المناصب الأخرى ترجع إليها وكان فى كل ولاية صورة من ذلك.

الجيش:

أهم ما تظهر به الدولة جيشها الذى يذود عن حياضها ويحمى بيضتها وقد كان الجيش لعهد الدولة الأموية عربياً محضاً جنوده وقواده، فلما جاءت الدولة العباسية كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع إليهم أكبر الفضل فى ثل عرش الدولة الأموية وبالضرورة يكون لهم حظ وافر من الدولة وحمايتها، لذلك كان جيش الديوان فى أول عهد العباسيين مؤلفاً من فريقين.

الأول: الجيوش الخراسانية ـ الثانى: الجيوش العربية. وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من الموالى وكان التنازع شديداً بين الفريقين بداعى العصبية كل يتعصب لأبناء جنسه. وكان أكبر القواد المعروفين فى أول عهد الدولة أبو مسلم الخراسانى لجيوش المشرق الخراسانية وعبد الله بن علىّ لجيوش المغرب وأعظمها عربى من الجزيرة والشام، ولما خرج عبد الله بن على عن طاعة المنصور وأرسل أبو مسلم لحربه فانتصر عليه رجحت كفة الخراسانيين وصارت الثقة بهم أعظم ولكن ذلك لم يمنع المنصور من القضاء على أبى مسلم الذى نظر إليه نظرة الشريك المساوى فى القوة والسلطان ويظهر أن المنصور لم يكن يرى لمصلحته ومصلحة أهل بيته ألا تظل كفة أهل خراسان راجحة فاصطنع كثيراً من رجالات العرب وسلمهم قيادة الجيوش كما استعان بأهل بيته ومن أعظم قوادهم عيسى بن موسى الذى سيره المنصور لحرب محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم.

ومن مشهورى قـواده العرب: معن بن زائدة الشيبانى، وهو قـائد شجاع، كان فى أيام بنى أمية متنقـلاً فى الولايات ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمـير العراقين، فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد بن عمر بواسط أبلى معه يومئذ بلاء حسناً، فلما سلم يزيد وقتل، خـاف معن على نفسـه من المنصور فاسـتتر مـدة طويلة حصلت له فيـها غرائب من أظرفها أنه تنكر وركب جملاً يقصد البادية فبينما هو خارج من باب المدينة تبعه عبد أسود متـقلداً سيفاً فقبض على خطام جمله فأناخـه وقبض على يدى معن وقال: أنت طلبة أمير المؤمنـين أنت معن بن زائدة، فلما رأى الجد منه أخرج عقـد جوهر ثمنه أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتى بمعن فقال للأسود: خذه ولا تكن سبباً لسفك دمى فتأمله الأسود وقال: لست أقـبله حتى أسألك عن شيء فإن صـدقتنى أطلقتك إن الناس وصفـوك بالجود فهل وهبت مـالك كله؟ قال: لا قال: فنصفـه قال: لا، ولم يزل حتى بلغ العشـر، فقال معن: نعم فـقال له الأسود: أنا رزقى من المنصور كل شـهر عشرون درهمـاً وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ولتعلم أن فى الدنيا من هو أجود منك فلا تعـجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جـود فعلته، ولا تتوقف عن مكرمة ثم رمى العقد فى حجره وترك خطام الجـمل وولى منصرفاً، فقال له معن: قد والله فضحـتنى ولسفك دمى أهون علىَّ مما فعلت، فـخذ ما دفعتـه لك فإنى فى غنى عنه فضحك وقال: أردت أن تكذبنى فى مقالى والله لا أخذته ولا أخذت لمعروفى ثمناً ومضى لسـبيله. وما زال معن مستتراً حتى كان يوم الهاشمية يوم أن ثار الراوندية بالمنصور وهم قوم من أهل خراسـان منسوبون إلى بليـدة قرب قاشـان، وكانوا على رأى أبى مـسلم صاحب دعوة بـنى هاشم يقولون بتناسخ الأرواح ويظـهر على رغم الروايات المتناقـضة أنهم كـانوا يريدون الأخذ بثأر أبى مـسلم ويقتلون أبا جعفر فـاجتمع منهم زهاء ستمائة وقـصدوا نحو المنصور، فنادى الناس وغلقت أبواب المدينـة فلم يدخل أحد، فخرج المنصـور من قصره، وفى ذلك الوقت ظهر معن فانتـهى إلى أبى جعفر فرمى بنفسه وترجل وأدخل خـرقة قبائه فى منطقتـه وأخذ بلجام دابة المنصور وقـال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين إلا رجـعت فإنك تكفى فلم يرجع، وجاء الربيع ليـأخذ بلجام الدابة فقـال له معن: ليس هذا من أيامك ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعاً وشرفت تلك الفعلة معنا فى نظر أبى جعفر حتى سماه أسد الرجال فقـال معن: والله يا أمير المؤمنين لقد أتيـتك وأنا وجل القلب، فلما رأيت ما عندك من الاستـهانة بهم وشدة الإقدام علـيهم رأيت أمراً لم أره من خلق فى حرب فـشد ذلك من قلبى وحملنى على ما رأيت منى. وكان ذلك سبـباً لإعطائه الأمان ووصله بعشرة آلف درهم وتوليتـه اليمن فمكث فـيها مدة أحـسن فيهـا السيرة فى أهلهـا حتى ردهم إلى

الطاعة والجماعة. ثم ولى فى آخر أمره سجستان. ولما كان(سنة ١٥١) كان فى داره صناع يعملون له عملاً فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بست. وكان معن جواداً ممدحاً وشاعره الخصيص به مروان بن أبى حفصة له فيه المدح الرائقة كما له فيه المراثى المشجعة ومن طرف بدائهه أن معنا دخل على المنصور مرة فقال له: إيه يا معن تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذى زادت به ... شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين وإنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً ... بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كل مهند وسنان

ومنهم عمرو بن العلاء من أعظم قواد المنصور وهو الذى يقول فيه بشار بن برد الشاعر:

فقل للخليفة إن جئته ... نصيحاً ولاخير فى المتهم

إذا أيقظتك حروب العدا ... فنبه لها عمراً ثم نم

فتى لا ينام على دمنة ... ولا يشرب الماء إلا بدم

ويقول فيه أبو العتاهية:

إن المطايا تشتكيك لأنها ... قطعت إليك سباسباً ورحالا

فإذا وردن بنا وردن مخفة ... وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وجهه المنصور (سنة ١٤١) لحرب بلاد طبرستان وكانت مضطربة بثورة المصمغان ملك دنباوندو الأصبهذ وكان توجيهه إليها بمشورة أخي المصمغان، فإنه قال للمنصور يا أمير المؤمنين إن عمراً أعلم الناس ببلاد طبرستان فوجهه وضم إليه خازم بن خزيمة وهو من القواد الكبار فدخل الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطاق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل من أهلها فأكثر وصار الأصبهيذ إلى قلعته وطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره ثم بدا للأصبهذ فدخل جيلان من الديلم فمات بها وأخذت ابنته فتسراها العباس بن محمد وهى أم ابنه إبراهيم. وصمدت الجنود للمصمغان فظفروا به.

ولم يزل عمرو بن العلاء فى رتبته إلى مدة المهدى محمد بن أبى جعفر.

حاضرة الخلافة:

لما ولى أبو جعفر انتقل من الأنبار إلى الهاشميـة التى أسـسها أخوه أبو العباس وأقام بها إلى أن عـزم على تأسـيس مدينة بـغداد حـاضرة بـنى العبـاس الكبـرى ومظهـر فخـرهم ومدنيتهم، وكان يريد أن يكون بعيداً عن الكوفة فخرج يرتاد مسكناً لنفسه وجنده ويبتنى به مدينة حتى صـار إلى موضع بغداد وقال: هذا موضع معـسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شىء يأتينا فيها كل ما فى البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك وهذا الفرات يجىء فيه كل شىء من الشام والرقة وما حول ذلك فنزل وضرب عسكره على الصراة وهو نهر بين دجلة والفرات ثم أمر بخط المدينة على مثال وضعه وهى مدورة الشكل تقريبا وجعل لهـا سورين أحدهما داخل سور المدينة وسمكه فى الـسـماء (٣٥ذراعاً) وعليه برجة سمك كل برج منهـا فوق السور خمسة أذرع وعلى الســور شرف وعرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعاً ويليه من الخارج فصيل بين السورين وعرضه (٦٠ذراعاً) ثم السور الأول وهو سور الفصيل ودونه خندق. وللمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان ولكل منها باب دون باب بينهما دهليز ورحبة تدخل إلى الفصيل الدائر بين السورين، فالأول باب الفصيل والثانى باب المدينة، فإذا دخل من باب خراسان عطف على يساره فى دهليز معقود بالآجر والجص عـرضه عشـرون ذراعاً وطوله ثلاثون المدخل إليـه فى عرضـه والمخرج منه وطوله يخرج إلى رحـبة مادة إلى البـاب الثانى طولها (٦٠ذراعـاً وعرضهـا ٤٠) ولها فى جنبيتـها حائطان من الباب الأول إلى البـاب الثانى طولها فى صدر هذه الرحـبة فى طولها الباب الثانى وهو باب المدينة وعن يمينه وشماله فى جنبـتى هذه الرحبة بابان إلى الفصيلين. والأبواب الأربعة على صورة واحدة فى الأبواب والفصيلان والرحاب والطاقات. ثم الباب الثانى وهو باب المدينة وعليه السور الـكبير فيدخل من الباب الكبير إلى دهليـز أزج معقود بالآجر والجص طوله (٢٠ذراعاً وعرضه ١٢) وعلى كل أزج من آزاج هذه الأبواب مجلس له درجة على السور يرتقى إليه منها، على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة فى السماء سمكها (٥٠ذراعاً) مزخرفة وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره.

وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثوانى باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان.

وابتنى قـصره الذى يـسـمى الخلد على دجلة وكان مـوضعـه وراء باب خراسـان. ومد المنصور قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرهما إلى المدينة فى عقـود وثيقة من أسفلهـا محكمة بالصاروج والآجـر من أعلاها فكانت كل

قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ فى الشوارع والدروب والأرباض وتجرى صيفاً وشتاء لا ينقطع ماؤها فى أى وقت وجر لأهل الكرخ أربعة أنهر يقال لأحدهم نهر الدجاج وللثانى نهر القلائين وللثالث نهر طابق وللرابع نهر البزازين. والكرخ هو أسواق المدينة التى نقلها المنصور من مدينته فى الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى بناها المنصور ورتب كل صنف منها فى موضعه وبنى لأهل الأسواق مسجداً يجمعون فيه ولا يدخلون المدينة وسميت الشرقية لأنها شرقى الصراة. ولأبى عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه فى الكرخ:

سقى أربع الكرخ العوادى بديمة وكل ملث دائم الهطل مسبل

منازل فيها كل حسن وبهجة وتلك لها فضل على كل منزل

وفى (سنة ١٥١) بنى المنصور الرصافة للمهدى ابنه وعمل لها سوراً وخندقاً وميداناً وبستاناً وأجرى لها الماء. وربع الرصافة يسمى عسكر المهدى، لأن المهدى عسكر به عند شخوصه من الرى.

وبنى المنصور قصره والجامع فى وسط المدينة وكان فى صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، وفى صدر الإيوان مجلس عشرون ذراعاً فى عشرين وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه من أول حد عقد القبة عشرون ذراعاً فصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعاً وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس بيده رمح.

وقد أنفق المنصور على مدينته هذه ثمانية عشر ألف ألف دينار على ما حكاه ياقوت. وفى بعض الروايات أقل من ذلك. ولما تم بناؤها حشر إليها المنصور العلماء من كل بلد وإقليم فأمها الناس أفواجاً ولم تزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الإسلامية فى عهد الدولة العباسية وأربى سكانها على مليونين. قال الخطيب البغدادى: لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير فى جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدد سكانها وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً فى أيام الرشيد إذ الدنيا قارة المضاجع دارة المراضع خصيبة المواقع موردة المشارع.

الأحوال الخارجية:

فى عهد المنـصور هرب عبد الرحمن بن مـعاوية بن هشام بن عبـد الملك بن مروان إلى بلاد الأندلس، وأسس بها الدولة الأمـوية الثانية وكـان المنصور يعجب به وبقدرته وعـزيمته التى جعلتـه وهو شريد طريد يؤسس ملكاً فى هذه البلدان القاصـية ولم يكن بين الرجلين بالضرورة علاقة حسنة ولم يتسم عبد الرحـمن بأمير المؤمنين بل تسمى بالأمير فقط. وهذه أول بلاد اقتطعت من الخلافـة الإسلامية الكبرى بالمشرق. أمـا مملكة الروم التى كانت تحاد الخلافـة الإسلامية من الشـمال فكان يعاصر المنصـور فيهـا قسطنطين الخامس، كمـا قدمنا وكانت العلاقة بين الأمتين منقطعة لا تترك إحداهمـا قتال الأخرى متى عنت الفرصة وكان من النظام المتبع فى الخلافـة إرسال الجيوش تغزو الروم فى الصـيف وتسمى بالصوائف ولم يكن ذلك ينقطع إلا لمانع.

أول ما حصل فى عـهد المنصور أن الروم بقيادة ملكهم أغـاروا (سنة ١٣٨) على ملطية وكانت إذ ذاك من الثـغور الإسلامـية فدخلوها عنوة وقـهروا أهلها وهدمـوا سورها ولكن الملك عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية.

ولما علم بذلك المنصور أغزى الصائفة عمه صالح بن على ومعه أخوه العباس بن محمد بن على فبنى ما كـان صاحب الروم هدمه من ملطية وقد أقام فى اسـتتمام ذلك إلى (سنة ١٣٩). ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغـلا فى أرض الروم وغزا مع صالح أختاه أم عيـسى ولبابة ابنتا على وكانتا نذرتا إن زال ملك بنى أمية أن تجاهدا فى سبيل الله

ـ وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهرانى.

وفى هذه السنة استقر الأمر بين المنصور وملـك الروم على المفاداة، فاستنقذ المنصور من الروم أسراء المسلمين.

وفى (سنة ١٤٠) غزا الـصائفة الحـسن بن قحطبـة مع عبد الوهاب بـن إبراهيم الإمام وأقبل قسطنطين صاحب الروم فى جـيش كثيف فنزل جيحان فبلغه كـثرة المسلمين فأحجم عنهم ثم لم تكن صائفة بعد ذلك إلى (سنة ١٤٦) لاشتغال أبى جعفر بأمر محمد وإبراهيم بنى عبد الله .

ولم تزل الصوائف بعد ذلك تتوالى إلى (سنة ١٥٥) وفـيها طلب صاحب الروم الصلح على أن يؤدى للمسلمين الجزية.

وكانت هذه الحروب بين الطرفين إغارات لم يقصد بها فتح بل كل واحد من الطرفين ينتهز الفرصة فيجتاز الحدود التى لصاحبه ثم يعود إلى مقره ثانية ولم تكن المصالحات يطول زمنها بل سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه.

أما حدود المملكة من الجهات الأخرى فكانت فى الغالب محلاً للاضطرابات ولكنها كانت تسكن حالاً بما يبذله المنصور من الهمة فى إرسال الجنود إليها ليقظته ومعرفته بالأمور على وجهها، وكان فى كل ثغر جنود مرابطون من المرتزقة وهم المفروض لهم عطاء فى الديوان ومن المتطوعة وهم الذين ينتدبون للجهاد فى سبيل الله لا يطلبون على ذلك أجراً إلا من الله، وكان الخليفة هو الذى يعين قائدهم وكان عددهم فى ذلك الوقت كثيراً.

صفات المنصور وأخلاقه:

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدة وبأساً ويقظة وثباتاً ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترتسم صورة هذا الرجل العظيم فى الأذهان.

كيف كان يقضى وقته:

كان شغله فى صدر النهار بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر فى الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره. فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره من ذلك فيما أرب، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره، فإذ مضى الثلث الثانى قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلى بالناس ثم يدخل فيجلس فى إيوانه.

كيف كان خلقه فى بيته وخارجه:

قال سلامة الأبرش: كان المنصور من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان فإذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه فيخرج فيكون منه ما يكون فإذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك فنستقبله فى ممشاه فربما عاتبنا. وقال له يوماً: يا بنى إذا رأيتنى قد لبست ثيابى أو رجعت من مجلسى فلا تدنون منى أحداً منكم مخافة أن أعره بشىء.

الجد فى بلاطه:

قال يحيى بن سليم كاتب الفضل بن الربيع: لم ير المنصور فى لهو قط ولا شىء يشبه اللهو واللعب والعبث إلا يوماً واحداً فإنا رأينا ابناً له يقال له عبد العزيز قد خرج على الناس متنكباً قوساً متعمماً بعمامة مرتدياً ببرد فى هيئة غلام أعرابى راكباً على قعود بين جوالقين فيهما مقل ومساويك ونعال وما يهديه الأعرابى فعجب الناس من ذلك، وأنكروه فمضى الغلام حتى عبر الجسر وأتى المهدى بالرصافة فأهدى إليه ذلك، فقبل المهدى الجوالقين وملأهما دراهم فانصرف بين الجوالقين فعلم أنه ضرب من عبث الملوك. وذكر عن حماد التركى قال: كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة فى الدار فقال: ما هذا يا حماد؟ انظر فذهبت فإذا خادم له قد جلس بين الجوارى وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فجئت فأخبرته فقال: وأى شىء الطنبور فوصفه له فقال له: أصبت صفته فما يدريك أنت ما الطنبور فقال: رأيته بخراسان ثم قام حتى أشرف عليهم، فلما بصروا به تفرقوا فأخذ الخادم الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرج من قصره.

كيف كان يهتم بعماله:

قال المنصور: ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم، قيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم إن نقصت واحدة تداعى وهى: أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ـ والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ـ والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى ـ والرابع ـ ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة: آه. قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة.

وولى رجلاً من العرب حضرموت فكتب إليه والى البريد أنه يكثر الخروج فى طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدهما فعزله وكتب إليه: (ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ما هذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش، إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحوش سلم ما كنت تبلى من عملنا إلى فلان ابن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً).

وظفر مرة برجل من كبراء بنى أمية فقال: إنى سائلك عن أشياء فاصدقنى ولك الأمان. قال: نعم. فقال المنصور: من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم؟ قال: من تضييع الأخبار. قال: فأى الأموال وجدوا أنفع؟ قال: الجواهر. قال: فعند من وجدوا الوفاء. قال عند مواليهم ـ فأراد المنصور أن يستعين فى الأخبار بأهل بيته ثم قال أضع من أقدارهم فاستعان بمواليه.

وذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى أن ولاة البريد فى الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول، وبكل ما يقضى به القاضى فى نواحيهم وبما يعمل به الوالى وبما يرد بيت المال وكل حدث، وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب ويكتبون إليه بما كان فى كل ليلة إذا صلوا الغداة فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شىء عن حاله كتب إلى الوالى والعامل هناك وسأل عن العلة التى نقلت ذاك عن سعره فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله. وإن شك فى شىء مما قضى به القاضى كتب إليه فى ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه.

ثباته عند الشدائد:

من الخلال التى ذللت للمنصور طريق النجاح أنه لم يكن من أولئك الرجال الذين يملأ الهم صدورهم قبل موقعه ويضيقون به ذرعاً إذا وقع بل كان رابط الجأش يقابل الكوارث بعزم صادق لا يبالى فيعد له ما يلزم من العدة: لما تتابعت الأحداث على أبى جعفر فى عهد محمد وإبراهيم ابنى عبد الله تمثل:

تفرقت الظباء على خداش ... فما يدرى خداش ما يصيد

ثم أمر بإحضار القواد والموالى والصحابة وأهل بيته وأمر حماداً التركى بإسراج الخيل وسليمان بن مجالد بالتقدم والمسيب بن زهير بأخذ الأبواب ثم خرج فى يوم من أيامه حتى علا المنبر فأزم عليه طويلاً لا ينطق ثم قال:

مالى أكفكف عن سعد ويشتمنى ... ولو شتمت بنى سعد لقد سكتوا

جهلا على وجبنا عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

ثم جلس وقال:

فألقيت عن رأسى القناع ولم أكن ... لأكشفه إلا لإحدى العظائم

والله لقد عجوا عن أمن قمنا به فما شكروا الكافى ولقد مهدوا فاستوعروا وغمطوا الحق وغمصوا فماذا حاولوا أشرب رنقاً على غصص أم أقيم على ضيم ومضض، والله لا أكرم أحداً بإهانة نفسى والله لئن لم يقبلوا الحق ليطلبنه ثم لا يجدونه عندى والسعيد من وعظ بغيره. قدم يا غلام ثم ركب.

لما قصد الكوفة حين علم بمخرج محمد كان معه عثمان بن عمارة وإسحاق بن مسلم العقيلي وعبد الله بن الربيع المدانى فقال عثمان: أظن محمدا خائباً ومن معه من أهل بيته إن حشو ثياب هذا العباسى لمكر ودهاء. إنه فيما نصب له محمد من الحروب لكما قال ابن جذل الطعان:

كم من غارة ورعيل خيل ... تداركها وقد حمى اللقاء

فرد مخيلها حتى ثناها ... بأسمر ما يرى فيه التواء

فقال له إسحاق بن مسلم: قد والله سبرته ولمست عوده فوجدته خشناً، وغمرته فوجدته صليباً، وذقته فوجدته مرا، وإن من حوله من بنى أبيه لكما قال ربيعة بن مكدم:

سمالى فرسان كان وجوههم ... مصابيح تبدوا فى الظلام زواهر

يقودهم كبش أخو مصمئلة ... عبوس السرى قد لوحته الهواجر

وقال عبد الله بن الربيع: هو والله خيس ضيغم شموس، للأقران مفترس وللأرواح مختلس وإنه فيما يهيج من الحروب كما قال أبو سفيان بن الحرث:

وإن لنا شيخنا إذا الحرب شمرت ... بديهته الإقدام قبل النوافل

ويكفيه فخراً أنه قام فى وجه معانديه ومخالفيه وهم كثيرون فى جهات شتى فقهرهم جميعاً ووطد دعائم الملك بعد أن كاد يذهب من آل العباس قبل أن يستقر إلا أنه يؤخذ عليه ويحط من شأنه غدراته الثلاث التى عرفت عنه فقد غدر بابن هبيرة بعد أن أعطاه الأمان ولم يبد من الرجل شىء يرتب وغدر بعمه عبد الله بن على بعد أن أعطاه الأمان وغدر بأبى مسلم وربما تكون له شبهة فى القضاء على عمه وعلى أبى مسلم، ولكن الذى لا يليق بخليفة المسلمين وإمامهم أن يستعمل الأيمان والعهود وسيلة لاستنزال أعدائه ثم يغدر بهم.

ومن غريب أمره أنه كان تزوج أروى بنت منصور الحميرى وهى أم ولديه محمد وجعفر الأكبر وكان شرط لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتب عليه بذلك كتابا أكدته وأشهدت عليه شهودا فعزب بها عشر سنين فى سلطانة فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة فكانت أروى إذا علمت بمكانه بادرته فأرسلت إليه بمال جزيل فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد. فانظروا كيف كان يحاول الخلاص من عقد عقده على نفسه ويريد أن يلقى تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم لمخالفة الضمائر والذمم، وإن كان هذا الحديث فى الجملة يدلنا على

أن الغدر لم يصر طبعاً للمنصور وإنما كانت حوادث مرت وحمله عليها السبب الذى لم يمكنه تلافيه.

اقتصاده:

عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد فى النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه ولذلك ترك لابنه المهدى ثروة جعلته مدة حكمه هادئ البال ينفق عن سعة ولا يخشى نفاداً. ولم يكن المنصور يعطى الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف، وإنما كانت أعطياته إلى القلة أميل وكان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون إلى السرف.

وكانت أرزاق العمال أيام المنصور (٣٠٠درهم) ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الأرزاق: الفضل بن سهل.

وعلى الجملة فلم يقم فى بنى العباس مثل المنصور فى ثباته وعلو همته وشدته على المريب واهتمامه بأمر العامة وجده فى بلاطه ـ وكان فوق ذلك كله فصيحاً يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة.

وكانت القوة الإسلامية فى يده وطوع أمره إلا أنها لم تكن عربية خالصة كما كان الحال فى الدولة الأموية وكانت قوة العرب لعهده لا تزال راجحة.

وفاة المنصور:

فى (سنة ١٥٨) حج المنصور. شخص من مدينة السلام متوجهاً إلى مكة فى شوال فلما صار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذى توفى به ولم يزل يزداد حتى وصل بستان ابن عامر فاشتد به وجعه، ثم صار إلى بئر ميمون وهو يسأل عن دخول الحرم ويوصى الربيع بما يريد. وتوفى فى سحر ليلة السبت (٦ذى الحجة سنة ١٥٨) ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع الحاجب فكتم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم لأمير المؤمنين المهدى ولعيسى بن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا وتوجه العباس بن محمد بن على ومحمد بن سليمان بن على إلى مكة ليبايعا الناس فبايعوا للمهدى بين الركن والمقام.

ثم أخذ فى جهاز المنصور وغسله وكفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر وجعل رأسه مكشوفاً من أجل أنه مات محرماً، وصلى عليه عيسى بن موسى ودفن بثنية المعلاة بعد خلافة مدتها (٢٢سنة) إلا ستة أيام رحمه الله.

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت. فالذكور محمد المهدى وجعفر الأكبر وامهما أروى بنت منصور الحميرية، وسليمان وعيسى ويعـقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيـد الله ـ وجعفر الأصغـر وأمه أم ولد كردية. وصالح المسكين وأمـه أم ولد رومية. والقاسم وأمه أم ولد وقد مات منهم جعفر الأكبـر والقاسم قبل وفاة المنصور والبنت اسمها العالية وأمها امرأة من بنى أمية وقد تزوج العالية إسحق بن سليمان بن علىّ.

٣
المهـــدى

هو محمد المهدى بن المنصور وأمه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى أم موسى. ولد (سنة ١٢٦) بالحميمة من أرض الشراة وكانت سنه إذ جاءتهم الخلافة ست سنوات. ولما استخلف أبوه كان فتى سنه عشر سنوات، ولما بلغ مبلغ الرجال كان أبوه يرشحه لولاية العهد فولاه (سنة ١٤١) وسنه (١٥سنة)قيادة الجنود المتوجهة إلى خراسان وأمره أن ينزل الرى حينما وقعت فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل المنصور (سنة ١٤٤) فلقيه أبوه بقرماسين ـ وانصرفا جميعاً إلى الجزيرة لمراقبة ثغورها ـ وفى هذه السنة بنى المهدى بريطة بنت أبى العباس السفاح وفى (سنة ١٤٧) ولاه أبوه العهد وقدمه على عيسى بن موسى ثم عاد إلى الرى فأقام إلى (سنة ١٥١) وفيها قدم على أبيه فبنى له ولجنده الرصافة وهى الجانب الشرقى من بغداد وولاه الحج (سنة ١٥٣) وفى (سنة ١٥٥) أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد ولم يزل يستعين به فى الأعمال حتى توفى فى التاريخ الذى تقدم ذكره (٦ من ذى الحجة ١٥٨) (٧ أكتوبر سنة ٧٧٥).

بيعة المهدى:

بعد أن أخذ الربيع بيعة المهدى على بنى هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور فى حجه وجه رسولاً إلى مدينة السلام بخبر الوفاة وبعث معه بقضيب النبى ﷺ وبردته التى يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة. وفى ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام ومكث فى خلافته إلى أن توفى ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم (سنة ١٦٩ ٤ أغسطس سنة ٧٨٥) بما سبذان فتكون مدته عشر سنين وشهراً ونصفاً.

وكان يعاصره فى بلاد الأندلس عبد الرحمن الأول مجدد الدولة الأموية فى المغرب. ويعاصره فى فرنسا شارلمان. ويعاصره فى مملكة الروم الشرقية لاون الرابع (٧٧٥ ـ ٧٨٠) ثم قسطنطين السادس ولصغره كانت أمه إيرينى أمره.

الحال فى عهد المهدى:

كانت خلافة المهدى مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور، فقد كان المنصور، يؤسس ملكاً له خصوم فكان يكتفى بالريبة والظنة فيعاقب بهما، وفى مثل ذلك كثيراً ما يؤخذ البرئ بالمذنب والمطيع بالعاصى، فلما جاء المهدى كانت الخلافة العباسية قد توطدت وأنياب العلويين قد كسرت، وإن كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة فهم لا يحتاجون فى الاحتراس منهم إلى مثل ما كان المنصور يحتاج إليه من الشدة فإن كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير لهم، فكانوا يعرضون عليه كل يوم، ولذلك كانت حياة المهدى حياة سعيدة لنفسه ولأمته وهو بعد أبيه يشبه فى كثير من الوجوه الوليد بن عبد الملك بعد أبيه.

فى أول ولايته أمر بإطلاق من كان فى سجن المنصور إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفاً بالسعى فى الأرض بالفساد أو كان لأحد قبله مظلمة أو حق فالذين أطلقهم من كان جرمهم سياسياً. أما أرباب الجنايات والمحبوسون لحقوق مدنية فإنهم ظلوا فى حبسهم وكان ممن أطلق يعقوب بن داود الذى سيأتى ذكره فى كبار الرجال فى عهد المهدى.

ومما أجراه من الإصلاح أمره ببناء القصور فى طريق مكة أوسع من القصور التى كان السفاح بناها من القادسية إلى زبالة وأمر بالزيادة فى قصور السفاح وترك منازل المنصور التى بناها على حالها. وأمر باتخاذ المصانع فى كل منهل وهى حيضان تبنى تملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلاً على رجال القوافل الذين لا ينقطع مرورهم من تلك الجهات وأمر بتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع وجعل لذلك عاملاً خاصاً يقوم به وأمر أن يجرى على المجذومين وأهل السجون فى جميع الآفاق حتى لا يحتاج المجذومين إلى المشى فى الطرق وسؤال الناس فيكونون سبباً فى انتشار المرض، وحتى يكون للمسجونين ما يقوم بأودهم فلا يموتوا جوعاً إلا من كان له أهل يسألون عنه.

وأقام البريد بين مدينة رسول الله ﷺ ومكة واليمن بغالاً وإبلاً ولم يقم هناك بريد قبل ذلك.

ومن آثاره زيادته فى المسجد الحرام فأدخل فيه دوراً كثيرة مما يحيط به ومما يؤخذ عليه أنه أمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوى وكتابة اسمه مكانه وقديماً شغف الملوك بهذه الإغارات التى تجعل ثقتنا ضعيفة بما نراه منقوشاً على الآثار فإن الخلف منهم كان إذا رأى للسلف أثراً باقياً يستحق به المدح والثناء، فسرعان ما يأمر بإزالة اسم

البانى ويضع اسمه كما حكى ذلك فى الآثار المصرية وهذا غش وتدليس على المتأخرين لا يحسن بالسوقة أن يفعلوه فضلاً عن الملوك ولكن هكذا كان.

وكان المهدى يجلس للمظالم وتدخل القصص إليه فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتاً له شباك حديد على الطريق تطرح فيهي القصص، وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولاً فأولاً فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض.

وكان المهدى مغرى بالزنادقة الذين يرفع إليه أمرهم فكان دائماً يعاقبهم بالقتل، ولذلك كانت هذه التهمة فى زمنه وسيلة إلى تشفى من يحب أن يتشفى من عدو أو خصم والذى أغراه بذلك ما كان من فتنة المقنع الخراسانى كان من إحدى قرى مرو، وكان يقول بتناسخ الأوراح فاستغوى بشراً كثيراً وصار إلى ما وراء النهر فوجه المهدى لقتاله عدة من القواد، فيهم معاذ بن مسلم وهو يومئذ على خراسان ثم أفرد المهدى لمحاربته سعيداً الحبشى وضم إليه القواد، فاستعد المقنع للحصار فى قلعة كبش فحاصره سعيد بقلعته ولما اشتد عليه الحصار وأحس بالهلكة شرب سماً وأسقاه نساءه وأهله فمات وماتوا جميعاً ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه.

الوزارة:

كان مظهر الوزارة فى عهد المهدى أوضح منه فى عهد أبيه المنصور لما كان من ركون المهدى إلى وزرائه واعتماده عليهم أكثر مما كان يعتمد أبوه وكان أول وزرائه كبير الكفاءة فإنه جمع له حاصل المكة ورتب الديوان وقرر القواعد، وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة وهو أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولى الأشعريين كان كاتب المهدى ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور إليه وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدى، فكان غالباً على أموره لا يعصى له قولاً، وكان المنصور لا يزال يوصيه به ويأمره بامتثال مشورته، فلما مات المنصور وولى المهدى فوض إليه تدبير المملكة وسلم إليه الدواوين وكان مقدماً فى صناعته وله ترتيبات فى الدولة منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة، وكان السلطان يأخذ على الغلات خراجاً مقرراً ولا يقاسم، فلما تولى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر وصنف كتاباً فى الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقة وقواعده وهو أول من صنف كتاباً فى الخراج وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتباً فى الخراج سيأتى ذكرها.

وكان الربيع الحاجب يساعد أبا عبيد الله ويقوم بتأييده عند المنصور إذا شكاه أحد

بشكوى، فلما توفى المنصور وقام الربيع بأمر بيـعة المهدى بمكة عاد إلى دار السلام فرأى أن يقابل أولاً أبا عبيـد الله قبل أن يرى المهدى فحضر إليه واسـتأذن عليه فلم يأذن له إلا بعد صلاة العشاء ولما دخل عليه كان متكئـاً فلم يقم له ولم يحفل به فقعد الربيع بين يديه على البسـاط وأبو عبيد الله متكئ فجعل يسائله عن مسيره وسفره وحاله ولم يسأله عما فعل فى أمر بيعة المهدى فذهب الربيع يبتدئ بذكره فقال له: قد بلغنا نبؤكم فقام الربيع متغير القلب على أبى عبـيد الله وقال لابـنه الفضل: والله الذى لا إله إلا هو لأخلعن جـاهى ولأنفقن مالى حتى أبلغ من أبى عبـيد الله. كان أبو عبيد الله من كبـار الوزراء، فهو أحذق الناس بصناعة الكتابة التى كانت فى تلك الأزمنة سلماً للوزارة وكان مع ذلك من أعف الناس فلم يجد الربيع مع دهائه ونـفوذ حياته مطعناً فـى أبى عبيد الله، لأنه كـان بعيداً عـما يكرهه الخلفاء من وزرائهم.

كان لأبى عبيد الله ابنٌ متهمٌ فى دينه وقـد أسلفنا ما كان المهدى يكره من الزندقة فرأى الربيع أن ذلك خيـر وسيلة للإفساد بين الخليـفة ووزيره فما زال يحـتل فى ذلك حتى اتهم المهدى ابن أبى عبيـد الله فأمر بإحضاره وقال: يا محـمد اقرأ فذهب ليقرأ فاسـتعجم عليه القرآن فقال لأبى عبـيد الله يا معاوية ألم تخبرنى أن ابنك جامع للقـرآن فقال: بلى يا أمير المؤمنين ولكنه فـارقنى منذ سنين، وفى هذه المدة نسى القرآن فـقال: (قم فتـقرب إلى الله بدمه) فذهب ليقوم فـوقع فقال العباس بن محمد يا أميـر المؤمنين إن شئت أن تعفى الشيخ ففعل وأمر المهدى بابنه فضرب عنقه.

كان بعد ذلك من السهل أن يتخوف المهدى من أبى عـبيد الله، لأنه قتل ابنه فاستوحش منه وبذلك بلغ الربيع مـا أراد واشتفى وزاد. وتـلك حال الأمراء المسـتبدين الـذين جعلوا آذانهم صيداً لكل قـول فلا يزال أهل الأهواء يلعبون بهم ويحرمونهم من خـدمة الصادقين من أنهم بمثل تلك التهم التى من السهل على المـفسدين توجيهها لأنهم لا ينتظرون تحـقيقاً وكانت وفاة أبى عبيد الله معزولاً(سنة ١٧٠) وكان عزله (سنة ١٦١).

استوزر المهدى بعده أباه عبد الله يعـقوب بن داود بن طهمان مولى بن سليم، كان أبوه قديماً كاتباً لنـصر بن سيار عامل بنى أمية على خـراسان خرج أولاده أهل علم وأدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ونظروا فإذا ليس لهم عند بنى العباس منزلة فلم يطمعوا فى خدمتهم لحال أبـيهم من كتابة نصر فأظهروا مقـالة الزيدية ودنوا من آل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ وطمعـوا أن يكون لهم دولة فيعيشـوا فيها، فكان يعقـوب يجول البلاد منفرداً بنفسه ومع إبراهيم بن عـبدالله أحيانا فى طلب البيعة لمحمد بـن عبدالله، فلما ظهر

محمد وإبراهيم كان عليّ بن داود كاتباً لإبراهيم وكان يعقوب من الخارجين مع إبراهيم، فلما قتل توارى عليّ ويعقوب وإخوتهما من المنصور فطلبهم وظفر بهم فأخذ علياً ويعقوب وحبسهما فى المطبق أيام حياته، فلما مات المنصور وبويع المهدى منّ عليهما فيمن منّ عليه، وكان معهما فى المطبق إسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فكانت بينهما صداقة كان المهدى يخشى الزيدية وتدبيرهم المكايد لملكه فكان يطلب رجلاً له معرفة بهم ليدخل بينهم وبينه فدل على يقوب، فلما دخل عليه وفاتحه وجده رجلاً كاملاً فسأله عن عيسى بن زيد فوعده يعقوب أن يدخل بينه وبينه، وكان الناس فى ذلك الزمن رموه بأن منزلته عند المهدى بإنما كانت للسعاية بآل عليّ وكان يعقوب يتبرأ من ذلك.

قرب المهدى يعقوب بن داود إليه وولاه وزارته بعد أبى عبد الله فأرسل للزيدية فأتى بهم من كل حدب وولاهم أمور الخلافة فى المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها فى يديه.

ومن علو منزلته أنه أمره المهدى بتوجيه أمنائه فى جميع الآفاق فكان لا ينفذ المهدى كتاباً إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك.

كان ذلك العلو داعياً لأن حسده موالى المهدى فسعوا عليه وأعانهم الشعراء فقال فى ذلك بشار بن برد:

بنى أمية هبوا طال نومكم	إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا	خليفة الله بين الناى والعود

كانت السعاية بيعقوب بسبب ميله لإسحاق بن الفضل وأنه يربض له الأمور، وأفهموا المهدى أن إسحاق يروم الخلافة وأن يعقوب يساعده وأن المشرق والمغرب فى يده وفى أيدى أصحابه وإنما يكفيه أن يكتب لهم فيثوروا جميعاً فى يوم واحد على ميعاد فيأخذ الدنيا لإسحاق بن الفضل، فملأ ذلك قلب المهدى وصادف أن طلب يعقوب من المهدى عقب ذلك ولاية مصر لإسحاق بن الفضل فتغير وجه المهدى ثم دس إليه جارية من جواريه وهبها له تتسمع ما يبدر منه ثم سلم إليه علوياً أمره بقتله فمنّ عليه يعقوب وأخرجه خفية وأخبر المهدى أنه قتله، وكانت الجارية قد أرسلت بخبر العلوى إليه فأرسل من جاءه به من الطريق، ولما رآه يعقوب سقط فى يده وأمر المهدى بإعادته إلى المطبق فحبس ولم يزل محبوساً حتى أخرجه الرشيد من سجنه. وأمر المهدى بعزل أصحاب يقعوب عن الولايات فى الشرق والغرب وأمر أن يؤخذ أهل بيته ويحبسوا ففعل ذلك بهم وكان ذلك (سنة ١٦٦) فكانت وزارته خمس سنوات.

وفى هذه الوزارة أحدث ديوان كـانوا يسمونه ديوان الأزمة وأول من عـمل ديوان الزمام عمر بن بزيع وذلك أنه لمـا جمعت له الدواوين فكر فإذا هو لا يضبطـها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فـاتخذ دواوين الأزمة وولى كـل ديوان رجلاً فكان واليه عـلى زمام ديوان الخراج إسـماعيل بن صبـيح ولم يكن لبنى أمية ديوان أزمـة وفى (سنة ١٦٨) ولى المهدى على بن يقطين ديوان زمام الأمة على عمر بن بزيع.

استوزر المهدى بعده الفيض بن أبى صالح وهو من أهل نيسابور وكان أهل بيته نصارى، فانتقلوا إلى بنى العباس وأسلموا وتربى الفيض فى الدولة العباسية وتأدب وبرع وكان سخياً مفضالاً متخرقاً فى ماله جواداً عزيز النفس كبير الهمة كثير البر والتيه واستمر الفيض وزيراً للمهـدى حتى مات ولم يسـتوزره أحد من الخلفـاء بعده ومات فى أول أيام الرشـيد (سنة ١٧٣)

الأحوال الخارجية:

كان منظر الخلافة فى داخل المملكة باهراً، وكـان كذلك مظهرها فى نظر الأمم الأخرى إلا أنه مما يؤسف سوء العلاقة بين الخـلافة المشرقية ببغداد وبين أميـر الأندلس عبد الرحمن الداخل فـقد كان المنـصور والمهدى يـهتمـان بأمره ويودان إزالة دولتـه، ولكن الشـقة بين الرجلين بعيدة، فلم يمكن واحد منهما أن يجرد له جيشاً يخترق صحارى أفريقية ويغزوه فى بلاد الأندلس فاكـتفى كل من الفريقين بمعاداة الآخـر وكان شارلمان فى ذلك الوقت مهـتماً بإعادة الدولة الرومانية الغربيـة التى أمحت آثارها وقد فطن إلى ما بين الطرفين المسلمين من العداوة فأحب الاستفادة منها والتقرب بمحاربة أمير الأندلس إلى قلب خليفة بغداد ليكتسب بذلك نفوذاً فى الخلافـة الإسلامية ويرتفع قدره على ملك الروم فى القـسطنطينية وجد فى ذلك حتى تمكن من إتمام هذه المواصلات فى عهد الرشيد كما سيأتى.

أما العلاقـات بين المهدى وبين ملك الروم فكانت سيئـة فلم تكن الإغارات من الطرفين تبطل بل كانـت الصوائف من طرف المسلمين كمـا كانت الإغارات مـن ملك الروم وكانت الحرب براً وبحراً.

وفى (سنة ١٦٣) احتـفل المهدى بأمر الصائـفة وولى أمرها ابنه هارون وفرض البـعوث على جميع الأجناس من أهل خـراسان وغيرها وخرج هارون مع الجـيش حتى أتى البردان فأقام به نحواً من شهرين يتعبأ ويتهيأ ويعطى الجنود وأخرج صلاة لأهل بيته الذين شخصوا معه وكانت هذه الغزوة من أهم الغـزوات فى عهد المهدى فتح الله عليهم فيها فـتحاً كثيراً

وأبلاهم فى ذلك الوجه بلاء جميلاً ففتحوا حصن سمالا بعد أن قاموا عليه ثمانية وثلاثين ليلة وقد نصب عليها المنجنيق حتى فتحت وكان فتحها على ثلاثة شروط ألا يقتل أهلها ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فأعطوا ذلك فنزلوا ووفى لهم هارون. ثم قفل بالمسلمين سالمين إلا من كان أصيب منهم بسمالا.

وفى (سنة ١٦٥) غزا الصائفة هارون مرة أخرى فوغل فى بلاد الروم وكان عدد جيشه (٩٥٧٩٣رجلاً) حمل لهم من العين (١٩٤٤٥٠ديناراً) ومن الورق (١٤١٤٨٠٠درهم)، ولم يزل الجيش سائراً حتى بلغ خليج البحر الذى على القسطنطينية، وكان الذى يقوم بأمر الروم «إيرينى» أم الملك نيابة عن ابنها فجرت بينها وبين هارون مكاتبات فى طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية فقبل منها ذلك هارون واشترط عليها أن تقيم الأدلاء والأسواق فى طريقه، لأنه قد دخل مدخلاً صعبا مخوفًا على المسلمين فأجابته إلى ما سأل. والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها (٩٠٠٠٠) دينار تؤديها فى نيسان من كل سنة وفى حزيران فقبل ذلك وأقامت له الأسواق فى منصرفه ووجهت معه رسولا إلى المهدى بما بدلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعروض وكتبوا كتاب هدنة إلى ثلاث سنوات وسلمت الأسارى. وقال مروان بن أبى حفصة فى هذه الغزوة لهارون.

أطفت بقسطنينية الروم مسندا	**إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها**
وما رمتها حتى أتتك ملوكها	**بجزيتها والحرب تغلى قدورها**

وكان قفول هارون من وجهه هذا محرم (سنة ١٦٦)، وقدمت الروم بالجزية معه وتبلغ (٦٤٠٠٠دينار) رومية و(٢٥٠٠ دينار) عربية و(٣٠٠٠٠ رطل) مرعزى.

وفى رمضان (سنة ١٦٨)أى قبل انقضاء مدة الهدنة نقض الروم الصلح وغدروا فوجه إليهم علىّ بن سليمان بن علىّ وهو والى الجزيرة وقنسرين يزيد بن بدر البطال فى سرية فردوا الروم وغنموا وظفروا. والنتيجة أن مدة المهدى كان أكثرها حرباً مع المسلمين والروم، وكان الفريقان فى موقف الدفاع أحيانا والهجوم أحيانا إلا أن الظفر كان فى الغالب للمسلمين.

غزو الهند:

كان المسلمون يملكون إلى نهر مهران الفاصل بين السند والهند، فأراد المهدى أن يغزى جنوده بلاد الهند ففى (سنة ١٥٩) وجه عبد الملك بن شهاب المسمعى فى البحر إلى بلاد

الهند وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات (١٥٠٠) ووجه معه قائداً من أبناء الشام فى (٧٠٠) من أهل الشام وخرج معه من متطوعة أهل البـصرة (١٠٠٠) رجل ومن الأسواريين والسبابجة (٤٠٠٠) فكان تمام عدتهم (٩٢٠٠) رجل مـضوا حتى أتوا مـدينة ياربد من بلاد الهند (سنة ١٦٠) فناهضوها بعد قدومهم بيوم وأقاموا عليـها يومين، فنصبوا المنجنيق وباهضوها بجميع الآلة وتحاشد الناس وحصن بعضهم بعضاً حتى فتحوها عنوة ودخلت خيلهم من كل ناحية حتى ألجأوهم إلى بلدهم فأشعـلوا فيها النيران والنفط وغلبوا أهلها عـلى أمرهم بعد أن قتل من المسلمين بضعة وعشـرون رجلا ثم أقاموا بالمدينة حتى يطيب لهم الريح فـأصابتهم أمراض مات بسـببها نحـو ألف منهم ثم انصرفوا حين أمكنهـم الانصراف حتى بلغوا سـاحلاً من فارس يقال له بحر حـمران فعصفت عليهم فـيه الريح فكسرت عامة مراكـبهم فغرق منهم بعض ونجا بعض ويظهر أن هذه الغزوة ليست إلا إغارة لا عملا يقصد به توسيع المملكة.

صفات المهدى:

كان المهدى لا يشرب النبيذ وإن كان سماره يشربونه فى مجلسه وكان يسمع الغناء وكان من خلقه الحياء والعفو فكان إذا وقع أحد من خصومه فى يده عفا عنه وكان يتأثر بالقرآن. كان فى حبســه موسى بن جعفر العلوى، فقـرأ مرة فى صلاته: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (محمد: ٢٢) فـأتم صلاته والتفت إلى الربيع وأمره بإحضار موسى، فلما جئ به قال له: يا موسى إنى قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لى أنك لا تخرج علىّ فقال: نعم فوثق له فخلاه.

وكان خليفة عادلاً يجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة فيزيل عن الناس مظالمهم ولو كانت قبله وكان إذا جلس للمظالم قال: أدخلوا على القضاة فلو لم يكن رديئ للمظالم إلا للحياء منهم لكفى. قال المسور بن مساور: ظلمنى وكـيل المهدى وغصبنى ضيعة لى فأتيت سلاماً صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدى وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافـية القاضى فأمـر المهدى بإدخاله وسأله عن مظلمـته فأخبره بهـا فقال له: ترضى بأحـد هذين؟ فقال: نـعم، فقال: تكـلم فقال مـساور أصلح الله القـاضى إن هذا ظلمنى فى ضيعتى وأشار إلى المهدى، فقال القاضى: ما تقول يا أمير المؤمنين قال: ضيعتى فى يدى فقال مـساور: أصلح الله القاضى، سله متى صـارت إليه الضيعة قـبل الخلافة أو بعدها قال المهدى: بعد الخلافة، قال القاضى: أطلقها له، قال: قد فعلت. والعدل والحلم والعفو فى الخلـفاء من الصفات التى تدل على علو أقـدارهم وعظيم سلطانهم وهكذا كان

المهدى مع ما امتاز به من الجـود وفصاحة اللسان، وكان أبوه قد علمه تعليماً عـربيا محضا فى صغره، وقـد ألف له المفضل الضبى أمثال العـرب وجمع له مختارات شـعرهم، وكان يقول: مـا تقرب إلى أحد بوسـيلة ولا تذرع بذريعة هى أقرب من تذكـيره إياى يداً سلفت منى إليه أتبعها أختها فأحسن ربها، لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل.

وكان المهـدى ميالا إلى السـنة يحب ألا يخالف سنة رسول الـله ﷺ، فمن ذلك أنه أمر بنزع المقاصـير من مساجد الجمـاعات وتصير منابرها إلى المقدار الذى عليـه منبر رسول الله ﷺ وكتب بذلك إلى الآفاق فـعمل به. وزار مرة مولاه أبا عون وهو مـريض فقال له: أوصنى بحاجتك فشكره أبو عون وقال: يا أمير المؤمنين حاجتى أن ترضى عن عبد الله بن أبى عون وتدعو به، فقد طالت موجدتك علـيه، فقال: يا أبا عون إنه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك إنه يقع فى الشيخين أبى بكر وعمر ويسىء القـول فيهما فقال أبو عون: هو والله يا أمير المؤمنين على الأمر الذى خرجنا علـيه ودعونا إليه، فإن كان قد بدا لكم فمرونا بما أحببتم حتى نطيعكم. ويظهر أن هذه الفـكرة كانت موجودة حقيقة فى مبدأ الدعوة العبـاسية ولكنهم رفضوها بعد أن كـان ما كان من أمر الطالبيين وثوراتهم المتـتالية، فرأى العباسيون أن يقتصروا بعلىّ رضى الله عنه على الدرجة التى كان عليها من التأخر فى الرتبة عن أسلافه من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين.

ولاية العهد:

قدمنا أن المهدى نزع من ولاية العهد عيـسى بن موسى بن علىّ وجعل محله ابنه موسى الهادى ثم جعل بعده ابنه هارون الرشيد.

وفاة المهدى:

فى (سنة ١٦٩) أراد المهدى الخروج إلى جرجان، فلمـا وصل إلى ماسبذان أدركته هناك منيته ليلة الخـميس لثمان بقين من المحرم فى قرية يقـال لها الروذ وصلى عليه ابنه هارون، لأنه كان فى صحبته.

٤
الهـــادى

هو موسى الهـادى بن محمد المهـدى بن جعفر المنصـور، وأمه أم ولد اسمهـا الخيزران كانـت ملكاً للمهـدى. وفى (سنة ١٥٩) أعتـقهـا وتزوجهـا أى بعد أن ولدت له الـهادى والرشيد. ولد الهادى (سنة ١٤٤) وولاه أبوه العهد وسنه (١٦سنة) وكان يوليه قيادة الجنود فى المشرق فقـادها فى نواحى بجرجان لمحاربة الخراجين والمخـالفين. وفى اليوم الذى توفى فيه أبوه كان مقيماً بجرجـان وكان مع المهدى ابنه هارون، فأخذ له البيعة على الجند وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة وكان ذلك فى (٢٢ محرم سنة ١٦٩) (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) ولم يزل خليفة حتى توفى في (١٣ ربيـع سنة ١٧٠) (١٣ سبتمبر سنة ٧٨٦) فكانت مدته سنة وشهراً و (٢٢ يوماً) وسنه حين مات (٢٦ سنة).

وكان يعاصره فى الممالك الثلاث من كانوا يعاصرون أباه.

الحال فى عهده:

كان الهادى على سنن أبيه فى كراهة الزنادقة، فـالتفت إليهم ونكل بهم تنكيلاً والزندقة على ما يظن عندهم عنواناً على ترك التدين والمجازفة فى الـتعبير عن الدين. روى الطبرى أن ممن قتل الهـادى يزدان بن باذان الكاتب. ذكر عـنه أنه حج فنظر إلى الناس فى الطواف يهرولون فقال: ما أشبههم إلا ببقرة تدوس فى البيدر وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى:

أيـا أمـين الله فـى خـلـقـــه ... ووارث الكـعــبــة والمنبــر
مـــاذا ترى فى رجـل كــافـــر ... يشــبــه الكـعـبــة بـالبــيـــدر
ويجـــعل الـناس إذا مـــا سـعــوا ... حــمــرا تدوس البــر والدوســر

روى الطبرى بسنده أن المهـدى قال يوماً لموسى وقـد قدم إليه زنديق فـاستتـابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه: يا بنى إن صـار لك هذا الأمر فتجود لهذه العصابة (يعنى أصحـاب مانى) فإنهـا تدعو الناس إلى ظاهر حسن كـاجتناب الفواحـش والزهد فى الدنيا

والعمل للآخرة ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق تنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية نور فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له فإني رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين.

ومن غريب ما يروى أنه أتى للمهدى برجلين من بنى هاشم، أحدهما ابن لداود بن على والثانى يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وقد اتهما بالزندقة وأقرا عنده بالزندقة، فأما يعقوب بن الفضل فقال له: أقر بها بينى وبينك، فأما أن أظهر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتنى بالمقاريض فقال له: ويلك لو كشف لك السموات وكان الأمر كما تقول كنت حقيقاً أن تعصب لمحمد: ولولا محمد ﷺ من كنت هل كنت إلا إنساناً من الناس.

أما والله لولا أنى كنت لله علىَّ عهدًا إذا ولانى هذا الأمر ألا أقتل هاشميا لما ناظرتك ولقتلتك ثم التفت إلى موسى الهادى فقال: يا موسى أقسمت عليك بحقى إن وليت هذا الأمر بعدى ألا تناظرهما ساعة واحدة، فمات ابن داود بن علىّ فى الحبس قبل وفاة المهدى، وأما يعقوب فبقى حتى مات المهدى وقدم موسى من جرجان فساعة أن دخل ذكر وصية المهدى إلى يعقوب من ألقى عليه فراشًا وأقعدت عليه الرجال حتى مات.

ثورة الحسين بن على:

وفى عهد الهادى خرج بالمدينة الحسين بن علىّ بن الحسن المثلث (سنة ١٦٩)، وكان والى المدينة لوقته عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وسبب خروجه أن عمر بن عبد العزيز أحدَّ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم فأمر بهم فضربوا جميعاً ثم أمر بهم فجعل فى أعناقهم حبال وطيف بهم فى المدينة، فصار إليه الحسين بن علىّ فكلمه فيهم وقال له: ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأساً فلمَ تطوف بهم فبعث إليهم وقد بلغوا البلاط فردهم وأمر بهم إلى الحبس فحبسوا يوماً وليلة ثم كلم فيهم فأطلقهم جميعاً وكانوا يعرضون كما قدمنا (يراقبون) ففقد الحسن بن محمد وكان الحسين بن علىّ ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلاه، لأن العمرى كان كفل بعضهم من بعض فغاب عن العرض ثلاثة أيام فأخذ الكفيلين وسألهما عنه، فحلفا أنهما لا يدريان موضوعه فكلمهما بكلام أغلظ لهما فيه، فحلف يحيى بن عبد الله ألا ينام حتى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره حتى يعلم أنه قد جاءه، فلما خرجا قال الحسين: سبحان الله ما دعاك إلى هذا وأين تجد حسناً حلفت له

شيء لا تقدر عليه قال: والله لا نمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف، فقال حسين: تكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة قال: قد كان الذى كان فلابد منه وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنى أو بمكة أيام الموسم، وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم وممن كان بايع الحسين بن علىّ، ففى آخر الليل خرجوا وجاء يحيى بن عبد الله حتى ضرب باب دار مروان على العمرى، فلم يجده فيها وتوارى منهم فجاؤوا حتى اقتحموا المسجد. ولما أذن الصبح جلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء وجعل الناس يأتون المسجد فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلون، فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ للمرتضى من آل محمد وقاومهم جماعة من نصراء الدولة فلم يفلحوا ولما تم للحسين بن علىّ ما أراد انتهبت جماعته ما فى بيت المال.

أقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج أحد عشر يوماً، ثم فارقها لست بقين من ذى القعدة قاصداً مكة.

انتهى خبر الحسين إلى الهادى، وقد كان حج فى تلك السنة رجال من أهل بيته منهم محمد بن سليمان بن علىّ والعباس بن محمد وموسى بن عيسى سوى من حج من الأحداث، وكان على الموسم سليمان بن أبى جعفر المنصور، فأمر الهادى بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب، فلقيهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحج. وكان محمد بن سليمان قد خرج فى عدة من السلاح فشمر للحرب وسار نحو الحسين بن على فلقيه بفخ وكانت عاقبة الوقعة أن قتل الحسين بن علىّ الثائر وجماعة ممن معه وأفلت من الموقعة رجلان لهما تاريخ جليل وهما إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علىّ أخو محمد النفس الزكية وهو مؤسس دولة الأدراسية بالمغرب الأقصى والثانى أخوه يحيى بن عبد الله الذى ذهب إلى بلاد الديلم وسيأتى خبرهما فى دولة الرشيد.

ومما يحسن ذكره ما رواه الطبرى قال: دخل عيسى بن داب على موسى بن عيسى عند منصرفه من فخ فوجده خائفًا يلتمس عذرا من قتل فقال: أصلح الله الأمير أنشدك شعرا كتب به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن علىّ رضى عنه قال: أنشدنى فأنشده:

يا أيها الراكب الغادى لطيته ... على عذافرة فى سيرها قحم

أبلغ قريشا على شحط المزار بها ... بينى وبين حسين الله والرحم

وموقف بفناء البيت أنشده ... عهد الإله وما ترعى به الذمم

عنقتم قومكم فخرا بأمكم ... أم حصان لعمرى برة كرم

هى التى لا يدانى فضلها أحد ... بنت النبى وخير الناس قد علموا

وفضلها لكم فضل وغيركم ... من قومكم لهم من فضلها قسم

إنى لأعلم أو ظنًا كعالمه ... والظن يصدق أحياناً فينتظم

أن سوف يترككم ما تطلبون بها ... قتلى تهاداكم العقبان والرخم

يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ خمدت ... وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا

لا تركبوا البغى إن البغى مصرعة ... وإن شارب كأس البغى يتخم

قد جرب الحرب من قد كان قبلكم ... من القرون وقد بادت بها الأمم

فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخاً ... فرب ذى بذخ زلت به القدم

قال: فسرى عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه.

صفات الهادى:

كان الهادى شديد الغيرة على حرمه ويشبه فى ذلك سليمان بن عبد الملك فى بنى أمية، وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد أن كان لها من نفوذ الأمر فى عهد المهدى ما لم يكن لامرأة غيرها (قالوا) كانت الخيزران فى أول خلافة موسى الهادى تفتات عليه فى أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله فى الاستبداد بالأمر والنهى، فأرسل إليها ألا تخرجى من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك وكانت الخيزران فى خلافة موسى كثيراً ما تكلمه فى الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته وانهال الناس عليها وطمعوا فيها فكانت المواكب تغدو إلى بابها فكلمته يوماً فى أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً فاعتل بعلة فقالت: لا بد من إجابتى قال: لا أفعل قالت فإنى قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك فغضب موسى وقال: ويلى على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لا قضيتها لك قالت: إذًا والله لا أسألك حاجة أبدا قال: إذًا والله لا أبالى وحمى غضبه فقامت مغضبة فقال: مكانك تستوعبى كلامى والله وإلا فأنفى من قرابتى من رسول الله ﷺ لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتى أو خدمى لأضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم أما لك مغزل يشغلك

ـ مصحف يذكرك أو بيت يصونك إياك ثم إياك فتحك بابك على مسلم أو ذمى فانصرفت ـ تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها.

وكان شجاعاً قويا روى عنه أنه كان يثب على الدابة وعليه درعان.

وكان يرى الناس لا يصلحون إذا حجب خليفتهم عنهم حتى أنه قال للفضل بن الربيع لتى أقامه فى حجابته بعد أبيه لا تحجب عنى الناس فإن ذلك يزيل عنى البركة ولا تلق لىّ أمرا إذا كشفته أصبته باطلا، فإن ذلك يوقع الملك ويضر بالرعية، وقال مرة لعلىّ بن صالح: إئذن للناس علىّ بالجفلى لا النقرى ففتحت الأبواب فدخل الناس على بكرة أبيهم فلم يزل ينظر فى المظالم إلى الليل.

وكان الهادى يشرب النبيذ ويسمع الغناء وهو أول من فعل ذلك من خلفاء بنى العباس وأهل العراق يتوسعون فى أمر النبيذ فيجيزون منه ما لا يسكر.

وكان كريما يشبه أباه فى أعطياته. ولم تطل مدته فى الخلافة حتى يكون له فى أحوال الأمة أثر ظاهر.

ولاية العهد:

كان الرشيد ولى العهد بمقتضى عهد المهدى فخطر للهادى أن يخعله ويعهد إلى ابنه جعفر وتابعه على ذلك القواد ودسوا إلى الشيعة فتكلموا فى أمر الرشيد وتنقصوه فى مسجد الجماعة وقالوا: لا نرضى به. وأمر الهادى ألا يسار بحربة أمام الرشيد ومر يوماً هو وجعفر بن الهادى راكبين فبلغا قنطرة من قناطر عيساباذ فالتفت أبو عصمة الشرطى إلى هارون فقال له: مكانك حتى يجوز ولى العهد فقال هارون: السمع والطاعة للأمير فوقف حتى جاز جعفر. دعا ذلك إلى اجتناب الرشيد فلم يكن أحد يجترئ أن يسلم عليه ولا يقربه وكان يحيى بن خالد يقوم بإنزال الرشيد ولا يفارقه فسعى إلى الهادى أن الذى يفسد عليك هارون هو يحيى وكان هارون قد طاب نفسا بالخلع فقال له يحيى: لا تفعل فدعا الهادى بيحيى وكلمه فى ذلك فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال له الهادى: صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير. ومع ظهور اقتناع الهادى بصحة رأى يحيى لم يتركه مشيروه بل ما زالوا يحرضونه على الرشيد حتى جد فيه واشتد غضبه منه وضيق عليه فأشار يحيى على الرشيد أن يستأذنه فى الخروج إلى الصيد

فأذن له الهادى. فلما غاب أكثر مما استأذن جعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل الرشيد حتى تفاقم الأمر وأظهر الهادى شتمه وبسط واليه وقواده ألسنتهم فيه.

قطع ذلك النزاع كله مرض الهادى الذى لم يمهله إلا ثلاثة أيام. وقد اتهم الناس أمه الخيزران بسمه لما كان منه من غل يدها عن المداخلة فى أمر الملك ونهى القواد والرؤساء عن الدخول إليها وانضم إلى ذلك ما أولع به الهادى من الإساءة إلى الرشيد وإرادة عزله أو قتله وكان الرشيد براً بها وقد يؤكد ذلك أنه أرسلت إلى يحيى والهادى مريض تعلمه أن الرجل لمآبه وتأمره باستعداد لما ينبغى فاستعد يحيى للأمر أكمل استعداد وهيأ الكتب للعمال من الرشيد بوفاة الهادى وأنه قد ولاهم الرشيد ما كانوا يولون. فلما مات الهادى نفذت الكتب على البرد وكانت وفاته بعيساباذ.

٥
الرشـــــيد

هو هارون الرشيد بن محمد المهدى وأمه أم الهادى ولد بالرى (سنة ١٤٥) ولما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الأمور. جعله أمير الصائفة (سنة ١٦٣) و(سنة ١٦٥) وفى (سنة ١٦٦) جعله أبوه ولى عـهد بعد الهادى وفى (سنة ١٦٩) وهى السنة التى توفى فـيها المهدى أراد أن يقدمه على الهادى لما ظهر من شجـاعته وعلو شأنه فحالت منية المهدى دون ذلك.

بويع الرشـيـد بالخـلافـة يوم أن مـات أخـوه الهـادى فى (١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠) (١٤سبـتمـبر سنة ٧٨٦) وسِنُّـه (٢٥سنة) ولم يزل خليفـة إلى أن توفى فى ثالث جـمادى الآخرة (سنة ١٩٤) (٢٤مارس سنة ٨٠٨) فكانت مدته (٢٣سنة وشهرين و ١٨ يوماً) وكان سِنُّه إذ توفى (٤٨سنة).

وكان يعاصـره فى الأندلس الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ـ١٧٢) ثم هشـام بن عبد الرحمن (١٧٢ـ١٨٠) ثم الحكم بن هشام (١٨٠ـ٢٠٦).

وفى المغرب الأقـصى إدريس بن عبد الله بن الحسـن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب (١٧٢ـ١٧٧) وهو أول المتغلبين من البيت الإدريسى ثم ابنه إدريس (١٧٧ـ٢١٣).

ويعاصره فى فرنسا شارل الكبير المعروف بشارلمان (٧٦٧ـ٨١٤).

ويعاصـره فى مملكة الروم بالقسطنطينيـة قـسطنطين السـادس، وكانت تدبره لصغـره أمه أرينى (٧٨٠ـ٧٩٧) ثم استبدت بالملك من (سنة ٧٩٧) إلى (سنة ٨٠٢) ثم خُلِعَت وخلعها نقفور (٨٠٢ـ٨١١).

الحال فى عهده:

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة إلى أفخم درجاتها صولة

وسلطاناً وثروة وعلماً وأدباً ارتفعت فيه حضارة الدولة العلمية والأدبية والمادية إلى أرقى درجاتها مما سنفصله بعد، ووصل ترف الأمة فى حاضرة الدولة وغيرها من الحواضر إلى حد يؤذن بقرب الهبوط، وكان فى عهد الرشيد من كبار الرجال من تزدان بهم الممالك من رجال الإدارة والحرب، فعظمت الهيبة فى الداخل والخارج وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقى كما سنبين ذلك كله مفصلاً، ونحن الآن ذاكرون الحوادث الكبرى التى كان لها أثر فى مستقبل الأمة.

الطالبيون:

كان الطالبيون شغل بنى العباس الشاغل فإنهم كانوا لا يزالون متطلعين إلى نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تتحين الفرصة الملائمة لإقامة دولتهم وكان بنو العباس من أجل ذلك، لا يأمنون جانبهم لكن الرشيد فى أول ولايته أراد أن يستميل قلوبهم بشىء من الإحسان إليهم وكان أول ما فعله معهم أن رفع الحجر عمن كان منهم ببغداد وسيرهم إلى المدينة ما خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن على وكان أبوه الحسن فيمن أشخص. ومع هذا الذى بدا منه لم يتركه الطالبيون على سجيته فكان من أول الخارجين عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وهو من الناجين من وقعة فخ التى كانت فى عهد الهادى ذهب إلى بلاد الديلم، فاشتدت شوكته بها وقوى أمره ونزع إليه الناس من الأمصار والكور، فاغتم الرشيد لذلك وترك شرب النبيذ ثم ندب إلى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد فى خمسين ألفاً ومعه صناديد القواد فسار سمت يحيى فكاتبه ورفق به واستماله وحذره وأشار عليه وبسط أمله وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وحملت إليه فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسره وعظم موقعه عنده وكتب الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل عليه بذلك إلى يحيى فقدم وورد به الفضل بغداد فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقاً سنية وأنزله منزلاً سرياً بعد أن أقام بمنزل يحيى بن خالد أياماً وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك إلى غيره وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه وبلغ الرشيد الغاية من إكرام الفضل لذلك وسنبين خاتمة أمره فى حديث نكبة البرامكة ولم يترتب على خروج يحيى هذا إنفصال شىء من جسم الخلافة الإسلامية.

إدريس بن عبد الله:

كان إدريس بن عبـد الله بن الحسن ممن هرب من وقعة فخ، وهذا أخـو يحيى سار إلى مصر ومنهـا اتجه إلى بلاد المغرب الأقصى فالتف عليـه برابرة أوربة فكون هناك أول خلافة للعلويين وهى دولة الأدراسة، وكان نزوله بمدينة وليلى (سنة ١٧٢)، وكانت بيعته فى تلك السنة، ولما بلغ هارون أن أمـر إدريس قد استـقام ببلاد المغـرب وكثـرت جنوده وفتح بلاد تلمسان وأنه عازم على غزو أفريقيا همَّ أن يرسل إليه جيشاً ولكن عدل عن ذلك لبعد الشقة واختار رجلاً داهية اسـمه سليمان بن جرير ويعرف بالشمـاخ وطلب منه أن يحتال فى قتل إدريس وزوده ملاً وطرفـاً يستـعين بها على أمره فـسافر الرجل ووصـل إلى إدريس مظهراً النزوع إليه متـبرئاً من الدعوة العباسيـة فقبله إدريس واختص به وأعجب بحديثـه ولما انتهز الفرصة سَمَّه إما فى طيـب وإما فى سنون وفر هارباً فمات إدريس (سنة ١٧٧) ولم يكن له ولد إلا أمة كانت حاملاً فانتظروا وضع حـملها فوضعت ولداً ذكراً سُمِّى إدريس على اسم أبيه وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الأدارسة بالمغرب رغم أنف الرشيد.

وبذلك تم خروج إقيلمين عظيمين عن الخلافة العباسية وهما بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية الأموى وبلاد المغرب الأقصى مع تلمسان على يد إدريس بن عبد الله.

كان الرشيـد بسبب هذه الحوادث يخاف الطالبيين جـداً ومن اتهم من الناس بالميل إليهم عاقبـه أشد العقوبات وأخذ موسى بن جـعفر المعروف بالكاظم إلى بغداد فـأقام بها إلى أن مات وهو السادس من أئمة الشيعة الإمامية.

الخارجون عليه من غير العلويين:

لم يكن اضطراب الدولة وزعزعة الأمن ناشئاً من العولين وحدهم، بل كان هناك فريق من الأمة ينعى على الخلفاء استبدادهم وخروجهم عما توجبه الأوامر الشرعية من كتاب الله وسنة نبيه وقـد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على علىّ بن أبى طـالب إلى زمن الرشيد إلا أن خلفاء بنى أمـية أخفتوا صـوتهم بما كانوا يجردون لهم من الجيـوش الجرارة على يد أمهـر القواد كالمهلب بن أبى صـفرة وغيـره ومع ذلك فإنهم لم يقـدروا على إفناء روحهم الثورية من الأمـة، فكان لا يزال يخرج منهم خـارجة متى ظـهر فيـهم ذو مقدرة وكـفاءة لخوض الحروب. وقد اشتهر زمن الرشـيد بخوارج أولِى بأسٍ شديدٍ أعادوا تاريخ أسلافهم فى عهد بنى أمـية بعد أن كانت نيرانـهم قد خبت مدة طويلة وأشهـر هؤلاء الخوارج ذكراً وأعظمهم أثراً الوليـد بن طريف الشارى الشيبـانى كان بطلاً شجاعاً يقـيم بالجزيرة بنواحى

نصيبين خرج على الرشيد (سنة ١٧٨) ففتك بإبراهيم بن خازم بنصيبين ثم مضى منها على أرمينية ثم رجع إلى الجزيرة (سنة ١٨٩) واشتدت بها شوكته وكثرت أتباعه بعد أن هزم للرشيد جيوشاً عدة فاهتم الرشيد بأمره جد الاهتمام ورأى أن يوجه إليه من ربيعة من يمكنه القيام فى وجهه فوقع اختياره على يزيد بن مزيد الشيبانى وهو ابن أخى معن بن زائدة فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويماكره متبعاً فى ذلك طريقة المهلب بن أبى صفرة مع قطرى بن الفجاءة، وكانت البرامكة منحرفين على يزيد فقالوا له: إنه يراعيه لأجل الرحم وإلا فشوكة الوليد يسيرة فوجه إليه الرشيد كتاباً مغضباً وقال: ولو وجهت أحداً من الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ليبعثن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين فلقى يزيد الوليد، ولما اصطف جيشاهما وشبت الحرب ناداه: يا وليد ما حاجتك إلى التستر بالرجال أبرز لى، فقال: نعم والله، فبرز الوليد وهو يرتجز:

أنا الوليد بن طريف الشارى	قسورة لا يصطلى بنارى

جوركم أخرجنى من دارى

وبرز إليه يزيد ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد فتطاردا ساعة وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه وكانت هذه الواقعة بالحديثة على فراسخ من الأنبار (سنة ١٧٩) ثم وجه يزيد برأس الوليد وبكتاب الفتح إلى الرشيد. ومن ألطف الرثاء ما قالته الفارعة أخت الوليد:

بتل نهاكى رسم قبر كأنه	على جبل فوق الجبال منيف
تضمن محدباً عد ملياً وسؤدداً	وهمة مقدام ورأس حصيف
فيا شجر الخابور مالك مورقاً	كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى	ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم	معاودة للكر بين صفوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم	مقاماً على الأعداء غير خفيف
ولم تستلم يوماً لورد كريهة	من السرد فى خضراء ذات رفيف
ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح	وسمر القنا ينكرانها بألوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى	فإن مات لا يرضى الندى بحليف

فـقـدناك فـقـدان الشـبـاب وليتنا | فـديناك من فـتـيـانـنـا بألوف
ومـا زال حـتى أزهق الموت نفسـه | شـجـا لعـدو أو نحـا لضـعـيف
ألا يا لـقـوم للـحـمـام وللبلى | وللأرض همت بعـده برجـوف
ألا يالـقـومى للنوائب والردى | ودهـر ملـح بـالـكرام عـنـيف
وللبـدر من بـين الكواكب إذ هوى | وللشـمـس لما أزمـعت لكسـوف
ولليـث كل الليـث إذ يحـمـلونه | إلى حـفـرة مـلحـودة وسـقـيف
ألا قاتل الله الحشـا حيث أضمرت | فـتى كان للمـعـروف غير عيوف
فـإن يك أوداه يزيد بن مـزيد | فـرب زحـوف لـفـهـا بزخـوف
عليـه سـلام الله وقـفـاً فـإننى | أرى الموت وقـاعـاً بكل شـريف

خطر المشرق:

وضح الخطر على الدولة من قبل المغرب فـقد انتفضت أطرافها بخـروج عبد الرحمن بن مـعاوية وإدريس بـن عبـد الله وليس الخطر على هذا الطرف بـأقل أثراً من الخطر على الطرف الآخر وهو مشرق الدولة وراء نهـر جيحون فقد حصل ما يؤذن بخطر مـستقبل من جراء والى خراسان.

استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد فى توليـة علىّ بن عيسى بن ماهان خراسان فأشار إليه ألا يفعل، فخالفه الرشيد وولاه إياها، فلما شخص إليها ظلم الناس وجمع مالاً جليلاً ووجه إلى الرشـيد بهدايا لم ير مـثلها من الخيل والرقـيق والثياب والأمـوال فقعد الرشـيد بالشماسية على دكان مرتفع حين وصل إليه ما بعث به علىّ بن عيسى وإلى جانبه يحيى بن خالد فقـال له: هذا الذى أشرت ألا نوليه هذا الثغـر فقد خالفناك فـيه فكان فى خلافك بركة وهو كالمازح مـعه إذ ذاك فقال يحيى: يا أميـر المؤمنين جعلنى الله فداك أنا وإن كنت أحب أن أصيب فـى رأيى وأوفق فى مشورتى فـأنا أحب إلىَّ من ذلك أن يكون رأى أميـر المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمـه أكثر من علمى ومعرفته فوق مـعرفتى وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن فـيه ما يكره أمير المؤمنين، وأسأل الله أن يعـيذه ويعفيه من سوء عـاقبته ونتائج مكروهة قال: وماذا ذاك قال: أحسب أن هذه الهدايا مـا اجتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف وأخذ أكثرها ظلماً وتعدياً ولو أمرنى أميـر المؤمنين لأتيته بصفتها الساعة من بعض

تجار الكرخ، قال: وكيف ذاك قال: قد ساومنا عوناً على السفط الذى جاءنا به من الجوهر وأعطيناه به سبعة آلاف ألف فأبى أن يبيعه فأبعث إليه الساعة بحاجتى يأمره أن يرده إلينا لنعيد فيه نظرنا فإذا جاءنا به جحدناه وربحنا سبعة آلاف ألف، ثم كنا نفعل بتاجرين من تجار الكرخ مثل ذلك وعلى أن هذا أسلم عاقبة وأستر أمراً من فعل علىّ بن عيسى فى هذه الهدايا بأصحابها فأجمع لأمير المؤمنين فى ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعى وأيسر أمر وأجمل جباية مما جمعه علىّ فى ثلاث سنين. فوقرت فى نفس الرشيد وحفظهما وأمسك عن ذكر علىّ بن عيسى فلما عاث علىّ بن عيسى بخراسان ووتر أهلها وأخذ أموالهم واستخف برجالهم كتب رجال من كبرائها ووجهائها إلى الرشيد وكتب جماعة من كورها إلى قراباتهم وأصحابهم يشكون سوء سيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه ونسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به فدعا يحيى بن خالد فشاوره فى أمر علىّ بن عيسى وفى صرفه،فأشار عليه بيزيد بن مزيد فلم يقبل مشورته. وكان قيل للرشيد: إن علىّ بن عيسى أجمع على خلافك فشخص إلى الرى من أجل ذلك فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى (سنة ١٨٩)، ثم سار إلى الرى ثم إلى قرماسين، ثم عاد إلى الرى فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه علىّ بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطرف، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم، فرأى الرشيد منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يقال فيه فرضى عنه ورده إلى خراسان وخرج وهو مشيع له.

عاد على بن عيسى إلى مرو ناقماً على كل من يظن أنه تكلم فيه بسوء فآذى الناس وأخذ منهم الأموال ظلماً. وحصل فى تلك الظروف أن أعلن العصيان رافع بن ليث بن نصر بن سيار وجده نصر من قد عرفتم فى التاريخ الأموى. أما رافع فيظهر أنه كان ممن يتخذ دين الله هزواً ولعباً ويتضح ذلك من السبب الذى من أجله ثار. كان يحيى بن الأشعث الطائى تزوج ابنة عمه وكانت ذات يسار ولسان فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند، فلما طال مقامه بها وبلغها أنه اتخذ أمهات أولاد التمست سبباً للتخلص منه وبلغ رافعاً خبرها فطمع فيها وفى مالها فدس إليها من قال لها إنه لا سبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله وتحضر لذلك قوماً عدولاً وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تتوب فتحل للأزواج ففعلت ذلك وتزوجها رافع وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث فرفعه إلى الرشيد فكتب إلى علىّ بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعاً ويجلده الحد ويقيده ويطوف به فى مدينة سمرقند مقيداً علىّ حمار حتى يكون عظة لغيره فدرأ عنه سليمان بن حميد الحد وفعل به العقوبات الآخرى وحبسه فهرب من الحبس ولحق بعلىّ بن

عيسى طالباً أمانه فلم يجبه على إليه، وهم بضرب عنقه فكلمه فيه ابنه عيسى بن علىّ وجدد طلاق المرأة وأذن له فى الانصراف إلى سمرقند فانصرف إليها فوثب بعاملها سليمان بن حميد فقتله فوجه إليه علىّ بن عيسى ابنه عيسى وكان أمره قد استفحل بسمرقند وبايعه الناس وطابقه من وراء النهر فلقى رافع عيسى بن علىّ وهزمه فأخذ على فى فرض الرجل والتأهب للحرب. أما رافع فإنه غلظ أمره وكاتبه أهل نسف يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن علىّ فوجه صاحب الشاش فى أتراكه وقائداً من قواده فأتوا عيسى بن علىّ فأحدقوا به وقتلوه ولم يعرضوا لأصحابه، وكان علىّ بن عيسى فى ذلك الوقت ببلخ، فلما سمع ما أصاب ابنه خرج عنها حتى أتى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولى عليها وكان عيسى ابنه قد دفن فى بستان داره ببلخ أموالاً عظيمة قيل إنها كانت ثلاثين ألف ألف درهم، ولا يعلم بها علىّ بن عيسى ولا أطلع عليها إلا جارية كانت له، فلما شخص علىّ إلى بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة بلغ الرشيد الخبر فقال: خرج من بلخ بغير إذنى وخلف مثل هذا المال وهو يزعم أنه قد أفضى إلىّ حلى نسائه فيما أنفق على محاربة رافع. فى ذلك الوقت تبينت له خيانة الرجل وجبنه وسوء سياسته لأهل ولايته فعزم على خلعه ومصادرته فأحضر هرثمة بن أعين وهو قائد شجاع بطل، فقال له: إنى لم أشاور فيك أحداً ولم أطلعه على سرى فيك وقد اضطربت على ثغور المشرق وأنكر أهل خراسان أمر علىّ بن عيسى إذ خالف عهده ونبذه وراء ظهره وقد كتب يستمد ويستجيش وأنا كاتب إليه فأخبره أنى أمده بك وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة وما يطمئن إليه قلبه وتتطلع إليه نفسه وأكتب معك كتاباً بخطى فلا تقضه ولا تطلعن فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامتثله ولا تجاوزه إن شاء الله وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى علىّ بن عيسى بخطى ليتعرف ما يكون منك ومنه وهون عليه أمر علىّ فلا تظهرنه عليه ولا تعلمنه ما عزمت عليه وتأهب للمسير وأظهر لخاصتك وعامتك أنى أوجهك مدداً لعلىّ بن عيسى وعوناً له. وكان كتابه لعلىّ بن عيسى مبدوءاً بهجر وفيه توبيخ وتقريع له على مخالفته وإعلام له بما أمر هرثمة أن يفعله معه. أما عهده لهرثمة فهو:

(وهذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته وأن يجعل كتاب الله إماماً له فى كل ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرم حرامه، ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله وأولى العلم بكتاب الله أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه

رأيه ويعزم له على رشده. وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصلح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفئ المسلمين فإذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك نظر فى حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذى حق حتى يرده إليه، فإن ثبتت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التى إن تخطاها بأدنى أدب تلفت نفوسهم وبطلت أرواحهم فإذا خرجوا من حق كل ذى حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطأة وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك فإنى آثرت الله ودينى على هواى وإرادتى فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك ودبر فى عمال الكور الذين تمر بهم فى صعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمر يريبهم وظن يرعبهم وأبسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفتك ومن ولاك الله أمره إن شاء الله. هذا عهدى وكتابى بخطى وأنا أشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيداً) وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته.

شخص هرثمة وقد اختار من ثقات رجاله ولاة على كور خراسان مع وصيتهم بكتمان أمرهم إلى اليوم الذى عينه لهم حتى إذا وصل مرو خرج علىّ بن عيسى لمقابلته لأن هرثمة لم يدع مجالاً للريبة إلى قلبه فلما دخلا المنزل أطلعه على كتاب الرشيد إليه وأول كلمة منه تنبىء عن يقينه فأسقط فى يده وبعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيده وكذلك قيد أولاده وكتابه وعماله ثم ذهب هرثمة إلى المسجد الجامع فخطب وبسط من آمال الناس وأخبرهم أن أمير المؤمنين ولاه ثغورهم لما انتهى إليه من سيرة الفاسق علىّ بن عيسى وما أمره به فيه وفى عماله وأعوانهم وأنه بالغ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وأمر بقراءة عهده عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء. ثم صادر جميع ما يملكه علىّ بن عيسى هو وأولاده وكتابه وأرسل كل ذلك إلى الرشيد وقالوا أنه حمل على (١٥٠٠ بعير) وأرسل هرثمة إلى الرشيد يخبره بما صنع. ولما استوفى ما عند علىّ بن عيسى أرسله هو وأولاده فى الأغلال إلى بغداد.

وقد اهتم هرثمة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد إلى الذهاب بنفسه لحربه فشخص يريد خراسان فى ربيع الآخر (سنة ١٩٣) وهى السفرة التى مات فيها بطوس فلم يصل إلى ما أراد وبقى رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال.

وزراء الرشيد:

أول وزراء الرشيد يحيى بن خالد بن برمك. ولمـا كانت أسرة البرامكة من أعظم الأسر تاريخاً وأشهرها اسماً فى صدر الدولة العباسية أحببنا أن نشرح أوليتها.

أسرة البرامكة:

تنسب هذه الأسرة إلـى جدها برمك وهو من مجـوس بلخ، وكان يخـدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقـد فيه النيران، فكان برمك وبنوه سدنة له، وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم يُعلم هل أسلم أو لا؟ لما جـاءت الدعوة العباسية خـراسان، كان خالد بن برمك من أكبر دعاتهـا وزعمائها وكان ذا صفات عالية أهلته للسـيادة ورفعة القدر فى صدر الدولة حتى استوزره أبو العباس السـفاح بعد هلاك أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال، فكان مدبر أمره غير أنه لم يكن يسمى وزيراً واستمر على ذلك حياة أبى العباس، ثم ولى أبو جعفر أبقى خالداً فى منصبـه مدة ثم ولاه فارس بتدبير أبى أيوب الموريانى الذى تولى الوزارة بعـده فأقام فـيهـا مدة، ثم انكسـرت عليه جمـلة من المال فحمـل إلى بغداد وطولب بالمال، ذكر الطبرى فى حوادث (١٥٨) أن أبا جـعفر ألزمه ثلاثة آلالف ألف ونذر دمه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك فاستعان فى ذلك أصدقاءه فأعانه كثير منهم حتى جمع فى يومين ألفى ألف وسبعمائة ألف درهم. وفى غد ذلك اليوم الذى أصيب فيه بهذه المصيبة ولاه المنصور ولاية الموصل، وكان ممدوح الولاية حسن السيرة. قال أحمد بن محمد بن سوار الموصلى: ما هبنا قط أميراً هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرية، ولكن هيبة كانت له فى صدورنا والياً على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالد (سنة ١٦٣) فى أوائل خلافة المهدى.

أما يحيى بن خالـد فكان واحد الدنيا علماً وأدباً وفضلاً ونبـلاً وجوداً رباه أبوه فأحسن تربيته، وكان مولده (سنة ١٢٠)، فكانت سنُّه حين جاءت الدولة العباسية اثنتى عشرة سنة فتـربى فى كنف الدولة وكان عـضد أبيه فى مـلماته وشدائده وقـد اختاره المـنصور لولاية أذربيجـان (سنة ١٥٨)، قال له: أردتك لأمر مـهم من الأمور واختـرتك لثغر من الثـغور وكانوا لا يولـون ثغورهم إلا من كانـت ثقتهم به عـظيمة فـسار فى ولايتـه سيـرة أبيه فى الموصل واستمر بها حتى مات المنصور.

وفى (سنة ١٦٣) اختاره المهدى ليكون كاتباً ووزيراً لابنه هارون فكان يدبر أمره وهارون لا يناديه إلا بيا أبـى، وذلك لأن زوجة يحيى أم ابنه الفـضل، أرضعت هارون بلبـان ابنها

الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون وخرج معه فى غزوة الصائفة (سنة١٦٣) وكان على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره، وكان فى تلك الغزوة الربيع بن يونس الحاجب غازياً عن المهدى فكان الذى بين الربيع ويحيى على حسب ذلك، وكان هارون يشاورهما ويعمل برأيهما ولما ندب المهدى يحيى لذلك المهم قال له: إنى قد تصفحت أبناء شيعتى وأهل دولتى واخترت منهم رجلاً لهارون ابنى أضمه إليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقعت عليك خبرتى له ورأيتك أولى به إذ كنت مربيه وخاصته وقد وليتك كتابته وأمر عسكره.

ولما ولى المهدى ابنه هارون المغرب كله (سنة ١٦٤) من الأنبار إلى أفريقية أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك، فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها واستمر على حاله تلك إلى أن مات المهدى ولما ولى الهادى أبقاه على حاله مع هارون حتى إذا خطر ببال الهادى أن يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى فإنه هو الذى جرأه على الاستمساك بحقه الذى منحه إياه أبوه المهدى، وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع فقال له يحيى: لا تفعل فقال: أليس يترك لى الهنىء والمرىء فهما يسعانى وأعيش مع ابنة عمى، وكان هارون يجد بأم جعفر وجداً شديداً فقال له يحيى: وأين هذا من الخلافة ولعلك ألا يترك هذا فى يدك حتى يخرج أجمع ومنعه من الإجابة فسُعِى إلى الهادى بيحيى. وقيل له: إنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده يحيى بن برمك فأرسل إليه الهادى، وقال له: لم تدخل بينى وبين أخى وتفسده علىَّ فقال: يا أمير المؤمنين، من أنا حتى أدخل بينكما ؟ إنما صيرنى المهدى معه وأمرنى بالقيام بأمره فقمت بما أمرنى به ثم أمرتنى بذلك فانتهيت إلى أمرك. ثم قال له: لما كلمه فى أمر الخلع يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال: صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير، ومما قاله فى هذا: يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر أسأل الله ألا نبلغه وأن يقدمنا قبله أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم. قال: والله ما أظن ذلك. قال: يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو إليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك. فقال له: نبهتنى يا يحيى. قال: وكان يقول: ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى وقال له: لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك، أما كان ينبغى أن تعقد له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى له، ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده فقبل الهادى قوله. ولكن يظهر أن الذى

كان يحرك الهادى إلى خلع الرشيد مما لا تمكن مقاومته فـاشتد غضبه منه وضيق عليه فقال يحيى لهارون اسـتأذن فى الخروج إلى الصيد، فـإذا خرجت فاستبعـد ودافع الأيام، ففعل ذلك هارون وخرج إلى قـصر مـقاتل فأقـام به أربعين ليلة حتى أنكر الـهادى أمره وغـمه حتباسه وجعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل عـليه حتى تفاقم الأمر وأظهر شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتـهم فيه وكـان الذى ينوب عن يحيى والرشيـد بالباب الفـضل بن يحيى فكان يكتب إلى أبيه بكل ما يحدث.

ولما لم يرى الهادى يحيى بـن خالد يرجع عما كان عليـه لهارون بما بذل من إكرام ولا قطاع ولا صلة بعث إليـه يتـهـدده بالقتـل إن لم يكف عنه ولم تزل الحـال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتل موسى علته التى مات فيها فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ودبره حسن تدبير فقلده الرشيد وزارته وزارة تفويض حـيث قال له: قلدتك أمر الرعية وأخرجته من حقى إليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واسـتعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ما ترى، ودفع إليه خاتمه وفى ذلك يقول إبراهيم الموصلى:

ألم تر أن الشـمس كانـت سقـيمـة   فلمـا ولى هـارون أشـرق نورها

بيـمن أمين الله هـارون ذى الندى   فـهـارون واليـهـا ويـحـيى وزيرها

وكانت الخـيزران هى الناظرة فى الأمور وكـان يحيى يعـرض عليها ويصـدر عن رأيها وكان يحيى بمـا أوتيه من كريم الخلق وسماحـة النفس وجودة الكتابة غرة فـى دولة الرشيد وكان قـبلة الآمال ومتـجع الرواد. وقد ضم إليـه الرشيـد فى (سنة ١٧١) خاتم الخـلافة فاجتمعت له الوزارتان .

وكان ليحيى أربعة من الأولاد كلهم سادة نجب وهم الفضل وجعفر ومحمد وموسى بنو يحيى.

فأمـا الفضل فـهو أكـبر الإخـوة ولد أواخر (سنة ١٤٨) قـبل ولادة الرشيد بـأيام وقد أرضعت كلاً منهـما أم الآخر، ولما شب كان لأبيه يـحيى كما كان يحـيى لأبيه خالد، ولما ولى أبوه وزارة الرشيد كان الفضل ينوب عنه فى جلائل أعماله ولما ولد محمد الأمين جعله الرشيد فى حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أباً.

وفى (سنة ١٧٦) كـان خروج يحـيى بن عبـد الله بن الحسن ببـلاد الديلم فأهـم أمره الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحيى فولاه كور الجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان ولم يزل يحتـال فى أمر يحيى حتى استنزله من معقله بأمان من غير أن يريق فى ذلك نقطة دم إلا حسن السياسة، وقد عرف الرشيد ذلك للفضل فبلغ الغاية فى إكرامه ومدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال مروان بن أبى حفصة:

ظفـرت فـلا شلت يد برمكيـة ... رتقت بهـا الفـتـق الذى بين هاشم
على حين أعـيـا الـراتقين التـئـامـه ... فكفـوا وقـالوا لـيس بالمتـلائم
فـأصبـحت قـد فـازت يداك بخطة ... من المجـد باق ذكـرهـا فى المواسم
ومـا زال قـدح الملك يخرج فـائزا ... لكم كلمـا ضـمـت قـداح المسـاهم

وقال أبو ثمامة الخطيب:

للفـضل يوم الطـالقـان وقـبله ... يوم أناخ به عـلى خـاقـان
مـا مـثل يومـيـه الـلذين تواليـا ... فى غـزوتين توالتـا يـومـان
سـد الثـغـور ورد ألـفـة هاشم ... بعـد الشتـات فـشـملهـا متـدان
عـصمت حكومـته جـماعـة هاشم ... من أن يجـرد بـينهـا سـيـفـان
تلك الحكومـة لا التى عن لبـسـهـا ... عظـم النبـا وتفـرق الحكمـان

وفى (سنة ١٧٨) ولاه الرشيد خـراسان وثغورها فأحسن السيـرة بها وبنى بها الرباطات والمساجـد. وغزا ما وراء النهـر فخـرج إليه ملك أشروسنة وكـان ممتنعاً، ويقـال إنه اتخذ برخـراسان جنداً مـن العجم سـمـاهم العبـاسـية، وجـعل ولاءهم له وإن عـدتهم بلغت (٥٠٠٠٠٠ رجل) وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فـسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقى منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم وفى ذلك يقول مروان بنى أبى حفصة.

مـا الفـضل إلا شهـاب لا أفـول له ... عند الحـروب إذا مـا تـأفل الشـهب
حـام على ملك قوم غـر سـهمـهم ... من الـوراثة فـى أيديـهم سـبـب
أمست يد لبنـى ساقى الحجـيج بها ... كـتـائـب مـالهـا فى غـيـرهم أرب
كـتائب لنبى الـعبـاس قد عـرفت ... ما ألف الفضل منهـا العجم والعرب
أثبت خـمس مـئين فى عـدادهم ... من الألوف التى أحصت لك الكتب
يقـارعـون عـن القـوم الـذين هم ... أولى بأحـمد فى الفـرقان إن نسـبوا
إن الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق ... يبـقى عـلى جـود كـفـيـه ولا ذهب
مـا مـر يـوم له من شـد مـئـزره ... إلا تمـول أقـــوام بمـا يـهـب

كم غاية فى الندى والبأس أحرزها   للطالبين مـــداها دونه تعب
يعطى اللها حين لا يعطى الجواد ولا   ينبو إذا سلت الهندية القضب
ولا الرضا والرضا لله غايته   إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
قد فاض عرفك حتى ما يعادله   غيث مغيث ولا بحر له حدب

ولما قدم من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أبى جعفر يستقبله وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف فوصلهم وأحسن جوائزهم وكان رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين بأطرافها وذلك (سنة ١٧٩)، وكان الفضل فى جميع الأعمال التى أسندت إليه كفؤاً نزيهاً، وكان من أكثر البرامكة كرماً، وكان أكرم من أخيه جعفر. وكان الناس يسمونه فى بدء أعماله بالوزير الصغير واستمر محمود السيرة مرفوع الرأس فى المهمات حتى كانت النكبة الآتى ذكرها.

وأما جعفر فهو ثانى أولاد يحيى وكان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر، وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر وكان من ذوى الفصاحة المشهورين باللسن والبلاغة وكان أبوه قد ضمه إلى أبى يوسف يعقوب القاضى حتى علمه وفقهه وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل. وقال الرشيد يوماً ليحيى: ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفراً بذلك فقال يحيى: لأن الفضل يخلفنى قال: فضم إلى جعفر أعمالا كأعمال الفضل فقال يحيى: إن خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك فجعل إليه أمر دار الرشيد، فسمى بالوزير الصغير، وقال له يوماً: قد أحببت ان انقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى، فاكتب أنت إليه فكتب يحيى إلى الفضل قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن نحول الخاتم من يمينك إلى شمالك فأجابه الفضل قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين فى أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه فقال جعفر: لله در أخى ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منه العقل عنده وأوسع فى البلاغة ذرعه.

وفى (سنة ١٦٧) ولاه الرشيد مصر زيادة على ماله من الأعمال فى دار السلام فولاها من قبله عمر بن مهران.

وفى (سنة ١٨٠) هاجت العصبية بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها فاغتم الرشيد لذلك فعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له: إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا فقال له جعفر:

بل أقيك بنفسى فشخص فى جملة القواد والكراع والسلاح فأصلح بين الناس وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً فعادوا إلى الأمن والطمأنينة وأطفأ تلك الثائرة وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال منصور النميرى:

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة ... فهذا أوان الشام تخمد نارها

إذا جاش موج البحر من آل برمك ... عليها خبت شهبانها وشرارها

رماها أمير المؤمنين بجعفر ... وفيه تلافى صدعها وانجبارها

رماها بميمون النقيبة ماجد ... تراضى به قحطانها ونزارها

تدلت عليه صخرة برمكية ... دموع لهام الناكثين انحدارها

غدوت تزجى غاية فى رؤوسها ... نجوم الثريا والمنايا ثمارها

إذا خفقت راياتها وتجرست ... بها الريح هال السامعين انبهارها

فقولوا لأهل الشام لا يسلبنكم ... حجاكم طويلات المنى وقصارها

فإن أمير المؤمنين بنفسه ... أتاكم وإلا نفسه فخيارها

هو الملك المأمول للبر والتقى ... وصولاته لا يستطاع خطارها

وزير أمير المؤمنين وسيفه ... وصعدته والحرب تدمى شفارها

ومن تطوى أسرار الخليفة دونه ... فعندك مأواها وأنت قرارها

وفيت فلم تغدر لقوم بذمة ... ولم تدن من حال ينالك عارها

طبيب بإحياء الأمور إذا التوت ... من الدهر أعناق فأنت جبارها

إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له ... ملمات خطب لم ترعه كبارها

لقد نشأت بالشام منك غمامة ... يؤمل جدواها ويخشى دمارها

فطوبى لأهل الشام يا ويل أمها ... أتاها حياها أو أتاها بوارها

فإن سالموا كانت غمامة نائل ... وغيث وإلا فالدماء قطارها

أبوك أبو الأملاك يحيى بن خالد ... أخو الجود والنعمى الكبار صغارها

كأين ترى فى البرمكيين من ندى ... ومن سابقات ما يشق غبارها

غدا من نجوم السعـد من حل رحله	إليك وعـزت عـصبـة أنت جـارها
عـذيرى من الأقـدار هل عـزمـاتهـا	مـخلفـتى عن جعـفـر واقـتسـارها
فــعين الأسى مـطروقــة لفــراقــه	ونفــسى إليــه مــا ينام ادكــارها

ولما شخص جـعفر من هذه المهمـة ازداد الرشيد له إكرامـاً وخطب جعفر أمامـه خطبة جميلة استشفع فيها لأهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم.

وفى هذه السنة ولاه الرشيد خراسان ثم عزله منهـا بعد عشرين ليلة وولاه الحرس وكان يخلفه فى هذا العمل هرثمة بن أعين وهو من كبار قواد الدولة.

وفى (سنة ١٨٢) بايع الرشـيد لا بنه عبـد الله المأمون بولاية العـهد بعد أخـيه محـمد الأمين وضمـه إلى جعفـر بن يحيى ليكون المدبر لأمـره، كما كـان الأمين مع الفضل بن يحيى وقـد جعل الرشيـد الأمين والى المغرب كله والمأمون والى المشـرق كله وكانت الولاة التى ترسل إلى الأقاليم من قبل ولى العهد.

وأما موسى بن يحيى، فكان أشجع القوم وأشدهم بأساً لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه الفضل وجعفر إلا أنه كان فى تلك الدولة عاملاً سرياً وقائداً باسلاً ولاه الرشيد الشام (سنة ١٨٦) لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التى ذهب فـيها أخوه جعفر وضم إليه من القواد والأجناد ومشـايخ الكتاب جماعـة، فلما ورد الشام أقام بها حـتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها فانتهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام ورد الرشيد الحكم فيهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وعما كان بينهم وأقدمهم بغداد. فقيل فى موسى بن يحيى:

قــد هاجت الشـام هـيـجـاً	يشــيب رأس وليــده
فــصب مــوسى عليـهـا	بخـــيلـه وجـنـوده
فــدانت الشــام لما	أتـى بسنخ وحــيـده
هـو الجــواد الـذى بـذ	كـل جــود بجــوده
أعــداه جــود أبيــه	يحــيى وجـود جـدوده
فـجـاء مــوسى بن يحـيى	بطـارف وتـليــده
ونـال مــوسى ذرى المجــد	وهو حــشـو مــهـوده
خــصـصـتــه بمديحى	منشــوره وقـصــيـده
مـن البــرامك عـــود	لـه فــأكــرم بعــوده
حــووا عـلى الشــعــر طرا	خــفـيـفـه ومــديده

وقد اتهمه على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب فى اضطراب خراسان عليه وأعلمه طاعة أهلها لموسى ومحبتهم إياه وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال إليهم للوثوب به معهم فوقر ذلك فى نفس الرشيد عليه وأوحشه منه، فلما قدح على بن عيسى فيه أسرع ذلك فى الرشيد، وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له، فلما صار إلى الحيرة فى حجه (سنة ١٨٧) وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس بين عيسى بن موسى فركبت أم الفضل بن يحيى فى أمره ولم يكن الرشيد يردها فى شىء فقال: يضمنه أبوه فقد رفع إلىّ فيه فضمنه يحيى ودفعه إليه ثم رضى عنه الرشيد وخلع عليه.

وأما محمد بن يحيى، فكان سرياً بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة ما لإخوته كانت هذه الأسرة فى عهد الرشيد غرة فى جبين دولته جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاد، وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام، كما كانوا مبرزين فى حلبة الجود والسخاء تهزهم الأريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضن به الكرام حتى أنسو الناس ذكر الأولين.

خدمت هذه الأسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد بن برمك من كبار دعاتها وقوادها إلى هذه السنة (سنة ١٨٧) التى نسطر فيها أخبار نكبتها على يد الرشيد.

نكبة البرامكة:

أولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم فى تعرف أسباب إيقاع الرشيد بهم. لم يكن هذا العمل بدعاً فى الدولة العباسية فإن للمنصور والمهدى سلفاً فى ذلك، فقد أوقع المنصور بوزيره أبى أيوب المورياني وقتله وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم وأوقع المهدى بوزيريه أبى عبد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحسن سيرته ومع ما كان للمهدى من الوقوع بالثانى حتى كتب للجمهور أنه اتخذ أخاه فى الله. كل هذا قد سبق به الرشيد.

يرى المؤرخ أن طبيعة الملك الاستبداد أى يحب الملك فيه أن يكون ذا السلطان الذى لا يشارك والحول الذى لا يقاوم واليد الطولى التى لا تضارعها يد وكبار الرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لا يقف عند حد فى الانتفاع بتلك السابقة لهم، فلا يزالون يترفعون حتى تتنبه إليهم أفكار الخلفاء بما يلقيه إليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم فتدخل الغيرة فى قلوب أولئك الخلفاء والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال فلا تزال معايبهم تتجسم وهفواتهم

صغيرة تعظم وحينئذ يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الإيقاع بمن كان سيفه الذى لا ينبو فى الخطوب إشفاقاً من هذا السيف أن ينقلب عليه فينتقص منه ملكه الذى دونه كل شيء وليس هذا خاصـاً بالرشيد والبرامكة بل كل مـستبد هذا شـأنه مع وزرائه وأعوانه إلا قليلاً من الوزراء الذين يعلـمون طباع الملك فيـقفون عند حـد لا يهيج الغيرة والحسد فى قلوب الناس وقلب السلطان وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمـر، لأنهم يتغلبون على ما فى طبع الإنسان من عدم الوقوف عند حد فى العظمة والتكاثر فى الأموال على أن أبا عبد الله وزير المهدى مع نزاهتـه وبعده عمـا يوجب غيرة سلطانه جـاءه أعداؤه من قبل ابنه فـقالوا للمهدى: إنه زنديق فقتله المهدى فكان ذلك سبباً للوحشة بين المهدى ووزيره.

كان يحـيى بن خالد هو القـائم بأمر الرشـيد أيام المهدى وكـان الرشـيد يدعوه يا أبى، وكانت أم الفضل بن يحيى ظـئراً للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشـيد الفضل بن يحيى، فكان يحيى هو الذى يكلفـه ويقوم بتربيتـه من لدن ولد إلى أن شب. وهو الذى كانت له اليد الطولى فى إخفاق المساعى التى بذلت لخلع الرشـيد من ولاية العهد أيام الهادى، فلما تولى الرشـيد قلده وزارته وزارة تفـويض ثم ضم إليـه وزارة الخاتم بعـد وفاة الفـضل بن سليمان الطوسى فاجتمعت له الوزارتان وأعـانه فى العمل أبناؤه إلا أن الشهرة ونباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جمـيعاً من الكفاية حتى روى القاضى يحيى بن أكثم قال: سـمعت المأمون يقـول: لم يكن كيـحيى بن خالد وولده أحـد فى الكفاية والبـلاغة والجود والشـجاعة قال القـاضى: فقلت: يا أميـر المؤمنين أما الكفايـة والبلاغة والسمـاحة فنعرفها فيهم ففيمن الشجاعة ؟ فقال موسى بن يحيى: وقد رأيت أن أوليه ثغر السند.

ولم يكونوا فى الاتصال بالرشـيد على درجة واحدة، فكان يحـيى صاحب المقام الأرفع وهو المدبر أمر المملكة وحاله فى سنِّه وجلالة قدره تبعده عما يدعو إليه الشباب من المنادمة وكان الفضل فى الأخـلاق مثله فلم يكن يخف على قلب الرشـيـد لتشبهه بأبيـه حتى كان الرشيد قد عتب عليه وثقل مكانه عليه لتـركه الشراب معه، فكان الفضل يقول: لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى ما شربتـه وكان مشغوفاً بالسماع. أما جـعفر فكان أخف الجميع على قلب الرشيد، فكان لذلك يدخل فى منادمته حتى كان أبوه ينهاه ويأمره بترك الأنس به فيترك أمر أبيه ويدخل مـعه فيما يدعوه إليه ويقال إنه كتب إليه حين أعـيته الحيلة فيه. إنى إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمك وإن كنت لأخشى أن تكون التى لا سوى لها. وقد كان يحيى قال للرشيد: يا أمـير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك علىَّ منك، فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كـان ذلك واقعـاً بموافقـتى وآمنٌ لك على. قـال الرشـيـد: يا أبت ليس بك هذا

ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل. ومن أجل ذلك كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيماً جداً حتى كان يقضى أعظم الأمور فلا يرد له الرشيد قضاء.

رآهم الناس بعد هذا العز المتين والرف الباذخ منكوبين على يد الرشيد، ابن يحيى وأخو الفضل وحبيب جعفر. فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الأنبار فى آخر ليلة من محرم (سنة ١٩٧) بعد أوبة الرشيد من حجه وكتابته عهدى ولديه الأمين والمأمون ـ ثم جسمه مصلوب ببغداد على ثلاثة جسور ثم أحرق. ويحيى بن خالد وأبناؤه الباقون محبوسون، ورأو مصادرة لكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق ـ ورأوا كتباً أرسلت إلى جميع العمال فى نواحى البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم وأمراً بالنداء فى جميع البرامكة أن لا أمان لمن أواهم إلا محمد بن خالد بن برمك وولده وأهله وحشمه، فإن الرشيد استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة. رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والأوهام ناسين ذلك لحادث فجائى حدث فغير قلب الرشيد هذا التغيير، وأداه إلى هذا العمل شأن الناس فى الأعصار كافة إذا عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع.

نسب ذلك بعضهم إلى مجرد الملل والغيرة. وسئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال: والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم، ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول، والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما رأوا مثلها عدلاً وأمناً وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان رضى الله عنه حتى قتلوهم، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بأمالهم دونه والملوك تتنفس بأقل من ذلك فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الإدلال خاصة الفضل وجعفراً دون يحيى فإنه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأمور ولاذ من أعدائهم بالرشيد كالفضل بن الربيع وغيره فستروا المحاسن وأظهروا القبائح حتى كان ما كان.

ونسب ذلك بعضهم إلى حادثة يحيى بن عبد الله بن الحسن الذى روينا حديث ذهابه إلى بلاد الديلم واستنزال الفضل بن يحيى إياه بأمان الرشيد ـ ذكر أبو محمد اليزيدى وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن الحسن فلا تصدقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ثم دعا به ليلة من الليالى فسأله عن شىء من أمره فأجابه إلى أن قال: اتق الله فى أمرى ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ فو الله ما أحدثت حدثاً ولا آويت

محدثاً، فرق عليه وقـال: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أوجد بعد قيل فأرد إليك أو على غيرك فوجـه معه من أداه إلى مأمنه وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عـليه من خاصة خـدمه، فعلم الأمـر فوجده حـقاً وانكشف عنده فدخل على الرشـيد فأخبره فـأراه أنه لا يعبأ بخبره وقـال: ما أنت وهذا لا أم لك، فلعل ذلك عن أمرى فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهـما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله قـال: بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال. قال: بحياتى. فـأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهناً وأصحهم فكراً، فهـجس فى نفسه أنه قـد علم بشىء من أمره، فقـال: لا وحياتك يا سـيدى ولكن أطلقته وعـلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده قال: نعـماً فعلت، ما عـدوت ما كان فى نفسى فلما خرج اتبعه بصره حتى كـاد يتوارى عن وجهه ثم قال: قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان.

ونسب ذلك بعضـهم إلى حديث العبـاسة بنت المهـدى الذى رواه الطبرى عن زاهر بن حرب. وتناقلهـا المؤرخون وزادوا عليه ونقصـوا منها وهى حكاية مشـهورة ونحن نريد أن نبين أن نكبة البرامكة ليست حادثة فجائية بل هى حادثة تقـدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضاً.

كان من موالى العباسيين الفضل بن الربيع وقـد قدمنا ذكر أبيه الربيع بن يونس فى حياة المنصـور والمهدى، ولم يكن للفـضل فى أول خلافـة الرشيـد شىء من نباهة الـذكر، لأن الخيزران أم الرشيد كانت تمنعه أن يوليه شيـئاً، ففى اليوم الذى توفيت فيه (سنة ١٧٤) دعا به هارون، فقال له: وحق المهدى إنى لأهم لك بالليل بالشىء من التـولية وغيرها فتمنعنى أمى فأطيع أمرها فـخذ الخاتم من جعفـر وكان بيده نيابة عن والده فقـال الفضل بن الربيع لإسماعيل بن صبيح الكاتب: أنا أجل أبا الفضل عن ذلك بأن أكتب إليه وآخذه ولكن أرى أن يبعث به. وهذه مجاملة سببها أن الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شىء فأحب أن يتخذ عندهم يداً حتى لا يتخوفوه وولى الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة وولايات أخرى.

فى (سنة ١٧٦) حصلت حـادثة يحيى بن عبد الله فـاستنزله الفضل من معـقله بأمان الرشيـد فحضـر إلى بغداد وأكـرمه الرشيـد، لكن الزمان لم يطل على هذا الإكـرام، فإن السعاة رفعوا عن يحيى ما يريب وكان الرشيد يرتاب بأقل شىء فرفع إليه أن يحيى لا يزال يدعو إلى نـفسه وإنما ينتظر الـفرص وكان أكـثر الناس سـعاية فى ذلك بكار بن عـبد الله

الزبيرى وكان شديد البغض لآل أبى طالب، ويبلغ عنهم هارون ويسىء بأخبارهم فكان من وراء تلك السعايات أن حبسه الرشيد وضيق عليه وحاول أن يقتله ولم يكن يمنعه إلا خيفة أن يقول الناس فيه شيئاً لما كتبه من كتاب الأمان الذى استنزل به يحيى فأراد أن يأخذ من العلماء قولاً فى أن ذلك الأمان لاغ فأحضر أبا البحترى القاضى ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبى يوسف، فأما محمد بن الحسن فإنه قال له: ما تصنع بالأمان لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً وليس هذا الجواب موافقاً لغرض الرشيد ولذلك احتمل هذه الكلمة على محمد ـ وأما أبو البحترى فقال إن الأمان منتقص وأقبل يعدد وجوه نقصه، ولذلك قال له الرشيد: أنت قاضى القضاة وأنت أعلم بذلك فخرق الأمان.

ويظهر أن الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة ليسعى بيحيى بن عبد الله عند الرشيد، لأن فى قتله إذلالاً لمن كان السبب فى استنزاله وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يساميهم لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سطلانهم والذى أوضح لنا أن الفضل بن الربيع هو الذى كان يحرك السعاة للسعى بيحيى أن الرشيد لما كان يحاج يحيى نظر يحيى إلى الفضل بن الربيع وقال له: هذا والله من آفاتك.

كان المفهوم بعد ذاك أن يجتهد البرامكة فى تخليص يحيى ففعل جعفر فعلته التى قدمنا ذكرها والرشيد وإن كان يحتمل لجعفر كثيراً من الإدلال لا يحتمل له هذا، لأنه متعلق بملكه ـ ومن الغريب ما ورد فى هذه الحادثة من أن الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يترقب أحوال جعفر حتى اختار من خاصة خدمه جاسوسا يعلم أخباره ويلقى بها إليه كانت هذه الحادثة سبباً للوشاية بالبرامكة فى أخص صفات الوزراء وهى الإخلاص لملوكهم وذلك طعن منفذ. وقر فى نفس الرشيد شىء من ذلك وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدى وهى التهمة التى استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبى عبد الله وزير المهدى حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة.

كان من الظاهر بعد ذلك أن تتجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثالبهم وأثرتهم وينفس عليهم ما صار إليهم من عظيم الأموال وجلائل المدح وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واستراب بهم وظن كل منهم فى الآخر الظنون. روى بختيشوع الطبيب عن أبيه جبريل قال: إنى لقاعد فى مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه رداً ضعيفاً فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال: يا جبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلا إذنك ؟ فقلت: لا، ولا يطمع فى ذلك، قال: فما بالنا يدخل علينا بلا إذن ؟ فقام يحيى

فقال: يا أمير المؤمنين قدمنى الله قبـلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شىء كان خصنى به أمـير المؤمنين ورفع به ذكرى حتـى إن كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه مـجرداً حيناً وحيناً فى بعض إزاره ومـا علمت أن أمير المؤمنين كره مـا كان يحب، وإذ قد علمت فإنى أكون عنـده فى الطبقة الثانيـة من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرنى سـيدى بذلك، قال: فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفـاء وجهاً وعيناه فى الأرض ما يرفع إليه طرفه ثم قال: مـا أردت ما تكره، ولكن الناس يـقولون. قـال جبـريل: فظننت أنه لم يسنح له جـواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى.

وحدث محمد بن الفضل مولى سليمـان بن أبى جعفر قال: دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان إليه فقال الرشيد لمسرور الخادم: مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال: فـدخل فلم يقم إليـه أحد فـاربد لونه قال: وكـان الغلمان والحـجاب إذا رأوه أعرضوا عنه قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غـيره فلا يسقونه وبالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً.

وحدث يعقوب بـن إسحاق عن إبراهيم بن المهدى قال: أتيت جعـفر بن يحيى فى داره التى ابتناها فقال: أمـا تعجب من منصور بن زياد قال: قلت له: فى ماذا ؟ قـال: سألته: هل ترى فى دارى عيبـاً ؟ قال: نعم ليس فيها لبنة ولا صنـوبرة، قال إبراهيم: فقلت له: الذى يعيبـها عندى أنك أنفقت عليها نحـواً من عشرين ألف ألف درهم وهو شىء لا آمنه عليك غداً بين يدى أمـير المؤمنين. قال: هو يعـلم أنه قد وصلنى بأكثـر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عـرضنى له قال: قلت: إن العدو إنما يأتيه فى هذا من جـهة أن يقول له: يا أمـير المؤمنين إذا أنفـق على دار عشـرين ألف ألف درهم فـأين نفـقاته وأين صـلاته وأين النوائب التى تنوبه ومـا ظنك يا أمير المؤمـنين بما وراء ذلك وهذه جملة سريعـة إلى القلب والوقف على الحاصل منهـا صعب ؟ قال: إن سـمع منى قلت لأمير المؤمنين: نعـماً على قوم قـد كفروها بالسـتر أو بإظهـار القليل من كثيـرها وأنا رجل نظرت إلى نعمتـه عندى فوضعتها فى رأس جبل، ثم قلت للناس: تعالوا فانظروا. وحدث زيد بن علىّ عن إبراهيم بن المهدى أن جعـفر بن يحيى قال له يوماً: (وكـان جعفر صاحبـه عند الرشيد وهو الذى قربه منه) إنى قد استـربت بأمر هذا الرجل (يعنى الرشيد) وقـد ظننت أن ذلك لسابق سبق لى منه فأردت أن اعتبر ذلك بغيرى فكنت أنت فارمق ذلك فى يومك هذا وأعلمنى ما ترى منه قال إبراهيم: ففعلت ذلك فى يومى.

فلما نهض الرشيد من مجلسة كنت أول أصـحابه نهض عنه حتى صرت إلى شجرة فى

طريقى فدخلتها ومن معى وأمرتهم بإطفـاء الشمع وأقبل الندماء يمرون بى وأحداً بعد واحد فأراهم ولا يرونى حتى إذا لم يبق منهم أحد إذا أنا بجعفر قد طلع فلما جاوز الشجرة قال: اخرج يا حبـيبى قال: فخرجت فـقال: ما عندك ؟ فقلت: حـتى تعلمنى كيف علمت أنى ههنا ؟ قال: عـرفت عنايتك بما أعنى به، وأنك لم تكن لتنصرف أو تعـلمنى ما رأيت منه وعلمت أنك تكره أن ترى واقفـاً فى مثل هذا الوقت وليس فى طريقك موضع أسـتر من هذا الموضع فقضيت بأنك فيه ثم قال: فهات ما عندك قلت: رأيت الرجل يهزل إذا جددت ويجد إذا هزلت قال: كذا هو عندى فانصرف يا حبيبى.

من كل هذا يتبين أن النفـور والريبة وقعت فى قلب كل مـن الطرفين للآخر وتبع ذلك معـاملات من الرشيد لم يكن يبـعثه عليـها إلا ما ركز فى نفـسه وأثبته عنده وشـاة السوء وأعداء البـرامكة وكان شديد يتحين الفـرصة للإيقاع بهم ولا سيـما جعفـر لما كان منه من تخليص يحيى بن عبـد الله. وهذا دليل عدم الإخلاص للرشيد وللبيت العـباسى وقد قام الفضل بن الربيع بما انتـدب إليه خير قـيام وشايعه فى ذلك كـثيرون وكانت زوجـة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعـفر لقيامه فى أمر المأمون، فإنه هو الذى قـام فى ولايته العهد وجعله مناظراً لا بنها الأمين وكانوا يتخوفون من جعـفر أن يكون سبباً فى الإيقاع بين الأخوين إذا حانت منية الرشيد لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة.

فى (سنة ١٨٦) حج الرشيـد، ولما انصرف من حجـه أتى الأنبار ومعه يحـيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيى فرضى عنه بعد غضبه عليه وفى غاية المحرم أمر فيهم أمره فقتل جعفراً وحبس يحيى وابنيه وصادر أموالهم كلها ,وقد حبس يحيى مع الفضل ومحمـد فى دير القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بيـنهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليـه وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعـدة من خدمهم وجواريهم ولم تزل حالهـم سهلة إلى أن سخط الرشـيد على عـبد الملك بن صالح فـعمـهم العسف بسخطه وجدد لهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم.

حادثة عبد الملك بن صالح:

هو عبد الملك بن صالح بن علىّ بن عبد الله بن عباس وهو فى درجة السفاح والمنصور نسبـاً. رفع إلى الرشيد أنه يطلب الخـلافة ويطمع فيـها وأن البرامكة كـانوا له عوناً والذى سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة فـأحضر إلى الرشيد، فلما دخل علية قال: «أكفرا بالنعـمـة وجحـوداً لجليل المنة والتكرمـة ؟ فـقال: يا أمـيـر المؤمنين» لقـد بؤت إذًا بالندم

تعرضت لاستحلال النقم وما ذاك إلا بغى حاسد نافسنى فيك مودة القرابة وتقديم الولاية
بت يا أمير المؤمنـين خليفة رسول الله ﷺ فى أمتـه وأمينه على عترته لك عليـها فرض
طاعة وأداء النصيحـة ولها عليك العدل فى حكمها والتثبت فى حادثهـا والغفران لذنوبها
فقال له الرشيد: «أتضع لى من لسانك وترفع لى من جنابك هذا كـاتبك قمامة يخبر بغلك
وفساد نيتك فاسمع كلامه». فـقال عبد الملك: «أعطاك ما ليس فى عقده ولعله لا يقدر أن
يعضنى ولا يبهتنى بما لم يعرفه منى» وأحضر قمـامة فقال له الرشيد: تقدم غير هائب ولا
خائف قـال: إنه عازم على الغـدر بك والخلاف عليك، فقـال عبد المـلك: أهو كذلك يا
قمامة؟ قـال: نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين ـ فقال عـبد الملك كيف لا يكذب علىَّ من
خلفى وهو يبهـتنى فى وجهى ـ فقال لـه الرشيد وهذا ابنك عبـد الرحمن يخبرنى بعـتوك
وفساد نيـتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجـد أعدل من هذين لك فبمَ تدفعـهما
عنك فقال عـبد الملك: هو مأمور أو عاق مـجبور فإن كان مـأموراً فمعذور وإن كـان عاقاً
فاجر كفور أخـبر الله عز وجل بعداوته وحذر منه بقوله ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا
لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن: ١٤) قال فنهض الرشيد وهو يقول: أما أمرك فقد وضح ولكنى
لا أعجل حـتى أعلم الذى يرضى الله فـيك، فإنه الحكم بينى وبينك ـ فـقال عـبد الملك:
رضيت بالله حكماً وبأمر أمير المؤمنين حاكـماً فإنى أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه وأمر
الله على رضاه.

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر فسلم عبد الملك لمادخل فلم يرد عليه الرشيد فقال
عبد الملك: ليس هذا يوماً أحتج فيه ولا أجـاذب منازعاً فقال: الرشيد لم ؟ قال: لأن أوله
جرى على غـير السنة فـأنا أخاف آخره قـال: وما ذاك ؟ قال: لم ترد عـلىَّ السلام نصف
النصفة العوام فقال الرشيد: السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثاراً للعدل واستعمالاً للتحية. ثم
التفت نحو سليمان بن أبى جعفر وقال:

أريد حياتـه ويريد قتلى ـ أما والله لكأنى أنظر إلى شؤبـوبها قد همع وعارضـها قد لمع
وكأنـى بالوعيـد قد أورى ناراً تسـتطع فأقلع عن براجم بلا مـعاصم ورؤوس بلا غـلاصم
مهلاً بى واللـه سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت إليكم الأمور أثنـاء أزمتها فنذار
لكم نذار قبـل حلول داهية خبـوط باليد لبـوط بالرجل فقال عـبد الملك: اتق الله يا أمـير
المؤمنين فيـما ولاك وفى رعيـتك التى استرعـاك ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العـقاب
موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخى ملكك بأثقل
من ركنى يلملم وتركت عدوك مـشتغلاً فـالله الله فى ذى رحمك أن تقطعه بعـد أن بللته
بظن أفـصح الكتاب لى بعـضه أوبيـغى باغ ينهش ويلغ فى الدم، فـقد والله سـهلت لك

الوعور وذللت لك الأمور وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب:

ومـــقـــام ضـــيـق فـــرجـــتـــه ... ببنـان ولســـــان وجـــــدل

لو يـقـــوم الفـــيل أو فـــيـــاله ... زل عن مـــثل مـــقـــامى وزحل

فقـال له الرشيد: أنا والله لولا الإبقـاء على بنى هشام لضـربت عنقك ثم أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وبعث إلى يحـيى بن خالد وهو فى السجن إن عبد الملك بن صالح أراد الخروج علىَّ ومنازعـتى فى الملك وقد علمت ذلك فأعلمنى ما عندك فـيه فإنك إن صدقتنى أعدتـك إلى حالك فقال: والله يا أمير المؤمنين مـا اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك، لأن ملكك كان ملكى وسلطانك كان سلطانى والخير والشـر كان فيه علىَّ ولىَ. فكيف يجوز لعـبد الملك أن يطمع فى ذلك منى وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفـعل بى أكثر من فعلك. أعـيذك بالله أن تظن بىَ هذا الظن ولكن كان رجـلاً محتـملاً يسرنى أن يكون فى أهلك مـثله فوليتـه لما أحمدت من مـذهبه وملت إليه لأدبه واحتـماله. فلما أتاه الرسول بهـذا أعاد عليه فقال: إن أنـت لم تقر عليه قتلت ابنك الفضل فقال له: أنت مسلط علينا فافعل ما شئت على أنه إن كان من هذا الأمر شيء فالذنب فيه لى فبم يدخل الفضل فـى ذلك ؟ فقال الرسول للفضل قم فإنه لا بد لى من إنفاذ أمـر أمير المؤمنين فيك فلم يشـك أنه قاتله فودع أباه وقال له: ألـست راضـياً عنى قال: بلى فـرضى الله عنك ففرق بينهـما ثلاثة أيام،فلما لم يجـد عندهما من ذلك شيـئاً جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده.

سقنا هذا لنذل على أن التهم الـتى وجهت إلى البرامكة كافة ولا سيـما جعفر سيـاسية محضة وفى القـليل منها ما يكفى عند الرشيد لتغـيير نعمتهم والغـضب عليهم وإذا أضيف إلى ذلك غيرة السلطان ممن يساميه فى سلطانه ويشاركه فى نفوذ أمره كان ذلك أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حـتى تخترع له تلك الحكاية التى يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتهـا لأخلاق الرشيد وللتقاليد التى سار عليها بنو العـباس فقد كان مما عده المنصـور على أبى مسلم من ذنـوبه وهو من هو فى الدولة وتشيـيـد بنيانهـا أنه كتب إليـه وخطب أمينة بنت علىّ بن عبد الله بن عباس ولـم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد فى أوقات ضعفهم وتسلط آل سلجوق عليهم فكيف يظن بمثل الرشيد أن يقدم على زواج سرى كهذا سببه خسيس ؟ هذا بعيد جداً.

فيما تتبـعناه من أحوال الرشيد كفاية فقد كان وصل من خـوفه على ملكه وعلى نفسه

ـنى درجة الوساوس حتى جعله ذلك أذناً يسمع لكل واشٍ ويصـدق كل حسود ففقد بذلك
ـهرة دولته وغرة جبينها بل زهرة الدولة العباسية كلها فقد وزراء إن كتبوا أجادوا وإن قادوا
جيوش سـدوا الثغور، وإن ولوا عملاً أصلحوا وهكذا الخليـفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه
خدمه بل تُراهم حذرين وجلين فمـا هى إلا وشاية تطرق حتى تراه قـد أخذ بحلاقيـمهم
فأوردهـم شر مورد لا يبـالى بما سـبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فـيه مـا يرى لهم من
فضل بل ينسى ذلك كله ثم يتـقدم عنده الوشاة وإن لم يكن لهم فى مـيدان الصالحين أثر
قد بقى للرشيـد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيمـا وقع من الشقاق والعداوة بين
لأمين والمأمون كـما سيجىء، لأن الرجل مـفسد معـتاد على اختلاق الأخـبار ويرى ذلك
يحسن فى آذان الخلفاء فلم يكن يصطبر على ذلك فأفسد الدولة وأوقع بأس الأمة بينها وإنا
نعوذ بالله من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء فهم آفة الأمم وسوس عظامها.

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع، فلم يسد المكان الذى سدوا.

العلاقات الخارجية:

كانت دول هذا العصر الكبيرة دولة الروم الشرقـية بالقسطنطينية ودولة شرلمان الذى كان
يميل إلى تجديد دولة الرومـان الغربية ودولـة الأمويين بالأندلس، وحدثت فى عـهده دولة
الأدارسة بالمغرب الأقصى كما سبق.

مع الروم:

من أعمـال الرشيـد أنه عزل الثغـور كلها عن الجـزيرة وقنسرين وجعلـها حيـزاً واحداً
وسميت العواصم، وجـعل قاعـدتها منبـجاً وأسكنهـا عبد الملك بن صـالح (سنة ١٧٣)
وسميت العواصم، لأن المسلمين كانوا يعتصمون بهـا فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا
من غزوهم وخرجوا من الثغر. وكان من هذه العواصم دلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين
وما بين ذلك من الحـصون. ومن تلك المدن الشهيـرة طرسوس وقد عمرت فى زمـن الرشيد
على يد أبى سليم فرج الخادم التركى، ونزلها الناس وكان يغزو الـصائفة عبد الرحمن بن عبد
الملك بن صالح ووصل (سنة ١٧٥) إلى إقريطية. وفى (سنة ١٨١) غزا الرشيد الصائفة بنفسه
فتح عنوة حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة.

ولم يزل عبـد الملك يرى الثغور وحربهـا وهو قائم بذلك خير قـيام حتى عزله الـرشيد
وحبسـه بعد نكبة البـرامكة (سنة ١٨٧) فولى بعده القاسم بن الرشـيد وسكن منبجـاً فغزا

الروم وأناخ على حصن قرة وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعثت الروم تبذل (٣٢٠رجلاً) من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم إلى ذلك ورحل عن حصنى قرة وسنان. وكان يملك الروم فى ذلك الوقت إيرينى وكانت فى أوائل أمرها تنوب عن ابنها قسطنطين السادس منذ (سنة ٧٨٠)، ثم استبدت بالملك (سنة ٧٩٠) فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقوم بدفعها له وذلك لما رأته من إلحاح المسلمين عليها بالحرب وعدم قدرتها على الدفاع لوقوعها بين المسلمين من جهة وبين شارلمان من جهة أخرى وكلتا الدولتين تناوئها العداوة، لأن شارلمان كان يريد توسيع سلطانه وإعادة دولة الرومان إلى بهجتها التى كانت لها فى القدم، وفى (سنة ٨٠٢) نهضت عليها عصابة رومية فخلعتها عن الملك وملكت مكانها نقفور فعقد معاهدة مع شارلمان عينت فيها تخوم المملكتين ثم كتب إلى الرشيد: من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التى كانت قبلى أقمتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك ـ فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم واستعجم الرأى على الوزير من أن يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام). ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم واصطفى وأقاد وخرب وحرق واصطلم فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعته إليه وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه فما تهيأ لأحد إخبار الرشيد بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرة فى مثل تلك الأيام فاحتيل بشاعر يكنى أبا محمد بن عبد الله بن يوسف فقال:

نقض الذى أعطيته نقفور ... وعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه ... فتح أتاك به الإله كبير

فلقد تباشرت الرعية أن أتى ... بالنقض عنه وافد وبشير

ورجت يمينك أن تعجل غزوة ... تشفى النفوس مكانها مذكور

أعطاك جـزيتــه وطأطأ خــده ... حذر الصوارم والردى محذور
فـأجرته من وقـعها وكـأنها ... بأكـفنا شعل الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلاً ... عنه وجارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى ... عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت ... هبلتك أمك ما ظننت غرور
ألقاك حينك فى زواخر بحره ... فطمت عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك قادر ... قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً ... عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه ... فعدوه أبداً به مقهور
يا من يريد رضا الإله بسعيه ... والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش إمامه ... والنصح من نصحائه مشكور
نصح الإمام على الأنام فريضة ... ولأهلها كفارة وطهور

فلما فرغ الشاعر من إنشاده قال: أو قد فعل نقفور ذلك وعلم أن الوزراء قد احتالوا له فى ذلك فكر راجعاً فى أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضى وبلغ ما أراد فقال ابو العتاهية:

ألا نادت هرقلة بالخراد ... من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا ... ويرقب بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها ... تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم ... وأبشر بالغنيمة والإياب

ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك، وفى (سنة ١٨٩) حصل فداء بين المسلمين والروم، فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودى به وهذا أول فداء كان بين المسلمين والروم، فقال مروان بن أبى حفصة يمدح الرشيد:

وفكت بك الأسرى التى شيدت لها ... محابس ما فيها حميم يزورها

على حين أعيا المسلمين فكاكها ... وقالوا سجون المشركين قبورها

وفى (سنة ١٩٠) غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح هرقلة وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم وكان دخلها فى (١٣٥ألف) مرتزق سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوا له، وكان فتح الرشيد هرقلة فى شوال فأضر بها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوماً عليه وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر فبلغ حميد قبرص فانتصر على أهلها.

ثم سار الرشيد إلى الطوانة فعسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعف وأمره بابتناء منزل هنالك وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهد وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابن استيراق ديناران وكتب مع بطريقين من عظماء بطارقته فى جارية من سبى هرقلة كتاب نسخته ـ لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم: سلام عليك، أما بعد، أيه الملك إن لى إليك حاجة لا تضرك فى دينك ولا دنياك هينة يسيرة أن تهب لابنى جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابنى فإن رأيت أن تسعفنى بحاجتى فعلت والسلا عليك ورحمة الله وبركاته ـ واستهداه أيضاً طيباً وسرادقاً من سرادقاته، فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزُيِنَت وأجلسَت على سرير فى مضربه الذى كان نازلاً فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور، وبعث إليه بما سأل من العط وبعث إليه التمور والأخبصة والزبيب والترياق فسلم ذلك كله رسول الرشيد، فأعطاه نقفو وقر دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ومائة ثوب ديبا ومائتى ثوب بزيون واثنى عشر بازياً وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين ـ وكا نقفور اشترط ألا يخرب الرشيد حصن ذى الكلاع ولا صملة ولا سنان واشترط الرشي عليه ألا يعمر هرقلة وعلى أن يحمل ثلثمائة ألف دينار.

وفى (سنة ١٩١) غزا الصائفة هرثمة بن أعين أحد كبار القواد وضم إليه ثلاثين ألفاً مر أهل خراسان ومعه مسرور الخادم واليه فى النفقات وجميع الأمور ما خلا الرياسة ومضى الرشيد إلى درب الحدث فرتب هنالك عبد الله بن مالك ورتب سعيد بن سلم بن قتب بمرعش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد مقيم بها وبعث محما بن مزيد إلى طرسوس ـ فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ثم انصرف إلى الرقة.

وعلى الجملة فإن قوة المسلمين كانت فى عهد الرشيد ظاهرة ظهوراً بيناً على الروم ا

كان يقوم به الرشـيد بنفسه من الغزو المتـوالى ومعه عظماء القواد وكـبار رجال الدولة من عرب وموال وخراسانية.

العلاقة مع أوروبا:

كان فى عهد الرشيد شارلمان بن بابن، وكان ملكاً على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التى كانت فى جرمانيا إلى الدين العيسوى بعد أن كانت وثنية واستولى على ألمانيا وإيطاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبيـر فى الديار الشرقية لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسـطنطينية وكان يرغب أن يكون حامياً للعيسـويين فى البلاد الإسلامية وخصوصـاً زائرى القدس، فأرسل إلى بغداد سفـراء يستجلبون رضا هارون الرشـيد وكان لشارلمان غرض من مصافاة الرشيد فوق ما تقدم وهو إضعاف الدولة الأموية بالأندلس ففاز سفير شـارلمان برضا الرشيد فسر بذلك، لأنـه عده فوزاً على نقفور، ولهذا لما قـدم سفير الرشيـد على شارلمان قابله بمزيد الإكرام، واسـتفاد شارلمان من ذلك التـودد فائدتين الأولى تمكنه من حرب الدولة الأموية بالأندلس وتـداخله فى مساعدة الخارجين عليهـا والثانية نيله رضا الرشيد. وقـد أراد أيضاً أن يغتنم غنيمة علمية فـإن أوروبا فى ذلك الوقت كانت مهد جهالة، لأنه بانقراض الرومانيين وغلبة الأمم المتـبربرة على أوروبا انطفأ مصباح العلم، أما الحال فى البلاد الإسلامية، فكانت على العكس من ذلك علماً وعملاً سواء فى ذلك بغداد وقرطبـة، فسعى شارلمان فى إصـلاح قوانين دولته مقلداً هارون الرشـيد وذهب إلى أوروبا أطباء تعلموا فى البلاد الإسـلامية، وكانوا من اليهود فانتـخب منهم شارلمان رجلاً يقال له إسحاق وأرسله على الرشيد مصحـوباً ببعض الهدايا وبعد أربع سنين عاد إسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهى ساعة وراغنون وفيل وبعض أقمشة نفيسة. فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السـحرية وأوقعتهم فى حيرة وهموا بكسر الـساعة فمنعهم الإمبراطور. وفى ذلك التـاريخ اتفقوا على أمور تتعلق بحـماية المسيحيين الذين يتـوجهون لزيارة القدس.

أما عـلاقة بغداد بقـرطبة فكانت شر عـلاقة إذ أن الرشيـد كان ينظر إلى بنى أمـية نظر خارجين على دولته، فكان يود محوهم ولكن القوم كانوا أكبر من ذلك، وأقوى، فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة ولم يتمكن أن يفعل بهم شراً.

حضارة بغداد فى عهد الرشيد:

وصلت بغداد فى عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها.

أما من حيث العمارة، فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدها؛ بنيت فيها القصور الفخمة التى أنفق على بناء بعضهـا مئات الألوف من الدنانير وتأنق مهندسـوها فى إحكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشييد بنيانها وصارت قصور الجانب الشرقى بالرصافة تناوح قصور الجانب الغربى. كان فى الشرق قصور البرامكة ومـا أنشأوه هناك من الأسواق والجوامع والحمامات وبالجانب الغـربى قصور الخلافة التـى كانت تبهر الناظرين اتسـاعاً وجمالاً وامتـدت الأبنية امتـداداً عظيماً حـتى صارت بغداد كـأنها مدن متـلاصقة تبلغ الأربعـين على جانبى دجلة واستبحر العـمران فيها لما جاورها من الثنايا وصار سكانها نحـو ألفى نسمة حتى ازدحمت بساكنيها وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً تجيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الشـام والجزيرة والطرق إذ ذاك آمنة والسـبل مطمئـنة وكان الرشـيد هو ووزراؤه حريصين على ذلك كل حرص.

وأما من حيث ثروة الدولة فقـد كان يرد على الخليفة ببغداد مـا يبقى من خراج الأقاليم الإسلامية بعد أن تقضى جميع حاجاتها وقدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربعمائة ألف ألف درهم يدخل كله بيت مـال الخليفة يصـرف منه فى مرتبـات الوزراء المساعديـن له والباقى يتصرف فـيه حسبما يرى وهو شيء جـسيم، وكان الرشيد أسمح خلفـاء بنى العباس بالمال يعطى منه عطاء من لا يخشى فـقراً للقصاد والشـعراء والكتاب والمنتجـعين وقد جرى على سننه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حـتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم التى قد يتردد الإنسـان فى صحتها وتلك الـثروة العظيمة تتـداولها الأيدى فتروج التجـارة وتقضى الحاجات وتكثر المدنيـة وعلى تلك السُّنَّة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى واشتد بهم الترف حـتى يقال إن جعفر بن يـحيى بنى قصراً أنفق على بنائه عـشرين ألف ألف درهم وتغالى الناس فى حاجـاتهم وتأنقوا فى معيـشتهم حتى صارت بغـداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشـبه بين ما عندهم وما يرون مـن ثرائها وبذخ أهلها وانغمـاسهم فى الملاذ وإعطائهم أنفسهم ما تصبو إليه من اللهو والخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة.

وأما العلم فإن بغداد صـارت قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصـار الإسلامية يرحلون إليهـا ليتمـموا ما بدأوا فـيه من العلوم والفنون فـهى المدرسة العليا لطلاب الـعلوم الدينية والعربية على اختلافـها فقد كان كبار المحدثين والقراء والفقهـاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويون وكلهم قائمون بالدرس والإفادة لتلاميذهم فى المسـاجد الجامعة التى كانت تعتبر مدارس عليـا لتلقى هذه العلوم وقلما كان يتم لإنسـان وصف عالم أو فقيـه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها.

وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشـاً رغداً مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم.

ولم تكن بغداد بالمقصِّرة فى علوم الدنيا كالطب والحكمـة وغيرهما من سائر الصناعات فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسـائر الصناع من الأقاليم المختلفة فاستفادوا العلوم ممن سبقهم من الأمم فى المدنية كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصابئة وغيرهم، وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية وسنرجىء الكلام على النهـضة العلمية فى بغداد إلى زمن المأمون.

أخلاق الرشيد:

كان الرشيد خليـفة ديناً محافظاً على التكاليف الشرعية أتم محـافظة، فأما صلاته فكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيـا إلا أن تعرض له علة. وكان له سمير فكه هو ابن أبى مريم المدنى كان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته سمعه مرة يقرأ فى صلاته ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس: ٢٢) فقال ابن أبى مريم: لا أدرى والله فما تملك الـرشيد أن ضحك فى صلاته ثم الـتفت إليه وهو كالمغـضب فقال: لا أدرى أبى مريم فى الصلاة أيضاً ثم قال: إياك والقرآن والدين لك ما شئت بعدهما.

وأما صـدقته فـقد كان كل يوم يتـصدق من صلب ماله بألف درهم سـوى العطايا التى كانت تهطل على الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده.

وأما حجه فإنه كان لا يتخلف عنه إلا إذا كان مـشغولاً بالغزو فهو فى كل عام بين غاز وحاج وقد أقـام للناس حجهم تسع مـرات فى سنى حكمه وهى الـسنوات ٧٠ و٧٣ و٧٤ و٧٥ و٧٧ و٨٠ و٨١ و٨٦ و٨٨ بعد المائة وكان إذا حج حج معـه من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج يحج عنه ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة.

وكان يسمع وعـظ الواعظين وهو عند ذلك رقيق القلب سريع الدمعـة. دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد: عظنى فـقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله وحده لا شريك له واعلم أنك غداً بين يدى الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهم جنة أو نار فبكى هارون حتى اخضلت لحيته فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فـقال: سبحان الله وهل يتخلج أحداً شك فى أن أمير المؤمنين مـصروف إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله فى عباده وفضله ـ فلم يحفل بذلك ابن اسـماك من قوله ولم يلتفت إليه وأقبل على الرشيـد فقال: يا أمـير المؤمنين إن هذا(يعنى الفضل بن الربـيع) ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم فـاتق الله وانظر لنفسك ـ فبكى هـارون حتى أشفق عليه الحـاضرون وأفـحم الفضل بن الربـيع فلم ينطق بحـرف ـ ودخل عليه مـرة أخـرى فبـينا هو عنده إذ

استسقى ماء فـأتى بقلة من ماء، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربهـا قال له ابن السماك: على رسلك يا أمـيـر المؤمنين بقـرابتك من رسول اللـه ﷺ لو منعت هذه الشـربة بكم كنت تشـربها ؟ ـ قـال بنصف ملكى ـ قال: اشـرب هناك الله ـ فلمـا شربهـا قال له: أسـألك بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها قال: بجميع ملكى قال ابن السـماك: إن ملكاً قيمتـه شربة ماء لجدير ألا ينافس فـيه فبكى هارون ـ ولا يزال الملوك بخيـر ما سمعـوا الوعظ وتأثروا به ولا تزال الأمة بخيـر ما كان فيـها من يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم.

وأما جهاد الرشيد، فإنه كان لا يترك الخـروج مع جنده بل كان غالباً فى مقدمتهم حتى لا يعتاد الراحة ولا يعقده الترف عن القيـام بهذا الواجب حتى كان من ضمن مآثره أنه كان يغزو سنة ويحج أخرى قال مروان بن أبى حفصة:

وسـدت بهارون الثـغـور وأحكمت ... به مـن أمــــور المسـلمـين الموائـر
ومـا انـفك مـعــقـوداً بنصـر لوائه ... له عـسكر عنه تشظى العسـاكـر
وكل مـلوك الـروم أعطاه جــزية ... على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر

وكان لهارون قلنسوة مكتوب عليه غاز حاج فكان يلبسها فقال أبو المعالى الكلابى:

فـمـن يطلـب لقـــاءك أو يرده ... فـبـالحـرمين أو أقـصى الثـغـور
فـفى أرض العـدو على طمـر ... وفى أرض الـتـرفـه فـوق طور
ومـا حـاز الـثـغـور سـواك خلق ... من المتـخلـفين عـلى الأمـور

لذلك كانت الخلافـة لعهده فى أعلى درجات مهـابتها واحترامـها فى الداخل والخارج، كان الرشـيد يقتـفى آثار المنصور ويعمل بهـا إلا فى بذل المال وكان لا يضيع عنده إحـسان محسن ولا يؤخـر ذلك فى أول ما يجب ثوابه وكان يحب الشعـر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء فى الدين ويقول: هو شىء لا نتيجة له بالحرى لا يكون فيه ثواب وكان يحب المديح ولا سـيما من شاعـر فصيح ويشتـريه بالثمن الغالى. وعطاياه للشـعراء والأدباء تكاد تخرج عما يعقل.

والخلال التى كُانت واضحة فى أعماله الشجاعة وشدة الغضب ومعاقبة المسىء بلا شفقة ولا رحمة فكان يقود الجيش بنفسه إلى المواضع المخـوفة حتى استقامت له البلاد وهابه كل خارج وثائر وكان إذا بلغه عن أحد من رعيته ما يريبه اشتد غضبه وزاد انفعاله حتى لا يكاد

حد يقدر أن يكلمـه وإذا وقع عدوه فى يده لم يتأخر عن أشـد عقوبة له وقلما كـان يعفو .بهذا فضله ابنه المأمون كما سيجىء فى تاريخه.

واشتهـر أن الرشيد كان يشـرب النبيذ الذى يرخص أهل العراق فى شـربه وكان يسمع لغناء ويثيب عليه أعظم ثواب، ولذلك اشتهر فى زمنه أعظم الموسيقيين والمغنيين ببغداد ممن ـ يأت بعـده مثلهم كمـا يرى ذلك من اطلع على الكتـاب الموسوم بالأغانـى لأبى الفرج لأصبهانى.

ولا مراء أن الرشيد يعد من كبار الخلفاء ونوابغهم لولا كثرة وسواسه بالكائدين له، فإن ذلك أكثر الجاسوسية فى عهده وصار المتقربون يتقربون إليه بما يتلقونه من أخبار السوء حتى فقـد أعظم وزرائه وأحسنهم أثراً وأعلاهم كعـباً واستـبقى الفضل بن الربيع لأن أخبـاره ما كانت تنقطع عنه يوماً.

وفاة الرشيد:

خرج الرشـيد من بغداد فى خـامس شعبـان (سنة ١٩٢) قاصـداً خراسان عندمـا بلغه ستـفحال أمـر رافع بن الليث بما وراء النهر واسـتخلف ابنه مـحمداً الأمين بمـدينة السلام وخرج معه ابنه عبد الله المأمون ولم يزل الرشيد فى مسيره حتى وافى مدينة طوس فى صفر (سنة ١٩٣) وهناك اشتدت به علته ولحق بربه ليلة السـبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة (سنة ١٩٣) وصلى عليه ابنه صالح، لأن المأمـون كان قد سبقه إلى مرو حـاضرة خراسان ودفن الرشيد بهذه المدينة.

وكان للرشيد اثنا عشر ولداً ذكراً وأربع بـنات، فذكور أولاده محمد الأمين من زبيدة بنت جعفـر بن أبى جعفـر وعلىّ من زوجته أمة العـزيز أم ولد موسى الهادى ـ وعبـد الله المأمون والقاسم والمؤتمن ومحمد المعـتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبـو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو علىّ ومحمد أبو أحمد وهم لأمهات أولاد شتى.

وتزوج الرشيد بست زوجـات. مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محـمد بنت صالح المسكين والعباسة بنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبد الله العثمانية.

أثر جليل من عهد الرشيد

الخراج:

بين يدينا أثر من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الإسلامية فى النصف الثانى من

القرن الثانى وهو كتاب الخراج للفقيه أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣-١٨٢).

كان خليفة المسلمين فى هذا التاريخ خامس بنى العباس هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور وكان قاضى قضاته أبا يوسف وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته، كما كان أبوه المهدى من قبله ويحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذى سنّه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم ويخرب عمرانهم وحتى يكون بيت المال قائماً بما يجب عليه من مصالح الأمة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها فكتب إلى قاضيه الأكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام وكتب جوابه عن تلك الأسئلة فى رسالة عظيمة الشأن، سميت بكتاب الخراج وهى التى جعلناها موضوع محاضرتنا هذه الليلة.

لم يكن أبو يوسف فى رسالته ذلك الفقيه الجاف الذى هو فى خيال الكثير منا يكتب جوابه مبتوراً منقولاً من مسطر سبق به أو ذلك المفتى الضعيف ينظر على غرض المستفتى فيجتهد أن تكون فتواه طبق رغبته بل كان ذلك العالم الناصح الذى سبر حال الأمة فعرف ما يصلحها وأدرك سر الدين الذى أوحى الله به إلى رسول الله ﷺ لإصلاح حال الأمة فجال فى ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق وأحاط علماً بتاريخ المسائل التى يفتى فيها. فبينا نراه واعظاً لا يخاف فى الله لومة لائم يصوغ من كلمات النصح أشدها وقعاً وأقواها تأثيراً يوجهها إلى إمامه مع رعاية الأدب واللياقة وإذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الأمور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك وبينا أنت تستخرج منه لطائف التاريخ إذا بك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستناً بسنّة أسلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر ما يفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التى يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة فينبه الإمام إلى مخازيهم ويرفع صوته طالباً إجراء العدالة فيهم ويشير على إمامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق ويبين له كيف يفعل فى ذلك ليكون ناجياً بين يدى الله سبحانه وتعالى الذى جعله كفيلاً لحقوق الرعية.

هذا هو الكتاب الجليل الذى يعطى من قرأه صورة فى غاية الجمال والكمال لذلك الفقيه المتقدم.

وغرضنا التعرف بما انتظمه هذا فى الكتاب حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها

فى هذا العصر وإذا كان عنـدنا كلمة نقولها لإيضاح شيء مما قد يحتـاج إلى الإيضاح نبهنا عليها.

انتظمت هذه الرسالة ثلاثة أمور:

الأول: بيان مـوارد الدولة على اختـلافها حـسبـما جاءت به الشـريعة ومـصارف تلك الأموال.

الثانى: بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال.

الثالث: بيان بعض الواجبات التى يلزم بيت المال القـيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به.

ونحن نتكلم فى ذلك متبعين هذا الترتيب وقـد يخالف طريق ترتيب الكتاب لأن القصد تقريبه إلى النفوس من أسهل الطرق.

موارد بيت المال:

يتبين من كـتاب الخراج أن موارد بيت المال تنقـسم بحسب ما يجب أن تصرف فـيه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: خمس الغنائم.

الثانى: الخراج.

الثالث: الصدقات.

الغنائم:

الغنيمة كل ما أصاب المسلمون من عـساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع. وجـعل منها أبو يوسف مـا أصيب من المعـادن من قليل أو كـثير والركـاز وهو الذهب والفـضة الذى خلقه الـله فى الأرض يوم خلقت. والكنوز العادية التى تـصاب فى غير ملك أحد وما أخرج من البحر من الحلى والعنبر كل ذلك حكمه واحد وهو أن للإمام خمسه. أما أربعة أخماسه الباقية فـتكون حقاً للغانمين فيما أصيب مع المحاربين وتكون حقاً للواجد فيما عداها.

وقـسَّم الإمام أربعـة الأخمـاس على القائمـين سواء فى ذلك أهل الديوان والمتطوعـون

يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم، وخالف فى ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله حيث قال: للفارس سهمان وللراجل سهم. قال للرشيد: فخذ بأى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخيَر للمسلمين فإن ذلك موسع عليك إن شاء الله ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين.

مصرف الخمس:

بين الله فى كتابه مصرف الخمس فى الآية من سورة الأنفال حيث يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال: ٤١). قال أبو يوسف: فكان ذلك الخمس يقسم فى عهد رسول الله ﷺ للرسول سهم ولذى القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ثم قسَّمه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى وروى عن ابن عباس أنه قال: عرض علينا عمر ابن الخطاب أن نزوج من الخمس أيمنا ونقضى عن غارمنا فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى علينا سلفه ومع أن ذلك كان رأى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فإنه قسَّم الخمس كما قسمه.

وذكر أبو يوسف أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوى القربى فى الكر اع والسلاح. وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث بسهم الرسول وسهم ذوى القربى إلى بنى هاشم. قال وكان أبو حنيفة وأكثر فقهائنا يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم. وأقول: رأى الشافعى محمد بن إدريس المطلبى رحمة الله أن سهم الرسول يصرف فى مصالح المسلمين وسهم ذوى القربى يصرف لمن ينتسب إلى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف دون بنى أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوى فى العطاء بين الأغنياء والفقراء لأن سبب الاستحقاق القرابة ويشترط فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر والأنثى كما قال المزنى وأبو ثور من أصحاب الشافعى و﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء: ١١) كما قال غيرهما ـ ويقول الشافعى: قال أحمد: إلا أنه قال: إن ردوه صرف فى السلاح والكر اع كفعل أبى بكر وعمر وعثمان.

الخـــراج:

المورد الثانى من موارد الخلافة الخراج وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء.

(١)وظيفة الأرض الخراجية.

(٢)جزية أهل الذمة.

(٣)ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب.

وظيفة الأرض الخراجية:

لما غلب المسلمون على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة والشام فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلب إليه بعض ذوى الرأى من الصحابة أن يقسم الأرض على الغانمين كما قسم ما أصابوه من سلاح ومتاع وأكثروا عليه فى ذلك فأبى عليهم مستنداً فى كتاب الله تعالى الذى جعل هذا الفىء حقاً للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم. ذكر ذلك في سورة الحشر حيث قال: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر: ٨ ـ ١٠).

فجعل هذا الفىء حقاً للمهاجرين والأنصار ولمن جاء بعدهم ومن أجل ذلك لم يرض عمر بقسمة الأرض بين الغانمين، لأنه لو قسمها بينهم لم يبق لمن يأتى بعدهم شىء بل ترك الأرضين والأنهار بعمالها ليكون ذلك فى أعطيات الجنود وغير ذلك، ومن هنا رأى أبو يوسف رحمه الله أن هذه الأرضين المفتوحة عنوة يخير فيها الإمام فإن شاء قسمها بين الغانمين الذين افتتحوها وإن لم ير قسمها ورأى الصلاح فى إقرارها فى يد أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السواد، فله ذلك وهى أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهى ملك لهم يتوارثونها ويتبايعون ويضع عليهم الخراج ولا يكلفون من ذلك ما لا يطيقون.

وإذاً يكون حد أرض الخراج ـ كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام وأبقاها بأيدى أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة.

ويخرج من ذلك أنواع من الأراضى لا يوضع عليه الخراج وإنما تكون أرضاً عشرية وهى:

(١) كل أرض للعرب غير بنى تغلب.

(٢) كل أرض من أرض الأعاجم أسلم عليها طوعاً.

(٣) كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الغانمين. وسنبين حكم كل نوع بعد الكلام على أرض الخراج.

ما فعله عمر فى أرض الخراج:

لما اتضح لعمر رأيه فى الأرض المغنومة أرسل من قبله من يمسح أرض السواد فبلغت (٢٦,٠٠٠,٠٠٠ جريب) فوظف عليها الخراج مقادير معينة من الدراهم وأطعمه حسبما رأى المندوبان اللذان أرسلهما لذلك، وهذه الوظيفة تختلف من درهمين لعشرة دراهم على الجريب فأقلها وظيفة جريب الشعير عليه درهمان وأكثرها وظيفة جريب الكرم والنخل عليه عشرة دراهم فى رواية وثمانية فى أخرى، وبين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم وجريب الحنطة أربعة دراهم أو درهم وقفير وجريب الرطبة والسمسم والقطن خمسة دراهم وجريب القصب ستة دراهم. قال: إن جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام (١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم).

أقول وإذا كانت المساحة كما قدمنا والجباية ما ذكرنا يكون متوسط جباية الجريب (٢,٧٥ درهم) وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التى كانت تؤخذ على أجربة الحنطة، لأن هذا المتوسط بدونها لا يصلح إلا إذا كان معظم الأرض يزرع شعيراً وهو بعيد. وقال ابن خرداذبه: إن عمر جبا العراق (١٢٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم) فيكون متوسط جباية الجريب (٣,٥٥ درهم) وهو أقرب من المفهوم، ولا بد أنه لم يعتبر فى ذلك أجربة القمح والجريب اسم لستين ذراعاً فى ستين بذراع الملك وهى (٥٧,٧٧) وبالتكسير تكون مساحة الجريب (١٢٠٠م) فكل ثلاثة أجربة ونصف فدان مصرى. ولا بد أن ننبه هنا على ما رأيناه فى كتاب صاحب السعادة المفضال يعقوب أرتين باشا الموسوم بالأحكام المرعية فى الأراضى المصرية، فإنه روى عن قدامة أن الجريب اسم لستين ذراعاً فى ستين بذراع الملك وظن أن ذراع الملك هى الذراع السوداء فوقع فى الخطأ الحسابى الذى أنتج له أن كل أربعة أجربة و(٥/٤ جريب) تعادل فداناً مصريا مع أن هناك اختلافاً بين الذراعين كما ذكره الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية حيث قال: إن ذراع الملك تزيد على الذراع السوداء بخمسة أصابع وثلثى إصبع فتكون ذراعاً وثمناً وعشراً أى ذراعاً و (٩/٤٠)، وحقق العلامة المرحوم على مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هى (٥/٤) فتكون ذراع الملك ذراعاً وربعاً بالسواد. وقد

ـخ له هذا من تقـدير المتقـدمين لضلع قاعـدة الهرم الأكـبر بأربعـمائة ذراع بذراع التـجار (٥٠٠) بالذراع السواد وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على (٤٠٠, ٥٠٠) يخرج هذان الرقمان ٧٥,٧٦س) وهو طول ذراع الملك و (٤٦,٢س) وهو طول الذراع السواد.

وإذا كان كل (٣,٥) جريب فـداناً تكون ضريبة الفدان المزروعة قمـحاً (١٤درهماً) هذا هو الخراج الموظف الذى رآه عمر.

لم ير أبو يوسف رحـمه الله ما قـرره عمر رضى الله عنه فـى أمر الخراج حـيث جعله وظيفة محدودة أمراً لازماً لمن يأتى بعده بل يجوز للخلفاء إذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين فى المقاسمـة أن يعدلوا إليها وقد ناظر أبو يوسف أهل العلم بالخـراج فى هذا الأمر، فرأى ن تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج. ـمن وظيفة الطعام فإن كان رخيصاً رخصاً فاحشاً لم يكتف السلطان بالذى وظف عليهم ولم يطب نفساً بالحط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثـغور ـ وإن كان غلاء فاحشاً لا يطيب السلطان نفساً بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك والرخص والغلاء بيد الله لا يقومان على أمر واحد، وكذلك وظيفة الدراهم. ثم قال: وأما ما يدخل على أهل الخراج فيما بينهم فهو التظالم وغلبة القوى على الضـعيف ثم قال ـ ولم أجد شيئاً أوفر على بيت المال ولا أعفى لأهل الخـراج من التظالم فيمـا بينهم وحمل بعضـهم على بعض ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من التظالم فيـما بينهم وحمل بعـضهم على بعض راحة وفضل، وقـد رأى أن يقاسم من عمل الحنطة والشعيـر من أهل السواد جميعاً على خمسـين للسيح منه، وأما الدوالى فعلى خمس ونصف، وأمـا النخل والرطب والكرم والبسـاتين فعلى الثلث، وأما غـلال الصيف فعلى الربع ولا يؤخذ بالخرص فى شيء من ذلك ولا يحرز عليهم شيء منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات فى أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيـمة عادلة لا يكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون علـى السلطان ضرر. ثم يؤخـذ منهم ما يلزمهـم من ذلك أى ذلك كان أخف على أهل الخراج فـعل ذلك بهم. وإن كان البيع وقـسمة الثـمن بينهم وبين السلطان أخف فعل ذلك بهم. ومن رأى أبى يوسف إعـفاء ما دون خمسـة أوسق من الخراج وهى (٣٠٠صاع) أو (١٦٠٠ رطل)، وخالف فى ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله.

وقد أشار أبو يوسف بأن يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقـدر ما يمكن الدياس فإذا أمكن الدياس رفع على البيـادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوماً واحداً لئلا تذهب به الأكرة والمارة والطيـر والدواب فيضر ذلك بالخراج. وإذا

رفع إلى البيادر وصير أكداسا أخذ فى دياسه ولا يحبس الطعام إذ صار فى البيادر الشهر والشهرين والثلاثة لا يداس فإن فى حبسه فى البيادر ضرراً على السلطان وعلى أهل الخراج، وبذلك تتأخر العمارة والحرث ولا يخرص عليهم ما فى البيادر ولا يحزر عليهم حزرًا ثم يؤخذون بنقائض الحزر، فإن هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم.

ثم قال: ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفان ولا نزلة ولا حمولة طعام السلطان ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولا أجور الكيالين ولا مؤنة لأحد عليهم فى شىء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذى وصفنا من المقاسمة ولا يأخذون بثمن الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلاً أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة فى المقاسمة ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجاً لدراهم يؤدونها فى الخراج فإنه بلغنى أن الرجل منهم يأتى بالدراهم ليؤديها فى الخراج فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها ولا يضرب رجل فى دراهم خراج ولا يقام على رجله فإنه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله وشنيع فى الإسلام.

من أجل ذلك ترى أن أبا يوسف رحمه الله دقق كثيراً فى أمر من يولى جباية الخراج فأشار على إمامه أن يكون والى ذلك فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأى عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة. وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت تجوز شهادته إن شهد ولا يخاف منه جور فى حكم إن حكم. ثم قال: إنى قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياماً ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم، ولعله لا يكون عارفاً بسلامة ناحية ولا عفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ثم قال: وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ولا محتقراً لهم ولا مستخفاً بهم لكن يلبس لهم جلباباً من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا ويحملوا ما لا يجب عليهم، واللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وإنصاف المظلوم والشدة على الظالم والعفو عن الناس: قال. وإنى لأرجو إن أمرت بذلك وعلم الله من قلبك إيثارك ذلك على غيره ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مخالف أن يأخذه الله دونك وأن يكتب لك أجرك وما نويت إن شاء الله. لتصير مع الوالى الذى وليته قوماً من الجند من أهل الديوان فى أعناقهم بيعة على النصح لك، فإن من نصحك أن لا تظلم رعيتك وتأمر بإجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهراً بشهر، ولا تجرى عليهم من الخراج درهماً فيما سواه.

ثم تكلم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصـل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهـم فوق مالهـم ونبه عليـه وطلب منه أن يحسم ذلك كلـه سداً لضرر أهـل الخراج ونقص الفىء.

ورأى مع هذا كله أن يبـعث الإمـام قومـاً من أهل الصلاح والعـفـاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال، ومـا عملوا به الخراج وكيف جبوه على ما أمروا به وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر فإذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حـتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والـنكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به ومـا عهد إليهم فيه فـإن كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسـف فإنما يـحمل على أنه قد أمر بغيره وإن أحللت بواحـد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيـره واتقى وخاف وإن لـم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجـترأوا على ظلمهم وتعسفـهم وأخذهم بما لا يجب عليهم وإذا صح عندك من العامل والوالى تعدّ بظلم وعسف وخيانة لك فى رعيتك واحتجاز شىء من الفىء أو خبث طعمـته أو سوء سيرته فحـرام عليك استعماله والاسـتعانة به وأن تقلده شيئاً من أمور رعيتك أو تشركه فى شىء من أمرك.

تقبل الأرض:

كان النظام المتبع فـى جباية الخراج التقـبل وهو جعل شخص من الأشخاص قـبيلاً أى كفيلاً بتـحصل الخراج وأخذه لنفسه مقـابل قدر معلوم يدفعه. وكان الناس يتـزايدون فيما يتقبلون به الأرض فيستـفيد السلطان تعجيل المال. ويستفيد المتقـبل الفضل بين ما دفعه وما حصله وقد كره أبو يوسف هذا النظام، فقال للرشيد: ورأيت ألا تقبل شيئاً من السواد ولا غير الســواد من البلاد، فإن المتقبل إذا كـان فى قبالته فضل عن الخـراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم مـا لا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليـسلم مما يدخل فيه وفى ذلك وأمثاله خراب البـلاد وهلاك الرعية و المتقبل لا يبالى بهـلاكهم بصلاح أمره فى قبالته ولعله يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم فـى الشمس وتعليق الحجارة فى الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليـس يجب عليهم من الفســاد الذى نهى الله عنه إنما أمـر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العـفو وليس يحل أن يكلفوا فـوق طاقتهم. وإنما أكره القـبالة لأنى لا آمن أن يحمل هذا المتقـبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم فـيعاملهم بما وصفت لك فـيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شىء ولن يقع مع الصلاح شىء إن الله قد نهى عن الفساد فى الأرض فقال: **﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ**

إصْلاحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦). وقال ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥) وإنما هلك من هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشترى منهم وأظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم. والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذى لا يحل ولا يصح - واختار أبو يوسف التقبل إذا طلبه أهل القرية أو المصر وقالوا: وهو أخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رقيب أمين رزقه من بيت المال حتى يمنعه من ظلم إن أراده والإعذار إلى المتقبل والوالى برفع الظلم عن الرعية والوعيد له إن حملهم ما لا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم فإن فعل فأوفوا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجراً له وناهياً لغيره أن شاء الله.

القطائع:

القطائع جمع قطيعة وهى ما يمنحه الإمام من الأرض لبعض المتازين بفعالهم من الرعية.

قال أبو يوسف رحمه الله: إن عمر رضى الله عنه بعد أن فتح العراق اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن فى يد أحد أو لرجل قتل فى الحرب. أو لحق بأرض الحرب وكانت مساحة ما اصطفاه من هذه الأرض (٤,٠٠٠,٠٠٠جريب) فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع، قال أبو يوسف: وذلك بمنزلة المال الذى لم يكن لأحد ولا فى يد وارث، فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء فى الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابى به فكذلك هذه الأرض. ثم قال: فأما من أخذ واحداً وأقطع آخر فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطى واحداً.

والإمام مخير فى هذه الأرض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية إن كانت تسقى من أنهار الخراج. قال أبو يوسف: وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضاً من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الأصناف التى ذكرنا أن الإمام يقطع منها فلا يحل لمن يأتى بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرجه من يدى من هو فى يده وارثاً أو مشترياً. فأما ما أخذ الولاة من يد واحد أرضاً وأقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحداً وأعطى آخر، فلا يحل للإمام ولا يسعه أن يقطع أحداً من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئًا إلا بحق يجب له عليه فيأخذه بذلك الذى وجب عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والأرض عندى بمنزلة المال فللإمام أن يجيز من بيت المال من كان له غناء فى الإسلام ومن يقوى على العدو ويعمل فى ذلك بالذى يرى أنه خير للمسلمين، وأصلح لأمرهم وكذلك الأرضون يقطع منها الإمام من أحب من الأصناف التى سميت ولا أرى أن يترك أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام، فإن

ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج. فهذا حدُّ الإقطاع عندى على ما أخبرتك. ومن رأى أبى يوسف أن أرض الإقطاع تجعـل عشرية لما يلزم صـاحب الإقطاع من المؤنة فى حفـر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض.

ومن أجل ذلك يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتى ذكره.

موات الأرض:

قال أبو يوسف: لو أن بلاداً فتحت عنوة أو صلحاً وفى بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد وليست مرافق لقرية من القرى فهى موات، فمن أحياها فهى له وللإمـام أن يقطع ذلك من أحب وله أن يؤجراه ويعـمل بما فيـه الصلاح، وقـد خالف شيخه أبا حنيـفة رحمه الله فى إحياء الموات فإن الإمام يقول: لا يمـلك المحيى ما أحيا إلا بإذن الإمام، قال أبو يوسف: وإنما قال ذلك أبو حنيفة كيلا يتنازع الناس.

وإذا كانت الأرض الموات فى أرض العشر أدى عنهـا العشر وإن كانت فى أرض الخراج أدى عنها الخراج، وإن احـتفر لها بئراً أو اسـتنبط لها قناة كانت أرض عشـر، أما إن ساق إليها ماء الخراج فهى أرض خراج.

قال أبو يوسف: وأيما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لأحد عليهـا يد ولا دعوى فأخـذها رجل وأحياها وأدى عنهـا العشر أو الخـراج فهى له، وليس للإمام أن يخرجها من يده.

وجعل من الأرض الموات ما ينكشف من الجـزر فى دجلة والفرات إذا كان لرجل جزيرة أو أرض تلاصقها فحصنها من الماء وزرع فيها، فهى له بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا بسير السفن، وكذلك ما عـولج من البطائح بضرب المسنيات عليها وقطع ما فـيها من القصب، وكـذلك ما عـولج من الآجـام - كل ذلك مشـروط بألا يكون للأرض مـالك أو ذو يد أو مرتفق، فـإن المحافظة على حقوق انـتـفاع الجمـهور مما أكد فيـه أبو يوسف، حتى منع من إنشاء الغروب فى دجلة إذا كان ذلك بموضع يضر بسـير السفن التى تمر فى دجلة ومن فعل من ذلك شيئاً فعطبت به سفينة فهو ضامن، قال أبو يوسف: ولا يترك الإمام شيئاً من ذلك إلا أمر به فـهدم ونحى فـإن فى هذا ضرراً عظيـماً فـالفرات ودجلة إنما همـا بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئاً، فمن أحـدث فيه شيئاً فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن يوكل بذلك رجلاً ثقة أميناً حتى يتـتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيئاً فى دجلة والفرات فى موضع يضر بالسفن ويتخـوف عليها منه إلا نحاه وتوعد أهله على إعادة شىء منه فإن فى ذلك أجراً عظيـماً. وتكلم طويلاً فى المياه على اختلاف أنواعـها وحقوق الجمهور فيها.

المورد الثانى من موارد الخراج جزية أهل الذمة:

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الرؤوس وهذه الجزية يقابلها من المسلمين الحماية ودفع العدو عنهم. وذلك أنهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين فى حروبهم وقد رأيت من السنن العمرية أن من استعين به من غير الملة لا يدفع جزية. روى الطبرى فى حوادث (سنة ٢٢) من الهجرة أن عبد الرحمن بن ربيعة أحد قواد عمر لما توجه من أذربيجان لفتح الباب أتاه ملكه شهريراز فقال له: إنى بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب وليس ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبج فى شىء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصفوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم. فقال عبد الرحمن فوقى رجل فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقة بن عمرو فلقيه بمثل ذلك فقال سراقة: قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ولابد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سُنّة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزية تلك السنة وكتب سراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك فأجازه وحسنه وكتب لهم سراقة بذلك كتاباً:

فهذا مما يستأنس به على فكرة المسلمين إذ ذاك فى أمر الجزية: قال أبو يوسف: إن الجزية واجبة على جميع أهل الذمة، ما خلا نصارى تغلب وأهل نجران خاصة والذى يجب عليه الجزية منهم الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ولا من مقعد لا مال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا مال له: وليس فى مواشى أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة.

وقد قدر أبو يوسف الجزية ثلاث فئات (٥٨ درهماً) على الموسرين و (٢٤) على المتوسطين و(١٢) على العمال.

ثم قال أبو يوسف: وينبغى يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم.

أما نصارى بنى تغلب فتؤخذ منهم صدقة المسلمين مضاعفة. هكذا فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقـد تكلم أبو يوسف على مـا منح لأهل الذمة من الإمـتيـازات فى دينهم وكنائسـهم وبيعهم فقال إنه كان قد جرى الصلح بين المسلمين وأهل الذمة فى أداء الجزية على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم وعلى أن يخرجوا بالصلبـان فى أعيادهم وعلى أن يذبوا عنهم فأدوا الجزية على هذا الشرط وجرى الصلح بينهم على ألا يحدثوا بناء بيعـة ولا كنيسة فافتتحت الشام والحيرة إلا أقلها على هذا، فلهـذا تركت البيع والكنائس ولم تهدم. ثم اقتص تاريخ ما أعطاه الـقواد لأهل الذمة فى الأقـاليم المختلفـة من هذه الشروط وروى عن رسـول الله ﷺ أنه قال: (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فـأنا حجيجه) (أخرجه الطبرى) وكان فيـما تكلم به عـمر بن الخطاب رضى الله عـنه عند وفاته أوصى الخليـفة من بعـدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

المورد الثالث من موارد الخراج العشور:

لم تكن العشـور من الموارد التى ذكرها القرآن الكريم ولكنهـا حدثت فى عهد عـمر بن الخطاب رضى الله عنه وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعرى كتب إليه: إن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحـرب فيأخـذون منهم العشـر فكتب إليه عمـر خذ أنت منهم كـما يأخذون من تجـار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العـشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً وليس فـيمـا دون المائتين شىء، فإذا كانـت مائتين ففـيها خـمسـة دراهم، وما زاد فحسـابه. وروى أن أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء البحر كتـبوا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ فى ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عـشر من أهل الحرب. وبعث زياد بن حدير الأسدى على عشور العراق والشـام. فصار ذلك سُنَّةً فى المرور بأموال التجارة خـاصة وما يرد منها من أهل الحرب وأهل الذمـة سبيله سـبيل الخراج، أمـا ما يرد من المسلمين فـسبيله سـبيل الصدقات ولذلك فإذا قال المسلم قد أديت زكاة هذا المال الذى فى يدى صدق فى يمينه.

قال أبـو يوسف: رأيت أن تولى العشـور قومـاً من أهل الصلاح والدين وتأمـرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فـلا يظلمونهم ولا يأخذون منهم أكثر مما يجب عليهم وأن يمتثلوا ما رسمناه لهم ثم تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر عليهم وهل يجاوزون ما قد أمروا به، فـإن كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقـبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ مـنه أكثر مما يجب عليه وإن كـانوا قد انتهوا إلى ما أمـروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعـاهد أثبتـهم على ذلك وأحسـنت إليهم، فـإنك متى أثبت على حـسن السيرة

والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدى بما تأمره به فى الرعية يزيد المحسن فى إحسانه ونصحه وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدى وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض بالقيمة.

مصاريف بيت مال الخراج:

الخراج الذى يتكون مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث هو دعامة مالية الدولة ومصرفه المصالح العامة، لأنه حق للجمهور كله وهذه المصالح بحسب ما يرى الإمام وقد ذكر أبو يوسف بعضها لورودها فى أسئلة الخليفة وهى:

أولاً - أرزاق القضاة والولاة والعمال:

قال أبو يوسف: فيجرى على والى كل مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل وكل رجل تصيره فى عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئاً إلا والى الصدقة فإنه يجرى عليه منها، فأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك إليك، ومن رأيت أن تزيده منهم فى رزقه زدت ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت؛ أرجو أن يكون ذلك موسعاً عليك وكل ما رأيت أن الله تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره فإنى أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب.

وقد سأله الرشيد عن رأيه فيما يجرى على القاضى إذا صارت إليه ميراث من مواريث الخلفاء وبنى هاشم من الذى يصير إليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم ومالهم فأجاب سلباً وقال: إنما يعطى القاضى رزقه من بيت المال ليكون قيماً للفقير والغنى والصغير والكبير ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه مواريثه رزقاً ولم تزل الخلفاء تجرى للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين فأما من يوكل بالقيام بتلك المواريث فى حفظها والقيام بها فيجرى عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ما هم فيه فلا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والأمناء ويبقى الوارث هالكاً وما أظن كثيراً من القضاة والله أعلم يبالى بما صنع وكيفا عمل ولا يبالى أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث إلا من وفقه الله تعالى منهم.

ثانياً - أعطيات الجنود وهى مرتبات العسكر:

ولم يكن فى حياة النبى صلى الله عليه وآله وسلم مرتبات معينة للجنود الذين كانوا

يتمتعون من جميع أفراد المسلمين، وإنما كانوا يأخذون مالهم فى أربعة أخماس ما يغنمون وفيما يرد من خراج الأراضى التى أبقيت فى أيدى أهلها كأرض خيبر، ولما ولى أبو بكر رضى الله عنه أعطى الناس وسوى بينهم فى العطاء قائلاً: هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة، فلما ولى عمر رضى الله عنه رأى فى ذلك غير رأى أبى بكر وقسم العطاء مفضلاً الأسبق فالأسبق وهذا قوله بنصه: والله الذى لا إله إلا هو ما أحد إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدهم ولكننا على منازلنا من كتاب الله عزل وجل وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وتلاده فى الإسلام والرجل وقدمه فى الإسلام والرجل وغناؤه فى الإسلام والرجل وحاجته فى الإسلام. بناء على هذه القواعد فرض العطاء فكانت المرتبات كما يأتى:

١٢٠٠٠ درهم لأزواج النبى ﷺ ولعمه العباس.

٥٠٠٠ درهم لمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار وألحق بهم الحسن والحسين.

٤٠٠٠ درهم لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد وألحق بهم أسامة بن زيد.

٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار كعمر بن أبى سلمة.

٢٠٠٠ لأبناء المهاجرين والأنصار.

٨٠٠ لأهل مكة.

٤٠٠ و ٣٠٠ لسائر الناس.

٦٠٠ و ٤٠٠ و ٣٠٠ و ٢٠٠ لنساء المهاجرين والأنصار.

وكان يفرض لأمراء الجيوش والقرى فى العطاء ما بين (٩٠٠٠) و(٨٠٠٠) و(٧٠٠٠) على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور وكان للمنفوس إذا طرحته أمه ١٠٠ دراهم) فإذا ترعرع بلغ به (٢٠٠) فإذا بلغ زاده.

وكان للعطاء ديوان تسجل فيه أسماء المرتزقين ويقبضون عطاءهم على رأس السنة حسبما هو وارد فيه والذى أوجد هذا الديوان هو عمر بن الخطاب، رضى الله عنه.

ولما كثر الناس عن الحاجة واضطرتهم المدنية إلى أن يشتغل كثير من الأمة بغير الجهاد من الصنائع اقتصر الديوان على ما تقوم به حاجة الأمة من الجيش، وكان بعض من ليس مرتزقاً فى الديوان يدعوه حبه للجهاد أن يذهب مع الجيش فلا يمنع ويسمون هذا متطوعاً، وكانوا كثيرين يلازمون الثغور ويخرجون مع الجيوش.

ثالثاً -ـ كرى الأنهار وإصلاح مجاريها:

وقال أبو يوسف رحمه الله: وإذا احتاج أهل السواد إلى كرى أنهارهم العظام التى تأخذ من دجلة والفرات كـريت لهم، وكانت النفقة من بيت المال، ومن أهل الخـراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج.

وأمـا الأنهار الـتى يجرونهـا إلى أرضـهم ومـزارعهم وكـرومـهم ورطابهم وبسـاتينهم ومباقلهم، وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شىء.

وأما الـبثوق والمسـنيات والبـريدات التى تكون فى دجلة والفرات وغـيرها من الأنـهار العظام، فإن النفقة علـى هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شىء، لأن مصلحـة هذا على الإمام خـاصة لأنه أمر عـام لجميع المسلمين فـالنفقة عـليه من بيت المال، لأن عطب الأرضين من هذا وشـبـهه وإنما يدخل الضـرر من ذلك على الخـراج ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله، يعـمل فى ذلك بما يجب عليه لله، قد عرفت أمانته وحمدت مذهبه ولا تـول من يخونك ويعمل فى ذلك بما لا يحل ولا يسعه أن يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يضيع المواضع المخوفة ويهـملها ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم، ثم وجه من يتعرف ما يعـمل به واليك فى هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك من العـمل عليها مما قد يحتاج إلى العمل وما تفـجر وما السبب فى انفجاره ثم عامله حسـبما يأتيك الخبر عنه من حمد لأمره أو ذم وإنكار وتأديب.

رابعاً ـ حفر الترع بعد التثبت من نفعها بواسطة من لهم بصيرة ومعرفة. فإذا تبين الإمام ذلك أمر بحفر تلك الترع وجعل النفقة من بيت المال ولا يحمل النفقة على أهل البلد فإنهم إن يعمروا خير من أن يخربوا وإن يعزوا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا.

خامساً ـ الإجراء على المسجونين.

قال جواباً لسـؤال للرشيد عنهم لابد لمن كان فى مـثل حالهم إذا لم يكن له شىء يأكل منه لا مال ولا وجه شىء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أومن بيت المال، من أى الوجهين فـعلت، فذلك مـوسع عليك وأحب إلىَّ أن تجرى من بيت المال عـلى كل واحد منهم ما يقـوته فإنه لا يحل ولا يسع إلا ذلك قـال: والأسير من أسـرى المشركين لابد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه فكـيف برجل مسلم قد أخطأ وأذنب يترك يموت جوعاً. وإنما حمله على ما صار إليه القضاء أو الجـهل ولم تزل الخلفاء تجرى على أهل السجون مـ

يقوتهم فى طـعامهم وأدمـهم وكسوتهم الشـتاء والصيف وأول من فـعل ذلك على بن أبى طالب كرم الله وجهه بالعراق ثم فعله معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده.

قال أبو يوسف: فـمر بالتقدير لهم ما يـقوتهم فى طعامهم وأدمهـم وصير ذلك دراهم تجرى عليـهم فى كل شهر يدفع ذلك إليـهم، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقـوام والجلاوذة وولى ذلك رجلاً من أهل الخـير والصلاح يثبت أسـماء من فى السـجن ممن تجرى عليهم الصدقة وتكون الأسماء عـنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه فى يده، فـمن كان منهم أطلق وخلى سبيله، رد ما يجرى عليه ويكون للأجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد وليس كل من فى السجن يحتاج إلى أن يجرى عليهم وكسوتهم فى الشتـاء قميص وكساء وفى الصيف قميص وإزار ويجرى على النساء مـثل ذلك وكسوتهن فى الشتـاء قميص ومقنعة وكـساء، وفى الصيف قميص وإزار ومقنعة وأغنتهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس فإن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطأوا وقضى الله عليهم ما هو فيه فحبسوا يخرجون فى السلاسل يتصدقون وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم فكيف ينبغى أن يفعل هذا بأهل الإسلام؟ وإنما صاروا إلى الخـروج فى السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهـد الجوع فربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيـبوا وإن ابن آدم لم يعر من الذنوب فتفقـد أمرهم ومر بالإجراء عليهم مثل ما فـسرت لك ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة غسل وكـفن من بيت المال وصلى عليه ودفن فإنه بلغنى وأخبـرنى به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فمكث فى السجن اليوم أو اليومين حتى يستأمر الوالى فى دفنه وحتى يجـمع أهل السجن من عندهم مـا يتصدقـون ويكثرون من يحـمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن، ولا صلاة فما أعظم هذا فى الإسلام وأهله.

(المورد الثالث من موارد بيت المال الصدقات وهى ما يؤخذ من المسلمين)

أولاً ـ من أنعامهم وهى الإبل والبقر والغنم على حساب معين فى الفقه الإسلامى.

ثانياً ـ من نقودهم التى هى الذهب والفضة باعتبار ٢,٥ من كل مائة.

ثالثاً ـ من أمـوال تجاراتهم ومنها مـا يمرون به على العاشر يؤخـذ منهم كذلك باعتـباره ٢,٥ من كل مائة.

رابعاً ـ ما يؤخذ من حاصلاتهم الزراعيـة وهى أعشار الأرض يؤخذ مما سقى بدون مؤنة العشر ومما سقى بمؤنة نصف العشر.

قال أبو يوسف رحـمه الله: ومر يا أمير المؤمنـين باختيار رجل أمين ثقة عـفيف ناصح مأمـون عليك وعلى رعيـتك فوله جمع الصـدقات فى البلدان ومـره فليوجه فـيها أقـواماً يرتضيـهم ويسأل عن مـذاهبهم وطرائقـهم وأماناتهم يجـمعون إليـه صدقـات البلدان فإذا جمعت إليـه أمرته فيها بما أمر الله جـل ثناؤه به فأنفذه، ولا تولها عمال الخـراج فإن مال الصدقة لا ينبـغى أن يدخل فى مال الخراج وقد بلغنى أن عـمال الخراج يبعـثون رجالاً من قبلهم فى الصدقـات فيظلمون ويعسـفون ويأتون ما لا يحل ولا يسع وإنما ينبغى أن يتـخير للصدقـة أهل العفاف والصـلاح فإذا وليتـها رجلاً ووجـه من قبله من يوثق بدينه وأمـانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما ترى، ولا تجر عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة.

مصارف الزكاة:

الزكاة تصـرف بالنص إلى ثمانيـة أصناف من الناس قال الـله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٦٠).

قال أبو يوسـف: فالمؤلفة قلوبـهم قد ذهبوا (وخـالف الحنفيـة فى ذلك أكثـر الأئمة)، والعاملون عليها يعطيهم الإمام ما يكفيهم من غيـر سرف ولا تقتير وقسمت بقية الصدقات بينهم للفقراء والمسـاكين سهم، والغارمون وهم الذين لا يقدرون على قـضاء ديونهم سهم وفى السبيل المنقطع بهم سهم، يحملون به ويعانون. وفى الرقاب سهم، وسهم فى إصلاح طرق المسلمين ويقسم سـهم الفقراء والمساكين من صـدقة ما حول كل مـدينة فى أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على أهل مدينة أخرى، وأما غيره فيصنع به الإمام ما أحب من هذه الوجوه التى سمى الله تعالى فى كتابه، وإن صيرها فى صنف واحد ممن سمى الله تعالى أجزأ.

٦
الأمـــين

هو محمد الأمين بن هارون الرشـيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصـور فهو هاشمى أباً وأماً ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ولابنه الحسن.

ولد (سنة ١٧٠) من الهجرة وولاه أبوه العـهد (سنة ١٧٥) وكان قائماً مقـام أبيه ببغداد حينمـا سافر إلى خـراسان، ولما مات الرشـيد بطوس بويع له فى عـسكر الرشيد بالخـلافة ووصل الخبر إلى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر فى الخلافة إلى أن قتل فى (٢٥ محرم سنة ١٩٨) (٥ سبتمبر سنة ٨١٣) فكانت مدته أربع سنوات إلا أربعة أشهر تقريباً.

الحال الداخلية لذلك العهد:

كـانت هذه المدة التى وليـها الأمين مملوءة بالمشـاكل والاضطرابات بين الأخـوين الأمين والمأمون. وكادت الأمة تذهب بينهـما ضياعاً وسبب ذلك ما فعله الرشـيد من ولاية العهد لأولاده الثلاثة أحدهم بعد الآخـر وقسمته البلاد بينهم كمـا قدمنا ونحن نبين كيف ابتدأت المشاكل وكيف انتهت ونبين آثارها فى الأمة:

لما كان الرشيد بطوس جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهد من معه من القواد وسائر الناس أن جمـيع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون وأن جـميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمـون. ولما علم الأمين وهو ببغداد مرض أبيه وأنه لمآبه أرسل من يفيده الأخـبار كل يوم وأرسل كتباً للمـأمون يعزيه فيه عن أبيـه ويأمره أن يأخذ البيعة على: من قِبَلَهُ للأمين، بالخلافة وللمـأمون بولاية العهد والقاسم المؤتمن بعده. ومنها كتاب لصالح بن الرشـيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الـذين معه وهو الذى صلى عليه حين مات. وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للأمين، ثم المأمون ثم المؤتمن على الشريطة التـى اشترطها الرشـيد وأمره بالمسيـر إليه مع جمـيع الجنود والذخائر

والسلاح، وقال له فى الكتاب وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرم أمراً إلا برأى شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع وفيه: وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو أرزاق فليكن الفضل بن الربيع المتولى لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدين فإن الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور.

لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الأمين بطوس من القواد والجند وأولاد هارون تشاوروا فى اللحاق بمحمد فقال الفضل بن الربيع لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم للمأمون.

انتهى خبر ذلك إلى المأمون وهو بمرو فجمع من معه من قواد أبيه، واستشارهم فأشاروا عليه أن يلحقهم فى ألفى فارس تجريدة فيردهم فدخل عليه الفضل بن سهل وهو عنده من أعظم الناس قدراً وأخصهم به فقال له إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية إلى محمد ولكن الرأى أن تكتب إليهم كتاباً وتوجه إليهم رسولاً فتذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء وتحذرهم الحنث، وما يلزمهم فى ذلك فى الدين والدنيا فعل ذلك المأمون ووصل الكتاب والقوم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل فلم يفد هذا الجواب فائدة وتم الفضل بن الربيع على سيره.

ولما جاء المأمون خبر ذلك كان الفضل بن سهل حاضراً فأزال عنه الانزعاج وأمله فى الخلافة فجعل أمره إليه وأمره أن يقوم به بعد أن رفضه كبار القواد الذين معه فكان من أول تدبيره أن يبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء فيدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة وأن يقعد على اللبود ويرد المظالم ليكون بذلك قريباً من نفوس الجمهور ففعل.

ولم يبدأ المأمون أخاه بشىء يريبه بل تواترت كتبه إليه بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسرج.

أما الأمر فى بغداد فقد كان يدل على شر مستطير فإن الفضل بن الربيع إليه بعد مقدمه العراق ناكثاً للعهود التى كان الرشيد أخذها عليه للمأمون رأى أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حى لم يبق عليه فحث محمداً على خلعه وأن يولى العهد من بعده ابنه موسى ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهود فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه فأول ما بدأ به أن كتب إلى جميع العمال فى الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم. فلما بلغ ذلك المأمون وبلغه أن الأمين عزل أخاه القاسم عما كان

الرشيـد ولاه من الأعمال وأقـدمه بغداد علم أنه يدبر فى خلـعه فقطع البـريد عنه وأسقط اسمه من الطرار.

كرر الأمين تجربته فكتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك وهو عامل المأمون على الرى يأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الرى مريداً بذلك امتحانه فبعث إليه بما طلب فبلغ ذلك المأمون فعزل العباس عن ولايته.

ثم بعث الأمين إلى المأمون ثلاثة نفر أحدهم العبـاس بن موسى بن عيسى والغرض من هذا الوفد أن يطلبوا من المأمون، رضاه بتقـديم موسى بن الأمين على نفسه فى ولاية العهد فلما اطلع المأمون على مرادهم، رد ذلك وأباه، وعـرض الفضل بن سهل على العباس بن موسى أن يكون عـوناً لهم ومنوه الأمانى إن هو أجـاب إلى ذلك فرضى، وكـان بعد ذلك يكتب إليهم بالأخبار ويشير عليهم بالرأى عاد الوفد على الأمين وأخبروه بامتناع المأمون.

لم يخفض ذلك من غلواء الفضل بن الـربيع بل ما زال يلح على الأمين حتى رضى أن يخلع المأمون، ويبـايع لابنه موسى بولاية العهـد. ونهى الفضل عن ذكر المأمـون والقاسم والدعاء لهما على شىء من المنابر ووجه إلى مكة كتاباً مع رسول من حجبة البيت فى أخذ الكتابين اللذين كتبهما هارون وجعلهما بالكعبة فأحضرهما إلى بغداد فمزقا.

وكان الأمين قبل أن يكاشف أخاه بذات نفسه أرسـل إليه يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سمـاها، وأن يوجه العمال إليها من قبل محمـد وأن يحتمل توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب إليه بخبره فكتب إليه جواب ذلك:

بلغنى كتاب أمـير المؤمنين يسأل التجافى عن مـواضع سماها مما أثبته الرشيـد فى العقد وجعل أمره إلىَّ وما أمره رآه أمير المؤمنين أحـد يجاوز أكثره غير أن الذى جعل إلى الطرف الذى أنا به لا ظنين فى النظر لعامته ولا جاهل بما أسند إلىَّ من أمره ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التى أنا عليها من إشراف عدو مخوف الشوكة وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستـتبع طاعتها إلا بالأموال، وطرف من الأفضال، لكان فى نظر أمير المؤمنين لعـامته وما يحب من أطرافه من يوجب عليه أن يقـسم له كثيراً من عنايته وأن يستصلحـه ببذل كثير من ماله فكيف بمسألة ما أوجـبه الحق ووكدته مأخوذة العهد؟ وإنى لأعلم أن أمير المؤمنين، لو علم من الحال ما علمت لم يطلع ما كتب بمسألته إلىَّ ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله.

وكان المأمون قـد وجه حارسه إلى الحد فـلا يجوز رسول من العراق حـتى يوجهوه مع

ثقات من الأمناء ولا يدعه يستعلم خبراً، ولا يؤثر أثراً ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحداً ولا يبلغ أحداً قولاً ولا كتاباً - فحصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أو أن نودع صدورهم رهبة، ويحملوا على منوال خلاف أو مفارقة - ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظنة فى أمره ممن أتى بجواز فى مخرجه إلى دار مآبه أو تاجر معروف مأمون فى نفسه ودينه ومنع الاشتاتات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول فى البلدان فى هيئة الطارئة والسابلة وفتشت الكتب. هكذا دبر الفضل بن سهل أمر صاحبه فلم يدع للفضل بن الربيع مجالاً لرسله ورواده أن يبثوا شيئاً فى عامة أهل خراسان ولما أتت رسل الأمين بجواب كتب الأمين وجدوا جميع ما كانوا يؤملونه ممنوعاً عنهم موصداً بابه دونهم. وكان كتاب الأمين للمأمون.

(أما بعد فإن أمير المؤمنين الرشيد وإن كان أفردك بالطرف وضم ما ضم إليك من كور الجبل تأييداً لأمرك وتحصيناً لطرفك فإن ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك وقد كان هذا الطرف وخراجه كافياً لحدثه تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من رده وقد ضم لك إلى الطرف كوراً من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها فالحق فيها أن تكون مردودة فى أهلها ومواضع حقها فكتبت إليك أسألك برد تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها ليكون فضول ردها مصروفاً إلى مواضعها وأن تأذن لقائم بالخير بحضرتك يؤدى إلينا علم ما نعنى به من خبر طرفك فكتبت تطلب دون ذلك بما تم أمرك عليه صيرنا الحق إلى مطالبتك فاثن عن همك أثن عن مطالبتك إن شاء الله) فلما قرأ المأمون كتابه كتب إليه:

(أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين ولم يكتب فيما جهل فاكشف له عن وجهه ولم يسأل ما لا يوجبه حق فيلزمنى الحجة بترك إجابته وإنما يتجاوز المناظران أن منزلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها فمتى تجاوز متجاوزها وهو موجود الوسع ولم يكن تجاوزها إلا عن نقضها واحتمال ما فى تركها فلا تبعثنى يا ابن أبى على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحب من صلتك وارض بما حكم به الحق فى أمرك أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك والسلام).

فلما وصل الكتاب إلى الأمين اشتد غيظه وعند ذلك أمر بعدم الدعاء له على المنابر وكتب إليه:

(أما بعد فقد بلغنى كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما مكن ذلك من ظلها متعرضاً لحراق نار لا قبل لك بها ولحضك عن الطاعة كان أودع وإن كان قد تقدم منى متقدم فليس بخارج من مواضع نفعك إذ كان راجعاً على العامة من رعيتك وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة ويثبت لك من حال الهدنة فأعلن رأيك اعمل عليه إن شاء الله).

لم يكن لهذه المكاتبـات بين الأخوين نتيجة لأنـه كان لكل منهما سائق يـسوقه فللأمين الفضل بن الربيع الذى لم يكن يحب المأمون ولا ولايته، وللـمأمون الفضل بن سهل الذى كان يأمل الخلافة لصاحبه وأن تكون مرو حاضرة الخلافة العظمى وتعود لخراسان عظمتها.

بلغ المأمون ما أقـدم عليه أخوه من خلعه عن ولاية العهـد وترك الدعاء له فكان أول ما عمله الفضل بن سـهل من التدبير أن جمع الأجناد التى كان أعـدها بجنبات الرى مع أجناد قد كان مكنها فيها وأجناد للقيام بأمـرهم وأقامهم بالحد لا يتجاوزونه ولا يطلقون يداً بسوء فى عامة ولا مجتاز ثم اختار لقيادة الجند طاهر بن عيسى الخزاعى مولاهم فسار طاهر مغذاً لا يلوى على شيء حـتى ورد الرى فنزلهـا ووكل بأطرافهـا ووضع مـسالحـه وبث عيـونه وطلائعه.

أما الفضل بن الربيع فإنه اختار لجنـد العراق علىّ بن عيسى بن ماهان وولاه الأمين كور الجبل كلهـا نهاوند وهمذان وقم وأصبـهان وأعطى جنده من الأرزاق شيـئاً كثيـراً وأمدهم بالسلاح والعدة فشخص من بغداد فى منتصف جمادى الآخرة (سنة ١٩٥) وكان معه زهاء أربعين ألفاً وحمل معه قيد فضة ليقيد به المأمون كما شاءت زبيدة أم الأمين وقد خدم الأمين أخاه بهذا التعيين خدمة عظيمة فإن أهل خراسان لم ينسوا ما عاملهم به علىّ بن عيسى من الفظائع مدة ولايته فى عـهد الرشيد فكان تعيينه لحربهم مما أثار فى قـلوبهم الحمية لرد هذا العدو بعد أن أبدلهم الله خيراً منه عدلاً ورفقاً وحسن سياسة وهو عبد الله المأمون ومما كان ينذر بالشر جند الأمين عدم احتفال قائده بلقـاء عدوه فإنه لما بلغه أن طاهر بن الحسين مقيم بالرى كان يضـحك ثم يقول وما طاهر فوالله مـا هو إلا شوكة من أغصـانى أو شرارة من نارى وما مثل طاهر يتـولى على الجيوش ويلقى الحروب ثم التفت إلى أصحـابه فقال والله ما بينكم وبـين أن ينقصف انقصـاف الشجر من الريح العـاصف إلا أن يبلغه عـبورنا عقبة همذان فإن الســخال لا تقوى على النطاح والثعـالب لا صبر لها على لقـاء الأسد فإن يقم طاهر بموضعه يكن أول معرض لظبـات السيوف وأسنة الرماح. ولما صار فى أول بلاد الرى أتاه صاحب مقدمـته وقال لو كنت أبقى الله الأمير أذكيت العـيون وبعثت الطلائع وارتدت موضعاً تعسكر فيه وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به كان ذلك أبلغ فى الرأى وآنس للجند ـ فقال لا، ليس مثل طاهر يستعـد له بالمكايد والتحفظ إن حال طاهر تؤول إلى أحد أمرين إما أن يتحصن بالرى فـيبيته أهلها فيكفـونا مؤنته أو يخيلها ويدبر راجعـاً لو قربت خيولنا وعسكرنا منه ـ وأتاه يحيى بن علىّ فقال: أجمع مـتفرق العسكر واحذر على جندك البيات ولا تسرح الخيل إلا ومعها كنف من القوم فإن العسـاكر لا تساس بالتوانى والحروب لا تدبر بالاغترار، والثقة أن تحترز ولا تقل المحارب لى طاهر، فـالشرارة الخفية ربما صارت ضراماً

والثلمة من السيل ربما اغتر بهـا فتهون فصارت بحراً عظيماً وقـد قربت عساكرنا من طاهر فلو كان رأيه الهرب لم يتأخر إلى يومـه هذا. فقال اسكت فإن طاهراً ليس فى هذا الموضع الذى ترى وإنما يتحفظ الرجـال إذا لقيت أقـرانها وتستعـد إذا كان المناوئ لهـا أكفـاءها ونظراءها.

وبينما كان هذا القائد يسير مدلاً بنفسه وبمن معه مستخفاً بعدوه كان طاهر يدبر أمره مع قواده ويسير سير من يريد مواقعة عدو أكـثر منه عدداً وعدة وقد استقر رأيه على أن يجعل مدينة الرى وراء ظهره ويقاتل بعـيداً عنها فعسكر على خمسة فـراسخ منها وأقبل إليه علىّ بن الحسين وقـد عبـأ جنده وهم فى أكمل عـدة وأحسن زى فكتب طاهر كـتائبـه وكردس كراديسه وسـوى صفوفه وجعل يمر بـقائد قائد وجماعـة جماعة يعظهم ويثبتهم ثم تلاحم الفريقـان واقتتلوا قتـالاً شديداً فعلت مـيمنة علىّ على ميـسرة طاهر ففـضتها فـضاً منكراً وميسرته على ميمنته فأزالتها عن مـوضعها فقال طاهر اجعلوا بأسكم وجدكم على كراديس القلب فإنكم لو قد فضـضتم منهم راية واحدة رجعت أوائلها على أواخرها فصبر أصحابه صبـراً صادقاً ثم حـملوا على أولى رايات القلب فهـزموهم وأكثـروا فيهم القـتل ورجعت الرايات بعضهـا على بعض ورأى أصحاب ميمنة طاهر وميـسرته ما عمل أصحابـه فرجعوا على من كان فى وجـوههم فهـزموهم وانتهت الهـزيمة إلى على ورماه رجل من أصـحاب طاهر بسهم فقتله ووضعوا فيهم السـيوف حتى حال الليل بينهم وبين الطلب وغنموا غنيمة كثيرة ونادى طاهر فى أصـحاب على من وضع سلاحه فهو آمن فطرحـوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم وعـاد طاهر إلى الرى وكـتب إلى الفـضل بن سهل ـ أطال الـله بقاءك وكـبت أعداءك وجعل من يشنأك فدواءك كتبت إليـك ورأس علىّ بن عيسى فى حجرى وخاتمه فى يدى والحمد لله رب العالمين ـ فلما وصل الكتاب إلى الفضل نهض فسلم على المأمون أمير المؤمنين ـ وأمد طـاهراً بالرجال والقواد وسماه ذا اليمنين وصاحب حبل الدين.

وصل هذا الخبر بغـداد على غير ما ينتظر القـوم فانتخب الأمين جيشـاً ثانياً جعله تحت قيادة عبد الرحمن بن خبلة الأنبارى وعدة هذا الجيش عشرون ألف رجل من الأبناء وحمل معه الأمـوال وقواه بالسلاح والخيل وأجـازه بجوائز وندب معه فرسـان الأبناء وأهل البأس والنجدة والغناء منهم وأوصى قائده بـالتحفظ والاحتراس وترك ما عـمل به على بن عيسى من الاغترار والتـضجع فسار عبد الرحـمن حتى نزل همذان فضبط طرقهـا وحصن سورها وأبوابها وسد ثلمها وحـشر إليها الأسواق والصناع وجمع فيها الآلات والمـيـر واستعد للقاء طاهر ومحاربته. ولما بلغ طاهراً خبره توجه إليه حتى أشرف على همذان فـخرج إليه عبد الرحمن فيمن معه على تعبئة فاقتـتل الفريقان قتالاً شديداً إلى أن انهزم عبد الرحمن ودخل

همذان فلبث فـيها حتى قـوى أصحابه واندملت جراحـهم ثم خرج ثانية إلى اللقاء فلـقيه طاهر وفعل به ما فعل فى المرة الأولى فـعاد إلى همذان فحصره فيهـا طاهر حتى جهد من قلة المادة فطلب الأمان له ولمن معه فأمنه طاهر.

ولما تمّ لطاهر هذا النصر طرد عمال محمد من قزوين.

كان ذلك سـبباً لارتباك الفـضل بن الربيع وشعوره بزوال الدولة فدعـا أسد بن يزيد بن مزيد وهو من قـواد الدولة المعدودين وقـال له أنت فارس العرب وابـن فارسهـا فزع إليك الأمين فى لقاء هذا الرجل وأطمعه فـيما قبلك أمران ـ أما أحدهما فـصدق طاعتك وفضل نصيحتك والثانى يمن نقيبتك وشدة بأسك وقد أمرنى بإزاحة علتك وبسط يدك فيما أحببت غير أن الاقتـصاد رأس النصيحة ومفـتاح اليمن والبركة فانجز حـوائجك وعجل المبادرة إلى عدوك فـإنى أرجو أن يوليك الله شرف هذا الفـتح ويلم بك شعث هذه الخـلافة والدولة ـ فلم يمتنع أسـد وإنما طلب لجنده مطالب هى أن يؤمـر لأصحـابه برزق سنة ويخص من لا حصـة له منهم من أهل الغناء والبلاء وأبدل من فيـهم من الزمنى والضعفـاء وأحمل ألف رجل ممن معى على الخـيل ولا أسأل عن محاسبـة ما افتتحت من المـدن والكور ـ فقال له الفضل قد اشتططت ولابد من مناظره أمير المؤمنين ثم ركبا إليه فدخل عليه الفضل أولاً ثم دخل أسد فما كان بينهما إلا كلمتان حتى غضب الأمين وأمر بحبس أسد ـ ثم قال هل فى أهل بيت هذا من يقوم مقامه فـإنى أكره أن أستفسدهم مع سابقتـهم وما تقدم من طاعتهم ونصيحتهم فـقالوا نعم فيهم أحمد بن مزيد وهو أحسنهم طريقـة وأصلحهم نية فى الطاعة وله مع هذا بأس ونجدة وبصر بسياسة الجنود ولقاء الحروب فـاستدعاه محمد وقال له إنه قد كثر على تخليط ابن أخيك وتنكره وطال خلافه على حتى أوحشنى ذلك منه وولد فى قلبى التهـمة له وصيرنى بسوء المذهب وحنـث الطاعة إلى أن تناولته مـن الأدب والحبس بما لم أحب أن أكون أتناوله به وقد وصـفت لى بخير ونسبت إلى جميل فـأحببت أن أرفع قدرك وأعلى منزلتك وأقدمك على أهل بيتك وأن أوليك جهاد هذه الفئة الباغية الناكثة وأعرضك للأجر والثـواب فى قتالهم ولقائهم فـانظر كيف تكون؟ وصحح نيتك وأعن أمـير المؤمنين على اصطناعك وسره فى عدوه ينعم سرورك وتشريفك. ثم أمر الفضل أن يدفع إليه دفاتر الجند وأن يضم إليه من شهـد العسكر من رجال الجزيرة والأعراب ـ فخرج أحـمد فانتخب الرجال واعترض الدفاتر فبلغت عدة من معه عشرين ألف رجل ـ ووجه الأمين عبد الله بن حميد بن قحطبة فى عشرين ألفـاً أخرى وأمرهما أن ينزلا حلوان ويدفعا طاهراً عنها وتقدم إليهما فى اجتماع الكلمة والتواد والتحاب على الطاعة – فتوجها حتى نزلا قريباً من حلوان مختلفين.

أما طاهر فإنه أقام بموقعه وخندق عليه وعلى أصحابه ودس العيون والجواسيس إلى عسكرى عدوه فكانوا يأتونه بالأراجيف ولم يزل يحتال فى وقوع الخلاف بينهم حتى اختلفوا وانتقض أمرهم وقاتل بعضهم بعضاً فأخلوا خانقين ورجعوا عنها من غير أن يلقوا طاهراً فتقدم طاهر حتى نزل حلوان. ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى ورد عليه هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون، ومعه كتاب المأمون والفضل بن سهل يأمره فيه بتسليم ما حوى من الكور والمدن إليه ويتوجه إلى الأهواز فسلم ذلك إليه وأقام هرثمة بحلوان فحصنها ووضع مسالحه ومراصده فى طرقها وجبالها وتوجه طاهر إلى الأهواز ليكون الهجوم على بغداد من جهتين.

كان من سوء حظ الأمين أن عبد الله بن صالح بن علىّ الذى كان الرشيد قد حبسه. خلَّصه الأمين من سجنه فعد ذلك فضلاً منه وأراد مساعدته فطلب إليه أن يوليه الشام والجزيرة ليحضر إليه جنداً من العرب قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد فولاه ذلك فلما وصل إلى الرقة أنفذ كتبه إلى رؤساء الأجناد بالشام ووجه الجزيرة فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه إلا وعده وبسط له فى آماله وأمنيته فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس وجماعة بعد جماعة وأتاه أهل الشام الزواقيل والأعراب من كل فج واجتمعوا عنده.

حصلت مشكلة تافهة بين جندى خراسانى وجندى من الزواقيل، فتعصب لكل جماعته تعصباً أدى إلى التلاحم واستعد الأبناء وآتوا الزواقيل وهم غازون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فتنادى الزواقيل وركبوا ونشبت الحرب بين الفريقين وكان عبد الملك بن صالح إذ ذاك مريض فوجه إليهم رسولاً يأمرهم بترك الحرب فرموا رسوله بالحجارة ولما أخبر بكثرة من قتل من العرب قال واذلاه ستضام العرب فى دارها ومحلها وبلادها. فكان ذلك بمثابة محضاً حرك إلى الشر من لم يركب من الأبناء وقام بأمرهم الحسين بن علىّ بن عيسى بن ماهان. فلما رأى ذلك أهل الشام أجمعوا أمرهم على الرحيل إلى بلادهم فرحلوا قائلين الموت الفلسطينى خير من العيش الجزرى وأقام الحسين بمن معه من الأبناء.

انتهت هذه الفكرة بالفشل ولم يقف شرها عند هذا الحد فإن الحسين بن على نادى فى عسكره بالرحيل قاصداً بغداد فلما وصلها حض الأبناء الذين معه على خلع الأمين فأجابوه فتوجه بهم حيث يقيم الأمين ونادوا بخلعه فى (١١ رجب سنة ١٩٦) وأخذوا البيعة للمأمون فى ثانى عشرة وغدا فى الثالث عشر إلى الأمين فى قصره وأخرجه منه محبوساً.

خاف كبار الأبناء تقدم علىّ بن عيسى فقام محمد بن أبى خالد وقال أيها الناس ما أدرى بأى سبب يتآمر الحسين بن على علينا ما هو بأكبرنا سناً ولا أكرمنا حسباً ولا أعظمنا منزلة وإنى أولكم نقض عهده فمن كان على رأيى فيعتزل معى وقام أسد الحربى ودعا من

معه من الحربية إلى القيام بأمر محمد وفكه فتأثر الأبناء من هذه الأقوال وساروا إلى الحسين بن علي فأسروه ودخل أسد الحربى إلى الأمين ففك قيوده وأقعده فى مجلس الخلافة وأتى الأمين بالحسين بن عليّ فلامه على ما كان منه مع إحسانه إليه وإلى أبيه وأخيراً عفا عنه ولكن ذلك لم يفد فإنه بعد العفو حاول الهرب من بغداد فأدرك وقتل.

هذه حال الاضطراب فى جند الأمين أما جند المأمون فكان على العكس من ذلك كان جنداً منتظماً لا تزيده الأيام إلا قوة. انقسم إلى قوتين قوة مع هرثمة بن أعين تريد بغداد من جاده المشرق وقوة مع طاهر بن الحسين تريد بعداد من جادة الأهواز والبصرة.

ذهب طاهر إلى فارس فاستولى عليها بعد أن أوقع بعاملها محمد بن يزيد المهلبى وقعة شديدة بسوق الأهواز وقتل محمد بن يزيد وكان ترتيب جند طاهر فى مسيره وحربه حائزاً للغاية من النظام والاحتراس فضلاً عما حازه من الاسم الكبير الذى يفت فى الأعضاد.

أقام بفارس مدة أنفذ فيها العمال إلى الكور وولى على اليمامة والبحرين وعمان مما يلى الأهواز ومما يلى عمل البصرة ثم سار متوجهاً إلى واسط فجعلت المسالح والعمال تتقوض مسلحة مسلحة وعاملاً كلما قرب منهم طاهر ولا عار فى الهرب منه دخل طاهر واسطاً ومنها وجه قائداً إلى الكوفة وعليها العباس بن موسى الهادى فبادر إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون، وأرسل بذلك إلى طاهر فتم له ما بين واسط إلى الكوفة وأنفذ كتب التولية إلى العمال، وكذلك بايع المأمون أمير البصرة وهو المنصور بن المهدى وكان ذلك كله فى رجب (سنة ١٩٦).

ثم سار طاهر إلى المدائن فاستولى عليها من غير قتال:

فى تلك الأثناء حصل فى الحجاز ما زاد المأمون قوة والأمين خذلانا ذلك أن داود بن عيسى كان عاملاً للأمين على مكة والمدينة فلما بلغه ما فعل الأمين من خلع المأمون وأخذه الكتابين اللذين كانا بجوف الكعبة وتمزيقهما جمع حجبة الكعبة والقرشيين والفقهاء ومن كان شهد على ما فى الكتابين من الشهود وكان داود أحدهم فذكرهم بما كان الرشيد أخذ عليهم من العهود أن يكونوا مع المظلوم من ولديه على الظالم وأخبرهم أن محمداً كان الذى قد بدأ بالظلم فخلع أخويه وبايع لابنه الصغير لذلك رأيت خلعه وأن أبايع للمأمون فأجابه إلى ذلك أهل مكة وفى (٢٧ رجب سنة ١٩٦) نادى داود فى البيت الحرام بخلع الأمين وبيعة المأمون ثم كتب إلى ابنه سليمان وهو خليفته على المدينة يأمره أن يفعل بها مثل أهل مكة ففعل. ولما تم ذلك سار داود بنفسه إلى مرو وأعلم المأمون بما تم فى الحجاز فسر المأمون جد السرور وتيمن ببركة مكة والمدينة وكتب إلى أهل الحجاز كتباً يعدهم فيها الخير ويبسط أملهم وأقر داود على ولاية الحجاز فعاد مغذاً ليدرك الحج ومر وهو عائد على طاهر بن الحسين فوجه معه يزيد بن جرير القسرى والياً على اليمن وكان يزيد هذا داعية أهل اليمن إلى بيعة المأمون فأجابوه.

اجتمعت جيوش طاهر، وهرثمة حول بغداد وحوصرت من ثلاث جهات فنزل هرثمة نهربين وأعد المجانيق والعرادات وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية ونزل طاهر البستان بباب الأنبار ونزل المسيب بن زهير قصر رقة كلواذى. وقد نصب المسيب المجانيق والعرادات واحتفر الخنادق وجعل يخرج فى الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر فيرمى بالعرادات من أقبل ومن أدبر، ويعشر أموال التجارة ويجبى السفر وبلغ من الناس كل مبلغ.

أحس محمد بالضيق ومنعت عنه الأموال فأمر ببيع كل ما فى الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم وحملها لأصحابه فى نفقاته.

وقد قاست هذه المدينة العظمى ودرة تاج الخلافة العباسية من هذا الحصارة ما لم يكن يخطر لأحد على بال من الهدم والتحريق وسفك الدماء والجوع الشديد حتى درست محاسنها وكادت تمحى معالمها ونطقت ألسن شعرائها بوصف ما عليه الناس من الأحزان والمحن التى لا تحتمل وأحسنهم فى ذلك عمرو بن عبد الملك العترى الوراق فمما قاله:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألم تكونى زماناً قرة العين

ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... كان قربهم زيناً من الزين

صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ... ماذا لقيت بهم من لوعة البين

أستودع الله قوماً ما ذكرتهم ... إلا تحدر ماء العين من عينى

كانوا ففرقهم دهر وصدعهم ... والدهر يصدع ما بين الفريقين

وقال بعض فتيان بغداد:

بكيت دماً على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الأنيق

تبدلنا هموماً من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق

أصابتها من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق

فقوم احرقوا بالنار قسراً ... ونائحة تنوح على غريق

وصائحة تنادى واصباحاً ... وباكية لفقدان الشقيق

حوراء المدامع ذات دل ... مضمخة المجاسد بالخلوق

تفر من الحريق إلى التهاب ... ووالدها يفر إلى الحريق

وسالبة الغزالة مقلتيها ... مضاحكها كلألأة البروق
حيارى كالهدايا مفكرات ... عليهن القلائد فى الحلوق
ينادين الشفيق ولا شفيق ... وقد فقد الشفيق من الشفيق
قوم أخرجوا من ظل دنيا ... متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى ... بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً ... فما يدرون من أى الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه ... وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنس من شىء تولى ... فإن ذاكر دار الرقيق

وكان الأمين قد استعان فى حروبه بالعيارين والشطار والمسجونين من أهل بغداد فكان الشر الذى أصاب المدينة منهم أكثر مما أصابها من العدو المهاجم وللخريمى قصيدة طويلة تبلغ (١٣٥ بيتاً) يصف فيها ما أصاب بغداد ويذكر أسباب تلك النكبات التى حلت استوفاها الطبرى فى الجزء العاشر من تاريخه (صحيفة ١٧٦) وما بعدها من طبع مصر يقول فيها:

يا بؤس بغداد دار مملكة ... دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها ... لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالـ ... ـحرب التى أصبحت تساورها

ثم قال:

رق بها الدين وستخف بذى ... الفضل وعز النساك فاجرها
وخطم العبد أنف سيده ... وبالرغم واستعبدت مخادرها
وصار رب الجيران فاسقهم ... وابتز أمر الدروب زاعرها

وقال العترى:

الناس فى الهدم وفى الانتقال ... قد عرض الناس بقيل وقال
يا أيها السائل عن شأنهم ... عينك تكفيك مكان السؤال
قد كان للرحمن تكبيرهم ... فاليوم تكبيرهم للقتال

اطرح بعـينيك إلى جـمـعـهم	وانتظر الـروح وعـد الليـال
لم يبق فـى بغـداد إلا امـرؤ	حـالفـه الفقـر كـثـير العـيال
لا أم تحـمى عن حـمـاها ولا	خـال له يحـمى ولا غـيـر خـال
ليس له مـال سـوى مـطرد	مطـرده فى كـفـه رأس مـال
هان عـلى الله فـأجـرى عـلى	كـفـيـه للشقـوة قـتل الرجـال
إن صـار ذا الأمـر إلى واحـد	صـار إلى القـتل على كل حـال
مـا بـالنا نـقـتل مـن أجلـهم	سـبـحـانك اللهم يا ذا الجـلال

استمرت هذه الشـدائد على بغداد وما فيها حتى اسـتنفد الأمين كل وسائل الدفاع أيقن بالعطب إن هو استمر على الممانعة فاستشار من بقى من قواده فأشار عليه بعضهم أن يطلب لنفسه الأمان من هرثمة بن أعين ويسلم له فـرضى وكتب إلى هرثمة بذلك فأجابه إليه و علم طاهر أبى إلا أن يكون خروجـه إليه إذا شاء ولما لم يكن الأمين ميـالاً إلى الخروج إلى طاهر اتفق القواد أن يخرج ببدنه إلى هرثمة وأن يدفع إلى طاهر الخاتم والقضيب والبردة ثم علم طاهر أنهم يمكرون به فـاستعد للأمـر وكمن حول القصـر كمناء بالسلاح فلمـا خرج الأمين كانت حراقة هرثمة تنتظره فركبهـا ولم تسر بهم إلا قليلاً حتى خرج أصحاب طاهر فرموا الحراقـة بالسهام والحجارة فانكفأت الحـراقة وغرق هرثمة ومحمـد الأمين فأما هرثمة فأدركه أصحابه وأما محمد فسبح فى الماء حتى أدركه أصحاب طاهر فأسروه فأمرهم طاهر بقـتله فقـتل ليلة الأحد لخـمس بقين من المحرم(سنة ١٩٨) وفى الصـباح كـتب طاهر إلى المأمون يخبـره بما تم وبالأسباب التى جعلته يأمر بقـتل الأمين. ثم دخل طاهر المدينة فأمن أهلها وهدأ الناس وكان دخوله إليها يوم الجمعة فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة حضهم فيها على الطاعة ولزوم الجماعة، ورغبهم فى التمسك بحبل الطاعة وانصرف إلى معسكره.

بذلك انتهى الفصل الأول من هذه الحادثة الشنيـعة التى فرقت بين الأمة، وأحدثت هذه الثورة الهائلة.

أما سببهـا وتبعتها فعائدان إلى هارون الرشيـد أولاً، ثم إلى الفضل بن الربيع ثانياً، أما الرشيد فإنه غلط فى فعله غلطات. الأولى: أنه ولى عهده أولاً محمد الأمين والمأمون أسن منه. ولم يكن ما يزيد الأمين إلا أنه ابـن زبيدة. وليس هذا من الأسباب المرجـحة فى نظر العقلاء، وإنما هو مرجح فى نظر الضعفاء الذين يتأثرون بالهوى. الثانية: أنه لما أحس بهذه

لحنطة أراد مداواتها ففعل ما يزيدها شراً بتوليه المأمون للعهد بعد الأمين، ولم يقتصر على مجرد توليه العهد بل اعطاه من الامتيازات ما يجعله مستقلاً، تمام الاستقلال، بأمر خراسان والرى عن أخيه الأمين، ومن المعلوم أنه كلما كثرت الامتـيازات، كثرت المشاكل، وأسباب الفساد بين الأمين والمأمون وإن كـانا أخوين يتنافسان فالأول يميل أن يتمـتع بسلطان الخلافة التام، والثانى يميل أن يتمتع بامتيازاته تماماً، ولكل منهما جيش يتصرف فيه كما يرغب فلم يكن يظن أن يبقى لهذين صفاء متى حانت وفاة الرشيد، وقد أدرك المفكرون ذلك فى حياته الثالثة: أنه لم يقـتصـر عليهـما فى ولاية العـهد فـأضاف إليـهـما أخاً ثالثـاً وأعطاه من الامتيازات: الجزيرة وأرمينية، مـا أعطى المأمون فى خراسان، فجرأ ذلك الأمين على نقض العهد لأنه نظر فرأى نفسه مقصوص الجناحين، منزوعاً منه السلطان فى أعظم بقاع الإسلام وأكثرها أعواناً وجنداً. الرابعة: أنه اغتر بالفضل بن الربيع الذى جرأه على إفساد ملكه بقتل البرامكة والحرمان من مقدرتهم وكفاءتهم ولم يتبين خبث نية الرجل واستمر على الاستعانة به حتى عاد سيرته الأولى فى عهد الأمين فإنه هو الذى اجتهد فى إغرائه بأخيه لأنه ظن أن المأمون إذا تولى أخذه بتبعة نكثه لعهده مع الرشيد وسيره بالجنود التى كانت مع الرشيد إلى بغداد، مع أن الرشـيد عهـد بها إلى المأمـون فما زال يحـتال فى الإفسـاد حتى أوقع هذه الاضطرابات. ولما أشتد الأمر على الأمين. لم يفده فائدة بل اختفى وكان ﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الحشر: ١٦).

يضاف إلى ذلـك كله ما فى طباع الخـلفاء من ميلـهم إلى أن يكون بعدهم فى الخـلافة بنوهم فهم يحتالون بكل ما فى وسعهم إلى إخراج إخوتهم أو بنى أعمامهم من العهد إن كان، ولم نر خليـفة له ابن فلم يسع له ذلك السعى ولـم نجد عهداً أو عـقداً منع من ذلك حتى كان هذا مـجرئًا للخلفاء على عدم الاعتناء بالعـهود المكتوبة وصاروا يفتـحون لها من أبواب الحيل ما يبـيح لهم عدم التمسك بهـا والرشيد نفسه يعلم ذلـك بما وقع له من أخيه الهادى وقد كاد يظفر به ويخرجه من ولاية العهد لولا أن المنية غلبت مع أن الرشيد لم يكن له شيء من الامتياز أعـطاه إياه المهدى أبوه، نسأل الله السـلامة من عدم الاعـتبار والاتعاظ فهما المهلكة العامة.

صفات الأمين:

امتدت ألسنة الكتاب والشعراء بعد خلع الأمين وقـتله إلى القدح إليه وتعديد مثالبه التى نودت به وهذه سُنة قديمة أن الناس مع من يـساعده القدر فهم أبداً مع القاهرة على المقهور، لأن للقوة سلطاناً على النفوس، لا يغالب، وهذا نموذج مما قيل فى هجاء الأمين.

لـم نـبـكـيـك لمـاذا لـلـطـرب	يا أبـا مـــوسـى وترويـج اللـعب
ولتــرك الخـــمس فى أوقــاتـهـا	حــرصــاً منك على مـاء الـعنب
وشـنـيــف أنــا لا أبـكـى لـه	وعلى كـــوثر لا أخــشى الـعطب
لم تكن تـعـرف مـا حـد الرضـا	لاولا تعـرف مـا حـد الغـضب
لـم تـكن تـصـلـح لـلـملـك ولـم	تعطـك الطاعـــة بالملك الـعـرب
أيهـــا الـبـــاكى عليـــه لا بـكت	عـين من أبـكاك إلا لـلعـــجـب
لـم نبكيـك لما عـــرضـــتنـا	للـمــجـــانيق وطوراً لـلسـلب
لقـــوم صـــيـرونا أعـــبـــدا	لهـم يبـــدو على الرأس الـذنب
فى عـــذاب وحـصــار مـجـهـد	ســدد الطرق فـلا وجـه طلب
زعـــمـــوا أنك حى حـــاشـــر	كل من قـد قـال هذا قـد كـذب
ليـت من قـــد قـــاله فى وحــدة	من جـمـيع ذاهب حـيث ذهب
أوجـب الله عـلـينا قـــتـلـه	فـــإذا مــا أوجب الأمــر وجب
كـــان والله علـينا فــتـنة	غـــضـب الله عـليـه وكـــتـب

ومع هذا فقد رثاه كثير من الشعراء ومدحوه وسنترك هذا وهذا ونفحص صفاته من أعماله.

أول ما عرف من عمل الأمين إرادته الغدر بأخيه والرمى بعـهد الرشيد وراء ظهره، فقد أخذ العـهدين من البيت الحرام ومزقهـما تمزيقاً غـير ناظر إلى مـا وراء ذلك من العواقب الوخيمة فى نظر الجمهور، إذ ليس أعظم فى نظر المسلم من انتهاك حـرمة البيت المقدس. ولا انتهاك أعظم من إفساد أمر دبر فيه، وجعل البيت الحرام حارساً عليه على أن الغدر فى ذاته بقطع النظر عن ذلك كله قـبيح وضار بحـياة الأمة الأدبية فـلا غرابة أن رأينا جمهور الأمة فى صف أخيه.

ولما دخل هذا المدخل الوعر المسلك لم يسـر فيه بشيء من الحزم ولا بعـد النظر بل كـ أول قائد ولاه حرب أهل خراسـان أعدى عدو لهم من جربوه فوجدوه ظالماً عـاتياً يستحـ أموالهم ويضـرب أبشارهم وهو علىّ بن عيـسى بن ماهان أمير خـراسان فى عهد الرشـ فكان ذلك مما زاد أهل خراسان جداً فى محاربته والضربة الأولى مما يدخل الوهن والخذلا على المضروب ويزيد فى حماسة الغالب وتفاؤله بالمستقبل.

ومع هذا الغلط كان الأمين مشتغلاً عن تدبير أمـره، بما كان فيه من اللهو والعبث شتان في تدبيره وأخيه فبينا كان هو على هذا الطريق، كان أخوه المأمون بمرو يجمع إلى مجلسه العلماء والفقهاء، ويجلس معهم، كما يجلسون ويتكلم معهم فى الفقه والأدب والحديث، حتى أشربت قلوبهم محبته ولا يخفى ما لهذا من التأثير فى قلوب الجمهور.

يقال أن محـمداً لما تول وجه إلى جـميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم إلـيه وأجرى لهم الأرزاق ونافس فى ابتـياع فـره الدواب وأخـذ الوحوش والسـباع والطيـر وغيـر ذلك واحتجب عن أخوته وأهل بيـته وقـواده واستـخف بهم وقسم مـا فى بيوت الأمـوال وما بحضرته من الجواهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه وحمل إليه ما كان فى الرقة من الجوهر والخزائن والسـلاح وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته، ومـواضع خلوته ولهوه ولعبه بقـصر الخلد والخيزرانيـة وبستان موسى وقصـر عبدويه وقصر المعلى ورقـة كلواذى وباب الأنبار ونبارى والنهوب وأمر بعـمل خمس حراقات فى دجلة على خلقـة الأسد والفيل والعقـاب والحية والفرس، وأنفق فى عملها مالاً عظيماً فقال أبو نواس يمدحه:

ســـخـــر الله للأمين مطـايا	لم تسـخـر لصـاحب المحـراب
فـــإذا مـــا ركـــابه ســـر براً	ســار فى الماء راكبـاً ليث غـاب
أســداً باسطاً ذراعـيـه يـهـوى	أهرت الشـدق كـــالح الأنيــاب
لا يعــانيــه باللجــام ولا السـو	ط ولا غـمـر رجله فى الركــاب
عـجب النـاس إذ رأوك على صو	رة ليـث تمر مـــر الســحـــاب
ســبحـوا إذ رأوك سرت عليـه	كـيف لو أبصـروك فوق العقـاب
ذات زور ومـنســـــر وجـنـا	حين تشق العبــاب بعـد العبـاب
تسبق الطيـر فى السمـاء إذا ما اسـ	ـتـعـجلوها بجـيـئـة وذهاب
بـارك اللـه للأمين وأبـقـــا	وأبـقى لـه رداء الشـــبـــاب
ملك تقـــصـــر المدائح عـنه	هاشـــمى مـــوفق للصـــواب

جمع ما وقفنا عليه من أخبار الأمين وسيره أنه كان يميل جداً إلى اللهو والغناء والشرب حتى أقعده ذلك عن التـدبير لأموره. هذا مع أنه ممتاز على بنى العباس قـاطبة بأنه هاشمى لأبوين، ولكن ليس بحسن الأنساب تعلو الرجال وإنما علوها بحسن الفعال.

٧

المأمــــون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدى. وأمه أم ولد اسمها مراجل ولد (سنة ١٧٠) فى اليوم الذى ولـى فيه أبوه الخلافـة. وولاه أبوه العهـد وسنّه (١٣سنة) بعد أخيه الأمين وضـمه إلى جعفر بن يحـيى وولاه خراسان وما يتصل بهـا إلى همذان ومنحه بمقتـضى الشروط التى عـقدها استـقلالاً يكاد يكون تاماً، ولما توفـى أبوه لم يف له أخوه بوعده بل أراد أن يقـدم عليه فى ولاية العهـد ابنه موسى فأبى ذلك المأمـون وكان من وراء ذلك الحرب الفظيعة التى قصصنا خـبرها وهى التى انتهت بقتل الأمين فى (٢٥ محرم سنة ١٩٨) (٥سبتمبر سنة ٨١٣).

بويع المأمون بالخلافة العامة فى ذلك التاريخ واستمر خليفة إلى أن توفى غازياً بطرسوس فى (١٩ رجب سنة ٢١٨) (١٠ أغسطس ٨٣٢) فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام. أقام منها ببلاد خراسـان من تاريخ ولايته إلى منتصف صفر (سنة ٢٠٤) وهو تاريخ قدومه بغداد وأقام الباقى ببغداد حاضرة الخلافة العباسية.

وكان يعاصره فى بلاد الأندلس الحكم بن هشـام ثالث أمراء بنى أمية (١٨٠ـ ٢٠٦) ثم ابنه عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ ـ ٢٣٨).

ويعاصره فى بلاد المغرب الأقـصى إدريس بن إدريس بن عبد الله سنة (١٨٨ـ ٢١٣) ثم ابنه محمد بن إدريس (٢١٣ـ ٢٣٨).

ويعاصره فى إفريقيـة من بنى الأغلب عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (١٩٦ـ ٢٠١) ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم فاتح صقلية (٢٠١ـ ٢٢٣).

ويعاصـره فى فرنسـا شارلمان صـديق أبيه وقـد توفى(سنة ٨١٤) ثم لويز الأول الملقب باللين.

ويعاصـره فى القسطنطينية ليون الأرمنـى (٨١٣ ـ ٨٢٠)ثم ميخائيل الثـانى الملقب بالتاه ثانى مرة (٨٢٠ ـ٨٢٩) ثم ابنه توفيل (٨٢٩ ـ٨٤٢).

الأحوال فى المدة الأولى:

لما تم الأمر للمـأمون بالعراق على يد القـائدين العظيمين طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين كان الذى يدير الأمر بمرو الفضل بن سهل الذى يرى لنفسه الفضل الأكبر فى تأسيس دولة المأمون فأراد أن يسـتفيد من هذه الدولة فيـستأثر بنفوذ الكلمة فـيها وليس يتم له ذلك والعراق بين يدى طاهر وهرثمـة فأصدر أمرين على لسـان المأمون أولهما بتولـيه الحسن بن سهل جمـيع ما افتتـحه طاهر من كور الجبـال وفارس والأهواز والبصرة والكوفـة والحجاز واليمن. وكـتب إلى طاهر أن يسلمه جـميع ما بيـده من الأعمال وأن يشـخص إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث وولاه الموصل والجـزيرة والشام والمغرب فلم يسع طاهراً إلا أن يسمع ويطيع فسلم ذلك كله.

والأمر الثانى إلى هرثمـة يأمره بالشخوص إلى خراسان فشـخص ـ وبذلك خلا العراق من أسديه وأهل العراق من قديم عبيد القوة ولا سيما أنهم خارجون من ثورة وهيجان فكان من اللازم أن تظل الأيدى المرهوبة حتى يستكين الناس ويخضعوا.

ولم يبق المأمون بعـد ذلك بخراسان. هل كـان الفضل بن سهل يريد أن يحول الخـلافة الإسلامية إلى مرو، فـيجعلها حاضرة البلاد الإسلامـية، أو رأى أن نفوذه يضعف إذا حل الخليفـة بغداد وبها الألسنة الـتى لا تمل الوشايات فخـشى من ذلك على مركزه سـواء كان السبب فى تخـلفه هذا أو ذاك فقـد نتج عن هذا التدبير مـضار شـديدة واضطرابات كادت ترجع ملك المأمون أثراً بعد عين؟

شاع بالعراق بعد خروج طاهر وولاية الحسن بن سهل أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وأنزله قـصراً حجبـه فيه عن أهل بيـته، ووجوه قواده وأنه يبـرم الأمور على هواه فغـضب لذلك من كان بالعراق من بنى هاشـم ووجوه الناس وأنفوا من غلبـة الفضل على المأمون، واستـخفوا بالحسن بن سـهل وهاجت الفتن فى الأمصار وأول فتـنة كانت خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علىّ خرج بالكوفة وقام بأمر رجل كبير من رجـال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا السرى بن منصور الشيبـانى فاستولى على الكوفة من يد نائب عـاملها سليمـان بن أبى جعفر المنـصور، فأرسل إليه الحـسن بن سهل جيشاً يقوده زهيـر بن المسيب عشرة آلاف فهزمه أبو السرايا واستبـاح عسكره وأخذ ما كان معه من مـال وسلاح ودواب وفى غد ذلك اليوم مـات محمد بن إبراهيم فـجأة وذلك يوم الخميس أول رجب (سنة ١٩٩) فولى أبو السـرايا غلاماً أمرد حدثاً وهو محمد بن محمد بن زيد بن علىّ بن الحـسين بن علىّ وكـان أبو السريا هو الـذى ينفذ الأمـور ويولى من رأى ويعزل من شاء وإليه الأمور كلها.

أرسل الحسن جيشاً ثانياً بقيادة عبدوس بن محمد بن أبى خالد المرورذى فتوجه إليه أبو السرايا وأوقع به وقعة فى (١٧رجب سنة ١٩٩ فقتله وأسر أخاه هارون واستباح عسكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل فلم يفلت منهم أحد.

انتشر بعد ذلك الطالبيون فى البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤).

أفاق الحسن بن سهل من غفلته لما وجد قواده لا يغنون عنه شيئاً وكلما وجه أحدهم لحرب أبى السرايا عاد مهزوماً فوجه فكرته إلى هرثمة بن أعين مفضلاً إياه على طاهر بن الحسين وكان هرثمة قد توجه إلى خراسان مغاضباً للحسن بن سهل وكان قد وصل حلوان فبعث إليه يسأله الانصراف إلى بغداد لحرب أبى السرايا فأبى فأعاد عليه الرسالة متلطفاً فأجاب وانصرف إلى بغداد فقدمها فى شعبان (سنة ١٩٩) وتهيأ للخروج إلى الكوفة وتهيأ معه جند اختاره فمر على المدائن واستولى عليها من يد عمال أبى السرايا ثم التقى الفريقان عند قصر ابن هبيرة فقتل من أصحاب أبى السرايا مقتلة عظيمة. ثم ألح عليه هرثمة بالحرب حتى لم يعد قادراً على حماية الكوفة التى هى قاعدة أعماله فهرب عنها هو ومن معه من الطالبيين وسار إلى القادسية فى محرم (سنة ٢٠٠) ودخل هرثمة الكوفة وأمن أهلها ولم يعرض لأحد منهم ثم بارحها مساء ذلك اليوم.

وترك أبو السرايا مكانه بالقادسية وسار حتى أتى السوس من بلاد فارس فلقيه هناك الحسن بن على الباذغيسى المعروف بالمأمون فقاتله وهزمه واستباح عسكره وجرح أبو السرايا جراحا شديدة فهرب مريدا منزله برأس العين من الجزيرة فعثر به فى الطريق هو ومن معه وجىء بهم إلى الحسن بن سهل وكان مقيماً بالنهروان فضرب عنقه، وصلب جسده ببغداد. وكان بين خروجه بالكوفة ومقتله عشرة أشهر.

ثم أخذت البصرة من يد عاملها لأبى السرايا وهو زيد بن موسى بن جعفر وكان يقال له زيد النار لكثرة ما أحرق من دور البصرة. وكان إذا أتى برجل من المسودة كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار فأخذ أسيراً وأمن.

وكان للطالبيين فى تلك الفتن أسوأ أثر بمكة والمدينة فإن أبا السرايا كان قد ولى مكة حسين بن حسن بن علىّ بن الحسين بن علىّ وكان بها داود بن عيسى بن موسى العباسى والياً فلم يرض القتال فى الحرم وخرج عن مكة فدخلها الحسين قبل مغرب يوم عرفة ولم تفرق الحاج من مكة جلس خلف المقام على نمرقه مثنية فأمر بثياب الكعبة التى عليها فجردت حتى لم يبق عليها من كسوتها شىء ثم كساها ثوبين من خز رقيق كان أبو السرايا

وجه بهما معه مكتوب عليهما (أمر به الأصفر بن أبى الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليطهر من كسوتهم وكتب سنة ١٩٩) ثم قسم الكسوة التى كانت على الكعبة بين أصحابه وعمد إلى ما فى خزانة الكعبة من مال فأخذه ولم يسمع بوديعة عند أحد لبنى العباس وأتباعهم إلا هجم عليه فى داره فإن وجد من ذلك شيئاً أخذه وعاقب الرجل وإن لم يجد عنده شيئاً حبسه وعذبه حتى يفتدى نفسه بقدر طوله ويقر عنده الشهود أن ذلك للمسودة من بنى العباس وأتباعهم حتى عم ذلك خلقاً كثيراً وكان لهم دارٌ اسمها دار العذاب يعذب فيها الناس حتى هرب منهم خلق كثير من أهل النعم فيتبعوهم بهدم دورهم وجعلوا يحكمون الذهب الرقيق الذى فى رؤوس أساطين المسجد فيخرج من الأسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهب أو نحوه حتى عم ذلك أكثر أساطين المسجد الحرام وقلعوا الحديد الذى على شبابيك زمزم وخشب الساج فبيع بالثمن الخسيس.

وما زالوا على تلك الحال حتى بلغهم قتل أبى السرايا وأن من بالكوفة والعراق من الطالبيين قد طردوا فاجتمعوا إلى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخاً وادعاً محبباً فى الناس مفارقاً لما عليه أكثر أهل بيته من قبح السيرة وكان يروى العلم عن أبيه وطلبوا إليه أن يبرز شخصه ليبايعوه بالخلافة فأجاب بعد تردد وحشر إليه الناس فبايعوه طوعاً وكرهاً وسموه أمير المؤمنين. فأقام على ذلك أشهراً وليس له من الأمر إلا اسمه. وابنه علىّ وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلاً حتى تعدوا الأموال إلى الأعراض.

أراد الله أن يفرج عن أهل مكة ما هم فيه فقدم عليهم إسحاق بن موسى بن عيسى مقبلاً من اليمن فقاتل العلويين أياماً ثم بارح مكة فلقيه البعث الذى أرسله هرثمة لتخليص مكة فعاد معهم وكان رئيس البعث ورقاء بن جميع فقاتلوا العلويين حتى هزموهم وطلب محمد بن جعفر الأمان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاؤوا فأجيبوا وأمهلوا ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت الجنود العباسية مكة وذهب كل فريق من العلويين إلى ناحية.

أما فى اليمن فكان قد خرج فيها إبراهيم بن موسى بن جعفر وكان واليها إسحاق بن موسى بن عيسى فلما سمع بإقبال إبراهيم ترك له صنعاء وانصرف مقلداً عمه داود بن عيسى فى مكة فاستولى إبراهيم على اليمن وكان يقال له الجزار لكثرة من قتل باليمن من الناس، وفى موسم (سنة ٢٠٠) وجه بعض ولد عقيل بن أبى طالب من اليمن فى جند كثيف ليحج بالناس وكان الذى ولى إمرة الحج من العباسيين أبا إسحق بن الرشيد ومعه

كثير من القواد فلما وصل العقيلى إلى بستان ابن عامر بلغه أمر من بمكة فتوقف بالبستان فمرت به قافلة من الحاج. والتجار وفيها كسوة الكعبة وطيبها فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها وقدم الحاج مكة عراة مسلوبين بلغ أبا إسحق أمر العقيلى فأرسل إليه أحد قواده فلقيه بالبستان فأسر أكثر من معه وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ورد إلى الحاج ما كان أخذ منهم وعاد بكسوة الكعبة ثم عاقب كلاً من هؤلاء الأسرى بعشرة أسواط وخلاهم فذهبوا يستطعمون الناس فى الطريق حتى هلك أكثرهم جوعاً.

انتهت هذه الفتن العلوية التى عادت بالضرر على البلاد والعباد والفضل فى انتهاء أمرها لهرثمة بن أعين القائد المحنك. ولما فرغ هرثمة من أداء تلك المهمة أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال، وما ينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره ولم يكن مما يروق فى عين الفضل فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد وأنه هو الذى دس إلى أبى السرايا حتى صنع ما صنع ولو شاء أن لا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعل لأنه كان من ضمن جنوده. وكان المأمون قد كتب لهرثمة كتاباً من الطريق ليرجع ويلى الشام والحجاز فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال فكان ذلك مما زاد المأمون وحشة منه. ولما بلغ هرثمة مرو خشى أن يكتم المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كى يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة جاء يبرق ويرعد وظن هرثمة أن قوله المقبول فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه ما أشرب فلم يسمع منه كلمة وأمر به فوجئ عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه. وقد تقدم الفضل إلى الأعوان بالتغليظ عليه والتشديد فمكث فى حبسه أياماً ثم دسوا إليه فقتلوه، وقالوا إنه مات. هكذا ذهب القائد العظيم من غير جناية ضحية خبث البطانة.

ولما بلغ أهل بغداد ما صنع بهرثمة هاج الجند الحربية بها وثاروا على الحسن بن سهل فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون، ولم يكن عند الحسن ما يقدر به على عمل لضعفه وسوء رأيه. ثم عمد أهل بغداد إلى منصور بن المهدى وطلبوا إليه أن يبايعوه بالخلافة ويخلعوا المأمون فأبى ذلك عليهم فطلبوا إليه أن يكون عليهم أميراً وأن يدعو للمأمون وقالوا: لا نرضى بالمجوسى الحسن بن سهل ونطرده حتى يرجع إلى خراسان فقبل وتولى أمر بغداد إلا أنها على كل حال كانت خالية من جيش قوى يأخذ على أيدى المفسدين من أهلها فنتج عن ذلك الفساد الشديد فإن فساق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذىً شديداً وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال غير ذلك لا

ـسطان يمنعـهم لأن السلطان كان يـعتز بـهم وكانوا بطانتـه فلا يقـدر أن يمنعهم من فـسق يرتكبونه وكانوا يجـبون المارة فى الطريق والسفن وعلى الظهر ويخفرون البـساتين ويقطعون الطرق عـلانية ولا أحـد يعدو عليـهم! رأى الناس شـدة هذا البلاء وضـعف السلطان عن حمايتهم فقام صلحـاء كل ربض وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا إنما فى الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق. فقام رجل من ناحية طريق الأنبار اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محلته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأجابوه إلى ذلك وشد على من يليـه من الفساق والشطار فمنـعهم مما كانوا يصنعون فـامتنعوا عليه فـقاتلهم وهزمهم. وأخـذ بعضهم فضـربهم وحبسهـم ورفعهم إلى السلطان وكان لا يرى من حـقه الاعتداء على السلطان. ثم قام من بعده آخر اسمــه سهل بن سلامة الأنصارى فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلق مـصحفاً فى عنقه ثم بدأ بأهل جيـرانه ومحلته فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعاً إلى ذلك الشريف منهم والوضيع بنى هاشم ومن دونهم وجعل له ديواناً يثـبت فيه من أتاه منهم فـبايعه على ذلك خلق كثـير ثم طاف بغداد وأسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبى المارة وقال: لا خفارة فى الإسلام ـ والخفـارة أن يأتى الرجل بعض أصحاب البسـاتين فيقول بستـانك فى خفرى أدفع عنه من أراده بسوء ولى فى عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً فيعطيه ذلك شاء أم أبى.

لم يكن سـهل والدريوش على وفاق لأن مـقصـد الدريوش كـان معـاونة السلطان فى القبض على أيدى المفسدين، ولا يعـيب عليه شيئاً ولا يقاتله ولا يأمـره بشىء ولا ينهاه أما سهل فـيظهر أنه كان ذا أطـماع قال: إنى أقـاتل من خالف الكتاب والسنـة سلطاناً كان أو سوقة فـقد جعل نفسه بذلك فـوق الجميع وكثرت أتبـاعه حتى خافه الولاة وخـافه منصور المهدى الذى أقامه العراقيون أميراً.

ونحن نرى أن عمل هذين الرجلين وتكوين هذه الجمعية من أحسن ما يفكر فيه العقلاء فى مثل ظروفهم لأن ذلك منع من وجود الفتنة الأهلية التى تقارن هذه المفاسد عادة.

كل ذلك وكان المأمون فى مرو لا يصل إليه شىء من أخبار حاضرة الخلافة وقد حجبه الفضل بن سهل فلا يوصل إليه ما يشتهى.

ومما كان فى تلك الأونة أن المأمون اخـتار لولاية عهده علياً الرضا بن مـوسى بن جعفر الصادق وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية وسماه الرضا من آل محمد وأمر محمد جنده بطرح السـواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة الـذى اختاره شعاراً للدولة الجديدة وكـتب بذلك إلى الآفاق ويغلب على الظن أن هذا من عمل الفـضل بن سهل لأن

الفرس يعجبهم أن يكون إمام المسلمين علوياً وطالما قاتلوا فى سبيل رجوع السلطان إلى بنى على وهذه فرصة يأخذون فيها الخلافة من غير حرب ولا قتال وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل علىّ على غيره من الخلفاء الراشدين وأنه كان أحق بالخلافة منهم ولا نرى ذلك جاء المأمون إلا من البيئة التى تربى فيها فإنه كان فى أول أمره فى حجر جعفر البرمكى ثم انتقل إلى الفضل بن سهل وكلهم ممن يتشيع فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه.

بلغ ذلك أهل بغداد فاختلفوا فقال بعضهم: نبايع ونلبس الخضرة وقال بعضهم: لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل فمكثوا على ذلك أياماً، وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم إلى بعض وتكلموا فيه وقالوا: نولى بعضنا ونخلع المأمون واتفقوا أخيراً على مبايعة إبراهيم المهدى عم المأمون بالخلافة وخلعوا المأمون وكان ذلك فى أول المحرم (سنة ٢٠٢) فتغلب إبراهيم مع أهل بغداد على الكوفة والسواد كله وعسكر بالمدائن وولى الجانب الشرقى من بغداد العباس بن الهادى والجانب الغربى إسحاق بن الهادى وتغلب على سهل بن سلامة المتطوع بعد أن تركه من معه.

بلغت هذه الأحوال المأمون ويقال إن الذى أبلغه إياها على الرضا ولى عهده فإنه أخبره بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار وأن أهل بيته قد نقموا عليه أشياء فبايعوا لإبراهيم بن المهدى بالخلافة - فقال له المأمون: إنما بايعوه ليكون أميراً لهم يقوم بأمرهم على ما أخبره به الفضل - فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين إبراهيم بن المهدى والحسن بن سهل وأن الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكانى ومكان بيعتك لى من بعدك وسمى له عدة من القواد يشهدون بما قال فأحضرهم المأمون وسألهم فأخبروه بالخبر على وجهه بعد أن أعطاهم أماناً من الفضل بن سهل وأخبروه بما موّه عليه الفضل فى أمر هرثمة وأن هرثمة إنما جاء ناصحاً ليبين له ما يعمل وإنه إن لم يتدارك الأمر خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله وأن طاهر بن الحسين قد أبلى فى طاعته ما أبلى حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله وصير فى زاوية فى الأرض بالرقة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يجترأ عليه بمثل ما اجترئ به على الحسن بن سهل، وأن الدنيا قد تفتقت من أقطارها وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد فإن بنى هاشم والموالى والقواد والجنود لو رأوك سكنوا وفاءوا بالطاعة لك.

لما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغـداد ولم يسلم هؤلاء القواد من شر الفضل بل عقبهم بالحبس والطرد فراح على الرضا إلى المأمـون وأعلمه بما كان من ضمانة لهم فأعلمه نه يدارى ما هو فيه.

ارتحل المأمـون من مرو حتى سـرخس وهناك شد قـوم على الفضل بن سـهل وهو فى حمام فـضربوه بسيوفهم حـتى مات وذلك فى (٢ شعبان سنة ٢٠٢) فـأخذ ضاربوه وهم ربعة مـن خدم المأمون فلـما جىء بهم إليـه قالوا: أنت أمرتـنا بقتله فـأمر بهم فـضربت عناقهم. وسـوابق العلة تؤكد أن صدورها كان بـتدبير المأمون لأنه أحس بثـقل يد الفضل عليه وبما كان من غشه له وأنه ما دام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة فاحتال بهؤلاء الخدم ثم قتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل وعزاه وأخبره أنه صيره مكانه.

رحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر وكان هذا الرحيل سـبباً لاختلاف القواد ببغداد على إبراهيم بن المهـدى لأن السبب الذى من أجله خـلعوا المأمـون قد زال فاضطـرب أمر براهيم ببغداد.

لما صار المأمون بطوس حدثت حادثة أخرى وهى وفـاة على الرضا ويتهمون المأمون بأنه سمه وليس عندنا من البراهين ما يؤكد هذه التهمـة لأنه بقدر ما يقربها إرادة المأمون التقرب إلى أهل بغداد والعباسيين بالتخلص منه يبعدها مـا كان مغروساً فى نفس المأمون من محبة آل أبى طالب وأنه صاهر علياً وأن علـياً هو الذى أظهر له حقيقة مـا كان يدور بالعراق من الفتن ولا يبـعد عندى أنه من فـعل بعض البطانة المأمونيـة ليخـففوا عن المـأمون اضطراب العبـاسيين ويخلصوا مما يـعتقدونـه شراً وهو خروج الخـلافة من آل العبـاس. وهناك كتب المأمون إلى بنى العباس والموالى وأهل بغداد يعلمهم موت على بن موسى.

رحل المأمون من طوس إلى الرى وهنـاك تحبب إلى أهلها بإسـقاط ألفى ألف درهم من خراجها. وكان كلما قرب من بغداد زاد الاضطراب على إبراهيم بن المهدى وقام القواد فى وجهه حتى كتبوا إلى قائد من قواد الحسن بن سـهل يطلبون إليه الحضور ليسلموا إليه بغداد ثم يلبث أن حـضر وسلم لـه جند بغداد المدينة وأعلن خـلع إبراهيم بن المهدى والدعـوة للمأمون فاختفى إبراهيم ليلة الأربعـاء (١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣) فكانت أيامه كلها ببغداد سنة واحدة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً.

ما زال المأمـون ينتقل من منزلـة إلى منزلة حتى وصل النهـروان وهناك خرج أهل بيتـه والقواد ووجوه الناس فسلموا عليـه ووافاه طاهر بن الحسين من الرقة لأنه أمره بذلك. وفى يوم السبت لأربع عشر بقيت من صفر (سنة ٢٠٤) دخل مدينة بغداد فى لباسه ولباس أهله

الخضرة أقبيـتهم وقلانسهم وأعلامهم فلبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجـمعون. ومكثو
على ذلك ثمانية أيام فتكلم فى ذلك بنو هاشم وولده العباس خاصة وقالوا: يا أمير المؤمنين
تركت لبـاس آبائك وأهل بيتك ودولـت ولبست الخـضرة وكـتب إليه فى ذلك قـواد أهل
خراسان وسأله طاهر بن الحسين أن يرجع إلى لبس السواد فلما رأى المأمون طاعة الناس له
فى لبس الخضرة وكراهتهم لهـا قعد لهم وعليه ثياب خضر فلما اجتـمعوا عنده دعا بسواد
فلبسه ودعا بخلعة سواد فألبسـها طاهراً ثم دعـا بعدة من قواده فألبسهم أقبية وقلانس سود
فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد طرح سـائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد
وابتداء من ذلك الوقت ملك المأمون الحقيقى.

المأمون ببغداد:

أشرقت شمس أبى العـباس عبد الله المأمون بغداد حـاضرة آبائه ومن ذلك الوقت ابتدأ
ملكه الحقيـقى وتجلت مزاياه وأخلاقه التى لم يشابهـه فيها أحد من أهل بيتـه وساس الأمة
وسياسـة لين لا يشوبه ضعف وقوة لا يشـوبها عنف وأخذت بغـداد تستعيد نضـرتها التى
كانت لها فى عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية لما كان من ميل المأمون الشديد إلى تقوية
تلك الحركة وسنبين ذلك فى فصل خاص إن شاء الله به أن ننتهى من بيان الحالة الداخلية.

الوزارة فى عهد المأمون:

أول وزراء المأمون الفضل بن سهل وهو فارسى الأصل أسلم على يد المأمون (سنة ١٩٠)
ويقال إن أباه سهلاً على يد المهدى والذى اختبار الفـضل للمأمون هو الرشيد بإشارة جعفر
بن يحيى فكان مـدبر أمره وهو ولى عهده ولما فـعل الأمين ما فعل دبر الفضـل أمر إرسال
الجنود وتدبير مـا يلزمهم فأرسل طاهر بن الحـسين لمحاربة على بن عيـسى بن ماهان. و
انتصـر طاهر لقب الفضل ذا الرياسـتين وجعل له علماً من سـنان ذى شعبـتين وكتب على
سيفه من جانب رياسة الحرب ومن الجانب الآخر رياسة التدبير وولاه المأمون فى هذه السنة
وهى (سنة ١٩٦) على المشرق كله وجـعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم (نحـو ستين ألف
جنيه).

ولما تم للمأمون النصر بتـدبيره استولى عليه حتى ضايقه ولما كـان من أمر أهل بغداد ما
كان دبر المأمون عليـه بسرخس من قتله وكان الفـضل يتشيع حتى حمل المأمـون على بيعة
على الرضا بولاية العهد من بعده فجنى بذلـك على نفسه وعلى على الرضا من بعده وكان

الفضل بن سهل مولعاً بالنظر فى النجوم ويقال إن له إصـابات كثيرة فى أمور أنبأ عنها قبل وقوعها وجميع ما دبره فى أمر المأمون مع أخيه يدل على فكر سديد ورأى محكم وكان مع ذلك جيد الكتابة حسن القول سخى اليد وقد مدحه كثير من شعراء عصره.

استوزر المأمون بعـد وفاة الفضل بن سهل أحمد بن أبى خـالد وأصله شامى مولى لبنى عامر بن لؤى وكان أبوه كاتـباً لعبيد الله كاتب المهدى أحضره المأمـون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له: إنى كنت عزمت ألا أستوزر أحداً بعد ذى الرياستين وقد رأيت أن أستوزرك فقال: يا أميـر المؤمنين اجعل بينى وبين الغاية منزلة يتأملها صديقى فـيرجوها لى ولا يقول عدوى قد بلغ الغاية وليس إلا الانحطاط فاستحسن المأمون كلامه واستوزره.

وكان أحـمد هذا مـن خيار الـوزراء يحب أن تخلص قلوب الرعيـة لإمامـه فكان دائم المشورة بما يسـر أنفسهم ويسل دفين الأحـقاد من صدورهم ومن طريف مـا حصل منه مع المأمون أن المأمون ذكر يوماً عمرو بن مسعدة فاستابطأه وقال: يظن أنى لا أعرف أخباره وما يجب إليه وما يعـامل به الناس وكان أحمد حاضراً هذا المجلس فذهب إلى عـمرو وأخبره الخبر. فراح عـمرو إلى المأمون فلما دخل عليه وضع سيفـه بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين أنا عائذ بالله من سخطك ثم عائذ بك من سخطك يا أمير المؤمنين أنا أقل من أن يشكونى أمير المؤمنين إلى أحد أو يسر لىَّ ضعناً يبعـثه بعض الكلام على إظهاره ما يظهر منه. فقال له: وما ذاك فأخبـره عمرو بما بلغه ولم يسم له المخبر فقال له المأمـون: لم يكن الأمر كما بلغك وإنما كانت جـملة من تفصيل كـانت علىَّ أن أخبرك بـه وإنما أخرج منى هذا الكلام معنى تجاريناه وليس لك عندى إلا ما تحب فليفـرج روعك وليحسن ظنك وظهر فى وجهه الحيـاء والخجل فلما غـدا أحمد على المأمـون قال له: أما لمجلسى حـرمة؟ فقال: يا أمـير المؤمنين وهل الحرمة إلا لما فصل عن مجلسك فأخبره المأمون الخبر وأن بعض من حضر من بنى هاشم هو الذى أفشى ما قاله المـأمون فقال أحمد: أنا يا أمير المؤمنين أخـبرت عمراً لا أحد من بنى هاشم والذى حـملنى على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة لأن نعـمتك على توليائك وخدمك أعلم أن أمير المؤمنين يحـب أن يصلح له الأعداء والبعداء فكيف الأولياء والقرباء لا سيـما مثل عمرو فى دنوه من الخـدمة وموقعه من العـمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فيه سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئاً فخبرته به ليصلحه ويقوِّم من نفسه أودها لسيده ومولاه ويتلافى ما فرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل الغناء فيه وإنما كان يكون ما فعلت فيها لو أشعت سراً فيه قدح فى السلطان أو نقض تدبير فىَّ استتب فأما مثل هذا فما حسبته أن يكون ذنباً علىَّ فنظر إليه المأمون ملياً وقال: كيف قلت فأعاد عليه ما قال ثم قال: أعد فأعاد الثالثة فـقال له المأمون: أحسنت لما أخبرتنى به أحب إلىَّ من ألف ألف

وألف ألف وألف ألف ألف وعقد خنصره وبنصره والوسطى وقال: أما ألف ألف فلنفيك عنى سوء الظن وأطلق وسطاه وأما ألف ألف فلصدقك إياى عن نفسك وأطلق البنصر وأما ألف ألف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر.

ومن عيوب أحمد بن أبى خالد أنه كان شرها يتقرب إليه الناس بالمآكل لينالوا ما عنده من المصالح وكان المأمون يعرف ذلك منه فأجرى عليه كل يوم لمائدته ألف درهم لئلا يشره إلى طعام أحد من بطانته وكان مع هذا يشره إلى طعام الناس وتمتد عينه إلى هدية تأتيه وكان مع هذا أسى اللقاء عابس الوجه يهر فى وجوه الخاص والعام غير أن فعله كان أحسن من لقائه وكان من عرف أخلاقه وصبر على مداراته نفعه وأكسبه.

ومن الغريب أن يتفق لشخص الشراهة إلى طعام الناس وكثرة العطايا التى كان يمنحها من خاص ماله وقد روى عنه أبو الفضل أحمد بن طاهر بن طيفور فى أخبار بغداد أنه كان يقول يهدى إلىَّ الطعام فوالله ما أدرى ما أصنع به يهديه إلىَّ صديق استحى من رده عليه.

توفى أحمد بن أبى خالد فى ذى القعدة (سنة ٢١١) وصلى عليه المأمون ولما دلى فى حفرته ترحم عليه وقال: أنت والله كما قال القائل:

أخو الجد إن جد الرجال وشمروا   وذو باطل إن كان فى القوم باطل

استوزر المأمون بعده أحمد بن يوسف كان كاتباً من خيرة الكتاب وأجودهم خطاً حتى قال له المأمون يوماً: يا أحمد لوددت أنى أخط مثل خطك وعلىَّ صدقة ألف ألف درهم. وكان يجيد الكتابة حتى كان المأمون إذا كان يتولى عمرو بن مسعدة ديوان الرسائل كان يكلف أحمد بن يوسف بكتابة الكتب التى يريد أن تشهر وتذكر وولاه المأمون ديوان السر وبريد خراسان وصدقات البصرة ولما مات أحمد بن أبى خالد استوزره مكانه وكان من بطانة المأمون من يحسد أحمد بن يوسف على الدرجة التى وصل إليها من المأمون فكادوا له المكايد حتى أقصوه عن قلبه وقد أردت أن أبين لحضراتكم الطريقة الدنيئة التى اتبعوها مع الوزير الذى لم يجدوا فيه عيباً من جهة عمله. كان المأمون يستدعى أحمد بن يوسف سحراً لقضاء الأمور معه فقال أحد البطانة لخادم ممن يقوم على رأس المأمون: إذا خص المأمون أحمد بن يوسف بكرامة أو لون من الألوان فأعلمنى وضمن له من أجل ذلك مالاً. دخل أحمد عند المأمون ذات يوم سحر وليس عنده أحد وكان تحت المأمون مجمرة عليها بيضة عنبر كان أمر بوضعها حين دخل أحمد ولم تكن النار قد عملت فيها إلا قليلاً فأراد أن يكرم بها أحمد ويؤثره بها فأمر بأن تنقل تحته. فأخبر الخادم صاحبه بذلك وهو محمد بن الخليل بن هشام فلما دخل المأمون سأله عما تقول العامة وما تتحدث به فكان مما أخبره به

ن قال: انصرفت يوماً فمررت بمشرعة وأنا فى الزلال (قارب) فسمعت سقاء يقول لآخر معه ما رأيت كما يخبر ندماء الرجل عنه فقال: ومن تعنى ـ قال له: أمير المؤمنين ـ قال: وما ذاك؟ ـ قال: انصرف من عنده أحمد بن يوسف فسمعته يقول لغلامه ما رأيت أحداً قط بخل ولا أعجب من المأمون دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتسع نفسه أن يدعو لى بقطعة بخور حتى أخرج القتار الذى كان تحته فبخرنى به، فعرف المأمون الحديث وقال فى نفسه: والله ما حضر هذا اليوم أحد فأتوهم فيه ضرباً من الضروب، وجفا أحمد بن يوسف وأزاله عن مرتبته.

استوزر المأمون بعده القاضى يحيى بن أكثم التميمى كان من جلة العلماء الفقهاء الذين لهم قدم ثابتة فى الحديث والفقه والأصول تولى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة ثم اتصل بالمأمون وصله به ثمامة بن أشرس العالم المتكلم الذى كان المأمون يثق به كثيراً فلما احتاج المأمون إلى من يوليه الوزارة عرضها على ثمامة فامتنع منها ووصف له يحيى فاستوزره وولاه مع ذلك قاضى القضاة فكان إليه تدبير المملكة والقضاء وقلما اجتمعا فى شخص. وكان يحيى على مذهب العامة فكان إذا أراد المأمون شيئاً يخالف ما هم عليه احتال فيما يرجعه عنه. أراد المأمون أن يعلن يوماً حل المتعة وهى شىء نهى عنه عمر بن الخطاب فدخل عليه يحيى وهو متغير فسأله المأمون عن سبب تغيره فقال: غم يا أمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام وهو النداء بتحليل الزنا قال الزنا، قال: نعم المتعة زنا، قال: من أين؟ قال: من كتاب الله وحديث رسول الله قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧] يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين قال: لا. قال: فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها قال: لا. قال: فقد صار من يتجاوز هذين من العادين ـ وهذا الزهرى يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علىّ بن أبى طالب قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها [أخرجه الزهرى ورواه الإمام مالك] - فسأل المأمون عن حديث الزهرى أهو محفوظ فعلم أنه رواه مالك فقال المأمون: أستغفر الله وأمر فنودى بتحريم المتعة. وكان يحيى مع فقهه من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور فصيحاً جوابه على قدر سؤال سائله لقيه مرة رجل فقال: أصلح الله القاضى كم آكل قال: فوق الجوع ودون الشبع قال: فكم أضحك قال: حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك، قال: فكم أبكى قال: لا تمل من البكاء من خشية الله تعالى، قال: فكم أخفى عملى قال: ما استطعت، قال: فكم أظهر منه قال: مقدار ما يقتدى بك البر الخير ويؤمن عليك قول الناس.

وكان يحيى من المحدثين الذين يروى عنهم الحديث وقد اتهم بهنات لم يثبتها الناقدون من أهل عصره قال طلحة بن محمد جعفر فى حقه: يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا قد اشتهر أمره وعرف خبره ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعمله ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك واسع العلم بالفقه كثير الأدب حسن المعارضة قائم بكل معضلة وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد من الناس جميعاً عنده. وكان المأمون ممن برع فى العلوم فعرف من حال يحيى بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذه بمجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته فكانت الوزارة لا تعمل فى تدبيره الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم.

وذكر الخطيب فى تاريخه أنه ذكر لأحمد بن حنبل رضى الله عنه ما يرميه الناس به فقال: سبحان الله من يقول هذا وأنكر ذلك إنكاراً شديداً ذكر ذلك ابن خلكان فى تاريخه وقال الطيفورى فى تاريخ بغداد: قال أحمد بن أبى طاهر كان المأمون يحضر يحيى بن أكثم وهو يشرب فلا يسقيه ويقول: لو أراد يحيى أن يشرب ما تركته وربما وضعت الصحفة قدام المأمون فيها مطبوخ (نبيذ) ويحيى يأكل معه فيقول له المأمون فيها مطبوخ إنى لا أترك قاضى يشرب النبيذ.

ولم يذكر ابن طباطبا فى كتابه الفخرى يحيى بن أكثم فى عداد وزراء المأمون والظاهر من عبارة طلحة بن محمد التى أوردناها أنه كان بمنزلة مستشار للخليفة فيما يجرى على أيدى الوزراء من الأعمال.

ولم يكن ختام أمره مع المأمون خيراً فقد كان من ضمن وصية المأمون لأخيه المعتصم. ولا تتخذن بعدى وزيراً تلقى إليه شيئاً فقد علمت ما نكبنى به يحيى بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه فى صحة منى فصرت إلى مفارقته قائلاً له غير راض بما صنع فى أموال الله وصدقاته لا جزاه الله عن الإسلام خيراً.

ولولا هذه العبارة فى وصية المأمون لم يكن وصل إلى علمنا شىء مما كان بين المأمون ويحيى بن أكثم فى خاتمة الاتصال بينهما ثم رأيت فى مروج الذهب أن المأمون سخط عليه (سنة ٢١٥) وذلك بمصر وبعث به إلى العراق مغضوباً عليه.

وقد طالت حياة يحيى بن أكثم حتى توفى فى عهد جعفر المتوكل.

ومن وزراء المأمون أبو عباد الثابت بن يحيى بن يسار الرازى وهو الذى يقول فيه دعبل:

أولى الأمور بضيعة وفساد ... أمر يدبره أبو عباد

فقد كان مع كتابتـه وحذقه بالحساب أهوج محمقاً. وقد قـيل للمأمون إن دعبلاً هجاك فقال: من أقـدم على هجاء أبى عباد كيف لا يـهجونى. وكان شديد الحـدة سريع الغضب ربما اغتاظ من بعض من يكون بين يديه فرماه بدواته أو شتمه فأفحش.

ومن وزرائه أبو عـبد الله مـحمـد بن داود بن سويد وهو آخـر وزرائه وأصل بيتـه من خراسان كانوا مجوسـاً ثم أسلموا واتصلوا بالخلفاء وسويد أول من أسلم منهم وخرج بنوه كتاباً ولا سيما محمداً فإنه تأدب وبرع فى كل شىء فاستوزره المأمون ومات وهو وزيره.

ولم يكن للوزراء فى عهد المأمون كبير نفوذ بالأمور ولا استبداد بمصالح الدولة بل كانوا ينهون هذه المصالح مع المأمون نفسه ويظهر أن الحروب السابقة فى عهد الرشيد ومن قبله بل وفى أول عهد المأمون جعلت الخليفة يسر أمور دولتـه بنفسه لئلا يستفحل أمر وزرائه فيكون من ذلك ما يخشاه من مثل ما حصل للفضل بن سهل ولجعفر بن يحيى البرمكى وأهل بيته ولمن قبلهم من أمثالهم.

الأحوال الداخلية:

العلويون وآثارهم فى الدولة.

قدمنا مـا كان من المأمون من اختـياره لولاية عهده على الرضـا بن موسى الكاظم وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية واتخاذه الشعار الأخضر بدل الأسود وما ترتب على ذلك من الاضطراب فى بغداد وقيام أبى السرايا والعلويـين الذين قاموا من أجل قيامه فى الأمصار الكبرى ثم ما كان من وفاة على الرضـا بطوس وانتهاء فتنة أبى السرايا وسقوط جمـيع العلويين الذين خـرجوا فى ذلك الوقت بالبـصرة والحـجاز واليمن. ونـزع المأمون الشعار الأخضـر بعد حلوله ببغداد وعودته إلى شعار أهل بيتـه وهو السواد. وكان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده فى فضل أبيهم إلى أن خرج فى (سنة ٢٠٧) باليمن من آل أبى طالب عبد الرحـمن بن أحمد بن عبد الله بن محمـد بن عمر بن علىّ بن أبى طالب فوجه إليه المأمون ديـنار بن عبد الله فى جيش كثيف وكتب معـه بأمانه فحضر دينار بن عبد الله الموسم وحج ولما فـرغ من حجه سار إلى اليمن حتى أتى عبـد الرحمن فبعث إليه بأمانه من المأمون فقـبل ذلك ودخل ووضع يده فى يد دينار فخرج به إلى المأمون فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد.

ومع ذلك فقد جاء فى وصيته لأخيه المعتصم وهو يجود بنفسه، (وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنـه، فأحسن صحبـتهم وتجاوز عن مسيـئتهم

وأقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تغفلها فى كل سنة عند محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى).

وبسبب اختلال الأمن فى البلاد اليمنية ورسوخ التشيع فيها أراد المأمون أن يختار لولاية تهامتها من يأخذ على أيدى المفسدين فيها فأشار عليه الحسن بن سهل برجل من ولد زياد بن أبى سفيان وهو محمد بن إبراهيم الزيادى فولاه إياه (سنة ٢٠٣) فتوجه فحج ثم ذهب إلى اليمن ففتح تهامة واختط مدينة زبيد (سنة ٢٠٤) وهى التى صارت حاضرة تهامة. وقد عظم أمر الزيادى بعد ذلك باليمن وصار كملك مستقل إلا أنه كان يخطب لبنى العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا وطال ملكه إلى (سنة ٢٤٥) ثم صار الملك فى أبنائه ثم فى مواليهم وموالى مواليهم إلى (سنة ٥٥٣) وتعرف هذه الدولة بالدولة الزيادية وهى أول الدول استقلالاً باليمن.

وحال هذه الدولة يشبه حال دولة الأغالبة فى إفريقية فإن الرشيد ولاها إبراهيم بن الأغلب التميمى ليكون حاجزاً بين الخلافة العباسية وبين الأدارسة الذين بالمغرب الأقصى وكانت توليته إياها (سنة ١٨٤) فعظم أمره وسار كملك مستقل إلا أنه يخطب للرشيد واستمر الملك فى أعقابه إلى (سنة ٢٩٦) وكان الأمير فى عهد المأمون عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٩٦ ـ ٣٠١) ـ ثم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الذى استمر ملكه إلى (سنة ٣٢٣) وهو الذى فتح جزيرة صقلية من أيدى الروم.

فهاتان الدولتان أول الدول المتغلبة على أطراف بنى العباس وأصل تكوينهم الخوف من الطالبيين وامتداد نفوذهم وذلك بعد أن اقتطع من الخلافة المغرب الأقصى للأدارسة والأندلس لبنى أمية.

إبراهيم بن المهدى:

قدمنا ما كان من بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدى إذ كان المأمون بمرو فلما شخص المأمون إلى بغداد وعلم بقدومه القواد الذين كانوا مع إبراهيم تركوه فلما رأى ذلك اختفى وظل مختفيا ببغداد يتنقل من دار إلى دار إلى (سنة ٢١٠) وفى تلك السنة أخذ أخذه حارس أسود وهو متنقب مع امرأتين فى زى امرأة فأعلم المأمون بخبره فأمر بالاحتفاظ به ثم دخل به عليه فقال له: هيه يا إبراهيم فقال: يا أمير المؤمنين ولى الثأر محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاعتزاز بما مده له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك. قال بل أعفو يا إبراهيم فقال إبراهيم يمدحه:

يا خـيـر مـن ذملت يمانيـة بـه ... بعـد الرسـول لآيس أو طـامع
وأبو من عـبـد الإله على التقى ... عـيناً وأقـولـه بحق صـادع
على الفـوارع مـا أطعت فـإن تهج ... فـالصـاب يمزج بالسـمـام الناقع
متيقظاً حذراً ومـا يخشى العدا ... نبـهـان من وسنات ليل الهـاجع
ملئت قلوب الناس منك مخافة ... وتبـيت تكلؤهـم بقلب خـاشع
بأبي وأمي فـديـة وبنيـهـمـا ... من كـل مـعـضلة وريب واقع
مـا ألين الكنف الذي بوأتني ... وطناً وأمـرع رتعـة للـراتع
للصـالحـات أخاً جعلت وللتقى ... وأبا رؤوفـا لـلفـقـيـر القـانع
نفسي فداؤك إذ تضل معاذري ... وألوذ منك بفـضل حلم واسع
أملا لفضلك والفواضل شيمة ... رفـعـت بناءك بالمحل اليـافع
فـبذلت أفـضل مـا يضيق ببذله ... وسع النفـوس مـن الفـعـال البـارع
وعـفـوت عـمن لم يكن عن مثله ... عـفـو ولم يشـفع إليك بشـافع
إلا العلو عن العـقـوبة بعـدمـا ... ظفـرت يداك بمستكين خـاضع
فـرحمت أطفـالا كـأفـراخ القطا ... وعـويل عـانسـة كـقـول النازع
وعطفت آصـرة على كـمـا وعى ... بعـد انهـيـاض الوثى عظم الظالع
الله يعلم مـا أقـول فـإنهـا ... جـهـد الألـيـة من حنيف راكع
مـا إن عـصيتك والغـواة تقودني ... أسـبـابهـا إلا بنيـة طـائع
حى إذا قطعـت حـبـائل شـقـوتي ... بردى إلى حـفـر المهـالـك هائع
لم أدر أن لمثل جـرمـي غـافـرا ... فـوقـفت أنظر أي حـتف صـارعي
رد الحـيـاة علىَّ بعـد ذهـابهـا ... ورع الإمـام القـادر المتـواضع
أحـيـاك من ولاك أطول مـدة ... ورمى عـدوك بالوتين بقـاطع
كم من يد لك لم تحـدثني بهـا ... نفـسي إذا آلت إلىَّ مطامـعي
أسـديتـهـا عـفـواً إلى هـنيـئـة ... فـشكرت مـصطنعـاً لأكـرم صـانع
إلا يسـيـراً عـندمـا أوليـتـني ... وهو الكثـيـر لدى غـيـر الضـائع
إن أنت جـدت بهـا على تكن لهـا ... أهلاً وإن تمنع فـأعـدل مـانع
إن الذي قـسـم الخـلافـة حـازها ... في صـلب آدم للإمـام السـابع
جـمع القلوب عليك جامع أمـرها ... وحـوى رداءك كل خـيـر جـامع

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة قال: أقول ما قال يوسف لإخوته ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

ومن الغريب أن المأمون قد اطلع قبيل ذلك على مؤامرة يقصد بها خلع المأمون وإعادة إبراهيم بن المهدى للخلافة، ورئيس هذا الأمر إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة.

وكان اطلاع المأمون على ذلك يوم السبت (٥ صفر سنة ٢١٠) والظفر بإبراهيم بن المهدى ليلة الأحد (١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٠) ـ وقد انتقم المأمون من ابن عائشة انتقاما شديداً فقد أمر أن يقام ثلاثة أيام فى الشمس على باب دار المأمون ثم ضربه بالسياط ثم أمر بحبسه فى المطبق وفعل قريباً من ذلك بمن كانوا معه وقد كتبوا للمأمون أسماء من دخل معهم فى هذا الأمر من القواد والجند وسائر الناس فلم يعرض المأمون لأحد ممن كتبوا به ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا أقواماً براء ثم أمر المأمون بعد ذلك بابن عائشة فقتل وصلب وهو أول مصلوب فى الإسلام من بنى العباس وقتل معه ثلاثة من رؤوس المتآمرين وكان قتلهم فى (١٤ جمادى الآخر) من تلك السنة.

نصر بن شيث:

كان نصر بن شيث من بنى عقيل يسكن يكسوم شمالى حلب وكان عربياً شريفاً شهماً، له فى محمد الأمين هوى فلما قتل الأمين غضب ولا سيما لما رأى العنصر العربى قد انحط شأنه وصار معظم القواد الأمراء من غيرهم فأظهر الخروج على السلطان وكان ذلك أواخر (سنة ١٩٨) وتغلب على ما جاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب الشرقى وحدثته نفسه بالتغلب عليه فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت على ما كانت.

لما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين وملك العراق ولى الحسن بن سهل على كل ما افتتحه وأمر أن يسلم ذلك إليه وأن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر وولاه المأمون الموصل والجزيرة والشام والمغرب فسار طاهر إلى وجهه وأرسل إلى نصر يدعوه على الطاعة و ترك الخلاف فلم يجب فتقدم إليه طاهر ولقيه بنواحى يكسوم فاقتتلا هناك قتالاً عظيماً أبلى فيه نصر بلاء حسناً فكان النصر له وعاد طاهر إلى الرقة شبه المنهزم وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحى. والظاهر أنه لم يكن جاداً فى حرب نصر لأنه رأى نفسه جرد مما فتحه من العراق وغيره ولم يتمتع بشىء مما جناه.

كان ذلك مما قوى أمر نصر حتى كثر جمعه وحصر حران بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له: قد وترت بنى العباس، وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك. فقال: من أى الناس؟ فقالوا: نبايع لبعض آل على بن أبى طالب. فقال: أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول إنه خلقنى ورزقنى قالوا: فنبايع لبعض بنى أمية. قال: أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً ولو سلم على مدبر لأعدانى إدباره وإنما هوى فى بنى العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم ولما شخص المأمون إلى بغداد أمر طاهراً أن يلقاه بها فترك الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبد الله وأمره أن يقاتل نصراً فلما قدم طاهر ولاه المأمون خراسان. وولى ابنه عبد الله من الرقة إلى مصر وأمره بالجد فى محاربة نصر وحينذاك كتب طاهر إلى ابنه عبد الله ذلك الكتاب المشهور الذى جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم مما لا يستغنى عنه أحد من ملك وسوقة وهذا الكتاب قد تنازعه الناس وكتبوه وشاع أمره وبلغ المأمون خبره فدعا به فقرئ عليه فقال: ما أبقى أبو الطيب (يعنى طاهراً) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأى والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكم وأوصى به وأمر فكتب به إلى جميع العمال والنواحى ذهب عبد الله إلى وجهه فى محاربة نصر فجد فى أمره وحصره وضيق عليه حتى مال إلى الأمان وفى ذلك الوقت ندب المأمون جعفر بن محمد العامرى ليؤدى إلى نصر رسالة فذهب إليه وهو بكفر عزون بسروج فأبلغه رسالة المأمون التى يطلب فيها منه ترك الحرب والجنوح إلى السلم فأذعن وشرط شروطاً منها ألا يطأ بساطه فأتى المأمون وأبلغه مطالب نصر فقال: لا أجيبه والله إلى هذا أبداً ولو أفضيت إلى بيع قميصى حتى يطأ بساطى. فعاد الرسول إلى نصر فأخبره فصاح بالخيل صيحة فجالت ثم قال: ويلى عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعنى الزط) يقوى على حلبة العرب. لكنه مع جد عبد الله بن طاهر فى حربه أجاب إلى التسليم وطلب الأمان فكتب له المأمون كتاب أمان فخرج إلى عبد الله بن طاهر وحينذاك هدم يكسوم وخربها ووجه بنصر إلى المأمون فدخل بغداد فى صفر (سنة ٢١٠) وأنزل مدينة أبى جعفر ووكل به من يحفظه.

وكان مقام عبد الله بن طاهر على حربه خمس سنين.

الزط:

الزط معرب (جت) قال عنهم ابن خلدون «هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد» اهـ وهم المعروفون بالنور أصلهم من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسى تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التى كانت

بين الأمين والمأمون ولما استقر المأمون ببغداد بعث عيسى بن يزيد الجلودى لحربهم (سنة ٢٠٥) ويظهر أنهم كانوا إذا أحرجتهم الجنود تفرقوا فى تلك الفيافى فقد ذكر الطبرى فى حوادث (سنة ٢٠٦) أن المأمون ولى داود بن ماسجور محاربة الزط وأعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ولم يذكر هو ولا متبعوه نتيجة فعله ولا فعل من قبله والظاهر أنهما لم يؤثرا أثراً فاضلا بدليل ما ورد فى عبارة نصر بن شيث (إنه لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه) وقد استمر أمرهم كذلك إلى (سنة ٢١٩) فى عهد المعتصم حيث وجه إليهم عجيف بن عنبسة أحد قواده وكانوا قد عاثوا فى طريق البصرة فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة وأخافوا السبيل فاهتم عجيف بحربهم ليضربهم ضربة قاضية فعسكر بقرب واسط وسد الأنهار التى كان الزط يدخلون منها ويخرجون فحصرهم من كل وجه ولما أخذ عليهم طريقهم حاربهم وأسر (٥٠٠ رجل) وقتل منهم فى المعركة (٣٠٠رجل) فضرب أعناق الأسرى وبعث برؤوس جميعهم إلى المعتصم. ثم أقام بإزائهم (١٥يوماً) ظفر منهم فيها بخلق كثير وكان رئيس الزط رجلاً يقال له محمد بن عثمان وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق. ومكث عجيف يقاتلهم فيما قيل تسعة أشهر ولم يزل يلح عليهم حتى طلبوا منه الأمان فأمنهم فخرجوا إليه فى ذى الحجة (سنة ٢١٩) على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم وكانت عدتهم ذكر (٢٧ألفاً) المقاتلة منهم (١٢ألفاً) وأحصاهم عجيف (٢٧ ألف) إنسان بين رجل وامرأة وصبى ثم جعلهم فى السفن وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية وأقام بها يوماً وعبأهم فى زواريقهم على هيئتهم فى الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء (سنة ٢٢٠) فمروا على المعتصم على تعبئتهم ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقى فدفعوا إلى بشر بن السميدع فذهب بهم إلى خانقين ثم نقلوا إلى الثغر إلى عين زربة وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث (سنة ٢٤١) فى عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة فأخذت من كان بها أسيراً من الزط مع نسائهم وذراريهم وذويهم.

بابك الخرمى:

بين أذربيجان وأران فى شمال بلاد الفرس، كورة تدعى البذ يمر بها نهر الرس العظيم بهذه الكورة خرج بابك التى امتدت فتنته زمناً طويلاً فى عهد المأمون والمعتصم وكان خروجه (سنة ٢٢١) فى عهد المأمون ومنتهاه (سنة ٢٣١) فى عهد المعتصم.

ولا بد لنا من شرح أحوال هذا الرجل وفتنته وما كانوا عليه من الاعتقاد وما أثروه فى دولة المأمون والمعتصم.

تمتاز البلاد الفارسية بكثرة المذاهب والاعتقـادات الدينية سواء فى ذلك ما كان قبل البعثة المحمدية وما بعدها، ومن تلك الطوائف فرقة تسـمى الحرمية (بالحاء والراء المهملتين) كما حكى عليه ابن النديم فى فهرسه وهم صنفان: الحرمـية الأولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القـديم أمرهم بـتناول اللذات، والانعكاف على بلوغ الـشهـوات والأكل والشـرب والمواساة والاختلاط وترك الاستبداد بعـضهم على بعض ولهم مشاركة فى الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه ومع هذه الحال فـيرون أفعال الخير وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس ولهم مذهب فى الضيافات ليس هو لأحد من الأمم إذا أضافوا الإنسان لم يمنعـوه من شيء يلتمسه كـائناً ما كان، وعلى هذا المذهب مزدك الأخـير الذى ظهر أيام قبـاذ بن فيروز وقتله أنو شـروان وقتل أصحابه. الصنـف الثانى الحرمية البـابكية ينسبـون إلى صاحـبهم بابك الحرمى وكـان يقول لمن استـغواه إنه إله وأحـدث فى مذاهب الحرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ولم تكن الحرمية تفعل ذلك. هكذا ذكر ابن النديم ومنه يظهر وجه تسمـيتهم بالحرمية أما سـائر المؤرخين فيقولون هم الخرمية (بالخـاء المعجمة المضمومة والراء المفتوحة المشددة) قال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعانى المروزى فى كتاب الأنساب، (الخرمى) نسبة إلى طائفـة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية يدينون بما يريدون ويشتهون وإنما لقبوا بذلك لإباحتـهم المحرمات من الخمر وسائر الملذات ونكاح ذوات المحارم، وفعل ما يتلذذون به، فلما شابهوا فى هذه الإباحـة المزدكية من المجوس الذين خرجوا فى أيام قباذ وأباحـوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحـرمات إلى أن قتلهم أنو شروان بن قـباذ قيل لهم بهذه المشابهـة خرمدينية كمـا قيل للمزدكية وقال صـاحب القاموس: خرمة قـرية بفارس منها بابك الخرمى - ثم قال وتخرم دان بدين الخرمية لأصحاب التناسخ والإباحة.

ومن ذلك يظهر أن ما جاء فى فهرس ابن النديم تحريف.

نشأ بابك بن بهـرام بقرية تدعى بلال أباد رستاق مـيمتد ثم اتصل بجـاويدان بن سهرك ملك جبال البذ ورئيس من بها من الخرمية وكان جاويدان يرى منه فـهماً وشهامة وخبثاً فقر به إليه ولما أدركته منيته اجتهـدت امرأته فى أن يكون بابك مكانه فى الملك فجمعت الخرمية وقالت لهم: إن جـاويدان قال لى إنى أموت فى ليلتى هذه وإن روحى تخـرج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى وقد رأيت أن أملكه على أصحـابى فإذا مت فاعلميهم ذلك وأن لا دين لمن خلفنى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابك.

أخذ بابك ومن معه فى العيث والفسـاد وإخـافة السبل وأول ما عرف ذلك من أمره كان (سنة ٢٠١) والمأمون بمرو لم يسـرحها إلى بغـداد فلما شخص المأمون إلى بغـداد عين أحد قواده يحيى بن مـعاذ لحرب بابك فكانت بينهما وقـعة لم ينتصف فيها أحـدهما من الآخر

فاختار المأمون قائداً آخر هو عيسى بن محمد بن أبى خالد فولاه أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك فنكب ثم وجه إليه صدقة بن على المعروف بزريق وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الإسكافى فأسره بابك ثم وجه إليه محمد بن حميد الطوسى فقتله بابك (سنة ٢١٤) بهشتادسر وفض عسكره وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه هكذا كان كلما أرسل لحرب بابك قائداً لم يصنع شيئاً لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره فى قلوب الجمهور الذين كانوا معه وقد ذكر فى حوادث (سنة ٢٢٨) دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذف فى دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا فى عمل همذان ذلك أول ولاية المعتصم فوجه إليهم الجنود وكان آخر عسكر وجه إليهم وجهه المعتصم مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وعقد له على الجبال فشخص إليهم وفض جموعهم وقتل فى عمل همذان ستين ألفاً منهم وهرب سائرهم إلى بلاد الروم فقبلهم ملك الروم أحسن قبول، وفرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم فى أهم أمورهم.

وكان من وصية المأمون لأخيه المعتصم حين أدركته المنية (والخرمية فاغزهم ذا جزامة وصرامة وجلد واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجال فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل فى ذلك عمل مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه) لذلك بذل المعتصم جهده فى كسر شوكة بابك، لئلا يمتد شر بدعته فى البلاد الفارسية فاختار لحربه قائداً تركياً من كبار قواده وهو حيدر بن كلوس الأشروسنى المعروف بالأفشين (الأفشين لقب لملوك أشروسنة) وذلك (سنة ٢٣٠) وقبل أن يخرج لوجهه وجه أبا سعيد محمد بن يوسف إلى مدينة أردبيل وأمره أن يبنى الحصون التى خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق، لمن يجلب الميرة إلى أردبيل ففعل أبو سعيد ما أمره وأوقع بسرية أرسلها بابك للإغارة عليه وهذه أول مرة انهزم فيها لبابك جند. ثم نظم البريد بينه وبين الجيش فجعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلاً مضمرة على رأس كل فرسخ فرس معه مجر مرتب فكان يركض بالخيل ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد يداً بيد ومن حلوان إلى أذربيجان رتب فى دواب المرج فكان يركض به يوماً أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ وجعل لهم ديادبة على رؤوس الجبال بالليل والنهار وأمروا أن ينفروا وإذ جاءهم الخبر فإذا سمع الذى يليه النفير تهيأ فلا يبلغ إلى صاحبه الذى نفر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه فكانت الخريطة تصل من عسكر الأفشين إلى سامرا فى أربعة أيام وأقل.

توجه الأفشين حتى أتى برزند فعسكر بها ورم الحصون فيما بين برزند وأردبيل وأنزل

قواداً من قـواده ببعض الحـصون هناك لحراسـة القوافل والسـابلة، وأطلق الأفشين عـيونه وجواسيسه لتعرف الأخبـار عن بابك. وأول وقعة كانت بينه وبين عسكر بابك بارشق أحد حصون الأفشين، حـيث خرج بابك ليقنص مالاً أرسله المعتصم مع أحد قـواده فبلغ خبره الأفشين، فـخرج إليه سراً والتـقيا على مقـربة من الحصن فأتى جند الأفشين على جـميع رجالة بابك وأفلت هو فى نفر يسـير ودخل موفان ومنها توجه إلى البـذ وعاد الأفشين إلى عسكره ببرزند.

استـمرت الحروب بين الأفـشين وبابك مدة طويلة وكـانوا لا يتحـاربون إلا إذا انصرم الشتـاء لمكان الثلوج الشديدة التى كانت تكسـو رؤوس الجبال تمنع المشاة من التـقدم إلى أن كان الربـيع (سنة ٢٢١) فسـار الأفشين من مكانه يريد مـهاجـمة البـذ وأخذه عنوة فـسار محتـرساً وقد رتب أموره أدق ترتيب لما هو قادم علـيه فاستعرت لـظى الحرب بين الفريقين واستبسلا كلاهما وانتهى الأمر باقتحام المسلمين البذ واستيلائهم عليها وقد أراد بابك الهرب وشرع فيه فأفـسد عليه الأفشين تدبيره، وسد عليه المـسالك وأوقف عليـها جنداً من جيشه، وأخيراً قـبض عليه وعلى أخيه عبـد الله وعاد بهما الأفـشين إلى سامرا كما أمـره المعتصم ومعهما (١٧رجلاً) من أهل بيتـه ومن البنات والكتاب (٢٣امرأة) وكان يوم دخولهم سامرا يوماً مشهوداً ثم قتل بابك وصلب بسامرا وفعل مثل ذلك بأخيه عبد الله ببغداد.

وكان جمـيع من قتل بابك فى عشـرين سنة (٢٥٥٠٠ إنسان) وغلب كثيـراً من القواد الذين ذكرناهم وكان عنده من الأسرى الذين استنقذهم الأفشين (٧٦٠٠).

الخراج فى عهد المأمون:

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخى يدل على مقدار الجـباية الخراجية من جميع الأقاليم التى دخلت تحت حكم الدولة العـباسـية، وهو الثـبت الذى نقله العلامـة ابن خلدون فى مقدمة تاريخـه نقله عن كتاب جراب الدولة ولما فى ذلك الثبت من الفـائدة أحببنا أن ننقله عنه وها هو ذا.

الأقاليم والجباية من الدراهم والدنانير

	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
السواد	٢٧ ٨٠٠ ٠٠٠ درهم	٢٠٠ حلة بخرانية
كسكر	١١ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم	٢٤٠ رطلاً من تين الختم
كوردجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	
حلوان	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	
الأهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠ ٠٠٠ رطل سكر
		٣٠ ٠٠٠ قارورة ماء ورد
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٢٠٠ رطل زيت أسود
		٥٠٠ ثوب متاع يمانى
		٢٠ ٠٠٠ رطل تمر
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	١٥٠ رطل عود هندى
السندوما يليه	١٢ ٥٠٠ ٠٠٠	٢٠٠ ثوب معين
سجستان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ رطل من القانيذ
		٢ ٠٠٠ نقرة فضة
		٤ ٠٠٠ برذون
		١ ٠٠٠ رأس رقيق
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ ثوب متاع
جرجان	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠ ٠٠٠ رطل أهليلج
قومس	١ ٠٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ شقة ابريسم
طبرستان		١ ٠٠٠ نقرة فضة
والرويان	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	٦٠٠ قطعة فرش طبرى
ودنباوند		٢٥٠ كساء
	—	٥٠٠ ثوب
		٣٠٠ منديل
		٣,٠٠٠ جام

لرى	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
همذان	١١ ٣٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ رطل رب الرمانين
		١٢ ٠٠٠ رطل عسل
منها البصرة والكوفة	١٠ ٧٠٠ ٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
شهر زور	٦ ٧٠٠ ٠٠٠	
الموصل وما إليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
الجزيرة وما إليها	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ رأس رقيق
من عمل الفرات		١٢ ٠٠٠ ألف زق عسل
		١٠ بزاة
		٢٠ كساء
		٢٠ قسطا محفوراً
٥٣٠	رطل رقم	
أرمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠ ٠٠٠ رطل من المسايح السور ماهى
برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠ ٠٠٠ رطل سونج
		٢٠٠ بغل
		٣٠ مهراً
		١٢٠ بساط
أفريقية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	
فالمجموع بالدراهم	٣١ ٩٦٠ ٠٠٠ درهم	
فقنسرين	٤٠٠ ٠٠٠ دينار	
فدمشق	٤٢٠ ٠٠٠ دينار	
فالأردن	٩٧ ٠٠٠ دينار	
ففلسطين	٣١٠ ٠٠٠ دينار	٣٠٠ ٠٠٠ رطل زيت
فمصر	١ ٩٢٠ ٠٠٠ دينار	
فاليمن	٣٧٠ ٠٠٠ دينار	
فالحجاز	٣٠٠ ٠٠٠ دينار	
المجموع	٣ ٨١٧ ٠٠٠ دينار	

فمجموع الخراج من الدراهم (٣١٩٦٠٠,٠٠٠درهم) و(٣٨١٧٠٠٠دينار) ومن العروض ما ذكر أمام كل إقليم وإذا قوم بلغ شيئاً كثيراً. كان هذا كله يرد إلى بغداد حاضرة الخلافة، ويتصرف فيه الخليفة فيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته ويصرف منه فى الحوادث التى تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقى بعد ذلك كثير يهب منه ما شاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يدور معظمه فى الحاضرة الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفاً. ومن نموذج ما كان يصرف على أيدى الخلفاء ما رواه اليفورى فى أخبار بغداد أنه ورد على المأمون وهو بالشام (٣٠,٠٠٠,٠٠٠درهم) حمله إليه المعتصم من خراج ما يتولاه فخرج المأمون وأصحابه ينظرون إلى ذلك المال فقال ليحيى بن أكثم: يا أبا محمد ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة إلى منازلهم خائبين وننصرف نحن بهذه الأموال قد ملكناها دونهم إنا إذًا للئام ثم دعا محمد بن يزداد (وزيره)فقال: وقع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها فمازال كذلك حتى فرق (٢٤٠٠٠٠٠٠) ورجله فى الركاب ثم قال: ادفع الباقى إلى المعلى يعطى جندنا ـ قال راوى الخبر فجئت حتى قمت نصب عينيه فلم أرد طرفى عنها لا يلحظنى إلا يرانى بتلك الحال فقال: يا أبا محمد وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف ألف لا يختلس ناظرى قال: فلم تأت ليلتان حتى أخذت المال. وهذا عطاء كثير ولكن الوارد أكثر.

الجيش:

ظهور الدولة العباسية على أيدى أهل خراسان والموالى جعل لهؤلاء شأنا عظيماً فى الدولة ومقاماً لا ينقص عن مقام العرب فى اعتزاز الدولة بهم فكانت القواد العظام من أهل خراسان ومن العرب. وقيام دولة المأمون بأهل خراسان زاد مالهم فى تلك الدولة وبقدر ما زادهم نقص من شأن العرب حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان فى عهد المنصور والمهدى والرشيد وصار معظم المرتزقين من الجند إنما هم من أهل خراسان والأبناء، وصار معظم الاعتماد عليهم وظهرت أسماء قواد من عناصر أخرى من أتراك ما وراء النهر. روى الطيفورى أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً فقال يا أمير المؤمنين: انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان قال: أكثرت علىَّ يا أخا الشام والله ما نزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد. وأما اليمن فو الله ما أحببتها ولا أحبتنى قط وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه. وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه ﷺ من مضر. ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً. أعزب فعل الله بك. وهذا تصريح عظيم من المأمون وهو يدل على أن تلك القوة العربية التى كان العالم الإسلامى يحس بوجودها وتخشى الخلفاء

سطوتها وانحرافها قد اتضعت فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملأ من الناس ولما كـان جـيـش الدولـة وهـو الذى يدل على حـقـيقـة أمرها كـان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغـة أما العصبية العربية للعنصـر العربى فقد أشرفت على الإمحاء.

القواد العظام فى عهد المأمون:

أكبر من اشتهر فى عهد المأمون بقيادة الجيوش ويمن النقيبة والصيت طاهر بن الحسين بن مصـعب بن رزيق بن ماهان. كـان جده رزيق مـولى طلحة بن عـبد الله المعروف بـطلحة الطلحات الخزاعى والى سـجستان من مسلم بن زياد بن أبيه والى خـراسان ولا ندرى أكان مولى إسلام أم مولى عتاقـة ويغلب على الظن أنه مولى إسلام أسلم على يده فانتسب إلى قبـيلته ولذلك كان يقـال له الخزاعى وكانوا بقـرية تدعى بوشنج من أعمال مـرو وبها ولد طاهر بن الحسين (سنة ١٥٩) وكان جده مصعب بن رزيق والياً عليها وعلى هراة وكان قبل ذلك كاتباً لسليمان بن كثير الخزاعى داعية بنى العباس.

نشأ طاهر ببوشنج شهماً شجاعاً أديباً وأول مـا أحيا ذكره الخالد أعماله العظيمة التى قام بها فى قواد الكتائب الخراسانية لحرب الأمين والجيوش العراقية فظفر ظفراً عظيماً كما قدمنا وقاد الخلافة للمأمون مذللة فاشتـهر ذكره وطار صيته إلا أن الفضل بن سهل نفس عليه أن ينفرد بتلك الشهرة فـحمل المأمون على تنحيته عن العراق وإرسـاله إلى الجزيرة لحرب نصر بن شبث، ولما شـخص المأمون إلى بغداد ومـات الفضل فى الطريق أمـر المأمون طاهراً أن يلقاه ببغداد فعرف له تلك السابقة وأحله المنزلة التى تليق به وولاه الجزيرة والشرط وجانبى بغداد ومعاون السواد.

كان الذى يتولى خراسـان فى ذلك الوقت غسان بن عباد فبلغ المأمـون أن عبد الرحمن المطوعى جمع جمعاً بنيسابور ليقاتل بهم الحرورية بغير أمر والى خراسان فتخوفوا أن يكون ذلك لأصل عمل عليه وأن يكون بدء نار يستطير شرارها إذا لم تتدارك برجل قوى الشكيمة ناهض العزم يتولى أمـر خراسان ولم يكن بالحضرة من يماثل طاهراً فاخـتاره المأمون لذلك وولاه من حلوان إلى أقصى عمل المشرق فتوجه إلى ولايتـه وساسها أحسن سياسة وأعظم شهادة له ما ذكره الطيفورى عن يحيى بن أكثم عن المأمون أنه كان يقول ما حابى طاهر فى جميع ما كان فيه أحداً ولا مالاً أحداً ولا داهن ولا وهن ولا ونى ولا قصر فى شىء وفعل فى جميع مـا ركن إليه ووثق به فيه أكـثر مما ظن به وأمله وأنه لا يعرف أحـداً من نصحاء الخلفاء وكفـاتهم فيمن سلف عصره ومن بقى فـى أيام دولته على مثل طريقته ومناصـحته

وغنائه وإجزائه قال: كان يحلـف على صدق ما يقول فى ذلك مجتهـداً مؤكداً لليمين على نفسه.

وكان لطاهر استقلال بحكم خراسان يؤدى الخراج عن عمله وعليه والى بريد يكتب إلى المأمـون بأخباره قـالوا: كان طـاهر يتمنى أن يخطب على منبر مرو فـوليهـا (سنة ٢٠٥) وخطب بهم فى سنة سبع ولم يصل بهم إلا ذلك اليـوم فإنه صعد المنبر فـحمد الله وأثنى عليه ولم يدع للمأمـون فكتب والى البريد إلى المأمون بذلك وفى تلك الليلة أصـابته حمى وحرارة فوجد ميتاً على فراشه فكتب صاحب البريد بوفاته ولا نحسب ما ظن بطاهر من أنه أراد خلع المأمون حقاً فإنه لم يكن هناك داع إلى ذلك مطلقاً.

وقـد استـمر ملك البـيت الطاهرى بخـراسان من (سنة ٢٠٥) إلى (سنة ٢٥٩) حـيث سقطت على يد يعقوب بن الليث الصفار وهى أول الدولة استقلالاً بالمشرق وأحسنها علاقة بدولة الخلافة ببغداد والسبب فى دوام هذا الـتحسن أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد ومن أجل ذلك كان الاتصال دائماً بين مرو وبغداد.

عبد الله بن طاهر: ولد عبد الله (سنة ١٨٢) فى خلافة الرشيد ونشأ نشأة مجيدة وكان عمره حين سطع نجم والده فى حوادث المأمون نحو (١٧سنة) فتربى فى كنف المأمون فخرج شهماً نبيلاً أديباً وكان المأمون يحبه حباً جماً وولاه حرب نصر بن شيث بعد انصراف أبيه عن ذلك الوجه فقام بما أمر به خير قيام ورد نصـراً إلى طاعته بعد أن حصره وضيق عليه وكان مع قيـامه بذلك خليفـة لأبيه طاهر فى الشرط وأعـمال بغداد فـاستخلف على ذلك عـمه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب.

ولما فرغ من أمر نصر أمره المأمـون أن يسير إلى مصر لاضطراب كان فيهـا من فتنة عبيد الله بن السرى أمير مصر وفتنة جالية الأندلسيين بالإسكندرية فذهب إليها واستنزل عبيد الله بن السـرى من معاقلـه بعد أن أذله وأجلى الأندلسـيين عما غلبوا عليـه. قال يونس بن عبد الأعلى أحد علماء الحـديث من أهل مصر. قدم علينا من قبل المشـرق فتى حدث - يعنى عبد الله بن طاهر - والدنيا عندنا مفتـونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب والناس منهم فى بلاء فأصلح الدنيا البرئ وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة. وكتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون إذ ذاك يهنئه بذلك الفـتح. بلغنى أعز الله الأمين ما فتح الله عليك وخروج ابن السـرى إليك فالحمـد لله الناصر لدينه المعز لدولة خلـيفته على عـباده المذل لمن عَندَ عنه وعن حـقه ورَغِب عن طاعـته ونسـأل الله أن يظاهر له النعم ويفـتح له بلدان الشرك والحمد لله على مـا وليك به مذ ظعنت لوجهه فإنا ومن قبلنا نتـذاكر سيرتك

في حربك وسلمك ونكثر التعجب لما وفقت له من الشـدة والليان في مواضعهما ولا نعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدلك ولا عفا بعد المقدرة وعمن آسفه واضفنه عفوك ولقلما رأيت ابن شرف لم يلق بيده متكلاً على مـا قدمت له أبوته ومن أوتي حظاً وكفاية وسلطاناً وولاية لم يخلد إلى ما عفا له حتى يخل بمساماة مـا أمامه ثم لا نعلم سائساً استحق النُّجح حسن السيرة وكف معرة الأتباع استحـقاقك، وما يجيز أحد ممن قبلنا أن يقدم عليك أحداً يرى عند إلحـاقه والنازلة المتصلة فليـهنك منة الله ومزيده ويسوغك الله هذه النعـمة التي حواها لك بالمحافظة على مـا به تمت لك من التمسك بحبل إمامك ومولاك ومـولى جميع المسلمين ومـلاك وإيانا بالعيش ببـقائه وأن تعلم أنك لـم تزل عندنا وعند من قبلنا مكـرماً محتمـاً معظماً وقد زادك الله في أعين الخـاصة والعامة جـلالة وبجالة فأصبـحوا يرجونك لأنفسهم ويعدونك لأحداثهم ونوائبهم وأي جور أن يوفقك الله لمحابه. كما وفق لك صنعه بتوفيقه فقد أحسنت جوار النعـمة فلم تطغك ولـم تزدد إلا تذللاً وتواضعاً فالحمد لله على ما نالك وأبلاك وأودع فيك والسلام. وكتب له المأمون كتاباً وكتب في أسفله:

أخـي أنــت ومـــــــولاي	ومـن أشكر نعـــــمــاه
فـــمـــا أحــبـبت من أمــر	فــــأني الـدهـر أهـواه
ومـــــا تـكـره مـن شـيء	فــــإني لست أرضــــاه
لـــك الـلـــه عــلــى ذاك	لــك الـلـه لـك الـلـه

ولما عاد إلى مصر (سنة ٢١٢) ولاه المأمون الجبـال وأرمينيـة وأذربيجان لمحـاربة بابك فصادف أنه مات بعد خروجه طلحة بن طاهر بن الحسين فولاه المأمون مكانه واستمر والياً حتى مات (سنة ٢٣٠) في عهد الواثق.

العلم في عهد المأمون:

كان عـهد المأمـون من أرقى عهـود العلم في العصـر العباسـي وذلك لأمرين الأول أن المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرو فقد جالس كثيراً من العلماء وأخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينيـة كالحديث والتفسير والفقـه واللغة العربية فكان لذلك محباً للعلم ولازدياد نشـره. الثاني: ما كان من الأمة نفسها إذ ذاك حيث وجـد فيها شوق إلى العلم والبحث وكثرة العلماء في كل مصر من أمـصار المسلمين كما سنبينه فتوافق رأي الإمام واستعداد الأمة فكان من وراء ذلك ما نقصه من تقدم حركة العلم ورفعة بغداد.

العلوم التى نريد بيان حالها نوعان: علوم دينية وعلوم عقلية.

أما العلوم الدينية فمنها ما يرجع لأصل الدين وهو علم الكلام أو التوحيد ومنها م يرجع إلى أحكام الأعمال وهى الفقه وأصوله وأدلة تلك الأحكام من القرآن والحديث:

ظهر فى ذلك الوقت جمهور من فطاحل ورؤساء المتكلمين توغلوا فى البحث فى أصول الدين والعقائد وحكموا فى البحث عقولهم فأنتج لهم ذلك اعتقادات تخالف ما عليه عامة المسلمين، وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث وهم الذين يستمدون آراهم من النصوص السمعية كتاب أو سنة أو أثر من آثار السلف وكان أول ما نشأ ذلك الخلاف فى مدينة البصرة وامتد منها إلى بغداد. وجد بالبصرة واصل بن عطاء الغزال ثم عمرو بن عبيد الذى كان المنصور يحبه ويفضله على جميع معاصريه من العلماء حتى قال فيه:

كلكم يمشى رويد كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد

ولما مات رثاه ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه.

ثم أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف وإبراهيم بن سيار النظام وبشر بن غياث المريسى وعمرو بن بحر الجاحظ وثمامة بن أشرس وغيرهم من رؤوس الاعتزال وأصحاب الآراء والأقوال وكانوا يتكلمون فى كثير من مسائل أصول الدين وأهم هذه المسائل التى خالفوا فيها الجمهور (أهل الحديث).

(١) مسألة القدر وأفعال العباد فكانوا يقولون إن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب وأن المقصود بالقضاء والقدر ما يمنحه الله لعباده من التوفيق والخذلان ويقابل ذلك رأى العامة أن أفعال العباد مخلوقة لله ليس للعباد منها إلا جريانها على أيديهم وهذا ما أطلقوا عليه اكتساب العباد.

(٢) صفات الله تعالى فقد نزه المعتزلة الله عن ثبوت صفات قائمة بذاته من القدرة والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام وقالوا إن الله قادر بذاته والذى أداهم إلى ذلك الخوف من تعدد القدماء ويقابل ذلك قول العامة إن الله قدير بقدرة وهى صفة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها. وتفرع عن ذلك قولهم فى القرآن أهو قديم لأنه صفة له جل ذكره كما تقوله العامة أم هو حادث مخلوق لله كسائر المخلوقات لأنه ليس بصفة له بل يخلق الله هذه الحروف والأصوات فى جسم محدث يسمعه النبى منه وهذا عندهم هو الوحى.

هاتان المسألتان أهم ما كان يدور فيه النزاع بين المعتزلة وفقهاء العامة.

وكما كان الاختلاف قد ظهر فى أصول الدين التى تشابه ما ذكرنا كان قد ظهر فى الفقه لذى هو أحكام أفعال العباد فكان من أئمة الفقهاء أهل حديث وأهل رأى كما بيناه فى تاريخ التشريع ووجد من كل من الفريقين علماء أجلاء وفقهاء عظام اعترف لهم الناس بالتقدم ونحوا نحوهم فى التشريع واقتيدوا بهم منهم من سبق عصر المأمون كأبى حنيفة وأصحابه ومالك وأصحابه ومنهم من كان فى أول عصره كالشافعى محمد بن إدريس الذى توفى فى السنة التى دخل فيها المأمون بغداد. والفرق بين هؤلاء فى اختلافهم وبين أولئك أن المستنبطين من الفقهاء كانوا لا ينكر بعضهم على بعض نتائج استنباطهم بل كانوا يرون أن كل مجتهد مكلف أن يعمل بنتيجة اجتهاده وليس له أن يقلد غيره فقد سوغ بعضهم بعض الاجتهاد أما المختلفون فى أصول الدين فكانوا على غير ذلك كل فرقة ترى النقص فى الأخرى، وربما تلعنها فأهل الحديث يقولون عن المعتزلة إنهم مبتدعة فارقوا ما عليه سلف الأمة وما تدل عليه الأخبار والآثار وأولئك يقولون عن أهل الحديث إنهم عامة يتخذون ما يظهرون به حلية لينفقوا أمام العامة وربما نالوا منهم أكثر من ذلك.

وكان هناك اختلافات أخرى ظهر القول فيها وهى مسألة الخلافة ومن يستحقها بعد رسول الله ﷺ فكان الجمهور يرى أن الخلفاء الراشدين مرتبون فى الاستحقاق ترتيبهم فى تولى الخلافة ومن ورائهم أصناف الشيعة يرون أن عليًا هو أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ ثم يستحقها من بعده أولاده وهم مختلفون فى الحكم على من سبق عليًا من الخلفاء فمنهم الغالى ومنهم الهين القول يرى أنهم أخذوا ما ليس لهم ولكن ولوا وعدلوا فلا محل لانتقاصهم ووجد بسبب ذلك شيعتان مختلفتان الإمامية والزيدية ثم تشعبت الطرق بكل من الفرقتين فوجد من كل منهما مذاهب وآراء.

ولم يكن قبل المأمون لأصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة حرية البحث وإظهار الآراء بل كانوا يخشون العامة ولم تكن لهم قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لأن الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة لأن القوة فيها فلما جاء المأمون رأى أن يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث ويجعل لهم مجالس المناظرة ويظهر أنه كان يرمى إلى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأى فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأى وتتفق كلمة الأمة ولا سيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الإمامة.

قال الطيفورى فى تاريخ بغداد قال التغلبى سمعت يحيى بن أكثم يقول أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون

الحديث والعلم فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين قال المأمون يا أبـ
محمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم
فطائفة عابوا علينا ما نقول فى تفضيل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وظنوا أنه لا يجوز
تفضيل علىّ إلا بانتقاص غيره من السلف والله ما أستحل أو قال ما أستجيز أن أنتقص
الحجاج فكيف السلف الطيب. وإن الرجل ليأتينى بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشىء
الذى لعل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه فيقول إن هذا كان للنبى ﷺ أو قد وضع
يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو عندى بثقة ولا دليل على صدق الرجل إلا أنى بفرط
النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ثم أضعه على وجهى وعينى وأتبرك
بالنظر إليه وبمسه فأستشفى به عند المرض يصيبنى أو يصيب من أهتم به كصيانتى بنفسى
وإنما هو عود لم يفعل هو شيئا ولا فضيلة له يستوجب بها المحبة إلا ما ذكر من مس رسول
الله ﷺ له فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه
وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة وعادى العشائر والعمائر والأقارب وفارق الأهل
والأولاد واغترب من داره ليعز الله دينه ويظهر دعوته؟ يا سبحان الله والله لو لم يكن هذا
فى الدين معروفًا لكان فى الأخلاق جميلاً وإن من المشركين لمن يرعى فى دينه من الحرمة
ما هو أقل من هذا معاذ الله مما فطن به الجاهلون. ثم لم ترض هذه الطائفة بالعيب لمن
خالفها حتى نسبته إلى البدعة فى تفضيله رجلا على أخيه ونظيره ومن يقاربه فى الفضل
وقد قال الله جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] ثم وسع
لنا فى جهل الفاضل من المفضول فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا إليه إذ شهدنا لجماعتهم
بالنبوة فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل أمر لو جهله جاهل
رجونا أن لا يكون اجترح إثما ـ وهم لا يقولون بدعة فمن قال بقول واحد من أصحاب
النبى ﷺ وشك الآخر واحتج فى كسره وإبطاله فى الأحكام فى الفروج والدماء
والأموال التى النظر فيها أوجب من النظر فى التفضيل فيغلط فى مثل هذا أحد يعرف شيئا
أو له رؤية أو حسن نظر أو يدفعه من له عقل بل معاند يريد الإلطاط أو متبع لهواه ذاب
عن رياسة اعتقدها وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلسًا اعتقد به رياسة لعله يدعو فئة
لضرب من البدعة ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه فى الأمر الذى قد عقد به رياسة
بدعة ويشيط بدمه وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك إلا أن ذلك أمر لا
رياسة له فسالمه عليه وأمسك عند ذكر مخالفته إياه فيه فإذا خولف فى نحلته ولعلها مما
وسع الله فى جهله أو قد اختلف السلف فى مثله فلم يعادِ بعضهم بعضا ولم يروا فى ذلك
إثما فلعله يكفر مخالفه أو يبدعه أو يرميه بالأمور التى حرمها الله عليه من المشركين دون
المسلمين بغيا عليهم وهم المترقبون الفتن الراسخون فيها لينتهبوا أموال الناس ويستحلوها

ـغلبة وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون يزأرون على الـفتنة زئير الأسد على فراشها ـ ـنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده ومعونته على إتمامه سببا لاجتماع هذه ـطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين. إما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعا وإما معاند ـرد بالعدل كرها.

وروى أيضا عن بشر المـريسى قال حضرت عبـدالله المأمون أنا وثمامة ومـحمد بن أبى نعباس وعلىّ بن الهـيثم فتناظروا فى التشيع فنصر مـحمد بن أبى العباس الإمـامية ونصر علىّ بن الهـيثم الزيدية وجـرى الكلام بينهـما إلى أن قـال محـمد لعلىّ يا نبطى مـا أنت ـلكلام. فقـال المأمون وكان مـتكئًا فـجلس: الشتم عىّ والبذاءة لؤم إنا قـد أبحنا الكلام ـأظهرنا المقالات فمن قال بالحق حمدناه ومن جهل ذلك وقفناه ومن جهل الأمر حكمنا فيه ـ يجب فاجعلا بينكما أصلا فإن الكلام فروع فإذا افترعتم شيئًا رجعتم إلى الأصول.

فيستفاد من هذين الخبرين أمور جديرة بإمعان النظر..

١ ـ أن المأمون أباح الكلام وأظـهر المقالات لدرجـة قلما تجدها فى أمـة وما ظنك بخليـفة عباسى تناظر فى مجلسه اثنان فى الإمامية فينصر أحدهما الإمامية والثانى الزيدية وهذان المذهبان كلاهما إن صحا يذهبان بما فى أيدى آل العباس من الإمامية ولم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهم.

٢ ـ أن طوائف من الناس عـابت ذلك على المأمون لأنـه علم منه الموافقـة على بعض آراء تخالف رأى العامـة كما كان مذهبه فى تفـضيل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه على سائر الخلفاء واتهمـوه بسبب ذلك بما هو منه برىء وهو انتقاص غيـره من الصحابة وقد دافع المأمون عن نفسه فى ذلك بما يغلب على الظن أنه صادق فيه.

٣ ـ أن المأمون كـان يرى فى علماء وقـته أنهم إنما كانوا ينكرون مـا ينكرون فى الآراء التى كانت لهـم سبب رياسة ولو كـانت تافهـة لا يترتب عليـها فى الدين أثر ويغـفرون لمن خالفهم فى الأمور الجسيمة التى تترتب عليها الآثار العظيمة ما دامت لا ترتبط بشىء مما يعتقدون به رياسة عند العامة.

٤ ـ أن المأمون كان يظن أن بمجلس المناظرة هذا يتوصل إلى إزالة الخـلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه فإن الشاكّ يتبين أو يتثبت والمعاند يُكْرَه.

وهذا الذى فعله المأمون أول تجربة وآخـرها لأنه لم يفكر أحد ممن قبله فى مثل هذا ولما نتهت تجربته بالفشل لم يعد أحد الخلفاء إلى مثله.

كانت قوة فـقهاء العامـة محكمة العرى لأن العـامة كانت تجلهم وتحتـرم آراهم كما أن الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور، ويقفون ضد من يعلن مخالفتها. أدت المناقشات الكثـيرة التى بين يدى المأمـون إلى أنه كان يرى بـعض آراء المعتـزلة لا كلها فـإنه لم يكن قدريًا. روى الطيفورى عن محمد بن إسـحاق بن إبراهيم اليزيدى أنه سمع ثمامة يقول إن المأمون عامى لتركه القول بالقدر، وإنما الذى صار إليه من آرائهم القول بخلق القرآن وأظهر رأيه ذلك (سنة ٢١٢) وكان يظن كما قدمنا أنه متى أعلن رأيه للعلمـاء وفقهاء الأمة يجيبوه إلى إعلان رضـاهم به، فكانت النتيجة عكـس ما ظن فإنهم تكلموا فـيه وقالوا إنه مبـتدع وغلا بعضهم فى ذلك فقال بكفـر من رأى خلق القرآن وبذلك تجسمت هذه المسألة التى لم تكن تستـحق تجسيـمًا إذا نظر إليهـا بشىء من التدقيق. ولم تكن هنـاك أشياء أخرى غير المسألة العلمية توسع مسافة الخلاف بين المأمون ومن شايعه وبين فقهاء الجمهور.

مرت سنوات أربع والخلاف يتسع والكلام من الفريقين فى الآخر يزيد حتى كانت (سنة ٢١٨) فرأى المأمون أن يستعين بـسلطانه فى رد الفقهـاء إلى رأيه حتى لا يكون معترفًا بنفسه فيما شرع فيه فكتب كتابًا وهو غاز إلى إسحاق بن إبراهيم عامله على بغداد (محافظها) يبين فيه أن واجبه بصفته إمامًا للمسلمين أن يجـتهد فى إقامة الدين ثم ذكر ما عليه الجمهور من حشو الرعية وسفلة العامة من الجهالة بالله حتى ساووا بينه وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم مع النصـوص الدالة على خلاف ذلك ثم قال (ثم هم الذين جـادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السُّنة وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليـهم قولهم ونحلتهم. ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعـة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فـاستطاعوا بذلك على الناس وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله والتقشف لغيـر الدين إلى موافـقتهم عليـه ومواطأتهم على سىء آرائهم تزينا بذلك عنـدهم وتصنعًا للرياسة والعـدالة فيهم، فـتركوا الحق إلى باطلهم واتخـذوا دين الله وليجة إلى ضـلالتهم فقبـلت بتزكيتـهم لهم شهادتهم ونفذت أحكام الكتـاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمهم وفساد نياتهم ويقينهم وكان ذلك غايتهم التى إليها جروا وإياها طلبوا فى متابعتهم والكذب على مولاهم) وبعد أن أعطاهم مـا يستحقون على رأيه من مثل هذه القـوارع قال لإسحق (فاجمع بحـضرتك من القضاة واقرأ عليهم كـتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامـتحانهم فيما تقولون وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيمـا قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمـير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى

والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومساءلتهم عن عملهم فى القرآن وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره والامتناع من توقيعها عنده واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين والإخلاص للتوحيد واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله). وكتب فى شهر ربيع الأول (سنة ٢١٨).

وكتب إلى إسحاق أن يشخص إليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور منهم محمد بن سعد كاتب الواقدى ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وأحمد بن إبراهيم الدورقى فأشخصوا إليه فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوه جميعًا أن القرآن مخلوق فأشخصهم إلى مدينة السلام وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم.

وكتب المأمون إلى إسحاق كتابًا ثانيًا زاد فيه على الكتاب الأول قال فيه فى صفة من خالفوه. (وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظًا فى الدين ولا نصيبًا من الإيمان واليقين ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة فى أمان ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق فى قول ولا حكاية ولا تولية شىء فى أمر الرعية).

فجمع إسحاق نحو ثلاثين رجلا من هؤلاء العلماء وهذا نموذج من أجوبتهم لإسحاق.

قال لبشر بن الوليد ما تقول فى القرآن ـ فقال قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة ـ قال فقد تجد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ـ قال ـ أقول القرآن كلام الله ـ قال لم أسألك عن هذا أمخلوق هو ـ قال الله خالق كل شىء ـ قال أما القرآن شىء ـ قال هو شىء ـ قال فمخلوق هو ـ قال ليس بخالق ـ قال ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو ـ قال ما أحسن غير ما قلت لك وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندى غير ما قلت لك.

وقال لعلىّ بن أبى مقاتل يا علىّ ـ قال قد سمعت كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غير مرة وما عندى غير ما سمع ـ فقال له القرآن مخلوق ـ قال القرآن كلام الله ـ قال لم أسألك عن هذا ـ قال هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا.

وقال لأبى حسان الزيادى القرآن مخلوق هو ـ قال القرآن كلام الله ـ والله خالق كل شىء وما دون الله مخلوق وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم وقد سمع ما لم

نسمع وعلم ما لم نعلم وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدى إليه زكة أموالنا ونجاهد معه ونرى إمامته إمامة وإن أمرنا ائتمرنا وإن نهانا انتهينا وإن دعانا أجبنا ـ قال القرآن مخلوق هو ـ فأعاد إليه حسان مقالته ـ قال إن هذه مقالة أمير المؤمنين ـ قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتنى فإنك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شىء فإن أبلغتنى عنه بشىء صرت إليه ـ قال ما أمرنى أن أبلغك شيئًا ـ قال قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فى الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها.

وكان إسحاق يكتب مقالة كل قائل فلما أتم امتحانهم جميعًا أرسل إلى المأمون نتيجة الامتحان ولما رأى المأمون هذه المحاولة منهم غاظه ذلك وكتب فى شأنهم كتابا ثالثا قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع وذكر كل واحد منهم بما يعلمه فيه من النكوب عن الجادة فى عمله أو خلقه كأنه يعرف دخائل كل منهم معرفة خبير فمن ذلك قوله:

وأما الذيال ابن الهيثم فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الأنبار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبى العباس ما يشغله، وأنه لو كان مقتفيًا آثار سلفه وسالكا مناهجهم ومحتذيا سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يقف أمير المؤمنين على ما كان منه بمصر وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة وما شجر بينه وبين المطلب بن عبدالله فى ذلك فإنه من كان شأنه شأنه وكانت رغبته فى الدنيا والدرهم رغبته فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعًا فيهما وإيثارًا لعاجل نفعهما وأنه مع ذلك القائل لعلىّ بن هشام ما قاله والمخالف له فيما خالفه فيه، فما الذى حال به عن ذلك ونقله إلى غيره.

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها إياه عبدالرحمن بن إسحاق وغيره تربصا بمن استودعه وطمعًا فى الاستكثار لما صار فى يده ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الأيام، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيرًا عن تقويتك مثل هذا وإيمانك إياه وهو معتقد للشرك منسلخ عن التوحيد.

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبى معمر فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم فى الله ومجاهدتهم إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا وصاروا للنصارى مثلا؟

وأمـا سعـدويه الواسطى فقل له قـبح الله رجـلا بلغ به التصـنع للحديث والتـزين به والحرص على طلب الـرياسة فيـه أن يتمنى وقت المحنة فيـقول بالتقـريب بها مـتى يمتحن فيجلس للحديث.

وأما المعـروف بسجادة وإنكاره أن يكون سـمع ممن كان يجـالس من أهل الحديث وأهل الفقه القـول بأن القرآن مـخلوق، فأعلمـه أنه فى شغله بإعـداد النوى وحكمـه لإصلاح سجادته وبالودائع التى دفـعها إليه على بن يحـيى وغيره ما أذهله عن التوحـيد وألهاه، ثم سله عـما كـان يوسف بن أبى يوسف ومـحـمد بن الحسن يقـولانه إن كـان شاهدهمـا وجالسهما.

وقد ذكر مـثل ذلك فى غير هؤلاء، وخلاصة ما يطـلب فى هذا الكتاب أنه ذكر رجلين هما بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدى أمره أن يستتيـبهما فإن تابا أشهر أمرهما وإلا ضرب أعناقهما، أما من عداهما فإن لم يقولوا بخلق القرآن حملهم جميعا موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين. وقال فى ختـام هذا الكتاب ـ وقد أنفذ أمير المؤمنين كـتابه هذا فى خريطة بندارية لم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلا به تقربا إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد وإدراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله وكتب (سنة ٢١٨).

فأحضرهم إسحاق مرة ثانية وسألهم فـأجابوه أن القرآن مخلوق ما عدا أربعة منهم فأمر بهم فشدوا فى الحديد وفى اليـوم الثانى أعاد عليهم المحنة فأجابه واحـد من الأربعة فأطلقه وفى اليوم الثالث فعل كـذلك فأجابه ثان وبقى اثنان صمما على عدم الإجـابة وهما أحمد بن حنبل ومحـمد بن نوح فوجـه بهما إسحـاق إلى طرسوس. وبعد ذلك ورد كـتاب من المأمون على إسحاق يقول له فيه إن سليمان بـن يعقوب صاحب الخبر كتب إليه أن بشر بن الوليد تأول الآية التى أنزلها الله تعالى فى عمار بن ياسر إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ـ وقد أخطأ التأويل ـ إنما عنى الله عز وجل بهذه الآية من كان مـعتقد الإيمان مظهر الشرك فأما من كان يعتـقد الشرك مظهر الإيمان فليست هذه له، فأشخصهم جـميعًا إلى طرسوس ليقيموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم فأشـخصهم جميعا ولما وافوا الرقة بلغهم وفاة المأمون فأقامهم والى الرقة بها ثم أعيدوا إلى مدينة السلام.

هذه كانت النتـيجـة لما شرع فيـه المأمون وهى نتيـجة تضاد مـا قصده مـن تأليف القوم وجمعـهم على رأى واحد فيمـا اختلف فيه من المسـائل وقد كبر الخـلاف فى مسـألة من أهون المسـائل وأيسـرها حلا، ولكن المأمون قـال إن أصغر المسـائل متى كان أسـاسا لنحلة

أو سبباً لرياسة فإن الخلاف يعظم بسببه أما أعضل الأمور فإن الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلاً إذا لم يكن أساساً لنحلة أوسبباً لرياسة وهذا يكاد يكون صحيحاً ,ومع اعترافنا بأن الخلاف لا محل له فى هذه المسالة لا نرى للمأمون حقاً وهوسلطان الأمه يصادرها فيم تعتقد على الشكل الذى سَنَّهُ مما بيناه.

وليعلم أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون فى مسألة القرآن أهمل المحدثون أمرهم وأنزلوا رتبهم وعدوا ذلك عيباً من عيوبهم وقد كاد إمام المحدثين البخارى يصيبه أثر من آثار هذه النكبة فإن فريقاً من العلماء رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه فكان يقول لفظى بالقرآن مخلوق وكان البخارى ممن يقول بذلك فاضطهده محمد بن يحيى الذهلى إمام المحدثين بنيسابور حتى خرج البخارى عنها خوفاً من العامة أن تبطش به وكذلك ترك مسلم بن الحجاج مجلس محمد بن يحيى من أجل ذلك فإنه لما سمع محمداً يقول من قال لفظى بالقرآن مخلوق فلا يقربن مجلسنا، أخذ كساءه وخرج. أما الذين وقفوا فى المحنة وثبتو على آرائهم ولم يتساهلوا فإنهم استحقوا من العناية والتكريم ما لا مزيد عليه والعلم المفرد فيهم هوالإمام أحمد بن حنبل، فإن هذه الحادثة شرفته بين القوم شرفاً عظيماً.

ولم يكتف المأمون بما كان فى حياته بل أوصى إلى أخيه المعتصم الذى استخلفه من بعده بأن يسير بسيرته فى القرآن فلم يجد المعتصم بداً من أن يتبع هذه الوصية مع أنه لم يكن فى ميدان العلم كبير جولة ولكن وصية أخيه وبقاء رؤوس الاعتزال بجانبه جعلاه يتشدد فى الأمر فأحضر أحمد بن حنبل وعرض عليه أن يقول كما قال غيره من العلماء فصمم على إنكار أن يكون القرآن مخلوقاً ولم يثنه عن ذلك ما لقيه من الضرب والتعذيب فى مجلس المعتصم نفسه وكان أحمد يتردد بين ذلك وبين ضيق المحبوس وهوصابر محتسب.

وقد اتبع الواثق سيرة أبيه وعمه فى هذه المحنة وبسببها حصلت فتنة أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعى ومالك بن الهيثم كان أحد نقباء الدعوة العباسية وكان أحمد يغشاه أصحاب الحديث وكان يظهر المباينة لمن يقول القرآن مخلوق مع منزلة أبيه من السلطان فى دولة بنى العباس. ويبسط لسانه فيما يقول ذلك مع غلظة من الواثق كانت على من يقول ذلك وكان أحمد إذا تكلم عن الواثق يقول ألا فعل هذا الكافر فحركه المطيفون به من أهل الحديث وحملوه على الحركة لإنكار القول بخلق القرآن وقصدوه دون غيره لما كان لأبيه وجده فى دولة بنى العباس من الأثر فرجوا استجابة العامة له والتفافهم عليه فيقال إنه أجاب إلى ذلك وسعى له فى دعاء الناس رجلان ممن كان يغشاه فنجحا وألفا فرقتين إحداهما بالجانب الشرقى والأخرى بالجانب الغربى من بغداد واتعدوا ليلة ليضربوا فيه

ضيولهم للاجتـماع صبيحـتها للوثوب بالسلطان فاتفق أن بعض المحافـظين على الطبل انتبذ
يذاً فلما أخذ منه ضرب على الطبل قبل الموعد المضـروب بليلة فانتبه لصوت الطبل محمد
بن إبراهيم بن مصعب خليفـة صاحب الشرطة فأرسل يسأل عن سببه وبعـد التدقيق عرف
سر المؤامرة فتتـبع القوم من ليلتهم فأخذوا وصيروا إلى الحبس وقـبض على أحمد بن نصر
يضاً وحمل رؤوس القوم إلى الواثق بسامرا فجلس لهم الواثق مـجلساً عاماً لامتحانهم ولما
حضروا إليه لم يناظر الواثق أحمد بن نصـر فى الشعب ولا فيما رفع إليه من إرادة الخروج
عليه لكنه سـأله ما تقول فى القـرآن ؟ قال هوكلام الله ولم يزد على ذلك وبعـد أخذ ورد
تمنى الحاضرون بقتله فـقام الواثق إليه بنفسه وقتله وصلب جسمـه بسامرا وحمل راسه إلى
بغداد فنصب بهـا فى الجانب الشرقى وجـعل فى أذنه رقعة فـيها هذا رأس الكافـر المشرك
لضال وهوأحـمد بن نصر بن مـالك ممن قتله الله على يدى عبـد الله هارون الإمام الواثق
بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة فى خلق القرآن، ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة
ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح والحمد لله الذى عجل به إلى ناره
وأليم عقابه، وأن أمـير المؤمنين سأله عن ذلك فأقره بالتشبيه وتكلم بالكفر فاستحل أمير
لمؤمنين دمه ولعنه.

وممن حـمل إلى الواثق فى هذه المحنة من علمـاء مـصـر أبويعقـوب يوسف بن يحـيى
لبويطى أكـثر أصـحاب الإمام الشـافعى رضى الله عنه نمى إلى الواثق أنه لا يـقول بخلق
لقرآن، فأرسل إلى والى مصر فى امتحانه فـامتحنه فلم يجب وكان الوالى حسن الرأى فيه
فقال له قل فيما بينى وبينك قال إنه يقـتدى بى مائة ألف ولا يدرون المعنى، فلما امتنع أمر
لواثق بحمله فحمل وسجن ببغداد حتى مات فى سجنه (سنة ٢٣١).

واستمرت هذه المشكلة، حتى ملها الواثق نفسه وتمنى لويجد مخرجاً وانتقلت المسألة من
لجد إلى الهزل ودخل عـبادة المضحك على الواثق فقال: يا أمـير المؤمنين أعظم الله أجرك
فى القرآن قـال: ويلك القرآن يموت قـال: يا أمير المـؤمنين كل مخلوق يموت بالله يا أمـير
لمؤمنين من يصلى بـالناس التراويح إذا مـات القـرآن فـضحك الواثق وقـال قـاتلك الله -
أمسك.

وجئ الواثق بشـيخ مقيـد فسـأله ابن أبى دؤاد عن قوله فى القـرآن فقال له الـشيخ لم
تنصفنى المسألة أنا أسألك قبل الجواب هذا الذى تقوله يا ابن أبى دؤاد من خلق القرآن شىء
علمه رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر وعثـمان وعلى رضى الله عنهم أوجهلوه - فقال بل
علموه قال فـهل دعوا عليه الناس كما دعـوتهم أنت أوسكتوا - قال بل سكتوا - قـال فهلا

وسعك ما وسعهم من السكوت ـ فسكت ابن أبى دؤاد وأعجب الواثق كلامه وأمر بإطلاقه، وقال وهو يقول هلا وسعك ما وسعهم يكرر هذه الكلمة.

كانت تلك الحوادث مما أخمد نار المحنة، ولذلك لما جاء المتوكل بعد الواثق أمر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون وحسناً فعل وقد استحق المتوكل ثناء الجمهور العظيم بسبب ذلك وتجاوزوا له عما كان من هفواته.

يمكن القول بأن هذه المجالس التى تعقد للمناظرة رجاء الوصول إلى الوفاق إنما تقر الخلاف وتؤكده لا تزيله متى اتصل بهذا الخلاف شىء من الرياسة فى الدنيا. وتاريخ المجامع والمجالس التى كان من شأنها البحث فى الأمور الدينية شاهد بذلك.

علوم الصناعات:

كما كانت للمأمون جولة فى العلوم الدينية كانت له جولة فى العلوم الصناعية وقد كان أثره فى هذه أظهر من أثره فى تلك كما يتبين مما يأتى:

كانت الأمة العربية أمة أمية لا تتعلق بشىء من الصناعات ولا العلوم إلا قليلاً كما بينا فى خلاصة تاريخها فى الجزء الأول، فلما جاءها الإسلام لم يكن لها مجال فى العلوم لأنها كانت فى دور التكوين وذلك محتاج إلى استعمال ما عندها من القوة والفكر فى سبيل ذلك فانقضت مدة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم فى الفتح وتأسيس المملكة وتمهيد طريق الدعوة إلى الدين وكانت الحال كذلك فى صدر الدولة الأموية إلا أنه وجد من رجالهم فى أوسط أدوارها من عنوا ببعض الصناعات التى كانت فيمن سبقهم من الأمم واهتموا بترجمة كتب منها وأول من عرف اسمه فى ذلك خالد بن يزيد بن معاوية الذى كان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً فى نفسه وله همة ومحبة للعلوم خطر بباله الصنعة «الكيمياء» فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة. ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية إلى العربية فى أيام الحجاج نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم كما قدمنا ذلك فى تاريخ بنى أمية، ثم نقل ديوان الشامى إلى العربية فى زمن هشام بن عبد الملك نقله أبوثابت سليمان بن سعد مولى حسين.

وكانت الدولة الأموية أقرب إلى من قبلها فى السذاجة الصناعية فلم يكن لترجمة

لكتب فيها كبـير حظ ولا عظيم أثر. فلما جاءت الدولة العباسية كـانت اختلاطها بالفرس كثر لأن دولتهم بالخـراسانيين والموالى قامت وهذا الاختلاط جعل نفوس العبـاسيين تصبوا إلى الاطلاع على شيء مما عند الفـرس واليونان من آثار متقـدميهم من العلمـاء والحكماء والفلاسفـة وكان أول من عنى بترجمـة شيء من هذه الكتب أبوجعفر المنصـور ثانى خلفاء العباسـيين وكان الذى قام بترجـمة الكتب له طبيبه جـورجس بن جبرائيل الذى كان طبـيباً بيمارستان جند نيسابور ثم طلبه المنصور إليه (سنة ١٤٨) ليعالجه فحظى عنده حظوة عظيمة وترجم له كتباً كثيرة من اليـونانى إلى العربى. والبطريق قال فى طبقات الأطباء إن المنصور أمره بنقل أشـياء من الكتب القديمة وله نقل كثـير جيد إلا أنه دون نقل حنـين بن إسحاق. وقد وجدت بـنقله كتب كثيـرة فى الطب من كتب أبقراط وجـالينوس وترجم له ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية وترجم كتاب السند هند وكتاب المجسطى لبطليموس وكتاب إقليدس فى الهندسة وغير ذلك إلا أن العناية لم تبذل كثيراً فى الحصول على الكتب المفيدة حتى تترجم وتشغل بها الأمة.

فلمـا كان فى زمن هارون الرشـيد وغلب على بعض المدائن الـرومية الـكبرى كأنـقرة وعمـورية عثرعلى كنز ثمين من كـتب اليونان فأمر أن تتـرجم له فترجـمت وبذلك كانت حركة التـرجمة أقوى منهـا فى عهد المنصور وكـان للبرامكة يد طولى فى الترجـمة وعون المترجمين عليه بما كانوا يدرونه عليهم من الأرزاق.

ولما ولى المأمون كـان قد تأثر فكره بما قرأ من هذه الكـتب وأحسن بنفعـها فقوى حـركة الترجمة ونشطها تنشيطاً أساسه الاقتناع بالفائدة وساعده الجود والبذل فى هذا السبيل حكى ابن النديم فى الفهرس أن المأمون رأى فى منامه كـأن رجلاً أبيض اللون مشرباً حمرة واسع الجبهـة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العـينين حسن الشمائل جـالس على سريره قال المأمون وكـأنى بين يديه قد ملئت له هيبـة فقلت من أنت قال أنا أرسطاطاليس فـسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك قـال: سل، قلت: ما الحسن، قال ما حـسن فى العقل قلت ثم ماذا قال ما حـسن فى الشرع قلت ثم ماذا قال ما حسن عند الجمـهور قلت ثم ماذا قال ثم لا. ثم لا ـ وفى رواية أخرى قلت زدنى قال من نصحك فى الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد ـ قالوا فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب ـ وإذا صحت هذه الحكاية فهذه الرؤيا أثر لشغف المأمون بأرسطاطاليس وتعاليمه.

كان بين المأمون وملك الروم مراسلات وقـد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما عـنده من مختار العلوم القديمة المخزومة المـدخرة ببلد الروم فأجاب

إلى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج[١] بن مطر وابن البرطيق[٢] وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله وقيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم.

ولم تكن هذه العناية قاصرة على المأمون وحده بل كان لتعهده جماعة ذو يسار اعتنوا جد العناية بنقل هذه الكتب إلى اللسان العربي ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن بنوشاكر المنجم بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسية والموسيقى والأرتماطيقا والطب. قال أبوسليمان المنطقي السجستاني إن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم في الشهر نحو(٥٠٠دينار) للنقل والملازمة. وقال ابن النديم في موضع آخر هؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني فأظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل والحراكات والموسيقى والنجوم وهو الأقل وتوفي محمد بن موسى (سنة ٩٥) في شهر ربيع الأول، ثم ذكر الكتب التي ألفوها، وقال ابن خلكان ومما اختصوا به في ملة الإسلام وأخرجوه من القول إلى الفعل وإن كان أرباب الأرصاد المتقدمون على الإسلام قد فعلوه لكنه لم ينقل أن أحداً من أهل الملة تصدى له وفعله إلا هم وهوأن المأمون كان مغرماً بعلوم الأوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الأرض (٢٤٠٠٠ميل) كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع (٨٠٠٠فرسخ) بحيث لووضع طرف حبل على أى نقطة كانت من الأرض وأدرنا الحبل على كرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض التقى طرفا الحبل فإذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله (٢٤٠٠٠ميل) فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بني موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعي فقال أريد أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أولاً - فسألوا عن الأراضي المتساوية في أي البلاد هي فقيل لهم صحراء سنجار في غاية الاستواء وكذلك وطآ الكوفة فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار وجاءوا إلى الصحراء المذكورة فوقفوا في موضع منها فاخذوا

(١) قال في طبقات الأطباء: الحجاج بن مطر نقل للمأمون، من نقله كتاب إقليدس ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني.

(٢) قال في الطبقات: يحيى بن البطريق كان في حملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وإنما كان لطينيًا يعرف لغة الروم وكتابتها وهي الحروف المتصلة لا اليونانية القديمة.

ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات وضربوا فى ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان فلما فـرغ الحبل نصبوا فى الأرض وتداً آخـر وربطوا فيه حبلاً طـويلاً ومشوا إلى جهة الشـمال أيضاً كفعلهم الأول ولم يزل ذلـك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخـذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفـاع الأول درجة فمسحوا ذلك القدر الذى قدروه من الأرض بالحبال فبلغ ٦١,٣/١ ميـلاً فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الأرض ٦١,٣/١ ميلاً. عادوا إلى الموضع الذى ضـربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه حـبلاً وتوجهوا إلى جهـة الجنوب ومشوا على الاستقـامة وعملوا كما عـملوا فى جهة الشمال من نصب الأوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التى استعملوا فى جهة الشمال ثم أخذوا الارتفاع فوجـدوا القطب الشمالى قد نقص عن ارتفاعه الأول درجـة فصح حسابهم وحققوا ما قـصدوا من ذلك ـ وهذا إذا وقف عليه من له يد فى علم الهيئة ظهـر له حقيقة ذلك ومن المعلوم أن عـدد درج الفلك ٣٦٠° لأن الفلك مقسـوم باثنى عشـر برجاً كل برج ٣٠° فتكون الجملة ٣٦٠° فضربوا عـدد درج الفلك فى ٦٦,٣/١ ميلاً التى هى حصة كل درجـة فكانت الجملة ٢٤٠٠٠ وهى ٨٠٠٠ فـرسخ (الميل ١/٢ ١٦٦٦,٠ مـيلاً والفـرسخ ٥٠٠٠م) وهذا محقق لا شك فيـه فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخـبروه بما صنعوا وكان موافقاً لما رآه فى الكتب القديمة من استخراج الأوائل طلب تحقيق ذلك فى موضع آخر فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كـما فعلوا فى سنجار فتـوافق الحسابان فعلم المأمون صحـة ما حرره القدماء فى ذلك. وممن كان ينقل لهم حنين بن إسحاق العبادى وكان فاضلاً فى صناعة الطب فصيحاً باللغة اليونانية والسريانية والعـربية والفارسية دار البلاد فى جميع الكتب القديمة ودخل بلد الروم وأكثر نقوله لبنى موسى ونقله فى غاية الجودة وكانت وفاته (سنة ٢٦٠).

وكان هناك كثير غير بنى شاكر يحـذون حذوهم ذلك فكثرت الكتب المترجمة فى جميع العلوم الصناعية ولما نقلت إلى العربيـة اشتغل بها الناس كثيراً علماً وعملاً فـفسروا مغلقها وأصلحوا خللـها ووجد منهم فـلاسفة عظام ألفـوا كتـباً عظيمـة فى هذه العلوم منهم من صميم العرب يعقوب بن إسحاق الكندى ينتـهى نسبه إلى الأشعث بن قيس بن معد يكرب ثم إلى كندة وكان عظيم المنزلة عند المأمون وعند المعتصم وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة جداً فى جميع العلوم ونقل فى طبقات الأطبـاء عن سليمان بن حسان أنه كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحـساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبـائع الأعداد وعلم النجوم، ولم يكن فى الإسلام فيلسوف غيره احتذى فى تآليفه حذو أرسطو طاليس وله تآليف كثيرة فى فنون العلم وخدم الملوك فباشرهم بالأدب وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها

المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص. وقال أبومعشر فى كتاب المذكرات لشاذان: حذاق التراجمة الإسلام أربعة حنين بن إسحاق ويعقوب بن إسحاق الكندى وثابت بن قرة الحرانى وعمر بن الفرخان الطبرى وقد ذكر فهرس كتبه فى نحوخمس صفحات فى علوم شتى.

وإنما ذكرنا هذا لندل على أن الأمة كانت فى استعداد تام لتلقى هذه الكتب والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فيها فنفقت بسبب ذلك هذه العلوم واشتغل بها المتعلمون فى بغداد حاضرة الخلافة وفى غيرها من الحواضر ولم يقفهم عن التقدم كلمات العلماء من أهل الحديث التى كانت توجه إليهم أحياناً خفية لمكان الخليفة منهم فقد كان هوالمساعد الأكبر فى نفاق هذه العلوم.

فالمأمون يعد فى الحقيقة حامل لواء هذه العلوم وسبب تلك الحركة الكبرى التى وجدت فى الأمة الإسلامية مع حفظ الفضل لمن سبقه فى ذلك كأبيه الرشيد وجده المنصور فإنهما وضعا الأساس وهو حذا حذوهم إلا أنه فاقهم فى الاهتمام والعزم.

الأحوال الخارجية:

لم يكن بين المسلمين والروم حروب فى أول عهد المأمون إلى (سنة ٢١٥) وفيها شخص المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم فى المحرم (مارس سنة ٨٣٠) واستخلف على المدينة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وسلك طريق الموصل حتى صار إلى منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة ومنها خرج إلى طرسوس وهى الثغر الإسلامى ومن طرسوس دخل إلى بلاد الروم فى منتصف جمادى الأولى (يولية سنة ٨٣٠) ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه. ولما تم فتحه اشترى السبى بستة وخمسين ألف دينار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم ديناراً ديناراً ـ وكان قبل ذلك الفتح حصناً اسمه ماجدة فمنَّ على أهله ـ ثم أرسل أشناس إلى حصن سندس فأتاه برأسه ـ ووجه عجيفاً وجعفراً الخياط إلى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع.

وبعد ذلك شخص إلى الشام وهناك ورد الخبر عليه بأن ملك الروم قتل قوماً من أهل طرسوس والمصيصة عدتهم فيما يقال (٦٦٠٠) فأعاد الكرة على بلاد الروم فنزل على أنطيفوا فخرج أهلها على صلح وصار إلى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه إسحاق فافتتح ثلاثين حصناً ووجه يحيى بن أكثم من طوانة فأغار وغنم ورجع إلى العسكر ـ ثم خرج المأمون إلى كيسوم ثم إلى دمشق ومنها خرج إلى مصر فى (١٦ذى الحجة سنة ٢١٦) ثم عاد منها إلى دمشق (سنة ٢١٧) فدخل أرض الروم ثالث مرة فأناخ على لؤلؤة

مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفاً فاختدعه أهلها وأسروه فمكث أسيراً فى أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه وسار توفيل إلى لؤلؤة فأحاط بعجيف فصرف المأمون الجنود إليه فارتحل توفيل لموافاتهم وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بالأمان.

وكاتب ملك الروم المأمون فى سفرته هذه وأجابه المأمون على كتابه وهذه نسخة كتابيهما.

كتب ملك الروم إلى المأمون: أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حفظهما أولى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما ولست حرياً أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك وفى علمك كان عن أخبارك وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً فى فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ويكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح فى المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة فإن أبيت فلا أدب لك فى الخمر ولا زخرف لك فى القول فإنى لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها شان عليك خيلها ورجلها وإن أفعل فبعد أن قدمت إليك المعذرة وأقمت بينى وبينك علم الحجة والسلام.

رد المأمون: أما بعد فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من فسح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة وأن لا أعتقد الرأى فى مستقبله إلا فى إصلاح ما أوثره فى معتقبه لجعلت لجواب كتابك خيلاً تحمل عن أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن تكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ثم أوصل لهم من الأمداد وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم موعدهم إحدى الحسنيين عاجل غلبة أو كريم منقلب غير أنى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة وإن تركت ذلك ففى يقين المعاينة لقوتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراق فى الصفة والسلام على من اتبع الهدى.

شخص المأمون إلى الرقة (سنة ٢١٧) وفى هذه السنة فى جمادى (يونية سنة ٨٣٣) سير ابنه العباس إلى أرض الروم وأمره بنزول الطوابة وبنائها فابتدأ البناء بناها ميلاً فى ميل وجعل سورها على ثلاثة فراسخ وجعل لها أربعة أبواب وبنى على كل باب حصناً. ثم سار المأمون بعده إلى بلاد الروم فدخلها من ناحية طرسوس وهناك كانت وفاته كما يأتى:

أخلاق المأمون:

أول ما ظهر من حلى المأمون ميله للعفو وكراهته للانتقام فإنه عفا عن جميع من ساعدوا خصومه عليه ولم يهجهم بشيء حتى الفضل بن الربيع الذى أخذ قواده وسلاحه وجنوده وجميع ما أوصى به أبوه له فذهب به إلى الأمين وتركه بمرو مجرداً عن كل ذلك ثم أفسد عليه أخاه وأغراه على خلعه وكان أشد عليه من كل شيء ومع هذا لم يؤاخذه بجرمه ولما دخل على المأمون وأعلنه المأمون بالعفو سأله الرضا فقال المأمون: أجل العفو لا يكون إلا عن رضا وسجد المأمون شكراً لله على أنه ألهمه نعمة العفو عنه وقال: الحمد لله قديماً كنت أسلم عليه فأفرح برده فسبحان الذى ألهمنى الصفح عنه فلذلك سجدت قال طاهر بن الحسين: فعجبت لسعة حلمه. وقال زيد بن علىّ بن الحسين: جلس المأمون يوما للغداء وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه إذ انهملت عين المأمون فلما سئل عن سبب بكائه قال: ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت به لأحد ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته وذكر نعمته التى أتمها علىّ كما أتمها على أبوتى من قبلى أما ترون ذاك الذى فى صحن الدار (يعنى الفضل بن الربيع) كان في أيام الرشيد وحاله حاله يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن وكان له عندى كالذى لىّ عنده ولكنى أداريه خوفاً من سعايته وحذراً من أكاذيبه فكنت إذا سلمت عليه فرد علىّ أظل لذلك فرحاً وبه مبتهجاً وكان صفوه إلى المخلوع فحمله على أن أغراه بى ودعاه إلى قتلى وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة فقال أما القتل فلا أقتله ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع وإذا دعا لم يجب فكان أحسن حالاتى عنده أن وجه مع علىّ بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا فى الفضة والحديد ليقيدنى به وذهب عنه قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها وأدنى مراتبها (وكان يجلس مع أصحاب الحرس) وهذا الخطيب على رأسى وكان بالأمس يقف على هذا المنبر الذى بإزائى مرة وعلى المنبر الغربى مرة فيزعم أنى المأفون ولست بالمأمون ثم هوالساعة يقرظنى تقريظه المسيح ومحمداً عليهما السلام.

وكان له فى العفو لذة لا يعادلها لذة حتى أنه لما ظفر بعمه إبراهيم عفا عنه مع عظيم جرمه وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمأمون الذى أحس من نفسه بقدرة السلطان فأذهب ذلك عنه الحفيظة ولم يؤثر عنه ما يعيبه إلا ما كان منه بمصر حيث أمر بقتل محاربين نزلوا على حكمه مع ضياع قوتهم واقتناعه بعذرهم وهم أهل البشرود بأسفل مصر كانوا ثاروا على عمالهم بسبب سوء سيرتهم فأرسل إليهم الأفشين فأوقع بهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ولما ذهب إليهم المأمون حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وأطفالهم وذلك فى صفر

(سنة ٢١٧) وهى حادثة فى غاية الغـرابة بالنسبة لما عرف من خلق المأمون الذى اشـترى سبى الروم بماله وأطلقهم وأعطى كل واحد ديناراً ومن على غيرهم من السبى.

ومن مزايا المأمون أنه كـان فى جدله ميالاً إلى الإقناع فكان يناقش من خـالفه حتى يبين له الحجة وله فى ذلك مجالس مأثورة مشهورة وله فـى الجدل حجج قوية ناصعة مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره فى المناقـشة وكان أصحابه ووزراؤه يدلونه على موضع الخطأ مما يريد أن يفعل. أراد مـرة أن ينتقص معـاوية بن أبى سفيـان ويلعنه فقال له يحـيى بن أكثم إن العامة لا تحتمل مثل هذا لا سـيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرة وإن كنت لم تدر ما عاقبتها والرأى أن تدع الناس على مـا هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح فى السياسة وأحرى فى التدبير فاتبع المأمون نصيحته وطوى الكتاب الذى كان قد أنشىء فى هذا المعنى فلم يقرأ على العامة ولكنه بقى فى دفاترهم مـسجلاً.

كان المأمـون مع حلمه يعلم ما عليـه رؤساء جنده ورجال دولتـه فلم يكن بالمغفل الذى ينخدع برياء الناس ونفاقهم وظهورهم بما ليس من شيمهـم قال يوماً وفى مجلسه جماعة ما فى عسكرنا من يطلب ما عندنا بالرياء فقال كل واحـد بما عنده إما أن يقول فى عدو يقدح فيـه أويقول بما يعلم أنه يسر خليـفته فلما قـالوا ذلك قال ما أرى عند أحـد منكم ما يبلغ إرادتى ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء حـتى لوكان قد أقام فى زحل كل واحد منهم حولاً ما زاد على معرفتـه فكان مما حفظ عنه إذ قال حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس ـ تسـبيح حـميـد الطوسى وصلاة قـحطبة. وصـوم النوشجـانى. ووضوء بـشر المريسى. وبناء مالك بن شاهى المساجد. وبكاء إبـراهيم بن بريهة على المنبر. وجمع الحسن بن قريش اليتامى. وقصص منجا وصدقـة على بن الجنيد. وحملان إسحاق بن إبراهيم فى السبيل. وصلاة ابن رجاء فى الضحى وجمع على بن هشـام القصاص ـ حتى جمع جماعة كثيرة فقال رجل من عظماء العسكر لآخر بعد أن خرجا من الدار هل رأيت أوسمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشـد تنقيراً من هذا الحديث ـ فحدث إبراهيم بـن المهدى بهذا الحديث رجلاً من أصحاب الأخبار والعلم فقال له وما تصنع بهذا قد شهدت رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء يخبر بمعايبهم رجلاً رجلاً حتى لهو بها أعلم منهم بما فى منازلهم.

قعد مرة للمظالم فقـدم إليه أصحاب الحاجات فقضى ما شاء من حـاجاتهم وكان فيهم نصرانى من أهل كـسكر كان قد صاح بالمأمـون غير مـرة وقعد له فى طريقه فلمـا بصر به المأمون أثبته معرفة فأمر سلماً صاحب الحوائج أن يبطحه ويضربه عشرين درة وقال لسلم قل له لا يعود يصيح بى فقال له سلم ذلك وهو مبطوح فـقال الرجل أعود واعود وأعود حتى تنظر فى حاجتى فأبلغه سلم ذلك فقال هذا مظلوم موطن نـفسه على القتل أوقضاء حاجته ثم قال لأبى عياد أقض حاجة هذا كائنة ما كانت الساعة فلا أدرى مم يعجب الإنسان أمن

ملاحظة المأمون وعـرفان الرجل لأنه هوالذى صاح به مرة أومرتين أم من تأمـيل الرجل فيه بعد أن أمـر بضربه أم من رجوع المأمون عن خطـئه فيمـا صنع وأمره بقضاء حـاجة الرجل كائنة ما كانت.

وكان مع هذه الأخلاق أديبـاً يعرف جيد الشعـر ورديئه ويثيب على ما أعـجبه منه ثواباً فوق كل أمل. حدث عمـارة بن عقيل قال أنشدت المأمون قـصيدة فيها مديح له فـيها مائة بيت أوأكثر فما ابتدأت بصدر بيت إلا بادرنى إلى قافيته فقال عمارة والله يا أمير المؤمنين ما سمعـها منى أحد قط فقال المأمـون هكذا ينبغى أن يكون وقال عمارة قـال لى عبد الله بن السمط علمت أن المأمون لا يبـصر الشعر فقلت ومن ذا يكون أعلـم منه فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره. قال إنى أنشدته بيتاً أجدت فيه فلم أره تحرك له ـ قلت وما الذى أنشدته فقال:

أضحى إمـام الهدى المأمون مشـتغلاً بالديـن والناس بالدنيـا مـشـاغـيل

فقلت ما صنعت شـيئاً وهل زدت على أن جعلته عجـوزاً فى محرابها فى يده سبـحتها فمن القائم أمر الدنيـا إذا تشاغل عنها وهوالمطوق بها هلا قلت فيه كما قـال جرير فى عبد العزيز بن الوليد:

فـلا هوفى الدنيـا مـضيع نصيبـه ولا عـرض الدنـيا عن الدين شـاغله

ولعلمه بالشعر ومحـبته له راجت فى زمنه سوقه وكثر الشعـراء والأدباء كما كثر المغنون ونبغـوا. وكان المأمـون يسمع الغناء ويحب الجـيد منه وكـان يشرب النبيـذ على رأى أهل العراق.

أما كرمه فمما سارت به الأمثال فـقد أربى على جميع خلفاء بنى العباس حتى على أبيه الذى كان يعطى عـطاء من لا يخاف فقـراً ولا يخشى إقلالاً وحكايات المـأمون فى العطاء كثيرة فلا نطيل بذكرها إلا أنا نذكر حادثة تدل على مقدار الترف فى القوم وسعة اليد وكثرة البذل.

بنى المأمون (سنة ٢١٠) ببوران بنت الحسن بن سهل فى فم الصلح واحتفل أبوها بأمرها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله فى مـصر من الأمصار وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغـير ذلك فكانت البندقة إذا وقـعت فى يد الرجل فتحـها وقرأ مافيـها ثم يمضى على الوكيل المرصد لذلك فـيدفعها إليه ويـتسلم ما فيها ثم نثـر بعد ذلك على سائر

الناس الدنانيـر والدراهم ونوافخ المسك وبيض العـنبر وأنفق على المأمـون وقـواده وجمـيع أصحابه وسائر من كان معه مـن أجناده وأتباعه حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن فى العـسكر من يشترى شيئاً لنفسه ولا لدوابه تسـعة عشر يوماً وكان مبلغ النـفقة عليهم خمـسين ألف ألف درهم (نحومليون جنيه) وأمـر المأمون له عند انصرافه بعشرة آلاف ألف درهم وأقطعـه فم الصلح وأطلق له خراج فارس، وكور الأهواز مدة سنة. وهذا سرف عظيم سهل أمره الموارد الكثيرة.

وفاة المأمون:

بينما كـان المأمون ببلاد الروم فى آخـر غزواته وهوبالبـدندون شمالى طرطوس أصـابته حمى لم تمهله كثيراً وفى ١٨ رجب (سنة ٢١٨) أدركته منيته فحمل إلى طرطوس ودفن بها وكانت سِنّه إذ توفى (٤٨سنة).

ولاية العهد:

عهـد المأمون وهومـريض إلى أخيـه أبى إسحاق بن الرشـيد ولم يخطئ خطأ مـن قبله بالعهد إلى اثنين وأوصاه بوصـية مأثورة تقدم منها أشياء ومما جاء فيـها (واعمل فى الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر بالله ومهلته فكأن قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعيـة الرعية العوام العوام فـإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهـم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ من أقـويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليـهم فى شىء وأنصف بعضـهم من بعض بالحق بينهم وقربهـم وتأنهم وعجل الرحلة عنى والقـدوم إلى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القـوم الذين أنت بساحتـهم فلا تغفل عنهم فى كل وقت).

٨
المعتصم

هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدى بن المنصور وأمه أم ولد اسمها ماردة ولد (سنة ١٧٩) فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان فى عهد أخيه المأمون والياً على الشام ومصر وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه وفى اليوم الذى توفى فيه المأمون ببلاد الروم وبويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله فى (١٩ رجب سنة ٢١٨) (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) ولم يزل خليفة ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام.

وكان يعاصره فى المغرب الأقصى من الأدارسة محمد بن إدريس بن إدريس (٢١٣-٢٢١) ثم على بن محمد (٢٢١-٢٣٤).

ويعاصره فى أفريقية من الأغالبة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب(٢٠١-٢٢٣) ثم الأغلب بن زيادة الله (٢٢٣-٢٢٦) ثم محمد بن الأغلب بن زيادة الله (٢٢٦-٢٤٢).

ويعاصره فى اليمن محمد بن إبراهيم الزيادى الذى ولاه المأمون (٢٠٣-٢٤٥).

ويعاصره فى خراسان الأمير عبد الله بن طاهر الذى ولاه المأمون (٢١٣-٢٣٠)

ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية توفيل بن ميخائيل (٨٢٩-٨٤٢).

ويعاصره فى فرنسا لويز الأول الملقب باللين (٨١٤-٨٤٠) ثم شارل الملقب بالأصلع (٨٤٠-٨٧٧).

الأحوال فى عهد المعتصم:

بعد أن تمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم عاد بالعسكر قاصداً بغداد بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله وأحرق ما لم يقدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون أسكنه ذلك من الناس إلى بلادهم. وكان دخول المعتصم بغداد يوم السبت مستهل رمضان (سنة ٢١٨).

وزراء المعتصم:

الفضل بن مروان بن ماسرخس. كان رجلاً نصرانياً من أهل البردان وكان متصلاً برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخط ثم صار مع كاتب كان للمعتصم قبل أن يستخلف وهذا الكاتب هو يحيى الجرمقانى فلما مات يحيى صير الفضل فى موضعه ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التى بلغها والفضل كاتبه. لما خرج المعتصم مع المأمون فى غزوته الأخيرة وكان الفضل ببغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب على لسانه بما أحب فلما بلغه موت المأمون قام بأمر بيعة المعتصم ببغداد وضبط الأمور حتى قدم المعتصم بغداد خليفة فعرف له فضل اجتهاده ونشاطه فسلم إليه أمر الخلافة وخلع عليه ورد أموره كلها إليه فغلب عليه بطول خدمته وتربيته واستقل بالأمور ولم يزل على ذلك سنتين فلما بدا للمعتصم استبداده بالأمور ثقل عليه. كان يدخل على المعصتم فيقول له احمل إلىّ كذا وكذا من المال فيقول ما عندى فيقول فاحتلها من وجه من الوجوه فيقول ومن أين أحتالها ومن يعطينى هذا القدر من المال وعند من أجده فكان ذلك يسوء المعتصم ويعرف فى وجهه. وكان للمعتصم رجل مضحك اسمه إبراهيم الهفتى كان يصحبه قبل الخلافة فيقول له فيما يداعبه والله لا أفلحت أبداً فلما ولى المعتصم أمر للهفتى بمال وأمر الفضل أن يعطيه إياه فلم يفعل - فبينا الهفتى يوماً عند المعتصم بعد ما بنيت له داره التى ببغداد واتخذ له فيها بستاناً قام المعتصم يمشى فى البستان ينظر إليه وإلى ما فيه من أنواع الرياحين والغروس ومعه الهفتى وكان رجلاً مربوعاً ذا كدنة والمعتصم رجلاً معرقاً خفيف اللحم فجعل المعتصم يسبق الهفتى فى المشى فإذا تقدم ولم يره التفت إليه فقال مالك لا تمشى يستعجله فى المشى فلما كثر ذلك من أمر المعتصم قال له الهفتى مداعباً كنت أرانى أماشى خليفة ولم أكن أرانى أماشى فيجا والله لا أفلحت - فضحك المعتصم وقال ويلك وهل بقى من الفلاح شىء لم أدركه بعد الخلافة فقال الهفتى أتحسب أنك أفلحت الآن إنما لك من الخلافة الاسم والله ما يجاوز أمرك أذنك وإنما الخليفة الفضل بن مروان الذى ينفذ أمره من ساعته فقال المعتصم أى أمر لى لا ينفذ فقال الهفتى أمرت لى بكذا وكذا منذ شهرين فما أعطيت مما أمرت به منذ ذاك حبة فاحتجنها المعتصم على الفضل مع ما سبق له معه فأول ما فعله أن جعل عليه زماماً فى نفقات الخاصة وهوأحمد بن عمار الخراسانى وزماماً فى الخراج وجميع الأعمال وهونصر بن منصور. ثم زاد الأمر واستفحل فاشتد غضب المعتصم عليه وعلى أهل بيته وأمرهم برفع ما جرى على أيديهم أى تقديم الحساب عما وصل إليهم من المال وعما صرفوه ولما فرغ الحساب أمر بحبس الفضل وأن يحمل إلى منزله ببغداد ثم نفى إلى قرية فى طريق الموصل يقال لها السن وبقى كذلك حياة المعتصم قال الصولى فى أخبار الوزراء إن المعتصم أخذ من بيته لما نكبه ألف ألف دينار وأخذ أثاثاً وآنية بألف ألف دينار.

كان الفضل قليل المعرفة بالعلم جيد الكتابة ومن المأثور عنه. لا تتعرض لعدوك

وهومقبل فإن إقباله يعينه عليك ولا تتعرض له وهومدبر فإن إدباره يكفيك أمره واستمرت حياة الفضل بن مروان إلى (سنة ٢٥٠).

واستوزر المعتصم بعد الفضل أحمد بن عمار الخراسانى الذى تقدم ذكره فلم يكن فيه كفاية كتابية. ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان فى الكتاب ذكر الكلأ فقال المعتصم ما الكلأ فقال لا أدرى. فقال المعتصم خليفة أمى ووزير عامى (وكان المعتصم ضعيف الكتابة) ثم قال أبصروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فأدخلوه إليه فقال له ما الكلأ - فقال الكلأ العشب على الإطلاق فإن كان رطباً فهوالخلا فإذا يبس فهوالحشيش وشرع فى تقسيم أنواع النبات فعرف المعتصم فضله واستوزره.

محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات: كان جده أبان رجلاً قروياً من الدسكرة يجلب الزيت من موضعه إلى بغداد فعرف محمد به. نشأ محمد ببغداد فتعلم وتأدب ونال من ذلك حظًا وافراً حتى قيل إن أبا عثمان المازنى لما قدم بغداد فى أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يخوضوه بين يديه فى علم النحوفإذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبوعثمان ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب (يعنى ابن الزيات) فاسألوه فاعرفوا جوابه فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذى يرتضيه أبوعثمان ويوقعهم عليه. وكان محمد فى أول أمره من الكتاب بالديوان فحصلت المسألة التى شرحناها فى تاريخ أحمد بن عمارة فاستوزره المعتصم فقام بأمر الوزارة خير قيام واستمر وزيراً إلى وفاة المعتصم وخدم الخلفاء بعد ذلك كما يأتى.

وكان محمد بن عبد الملك مع علمه وأدبه ومعرفته بخدمة الملوك شاعراً ظريفاً عده دعبل بن على فى طبقات الشعراء وذكره أبوعبد الله هارون بن المنجم فى كتابه البارع ومن رقيق شعره قوله فى موت أم ابنه ولابنه ثمانى سنوات:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان

رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتحبان

وبات وحيداً فى الفراش تجيبه ... بلابل قلب دائم الخفقان

فهبنى أطلت الصبر عنها لأننى ... جليد فمن للصبر بابن ثمان

ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسـ ... ـمه ولا يأتسى بالناس فى الحدثان

وقد مدحه الوليد بن عبادة الشاعر المعروف بالبحترى بقصيدة مطلعها:

بعض هذا العتاب والتفنيد ... ليس ذم الوفاء بالمحمود

يقول فيها واصفاً ما منحه من البلاغة:

لتــفننت فى الكتــابة حــتى	عطل الناس فن عـبـد الحـمـيـد
فى نظام من البــلاغــة مــا شــ	ــك أمــــرؤ أنه نظام فـــريـد
وبـديع كـــأنه الزهر الـضـــا	حك فى رونـق الربيع الجـــديد
مشرق فى جوانب السمع ما يخـ	ـلقــه عـوده على المستـعـيـد
مـا أعـــيـرت منه بطون الـقــرا	طيس ومـا حـملت ظهـور البـريد
مـسـتـميل سمع الطروب المعنى	عن أغـانـى مـخـارق وعـقـيـد
حــجـج تخـرس الألد بألـفـا	ظ فـرادى كـالجـوهر المعـقـود
ومـعـان لوفـصلتـهـا القـوافى	هجنت شـعـر جـرول ولبـيـد
حـزن مـستعمل الكلام اختـياراً	وتجنبن ظلمــة التــعـقــيـد
وركبن الـلفـظ القـــريب فـــأدر	كن بـه غـايـة المراد البـــعـيـد
كـالعـذارى غـدون فى الحلل البيـ	ـض إذا رحن فى الخطوط الســود
قـد تـلقـيت كل يوم جـديد	يا أبـا جـعــفـر بمجـد جـديد
يئس الحـاسـدون منك ومـا مـجـ	ـدك ممـا يرجـوه ظن الحـسـود
وإذا اسـتطرفت سـيـادة قــوم	بنت بالسـؤدد الطريف التليـد
وذووالفـضل مجـمـعون على فـضـ	ـلك من بين سـيـد ومـسـود
عـرف العـالمون فـضلك بالـعلم	وقـال الجـهـال بالتـقليـد

والذى كان يعاب عليـه شدته فى معاملة العـمال الذين يصادرهم لخيانتـهم فى الأعمال وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمنى قال الرحمة خور فى الطبيعة.

أحمد بـن أبى دؤاد الإيادى: كان من المعتصم كـيحيى بن أكثم من المأمـون ولذلك سقنا خبره فى عداد الوزراء.

أصل بيتـه فيمـا يقال من إحدى قـرى قنسرين كان أبوه يتـجر إلى الشام أمـا هو فولد بالبصـرة (سنة ١٦٠) ونشأ بهـا فى طلب العلم وخاصة الفـقه والكلام وصـحب هياج بن العلاء السلمى وكان من أصحاب واصل بن عطاء الغزالى كبير المعتزلة ومقدمهم.

فمال أحمد من أجل ذلك إلى الاعتزال وكان يحضر ببغداد مجلس القاضى يحيى بن أكثم فلما أمره المأمون أن يختار جماعة من الفقهاء يجالسونه ويبحثون معه كان أحمد فى هؤلاء المختارين فكان المأمون إذا شرع أحمد فى الكلام ينظر إليه ويتفهم ما يقول ويستحسنه فأمره أن يحضر مجلسه دائماً ولا يتأخر عنه وأحبه المأمون جداً وخف على قلبه حتى قال لأخيه المعتصم فى وصيته (وأبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد لا يفارقك وأشركه فى المشورة فى كل أمرك فإنه موضع لذلك منك) فولاه المعتصم قضاء القضاة واختص به حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه فكان له فى حياة المعتصم مركز لا يدانيه فيه أحد حتى قال أوزن بن إسماعيل ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبى دؤاد وكان يسأل الشىء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبى دؤاد فيلكمه فى أهله وفى الثغور وفى الحرمين وفى أقاصى أهل المشرق والمغرب فيجيبه إلى كل ما يريد ولقد كلمه يوماً فى مقدار ألف ألف ليحفر بها نهراً فى أقاصى خراسان فقال المعتصم وما علىَّ من هذا النهر فقال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يسألك عن النظر فى أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر فى أمر أدناها ولم يزل يرفق به حتى أطلقها.

وقال الحسين بن الضحاك الشاعر لبعض المتكلمين: ابن دؤاد عندنا لا يعرف اللغة وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه وعند المعتصم يحسن هذا كله.

كان ابن أبى دؤاد ممن يحبون الخير للناس وله شرف نفس وجمال خلق عربى حتى عرف بالمروءة وكان يحمل فى سبيلها ما لا يحمله أحد قال ابن عبد الرحمن الكلبى: ابن أبى دؤاد روح كله من قرنه إلى قدمه. ومن طريف نوادره فى المروءة أن الأفشين كان يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى للعربية والشجاعة فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل فأخذه وأحضر السياف لقتله وبلغ الخبر ابن أبى دؤاد فخاف إذا هو ذهب إلى المعتصم وكلمه فى شأنه أن يكون الكلام بعد فوات الوقت فركب فوراً مع من حضره من العدول ودخل على الأفشين وقد جىء بأبى دلف ليقتل فوقف وقال إنى رسول أمير المؤمنين إليك وقد أمرك ألا تحدث فى القاسم بن عيسى حدثاً حتى تسلمه إلىَّ ثم التفت إلى العدول وقال اشهدوا أنى أديت إليه الرسالة عن أمير المؤمنين والقاسم حى مُعَافَى فقالوا شهدنا وخرج فلم يقدر الأفشين على تنفيذ مراده وذهب ابن أبى دؤاد إلى المعتصم من وقته فقال له يا أمير المؤمنين قد أديت عنك رسالة لم تقلها ما أعتد بعمل خير خيراً منها وإنى لأرجو لك الجنة بها ثم أخبره الخبر فصوب المعتصم رأيه ووجه من أحضر القاسم فأطلقه ووصله وعنف الأفشين على ما كان عزم عليه.

وكان وجود ابن أبى دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه لأنه شجاع شديد عجول فكان إذا

أسرع إليه الغضب هدأ ابن أبى دؤاد من حدته وأراه وجه الأناة والعفو فلا يسعه إلا أن يسير فى سبيلهما وكان له عليه من الدالة وعلوالمركز ما يستعين به على تنفيذ غرضه. غضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وأشخصه من ولايته لعجز لحقه فى مال طلب منه فجلس المعتصم لعقوبته وكان خالد قد طرح نفسه على ابن أبى دؤاد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم فلما جلس المعتصم حضر أحمد وهو قاضى القضاة فجلس دون مجلسه المعتاد فقال له المعتصم يا أبا عبد الله جلست فى غير مجلسك فقال ما ينبغى لى أن أجلس إلا دون مجلسى هذا، فقال له وكيف؟ قال لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعى موضع من يشفع فى رجل فيشفع ـ فقال المعتصم ارجع إلى مجلسك، قال مشفعاً أو غير؟ قال بل مشفعاً فارتفع إلى مجلسه ثم قال إن الناس ما يعلمون رضاء أمير المؤمنين إن لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه فقال يا أمير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها وإن أمرت لهم بها فى هذا الوقت قامت مقام الصلة فقال قد أمرت له بها فخرج خالد وعليه الخلع وبين يديه المال وإن الناس ينتظرون الإيقاع به فصاح به رجل الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب فقال له اسكت سيد العرب والله أحمد بن دؤاد. وكان فى ابن أبى دؤاد عصبية عربية ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئاً من مقامهم فى عهد المعتصم الذى جعل القوة كلها لغلمان الأتراك الذين استكثر منهم ومن قوادهم.

وكان ابن أبى دؤاد مع ذلك شاعراً أديباً مجيداً فصيحاً بليغاً ذكره دعبل فى طبقات الشعراء ومن مأثور قوله ثلاثة ينبغى أن يبجلوا وتعرف أقدارهم العلماء وولاة العدل والإخوان فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته ولأبى تمام فيه مدائح جليلة منه قصيدته التى مطلعها:

سقى عهد الحمى سيل العهاد ... وروض حاضر منه وباد

ويقول فيها:

لقد أفنت مساوى كل دهر ... محاسن أحمد بن أبى دؤاد

متى تحلل به تحلل جناباً ... رضيعاً للسوارى والغوادى

يرشح نعمة الأيام فيه ... وتقسم منه أرزاق العباد

وما أشتبهت طريق المجد إلا ... هداك لقبلة المعروف هاد

وما سافرت فى الآفاق إلا ... ومن جدواك راحلتى وزادى

مقيم الظن عندك والأمانى ... وإن قلقت ركابى فى البلاد

معاد البعث معروف ولكن ندى كفيك فى الدنيا معادى

العلويون فى عهد المعتصم:

لأول عهده توفى محمد الجواد بن على الرضا تاسع أئمة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية وكانت وفاته (سنة ٢٢٠) وسنُّه (٢٥سنة) وكانت تحته أم الفضل بنت المأمون فحملت إلى قصر عمها المعتصم فتولى الإمامة بعده ابنه أبوالحسن علىّ الهادى وكانت سِنُّه حين مات أبوه سبع سنين.

وخرج على المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن علىّ بن عمر بن علىّ بن الحسين بن علىّ. كان مقيماً بالكوفة ثم خرج منها على الطالقان من خراسان يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ فاجتمع إليه بها ناس كثير فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر أمير خراسان وبعث له البعوث فكان بين الفريقين وقعات بناحية الطالقان وجبالها فهزم هو وأصحابه فخرج هارباً يريد بعض كور خراسان كان أهله كاتبوه فلما وصل إلى نسا دل عليه فأخذه عاملها واستوثق منه وبعث به إلى عبد الله بن طاهر فأرسل به إلى المعتصم فحبس بسامرا (سنة ٢١٩) فأقام فيه حتى كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة احتال للخروج بواسطة رجال من شيعته فهرب ولم يعرف له خبر وقد انقاد إلى إمامته كثيرون من الزيدية ومنهم كثير يزعمون أنه لم يمت وأنه حى يرزق وأنه يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وأنه مهدى هذه الأمة وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وبقى ذلك الاعتقاد حتى (سنة ٢٣٢) كما قال المسعودى فى مروج الذهب.

الجيش:

قدمنا ما كان عهد المأمون من كثرة العناصر الغريبة عن الأمة العربية فى جيش الدولة العباسية وذلك أمر قضت به الأحوال لذلك العهد كما شرحنا ذلك فلما جاء المعتصم أربى على أسلافه فى ذلك فقد كان يغلب عليه من أخلاق الرجال الشجاعة والميل إلى الشجعان. رأى أن من ببغداد من جنود الأبناء لا يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء ورأى للأتراك من شدة البأس والنجدة فأراد أن يكون منهم جيشاً يستعز به على هؤلاء الأبناء ويرغم أنوفهم فاستكثر من غلمان الأتراك وأحضر منهم عدداً عظيماً فوق ما كان منهم فى عهد أخيه المأمون وأسكنهم بغداد واستغنى عن جيوش العرب بالمرة وأسقطهم كافة من الدواوين بحيث لم يبق مرتزق لعهده إلا من كان من الأتراك أو الأبناء إلا أنه

اصطنع قوماً من حوف مصر ومن حوف اليمن وحوف قيس وسماهم المغاربة وأتى بكثير من الفراغنة أهل فرغانة والأشروسنية أهال أشروسنة فكثر جيشه وكان هؤلاء القوم عجماً جفاة يركبون الدواب فيركضون فى طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجال والمرأة والصبى فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح بعضهم فشكا الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت به العامة فرأى المعتصم أن بقاء هؤلاء الأتراك فى وسط بغداد وبجانب جنود الأبناء خطر عليهم فكان ذلك سبباً لتفكيره فى اختطاط حاضرة جديدة له ولهذا الجيش الجديد الذى أعجب به فاختطت سامرا.

وكان المعتصم يلبس هؤلاء الجنود أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده واشتهر منهم قواد اصطنعهم المعتصم ورفع من أقدارهم جعل بيدهم مستقبل الخلافة الإسلامية وسنذكر بعضهم:

١- الأفشين حيدر بن كاوس وهوتركى من أشروسنة «كورة من بلاد ما وراء النهر» شرقيها فرغانة وغربيها سمرقند وشماليها الشاش وبعض فرغانة وجنوبيها بعض حدود كش والصفاينان وغيرهما ومدينتها التى يسكنها الولاة بنجكث.

كان حيدر فى حاشية المعتصم فى حياة المأمون وأصله من أبناء ملوك أشروسنة الذين يلقب الواحد منهم بالأفشين ولما رأى شجاعته وشهامته استعان به فيما ولى من الأعمال وكان المعتصم والياً على مصر والشام فأرسله نيابة عنه لإزالة الاضطراب فى برقة ومصر فنجح فيهما. ولما استخلف المعتصم كان الأفشين فى مقدمة قواده فعين (سنة ٢٢٠) لحرب بابك كما تقدم ذكره فظهرت على يديه عظائم الأعمال وإحكام سير الجيوش حتى ظفر بخصمه مع مناعة موقعه. ولما أمره المعتصم بالعود إلى سامرا كان يوجه إليه كل يوم من حين فصل من برزند إلى أن وافى سامرا فرساً وخلعة. ولما حضر توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين ألف ألف درهم منها عشرة آلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف يفرقها فى أهل عسكره وعقد له على السند. ولما غزا المعتصم عمورية كان قائداً لإحدى الفرق الثلاث التى دخلت بلاد الروم وهوالذى تولى حرب توفيل ملك الروم وهزم جنده. كل ذلك الإعظام والإجلال جعل الأفشين يمنى نفسه بالملك والاستقلال فى بلاده أشروسنة يوماً ما وأول ما عرف ذلك منه أنه كان هو يحارب بابك لا يأتيه هدية ولا مال إلا وجه به إلى أشروسنة فيجتاز ذلك بعبد الله بن طاهر أمير خراسان فيكتب إلى المعتصم يخبره فيكتب المعتصم إلى ابن طاهر يأمره بتعريف جميع ما يوجه الأفشين من الهدايا إلى أشروسنة فيفعل ذلك عبد الله. كان الأفشين كلما تهيأ عنده مال حمله أوساط أصحابه بقدر طاقتهم فكان الرجل يحمل من الألف فما فوقه من الدنانير فى وسطه فأخبر عبد الله

بذلك. فبينا هو فى يوم من الأيام وقد نزلت رسل الأفشين نيسابور ومعهم الهدايا وجه إليهم ابن طاهر وأخذهم ففتشهم فوجد فى أواسطهم هميانين فأخذهما منهم وقال لهم من أين لكم هذا المال فقالوا هذه هدايا الأفشين وأمواله فقال كذبتهم لو أراد الأفشين أخى أن يرسل بهذه الأموال لكتب إلىّ يعلمنى به لأبذرقه « أحرسه» لأن هذا مال عظيم وأنتم لصوص فأخذ عبد الله المال وأعطاه جنده وكتب إلى الأفشين يذكر له ما قال القوم وقال أنا أنكر أن تكون وجهت بهذا المال إلى أشروسنة ولم تكتب إلىّ تعلمنى لأبذرقه فإن كان هذا المال ليس لك فقد أعطيته الجند مكان المال الذى يوجه إلى أمير المؤمنين فى كل سنة وإن كان المال لك كما زعم القوم فإذا جاء المال من قبل أمير المؤمنين رددته إليك وإن يكن غير ذلك فأمير المؤمنين أحق بهذا المال وإنما دفعته إلى الجند لأنى أريد أن أوجههم إلى بلاد الترك. فكتب إليه يعلمه أن ماله ومال أمير المؤمنين واحد ويسأله إطلاق القوم ففعل ذلك ابن طاهر.

رأى الأفشين أنه لا يتم له أمر ما دام ابن طاهر بخراسان فانتظر الفرص ليحمل المعتصم على عزله وتوليته مكانه وحينئذ يتسع له المجال. كان ببلاد طبرستان دهقان من أبناء ملوكها اسمه مزيار بن قاون بن ونداهرمز وكان منافراً لآل طاهر لا يحمل إليهم الخراج ويحمله إلى المعتصم فكان إذا وصل المال همذان يأمر المعتصم رجلاً من قبله فيستوفيه ثم يسلمه إلى صاحب عبد الله بن طاهر ليرده إلى خراسان فكانت هذه الحال بينهما حتى زادت المنافرة وبلغت حدها الأقصى فأراد الأفشين انتهاز هذه الفرصة فكتب إلى مازيار يقويه على خلاف ابن طاهر ويخبره أن المعتصم ولاه إمارة خراسان وأراد الأفشين بذلك أن يخالف مازيار فيولى المعتصم الأفشين حربه ويكون له مع ذلك ولاية خراسان ودعا ذلك مازيار إلى إظهار الخلاف وشق عصا الطاعة ومنع الخراج وتحصن بجبال طبرستان. بلغ ذلك عبد الله بن طاهر فوجه إليه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب وضم إليه جيشاً كثيفاً يحفظ جرجان ووجه المعتصم من قبله محمد بن إبراهيم بن مصعب فى جمع كثيف وضم إليه الحسن بن قارى الطبرى القائد ومن كان بالباب من الطبرية ووجه منصور بن الحسن صاحب دنباوند إلى مدينة الرى ليدخل طبرستان من ناحية الرى - ولم ينتدب الأفشين لشىء مما كان ظن وقد أحاطت هذه الجنود بطبرستان من كل جانب وهزمت جنود مازيار - فرأى أن يستأمن إلى الحسن بن الحسين فاستأمن إليه هو أخوه قوهيار فأمر عبد الله بن طاهر بتسليم مازيار وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم فحملهم إلى المعتصم بسامرا.

تحقق المعتصم من كل ما بلغه عن الأفشين واطلع على الكتب التى كان أرسلها أخوالأفشين إلى مازيار وعلم الأفشين ذلك فعزم على الهرب وصار يدبر التدابير الشنيعة للفتك بالمسلمين وقد وصل شىء من علم ذلك إلى قائد من القواد الأشروسنية فأخبر به

المعتصم فأمر بحضور الأفشين ولما حضر أخذ سواره وحبسه ثم أحضره فى مجلس عام لتبكيته ومناظرته وكان الذى تولى ذلك الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فثبت من التحقيق أن الرجل لا يزال على كفره وأنه كان يكيد المكايد للوصول إلى ملك بلاده وأن أهل أشروسنة كانوا يخاطبونه بإله الآلهة ثم ثبت أنه كان يكاتب المازيار وشهد المازيار أن أخا خاش كتب إلى قوهيار أخى مازيار (إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيرى وغيرك وغير بابك فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه فإن خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيرى ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة المغاربة والعرب والأتراك والعربى بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (يعنى المغاربة) إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (يعنى الأتراك) فإنما هى ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه (أيام العجم) - ولما تبين أمره قال القاضى أحمد بن أبى دؤاد قد وضح لكم أمره فعليك به يـ بغا فأعيد إلى محبسه حتى مات وبعد موته أخرج وصلب على باب العامة حتى يراه الناس ثم أحرق مع خشبته.

٢- إيتاخ: كان غلاماً خزرياً لسلام الأبرش طباخاً فاشتراه المعتصم (سنة ١٩٩) وكان لإيتاخ رجولة وبأس فرفعه المعتصم وولاه بعد الخلافة معونة سامرا مع إسحاق بن إبراهيم وكان من قبله رجل ومن قبل إسحاق رجل وكان من أراد المعتصم قتله فعند إيتاخ يقتل وبيده يحبس وولاه المعتصم قيادة إحدى الفرق الثلاث التى دخلت بلاد الروم إلى عمورية وقد استمر إيتاخ على منصبه وزعامته مدة الواثق وقتل لأول عهد المتوكل (سنة ٢٣٥). ففى (سنة ١٩٩) اشترى بالمال وفى عهد الواثق كانت المملكة فى يده فكان إليه الجيش والمغاربة والأتراك والبريد والحجابة ودار الخلافة - وما الذى بقى بعد هذا.

٣- أشناس: غلام تركى اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان فى غزوة عمورية على مقدمة الجيش واستخلفه مرة على سامرا حينما خرج منها وزاده رفعة (سنة ٢٢٥) بأن أجلسه على كرسى وتوجه ووشحه كما فعل بالأفشين وزوج ابنته أترنجة للحسن بن الأفشين وأحضر عرسه عامة أهل سامرا وكان يباشر بنفسه تفقد من حضر. وكانت تلك منزلته عند الواثق حتى أنه فى (سنة ٢٢٨) توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ولم يزل فى عظمته حتى توفى (سنة ٢٣٠).

وغير هؤلاء كان من القواد عجيف بن عنبسة ووصيف وبغا الكبير أبوموسى وغيرهم.

كل هؤلاء قواد من الأتراك اختارهم المعتصم لشجاعتهم وسلمهم زمام ملك آبائه وأنزل العرب عما كان لهم من قيادة الجيوش وأسقط أسماءهم من الدواوين واعتز بهؤلاء المجلوبين فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف القلوب يتصرفون فيهم كما يشاؤون. ومع اغترار المعتصم بهؤلاء القواد كان يحس بما وقع فيه من الخطأ باختيارهم ولا سيما أنه ليس لأكثرهم نسب معروف فقد حدث إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له يا إسحاق فى قلبى أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة وإنما بسطتك فى هذا الوقت لأفشيه لك ـ نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم اصطنع المأمون طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت وعبد الله بن طاهر فهوالرجل الذى لم ير مثله وأنت فأنت والله الذى لا يعتاض منك السلطان أبداً وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد، وأما أنا فاصطنعت الأفشين فقد رأيت إلى ما صار إليه أمره وأشناس ففشل رأيه وإيتاخ فلا شيء ووصيف فلا مغنى فيه ـ فقال إسحاق جعلنى الله فداك أجيب وعلى أمان من غضبك قال قل ـ قلت يا أمير المؤمنين أعزك الله نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها ـ فقال يا إسحاق لمقاساة ما مر بى فى طول هذه المدة أسهل عليَّ من هذا الجواب.

المعتصم وحده يتحمل تبعة أكثر ما حل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالأمة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها. لم يكن الرجل بعيد النظر فى العواقب وإنما كان شجاعاً جسوراً يحب الشجعان ويعتز بهم مهما كان شأنهم سواء كانت لهم أحساب يحمونها أم ليست لهم أحساب وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقاؤها أم لا ؟ وهذا خطأ عظيم يحط بقدر الدول وينزلها من عظمتها.

ومن النتائج التى سببها غطرسة هؤلاء الجنود الغرباء وعدم احترامهم لحقوق الأمة ثورة أبى حرب المبرقع اليمانى بفلسطين، وذلك أن بعض الجند أراد النزول فى داره وهوغائب عنها وذلك أمر لم يكن معروفاً فى الدولة العربية قبل ذلك وكان فى الدار إما زوجة أبى حرب وإما أخته فمانعته من ذلك فضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر فيها فلما رجع أبو حرب إلى منزله شكت إليه ما فعل بها وأرته الأثر فاشتمل سيفه ومشى إلى الجندى وهوغار فقتله ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كيلاً يعرف فصار إلى جبل من جبال الأردن فطلبه السلطان فلم يعرف له خبر وكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذى أوى إليه متبرقعاً فيراه الرائى فيأتيه فيذكره ويحرضه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتى إلى الناس ويعيبه فمازال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حرانى أهل تلك الناحية وأهل القرى فلما كثرت غاشيته من هذه

لطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية منهم رجل يقال له ابن بيهس كان مطاعاً فى أهل اليمن فاتصل خبره بالمعتصم فبعث إليه رجاء بن أيوب الحضارى فى زهاء ألف رجل من الجند فلما صار إليه وجده فى عالم من الناس زهاء مائة ألف فتريث رجاء حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم وتصرف من كان معه من الحراثين إلى الحراثة وأرباب الأرضين إلى أراضيهم وبقى أبوحرب فى زهاء ألف أوألفين فناجزه رجاء وأسره رجل ممن معه ثم سار به إلى المعتصم أسيراً.

الخراج:

كما يمتاز عصر المأمون بالثبت الذى نقله العلامة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة يمتاز عصر المعتصم بالثبت الذى أورده قدامة بن جعفر فى كتاب الخراج له عن مقدار الجباية فى عهد المعتصم ونحن نورد خلاصته:

الجهة	مقدار الجباية بالدراهم أوالدنانير
سواد العراق	١١٤,٥٦٧,٦٥٠ درهماً
الأهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم
مكران	١٠٠٠,٠٠٠ درهم
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠ درهم
سجستان	١,٠٠٠,٠٠٠ درهم
خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠ درهم
حلوان	٩,٠٠٠,٠٠٠ درهم
الماهين	٩,٨٠٠,٠٠٠ درهم
همذان	١,٧٠٠,٠٠٠ درهم
ما سبذان	١,٢٠٠,٠٠٠ درهم
مهرجان قذق	١,١٠٠,٠٠٠ درهم

الإيغارين	٣,١٠٠,٠٠٠ درهم
قم وقاشان	٣,٥٠٠,٠٠٠ درهم
أذربيجان	٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم
الرى ودنباوند	٢٠,٠٨٠,٠٠٠ درهم
قزوين وزنجان وأبهر	١,٨٢٨,٠٠٠ درهم
قومس	١,١٥٠,٠٠٠ درهم
جرجان	٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم
طبرستان	٤,٢٨٠,٧٠٠ درهم
تكريت والطبرهان	٩٠٠,٠٠٠ درهم
شهرزور والصامغان	٢,٧٥٠,٠٠٠ درهم
الموصل وما إليها	٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم
قردى وبازبدى	٣,٢٠٠,٠٠٠ درهم
ديار ربيعة	٩,٦٢٥,٠٠٠ درهم
أرذن وميافارقين	٤,٢٠٠,٠٠٠ درهم
آمد	١٠٠,٠٠٠ درهم
ديار مصر	٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم
أعمال طريق الفرات	٦٠٠,٠٠٠ درهم
	٢,٩٠٠,٠٠٠ درهم
المجموع	٣١٤,٢٧١,٣٥٠ درهماً
قنسرين والعواصم	٣٦٠,٠٠٠ دينار
جند حمص	٢١٨,٠٠٠ دينار
جند دمشق	١١٠,٠٠٠ دينار

جند الأردن	١٠٩,٠٠٠ دينار
جند فلسطين	٢٩٥,٠٠٠ دينار
مصر والإسكندرية	٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار
الحرمين	١٠٠,٠٠٠ دينار
اليمن	٦٠٠,٠٠٠ دينار
اليمامة والبحرين	٥١٠,٠٠٠ دينار
عمان	٣٠٠,٠٠٠ دينار
ـ	٥,١٠٢,٠٠٠ دينار

وذلك قريب مما كان فى حياة المأمون لأن الأحوال لم تتغير تغيراً يذكر.

العلاقة الخارجية:

قدمنا أن الذى كان يعاصر المعتصم من ملوك الروم توفيل بن ميخائيل وكان ينتهز الفرص لينتقم من المسلمين الذين دوخوه وألزموه أن يدفع الفدية قهراً فحدث أنه لما كان الأفشين يحارب بابك وقد ضيق عليه أن كتب بابك إلى ملك الروم يقول: إن ملك العرب قد وجه معظم عساكره إلىَّ ولم يبق على بابه أحد فإن أردت الخروج إليه فليس فى وجهك أحد يمنعك وكان يطمع أن ملك الروم إذا تحرك ينكشف عنه بعض ما هوفيه فلم يلبث توفيل أن خرج فى مائة ألف مقاتل حتى أتى زبطرة ومعه جمع من المحمرة الذين أجلاهم إسحاق بن إبراهيم عن الجبال كما ذكرنا ذلك فى حروب البابكية فلما دخل زبطرة قتل من فيها من الرجال وسبى النساء والذرية وأحرق المدينة ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصن من حصون المسلمين وسبى من المسلمات فيما قيل أكثر من ألف امرأة ومثل بمن صار فى يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم. بلغت تلك الأخبار المعتصم بسامرا فاشتد عليه وصاح فى قصره النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالاً وسكة حديد وحقيبة فلم يستقم له الخروج إلا بعد التعبئة ولكنه أرسل مقدمته لتكون مدداً لأهل زبطرة فلما شارفتها وجدت ملك الروم قد رحل عنها فوقفوا قليلاً حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا.

فلما انتهى أمر بابك سأل المعتصم أى بلاد الروم أمنع فقيل عمورية وهى مسقط رأس

توفيل كما أن زبطرة مسقط رأس المعتصم ولم تكن غزيت قبل ذلك فتجهز المعتصم جهازاً لم يتجهز خليفة قبله من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط وكانت التعبئة هكذا ـ على المقدمة أشناس ويتلوه محمد بن إبراهيم المصعبى وعلى الميمنة إيتاخ وعلى الميسرة جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط وأمر الأفشين أن يمضى فيدخل بلاد الروم من درب الحدث وسمى له يوماً أمره أن يكون وصوله فيه إلى أنقرة وقدر هذا اليوم بنفسه لأشناس الذى أمره أن يكون دخوله من درب طرسوس، ولما وصل أشناس إلى مرج الأسقف ورد عليه كتاب من المعتصم يأمرة بالتوقف لأنه بلغه عن ملك الروم أنه على نهر اللامس ويريد العبور ليكبس أشناس وجنده فأقام بالمرج ثلاثة أيام ثم علم بواسطة الجواسيس أن ملك الروم ارتحل عن نهر اللامس يريد مقابلة الأفشين فأرسل بخبر ذلك إلى المعتصم فبعث الأدلاء مسرعين يخبرون الأفشين بذلك وأمره أن يقف مكانه حذراً من مواقعة ملك الروم قبل أن تجتمع الجيوش فلم تصل هذه الأدلاء إلى الأفشين فتم على مسيرة حتى التقى بملك الروم فكانت بينهما موقعة هائلة كانت على الأفشين أول النهار ثم أعاد الكرة فى الفرسان فغلب ملك الروم وهزمه هزيمة منكرة وتفرقت عنه الجنود. أما عسكر أشناس والمعتصم فإنهما وردا أنقرة من غير أن يلقيا حرباً لتفرق الجنود التى كان الملك قد جعلها لمحاربة المعتصم ثم ورد الأفشين بعد مقدمهما بيوم أنقرة.

وحينئذ قسم المعتصم الجيش ثلاثة أقسام قسم فيه أشناس فى الميسرة وقسم فيه المعتصم وهوالقلب وقسم فيه الأفشين وهوالميمنة وبين كل قسم فرسخان فسارت هذه الأقسام على تعبئة وسارت هذه الأقسام حتى بلغت عمورية وبينها وبين أنقرة سبع مراحل كان أول من وردها أشناس فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها وجاء بعده المعتصم فدار حولها دورة ثم جاء الأفشين فكذلك تحصن أهل عمورية وتحرزوا فحصرها الجيش المعتصمى وكان لكل واحد من القواد أبراج على قدر أصحابه قلة وكثرة ونصبت المجانيق فضربت بها الأسوار لإتلافها حتى سقط منها جانب فى ناحية المعتصم بعد معاناة شديدة وأعمال جسام ثم حصل القتال فى ناحية هذه الثلمة بعد أن ردمت الخنادق ولم يزل القتال مستمراً حتى اقتحم المسلمون عمورية عنوة وغنموا منها مغانم كثيرة، وانتقم المعتصم من الروم بما فعلوه فى زبطرة وملطية وبعد انتهاء الواقعة عاد المعتصم إلى طرطوس وكانت إناخته على عمورية فى (٦رمضان سنة ٢٢٣) وقف عنها بعد (٥٥يوماً).

ومن غريب الأمور وأكبر الجرائم أن العباس بن المأمون اتفق مع بعض قواد المعتصم من الأتراك على أن يغتالوا المعتصم ويقيموه خليفة مقامه، تآمروا على ذلك وهم فى وجه العدووالعهد قريب باصطناع المعتصم لهم وإغداق النعم عليهم فلم يتم لهم غرض واطلع المعتصم على سرِ مؤامرتهم فأخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحبس العباس حتى مات من شدة الأذى وكان الذى تولى كبر ذلك عجيف بن عنبسة.

ولما ورد المعتصم سامرا كان دخوله إليها يوماً مشهوداً وامتدحه أبوتمام حبيب بن أوس قصيدته المشهورة التى أولها:

السيف أصدق أنباء من الكتب … فى حده الحد بين الجد واللعب

يقول فيها:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به … نظم من الشعر أونثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له … وتبرز الأرض فى أثوابها القشب
يايوم وقعة عمورية انصرفت … عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد … والمشركين ودار الشرك فى صبب
أم لهم لورجوا أن تفتدى جعلوا … فداءها كل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها … كسرى وصدت صدوداً عن أبى كرب
من عهد إسكندر أوقبل ذلك قد … شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
بكر فما افترعتها كف حادثة … ولا ترقت إليها همة النوب
حتى إذا مخض الله السنين لها … مخض الحليبة كانت زبدة الحقب
أتتهم الكربة السوداء سادرة … منها وكان اسمها فراجة الكرب
جرى لها الفأل نحساً يوم أنقرة … إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
ولما رأت أختها بالأمس قد خرجت … كان الخراب لها أعدى من الحرب
كم بين حيطانها من فارس بطل … قانى الذوائب من آنى دم سرب
بسنة السيف والخطى من دمه … لا سنة الدين والإسلام مختضب
لقد تركت أمير المؤمنين بها … للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهوضحى … يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الضحى رغبت … عن لونها أوكأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة … وظلمة من دخان فى ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت … والشمس واجبة فى ذا ولم تجب
تصرح الدهر تصريح الغمام لها … عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

ويقول فى ختامها:

خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أوذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بنى الأصفر المصفر كاسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

صفات المعتصم:

كانت أظهر صفات المعتصم الشجاعة والإقدام وشدة البأس وكان يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة فأولها عمران الأرض التى يحياها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال ويعيش البهائم وترخص الأسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش

وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة عُشر درهم فلا تؤامرنى فيه. ولم يكن للمعتصم نفوذ فى العلم كأخيه المأمون ولا كأبيه الرشيد وإنما كان همه الجيش وتحسينه.

ومن آثاره اختطاط مدينة سامرا وهانحن أولاء نقص شيئاً من أمرها.

لما ضاقت بغداد عن عسكر المعتصم من الأتراك قال لأحد كتابه إنى أتخوف أن يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلوا غلمانى فإذا اتبعت لى موضع سامرا كنت فوقهم فإن رابنى رائب أتيتهم فى البر والبحر حتى آتى عليهم فقصد كاتبه موضع سامرا وهوعلى دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخاً (١٥٠كليومتراً) فابتاع ديراً كان هناك بخمسة آلاف درهم وابتاع بستاناً كان فى جانبه بمثل ذلك ولما تم أمر البيع خرج المعتصم فى آخر (سنة ٢٢٠) حتى نزل القاطول وهونهر سامرا كان احتفره الرشيد وبنى عليه قصراً فنزل المعتصم هناك وبدأ بالبناء (سنة ٢٢١) فبنى داراً له وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره وبنى مسجداً جامعاً فى طرف الأسواق وأنزل أشناس بمن ضم إليه من القواد كرخ سامرا وهوكرخ فيروز. وما زال البنيان يتسع حتى صارت مدينة من أعظم الحواضر الإسلامية وكادت تضارع بغداد وأعظم اتساع وحضارة لها كان فى عهد المتوكل بن المعتصم وسيذكر ذلك بعد.

وفاة المعتصم:

احتجم المعتصم فى أول يوم من المحرم (سنة ٢٢٧) فأصيب عقب ذلك بعلته التى مات عليه يوم الخميس لثمانى ليال مضت من شهر ربيع الأول من تلك السنة ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات فقال:

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت عليك أيد بالتراب والطين

اذهب فنعم الحفيظ كنت على الدنيا ونعم الظهير للدين

لا جبر الله أمة فقدت مثلك إلا بمثل هارون

ولاية العهد:

ولى المعتصم عهده ابنه هارون ولم يجعل معه فى الولاية غيره.

٩
الواثق

هو أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ولد (سنة ١٨٦) بطريق مكة وبويع بالخلافة عقب وفاة والده فى يوم الخميس (٩ ربيع الأول سنة ٢٢٧) (٥ يناير سنة ٨٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن توفى لست بقين من ذى الحجة (سنة ٢٣٢) (اغسطس سنة ٨٤٧) فكانت مدته خمس سنين وتسعة أشهر و١٥ يوماً وسنه (٣٦سنة)

ويعاصره من الملوك والأمراء المستقلين من كان يعاصر أباه إلا فى مملكة الروم بالقسطنطينية فإن توفيل مات فى السنة التى توفى فيها المعتصم وخلفه ابنه ميخائيل الثالث الملقب بالسكير وكان إذ ذاك صبياً فكانت أمه بدورها تقوم مقامه وفى خراسان حيث توفى عبد الله بن طاهر (سنة ٢٣٠) ولى بعده ابنه طاهر بن عبد الله.

وزراء الواثق:

لم يستوزر الواثق غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه وكان الواثق متغيراً عليه فى حياة أبيه حتى حلف أنه لينكبه إذا صار خليفة لكنه لما استخلف غلب عقله على هواه لأنه لم يجد بين رجاله من يقوم مقام محمد بن عبد الملك فكفر عن يمينه وصار هذا الوزير فى عهده صاحب الأمر والنهى أكثر مما كان فى عهد أبيه.

الجيش:

كانت حال الجيش لعهد الواثق كما كانت فى حياة أبيه إلا أنَّ قَدَم المماليك التى اصطنعهم المعتصم قد توطدت وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم ولا سيما أشناس الذى توجه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر فى شهر رمضان (سنة ٢٢٨) وقد قام قواد الأتراك بأعظم الأعمال الحربية حتى فى جزيرة العرب نفسها التى كانت حمى ما يستطاع أن تتعدى حدوده وهنا نسوق أسباب الاضطراب الذى كان هناك وكيف أزيل.

كان بنوسليـم من قيس عيـلان من أقوى القبـائل العربية وأكـثرها عـدداً وكانوا ينزلون بالقرب من المدينة بالحـرة المعروفة بهم وهى حـرة بنى سليم فاجتـرءوا بالتطاول على الناس حول المدينة بالشر وكانـوا إذا وردوا سوقاً من أسواق الحجاز أخذوا سـعرها كيف شاءوا ثم ترقى بهم الأمر إلى أن أوقعوا بالجارى ناس من كنانة وباهلة فـأصابوهم وقتلوا بعضهم فى جمادى الآخرى (سنة ٢٣٠) وكان رئيسهم عزيزة بن قطاب السلمى فوجه إليهم أمير المدينة محمد بن صالح بن العباس حماد بن جرير الطبرى وكان الواثق أرسله للمدينة فى (٢٠٠) من الشاكرية لئلا يتطرقـها الأعراب فتوجه إليهم حمـاد وقاتلهم بالرويثة على ثلاث مراحل من المدينة وكـانت الهزيمة على جند حـماد بعد أن قـتل وحازت بنوسليم الـكراع والسلاح والثياب وغلظ أمرهم فـاستباحوا القرى والمناهل فيمـا بينها وبين مكة والمدينة حتى لم يمكن أحد أن يسلك تلك الـطريق وتطرقوا من يليهم من قـبائل العـرب فوجه إليـهم الواثق بغا الكبير فى الشاكـرية والأتراك والمغاربة فشخص إلى حرة بنى سليم وعلى مـقدمته طردوش التركى فلقى بنى سليم بقراهم وقتل منهم نحوالخمسين وأسر مثلهم وانهزم سائرهم فدعاهم بغا إلـى الأمان على حكم الواثق فـأتوه واجتـمعوا إليـه فاحـتبس منهم من وصف بـالشر والفـساد وهم زهاء ألف رجل وخلى سبـيل سائرهم ثم رحل بالأسـرى إلى المدينة فى ذى القعدة (سنة ٢٣٠) فحبسهم بهـا وشخص إلى مكة حاجاً. ولما انقضى الموسم انصرف إلى ذات عرق ووجـه إلى بنى هلال من عرض عليـهم مثل مـا عرض على بنى سليم فـأقبلوا فأخـذ من مردتهم وعـتاتهم نحـواً من (٣٠٠رجل) وخلى سائرهم ثم انصـرف إلى المدينة وجعل المحبوسين من بنى هلال مع إخوتهم من بنى سليم وجمعهم جميعاً فى دار يزيد بن معـاوية فى الأغلال والأقيـاد وعدتهم نحو(١٣٠٠رجـل)وسار هوإلى بنى مرة المحـبوسين فنقبوا السجن ليخـرجوا فعلم بهم أهل المدينة فجاءوهم واجتمعـوا عليهم ومنعوهم الخروج حتوا مـحصورين وفى الغد حاربهم أهل المديـنة وكاثروهم فقتلوهم أجمـعين وقتل سودان المدينة من لقوا من الأعراب فى أزقة المدينة ممن دخل يمتار أويزور. كل ذلك تم وبغا غائب فلما قدم ووجدهم قتلوا شق ذلك عليه ووجد وجداً شديداً.

أما مـا فعله ببنى مرة وفـزارة الذين تغلبوا على فـدك فإنه لما قاربهم أرسل إليـهم رجلاً فزارياً يعرض عليهم الأمان ويأتيه بأخبـارهم فلما قدم عليهم الفزارى حذرهم سطوته وزين لهم الهرب فهربوا ودخلوا البرية وخلوا فدكا ولم يستأمن إليه إلا القليل وهرب الباقون إلى موضع من البلقاء من عـمل دمشق. ثم صار إليه جماعة من بطـون غطفان وفزارة وأشجع فلما صاروا إليه استحلفهم الأيمان المؤكدة ألا يتـخلفوا عنه متى دعاهم فحلفوا ثم شخص إلى ضـرية لطلب بنى كلاب ووجـه إليـهم رسله فاجـتمـع إليه منهم نحـو(٣٠٠٠رجل) فاحتبس من أهل الفساد نحواً من (١٣٠٠رجل) ثم قدم بهم المدينة فى رمضان (سنة ٢٣١)

فحبسهم بها ثم شخص إلى مكة حاجاً ورجع إلى المدينة بعد حجه فأرسل إلى من كان استحلف من ثعلبة وأشجع وفزارة فلم يجيبوه وتفرقوا فى البلاد فوجه فى طلبهم فلم تلحق منهم كثير أحد.

وفى (سنة ٢٣٢) أمره الواثق أن يذهب إلى غزو بنى نمير لما كان من عبثهم وفسادهم فى الأرض فمضى نحواليمامة يريدهم فلقى منهم جماعة بموضع يقال له الشريف فحاربوه فقتل منهم نيفاً وخمسين رجلاً وأسر نحواً من (٤٠٠) ثم سار إلى قرية لبنى تميم من عمل اليمامة تدعى مرأة فتابع إلى سكانها رسله يعرض عليهم الأمان ودعاهم إلى السمع والطاعة وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسله ويتفتلون إلى حربه فسار بغا إليهم من مرأة فى أول صفر (سنة ٢٣٢) حتى دخل بخيله وأرسل إليهم أن ائتونى فاحتملت بنوضبة من نمير فركبت جبالها مياسر جبل السود وهوجبل خلف اليمامة أكثر أهله بأهله فأرسل إليهم سرية لم تدركهم ثم إنه سار حتى التقى بهم بموضع يقال له روضة الأبان وبطن السر فجعل يناشدهم ويدعوهم إلى الرجوع إلى طاعة أمير المؤمنين ويكلمهم بذلك محمد بن يوسف الجعفرى فجعلوا يقولون له يا محمد بن يوسف قد والله ولدناك فما رعيت حرمة الرحم ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لنرينك العبر. ولما أصبح الصبح عليهم حملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم أمامهم وفرسانهم وراءهم ونعمهم ومواشيهم من ورائهم وحملوا فهزموا بغا وجيشه وكاد يهلك لولا حصول أمر لم يكن مقصوداً وذلك أنه كان قد وجه من أصحابه نحو(٢٠٠نفس) ليغير على خيل لهم وجدوها بمكان من بلادهم فبينا جيش بغا على شرف الانكسار إذ خرجت هذه الجماعة منصرفة من الموضع التى وجهت إليه فى ظهور بنى نمير فنفخوا فى صفاراتهم ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا أن قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هاربين وأسلم فرسانهم ورجالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالتهم كثير أحد قتلوا عن آخرهم أما الفرسان فطاروا هرباً على ظهور الخيل. وأقام بغا بموضع الواقعة حتى جمعت له الرؤوس واستراح هووأصحابه ثلاثة أيام ثم أرسل الهاربون يطلبون الأمان فأعطاهم إياه فصاروا إليه فقيدهم وحبسهم وأشخصهم معه وقد حاولوا أن يفروا وهم عائدون فضربهم بغا بالسياط ثم سار بهم حتى أتى البصرة فى ذى القعدة (سنة ٢٣٢) وأرسل إلى صالح بن العباس أن يسير بمن قبله من المدينة من بنى كلاب وفزارة ومرة وثعلبة وغيرهم فوافاه صالح ببغداد وساروا جميعاً إلى سامرا وكانت عدة الأسرى جميعاً نحو(٢٣٠٠رجل).

نكبة الكتّاب فى عهد الواثق:

سأل الواثق سماره ذات ليلة عن السبب الذى من أجله نكب الرشيد البرامكة فقال له

أحدهم إن سبب ذلك ما علمه بعد التفتيش من أن البرامكة استهلكوا الأموال وتعللوا فى إنفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع لهم بها ومنهم رجل يقال له أبوالعود أمر له الرشيد بثلاثين ألف درهم فمطلوه بها فدخل على الرشيد ليلة فتحدث عنده ولم يزل يحتال حتى وصل حديثه بقول عمر بن أبى ربيعة:

وعدت هند وما كانت تعد   ليت هنداً أنجزتنا ما تعد

واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

فقال الرشيد أجل والله إنما العاجز من لا يستبد حتى انقضى المجلس وبعد ذلك جد الرشيد فى أمرهم حتى وثب عليهم وأزال نعمتهم فقال الواثق صدق والله جدى إنما العاجز من لا يستبد وأخذ فى ذكر الخيانة وما يستحق أهلها ولم يمض على ذلك أسبوع حتى أوقع بكتابه وعذبهم حتى أدوا المال الذى ظن أنهم اختانوه مما عهد إليهم فى حفظه وهذه أسماء الكتاب ومقدار ما أخذ من كل منهم.

أحمد بن إسرائيل	٨٠٠٠ دينار
سليمان بن وهب كاتب إيتاخ	٤٠٠٠٠٠ دينار
الحسن بن وهب	١٤٠٠٠ دينار
أحمد بن الخصيب وكتابه	١٠٠٠٠٠٠ دينار
إبراهيم بن رباح وكتابه	١٠٠٠٠٠ دينار
نجاح	٦٠٠٠٠ دينار
أبو الوزير	١٤٠٠٠٠ دينار
	ـــ
	١٧٢٢٠٠٠

وذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم.

وكانت العمال تسرع إليهم الثروة لاتساع مجال الخيانة إذ لم يكن هناك دقة فى المحاسبات فإذا رأى الخليفة على العامل مظاهر الثروة فى وقت قريب وتلك الثروة لا تقوم بها أرزاقه التى يتقاضاها حكم الخليفة قطعاً أنه خائن ولا يجد أمامه إلا تلك المصادرة التى لا نظام لها.

العلاقات الخارجية ـ الفداء بين المسلمين والروم:

كانت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم ولم تقدر إحدى الدولتين أن تتغلب على الأخرى وكثيراً ما يكون في يد إحدى الدولتين أسرى من الأخرى ولما كان يهم كل الدولتين أن تخلص أسراها حذراً من الاسترقاق كانتا تتفقان على المفاداة كل أسير بمثله وأول فداء حصل كان في عهد الرشيد على نهر اللامس قريباً من طرطوس فودى فيه بثلاثة آلاف وسبعمائة أسير من المسلمين على يد القاسم بن الرشيد وحصل فداء مثله في عهد أيضاً فودى بألفين وخمسين.

وقد كان الفداء الثالث في عهد الواثق (سنة ٢٣١) أرسل ملك الروم إلى الواثق رسلا يسألونه أن يفادى بمن في يده من أسارى المسلمين فأجاب وانتدب للفداء خاقان الخادم بعد أن أعد من أسرى الروم عدداً كبيراً وقد تقابل الفريقان في يوم عاشوراء (سنة ٢٣١) على نهر اللامس وكان عدد من فودى به من المسلمين (٤٦٠٠) منهم (٦٠٠) نساء وصبيان ومنهم من أهل الذمة نحو (٥٠٠) فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيراً أوكبيراً وقد عقد المسلمون جسراً على النهر وعقد الروم جسراً فكان المسلمون يرسلون الرومي على جسرهم ويرسل الروم المسلم على جسرهم وقد أعطى خاقان الروم ممن كان فضل في يده (١٠٠ نفس) ليكون له عليهم الفضل استظهاراً ومن غريب ما حصل في هذا الفداء أن أحمد بن أبي دؤاد القاضي أرسل مندوباً من قبله يمتحن الأسرى حتى لا يفدى منهم من لا يقول بأن القرآن مخلوق وهذا غلو قد وصل إلى نهايته.

صفات الواثق:

كان الواثق كثير الأكل والشرب واسع المعروف متعطفاً على أهل بيته متفقداً لرعيته وكان محباً للنظر مكرماً لأهله مبغضاً للتقليد وأهله محباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين وكان له مجلس نظر عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم من العقليات والسمعيات في جميع الفروع فكانت سيرته في ذلك سيرة عمه المأمون ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن في عهده شكلاً حاداً أكثر مما كانت في عهد أبيه المعتصم لأن المعتصم كان يتكلف ذلك لمكان وصية أخيه.

وفاة الواثق:

أصيب الواثق بعلة الاستسقاء وكانت سبب وفاته في (٦ ذى الحجة ٢٣٢) وت

(٣٦سنة) وبموته مضى على الدولة العـباسية قـرن كامل. ولم يعهد الواثق لأحـد من بعده بالخلافة فخلافـته من بعده بدء شكل جديد لم تكن له سابقة فى الدولة العبـاسية وقد ختم هذا القرن بـانتهاء الخلفـاء العسكريين الذيـن كانوا يقودون الجـيوش بأنفـسهم ويخـوضون غمرات الموت ولا يستـسلمون لداعى الترف المضنى.

١٠
المتــوكل

هوجعــفر المتـوكل على الله بن المعتــصم بن الرشيــد وأمه أم ولد خوارزمــية يقــال لها شجاع. ولد فى شوال (سنة ٢٠٦) بفم الصلح ولم يكن بالمرضى عنه فى حــياة أخيه حتى كان الواثق قد وكــل به رجلين هما عمر بن فــرج الرخجى ومحمد بن الــعلاء الخادم فكان يحفظانه ويكتبــان بأخباره فى كل وقت وقد جــر عليه ذلك انحراف الوزير محمــد بن عبد الملك الزيات فكان لا يلقــاه لقاء حسناً وكــانت صكاك رزقه لا تختــم له إلا بعناء حتى أن عمر بن فــرج أخذ منه الصك مرة فرمى به فى صــحن المسجد الذى كان عمــر يجلس فيه وكان الذى يصلح من شأنه عند الواثق أحمد بن أبى دؤاد.

ولما توفى الواثق ولم يكن عــهد إلى أحــد اجتمع كــبراء الدولة: ابن أبى دؤاد الــقاضى ومحمد بن عــبد الملك الوزير وعمر بن فرج وأحمد بن خــالد الكاتبان وإيتاخ ووصيف من قواد الأتراك وتناظروا فيمن يولونه الخلافة فأشار محمد بن عبد الملك بمحمد بن الواثق وكاد الأمر يتم له إلا أنهم لما جاءوا له وألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية قال لهم وصيف أما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة وهولا تجوز مــعه الصلاة ثم أشار ابن أبى دؤاد بجعفر بن المعتصم فــاتفق رأيهم عليه وأحضروه فألبــسه أحمد بن أبى دؤاد الطويلة وعمــمه وقبله بين عينيه وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين وبايعه الحاضرون ولقب بالمتوكل على الله ثم بايعته العامة وتم ذلــك كله فى اليوم الذى توفى فية الواثق وهو(٢٤ ذى الحــجة سنة ٢٣٢) (١١ أغسطس سنة ٨٤٧) واستــمر خليفة إلى أن قتل ليلة الخــميس رابع شوال (سنة ٢٤٧) (١١ أغسطس سنة ٨٦١) فكانت مــدته (١٤سنة) وتسعة أشــهر وعشرة أيام وكــانت سِنُّه إذ قتل (٤١سنة). وكان يــعاصره فى بلاد الأندلس عــبد الرحــمن بن الحكم (٢٠٦ـ٢٣٨) ثم ابنه محمد (٢٣٨ـ٢٨٣).

ويعاصره فى بلاد المغرب من الأدارسة محمد بن على بن إدريس الثانى (٢٢١ـ٢٤٢) ثم يحيى بن محمد (٢٣٤).

ويعاصره فى أفريقـية من الأغالبة محمـد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٣٦ـ٢٤٢) ثم أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٤٢ـ ٢٤٩).

ويعاصره فى بلاد اليمن من الدولة الزيادية محمد بن عبد الله بن زياد (٢٠٤ـ٢٤٥) ثم إبراهيم بن محمد (٢٤٥ـ ٢٨٩).

ويعاصره فى خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٣٠ـ٢٤٨).

ويعاصـره من ملوك الروم بالقسطنطينيـة ميخائيل الـثالث الملقب بالـسكير ويعـاصره فى فرنسا شارل الأصلع (٨٤٠ـ٨٧٧).

وزراء الدولة:

كان الوزير الأول لأول عـهد المتـوكل هومحمـد بن عبد الملك الـزيات الذى كان وزيراً لأخيه وأبيه إلا أن المتوكل كان منحرفاً عنه لما كان يفـعله معه فى حياة أخيه من قبح المقابلة وعدم الرعاية وزاد على ذلك أنه أشار بتولية محمد بن الواثق فكانت شهوة الانتقام متمكنة منه ففى سـابع صفر (سنة ٢٣٣) أمر بالقـبض عليه وصادر جـميع ماله من عقـار ومنقول وكذلك ضياع أهل بيته حيث كانت. أما ما ناله من المكروه فى نفسه فهوأعظم من أن يسطر ولم يزل ذلك دأبهم معه حتى مات تحت العذاب. إلى هذا الحد وصل ضعف الوازع الدينى عند هؤلاء القوم ـ الرجل لم يكن على وفـاق مع الخليفة قبل أن يتولى فـأشد ما يكون من عقوبته ألا يستعان به فى عمل ـ الرجل خان فيـما عهد إليه من الأمانات فأقصى عقوبته أن يصادر فى أمواله ـ الرجـل قتل نفساً بدون حق فأقـصى عقوبته أن يقتل فـلِمَ هذا التعذيب الذى سطره المؤرخون أليس ذلك دليلاً على أن شهـوة الانتقام حالت بين القوم وبين دينهم الذى نهى أشد النهى عن التعذيب والمثلة ذلك دليلا على أن صوت العلماء لا يظهر إلا فى الأمور النظرية المحضـة التى لا يترتب عليها عمل ولا أثر فى الحيـاة أما ما تكون آثاره ظلم الناس بأخذ أمـوالهم وإزهاق نفوسهم فلا نكـاد نسمع لهم ركزاً أين هذا مما كان فى عـهد عمر بن الخطاب الذى كانت أمته تحاسبه على كل ما يصدر منه من جليل وحقير.

وكان مـبلغ ما قبض له مع قـيمة مـوجوداته (٩٠٠٠٠دينار) وبين القبض عليـه ووفاته واحد وأربعون يوماً.

ولم يمض على ذلك خمسة أشهر حتى أمـر المتوكل بالقبض على عمر بن فرج الرخجى وهو الكاتب الذى رمى بصك المتـوكل فى صحن المسـجد أيام خلافـة الواثق فقـبض عليه

صودرت أملاكه وكان مقدار ما أخذ منه ومن أخيه محمد بن فرج (٢٧٤٠٠٠دينار)، ١٥٠٠٠٠درهم) سوى القصر والأمتعة والضياع وقد حمل متاعه وفرشه على خمسين جملاً ترت مراراً ثم صالحوه بعد ذلك على أن يدفع (١٠٠٠٠٠٠٠درهم) على أن ترد عليه ضياعه بالأهواز فقط فردت عليه وأطلق من عقاله.

استكتب المتوكل بعد ابن عبد الملك أبا الوزير أحمد بن خالد الذى كان فى حياة الواثق عاماً على عمر بن فرج الرخجى فى ديوان النفقات ولما استكتبه لم يسمه باسم الوزير استمر كاتباً له زمناً قليلاً فإنه فى ذى الحجة من (سنة ٢٣٣) غضب عليه وأمر بمحاسبته حمل نحواً من (٦٠٠٠٠دينار) وحمل بدور دراهم وحلياً وأخذ له من متاع مصر ٦٢سقطاً) و(٣٤ غلاماً) وفرشاً كثيراً وحبس بسببه جماعة من الكتاب وأغرموا من المال قدراً كثيراً.

وبعد أبى الوزير استوزر محمد الفضل الجرجرائى منسوب إلى جرجرايا (وهى بلد من عمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقى) وكان الجرجرائى من أهل الفضل والأدب والشعر وقال صاحب الآداب السلطانية إنه كان عالماً بالغناء مشتهراً به استمر على وزارته إلى (سنة ٢٣٦) وفيها صرفه عن العمل لأنه قال قد ضجرت من الشيوخ وأريد حدثاً أستوزره فمن أجل ذلك صرفه.

اختار بعده لوزارته عبيد الله بن يحيى بن خاقان وبقى وزيراً للمتوكل إلى أن مات وكان حسن الخط له معرفة بالحساب والاستيفاء وكانت فيه عيوب يسترها كرمه وحسن خلقه وعفته ومن أجل ذلك كان الجند يحبونه، وقد حصل فى وزارته حادثة تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال واحتجابهم الأموال لأنفسهم ووقيعتهم بعضهم ببعض وكل ذلك سببه عدم الضبط فى الإدارة المالية. كان نجاح بن سلمة على ديوان التوقيع والتتبع على العمال فكان لذلك مخشى الجانب نافذ الكلمة. وكان الحسن بن مخلد على ديوان الضياع. وموسى بن عبد الملك على ديوان الخراج. وكان بين نجاح وبين ابن خاقان الوزير وحشة ومضادة وكان ميل الحسن وموسى إلى الوزير. احتاج المتوكل فى (سنة ٢٤٥) إلى المال لبناء القصور التى أراد تأسيسها بسامرا. فقال له نجاح أسمى لك قوماً تدفعهم إلىَّ حتى أستخرج لك منهم من الأموال ما يكفيك لبناء مدينتك وسمى له نحواً من عشرين رجلاً: موسى بن عبد الملك وخليفته والحسن بن مخلد وخليفته وعبيد الله بن يحيى الوزير وأخواه وغيرهم من العمال. فأعجب ذلك المتوكل وقال له بكر إلىَّ غداً - وناظر الوزير المتوكل فى ذلك فقال له يا أمير المؤمنين أراد ألا يدع كاتباً ولا قائداً ولا عاملاً إلا أوقع بهم من يقوم بالأعمال يا أمير المؤمنين، وخرج من عنده فدعا موسى بن عبد الملك والحسن بن

مخلد فقال لهما إن دخل نجاح إلى أمير المؤمنين دفعكما إليه فقتلكما وأخذ ما تملكان من مال ولكن اكتبا إلى أمير المؤمنين رقعة تتقبلان به فيها بألفى ألف دينار ففعلا وأوصل الوزير رقعتهما إلى المتوكل وأعانهما بالقول على القبول ثم أدخلهما على المتوكل وحجب نجاحًا ضمنا ذلك ودفع إليهما نجاحا فأخذاه وانتقما منه شر انتقام. أما فى المال فأخذا من نجاح وابنه نحو (١٤٠٠٠٠دينار) سوى قيمة قصورهما وفرشهما ومستغلاتهما بسامرا وبغداد وسوى ضياع لهما كثيرة قبض ذلك كله وأخذ كثير من المال من وكلاء نجاح ومن يتصل به مما كاتبه إسحاق بن سعد الذى كان يتولى خاص أموره فقد أمر المتوكل أن يغرم (٥١٠٠٠دينار) وقيل ولم ذلك قال المتوكل: إنه أخذ منى أيام الواثق حينما كان يخلف عمر بن فرج خمسين ديناراً حتى أطلق أرزاقى فخذوا لكل دينار ألفاً وزيادة ألف فضلاً كما أخذ فضلاً فحبس ونجم عليه ثلاثة أنجم ولم يطلق حتى أدى تعجيل (١٧٠٠٠دينار) وأخذ منه كفلاء بالباقى. وأما نفس نجاح فقد ماتت تحت الضرب والتعذيب.

وبعد وفاة نجاح ضم ديوان التوقيع إلى عبيد الله بن يحيى الوزير ثم توفى موسى بن عبد الله فضم ديوان الخراج على الوزير أيضاً.

من أغرب ما فى هذا التاريخ أن يرتشى العامل من أخى الخليفة حتى يطلق له أرزاقه فما لظن بغيره من أصحاب الأرزاق ماذا يدفعون حتى يوقع لهم على صكاكهم بقبض تلك الأرزاق ؟ ولا يستغرب بعد ذلك ما كان يجتمع إلى هؤلاء الكتاب من الأموال الوفيرة فى الزمن القليل والعمال يعرفون بعضهم بعضاً فيعلم الواحد منهم ما اقتنى الآخر من الأملاك والضياع وما احتجن من المال فإذا بلغ خليفته شيئاً من ذلك هاجت أطماعه فيعمد إلى ما يماثل ما ذكرنا من عقوبة العامل ومصادرة أمواله.

وما من ظالم إلا سيبلى بظالم

وتلك أمور تعم الفساد فى جسم الدولة.

أحمد بن أبى دؤاد: هوالرجل الموثوق به فى عهد المأمون وعظيم دولة المعتصم والواثق وقاضى القضاة فى زمنهما والذى كان يعطف على المتوكل فى عهد أخيه الواثق حتى استرضاه عنه بعد أن كان قد غضب عليه فلما ولى المتوكل حفظ له مقامه ورتبته وسابقته فكان قاضى القضاة وعظيم الدولة. وفى(سنة ٢٣٣) فلج فعجز عن العمل فكان ابنه أبوالوليد يقوم مقامه فى القضاء وولاية المظالم إلا أن الرجل لم تكن سيرته سيرة أبيه فكانت النتيجة أن غضب المتوكل على أحمد بن أبى دؤاد وعلى ابنه فعزلهما عن المظالم والقضاء ورضى عن يحيى بن أكثم فأشخصه من بغداد إلى سامرا وولاه قضاء القضاة

والمظالم. وأمر بالتوكيل على ضياع أحمد بن أبى دؤاد لخمس بقين من صفر (سنة ٢٣٧) وحبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول ابنه محمد فى ديوان الخراج وحبس إخوته عند عبد الله بن السرى خليفة صاحب الشرطة وبعد ذلك بيومين حمل أبوالوليد (٢٠٠٠٠دينار) وجواهر بقيمة (٢٠٠٠٠دينار) ثم صولح بعد ذلك على (١٦٠٠٠٠٠درهم) وأشهد عليهم جميعاً ببيع كل ضيعة لهم وفى أواخر (سنة ٢٣٩) مات محمد بن أحمد بن أبى دؤاد ببغداد وبعد وفاته بعشرين يوماً توفى أبوه أحمد وهم على تلك الحال.

العلويون:

امتاز المتوكل عن سائر أهل بيته بكراهة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وأهل بيته وهذا ما يعرف فى العقائد بالنصب وهوضد التشيع وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى علياً وأهله بأخذ المال والدم وكان فيما يقال يبغض ممن تقدمه من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق لمحبة علىّ وأهل بيته وكان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالنصب وبغض علىّ فكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم ثم حسنوا الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين. ومن آثار تلك الكراهة أنه أمر فى (سنة ٢٣٧) بهدم قبر الحسين بن علىّ بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى فى الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبق فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه.

وكان إمام الإمامية فى عهده أبو الحسن علىّ الهادى بن محمد الجواد بن علىّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب سعى به إلى المتوكل فأقدمه من المدينة إلى سامرا التى كانت تعرف بالعسكر فلقب بالعسكرى وقد ظل مقيماً بها نحوعشرين سنة ومات بها ولما جاء سامرا لم تنقطع السعايات عنه فقيل له إن فى منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته فوجه إليه ليلاً من هجم على منزله وهو غافل فوجد فى بيت وحده عليه مدرعة من شعر ولا بساط فى البيت إلا الرمل والحصى وعلى رأسه ملفة من صوف وهويقرأ ويدعو فحمل إلى المتوكل فى جوف الليل فمثل بين يديه والمتوكل يشرب فأجلسه إلى جنبه وعرض عليه الكأس فاستعفى فأعفه ثم قال له أنشدنى شعراً فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم فأودعوا حفرا يا بئسما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا	أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت منعمة	من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا	فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم	ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا	فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة	وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

فبكى المتوكل حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضى بها دينه ورده إلى منزله مكرماً.

وفى عهد المتوكل أتى بيحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن علىّ بن الحسين من بعض النواحى وكان قد جمع جمعاً فضربه عمر بن فرج ثمانى عشرة مقرعة وحبس ببغداد فى المطبق.

الجيش:

كان الجيش على العهد الذى كان عليه فى مدة الواثق والمعتصم وكلما قدم العهد زاد للأتراك نفوذاً وقوة وقد أحس المتوكل بتوغل الأتراك فى الدولة واستبدادهم بأمور الخلافة وإدارتها وجيشها فأحب أن يضعف شوكتهم ويقلل من نفوذهم فبدأ بإيتاخ الذى كان على الجيش والمغاربة والأتراك والموالى والبريد والحجابة ودار الخلافة وأراد المتوكل الإيقاع به ليتخلص من هذا السلطان الواسع فرأى أن ذلك لا يمكنه معه وهو بسامرا بين قومه وجنده فدس إليه من أشار عليه بالاستئذان فى الحج ففعل فأذن له المتوكل وصيره أمير كل بلد يدخله وخلع عليه وركب معه جميع القواد وخرج معه من الشاكرية والقواد والغلمان سوى غلمانه وحشمه بشر كثير فلما حج وانصرف إلى العراق وجه إليه المتوكل بكسوة وألطاف وأمر الرسول أن يلقاه بالكوفة أو ببعض الطريق وتقدم إلى عامله على شرطة بغداد وهو إسحاق بن إبراهيم المصعبى بأمره فيه. فلما وصل بغداد قال له إسحاق بن إبراهيم إن أمير المؤمنين أراد أن تدخل بغداد وأن يلقاك بنوهاشم ووجوه الناس وأن تقعد لهم فى دار خزيمة بن خازم فتأمر لهم بجوائز: فلما صار إيتاخ بالقرب من دار خزيمة حجز عنه غلمانه

ودخل الدار وحده فكان فيها سجنه ثم نقل إلى منزل إسحاق فأدخل ناحية منه وقيد وأثقل بالحديد فى عنقه ورجليه ثم قدم بابنيه منصور ومظفر وبكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد فحبسوا وكانت الشدة التى عومل بها إيتاخ سبباً لوفاته فمات (سنة ٢٣٥) وأما ابنه فبقيا فى الحبس حياة المتوكل ثم أطلقهما المستعين بعده.

ولكراهة المتوكل لهؤلاء الغلمان ورؤسائهم كره من أجلهم المدينة التى أنشئت لهم فعزم أن يغير حاضرة خلافته فاختار (سنة ٢٤٣)أن يجعل دمشق حاضرته فشخص إليها ونقل دواوين الملك وأمر بالبناء بها فتحرك الأتراك فى أرزاقهم وأرزاق عيالهم مريدين التشغيب عليه لأنهم ظنوا أن المتوكل يريد أن يستعين بسلطان العرب عليهم حيث اختار بلاد الشام فأمر المتوكل لهم بما أرضاهم وبعد أن أقام بدمشق أياماً ظهر أنه استوبأ البلد لأن الهواء بارد ندى والماء ثقيل والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضى عامة الليل وغلت فيها الأسعار وحال الثلج بن السابلة والميرة فبارحها عائداً إلى سامرا ويظهر أن الأتراك هم الذين حملوه على العودة. وفى (سنة ٢٤٥) أمر ببناء الماحوزة وسماها الجعفرى وأقطع القواد وأصابه وجد فى بنائها وأمر بنقض القصر المختار والبديع من قصور سامرا وحمل ساجهما إلى الجعفرى وأنفق عليها فيما قيل أكثر من ألفى ألف دينار وكان يسميه هووأصحابه المتوكلية وكانت بالقرب من سامرا وبنى فيها قصراً سماه لؤلؤة لم ير مثله فى علوه وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه من موضع يقال له كرمى على رأس خمسة فراسخ فوق الماحوزة جعله شرباً لما حوله من فوه النهر وقدر للنهر من النفقة (٢٠٠٠٠٠دينار) لكنه مات قبل أن يتم فأهمل وهذه المدينة خربت بعد قتل المتوكل. ولما انتقل إلى مدينته الجديدة شاع أنه عزم على الفتك بوصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ولكن لم يتأت له ذلك لأنهم تغدوا به قبل أن يتعشى بهم كما نبينه فى خبر مقتله: وقد حصلت حوادث فى أطراف الدولة فى عهد المتوكل فأطفئت، منها:

أولاً: حادثة محمد بن البعيث بن حليس من ولد عتيب بن عمرو بن هنب بن أقصى بن دعمى بن جديلة فى مدينة مرند وهى من مشاهير مدن أذربيجان استدارتها فرسخان وبينها وبين تبرين يومان كانت فى الأصل قرية صغيرة فنزلها حليس أبوالبعيث ثم حصنها البعيث ثم محمد ابنه وبنى بها محمد قصراً. وكان محمد بن البعيث محبوساً فى حبس إسحاق بن إبراهيم فتكلم فيه بغا الشرابى وأخذ منه الكفلاء وأطلق فهرب إلى مرند وهى موضعة من أذربيجان فرم ما كان وهى من سورها وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرهم فصار فى نحومن (٢٢٠٠رجل) وكان الوالى بأذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة فقصر فى طلبه فولى المتوكل حمدويه بن على بن الفضل السعدى أذربيجان ووجه

من سامـرا على البريد فلما صار إليـها جمع الجند والشاكـرية ومن استجاب له فـصار فى عشرة آلاف فزحف إلى ابن البعيث فألجأه إلى مدينة مرند ولما طالت مدته وجه إليه المتوكل زيرك التركى فى عدد كـبير من الأتراك فلم يغن شيئـاً فوجه إليه عمرو بن سـيسل بن كال فكذلك فاختار له بغا الشرابى فى (٤٠٠٠رجل) ما بين تركى وشاركى ومغربى وكان القواد الذين سبـقوه قد زحفـوا إلى مدينة مرند،وقطعـوا ما حولها من الشـجر شجر الغـياض، ونصبـوا عليها عـشرين منجنيقـاً، وبنوا بحذاء المدينة ما يـستكنون فيـه ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثل ذلك وما زالوا على ذلك حتى قرب منهم بغا الشرابى ومعه أمانات لوجوه أصـحاب ابن البعيث ولا بـن البعيث أن ينزلوا وينزل على حكم أمـير المؤمنين وإلا قاتلهم فإن ظفر بهم لم يستـبق منهم أحداً ومن نزل فله الأمان وأرسلت لهم هذه الأمانات مع عيسى بن الشيخ الشيبانى وكان عامـة من مع ابن البعيث من ربيعة فنزل منهم قوم كثير من القلعة بالحبال ثم فـتح باب القلعة جماعة ممن خانوا ابن البـعيث فدخلت جنود المتوكل المدينة وقد أراد ابن البـعيث أن يهـرب فأدرك وأخذت حـرمه وأخذ نحـو(٢٠) من رجاله فوافاهم بغا الشرابى وقد تم الأمر فكتب إلى المتوكل بالفتح.

ثم عاد إلى سامرا ومـعه أسراء فأمر المتوكل بحبـسهم جميعاً ثم أتى بابن البـعيث فأمر بضرب عنقه فطرح على نطع وجاء السيافون فلوحوا له فقال المتوكل وأغلظ عليه: ما دعاك يا محمد إلى ما صنعت قال: الشـقوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه وإن لى فيك لظنين أسبقهما إلى قلبى أولاهما بك وهوالعفو، ثم اندفع بلا فصل فقال:

أبى النـاس إلا أنك اليـوم قـاتلى ... إمـام الهـدى والصـفح بالناس أجـمل

وهل أنـا إلا جـبـلة مـن خطيـئـة ... وعـفـوك من نور النـبـوة يجـبـل

فـإنـك خـيـر الـسـابقين إلى الـعـلا ... ولا شك أن خـيـر الفـعـالين تفـعـل

فالتفت المتوكل إلى علىّ بن الجهم وقال إن معه لأدباً وعفا عنه وكـان ابن البعيث أديباً شجاعاً يقال إن له أشعاراً نظمها بالفارسية. وكان ابن البعيث لما هرب قال:

كم قـد قضيت أمـوراً كان أهملهـا ... غـيـرى وقـد أخـذ الإفـلاس بالكظم

لا تعـذلـينى فـيـمـا ليس ينفـعنى ... إليـك عنى جـرى المقـدار بالقـلم

سـأتلف المال فـى عـسـر وفى يسـر ... إن الجـواد الذى يـعطى علـى العـدم

ولم يمكث ابن البعـيث بعد ذلك كثيـراً فإنه توفى بعد شهـر ثم أطلق بنوه الثلاثة وهم

حلبس والبعيث وجعفر وصاروا فى عداد الشاكرية مع عبيد الله بن يحيى بن خاقان وأجريت عليهم الأنزال:

ثانياً: اضطراب أرمينية. كان لبغا الشرابى ولاية أرمينية وأذربيجان وابنه فارس خليفته فولى عليها بالنيابة عنه أبا سعيد محمد بن يوسف المروزى وفى شوال (٢٣٦) مات فجأة فولى بعده ابنه يوسف بن محمد ولى حربها وخراجها فشخص إليها فضبطها ووجه عماله فى كل ناحية وبينا هو فى عمله خرج عليه رجل من بطارقة أرمينية وهو كبير البطارقة واسمه بقراط بن أشوط خرج يطلب الإمارة لنفسه فأخذه يوسف بن محمد فقيده وبعث به إلى باب الخليفة فهاج ذلك من بطارقة أرمينية فأجمعوا أمرهم على الخروج على يوسف وكان يقيم بمدينة طرون فحصروه بها ولما خرج لقتالهم قاتلوه فقتلوه وقتلوا أصحابه فلما علم بذلك المتوكل بعث بغا الشرابى إلى أرمينية مطالباً بدمه فشخص إليها من ناحية الجزيرة فبدأ بأرزن وكان بها موسى بن زرارة الذى وافق البطارقة على الفتك بيوسف فحمله بغا إلى باب الخليفة ثم سار حتى أناخ بجبل الخويثية وهم جملة أهل أرمينية وقتلة يوسف بن محمد فحاربهم وظفر بهم فقتل زهاء ثلاثين ألفاً وسبى منهم خلقاً كثيراً ثم سار مخترقاً بلاد أرمينية لإرهاب عصاتها حتى بلغ دبيل فأقام بها شهراً ومنها سار إلى تفليس ففى يوم السبت (١٠ ربيع أول سنة ٢٣٧) وجه زيرك التركى الكر عليه وتفليس فى الجانب الغربى وصفدبيل فى الجانب الشرقى وكان معسكر بغا فى الشرق وكان غرضهم من ذلك إخضاع إسحاق بن إسماعيل مولى بنى أمية الثائر بها فناوشوه القتال فخرج لقتالهم فبعث بغا بالنفاطين فضربوا المدينة بالنار فأقبل ابن إسماعيل إلى المدينة لينظر فإذا النار قد أخذت فى قصره ثم أتاه الأتراك والمغاربة فأخذوه أسيراً وأخذوا ابنه عمراً فأتوا بهما بغا فأمر بضرب عنقه ويقال إنه احترق فى المدينة (٥٠٠٠٠إنسان) وأسر من بقى حياً فيها وكان إسحاق قد حصنها وحفر خندقها وجعل فيها مقاتلة من الخويثية وغيرهم وأعطاهم بغا الأمان على أن يضعوا أسلحتهم ويذهبوا حيث شاءوا وكان إسحاق مصاهراً لملك السرير تزوج بنته. ولم يزل بغا يجوس خلال هذه الديار حتى استنزل أكثر العصاة من معاقلهم وأخذ معه كثيراً من بطارقة أذربيجان وأران.

الدولة اليعفرية:

فى آخر عهد المتوكل ابتدأت الدولة اليعفرية بصنعاء وكان جدهم عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالى نائباً عن جعفر بن سليمان بن على الهاشمى الذى كان والياً للمعتصم على نجد اليمن وصنعاء وما إليها ولما توفى عبد الرحيم قام فى الولاية.مقامه ابنه يعفر بن عبد الرحيم وهورأس الدولة ومبدأ استقلالها إلا أنه كان يهاب آل زياد ويدفع لهم خراجاً يحمل إلى

زبيد كأنه عـامل لهم ونائب عنهم وكان ابتداء استـقلال يعفر بن عـبد الرحيم (سنة ٢٤٧) واستمر ملك صنعاء فى أعقابه إلى (سنة ٣٨٧) وهذه أسماء ملوكهم:

١ـ يعفر بن عبد الرحيم	٢٤٧ ـ ٢٥٩
٢ـ محمد بن يعفر	٢٥٩ ـ ٢٧٩
٣ـ عبد القادر أحمد بن يعفر	٢٧٩ ـ ٢٧٩
٤ـ إبراهيم بن محمد	٢٧٩ ـ ٢٨٥
٥ـ أسعد بن إبراهيم	٢٨٥ ـ ٢٨٨
فترة لأئمة صنعاء والقرامطة	٢٨٨ ـ ٣٠٣
٦ـ أسعد بن إبراهيم مرة ثانية	٣٠٣ ـ ٣٣٢
٧ـ محمد بن إبراهيم	٣٣٢ ـ ٣٥٢
٨ ـ عبد الله بن قحطان	٣٥٢ ـ ٣٨٧

وقد اتبـعنا فى ثبت هذه الدولة ما جـاء فى تاريخ الأمم الإسلاميـة للمؤلف «لين بول» وفيه بعض مخـالفة لما فى تاريخ الدولة الإسلامية للشيخ دحـلان ا هـ. والحوالى نسبة إلى عبد الله بن حوالة الأزدى صاحب رسول الله ﷺ.

العلاقات الخارجية:

كانت الحـروب بين المسلمين وبين الروم لا تزال دائمة الاتصـال براً وبحراً لا تنقطع إلا لهدنة وقتية.

ففى (سنة ٢٣٨) أغار الروم على مصر من جهة دمياط وكان أمـير مصر قد أمر حاميتها أن يحضروا إليـه بالفسطاط ليتجـمل بهم فلما جاءها الروم بمراكـبهم لم يجدوا بها حـامية وكانوا فى نحو(٣٠٠مركب) فدخلوا البلد وعاثوا فيـه وأحرقوا دوره والمسجد الجامع وسبوا كثيراً من نساء المسلمين وأهل الذمة وأخـذوا ما وصلت إليه أيديهم من المغانم ثم عادوا إلى بلادهم لم يكلم أحد منهم كلماً. وكان المسلمون يفـعلون مثل ذلك فى صوائفهم من جهة الدروب التى تلاصق المملكة الإسلامية من الجهة الشمالية وفى بحر الروم.

وفى (سنة ٢٤١) كـان الفـداء الـرابع بين المسلمين والروم علـى نهـر اللامس فى (١٢

شوال) وكان القائم به شنيف خادم المتوكل وحضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمى القاضى وعلى بن يحيى الأرمنى أمير الثغور الشامية وكانت عدة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ٢١٠٠ رجل وامرأة) على رواية المقريزى فى الخطط وروى الطبرى أن عدة أسرى المسلمين كانت (٧٨٥إنساناً) ومن النساء (١٢٥امرأة) قال المقريزى وكان من الروم من النصارى المأسورين من أرض الإسلام مائة رجل ونيف فعوضوا مكانهم عدة أعلاج.

وفى (سنة ٢٤٢) خرجت الروم من ناحية شمشاط بعد خروج على بن يحيى الأرمنى من الصائفة حتى قاربوا آمد ثم خرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا عدة قرى وأسروا عدداً عظيماً من الأهلين ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم فخرج فى أثرهم قربياس وعمر بن عبد الله الأقطع وقوم من المتطوعة فلم يلحقوا منهم أحداً فكتب إلى على بن يحيى أن يسير إلى بلادهم شاتياً.

وفى (سنة ٢٤٤) وجه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم فى شهر ربيع الآخر فغزوا الصائفة فافتتح صملة.

وفى (سنة ٢٤٥) أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا نحواً من (٥٠٠) وغزا على بن يحيى الأرمنى الصائفة.

وفى (سنة ٢٤٦)كان الفداء السادس بين المسلمين والروم فى صفر على يد على بن يحيى الأرمنى ففودى بألفين وثلثمائة وسبعة وستين نفساً.

صفات المتوكل وأخلاقه:

ولم يكن المتوكل كمن قبله فى حب النظر والجدل بل كان ميالاً إلى التقليد فأمر لأول ولايته بترك النظر والمباحثة والجدل والترك لما كان عليه الناس فى أيام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث وإظهار السنة.

لم يكن المتوكل ممن يوصف فى عطائه بالبذل والجود ولا بتركه وإمساكه بخلاً ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس ظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل فلما جاء المتوكل أحدث ذلك كله فاتبعه فيها أكثر خواصه ورعيته فلم يكن فى وزرائه والمتقدمين من كتابه من يوصف بجود ولا أفضال ولا يتعالى عن مجون أوطرب دخل عليه أبوعبادة البحترى الشاعر المشهور فأنشده قصيدة يمدحه بها قال فيها.

عن أى ثغر تبتسم   وبأى طرف تحتكم

حسن يضئ بحسنه | والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر الـ | ـمتوكل بن المعتصم
المرتضى ابن المجتبى | والمنعم ابن المنتقم
أما الرعية فهى من | أمان عدلك فى حرم
يا بانى المجد الذى | قد كان قوض فانهدم
أسلم لدين محمد | فإذا سلمت فقد سلم
نلنا الهدى بعد العمى | بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصارف. فوثب أبوالعنبس فقال: يا أمير المؤمنين تأمر برده فقد والله عارضته فى قصيدته هذه فأمر برده فأخذ ينشد أبياتاً هزلية غثة لم أستحسن إيرادها فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه وفحص برجله اليسرى وقال يدفع إلى أبى العنبس عشرة آلاف درهم فقال الفتح بن خاقان ياسيدى البحترى الذى هجا وأسمع المكروه ينصرف خائباً فقال ويدفع على البحترى عشرة آلاف درهم فوصل الجاد فى كرامة الهازل.

وكان ينفر من استعمال أهل الذمة فى الدواوين ويكره أن يظهروا فى الطريق بمظهر المسلمين ولذلك أصدر أمره فى (سنة ٢٣٥) أن يلبسوا زياً خاصاً بهم وهوالطيالسة العسلية والزنانير وأن تكون لهم سروج خاصة بهم لركوبهم ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى يجرى فيها أحكامهم على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم وكتب منشوراً إلى عماله فى الآفاق بذلك كتبه إبراهيم بن العباس الصولى فى شوال (سنة ٢٣٥).

قال المسعودى وكانت أيام المتوكل فى حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء كما قال بعضهم كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر وأمانى الحب وأيام الشباب.

وتتعادل عند المحدثين سيئاته وحسناته، فإبطاله المناقشة فى القرآن وحدوثه ترفعه إلى أعلى الدرجات وهدمه قبر الحسين يحطه إلى أسفل الدرجات فكأنه عندهم لا عليه ولا له. أما الحكم على زمنه بما كان من مصادرة الكُتَّاب وعقوباتهم الشديدة فلم يكن محل عناية من أحد.

ولاية العهد:

تشبه المتوكل فى كثير من أعماله بجده الرشيد ومن ذلك توليته العهد؛ فقد عقد الولاية لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر ومحمد المعتز وإبراهيم المؤيد فى (٢٧ذى الحجة سنة ٢٣٥) وقسم البلاد بينهم.

فجعل لأكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية الجزرية وديار مصر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكروياجرمى وتكرت وطساسيج السواد وكور دجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفرج بيت الذهب وكور الأهواز والمستغلات السامرا وماه الكوفة وماه البصرة وماه سبذان ومهرجان قذق وشهرزور ووارباد ويصامغان وأصبهان وقم وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة إلى الجبال وصدقات العرب بالبصرة.

وجعل لابنه المعتز كور خراسان وما يضاف إليه وطبرستان والرى وأرمينية وأذربيجان وكور فارس وضم إليه فى (سنة ٢٤٠) خزن بيوت الأموال فى جميع الآفاق ودور الضرب، وأمر بضرب اسمه على الدراهم.

وجعل لابنه المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين.

وكتب بينهم كتاباً يشبه الكتاب الذى كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون والقاسم. وقد جعل المتوكل لا بنيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال فى أعمالهما إذا آلت الخلافة للمنتصر بحيث لا يجوز أن يشرك فى شئ من أعمال أحدهما أحداً ولا يوجه عليه أميناً ولا كاتباً ولا بريداً ولا يضرب على يده فى قليل ولا كثير وكذلك جعل على المعتز للمؤيد إذا آلت الخلافة للمعتز. وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ نسخة بخزانة أمير المؤمنين وعند كل من أولياء العهد نسخة وهذا نموذج مما قيل من الشعر فى هذه البيعة وهو ينم على نفاق قائله لأن القوم لم ينسوا بعد ما كان بين أولاد الرشيد. قال إبراهيم بن العباس الصولى:

أضحت عرى الإسلام وهى منوطة ... بالنصر والإعزاز والتأييد

بخليفة من هاشم وثلاثة ... كنفوا الخلافة من ولاة عهود

قمر توالت حوله أقماره ... يكنفن مطلع سعده بسعود

كنفتهم الآباء واكتنفت بهم ... فسموا بأكرم أنفس وجدود

مقتل المتوكل:

لم تكن قلوب كبار الأتراك مطمئنة إلى المتوكل، فقد وقع فى أنفسهم أنه يريد تدبير المكايد لهم حتى يتخلص منهم واحداً بعد واحد، فأخذتهم من ذلك وحشة وكان وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر ولى العهد مائلين إلى المعتز. فأوغرا قلب أبيه عليه حتى هم أن يعزله من ولاية العهد فاجتمع لذلك الخصمان قواد الأتراك وولى العهد. مال الأتراك إلى المنتصر ليستعينوا به فى تنفيذ غرضهم ومال إليهم ليحفظ لنفسه الخلافة عاجلاً. ومما زاد فى إغراء المنتصر أن المتوكل اشتكى فأمره أن يصلى بالناس يوم الجمعة فقال عبيد الله والفتح للمتوكل مر أبا عبد الله المعتز بالله بالصلاة لتشرفه بذلك فى هذا اليوم الشريف فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعا فقد بلغ الله به فأمره المتوكل بالصلاة فركب وصلى بالناس وأقام المنتصر فى منزله وفى الجمعة الثانية أراد المتوكل أن يصلى المنتصر بالناس فحسنا له أن يركب هو لئلا يرجف الناس بعلته ففعل. وكل ذلك زاد المنتصر حقداً وخوفاً على الخلافة أن تفوته. ويقال إن المتوكل اتفق مع الفتح بن خاقان على الفتك بالمنتصر وقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ولم يكن هذا السر ليستتر مع النبيذ والاستهتار بشربه فاتفق القوم على أن يفتكوا بالمتوكل.

وقد تولى كبر ذلك بغا الصغير المعروف بالشرابى فإنه أعد لذلك قوماً فى مقدمتهم باغر التركى الذى كان يقوم بحراسة المتوكل وأعد معه عشرة من الأجناد فدخلوا القصر وسيوفهم مسلولة والمتوكل قد أخذ منه الشراب فابتدره أحدهم بضربة وثنى عليه بأخرى أتت على نفسه، وكان معه الفتح بن خاقان فقتل معه، وكان قتله ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال (سنة ٢٤٨) ويعجبنى ما قاله بعض شعراء الوقت فى تلك الحادثة:

لا حزن إلا أراه دون ما أجد	وهل كمن فقدت عيناى مفتقد
لا يبعدن هالك كانت منيته	كما هوى عن غطاء الزبية الأسد
لا يدفع الناس ضيماً بعد ليلتهم	إذ لا تمد إلى الجانى عليك يد
لوأن سيفى وعقلى حاضران له	أبليته الجهد إذ لم يبله أحد
هلا أتاه أعاديه مجاهرة	والحرب تسعر والأبطال تطرد
فخر فوق سرير الملك منجدلاً	لم يحمه ملكه لما انقضى الأمد
وأصبح الناس فوضى يعجبون له	ليثاً صريعاً تنزى حوله النقد
علتك أسياف من لا دونه أحد	وليس فوقك إلا الواحد الصمد

أضحى شهيد بنى العباس موعظة لكل ذى عزة فى رأسه صيد
خليفة لم ينل ما ناله أحد ولم يضع مثله روح ولا جسد
كم فى أديمك من فوهاء هادرة من الجوائف يغلى فوقها الزبد
إذا بكيت فإن الدمع منهمل وإن ونيت فإن القول مطرد
قد كنت أسرف فى مالى وتخلف لى فعلمتنى الليالى كيف أقتصد
لما اعتقدتم أناس لا حلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
فلوجعلتم على الأحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذع والأنساب تجمعهم والمجد والدين والأرحام والبلد

وقال على بن الجهم من قصيدة له:

عبيد أمير المؤمنين قتلته وأعظم آفات الملوك عبيدها
بنى هاشم صبراً فكل مصيبة سيبلى على وجه الزمان جديدها

وهذه الحادثة أول ثمرة لغرس المعتصم فإنه ملك الخلافة قوماً لا حلوم لهم وليس لهم من الأخلاق ما يمنعهم مما فعلوا ولا من العصبية ما يجعل جانبهم مأموناً وأجل من ذلك أن يكون ولى العهد شريكاً فى دم أبيه وهذا أيضاً أول حادث من نوعه يعجبنى ما قاله البحترى:

أكان ولى العهد أضمر غدره فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلا ملك الباقى تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

١١
المنتصر

هو محمد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها حبشية ولد(سنة ٢٢٢) وعقد له أبوه ولاية العهد (سنة ٢٣٥) وسنه ثلاث عشرة سنة ولما قتل أبوه بايعه قواد الأتراك عقيب مقتله فى (٤شوال سنة ٢٤٧) (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) واستمر خليفة إلى أن توفى يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر (سنة ٢٤٨) (٧يونيه سنة ٨٦٢) فكانت مدته التى تعجلها بقتل أبيه ستة أشهر.

استوزر المنتصر أحمد بن الخصيب وكان كاتبه قبل أن يستخلف وكان مقصراً فى صناعته مطعوناً عليه فى عقله وكانت فيه مروءة وحدة وطيش فمن احتمله بلغ منه ما أراد وقد وصفه المسعودى بأنه كان قليل الخير كثير الشر وقد ندم المنتصر على ما فعل من تقليده الوزارة ونفيه عبيد الله بن خاقان وزير أبيه بسبب ما شاع من حدة ابن الخصيب وطيشه ومن ذلك أنه ركب ذات يوم فتظلم إليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها فى صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك، فقال بعض شعراء ذلك الزمان:

قل للخليفة يا ابن عم محمد ... أشكل وزيرك إنه شكال

أشكله عن ركل الرجال وإن ترد ... مالاً فعند وزيرك الأموال

الجيش:

بقتل المتوكل واستيلاء المنتصر الشاب زادت الأتراك قوة فى الدولة على قوتهم لأن أيديهم امتدت إلى حياة الخلفاء فقتلوا الخليفة وساقوا الخلافة إلى خليفة فأنشبوا أظفارهم منذ ذلك فى جسم الدولة ولم يكن هناك من حيلة للتخلص منهم لما دب إلى قلوب الخلفاء من الهيبة ورعاية جانبهم ومما يدل على ذلك أن الأتراك لم يكونوا يحبون أن تكون ولاية العهد للمعتز والمؤيد ابنى المتوكل فأشاروا على المنتصر بخلعهما فأحضرا دار الخلافة وطلب منهما أن يكتبا طالبين أن يخلعا من ولاية العهد لضعفهما عن ذلك فرضى المؤيد وأبى المعتز

فقال له المؤيد يا جاهل تراهم قد نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا ثم تمتنع عليهم، اخلع ويلك ولا تراجعهم. وما زال به حتى أجاب وكتبا ما أملى عليهما فى ذلك. وهذا ما كتبه «بسم الله الرحمن الرحيم إن أمير المؤمنين المتوكل على الله رضى الله عنه قلدنى هذا الأمر وبايع لى وأنا صغير من غير إرادتى ومحبتى، فلما فهمت أمرى علمت أنى لا أقوم بما قلدنى ولا أصلح لخلافة المسلمين فمن كانت بيعتى فى عنقه فهو من نقضها فى حل وقد حللتكم منها وأبرأتكم من أيمانكم ولا عهد لى فى رقابكم ولا عقد وأنتم براء من ذلك». ثم دخلا على المنتصر فاعترفا بما فى الكتاب ثم أقبل عليهما والأتراك وقوف وقال لهما أترياني خلعتكما طمعاً فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له والله ما طمعت فى ذلك ساعة قط وإذا لم يكن فى ذلك طمع فوالله لأن يليها بنوأبى أحب إلىَّ من أن يليها بنوعمى ولكن هؤلاء (وأومأ إلى سائر الموالى ممن هوقائم وقاعد) ألحوا علىَّ فى خلعكما فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما فما تريانى صانعاً أقتله فوالله ما تفى دماؤهم كلهم بدم بعضكم، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل علىَّ.

فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ما عقده المتوكل وأكده بالأيمان والمواثيق والعهود. وقد كتب المنتصر بذلك إلى الآفاق وظهر فى كتابه براعة المنشئين فى ذلك الوقت وإن لم تظهر فيه براعة الأخلاق الفاضلة وحفظ العهود والمواثيق وكان الكاتب له أحمد بن الخصيب.

صفات المنتصر:

لئن كان الغضب قد حمل المنتصر على تذليل السبيل لإهراق دم أبيه فإنه كان لا يزال ذا نفس تحس فتتأثر فلم يزل يلاقى أهوال التوبيخ فى يقظته ومنامه حتى أسقم ذلك بدنه وأذل نفسه. دخل عليه عبد الله بن عمر البازيار ذات يوم وهو يبكى وينتحب فسأله عن سبب بكائه فقال كنت نائماً فرأيت كأن المتوكل قد جاءنى فقال لى ويلك يا محمد قتلتنى وظلمتنى وغبنتنى خلافتى والله لا تمتعت بعدى إلا أياماً يسيرة ثم مصيرك إلى النار فانتبهت وما أملك عينى ولا جزعى. فهون عليه عبد الله الأمر وكان كثيراً ما يقول إذا سئل عن حاله ذهبت والله منى الدنيا والآخرة، فكان الرجل يكابد نيراناً تضطرم بين جنبيه جزاء فعلته وكان يهم أن يكفر سيئته فينتقم من قتلة أبيه لولا أنه أحس بأن الذين تمكنوا من قتل أبيه لا يبعد عليهم أن يكرروا التجربة فيه فكان يفكر فى تفريق جمعهم، وأثرت عنه كلمات فى ذلك ولكن قوتهم كانت أكبر من أن تتأثر بتفكير ذلك الخليفة الشاب.

كان من خلق المنتصـر سعة الاحتمال وكثـرة المعروف والرغبة فى الخير والسـخاء والعفة وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة إلى مثله ومما حببه إلى الناس إزالته عن آل أبى طالب ما كـان قد أوحشهم فتقـدم بالكف عنهم وترك البحث عن أخبـارهم وألا يمنع أحد زيارة قـبر الحسين رضى الله عنه ولا قـبر غـيره من آل أبى طالب وأطلق أوقاف الطالبيين وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم ومما يؤثر من قوله (إن لذة العفو أعـذب من لذة التشفى وأقبح أفـعال المقتدر الانتـقام) وقد أظهر الإنصـاف فى الرعية فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له.

وفاة المنتصر:

قال الطـبرى لم أزل أسمع الـناس حين أفضت إليـه الخلافة من لدن ولـى إلى أن مات يقولون إنما مدة حـياته ستة أشهـر «مدة شيرويه بن كسرى» قـاتل أبيه مستفـيضاً ذلك على لسـن العامة والخاصـة وكذلك كان فقد أصابته العلة التى قضت عليـه ويوم الخميس لخمس بقين من شهر ربـيع الأول (سنة ٢٤٨) ومات مع العصر من يوم الأحد لخـمس ليال خلون من شهر ربيع الآخر ويقال إن تلك العلة كانت الذبحة فى حلقه وبعضهم يقول كانت ورماً حيناً فى معدته ويقال إنه سمٌ سمَّه الطبيب فى مبضع والله أعلم أى ذلك كان.

١٢
المستعين

هو أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد صقلية اسمها مخارق ولد (سنة ٢٢٠) وبويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيـه المنتصر وهوخامس ربيع الآخر (سنة ٢٤٨) (٧يونيه سنة ٨٦٢) ولم يزل خليفة إلى أن خلع يوم الجمعة (٤ محرم سنة ٢٥٢) (١٥ يناير سنة ٨٦٦) فكانت مدته ثلاث سنوات وثمانية أشهر و٢٨ يوماً.

كيف انتخب:

اجتمع الموالى وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش ومن معهم فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بما رضى به من سـمينا، فأجمع رأى الثلاثة على ألا يولوا أحداً من أولاد المتـوكل لئلا يغتـالهم بدم أبيه كـما أنهم يريدون إخراجـها عن أولاد المعتصم مولاهم فاقترح عليهم توليه أحمد بن المعتصم فقال لهم محمد بن موسى بن شاكر المنجم أتولون رجلاً عنده أنه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وأنكم دفعتموها عنه وأنه أحق بالأمر من المتوكل والمنتصر فبأى عين يراكم وأى قدر يكون لكم عنده ؟ ولكن أطيعوا إنساناً يعرف لكم ذلك. فكانت هذه الكلمات مما وافق هواهم جميعـاً إلا بغا الكبير فإنه قال لهم نجئ بمن نهابه ونفرقه فنبـقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضـاً فقتلنا أنفسنا، ثم ذكروا أبا العـباس أحمـد بن محمـد بن المعتصم وقـالوا هذا من ولد مولانا المعـتصم ولم نخرجها عنهـم ونصطنعه فيعرف ذلك لنا ولم يزالوا ببغـا الكبير حتى وافقهم عليـه فبايعوه جميـعاً، وهوأول خليفة مـن بنى العباس لم يكن أبوه خليفـة بعد مؤسسى الدولة السفاح والمنصور وأول خليفة تولى بعد ابن عمه.

وفى عهده توفى من الأغـالبة بأفريقيـة أحمد بن محمـد بن الأغلب (سنة ٢٤٩)وخلفه أخوه زيادة الله بن مـحمد (سنة ٢٥٠) وخلفه ابن أخـيه محمـد بن أحمد بن محـمد بن الأغلب إلى (سنة ٢٦١).

وفي عهده توفى من آل طاهر بخراسان طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين فولى مكانه محمد بن طاهر إلى (سنة ٢٥٩).

الوزارة في عهد المستعين:

لم يكن للخليفة شئ من النفوذ فإن الموالى هم الذين حولوا الخلافة عن المعتز بخلفهم إياه من ولاية العهد وهم الذين ساقوها إلى المستعين بلا عهد ولا سابقة فكان من المعقول أن يكون بين أيديهم يفعلون به ما شاءوا حتى مثله بعض الشعراء بقوله:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له كما تقول الببغا

فالوزير من قبلهم يولى فإن وافق هواهم رضوا عنه وإن خالفهم في شئ أزالوه عن رتبته وأقاموا غيره.

تركوا الوزارة في يد أحمد بن الخصيب الذى كان وزيراً للمعتصم ثم لم يلبثوا أن غضبوا عليه في جمادى الأولى من (سنة ٢٤٨) فاستصفوا ماله ومال ولده ونفوه إلى جزيرة أقريطش.

واختير لوزارة المستعين أتامش أحد قواد الأتراك وكان الذى يقوم بأمر الكتابة كاتبه شجاع فكان أتامش بذلك صاحب السلطان التام فأطلقت يده في الأموال ومعه شاهك الخادم الذى جعله المستعين على داره وكراعه وخزائنه وخاص أموره وضم إليهما في النفوذ والتصرف أم المستعين فإنه لم يمنعها من شئ تريده وكان كاتبها سعيد بن سلمة النصرانى فكانت الأموال التى ترد على السلطان من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة فعمد أتامش إلى ما في بيوت الأموال فاكتسحه وكان المستعين قد جعل ابنه العباس في حجر أتامش فكان ما فضل من الأموال عن هؤلاء الثلاثة يؤخذ للعباس فيصرف في نفقاته وأسبابه وصاحب ديوان ضياعه يومئذ كاتب اسمه دليل بن يعقوب النصرانى فاقتطع من ذلك أموالاً جليلة لنفسه. نظرت الموالى هذه الحال: الأموال تستهلك وهم في ضيقة، وأتامش هو صاحب المستعين وصاحب أمره والمستولى عليه ينفذ أمور الخلافة ووصيف وبغا في ذلك كله بمعزل فأغريا الموالى به ولم يزالا يدبران الأمر عليه حتى أحكما التدبير فتمعرت الأتراك والفراغنة على أتامش وخرج إليه منهم يوم الخميس (١٢ ربيع الآخر سنة ٢٤٩) أهل الدور والكرخ فعسكروا وزحفوا إليه وهو في الجوسق مع المستعين وبلغه الخبر

فأراد الهرب لم يمكنه واستجار بالمستعين فلم يجره وفى يوم السبت دخلوا الجوسق فاستخرجوا أتامش من موضعه الذى توارى فيه فقتل وقتل كاتبه شجاع وانتهبت دار أتامش فأخذوا منها أموالاً جليلة ومتاعاً وفرشاً وآلة.

استوزر المستعين بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزيد وأبوه كان قبل ذلك وزيراً للمأمون فمكث فى الوزارة نحوثلاثة أشهر لم يرض فيها أحزاب الموالى لأنه أراد أن يضبط حساب المملكة فلم يعجب ذلك بغا الصغير وحزبه فأظهروا له الغضب فهرب منهم إلى بغداد فى شعبان (سنة ٢٤٩).

استكتب المستعين بعده محمد بن الفضل الجرجرائى وهوالذى كان وزيراً للمتوكل قبل ذلك ولم يسمه باسم وزير.

العلويون فى عهد المستعين:

كان الذى فى عهد المستعين من أئمة الإمامية الاثنا عشرية علىّ الهادى وهوالعاشر من أئمتهم وكان مقيماً بسامرا.

أما الزيدية فقد خرج منهم.

أولاً: يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن علىّ بن الحسين خرج بالكوفة وكان قبل خروجه يتردد بين بغداد وسامرا يطالب كبار الدولة بما يصلح من شأنه فكان يرجع دائماً بالفشل فاستثار جمعاً كثيراً من الأعراب وانضم إليهم جمع من الكوفة فعسكر بهم بضواحى الكوفة ولما علم بخبره محمد بن عبد الله بن طاهر وجه الجنود إليه فبادر يحيى إلى الكوفة فاستولى عليها وعلى بيت مالها ثم خرج منها وصار يتردد فى السواد ثم عاد إلى الكوفة ودعا إلى الرضا من آل محمد وكثف أمره وتولاه العامة من أهل بغداد ولا يعلم أنهم تولوا من أهل بيته غيره. أقام بالكوفة يعد العدد ويطبع السيوف ويعرض الرجال ويجمع السلاح. كان الذى توجه لحربه فرع من فروع الأسرة المصعبية وهوالحسين بن إبراهيم بن مصعب فلما وصل بجناه إلى ظاهر الكوفة أشار على يحيى جماعة من الزيدية لا علم لهم بالحرب بمعاجلة الحسين وألح عليه عوام أصحابه بمثل ذلك فخرج من وراء الخندق ليلة الإثنين (١٣ رجب سنة ٢٥٠) فى جمع ليسوا بذى علم ولا تدبير ولا شجاعة فأسروا ليلتهم حتى صبحوا الحسين وهووأصحابه مستريحون مستعدون فلم يكن بأسرع من انهزم جند يحيى ووضع فيهم السيف وكان أكثر رجالة الكوفة عزلاً فداستهم الخيل وانكشف العسكر عن يحيى تقطر به برذونه فقتل وأخذت رأسه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فحمله إلى المستعين بسامرا فنصب الرأس بباب العامة بسامرا واجتمع الناس تحت

وكثروا وتذمروا فرد إلى بغداد لينصب بها فلم يمكن لما أبداه العامة من كراهة ذلك. وقال أبوهاشم داود الهيثم الجعفرى فى ذلك.

يا بنى طاهر كلوه وبيا إن لحم النبى غير مرى

إن وتراً يكون طالبه الله لوتر نجاحه بالحرى

ومع هذا الميل من الناس إلى العلويين لم يمكنهم الاستفادة من ذلك الميل لأنهم لم يكن لهم تدبير منتظم ولا استعانة بذوى التدبير والحيل من رجال الحرب.

ثانياً: خرج الحسين بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على. خرج بنواحى طبرستان وسبب خروجه أن المستعين أقطع محمد بن طاهر قطائع من صوافى السلطان بطبرستان وذلك بعد أن انتصر على يحيى بن عمر وكان من جملة تلك القطائع قطيعة قرب ثغرى طبرستان من نواحى الديلم وهما كلاروسالوس وبحذاء تلك القطيعة أرض لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطبهم ومراعى مواشيهم ومسرح سارحتهم وليس لأحد عليها ملك. وجه محمد بن طاهر جابر بن هارون أخا كاتبه النصرانى لحيازة ما أقطع من تلك الأراضى وكان عامل طبرستان إذ ذاك سليمان بن عبد الله بن طاهر وقد غلب على أمره محمد بن أوس البلخى ومن ولده كان العمال على مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء فاستأذى بهم وبسفههم من تحت أيديهم والرعية واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبد الله سفههم وسيرهم فيهم، وزاد على ذلك أن محمد بن أوس وتر الديلم بدخوله إلى بلادهم من حدود طبرستان على غرة وهم أهل سلم وموادعة لأهل طبرستان فسبى منهم ورجع.

لما جاء رسول محمد بن طاهر وأراد استلام القطيعة أحب أن يحوز معها تلك الأرض التى تتصل بها من الموات الذى يرتفق به أهل تلك الناحية.

كان هناك رجلان معروفان بالبأس والشجاعة وكانا معروفين قديماً بضبط تلك الناحية ممن رامها من الديلم وهما محمد وجعفر ابنا رستم فأنكرا ما فعله جابر ومنعاه وكانا مطاعين فاستنهضا من أطاعهما فنهضوا معهما وهرب جابر خوفاً على نفسه ولحق بسليمان بن عبد الله فأيقن الرجلان حينئذ بالشر وراسلا جيرانهم من الديلم يطلبون منهم المساعدة والمظاهرة على سليمان بن عبد الله فأجابهم الديلم إلى ذلك وتعاقدوا هم وأهل كلاروسالوس أن يعين بعضهم بعضاً على حرب سليمان بن عبد الله ومحمد بن أوس وغيرهما ممن قصدهم بحرب ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه فاتفقوا على الحسن بن زيد وكان مقيماً بالرى فوجه إليه القوم من دعاه إلى أمرهم فأجاب وتوجه إليهم فبايعوه وبايعه

رؤساء الديلم ثم ناهضـوا من فى تلك النواحى من عمال ابن أوس فطردوهم عنه فلـحقو بمدينة سارية.

ثم زحف الحسن ومن معه على مدينة آمل وهى حاضرة طبرستان وجاء محمد بن أوس يريد دفعه عنها فلم يقدر وفر هارباً ودخل الحسن مدينة آمل فكثف جيشه وغلظ أمره ومال إليه كل طالب نهب ومريد فتنة من الصعاليك والحوزية وغيرهم ثم سار من آمل إلى سارية وبها العامل سليمان بن عبد الله فغلبه عليها ولم يكن له هوومحمد بن أوس إلا النجد منها بأنفسهما فهربا إلى جرجان وبذلك تم للحسن بن زيد الاستيلاء على بلاد طبرستان كلها فوجه خيلاً إلى الرى فاستولت عليها وطردت عنها عمال ابن طاهر.

ورد الخبر بذلك إلى المستعين ومدبر أمره وصيف التركى فوجه إلى همذان قائداً فى جمع من الجنود ليقيم بها ويمنع خيل الحسن أن تتجاوزها لأن ما وراء همذان كان لمحمد بن طاهر وبه عماله وعليه صلاحه.

هكذا نجح الحسن بن زيد فى تكوين هذه الدولة التى تعرف بالدولة الزيدية بطبرستان واقتطع من ملك بنى العباس وآل طاهر طرفاً عظيماً تحميه جبال طبرستان والديلم واستمرت هذه الدولة نحوقرن كامل (٢٥٠ـ٣٥٥) تولى فيها:

١ـ الحسن بن زيد الداعى	٢٥٠ ـ ٢٧٠
٢ـ محمد بن زيد القائم بالحق الدولة السامانية	٢٧٠ ـ ٣٠١
٣ـ الحسن الأطروش بن على بن عمر بن زين العابدين	٣٠١ ـ ٣٠٤
٤ـ الحسن بن القاسم بن على بن عبد الرحمن ومعه أولاد الأطروش	٣٠٤ ـ ٣٥٥

ولم تكن هذه الدولة ذات نظام ملكى ولا مرتاحة من الأعداء فإن بنى سامان الآتى ذكرهم قتلوا محمد بن زيد واستولوا على طبرستان إلى (سنة ٣٠١) ثم ظهر الحسن الأطروش فاسترد طبرستان من آل سامان ولكنه قتل فى بعض حروبه مع السامانية فقام بعده الحسن بن القاسم ونازعه أولاد الأطروش ولم يزل النزاع والخلاف قائماً بينهم حتى انتهى أمرهم (سنة ٣٥٥) وانقضى الملك الزيدى من تلك الجبال.

الجيش:

كان ما ظنه بغا الكبير فى محله فإنه قال للقوم (نجىء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه ومن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضنا فقتلنا أنفسنا) وجد التحاسد بين هؤلاء القوم ونيـ

للخليفة سلطان يقمع به من بغى منهم فكانت أولى جناياتهم قتل أتامش لما رأوه قد استبد بأموال الدولة وبمصالحها. ثم اتفق وصيف وبغا على قتل باغر التركى الذى تولى قتل المتوكل لأنهما خافا على أنفسهما وكان باغر قد جمع إليه جماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل فجدد عليهم البيعة التى كان أخذها عليهم وقال لهم الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبغا ووصيفا (وكانا يسميان بالأميرين) ونجىء بعلى بن المعتصم أوبابن الواثق فنقعده خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن على غير شىء فأجابوه إلى ذلك وانتهى الأمر إلى المستعين فبعث إلى وصيف وبغا فقال لهما ما طلبت إليكما أن تجعلانى خليفة وإنما جعلتمانى وأصحابكما ثم تريدان أن تقتلانى فحلفا له أنهما ما علما بذلك فأعلمهما الخبر فاتفق الرأى على التدبير على باغر ففعلا وقتلاه فهاج أصحابه هيجانا شديدا ولم يكن من الأميرين إلا حمل المستعين معهما والانحدار به إلى بغداد يوم الأربعاء (٤ محرم سنة ٢٥٢) ونزل المستعين بدار محمد بن عبد الله بن طاهر ولحقهم جماعة من قواد الأتراك فدخلوا إلى المستعين فرموا بأنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم فى أعناقهم تذللا وخضوعا وسألوه الصفح عنهم فقال لهم أنتم أهل بغى وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا إلىَّ فى أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفى غلام وفى بناتكم فأمرت بتصييرهن فى عداد المتزوجات وهن نحومن أربعة آلاف امرأة وفى المدركين والمولودين؟ وكل هذا قد أجبتكم إليه وأدررت لكم الأرزاق حتى سكبت لكم آنية الذهب والفضة وحرمت نفسى لذتها وشهوتها كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم وأنتم تزدادون بغياً وفساداً وتهدداً وإيعاداً. فتضرعوا إليه حتى قال قد رضيت عنكم فقال له أحدهم بايكباك إن كنت رضيت عنا وصفحت فقم فاركب معنا إلى سامرا فإن الأتراك ينتظرونك. فأومأ محمد بن عبد الله بن طاهر إلى محمد بن أبى عون فلكز فى حلق بايكباك وقال هل هكذا يقال لأمير المؤمنين قم فاركب معنا فضحك المستعين من ذلك وقال هؤلاء قوم عجم ليس لهم معرفة بحدود الكلام.

وقال لهم المستعين تصيرون إلى سامرا فإن أرزاقكم دارة عليكم وأنظر أنا فى أمرى ههنا ومقامى. فانصرفوا آيسين منه غاضبين مما حصل لهم فأجمعوا أمرهم على إخراج المعتز والبيعة له وكان المعتز والمؤيد فى حبس الجوسق فى حجرة صغيرة مع كل واحد منهما غلام يخدمه فأخرجوا المعتز وبايعوه بالخلافة ولأخيه المؤيد ولاية العهد.

وبذلك صارت بغداد فى جانب المستعين والقائم بأمره محمد بن عبد الله بن طاهر ومن لف لفه، وسامرا فى جانب المعتز. كان من أول ما فعله ابن طاهر أن منع الميرة عن سامرا وقام بتحصين بغداد فأدير عليها السور وحفرت حولها الخنادق ورتبت الرجال على أبوابها وأسوارها وكتب المستعين إلى عمال الخراج بكل بلدة وموضع أن يكون حملهم ما يحملون من الأموال إلى بغداد ولا يحملون إلى سامرا شيئاً.

دارت المكاتبات فكتب المستعين إلى أتراك سامرا يأمرهم بنقض بيعة المعتز ومراجعة الوفاء ببيعتهم إياه ويذكرهم أياديه عندهم وينهاهم عن معصيته ونكث بيعته وكان كتابه بذلك إلى سيما الشرابى. وكتب المعتز إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه من بايعه بالخلافة وخلع المستعين ويذكره ما كان أبوه المتوكل أخذ له عليه بعد أخيه المنتصر من العهد وعقد الخلافة. فلم تفد هذه المكاتبات شيئاً وهيأ المعتز جيشاً لحرب المستعين جعل قيادته لأخيه أبى أحمد بن المتوكل وتدبيره على كلبانكين التركى. خرج هذا الجيش من سامرا فوافى عكبرا فى غاية المحرم من (سنة ٢٥١) ووصل باب الشماشية ببغداد لسبع خلون من صفر. وقد حصل بين الفريقين مواقع هائلة حول أسوار بغداد وبعيداً عنها وانقطعت بذلك السابلة وخربت الضياع وذهبت الأرزاق وكانت الحرب بين الفريقين فى البر وفى النهر. وقد ظلت بغداد مرسحاً للفتن والحروب (سنة ٢٥١) كلها وفى آخرها كاتب ابن طاهر المعتز فى الصلح وأشيع بين عامة بغداد أن ابن طاهر مال إلى خلع المستعين وأنه وجه قواده فبايعوا المعتز فلما سمعوا ذلك هاجوا وأظهروا الوقيعة فى ابن طاهر وشتموه أقبح الشتم وتجمعوا حول داره يريدون الإيقاع به فكلم ابن طاهر المستعين وسأله أن يطلع إليهم ويسكنهم ويعلمهم ما عليه ابن طاهر فأشرف عليهم من أعلى الدار وعليه البردة والطويلة وابن طاهر بجانبه فحلف لهم بالله ما اتهمه وإنه لفى عافية ما عليه من ابن طاهر بأس ووعدهم أن يخرج فى غد يوم الجمعة ويصلى بهم فانصرفوا وجاؤوا فى الغد يطلبون خروج المستعين إليهم فلم يخرج فازداد هياجهم وطلبوا خروج الخليفة من دار ابن طاهر فلم يجد من ذلك بدا وانتقل فى أوائل ذى الحجة إلى دار رزق الخادم وكان معه حين انتقاله ابن طاهر وبيده الحربة يسير بها والقواد خلفه وكان هذا الانتقال على غير إرادة المستعين ويقال إن السبب فى عدول ابن طاهر عن الإخلاص للمستعين أن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى كان وزيراً للمتوكل قال له أطال الله بقاءك إن هذا الذى تنصره وتجد فى أمره من أشد الناس نفاقاً وأخبثهم ديناً والله لقد أمر وصيفاً وبغا بقتلك فاستعظما ذلك ولم يفعلاه وإن كنت شاكاً فيما وصفت من أمره فسل تخبر. وإن من ظاهر نفاقه أنه كان وهو بسامرا لا يجهر فى صلاته ببسم الله الرحمن الرحيم فلما صار إلى ما قبلك جهر بها مراءاة لك وتترك نصرة وليك وصهرك وتربيتك ونحو ذلك من كلام كلمه به فقال محمد بن عبد الله أخزى الله هذا لا يصلح لدين ولا لدنيا. كان وراء ذلك أن تخلى محمد عن نصرة المستعين وكانت نتيجة هذا التخلى أن تضعضع أمره وانحياز العامة له لم يفده فرأى من مصلحته أن يقبل خلع نفسه واشترط شروطاً تضمن حياته وراحته.

وفى يوم السبت (١٠ذى الحجة سنة ٢٥١) ركب محمد بن عبد الله إلى الرصافة وجمع

القضاة والفقهاء وأدخلهم على المستعين فوجاً فوجا وأشهدهم عليه أنه قد صير أمره إلى محمد بن عبد الله فأرسل حينئذ محمد إلى المعتز من جاء يحطه بقبول الشروط التى طلبها المستعين وعادت الرسل فى ثالث المحرم (سنة ٢٥٢) وفى رابعه دخل ابن طاهر على المستعين ومعه كتاب الشروط كتبه سعيد بن حميد فقال ابن طاهر يا أمير المؤمنين قد كتب سعيد الشروط وأكد غاية التأكيد فنقرأ الكتاب عليك فقال المستعين لا عليك لا عليك فما القوم بأعلم الله منك وقد أكدت على نفسك قبلهم فكان ما قد علمت ـ فما رد عليه محمد شيئاً.

ولما بايع المستعين للمعتز ببغداد أخذ منه البردة والقضيب والخاتم ووجه ذلك إلى المعتز وأشخص المستعين إلى واسط. ويعجبنى هنا ما قاله أحد شعراء العصر:

خلع الخليفة أحمد بن محمد ... وسيقتل التالى له أويخلع

ويزول ملك بنى أبيه فلا يرى ... أحد بملك منهم يستمتع

إيها بنى العباس إن سبيلكم ... فى قتل أعبدكم طريق مهيع

رقعتم دنياكم فتمزقت ... بكم الحياة تمزقاً لا يرقع

الأحوال الخارجية:

كان الحال فى الخارج أشد من ذلك وأنكى فإن الاضطراب الحادث فى داخلية الدولة كان سبباً فى تقاعد أولى الأمر عن حماية الثغور والوقوف فى وجه الروم الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرصة وقد صادف أن قائدين عظيمين من قواد الثغور قتلا فى حرب مع الروم أول عهد المستعين وهما عمر بن عبد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى وكانا نابين من أنياب المسلمين شديداً بأسهما عظيماً غناؤهما فى الروم فأما أولهما فقد غزا ملطية فقابله ملك الروم فى جمع عظيم فأحاطوا به فقتل وقتل معه ألفا رجل وجرأهم قتله على قصد الثغور الجزرية فقصدوها وكلبوا عليها وعلى حرب المسلمين فبلغ ذلك على بن يحيى وهو قافل من أرمينية إلى ميافارقين فنفر إليهم فى جماعة قليلة فقتل نحو(٤٠٠رجل).

لما بلغ ذلك أهل بغداد شق على عامتهم وعظم مقتل الرجلين فى صدورهم مع ما لحقهم من استفظاعهم من الأتراك قتل المتوكل واستيلاؤهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا من الخلفاء واستخلاصهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر

لأمور المسلمين فثاروا وربما كانوا ينجحون فيما إليه قصدوا من ثورتهم هذه لو وجدوا قائداً يدبر أمرهم ويبعدهم عن الفوضى ولكنهم لم يظفروا به.

اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنفير وانضمت إليهم الأبناء الشاكرية وفتحوا أبواب السجون وأخرجوا من فيها ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامرا أموالاً كثيرة من أموالهم فقوموا من خف للنهوض إلى الثغور لحرب الروم وأقبلت إليهم العامة من نواحى الجبل وفارس وغيرهما لهذا القصد كل ذلك والخليفة لاهٍ بما هو فيه عن ثغور المسلمين فلم يوجه لها عسكراً ولم تجد حركة العامة شيئاً.

١٣
المعــتز

هو أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد اسمهـا قبيحة ولد (سنة ٢٣١) وكان أبوه المتوكل جعله ولى عهده بعـد المنتصر فلم تتم له الولاية لأن المنتصر أرغمه على أن يخلع نفسه ولما ولى المستعين بعد المنتـصر حبسه هو وأخاه المؤيد حتى كانت الفتنة بين قواد المستعين فأخرج المعتـز وبويع وتم له الأمر بعد خلع المستعين فى رابع محرم (سنة ٢٥٢) (٢٥ يناير سنة ٨٦٦) ولم يزل خليفة إلى أن خلع لثلاث بقين من رجب (سنة ٢٥٥) (١١يولية سنة ٨٦٩) فكانت مدة خلافته بعد خلع المستعين ثلاث سنوات وستة أشهر و٢٣ يوماً.

وزراء المعتز:

لم يكن للوزارة فى هذا العهد كبير شأن لا نحطاط أمـر الخلافة نفسها وقد كان الوزراء كتاب أمـوال فمن أمكنه أن يقوم بحاجة كبـار الأتراك ومقدميهم بقى فى منصـبه وإلا عزل وفعلت به الأفاعيل.

أول وزراء المعتز أبوالفضل جعفر بن محمود الإسكافى. لم يكن له علم ولا أدب ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا وكانت وزارته على غـير رغبة المعتز لأنه كان يكرهه وكان الأتراك فيه فريقين فثارت بسبب ذلك فتنة فعزل من أجل ذلك.

وتولى الوزارة بعـده عيسى بن فـرخانشـاه ولم يمكث إلا قليلاً حـتى عزل بسبـب فتنة كالأولى فولى بعده أحـمد بن إسرائيل الأنبارى وهوكاتب حاذق ذكى وكـان المعتز يميل إليه لأنه كان يتـولى له أموره قبل أن يلى الخلافـة فمكث وزيراً إلى (سنة ٢٥٥) ومما يدل على قدر ما صـار إليه سلطان الخليفة فى مبلغ الفـساد فى أحوال الدولة، الكيفيـة التى عزل بها أحمد ابن إسرائيل عن الوزارة هو والكتاب الذين معه.

دخل صالح بن وصيف مقدم الأتراك على المعـتز وقال له: يا أمير المؤمنين ليس للأتراك

عطاء ولا فى بيت المال مال وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا فقال له أحمد بن إسرائيل: يا عاصى يا ابن العاصى ثم لم يزالا يتراجعـان الكلام بحضرة الخليفة حتى سقط صالح مغشياً عليه من شدة الغيظ والحر فرش على وجهه الماء وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب فصاحـوا صيحة واحدة واختـرطوا سيوفهم ودخلوا على المعتز فلمـا رأى ذلك المعتز دخل وتركهم وأخـذ صالح بن وصيف أحمـد بن إسرائيل الوزير والحسن بن مـخلد كاتب قبيحة أم المعتز وأبا نوح عيسى بن إبراهيم فقيدهم وطالبهم بالمال فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم: هب لى أحمـد فإنه كاتبى وقد ربانى فلم يفعل ذلك صالح وبعـثت إليه أم المعتز فى ابن إسرئيل تقول له: إمـا حملته إلى المعتز وإما ركبت إليـك فيه فلم يفد هذا ولا ذاك شيئـاً. وهذا دليل على انحطاط عظيم فى أمر الخلافـة وزاد صالح الأمر شنعة فـبعث إلى جعفر بن محمود الإسكافى الذى كره المعتز أن يعمل له وولاه الوزارة رغم أنفه.

وإسكاف التى ينتمى إليها جعفر بن مـحمود قرية من نواحى النهروان بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى وهى إسكاف العليا وهناك إسكاف السفلى بالنهروان أيضاً.

العلويون فى عهد المعتز:

فى عهد المعتز مات علىّ الهادى بن محـمد الجواد بن علىّ الرضا وهوالإمام العاشر من أئمة الشيعة الإمامـية فتولى الشيعة بعده ابنه الحسن العسكرى وهـوالحادى عشر من أئمتهم وإنما لقب بالعسكرى لإقامته بسامرا التى كانت تدعى إذ ذاك بالعسكر.

أما الزيدية فكانوا قد وجدت لهم دولة ببلاد طبرسـتان على يد الحسن بن زيد كما تقدم وقد اتهـم جماعـة من الطالبيين فى بغـداد والكوفة بالدعـوة للحسن بن زيـد ووجدت مع بعضهم كتب من الحسن فأمر المعتز بحملهم إلـيه بسامرا فحملوا إليه ولم يعرض المعتز لهم بمكروه وإنما توثق منهم.

حال الجيش والأتراك:

استخلف المعتز وأحوال الجند والأتراك على شـر ما يكون فهم أصحاب السلطان والنفوذ وهم فيما بينهم مـختلفون لأنه لا يد فوق توقف كلاً منهم عند حده ولا حـيلة للخليفة إلا مراعاة جانبهم حيناً وإعمـال الحيلة والدسائس حيناً وهكذا يفعل كل من سلب سلطانه ولا قدرة على استرداده.

فى أول خلافة المعتز كتب بإسقاط اسم وصـيف وبغا وهما أكبر قواد الأتراك لما كان من

مساعدتهما المستعين وكان هذا الكتاب مرسلاً إلى محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد فبلغ ذلك وصيفاً وبغا فجاءا إلى محمد وقالا: بلغنا أيها الأمير ما عزم عليه القوم من قتلنا والقوم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه والله لوأرادوا أن يقتلونا ما قدروا فحلف لهم محمد بالله أنه لم يعلم بشئ من ذلك فذهب الرجلان وتحرزا وتكلم لهما عند المعتز من أرضاه عنهما ثم اجتمع الأتراك عند المعتز وسألوه الأمر بإحضارهما وقالوا هما كبيرانا ورئيسانا فكتب إليهما بالرضا عنهما فذهبا من بغداد إلى سامرا فذهب لزيارتهما فى منزلهما وزير المعتز أحمد بن إسرائيل وردهما المعتز إلى مراتبهم رغم أنفه بقاء على إلحاح الأتراك وردت إليهما ضياعهما.

كان من عناصر الجيش المهمة المغاربة وهم ممن اصطنع المعتصم كما اصطنع الأتراك. رأى المغاربة ما عليه الأتراك من النفوذ والعلو فساءهم ذلك فاجتمع بعضهم إلى بعض مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد فيهم وجاؤوا إلى الأتراك وهم بالجوسق مريداً سامرا فغلبوهم عليه وأخرجوهم منه وقالوا لهم فى كل يوم تقتلون خليفة وتخلفون آخر وتقتلون وزيراً وكانوا قد وثبوا على عيسى بن فرخانشاه الذى كان وزيراً للمعتز قبل أحمد بن إسرائيل فتناولوه بالضرب وأخذوا دوابه.

ولما أخرجت المغاربة الأتراك من الجوسق وغلبوهم على بيت المال أخذوا خمسين دابة مما كان الأتراك يركبونها فاجتمع الأتراك ولموا شعثهم فتلاقوا هم والمغاربة وكان يعين المغاربة الغوغاء والشاكرية فضعفت الأتراك وانقادوا للمغاربة فأصلح جعفر بن عبد الواحد بين الفريقين على ألا يحدثوا شيئاً ويكون فى كل موضع فيه رجل من قبل أحد الفريقين يكون فيه آخر من الفريق الآخر فمكثوا على ذلك مدة ثم احتال الأتراك على محمد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة حتى ظفروا بهما فقتلوهما والذى تولى ذلك بيكباك أحد كبار قواد الأتراك ولم يفعل المعتز فى ذلك شيئاً وعاد النفوذ إلى الأتراك.

وفى (سنة ٢٥٣) شغب الأتراك والفراغنة والأشروسنة وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر فخرج إليهم بغا ووصيف وسيما الشرابى فكلمهم وصيف وقال لهم: ما تريدون ؟ قالوا: أرزاقنا فقال: خذوا تراباً وهل عندنا مال وقال لهم بغا: نذهب فنستأمر أمير المؤمنين ومضى هو وسيما وبقى وصيف فى أيديهم فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف ضربتين ووجأه آخر بسكين ثم أجهزوا عليه ونصبوا رأسه على محراك تنور.

ولما علم بذلك المعتز لم يكن له من العمل إلا أن جعل ما كان إلى وصيف من الأمور إلى بغا الشرابى. خاف بغا من أن يكون له من هؤلاء يوم كيوم وصيف فصار يحض المعتز

على المسير إلى بغداد والمعتز يأبى عليه ذلك لخوفه أن يجرى عليه ما جرى على سلفه. وكان بايكباك كبير الأتراك ومقدمهم بعد بغا منحرفاً عن بغا وكانا متهاجرين وكان المعتز مع بايكباك يريد التخلص من بغا فجمع بايكباك جموعه وساعده المعتز حتى تمكن من بغا فقتله ونصب رأسه بسامرا ثم ببغداد وثبت المغاربة على جثته فأحرقوها بالنار وتتبع عبيد الله بن طاهر بنيه ببغداد وكانوا صاروا إليها هرباً فحبس من ولده وأصحابه نحو(٢٥شخصاً) وصارت الكلمة العليا فى الأتراك وفى الدولة لصالح بن وصيف وبايكباك.

كانت بغداد بعيدة عن الاضطرابات لأمرين: الأول: بعد هؤلاء الغلف القلوب عنها. والثانى: وجود محمد بن عبد الله بن طاهر بها وهورجل ذوعزم وأيد زيادة على ماله فى نفس القوم من الهيبة ومع ذلك كله فقد مسها طائف من شيطان الاضطراب فى (سنة ٢٥٢) وذلك أن المعتز كتب إلى محمد بن طاهر يأمره أن يبيع غلال بعض الضياع التى منها أرزاق جند بغداد وكتب إلى والى البريد ببغداد يأمره أن يقرأ كتابه على من بها من القواد ففعل ذلك دون أن يعلم الأمير ابن طاهر، فلما قرئ الكتاب على القواد جاؤوا إلى ابن طاهر فخبروه الخبر فأحضر والى البريد وقال له: ما حملك على هذا بغير علمى وتهدده على ذلك ثم اجتمعت الجنود البغدادية إلى باب ابن طاهر تطلب أرزاقها فأخبرهم أن كتاب الخليفة ورد عليه جواب كتاب له كان كتبه بمسألة أرزاق بغداد إن كنت فرضت الفروض لنفسك فأعطهم أرزاقهم وإن كنت فرضت لنا فلا حاجة لنا فيهم - أعطاهم ابن طاهر ما سكتهم به وقتاً ثم اجتمعوا فى (١١رمضان سنة ٢٥٢) ومعهم الأعلام والطبول وضربوا المضارب والخيم على باب حرب والشماسية وغيرهما وبنوا بيوتاً من بوارى القصب وهكذا استعدوا للشغب على ابن طاهر كما يشغب أتراك سامرا على المعتز فجمع ابن طاهر الجند القادمين معه من خراسان وأعطاهم لشهرين وأعطى جند بغداد القدماء الفارس منهم دينارين والراجل ديناراً وشحن داره بالرجال.

اجتمع أهل الشغب وعليهم رجل يقال له عبدان بن الموفق وهورجل قد اعتاد هذه الثورات وهوالذى كان يحض أهل الشغب على الطلب بأرزاقهم وفائتهم وضمن لهم أن يكون رأساً يدبرهم وأن يعينهم بماله حتى ينالوا ما يطلبون. عزموا بعد اجتماعهم أن يحضروا إلى الجامع فيمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز فذهبوا إلى الإمام وحظروا عليه ذلك فتعلل بالمرض ولم يذهب إلى الجامع.

وجه إليهم ابن طاهر قواده فى جماعة من الفرسان فكانت بين الفريقين حروب ووقائع غلب فيها المشاغبون قواد ابن طاهر ثم فسد نظام جماعة المشاغبين ووشى بعضهم بسائرهم

قبض على رؤوسهم وعوقبوا أشد العقوبات وصلب رئيسهم عبدان بن الموفق وبذلك انتهى هذا الاضطراب وعادت أحوال بغداد إلى ما كانت من الأمن.

وفى (١٤ذى القعدة سنة ٢٥٣) توفى الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد واستخلف على إمارته أخاه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهذه نسخة وصيته:

«أما بعد فقد استخلفت عبيد الله بن عبد الله مولى أمير المؤمنين أخى الموثوق باقتفائه أثرى وأخذه بسد ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين إلى أن يأتيه من أمره ما يعمل بحسبه فاعلم ذلك واتمر فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد الله وأمره إن شاء الله وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة (سنة ٢٥٣) وقد أقره المعتز على هذه الولاية وعاش عبيد الله إلى (سنة ٣٠٠) وهى سنة وفاته».

خاتمة المستعين سلف المعتز:

قدمنا أن المعتز كتب للمستعين شروطاً عند خلعه منها تأمينه على حياته وقد أكدوا فى هذا الكتاب تأكيداً شديداً وارتضى أن يقيم بالبصرة فقيل له إن البصرة وبية فكيف اخترت أن تنزلها فقال المستعين: هى أوبأ أوترك الخلافة؟ فأشخص المستعين مع محمد بن مظفر بن سيسل وأبن أبى حفصة إلى واسط لا إلى البصرة فى نحو(٤٠٠) من الفرسان وقبل أن تنتهى السنة بدا للمعتز فعزم على قتل المستعين ولم يبال بكتاب الأمان فأرسل إلى ابن طاهر يأمره أن يكتب إلى عامل البصرة أن يسلم المستعين لمن ندبه المعتز لاستلامه وهوأحمد بن طولون التركى فأخرج المستعين من واسط لست بقيت من شهر رمضان فوافى به القاطول لثلاث خلون من شوال فتسلم منه سعيد بن صالح وكان فى ذلك ختام حياة المستعين وكيفية قتله مبهمة مختلف فيها كثيراً وأتى المعتز فيما قيل برأسه وهو يلعب الشطرنج فقيل: هذا رأس المخلوع فقال: ضعوه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر إليه ثم أمر بدفنه وأجاز سعيد بن صالح بخمسين ألف درهم وولى معونة البصرة.

وكما لم يأبه المعتز بكتابة أمان المستعين وقتله كذلك لم يأبه لعهد أخيه إبراهيم المؤيد ولا لسابقة أخيه أبى أحمد بن المتوكل وهوالذى قاد الجيش إلى بغداد وحصرها حتى أسقط المستعين من عرش الخلافة فإنه خلع الأول من ولاية العهد وحبسه ثم أماته وحبس الثانى وضيق عليه وسبب ذلك أن عامل أرمينية العلاء بن أحمد بعث إلى إبراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره فبعث ابن فرخانشاه الوزير إليه فأخذها فأغرى المؤيد الأتراك بابن فرخانشاه وخالفهم المغربية وكانت فتنة فبعث المعتز إلى أخويه المؤيد وأبى أحمد فحبسهما فى الجوسق وقيد المؤيد وصيره فى حجرة ضيقة ثم خلعه عن ولاية العهد يوم الجمعة (٧رجب ٢٥٢).

وبعد هـذا الحبس والتضـييق والخلع بلـغ المعتز أن الأتراك يـريدون إخراجه من سـجنه فأرسل إلى موسـى بن بغا فسأله فأنكـر وقال: إنما أرادوا أن يخرجوا أبا أحمـد بن المتوكل لأنسهم به يوم كان فى الحرب التى كـانت وأما المؤيد فلا. فأغرى ذلك المعتز بأخـيه فعمل على موته بدون أثر ظاهر وحـول أبوأحمد على الحجـر التى كان فيهـا المؤيد ثم نفاه (سنة ٢٥٤) إلى واسط ثم على البصرة ثم رد إلى بغداد وأنزل إلى الجانب الشرقى فى قصر دينار بن عبد الله.

خلع المعتز:

لما أخذ صالح بن وصيف الكتاب على الشكل الذى أوضحناه قبلاً فى تاريخ الوزراء لم يجد عندهم من المال مـا يسد مطامعه ومطامـع الجنود الذين معه فذهبت الجنود إلى المعتز وقالوا له: أعطنا أرزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصـيف فأرسل المعتز إلى أمه ذات الثروة الطائلة يسألها أن تعطيه مالاً ليعطيهم فأبت أن تعطيه شيئاً وأنكرت أن يكون عندها شئ ولما وجد الأتراك أن المعتـز وأمه قد امتنعـا أن يسمحا لهم بشىء وبيت المال خـال اتحدت كلمة الأتراك والفراغنة والمغاربة على خلع المعتز فـساروا إليه لثلاث بقين من رجب فلم يرعه إلا صياح القـوم وإذا صالح بن وصيف وبايكباك ومـحمد بن بغا قد دخلـوا عليه فى السلاح فجلسوا على باب المنزل الذى ينزله المعتز. ثم بعثوا إليه اخرج إلينا فبعث إليهم إنى أخذت الدواء أمس وقد أجفلنى اثنتى عـشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف فـإن كان أمر لابد منه فليدخل إلىَّ بعـضكم فليعلمنى فدخل إليـه القوم فجروا برجله إلى بـاب الحجرة وتناولوه كما قيل ضرباً بالدبابيس فخرج وقـميصه مخرق فى مواضع وآثار الدم على منكبه فأقامـوه فى الشمس فى الدار فى وقت شديد الحر فصـار يرقع قدمه ساعة بعـد ساعة من حرارة الموضع الذى قد أقـيم فيه ثم بعثوا إلى قـاضى القضاة فحضر وأمـر المعتز أن يمضى على كتاب خلع كتب له فأمضى وشهد عليه الحاضورن. ويقال إنه بعد الخلع دفع على من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البحر فمنعوه حتى مات وهكذا انتهت حـياة هذا الخليفة البـائس الذى سعى كثـيراً للحصول على هذه الخـلافة وركب فى سبيل الخلاص ممن توهمهم مزاحمين له ما لا يجـوز من خليفة ولا من سوقة فقتل المستعين وخلع أخاه.ثم قتله ونفى أخاه الثانى كل ذلك لتهيأ له الخلافة فلم ينل ما أراد بسبب الفساد المستحكم فى الدولة وقال بعض شعراء العصر فى ذلك:

عين لا تبـــخلى بســفـح الدمــوع   واندبى خـيــر فــاجع مــفــجــوع

خــانـه الناصح الشـــفــيق ونـالتـ   ـه أكـف الردى بـحـــتف ســـريع

بكر الترك ناقمين عليه خلعته أفدية من مخلوع

قتلوه ظلماً وجوراً فألفو ه كريم الأخلاق غير جزوع

كان يغشى بحسنه بهجة البدر فتلقاه مظهراً للخضوع

وترى الشمس تستكين فلا تشـ ـرق إما رأته وقت الطلوع

لم يهابوا جيشاً ولا رهبوا السـ ـيف فلهفى على القتيل الخليع

اصبح الترك مالكي الأمر والعا لم ما بين سامع ومطيع

وترى الله فيهم مالك الأمـ ـر سيجزيهم بقتل ذريع

وقال آخر فى قصيدة:

أصبحت مقلتى تسح الدموع إذ رأت سيد الأنام خليعا

لهف نفسى عليه ما كان أملا ه وأسراه تابعاً لتبوعا

ألزموه ذنباً على غير جرم فثوى فيهم قتيلاً صريعا

وبنوعمه وعم أبيه أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا

ما بهذا يصح ملك ولا يغـ ـزى عدوولا يكون جميعا

وكان المعتز أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سلف قبله من خلفاء بنى العباس وكذلك جماعة من بنى أمية يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس فى فعل ذلك.

١٤
المهتدى

هو محمد المهتدى بالله بن هارون الواثق بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب، ولد (سنة ٢١٨) وبويع له بالخلافة بعد أن خلع المعتز نفسه لثلاث بقين من رجب (سنة ٢٥٥) (١١يولية سنة ٨٦٩) ولم يزل خليفة إلى أن خلع فى (١٤رجب سنة ٢٥٦) (١٧يونية سنة ٨٧٠) فكانت مدته ١١ شهراً وأياماً.

كيف انتخب:

لما عزم الأتراك على خلع المعتز أرسلوا إلى بغداد فأحضروا محمداً هذا وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها فأتى به فى يوم وليلة إلى سامرا فتلقاه الموالى فى الطريق ودخل إلى الجوسق فعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد وثب إليه فعانقه وجلسا جميعاً على السرير فقال له محمد: يا أخى ما هذا الأمر ؟قال المعتز: أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له؛ فأراد محمد أن يتوسط أمره ويصلح الحال بينه وبين الأتراك فقال المعتز: لا حاجة لى فيها ولا يرضوا بى لها فقال محمد: فأنا فى حل من بيعتك قال: أنت فى حل فلما جعله فى حل من بيعته حول وجهه عنه فأقيم عن حضرته ورده إلى محبسه وكان من أمره ما قدمنا.

وزراء المهتدى:

أبقى المهتدى محمود بن جعفر الإسكافى على وزارته مدة قليلة ثم عزله واستوزر من بعده سليمان بن وهب بن سعيد. وهومن بيت قديم فى الكتابة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان وكان جده سعيد فى خدمة آل برمك وكان أبوه وهب فى خدمة جعفر بن يحيى البرمكى ثم تحول إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل وهوالقائل فيه عجبت لمن معه وهب

كيف تهمه نفسه؟ ثم استكتبه الحسن بن سهل بعده أما سليمان فكتب للمأمون وعمره (١٤ سنة) ثم لإيتاخ ثم لأشناس وولى الوزارة للمهتدى وللمعتمد وكان أخوه الحسن بن وهب يكتب لمحمد بن عبد الملك بن الزيات ومن ظريف المدح ما قاله أبوتمام فى سليمان بن وهب:

كل شعب كنتم به آل وهب ... فهو شعبى وشعب كل أديب

إن قلبى لكم لكالكبد الحر ... ى وقلبى لغيركم كالقلوب

وقال فيه البحترى:

كأن آراءه والحزم يتبعها ... تريه كل خفى وهو إعلان

ما غاب عن عينه فالقلب يكلؤه ... وإن تنم عينه فالقلب يقظان

وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابة فى الدرج والدستور وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم واستمر وزيراً للمهتدى إلى أن خلع.

حدث عبد الله الباقطانى كان يتقلد ديوان المشرق قال: دخلت مع أبى العباس ابن ثوابة إلى المهتدى وكان سليمان بن وهب وزيره وكان يدخل إليه الوزير وأصحاب الدواوين والعمال والكتاب فيعملون بحضرته فيوقع إليهم فى الأعمال فأمر سليمان أن يكتب عنه عشرة كتب مختلفة إلى جماعة من العلماء فأخذ سليمان بيد أبى العباس بن ثوابة ثم قال له: أنت اليوم أحد ذهناً منى فهلم نتعاون فدخلا بيتاً ودخلت معهما وأخذ سليمان خمسة أنصاف وأبو العباس خمسة أنصاف أخر فكتبا الكتب التى أمر بها سليمان ما أحتاج أحدهما إلى نسخة وقد أكمل كل واحد منهما ما كتب به صاحبه فاستحسنه وقرظه ثم وضع سليمان الكتب بين يدى المهتدى فقال له وقد قرأها: أحسنت يا سليمان ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل وكان سليمان إذا ولى عاملاً أخذ منه مالاً معجلاً وأجل له مالاً إلى أن يتسلم عمله فقال له: يا أمير المؤمنين هذا قول لا يخلومن أن يكون حقاً أوباطلاً فإن كان باطلاً فليس مثلك من يقوله وإن كان حقاً وقد علمت أن الأصول محفوظة فما يضر من يساهمنى من عمالى على بعض ما يصل إليهم من بر من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال. فقال: إذا كان هكذا فلا بأس ثم قال له، اكتب إلى فلان العامل يقبض ضيعة فلان المصروف المعتقل فى يده بباقى ما عليه من المصادرة فقال أبو العباس بن ثوابة: كلنا يا أمير المؤمنين خدمك وأولياؤك وكلنا حاطب فى حبلك وساع فيما أرضاك وأيد ملكك أفنمضى ما تأمر به على ما خيلت أم نقول بالحق؟ قال: بل قل الحق يا أحمد فقال: يا أمير المؤمنين الملك يقين والمصادرة شك أفترى أن أزيل اليقين بالشك قال: لا قال: فقد شهدت الرجل بالملك وصادرته عن شك فيما بينك وبينه وهل خانك أم لا فتجعل المصادرة صلحاً

فإذا قبضت ضيعته بها فقد أزلت اليقين بالشك فقال له: صدقت ولكن كيف الوصول إلى المال؟ فقال له: أنت لا بد لك من عمال على أعمالك وكلهم يرتزق ويرتفق فيجوز رفقه ورزقه إلى منزله فاجعله أحد عمالك ليصرف هذين الوجهين إلى ما عليه ويسعفه معاملوه فيتخلص بنفسه وضيعته ويعود إليه مالك فأمر سليمان بن وهب أن يفعل ذلك.

وقد سقنا هذه الحكاية لنبين ما كان عليه العمال إذ ذاك من تحليل الارتفاق وإقامة البرهان بين يدى الخليفة على جوازه وليس ارتفاق العامل إلا رشوة وما هذا المعجل والمؤجل الذى لا حظ المهتدى على وزيره أليس هو رشوة ومع ذلك نراه احتج وأقنع خليفته بأنه لا ضرر فيه وكذلك قول ابن ثوابة فهوحق شيب بباطل وباطل أشبه الحق.

صفات المهتدى:

كان المهتدى من صالح بنى العباس يكره الظلم ويجب رفعه وبنى قبة لها أربعة أبواب وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص للمظالم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان وأظهر العدل وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويؤم بهم وكان فيه ديانة وتقشف حتى أن الجند تأسوا به إلا أن الدولة كانت وصلت إلى الدرجة التى لا يصلحها فيها مثل المهتدى فى صلاحه وكثرة عبادته فى بدء خلافته كان موسى بن بغا أميراً على الرى وقائداً للجنود التى تتولى حرب الحسن بن زيد الطالبى فلما بلغه ما فعل صالح بن وصيف بالمعتز وبيعة المهتدى ترك ذلك الثغر وأقبل من سامرا فكتب الخليفة إليه كتباً كثيرة يطلب إليه بها البقاء بموضعه فلم يفعل ثم أرسل إليه فى ذلك رسلاً من بنى هاشم فلم يطع وكان صالح بن وصيف يتخوف عودة موسى فكان يعظم انصرافه عن الثغر وينسبه إلى المعصية والخلاف. قدم موسى سامرا حنقاً على صالح فاختفى منه ودخلت جنود موسى على المهتدى وهو جالس للمظالم فأقاموه من مجلسه وحملوه إلى معسكرهم فقال لموسى: ما تريد ويحك اتق الله وخفه فإنك تركب أمراً عظيماً فرد عليه موسى خيراً ثم أخذوا عليه العهود والمواثيق ألا يمالئ صالحاً عليهم ففعل فجددوا له البيعة فى (١٢محرم سنة ٢٥٦) ولثمان بقين من صفر قتل صالح بن وصيف بعد خطوب طويلة وكان أصحاب موسى قد اتهموا المهتدى بإخفائه فأرادوا خلعه فانتشر الخبر فى العامة فكتبوا رقاعاً ألقوها فى المسجد الجامع وفى الطرقات ونص هذه الرقاع (بسم الله الرحمن الرحيم يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهى لعمر بن الخطاب أن ينصره على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه فإن الموالى قد أخذوه

بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام والمدبر لذلك فلان وفلان رحم الله من أخلص النية ودعا وصلى على محمد ﷺ). فلما بلغ ذلك الأتراك خافوا ثورة العامة فأرسلوا إلى المهتدى يخبرونه أنهم يبذلون دماءهم دونه وشكوا مع ذلك سوء حالهم وتأخر أرزاقهم وما صار من الإقطاعات إلى قوادهم التى قد أجحفت بالضياع والخراج وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء الدخلاء الذين قد استغرقوا كثيراً من أموال الخراج. وهذه الشكوى كانت فى الحقيقة بدء انقلاب جديد لو وجدت خليفة قوياً ينتفع بها لأنها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذين أقطعوا ضياعاً كثيراً لم يلتفتوا إلى إصلاحها فخربت وأدى ذلك إلى نقصان الخراج حتى لم يكن عند الخليفة ما يسد به حاجة الجند.

كتب إليهم المهتدى يذكر سروره من طاعتهم وأخبرهم أنه يعز عليه ما ذكروا من حاجتهم ولكن ليس لديه ما يرفع عنهم هذه الخلة وأنه سينظر فى أمر الإقطاعات ويسير فيها على ما يحبون. فأعادوا عليه الكتاب مبينين ما يطلبون هو:

(١) أن ترد الأمور إلى أمير المؤمنين فى الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض.

(٢) أن ترد رسومهم إلى ما كان عليه أيام المستعين وهوأن يكونه على كل تسعة عريف منهم وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد.

(٣) ألا يدخل مولى فى قبالة ولا غيرها.

(٤) أن يوضع لهم العطاء كل شهرين على ما لم يزل.

(٥) أن تبطل الإقطاعات وأن يكون أمير المؤمنين يزيد من شاء ويرفع من شاء.

وذكروا أنهم سيصيرون إلى باب أمير المؤمنين حتى تقضى حوائجهم وأنه إن بلغهم أن أحداً اعترض على أمير المؤمنين فى شئ من الأمور أخذوا رأسه وإن سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحاً وياجور بكالبا وغيرهم.

وهذه المطالب كلها فى مصلحة الخلافة لذلك أجابهم إليها المهتدى موقعاً بخطه إجابة إلى كل ماسألوا. فوصلهم كتابه وفيه اعتذار عن رؤسائهم ومع كتابه أرسل هؤلاء الرؤساء يعتذرون إليهم.

فأعادوا الكتاب يقولون لا نرضى حتى يخرج الخليفة خمسة توقيعات بطلباتهم ثم يصير أمير المؤمنين الجيش إلى أحد إخوته أوغيرهم ليسفر بينهم وبينه بأمورهم ولا يكون رجلاً من الموالى وأن يحاسب الرؤساء على ما عندهم من الأموال وكتبوا على القواد بمثل ما كتبوا به على المهتدى وأخبرهم أنه إن شاكته شوكة أوأخذ منه شعرة أخذوا رؤوسهم جميعاً.

فلما جاء كـتابهم المهتدى كتب لهم بكل مـا يريدونه ودفع لهم التوقيعات الخـمسة التى طلبـوها وكذلك كتب لـهم موسى بن بغـا فلما وصلتـهم الكتب والتوقـيعات كـان بينهم اختلاف وهرج كثير فطائفة يقولون نريد أن يعز الله أمير المؤمنين ويوفر علينا أرزاقنا فإنه قد هلكنا بتأخـيرها عنا. وطائفـة يقولون لا نرضى حتى يولى علـينا أمير المؤمنين أحـد إخوته فيكون واحد بالكرخ وآخر بسامرا ولا نريد أحد منا يـكون علينا رأساً ولم يكتبوا للمهتدى جواباً شافيـاً. فأرسل إليهم المهتدى يسألهم عـن سبب اجتماعهم بعد أن أجـيبت طلباتهم فتفرقوا ثم عادوا إلى الاجتماع.

كانت كل هذه الأحوال فرصاً لخلاص المهتدى من سيادة القواد الأتراك فلم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ويظهر أنه أراد استعمال الحيلة فى الخلاص منهم فأنفذ جندًا لمحاربة خارجي وفيه موسى بن بغا وبايكبـاك ومفلح فكتب المهتدى إلى بايكباك يأمره أن يضم العـسكر الذى مع موسى إلى نفـسه وأن يكون هوأمـير الجـيش وأن يقتل مـوسى ومفلحاً. فلما وصل الكتاب بايكـباك ذهب إلى موسى وأراه إياه وقال له: إنى لست أفرح بهذا وإنما هوتدبير علينا جميعاً وإذا فعـل بك اليوم شئ فعل بى غداً مثله فما ترى ؟ قال: أرى أن تصير إلى سامـرا وتظهر له أنك فى طاعته فإنه يطمئن إليك ثم تـدبر فى قتله فقدر بايكباك فـدخل على المهتدى فـأظهر المهتدى الـغضب من مخالفـته حيث لم يقـتل موسى ومفلحاً فاعتـذر إليه بايكباك فاحتبسه المهتدى عنده وأخـذ سلاحه ولما رأى الجند الذين معه غيبـته عنهم جاشوا وأحاطوا بالجـوسق فلما رأى المهتدى ذلك استـشار صالح بن علىّ بن يعقوب بن المنصـور فأشار عليه أن يفعل ما فـعله المنصور بأبى مسلم فأمر المهـتدى بضرب عنق بايكبـاك فضـرب عنقه والأتراك مطـيفـون بالجوسق بسـلاحهم فلم يرعـهم إلا رأس بايكباك بين أيديهم أمـر المهتدى برميـها. فلما رأوها اضطربوا واستـعدوا للقتال فـحاربتهم الفراغنة والمغاربة والأشروسـنية وكثر بينهم القتل ثم انفصل الفـريقان وذهب الأتراك فقوو أنفسهم وجـاء منهم زهاء عشرة آلاف وخرج المهـتدى وفى عنقه مصـحف يدعوالناس إلى نصرتـه فلما التـحم القوم مـال الأتراك الذين مع المهـتدى إلى إخوانهم وبقى فى المغـاربة والفراغنة ومن خف من العامة فـحملت عليهم الأتراك حملة شديدة فمـروا منهزمين معهم المهتدى والسيف فى يده مشهور وهويقول: يا معشر الناس انصروا خليفتكم حتى صار إلى دار محمد بـن يزداد وفيها أحمد بن جـميل صاحب الشرطة فدخلها ووضع سـلاحه فعلم الأتراك خبره فـجاؤوا إليه وقبـضوا عليه وحملوه إلى داره مـهاناً وذلك فى (١٤رجب سنة ٢٥٦) ثم خلعوه لما أبى أن يـخلع نفسه ثم مـات لاثنتى عشرة ليلة بـقيت من رجب (سنة ٢٥٦).

١٥
المعتمـد

هو أحمد المعتمـد على الله بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد كوفيه اسمـها فتيان ولد (سنة ٢٣١) وبويع له بالخلافة من غـير عهد سابق يوم الثلاثاء لأربع عـشرة ليلة بقيت من رجب (سنة ٢٥٦) (١٩يونية ٨٧٠) ولم يزل خليـفة حتى توفى ليلة الإثنين لإحـدى عشرة ليلة بقيت من رجب (سنة ٢٧٩) (١٥أكتوبر سنة ٨٩٢) فكانت مدته (٢٣ سنة وثلاثة أيام) وكان يعـاصره فى الأندس محـمد بن عـبد الرحمن المتـوفى (سنة ٢٧٣) ثم ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣ـ٢٧٥) ثم عبد الله بن محمـد (٢٧٥ـ٣٠٠) وفى إفريقية وصقلية من الأغالبة محمد بن أحمد بن الأغلب المتوفى (سنة ٢٦١) ثم أخوه إبراهيم المتوفى (سنة ٢٨٩).

وفى اليمن من آل زياد بزبيد إبراهيم بن محمد إبراهيم (٢٤٥ـ٢٨٩).

وفى اليمن من آل الحوالى بصنعاء محمد بن يعفر (٢٥٩ـ٢٧٩)

وفى خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٤٨ـ٢٥٩) وهوآخر الأمراء الطاهرية بخراسان.

ويعـاصـره فى طبـرسـتـان الحـسن بن زيد (٢٥٠ـ٢٧٠) ثم أخـوه مـحـمـد بن زيد (٢٧٠ـ٢٧٩).

ويعاصره فى بلاد الروم بالقسطنطينية الملك بسيل الصقلى (٨٦٧ـ٨٨٦) ثم لاون السادس المقلب بالفيلسوف (٨٨٦ـ٩١١).

ويعاصره فى فـرنسا شارل الملقب بالأصلع (٨٤٠ـ٨٧٧) ثم لويز الثانى الملقب بالتـمتام إلى (سنة ٨٧٩) ثم لويز الثـالث إلى (سنة ٨٨٢) ثم كـارلومان إلى (سنة ٨٨٤) ثم شـارل الملقب بالغـليظ إلى (سنة ٨٨٧)وكـان أمـبراطـور ألمانيـا أيضاً ثـم أودون الذى توفى (سنة ٨٩٨).

الأحوال الداخلية:

كانت نتيجة طلبات الأتراك أن يتولى أمر الجيش أحد إخوة أمير المؤمنين وألا يرأسهم أحد منهم لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة أن ولى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة بن المتوكل أمر الجيش والولايات فولاه فى صفر (سنة ٢٥٧) الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ثم ولاه فى رمضان من هذه السنة بغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس. فى ربيع الأول (سنة ٢٥٨) عقد له على ديار مضر وقنسرين والعواصم فصار السلطان الفعلى لأبى أحمد لا للخليفة وصارت كلمة أبى أحمد هى العليا على الأتراك وقوادهم فكان ذلك مما حسن الأحوال العامة بعض التحسين وإن كانت أحوال المعتمد نفسه ساءت لأنه لم يترك له شئ من التصرف حتى أنه احتاج فى بعض الأحيان إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال:

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شئ فى يديه
إليه تحمل الأموال طرا ... ويمنع بعض ما يجبى إليه

كان أبوأحمد الموفق بن المتوكل رجلاً صاحب عزيمة ثابتة ومحبة للغلب والسلطان وعلى يديه تمت الحوادث الجسام فى عهد المعتمد وسنقتصها بعد أن نذكر إجمال الوزراة لعهده.

كان الذى يولى الوزراء هوأبوأحمد الموفق لأن المعتمد لم يكن له إلا الخطبة والسكة والاسم وما عدا ذلك فهولأخيه.

كان أول الوزراء عبيد الله بن يحيى بن خاقان وقدمنا ذكره إذ كان وزيراً للمتوكل. ولما عرضت عليه الوزارة كرهها وتنصل منها ولكنهم أبوا إلا إياه فرضى بعد ذلك الإباء وكان عبيد الله خبيراً بأحوال الرعايا والأعمال ضابطاً للأموال ولم يزل وزيراً إلى (سنة ٢٦٣) حيث مات بسقوطه عن دابته فى الميدان وصلى عليه أبوأحمد بن المتوكل ومشى فى جنازته.

استوزر بعده الحسن بن مخلد وكان كاتباً لأبى أحمد الموفق فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق. وأصله من دير قنى وكان أحد كتاب الدنيا قالوا: كان له دفتر صغير يعمله بيده فيه أصول أموال المملكة ومحمولاتها بتاريخها فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه بحيث لوسئل فى الغد عن أى شئ كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور. ولم يمكث فى وزارة المعتمد كثيراً فإن مدته لا تزيد على (١٦يوماً) من (١١ذى القعدة سنة ٢٦٣إلى ٢٧منه) وذلك لقدوم موسى بن بغا أحد كبار قواد الأتراك فإنه لم يكن على وفاق معه فهرب إلى بغداد عقب حضوره.

ولى الوزارة بعده سليمان بن وهب وهوالذى كان وزيراً للمهتدى وقد قدمنا صفته وبيته وولى عبد الله بن سليمان كتابة أبى أحمد الموفق إلى ما كان له قبل ذلك من كتابة موسى بن بغا.

وفى (سنة ٢٦٤) خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرا حيث يقيم الخليفة فلما صار بها غضب عليه المعتمد وحبسه وقيده وانتهب داره ودارى ابنيه وهب وإبراهيم وأعاد إلى الوزارة الحسن بن مخلد لثلاث بقين من ذى القعدة فلما علم بذلك الموفق شخص من بغداد ومعه عبد الله بن سليمان فلما قرب من سامرا تحول المعتمد إلى الجانب الغربى فعسكر به ونزل أبوأحمد ومن معه جزيرة المؤيد واختلف الرسل بينهما. ولما كان بعد أيام خلون من ذى الحجة صار المعتمد إلى حراقة فى دجلة وصار إليه أخوه أبوأحمد فى زلال فخلع المعتمد عليه وعلى من معه من القواد.

وفى الثامن من ذى الحجة عبر جند أبى أحمد على جند المتوكل على وفاق وأطلق سليمان بن وهب ورجع المعتمد إلى الجوسق وهرب الحسن بن مخلد وأحمد بن صالح بن شيرزاد وكتب فى قبض أموالهما وأموال أسبابهما.

ولم يدم رضا أبى أحمد طويلاً عن سليمان بن وهب فإنه غضب عليه (سنة ٢٦٥)وأمر بحبسه وحبس ابنه عبد الله فحبسا وعدة من أسبابهم فى دار أبى أحمد وانتهبت دور عدة من أسبابه ووكل بحفظ دارى سليمان وابنه عبد الله وأمر بقبض ضياعهما وأموالهما وأموال أسبابهما وضياعهما خلا أحمد بن سليمان ثم صولح سليمان وابنه عبد الله على (٩٠٠٠٠٠دينار) وصيرا فى موضع يصل إليهما من أحيا.

وقد مات سليمان بن وهب فى حبس أبى أحمد (سنة ٢٧٢).

ولى الوزارة بعده للمعتمد أبوالصقر إسماعيل بن بلبل وهوعربى ينتسب إلى شيبان ولكن نسبه كان مغموراً ومن مساورة الظنون للمتهم أن ابن الرومى الشاعر مدح أبا الصقر بقصيدة نونية مطلعها:

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان

يقول فيها:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ... كلا لعمرى ولكن منه شيبان

كم من أب قد علا بابن له شرفا ... كما برسول الله عدنان

فلما سمع أبوالصقر قوله قلتُ لهم كلا ظن أن ابن الرومى قد هجاه بذلك باطناً وأنه عرض بأنه دعى واشتبه على أبى الصقر الأمر فاستحكم ظنه فأعرض عنه وتوصل ابن الرومى إلى إفهامه معنى الشعر فلم يقبل فى ذلك قول قائل له: يا سبحان الله فانظر إلى البيت الثانى وحسن معناه فإنه معنى مخترع ما مدح أحد بمثله قبلك فلم يصغ وجزم بأن ابن الرومى هجاه فكان ذلك داعياً إلى أن سل ابن الرومى عليه لسانه وهجاه فأفحش فى هجائه ومما هجاه به قوله:

مهلاً أبا الصقر فكم طائر　　خر صريعاً بعد تحليق

زوجت نعمى لم تكن كفؤها　　فصانها الله بتطليق

لا قدست نعمى تسربلتها　　كم حجة فيها لزنديق

وكان أبوالصقر كريماً مطعاماً متجملاً وبلغ فى الوزارة مبلغاً عظيماً وجمع له السيف والقلم فنظر فى أمر العساكر أيضاً وسمى الوزير الشكور.

وفى (سنة ٢٧٨) قبض على أبى الصقر وأسبابه وانتهبت منازلهم وخلع بعد ذلك على عبيد الله بن سليمان بن وهب وولى الوزارة وكان من كبار الوزراء مشايخ الكتاب وقد مر ذكر أبيه سليمان وبيته وبيت وهب.

وممن خدموا فى كتابة الموفق أبوأحمد صاعد بن مخلد خلع عليه (سنة ٢٦٥)واستعمله الموفق فى قواد الجيش مع الكتابة ومن أجل ذلك سمى ذا الوزارتين (سنة ٢٧٠) وقبض عليه الموفق (سنة ٢٧٢) وعلى ابنيه أبى عيسى وأبى صالح وعلى أخيه عبدون.

وعلى الجملة فإن أحوال الوزارة كانت لذلك العهد مضطربة جداً وقد استوزر بعض من سمعنا من الوزراء أكثر من مرة.

العلويون:

فى عهد المعتمد على الله توفى أبومحمد الحسن العسكرى بن علىّ الهادى بن محمد الجواد بن علىّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن محمد زين العابدين بن الحسين بن علىّ وهوالحادى عشر من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية والذين فى عمود نسبه إلى علىّ بن أبى طالب تسعة أئمة والعاشر هوالحسن بن على. وكانت وفاة الحسن العسكرى (سنة ٢٦٠) بسامرا ودفن بها بجانب أبيه علىّ الهادى ولما توفى اختلفت الشيعة بعده اختلافاً كبيراً وجمهورهم على أن الإمام بعده ابنه محمد العسكرى وهوالثانى

عشر من أئمتهم قالوا: إنه دخل سرداباً فى دار أبيه بسامرا وأمه تنظر إليه فلم يخرج إليها وسيظهر فيملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً ويسمونه المنتظر والقائم والمهدى والشيعة ينتظرون خروجه من ذلك السرداب.

ويقول غيرهم: إن الحسن العسكرى لم يعقب وإن سلسلة الأئمة انقطعت بوفاته وبعضهم يتولى أخاه جعفر بن علىّ.

لم يسكت الذين يريدون الانتفاع من التشيع وتأثر جمهور المسلمين به بل وجهوا وجوههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق فقد كان له سبعة من الأولاد منهم عبد الله الأفطح ومحمد وموسى وإسماعيل.

فقال قوم: إن الإمامة بعد جعفر لابنه عبد الله الأفطح لأنه أسن أولاد الصادق وزعم بعضهم أن جعفراً نص على إمامته بعده ومع ذلك فإنه لم يعش بعد أبيه إلا سبعين يوماً ولم يعقب ولداً ذكراً.

وقال قوم: إن الإمامة من بعده لابنه محمد ورووا عنه أنه قال: إن صاحبكم اسمه اسم نبيكم.

وقال قوم منهم: الاثنا عشرية الذين ذكرناهم. إن الإمامة من بعده لابنه موسى ورووا عنه أنه قال: سابعكم قائمكم، واجتمع عليه جمهور الشيعة وساقوا الإمامة فى أولاده كما بينا.

ومنهم من قال إن الإمام بعد جعفر ابنه إسماعيل نصاً عليه من أبيه جعفر ثم اختلفوا فمن قائل إنه عاش بعد أبيه ومن قائل إنه مات فى حياة أبيه. وفائدة النص بقاء الإمامة فى أولاده دون غيره وساقوا الإمامة من بعده إلى ابنه محمد ويقال لهؤلاء الشيعة الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وهم إمامية يتفقون مع الإمامية الاثنا عشرية فى المبدأ العام للتشيع الإمامى: وهوأنه لا بد للناس من إمام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن الشريعة لا تؤخذ بالرأى ويتفقون معهم على إمامة الستة من على بن أبى طالب إلى جعفر الصادق ومنه يبتدئ الاختلاف فالاثنا عشرية ذهبوا إلى فرع موسى الكاظم والإسماعيلية ذهبوا إلى فرع إسماعيل.

ولما كان الإمام هوحجة الله على خلقه وأنه لابد من وجوده ليؤدى ما نيط به من تبليغ الشريعة وأحكامها ورأوا أنه لم يقم أحد من ولد إسماعيل بالظهور للناس قالوا إن الإمام قد يكون مستوراً مكتوماً عن الناس خبره وحينئذ لابد له من نائب يكون هوالحجة وهوالقائم بالدعوة والتبليغ عنه. وساقوا الإمامة إلى محمد بن إسماعيل ثم إلى أولاده من

بعده وظهرت الدعوة إلى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكرى خاتمة أئمة الشيعة الاثنى عشر وكان لهم تعاليم دينية يسترون كثيراً منها عن الناس ومن أجل ذلك قيل لهم الباطنية ويقدمون هذه التعاليم برفق وتأن لمن يدعونه حتى يجيبهم إلى بغيتهم وقد حاول قوم أن يربطوا نحلة هؤلاء القوم بالنحلة الديصانية وهى نحلة تنسب إلى رجل يعرف بابن ديصان خرج بالبلاد الفارسية قبل ظهور الدين الإسلامى بعد ظهور مرقيون بنحوثلاثين سنة وكان ظهور مرقيون فى السنة الأولى من ملك ططوس بن أنطونيانوس الرومى وجاء بعد ابن ديصان «مانى» وهذه المذاهب الثلاثة متقاربة فى أصولها فالمرقيونية يقولون بوجود أصلين قديمين هما النور والظلمة وقالوا إن ههنا كوناً ثالثاً هوالحياة وهوعيسى وزعمت طائفة أن عيسى رسول ذلك الكون الثالث وهوالصانع للأشياء بأمره وقدرته إلا أنهم أجمعوا على أن العالم محدث وأن الصنعة بيّنة فيه لا يشكون فى ذلك وزعموا أن من جانب الزهومات والمكر وصلى لله دهره وصام أبداً أفلت من حبائل الشيطان وقالوا بتنزيه الله عز وجل عن الشرور وأن خلق جميع الأشياء كلها لا يخلو من ضرر والله متنزه عنه.

أم الديصانية الذين جاءوا على أثرهم فتقول أيضاً بالأصلين النور والظلمة وتقول طائفة منهم إن النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلها فلما حصل فيها ورام الخروج منها امتنع ذلك عليه وقالت طائفة: إن النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشونتها ونتنها فشابكها بغير اختيار وزعم ابن ديصان أن النور جنس واحد والظلمة جنس واحد وزعم بعض الدياصنة أن الظلمة أصل النور وذكر أن النور حى حساس عالم وأن الظلمة بضد ذلك عامية غير حساسة ولا عالمة فتكارها ولهم كتب كثيرة فى مذهبهم.

والمانية يقولون أيضاً بالأصلين النور والظلمة وهما مبدأ للعالم فالنور هوالعظيم الأول ليس بالعدد وهوالإله وزعم أنه أزلى بصفاته ومعه شيئان اثنان أزليان أحدهما الجووالآخر الأرض - والأصل الثانى الظلمة وله كلام طويل فى بدء كون الإنسان واشتباكه مع إبليس وغلبة الثانى الأول ثم خلاص الثانى من هذه الشباك وفرض لمتبعيه فرائض أوجب عليهم اتباعها سن لهم عبادات من الصلاة والصوم وقد دان بتلك الشريعة كثيرون من أمة الفرس وكان لهم بعد مانى أئمة يدينون بطاعتهم قبل الإسلام وبعد ظهوره ولهم كتب دينية كتبها لهم مانى ومن بعده من الأئمة. وقد نسب كثير من فلاسفة المسلمين إلى اعتقاد مذهب مانى وكانوا يعرفون بالزنادقة وهم الذين تجرد لهم المهدى وابنه الهادى فقتل منهم عدداً كبيراً، قال ابن النديم فى الفهرس: قيل إن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة وقيل فى الفضل وأخيه الحسن بن سهل مثل ذلك وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدى زنديقاً واعترف بذلك فقتله. قرأت بخط بعض أهل المذهب أن المأمون كان

منهم وكذب فى ذلك وقيل كان محمد بن عبد الملك بن الزيات زنديقاً. ومن رؤسائهم يزدان بخت وهوالذى أحضره المأمون من الرى بعد أن أمنه فقطعه المتوكلون فقال له المأمون: أسلم يا يزدان بخت فلولا ما أعطيناك إياه من الأمن لكان لنا ولك شأن فقال يزدان بخت: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون: أجل.

قال الذين يريدون تأكيد الصلة بين الديصانية والباطنية إن عبد الله بن ميمون القداح كان هووأبوه ميمون ديصانيين وادعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة وكان يظهر الشعابيذ ويذكر أن الأرض تطوى له فيمضى أين أحب فى أقرب مدة وكان يخبر بالأحداث والكائنات فى البلدان الشاسعة وكان له مرتبون فى مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونونه على نواميسه ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذى فيه بيته فيخبر من حضره بما يكون فيموه ذلك عليهم وكان انتقل فنزل عسكر مكرم فكبس بها فهرب منها فنقضت له داران فى موضع يعرف بسباط أبى نوح فبنيت إحداهما مسجداً والأخرى تمت على خرابها وصار إلى البصرة فنزل قوم من أولاد عقيل بن أبى طالب فكبس هناك فهرب إلى سلمية ومن هناك ابتدأت الدعوة ويزعم أصحاب هذا القول أن عبيد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية من نسل هذا الرجل وأن عبيد الله هوسعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح وأنه تسمى بعبيد الله لما ورد مصر.

وهذا كلام كله يظهر عليه التوليد والاختراع كتب إرضاء لبنى العباس الذين غصوا بمكان الفاطميين ولم يجدوا لهم ما يحاربونهم به إلا مثل هذه الأقاويل. والحق أن النحلة سياسية يقصد منها الوصول إلى هدم دولة بنى العباس إلا أنها شيبت بشئ من التعاليم لتكون مقدمة للدعوة وأساساً لها حتى يفجأ المدعوبالغرض السياسى لأول وهلة والتعاليم متى كانت سرية حامت حولها الظنون وجعلتها الشكوك فى ظلمات حتى لا تتميز حقيقتها.

نشأ عن هذا المذهب قوتان كبريان كلتاهما ضد الدولة العباسية.

إحداهما: منظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص وهى موئل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها كما كانت قرية الحميمة منذ (١٦٠سنة) موئل الدولة العباسية ومجمع أسرارها.

الثانية: قوة ذات فوضى ومجون ونكوب عن حسن السياسة ومركزها كان لأول ظهورها العراق وهى القرامطة وهذه أولاهما فى الظهور فإنها ظهرت بوادر شرها فى عهد المعتمد على الله والثانية تأخرت عنها. وستتكلم الآن عن القرامطة.

ظهر فى أواخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة قدم إليها من نواحى خوزستان وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة فأقام على ذلك مدة وأعلم الناس أنه يدعوإلى إمام من أهل البيت وكان يزداد فى أعين الناس نبلاً بما يظهر من الزهد ثم مرض وكان فى القرية رجل يلقبه أهلها بكرمية لحمرة عينيه وهوبالنبطية أحمر العين فحمل هذا العليل إلى منزله ووصى أهله بالإشراف عليه والعناية به ولم يزل مقيماً عنده حتى برأ فكان كرمية يدعوالناس إلى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكرة وكان يأخذ من كل من دخل فى مذهبه ديناراً يزعم أنه للإمام واتخذ من أهل القرية نقباء اثنى عشر فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التى أخبرهم أنها مفروضة عليهم.

كان للهيصم فى تلك النواحى ضياع فوقف على تقصير أكرته فى العمارة فسأل عن ذلك فعلم بخبر الرجل فوجه فى طلبه فأخذ وجئ به إليه فحبسه واشتغل بشربه. رقت إحدى جوارى الهيصم للرجل فأخذت مفتاح الحجرة التى حبس فيها من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح إلى مكانه فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده وشاعت تلك الحادثة فى الناس فافتتنوا به وقالوا: رفع ثم ظهر فى ناحية أخرى وأشيع بين الناس أنه لا يمكن أحداً أن يناله بسوء فعظم فى أعينهم. ومع ذلك فإنه خاف على نفسه وخرج إلى الشام وأطلق على نفسه اسم الرجل الذى آواه وهوكرمية ثم خفف فقيل قرمط.

ثم فشا مذهب القرامطة فى سواد الكوفة والسلطان لاهٍ عنهم لا يفكر فى تغيير شئ مما هم عليه حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التى حلت بالأمة الإسلامية وحتى أخيفت السبل وقطع طريق الحاج مما سنذكره فى مواضعه إن شاء الله.

دعى آل على:

لم يكف بنى العباس ما أصاب دولتهم من آل علىّ بن أبى طالب الذى نفسوا عليهم ملك الدنيا وخلافة النبوة فضعفوا جوانب دولتهم وزعزعوا أركانها بل قام دعىّ فى آل علىّ لا يعرف الطالبيون له نسباً ولا رحماً يدلى بدلوه فى الدولة لينال منها حظاً لنفسه ذلك هو علوىّ البصرة أوالخبيث صاحب الزنج زعم أنه علىّ بن محمد بن أحمد بن علىّ بن عيسى بن زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب وأصله من عبد القيس من ربيعة وزد

البحرين (سنة ٢٤٩) فادعى أنه عباسى ودعا الناس بهجر إلى طاعته فاتبعه قوم وأباه آخرون فوجدت فـتنة بين الفريقين فانتقل عنهم إلـى حى من تميم فأقام بينهم وقد عظم مـقامه بين أهل البحـرين حتى أحلوه من أنفسـهم محل النبى وجبـوا له الخراج هناك وقاتلوا أسـباب السلطان ووتر منهم جماعة كثيرة فتنكروا له، فتحول عنهم إلى البادية ومعه جماعة من أهل البحرين منهم مولى لـبنى حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع وهوقـائد جيشه. نبت به البادية لسوء طاعـة أهلها فشخص إلى البصـرة فنزل بها فى بنى ضبيعـة فاتبعه بها جـماعة منهم علىّ بن أبان المعروف بالمهلبى وأخـواه محمد والخليل وغـيرهم وكان قدومـه البصرة (سنة ٢٥٤) وعاملها محمد بن رجاء الحضـارى فعلم بهم فخرجوا من البلد خائفين وحبس ابن رجاء جماعة ممن اتهموا بالميل إليه منهم ابن الدعىّ.

مضى الدعىّ مع من اتبعه حتى صار إلى مدينة السلام فأقام بها حولاً يستميل إليه الناس سراً حتى إذا عزل محمد بن رجاء عن البـصرة شخص إليها فى رمضان (سنة ٢٥٥) ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر القرشى وهناك خطرت له فكرة غريبة وهى الاستعانة بالعبيد الذين كانوا يعمـلون بتلك النواحى فى حمل السباخ وغـيره لأهل البصرة وهم كثـيروالعدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيـه فكيف لووعدوا مع الحرية بالسيادة على مالكى رقابهم ؟ فأخذ منهم غـلاماً اسمه ريحان بن صالح ووعده أن يكون قـائداً وأمره أن يحتال للعبيد الذين يعرفهم حـتى يجيبوه إلى نحلته ويتركوا ساداتهم وأعمالهم فاجـتمع إليه كثير منهم فـخطب فيهم فـمناهم ووعدهم أن يقـودهم ويرئسهم ويملكهم الأمـوال وحلف لهم الإيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم. حذر الناس على غلمانهم وكان هناك نحو(١٥٠٠٠غلام).

لم يزل الرجل يحتال لجمع هؤلاء الزنوج حتى كان يوم عيد الفطر من (سنة ٢٥٥) وفيه صلى بأصحابه صلاة العـيد وخطبهم خطبة ذكر فيها ما كـانوا عليه من سوء الحال وأن الله قد استنقذهم به من ذلك وأنه يريد أن يرفع أقدامهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأمـوال ثم حلف لهم على ذلك. وشـرع فقـود قواده وقـال لهم: كل من أتى برجل مضموم إليه. استمر يعيث فى تلك الجهات وينهب الأموال ويستكثر من الرجال وقد أرسلت إليه جـيوش من البصرة فـهزمها ثم اتجـه نحوالبصرة فـقابلته جنود كثـيرة من أهل السلطان ومرتزقـة الديوان فانتصـر عليها وقتـل منها مقتلة عظـيمة وقوى أمـره جداً بتلك الواقعـة وحل الرعب فى قلوب أهل البصـرة وكتبـوا إلى السلطان بخبـره والخليفة يومـئذ

المهتدى بالله. أقام الدعىّ بعد ذلك بالقرب من البصرة بسبخة هناك تعرف بسبخة أبى قرة ثم تحول منها إلى الجانب الغربى من نهر أبى خصيب وهناك غنم مغانم كثيرة من المراكب الماخرة فى دجلة وكانت شيئاً كثيراً.

وفى رجب (سنة ٢٥٦) أحرق مدينة الأبلة واستسلم له أهل عبادان خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أهل الأبلة فأخذ من كان بها من العبيد وضمهم إلى جنده وفرق فيهم السلاح ومن هناك سير عسكراً إلى الأهواز فاستولى عليها وأسر إبراهيم ابن المدبر عامل الخراج بها فزاد ذلك أهل البصرة رعباً. أرسل السلطان إلى الدعىّ جنوداً فكان يصيبها أبداً الفشل.

وفى شوال (سنة ٢٥٨) أوقع بأهل البصرة وقعة هائلة قتل فيها من أهل البصرة عدد عظيم وخربت أكثر مبانيها.

وكان كل يوم يكتسب قوة جديدة بما يضاف إليه من العبيد وما يتاح له من النصر المتتابع حتى استفحل أمره وعظم شره وخيف على الدولة منه فلم ير مدبر الدولة وقائد جيوشها أبوأحمد الموفق إلا أن يحشد إليه الجموع ويتولى هوقيادتها ليكتسب الجيش العباسى من ذلك قوة روح. فعبأ جنداً كثير العدد ثم العدة وجاءه كثير من المتطوعين انتدبوا أنفسهم لحرب هذا الدعىّ وقد كانت لأبى أحمد معه وقائع هائلة وخطوب جسام استمرت أعواماً. فى آخر الأمر أنزل الله نصره على رجال الدولة وهزموا الزنوج وقتلوا هذا الدعىّ وكان ذلك فى أواخر (سنة ٢٧٠) وأمر الموفق كاتبه أن يكتب إلى أمصار الإسلام بالنداء فى أهل البصرة والأبلة وكور دجلة وأهل الأهواز وكورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج بقتل الدعىّ وأن يؤمروا بالرجوع على أوطانهم ففعل ذلك فسارع الناس إلى ما أمروا به وقدموا المدينة الموفقية التى اختطها الموفق هناك من جميع النواحى وأقام الموفق بعد ذلك بالموفقية ليزداد الناس بمقامه أمناً وإيناساً.

وكان خروج صاحب الزنج فى يوم الأربعاء لأربع من رمضان(سنة ٢٥٥) وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر (سنة ٢٧٠) فكانت أيامه من لدن أن خرج إلى اليوم الذى قتل فيه (١٤سنة وأربعة أشهر وستة أيام). وكان دخوله الأهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان (سنة ٢٥٦) وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقها لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال (سنة ٢٥٧).

ولم يكن يدرى إلا الله ماذا تكون العاقبة لوانتصر هذا الرجل بزنوجه على آل العباس بأتراكهم كان الأمر ينتقل من أيدى الأتراك إلى أيدى الزنوج فتقع الأمة فى الشر العظيم

والوباء الوبيل لأن هؤلاء الزنوج ليس لهم أدب معروف بل لا يكادون يفقهون قولاً فانتصار العباسيين عليهم خلاص للأمة من شر مستطير.

الاضطراب فى المشرق:

كان آل طاهر أمراء المشرق منذ عهد المأمون إليهم خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر وما إليها من بلاد الرى وطبرستان وجرجان وكرمان وكانوا كفاة لما عهد به إليهم موثوقاً بهم فى ارتباطهم بحبل الخلافة العباسية إلا أن حال بغداد وسامرا ونزوع الأتراك إلى الاستيلاء على أمور الملك والاستبداد على الخلفاء جعل الطامعين فيما بعد عن دار الخلافة أشره إلى الاستبداد بما يمكن أن يحوزوه ويستولوا عليه والقوة الطاهرية لم تكن تحل المحل الأرفع أمام معاكسيها إلا بهيبة الخلافة وشدة بأس القوة المركزية التى يحسب حسابها كل عاص وكل طامع.

وجد بالشرق ثلاث قوى تحيط بآل طاهر وتنازعها ما بيدها من هذا الملك الطويل العريض.

الأول: القوة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد شرحناها قبل.

الثانية: القوة الصفارية بسجستان أوجدها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو. كان هذان الرجلان يشتغلان فى حداثتهما بعمل الصفر وكانا يظهران الزهد فصحبا رجلاً من أهالى سجستان وكان مشهوراً بالتطوع فى قتال الخوارج اسمه صالح بن النضر الكنانى فأحبهما وحظى بهما حتى جعل يعقوب مقام الخليفة عنه. ولما توفى صالح ولى مكانه فى رياسة المطوعة درهم بن الحسين فكان يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وكان قائدا لعسكره. وكان درهم غير ضابط لأموره على عكس ما كان يعقوب فرأت المطوعة ذلك فعزلوا درهماً وولوا يعقوب مكانه فحارب الخوارج والشراة فظفر بهم ظفراً عظيماً وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحداً قبله ثم اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما إليها. ثم قاتل الترك الذين بتخوم سجستان وانتصر عليهم فرهبه الملوك الذين حوله منهم ملك الملتان وملك الرخج وملك الطبسين وملك ذابلستان وملك السند ومكران وغيرهم وأذعنوا له. وكان ملكه هراة وبوشنج (سنة ٢٥٣) وأمير الخراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر.

لم يكن يعقوب بن الليث يريد الاستقلال التام عن الخلافة العباسية بل كان يريد أن يكون أميراً بعهد من خليفة بغداد ليستعين بذلك على تأييد مركزه والحلول محل آل طاهر فراسل المعتز وبعث إليه بهدية سنية منها مسجد فضة مخلع يصلى فيه خمسة عشر إنساناً

وسأل أن يعطى بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم على أن يتولى إخراج على بن الحسين المتغلب على بلاد فارس. ثم شخص على أثر كتابه للمعتز إلى كرمان فنزل بها وهى الحد الفاصل بين كرمان وسجستان ثم استولى على كرمان ثم دخل إلى عمل فارس فخندق علىّ بن الحسين على نفسه بشيراز وذلك فى (١٨ ربيع الآخر سنة ٢٥٥) وأرسل إلى يعقوب يعلمه أنه إن كان يريد فارس فكتاب أمير المؤمنين يأمرنى بتسليم العمل لأنصرف فلم يلتفت يعقوب إلى ذلك الطلب المقبول وآذنه بحرب فحصلت بينهما موقعة فى جمادى الأولى (سنة ٢٥٥) انهزم فيها جند شيراز وأسر علىّ بن الحسين ودخل يعقوب شيراز ظافراً وصلى الجمعة بها ودعا خطيبه للمعتز، ثم عاد بعد ذلك إلى كرمان ثم إلى سجستان.

رفع ذلك من شأن يعقوب بن الليث فإن كوراً عظيمة أذعنت لسلطانه وفى (سنة ٢٥٩) فى عهد المعتمد قصد نيسابور فلما قرب منها ألقى بنوطاهر بأيديهم وقابلوه مطيعين لما رأوا أنه لاقبل لهم بمقاومته وأن قوة الخلافة ضعفت عن إعانتهم فلما دخلها حبس محمد بن طاهر وآل بيته وبهذا انتهت دولتهم وفض اللواء الذى كان المأمون قد عقده لطاهر بن الحسين إذ ولاه خراسان وبلاد المشرق.

بعد هذا الانتصار الباهر أرسل يعقوب إلى سامرا وفداً معهم كتاب يذكر فيه ما تناهى إليه من حال أهل خراسان وأن الشراة المخالفين قد غلبوا عليها وضعف عنهم محمد بن طاهر وأن أهل خراسان كاتبوه وسألوه القدوم عليهم وأنه بسبب ذلك سار إليها فلما كان على عشرة فراسخ منها سار إليه أهلها فدفعوها إليه فدخلها.

كان المدبر للدولة فى ذلك الوقت أبوأحمد الموفق فأجاب الرسل بأن أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على ما فعل وأنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذى ولاه إياه وأنه لم يكن له أن يفعل ما فعل بغير أمر أمير المؤمنين فليرجع إلى عمله فإنه إن فعل ذلك كان من الأولياء وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين. فلم يكن لهذه الرسالة أدنى تأثير فى نفس يعقوب ولا فى مركزه القوى لأن المسألة مسألة تنازع فى الحياة ولا بقاء للحياة إلا بالقوة.

وفى (سنة ٢٦٠) كانت بين قوة يعقوب وقوة الحسن بن زيد المتغلب على طبرستان وقائع انهزم فيها الحسن ودخل يعقوب سارية وآمل ظافراً وصار يتبع الحسن وهومنهزم حتى صار إلى بعض جبال طبرستان فأدركته هنالك الأمطار وتتابعت عليه نحوأربعين ليلة فلم يتخلص مما هوفيه إلا بمشقة شديدة ولما رأى صعوبة السير إلى الأمام انصرف بجنده وقد فقد منه فى هذه الواقعة نحوأربعين ألفاً وتقرب بما فعل إلى سامرا فبعث يخبر به وذكر وأنه نفى الحسن بن زيد من طبرستان وأسر سبعين من الطالبيين.

لم تكن أعمال يعقوب مما يعجب السلطان لأن رجال الدولة خافوا ما وراء ذلك من استقلاله أوغلبته على حاضرة الخلافة نفسها فأمر الموفق عبيد الله بن طاهر أن يجمع من كان ببغداد من حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتاباً يعلمهم فيه أن السلطان لم يول يعقوب بن الليث خراسان ويأمرهم بالبراءة منه لإنكار الخليفة دخوله خراسان وحبسه محمد بن طاهر. وهذا رجوع منهم إلى القوة الروحية التى لخليفة المسلمين ولكنهم لم يروا لها تأثيراً بإزاء القوة فعادوا على الحيلة خوفاً من أن ذلك يحرج يعقوب فيدعو لنفسه ويعلن استقلاله فأعلنوا أن أمير المؤمنين ولاه خراسان وطبرستان وجرجان والرى وفارس والشرطة بمدينة السلام وذلك إقامة له مقام آل طاهر.

لما نال يعقوب ما طلب ازداد طمعاً وجرأة فأرسل يقول إنه لا يرضيه ما كتب به إليه دون أن يصير إلى باب السلطان ويظهر أنه كان يريد بذلك الاستيلاء الفعلى على بغداد وبلاد العراق فلما علم المعتمد ذلك رأى أو رأى مدبرو أمره أنه لم يبق بد من قيام الخليفة بنفسه إلى حربه ولا سيما بعد أن علم أن يعقوب قادم بجيوشه إلى سامرا فرحل المعتمد عن سامرا إلى بغداد ومنها اتجه نحوعسكر يعقوب الذى وصل إلى واسط فتقابل الجيشان بين سيب بنى كوما ودير العاقول وكانت هناك موقعة هائلة بين الطرفين كان الظفر فيها أولاً لجند يعقوب ولكن أصابهم بعد ذلك شر من جراء ذلك فإن كثيراً من الجند اليعقوبى كرهوا القتال إذ رأوا أنفسهم يحاربون الخليفة وجهاً لوجه فانفصلوا عن الجيش فانهزم جنده أما يعقوب فإنه فارق موضعه على تعبئة ومضى. تخلص بسبب ذلك محمد بن طاهر من أسره فأحضره الخليفة وخلع عليه مرتبته وقرأ على الناس كتاباً يذكر فيه مثالب يعقوب وأنه لم يرضه ما تفضل السلطان به عليه حتى جاء مشاقاً محارباً وكان هذا الكتاب مؤرخاً بيوم (١١ رجب سنة ٢٦٢).

رجع المعتمد إلى سامراً وقدم محمد بن طاهر بغداد وقد رد إليه عمله فخلع عليه فى الرصافة، أما يعقوب فعاد من طريق فارس وضبطها وولى على كورها رجالاً من قبله وكانت له بها وقائع مع رجال الدعىّ صاحب الزنج الذى لم يكن انتهى أمره بعد.

وفى (سنة ٢٦٥) توفى يعقوب بن الليث بالأهواز.

كان هذا الرجل عصامياً نشأ فى صناعة الصفر ثم ما زال يهم بالمعالى فتنقاد له. قاد الجنود لفتح البلدان وساس من تغلب عليهم سياسة سلطانية عالية حتى أمكنه أن يفعل ما فعل ولم يؤخذ عليه فى تدبيره إلا هذه الفعلة الأخيرة وهى قدومه من بلدان قاصية لحرب الخليفة بسامراً وبغداد وهوفى جيوشه وعدده ومواليه فكانت عاقبته الفشل ويظهر أن الرجل

ما كـان يظن أنه يلقى حرباً وكان يرى أن كـتبه التى يظهـر فيها الخـضوع وأنه لم يجئ إلا لخدمة أمـير المؤمنين والمثول بين يديه تجوز حـيلتها على القائمين بأمـر الدولة. وكانت مدته (١٨سنة).

بعد مـوت يعقوب بايـع جنده أخاه عمـرو بن الليث فكان خيراً مـن أخيه فى التـدبير وإحكام السيـاسة حتى كان يـقال ما أدرك فى حسن السـياسة للجنود والهـداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث وكان يحـضر بنفسه يوم أن تصرف الأعطيات للجنود حين يعرضون عدتهم الحربية فكـان العارض يقعد والأموال بين يديه والجند بأسرهم حاضـرون وينادى المنادى أولاً باسم عمـرو بن الليث لتقدم دابتـه إلى العارض بجـميع آلة الفارس فيتفقدها ويأمر بوزن (٣٠٠درهم) باسم عمروبن الليث فتحمل إليه فى صرة فيأخذ الصرة فيقبلهـا ويقول الحمد لله الذى وفقنى لطاعة أمير المؤمنين حـتى استوجبت منه الرزق ثم يضعها فى خفة تكون لمن يخلع خفـه. ويدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم التامة ودوابهم الفره ويطالبـون بجميع ما يحتاج إليه الفارس والراجل من صغيـر آلة وكبيرها فـمن أخلَّ بإحضار شئ حرمـوه رزقه. وفوق ذلك كان يرضى الخـليفة وبطانته بما كـان يرسله من الأموال والهدايا والتحف فـجعله الخليفة والياً عـلى ما كان يلى أخوه ووجهت إليه بذلك الخلع مع العهد والعقد.

ولم يزل أمره على ذلك حتى تغير عليه الخليـفة (سنة ٢٧٢) لما كان يبدو له من طموحه إلى ما طمح إليـه أخوه فـأدخل عليه من كان ببـغداد من حاج خـراسان ولعنه بحـضرتهم وأخبرهم أنه قلد خـراسان محمد بن طاهر وأمر بلعن عـمروبن الليث على المنابر ثم رضى عنه بعد ذلك لما استرضاه بالمال ولم يزل عمرو فى حـروب ووقائع لا قيمة لها حتى تعرض أخيراً لما كـان بيد السامانيين مـن بلاد ما وراء النهر فولاه الخليـفة إياها فكانت تلك الولاية خاتمة عزه كما سيجئ.

السامانيون:

تنسب الأسرة السامانية إلى بهرام جور صاحب كـسرى هرمز فهى أسرة عريقة المجد فى الأمة الفارسـية. كان فى عهد المأمـون من تلك الأسرة أولاد أسد بن سامـان وكان المأمون يرعى حقوق الحـرمة لذوى البيوتات فـقربهم ورفع من أقدارهم وكانت بـلاد ما وراء النهر مقسمة بينهم يلونها من جهة أميـر خراسان فكان نوح بن أسد فى سمر قند وأحمد بن أسد فى فرغانة ويحيى بن أسد فى الشاس وأشروسنة وإلياس بن أسد فى هراة. وكان أحمد بن

أسد عفيف الطعمة مرضى السيرة لا يأخذ رشوة ولا أحد من أصحابة. ولما توفى استخلف ابنه نصراً على أعـماله بسمرقند وما وراءها فـبقى عاملاً بها إلى آخـر أيام الطاهرية. وكان إسماعـيل بن أحمد يخدم أخـاه نصراً فولاه بخارى (سنة ٢٦١) وكـان بين هذين الأخوين خطوب طويلة بسبب سـعاة السوء حتى إنه فى (سنة ٢٧٥) تحـارب نصر وإسماعيل فـقهر نصر وحمل إلى أخيه إسماعيل فلمـا رآه ترجل له وقبل يديه ورده من موضعه إلى سمرقند وتصرف هو على النيابة عنه ببخارى.

وإسماعيل هذا هوالذى على يده انتهى عـز عمروبن الليث وورث ما كان بيده من ملك خراسان وصارت له دولة عظيمة أورثها أهل بيته واستمرت دولتهم (١٧٠ سنة وستة أشهر) ثم انتهت على أيدى آل سـبكتكين من جهة والترك الخاقـانية من جهة أخـرى وهذه أسماء ملوكهم وتواريخهم.

١ـ نصر بن أحمد بن سامان	٢٦١ ـ ٢٧٩
٢ ـ إسماعيل بن أحمد	٢٧٩ ـ ٢٩٥
٣ ـ أحمد بن إسماعيل	٢٩٥ ـ ٣٠١
٤ ـ نصر بن أحمد	٣٠١ ـ ٣٣١
٥ ـ نوح بن نصر	٣٣١ ـ ٣٤٣
٦ ـ عبد الملك بن نوح	٣٤٣ ـ ٣٥٠
٧ ـ منصور بن نوح	٣٥٠ ـ ٣٦٦
٨ ـ نوح بن منصور	٣٦٦ ـ ٣٨٧
٩ ـ منصور بن نوح	٣٨٧ ـ ٣٨٩
١٠ـ عبد الملك بن نوح	٣٨٩ ـ ٣٨٩

مما تقدم يفهم أن البلاد المشـرقية تقلص عنها ظل الخلافة العباسـية فعلاً وإن كان يدعى لهم ببعضها أسماء.

فكانت الدولة الصفارية بـفارس وكرمان وسجسـتان وخراسان وكانت الدولة الســامانية ببلاد ما وراء النهر وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية والعلوية وهؤلاء يدعون لأنفسـهم بالخلافة ولا يدينون لبنى العباس بطاعة.

أما بالمغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بنى العباس برقة ومصر وسوريا وهى دولة أحمد بن طولون.

أحمد بن طولون:

كان طولون مملوكاً تركياً أهداه نوح بن أسد السامانى إلى المأمون (سنة ٢٠٠) فكان من عداد الجنود التركية الكفاة وولد له أحمد ابنه بسامرا (سنة ٢٢٠) فربى فى حلبة أولئك الجنود وأفصح بالعربية وحفظ القرآن الكريم وكان ذا خلق قويم ولما بلغت سنه العشرين توفى أبوه طولون فكان بعده فى ضمن جنود بايكباك الذى تقدم ذكره.

كانت ولاية مصر مضافة إلى بايكباك وهوالذى يختار أميرها ففى (سنة ٢٥٤) اختار له أحمد بن طولون لما رأى من كفايته وشجاعته فعقد له عليه ودخلها أحمد لتسع بقين من رمضان وكان يتقلد القصبة وحدها وكان معه أحمد بن محمد الواسطى كاتب بايكباك.

لما توفى المعتز (سنة ٢٥٥) وتولى المهتدى وقتل بايكباك حال محله أماجور وكان صهراً لأحمد بن طولون فإن أحمد كان زوج ابنته فكتب إليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر فعظمت لذلك منزلته واتسع ملكه وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولاً ثم لأماجور ثم لأحمد بن طولون حتى مات أماجور (سنة ٢٥٨ فاستقل أحمد بمصر ودعى له بها وحده بعد الدعاء للخليفة وضبط ابن طولون بلاد مصر أحسن ضبط وخضد شوكة الثائرين الذين كانوا يثورون بها من وقت لآخر.

وفى(سنة٢٦٢) حصل بينه وبين أبى أحمد الموفق تنافر أدى إلى وحشة استحكمت حلقاتها فكتب أبوأحمد إلى ابن طولون يهدده بالعزل فأجابه جواباً فيه بعض الغلظة فسير إليه الموفق جيشاً يقوده موسى بن بغا فلما بلغ الرقة أقام فيها عشرة أشهر ولم يمكنه المسير لقلة الأموال وطالبته الجنود بالعطايا فلم يكن معه ما يعطيهم فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره فاضطر ابن بغا أن يعود إلى العراق وكفى ابن طولون شره وفى (سنة ٢٦٣) ولى المعتمد أحمد بن طولون طرطوس ليقوم بحفظ ذلك الثغر عن الروم الذين كانوا قد تطرقوا البلاد لضعف قوة الخلافة.

وفى (سنة ٢٦٤) دخل فى حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة أماجور الذى كانت تلك البلاد له فاتسع ملكه اتساعاً عظيماً حتى كانت حدود مملكته تنتهى إلى نهر الفرات وبذلك تم التغلب والإنفراد عن بنى العباس من أقاصى الغرب إلى نهر الفرات فضاقت مملكة بنى العباس واقتصرت على العراق والجزيرة الفراتية على ما فيها من الثورات والاضطرابات وبلاد الرى والأهواز.

وكان الموفـق فى ذلك الوقت مشـغولاً بحرب الدعـىّ صاحب الزنج فكان ذلك فـرصة عظيمة لأحمد بن طولون أن يقوى أمر ملكه وكان يعلم ما بين المعتمد الخليفة وبين أخيه من نفتور فأراد أن ينتفع من ذلك وصادف أن أرسل المعتمد إلى ابن طولون يشكو له مما هو فيه من استبداد الموفق عليه وأنه ليس له من الخـلافة إلا الاسم فأشار عليه ابن طولون أن يلحق به بمصر ولوتم ذلك لانتـقلت الخلافة العـباسيـة إلى القطائع مدينة أحمـد بن طولون بمصر ولكن حـال دونه عامل الموصـل والجزيرة الذى أرسل إليـه الموفق أن يبـذل جهـده فى منع المعتمد من المسير إلى مصر فلما بارح المعـتمد سامراً ووصل إلى عمل الموصل منعه العامل من المسير فعاد ثانية إلى سامـرا وبسبب ذلك اتسعت مسافة الخلاف بين الموفق وابن طولون حتى أن ابن طولون قطع خـطبة الموفق واسقط اسـمه من الطراز فتـقدم الموفق إلى المعتـمد يلغه ففصل مكرهاً لأن هواه كان مع ابن طولون.

وفى (سنة ٢٧٠) توفى أحمـد بن طولون فخلفه فى مصـر والشام والثغور الشـامية ابنه خمارويه وقـد استمر ملك مـصر والشام فى أعقـاب ابن طولون إلى (سنة ٢٩٢) وقد ولى من هذا البيت خمسة أمراء وهم:

١ـ أحمد بن طولون	٢٥٤ ـ ٢٧٠
٢ـ خمارويه بن أحمد	٢٧٠ ـ ٢٨٢
٣ـ أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢ ـ ٢٨٣
٤ـ هاورن بن خمارويه	٢٨٣ ـ ٢٩٢
٥ـ شيبان بن أحمد بن طولون	٢٩٢ ـ ٢٩٢

الحوادث الخارجية:

ترتب على الاضطرابات التى قصصنا حـديثها فى عهد المعتمد أن الحـدود الرومية كانت محل اضطراب دائم يغير عليها الروم كل وقت فيجدون الدفاع عنه ضعيفاً حتى أنهم أخذوا (سنة ٢٦٣) حصن لؤلـؤة الـذى كان شـجى فى حولقـهم وغلبـوا كثيـراً من الجـيوش ولم تتحسـن الأحوال قليلاً إلا بعد أن أخذ ابن طـولون مدينة طرطوس وعهد إليـه حماية الثغـور الشاميـة فتولى الغزو بـجنوده المصرية والشامـية وقد أوقع بالروم وقـعة هائلة (سنة ٢٧٠).

وكانت غارات الروم بعـد ذلك على ديار ربيعة وثغورها الجـزرية فكانت ترد السرايامن

تلك الجهة فتغير على المسلمين وهم غارون فيأخذون منهم كثيراً من الأسرى ولولا جنود المتطوعين لكانت الحال أسوا مما حصل.

ولاية العهد:

كان أبوأحمد الموفق ولى العهد بعد المعتمد وكانت إليه أمور الخلافة فعلاً فلما توفى (سنة ٢٧٨) جعل ولى العهد المفوض ابن المعتمد ومن بعده أبوالعباس بن أبى أحمد الموفق وكان أبوالعباس صاحب الكلمة فى الخلافة بعد أبيه فلم يلبث أن خلع المفوض من ولاية العهد وجعل نفسه مقدماً.

صفات المعتمد:

لم يكن للمعتمد نفوذ فى إدارة البلاد ولا شئ من سياسة المملكة لأن الأمر كله كان منوطاً بأخيه أبى أحمد وكان المعتمد مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهووالملاهى لا همَّ له إلا ذلك وله أحاديث فى الغناء والرقص والندامى وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء استبدال هذا بتعبية الجيوش وسوقها إلى خوض الغمرات:

وكانت وفاة المعتمد على أثر شراب شربه فأكثر منه ثم أتبعه لأكلة هاضته وأتت على حياته لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب (سنة ٢٧٩).

١٦
المعتضد

هو أبو العباس أحمد بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد سمها ضرار وكان عضداً لأبيه الموفق فى حروبه وأعماله وولى العهد بعد وفاه أبيه وبعد خلع المفوض ابن المعتمد (سنة ٢٧٩) وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه المعتمد على الله لإحدى عشرة بقيت من رجب (سنة ٢٧٩) (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) ولم يزل خليفة حتى توفى لثمان بقين من ربيع الآخر (سنة ٢٨٩) (١٥ إبريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام.

وكان يعاصره فى الأندلس عبد الله بن محمد الذى توفى (سنة ٣٠٠).

وكانت دولة الأدارسة على غاية من الاضطراب يؤذن فيها بقرب الانتهاء.

ويعاصره فى إفريقية وصقلية من الأغالبة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذى توفى (سنة ٢٨٩).

وفى مصر من آل طولون خمارويه بن أحمد المتوفى (سنة ٢٨٢) ثم جيش ابن خمارويه لمتوفى (سنة ٢٨٣) ثم هارون بن خمارية المتوفى (٢٩٢).

وفى زبيد من آل زياد إبراهيم بن محمد عبد الله بن زياد المتوفى (سنة ٢٨٩).

وفى صنعاء من آل يعفر عبد القادر أحمد بن يعفر المتوفى (سنة ٢٧٩) ثم إبراهيم بن محمد بن يعفر المتوفى (سنة ٢٨٥) ثم أسعد بن إبراهيم المخلوع (سنة ٢٨٨) ثم دخلت صنعاء تحت سلطان الزيدية ثم القرامطة.

وفى طبرستان وجرجان محمد بن زيد العلوى المقتول (سنة ٢٨٧).

وفى خراسان وسجستان عمروبن الليث الصفار الذى أسر (سنة ٢٨٧).

وفى بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف المتوفى (سنة ٩١١).

وفى فرنسا أودون أول ملك من الكاباسيـان المتوفى (سنة ٨٩٨) ثم شارل الثالث الملقب بالساذج المتوفى (سنة ٩٢٣).

وزراء الدولة:

أول وزراء المعتضـد عبد الله بن سليمـان بن وهب واستمر فى وزارته حـتى مات (سـ ٢٨٨) فاستوزر بعده ابنه أبوالحسين القاسم بن عبيد الله ومات وهووزيره.

من المهم أن نذكـر هنا ملخـصاً لما أورده الكاتب هلال بن المحـسن الصـابئ فى كتـ الموسوم بتحفة الأمراء فى أخبار الوزراء لندل بذلك على مقدار مصروف الخليفة المعتضد.

قال عبـد الحميد الكاتب لـما تولى أبوالقاسم عبيـد الله بن سليمان وزارة المعتـضد بـ رحمـة الله عليه والدنيا منغلقـة بالخوارج والأطماع مسـتحكمة من جمـيع الجوانب والـ قاصـرة والأموال معـدومة وقد استـخرج إسمـاعيل بن بلبل خراج السـواد لسنتين فى سـ وليس فى الخـزائن موجـود من مال ولا صيـاغة احـتاج فى كل يوم إلى مـا لا بد منه مـ النفقات إلى سبعة آلاف دينار وتعذر عليه قيام وجهها وقال له يوماً وهو فى مجلسه من المعتضـد بالله: يا أبا الفضل قد وردنا على دنيا خراب مـستغلقة وبيوت مال فـارغة وابتـ عقد لخليفة جديد الأمر وبيننا وبين الافتتاح مدة ولا بد لى فى كل يوم من سبعة آلاف د لنفقات الحضرة على غـاية الاختصار والتجزئة فإن كنت تعرف وجـهها تعيننى به فأحب ترشدنى إليه فحسن له إطلاق ابنى الفرات أبى الحسن علىّ وأبى العباس أحمد ابنى محمـ بن موسى بن الفرات. وكـانا محبوسين بعد أن صودرا فـحسن الوزير للمعتضد إطـلاقهـ والاستعانة بهما ففعل وحينئذ أحضـرا أحمد بن محمد الطائى وضمناه أعمال سقى الفر ودجلة وجوخى وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق وغيرها على أن يحمل من ماله فى كـ يوم سبعة آلاف دينار وفى كل شـهر ستة آلاف دينار وأخذ خطه بالتزام الضـمان وتصحيـ المال على ما تقرر من أوقاته واستقبلا به فى المياومة يومهما وفى المشاهرة غدهما.

	وهذا تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ما قرره المعتضد بالله:
١	دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجال ومن برسمهم من البوابين ومن يجرى مجراهم.
١	دينار أرزاق الغلمان الخاصة وفيهم الحاجب وخلفاء الحجاب.
١٥٠	دينار أرزاق مماليك المعتضد المعروفين بالمماليك الحجرية.

٦٠٠	أرزاق المماليك المختارين.
٥٠٠	أرزاق الفرسان المميزين.
١١٠	أرزاق سبعة عشر صنفاً من الموسومين بخدمة الدار.
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ومن يجرى مجراهم.
٣٠٠	أثمان إنزال الغلمان المماليك.
٢٥٣ ١/٢	نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز ونزال الحرم ومخابز السودان.
١٠٠	ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وما شابه ذلك.
٤	أرزاق السقايين بالقرب.
١٦٩	أرزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والمماليك.
١٠٠	أرزاق الحرم من المستخدمين فى شراب العامة وخزائن الكسوة إلخ.
١٠٠	أرزاق الحرم.
٤٠	ثمن علوفة الكراع فى الاصطبلات الخمسة.
٦٦ ÷	ما يصرف فى ثمن الكراع والإبل وما يبتاع من الخيل.
٣	أرزاق المطبخين.
٣	أرزاق الفراشين ومن جرى مجراهم.
٦ ÷	ثمن الشمع والزيت.
٤	أرزاق أصحاب الركاب والنجائب والسروج.
٤٤ ÷	أرزاق الجلساء وأكابر الملهين.
٢٣ ÷	أرزاق المتطبيين وتلامذتهم مع أثمان الأدوية.
٧	أرزاق أصحاب الصيد وثمن الطعم والعلاج للجوارح.
٦١ ÷	أرزاق الملاحين.
:	ثمن نفط ومشاقة.

المقدار	الوجه
١٥	صدقة يومية.
٣٣ ١/٣	جارى أولاد المتوكل.
١٦ ٢/٣	جارى ولد الواثق والمهتدى والمستعين وسائر أولاد الخلفاء.
١٦ ٢/٣	جارى ولد الناصر.
٢٠	أرزاق مشايخ الهاشميين والخطباء بمدينة السلام.
٣٣ ١/٣	جارى جمهور بنى هاشم.
٣٣	رزق الوزير وابنه.
١٥٦ ٢/٣	أرزاق أكابر الكتاب وسائر من فى الدواوين وثمن الصحف والقراطيـ والكاغد.
١٦ ٢/٣	رزق القاضى وخليفته وعشرة فقهاء.
٣ ١/٣	خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام.
٥٠	نفقات السجون.
١٠	نفقات الجسرين وأرزاق الجسارين.
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدى وأرزاق أطبائه وأثمان الأدوية.
٦٩٤٦	المجموع

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التى كانت تصرف فى الحضرة كل يو حوالى سبعة آلاف دينار وفى الشهر (٢١٠٠٠٠) وفى السنة (٢٥٢٠٠٠٠دينار) وهومقد قليل إذا قيس بما كان يرد على حضرة الخلافة فى عهد المأمون والمعتصم ولا غرابة فى ذ فإن كثيراً من الأقاليم استقل بإدارته وأمواله المتغلبون وما بقى لبنى العباس لم يعمره العـ والأمن لكثرة الاضطرابات فى الجزيرة وبلاد العراق وفارس.

اضطرابات الجزيرة:

كانت العرب مع تغلب الأتراك على دولة بنى العباس لا يقرون بالخضوع لهم بل كنـ على ما لم يزالوا عليه من الاستقلال بأمر أنفسهم فى ديار ربيعة وفى ديار مضر ولا سـ

بعد أن أسقط العباسيون أسماء العرب من ديوان المرتزقة فكانت لا تزال تخرج منهم خوارج يدعون الناس إلى خلع طاعة العباسيين وأكثر هؤلاء العرب جمعاً وخروجاً بنو شيبان من ربيعة.

ففي أول خلافة المعتضد سار إلى بني شيبان بالموضع الذى يجتمعون فيه من أرض الجزيرة فلما بلغهم قصده جمعوا إليهم أموالهم وأغار المعتضد على الأعراب عند السن فنهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم غرق في نهر الزاب مثل من قتل ثم سار إلى الموصل فليقيته بنوشيبان يسألونه العفو وبذلوا له رهائن فأجابهم إلى ما طلبوا وعاد على بغداد.

وفى (سنة ٢٨١) سار يريد قلعة ماردين للاستيلاء عليها من يدى حمدان بن حمدون الذى تغلب عليها وهوجد الأسرة الحمدانية فلما بلغه مسير المعتضد إليه ترك فى القلعة ابنه وسار عنه فلما وصلها المعتضد نازلها يومه وفى الغد ركب بنفسه حتى أتى باب القلعة وصاح بابن حمدان فأجابه فأمره بفتح باب القلعة ففتحه فقعد المعتضد فى الباب وأمر بنقل ما فى القلعة وهدمها ثم وجه خلف حمدان من يطلبه أشد الطلب حتى ظفر به بعد عودته إلى بغداد.

وكان مما يهم المعتضد خارجى ظهر بالجزيرة اسمه هارون الشارى واستفحل جمعه واشتدت قوته حتى لم يحاربه جند من جنود السلطان إلا هزمه فرأى المعتضد أن يضرب الحديد بالحديد فندب الحسين بن حمدان لحرب هارون فقال له الحسين: إن أنا جئت به فلى ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين إحداها إطلاق أبى وحاجتان أذكرهما بعد مجيئى فأجابه المعتضد إلى ذلك فمضى مع جند اختاره حتى لقيه فحاربه وهزمه ثم ما زال يتبعه حتى ظفر به فأخذه أسيراً وأحضره للمعتضد فخلع على الحسين وطوقه وخلع على إخوته وأمر بفك أبيه والتوسعة عليه والإحسان إليه فكان هذا بدء ظهور الأسرة الحمدانية.

القرامطة:

قد ذكرنا فيما مضى كيف ابتدأت نحلة القرامطة تشيع فى سواد الكوفة ويدخل الناس فيها حتى كثر أتباع القرامطة.

فى قريب من الوقت الذى انتشر فيه هذا المذهب بسواد الكوافة ظهر بالبحرين رجل يقال له سعيد الحسن الجنابى. وجنابة من سواحل فارس يدخل إليها فى المراكب فى خليج من البحر الفارسى وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال وقبالتها فى وسط البحر جزيرة خارك نشأ

بها أبو سعيد هذا وكان دقاقاً فنفى عن جنابة فخرج إلى البحرين فأقام بها تاجراً وجعل يستميل العرب إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها وقوى أمره فقتل من حوله من أهل القرى وفعل ذلك بالقطيف وأظهر أنه يريد البصرة التى كتب عليها الشقاء فإنه لم يمض على ما لا قته من السوء على يد دعىّ العلويين أكثر من (١٥سنة) فكتب واليها إلى المعتضد يخبره بالأمر فأمره المعتضد أن يبنى على البصرة سوراً ففعل وفى (سنة ٢٨٧) أقبل الجنابى بجموعه يريد البصرة فأرسل إليه المعتضد جيشاً قائده العباس بن عمرو الغنوى فهزمه أبو سعيد وأسر العباس واحتوى ما فى العسكر وقتل الأسرى ثم سار الجنبى بعد الواقعة إلى هجر وانصرف المنهزمون إلى البصرة فلقيهم الأعراب فأفنوهم: أحدث ذلك بالبصرة قلقاً واضطراباً حتى همّ أهلها بالجلاء عنها ولكن واليها هدأ بالهم.

أما أمرهم بسواد الكوفة فإنه لما علم المعتضد أمر انتشار مذهبهم هناك وكثرة متبعيه أرسل إليهم جيشاً يقوده شبل غلام أحمد بن محمد الطائى فظفر بهم وأخذ رئيسه لهم يعرف بنى الفوارس فقدم به على المعتضد فسأله المعتضد هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل فى أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل ؟ فقال: يا هذا إن حلت روح الله فينا فما يضرك وإن حلت روح إبليس فما ينفعك فلا تسأل عما لا يعنيك وسل عما يخصك، فقال: ما تقول فيما يخصنى قال: أقول إن رسول الله ﷺ مات وأبوك العباس حى فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد الصحابة على ذلك ثم مات أبوبكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه ثم مات عمر وجعلها شورى فى ستة أنفس ولم يوص إليه ولا أدخله فيهم فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها ؟ فأمر به المعتضد فقتل.

كان تتابع الجيوش من المعتضد إلى من بسواد الكوفة سبباً لأن داعية قرمط زكرويه بن مهرويه سعى فى استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم وبايعوا (سنة ٢٩١) ابن زكرويه المسمى يحيى المكنى بأبى القاسم ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وزعم لهم أن له بالبلاد مائة ألف تابع وسمى أتباعه الفاطميين فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرصافة فاغتروه فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا الشام وكانت إذ ذاك فى حوزة خماريه ابن أحمد بن طولون وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مراراً فهزموه.

هذا ما كان منهم فى حياة المعتضد ظهروا بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام وبدءوا بخروجهم شعلة النار المحرقة التى آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق إلى بيت الله المقدس كما يأتى بيانه.

وفى تلك الأزمنة كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وأفريقية فكانت الدعوة الإسماعيلية رتبت أن يكون فى آن واحد بجميع الجهات الإسلامية حتى لا يكون لبنى العباس قبل بملاقاة شرها وكذلك كان.

أمر المشرق:

اتسع سلطان عمروبن الليث فى أول عهد المعتضد ودخل نيسابور (سنة ٢٨١) ولما خرج بجيشه منها خالفه رافع بن هرثمة وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوى ودعا له على منبر نيسابور فعاد عمرو بن الليث وحاصره بنيسابور حتى احتلها ثانياً وكان رافع قد هرب إلى طوس فأرسل إليه عمرو جنداً فلحقوه هناك وقاتلوه فانهزم إلى خوارم فتبعوه إليها وهناك قتلوه وأرسل عمرو إلى المعتضد كتاباً بذلك مع رأس رافع فارسلت إلى عمرو الخلع ولواء الولاية على الرى وهدايا من قبل المعتضد.

لما اتسع لعمرو هذا السلطان أرسل إلى الخليفة يطلب منه عهد الولاية على بلاد ما وراء النهر وعزل إسماعيل بن أحمد السامانى أميرها ففعل المعتضد ذلك وأرسل إليه عهد الولاية فأجابه عمرو على ذلك بإرسال هدية فكان مبلغ المال الذى وجهه أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة و(١٥٠دابة) بجلال مشهرة وكسوة وطيب وبزاة.

كانت هذه الولاية سبباً لمصيبة عمرو بن الليث فإنه خرج ليجوزها ولم يكن إسماعيل بالذى يسلمها إليه فكتب إليه إنك قد وليت دنيا عريضة وإنما فى يدى ما وراء النهر وأنا فى ثغر فاقنع بما فى يدك واتركنى مقيماً بهذا الثغر فأبى إجابته إلى ذلك فذكر لعمرو أمر نهر بلخ والشدة فى عبوره فقال: لو أشاء لسكرته ببدر الأموال وعبرته ولما أيس إسماعيل من تصرافه عنه جمع من معه من التناء والدهاقين وعبر النهر إلى الجانب الغربى وجاء عمرو فنزل بلخاً وأخذ إسماعيل عليه النواحى فصار كالمحاصر وندم على ما فعل وطلب المحاجزة فأبى إسماعيل عليه ذلك فلم يكن بينهما كبير قتال حتى هزم عمرو فولى هارباً ومر بأجمة فى طريقه قيل له إنها أقرب فقال لعامة من معه: امضوا فى الطريق الواضح ومضى فى نفر يسير فدخل الأجمة فوحلت دابته فوقعت ولم يكن له فى نفسه حيلة ومضى من معه ولم ينوا عليه وجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيراً وخيره إسماعيل بين أن يقيم عنده وأن يرسل إلى المعتضد فاختار أن يوجه إلى المعتضد فحبس وبذلك انتهت أيام عزه وختم المعتضد حياته بالأمر بقتل عمرو فقتل فى أول خلافة المكتفى.

لما علم محمد بن زيد بأمر عمرو ظن ذلك فرصة لأخذ خراسان لأنه فهم أن إسماعيل بن أحمد لا يبارح عمله بما وراء النهر فخرج من طبرستان مريداً الاستيلاء على خراسان

فلما صار إلى جرجان كتب إليه إسماعيل يسأله الرجوع إلى طبرستان وترك جرجان له فأبى عليه ذلك ابن زيد فندب إسماعيل لحربه قائداً فى جند فلقيه على باب جرجان فانهزم عسكر ابن زيد وأصابته ضربات وأسر ابنه زيد ثم مات محمد بعقب هذه الواقعة بأيام فدفن على باب جرجان وحمل ابنه إلى إسماعيل بن أحمد وبذلك زالت على يد السامانيين دولة رجلين كبيرين: عمروبن الليث الصفار ومحمد بن زيد ولم يكن لأولادهما بعدهما كبير ذكر فى التاريخ.

ولما تم ذلك كله على يد إسماعيل أرسل إليه المعتضد الخلع بدنة وتاجاً وسيفاً من ذهب مركباً على جميع ذلك الجوهر وبهدايا وثلاثة آلاف ألف دينار يفرقها فى كل جيش من جيوش خراسان يوجهه إلى حرب سجستان لمحاربة من فيها من أصحاب طاهر بن محمد بن عمروبن الليث وبذلك صارت القوة فى المشرق للأسرة السامانية فبيدهم بلاد ما وراء النهر وخراسان إلى الرى وسجستان ولهم فيها النفوذ والسلطان التام.

أمر المغرب:

كانت علاقة المعتضد بخمارويه بن أحمد بن طولون حسنة وكان خمارويه يتقرب إليه كثيراً فأهدى إليه كثيراً فأهدى إليه لأول خلافته من العين عشرين حملاً على بغال وعشرة من الخدم وصندوقين فيهما طراز وعشرين رجلاً على عشرين نجيباً بسروج محلاة بحلية فضية كثيرة ومعهم حراب فضية وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقى بفضة و(٣٧دابة) بجلال مشهرة وخمسة أبغل بسروج ولجم وزرافة. ثم أراد أن يتقرب إلى الخليفة بالمصاهرة فعرض أن يزوج ابنته قطر الندى من عليّ بن المعتضد فقال المعتضد أن أتزوجها فتزوجها واحتفل خمارويه بجهازها تم احتفال ومن ضمن ذلك الجهاز دكة (سرير) أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ومائة هون من ذهب ومنها ألف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار فانظروا كم يكون بعد هذا. ولما تم الجهاز أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون فى جماعة فكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد فإذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها فى حال الإقامة فكانت فى سيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم (سنة ٢٨٢) وكان المعتضد إذ ذاك غائباً بالموصل فأدخلت للحرم حتى قدم فنقلت إليه فى رابع ربيع الثانى ونودى فى

جانبى بغداد ألا يعبر أحد فى دجلة يوم الأحد وهو يوم الزفاف وغلقت أبواب الدروب التى تلى الشط ومد على الشوارع النافذة إلى دجلة شراع ووكل بحافتى دجلة من يمنع الناس أن يظهروا فى دورهم على الشط فلما صليت العتمة وافت الشذا من دار المعتضد وفيها خدم معهم الشمع فوقفوا بإزاء دار صاعد التى كانت فيها قطر الندى وكانت أعدت أربع حراقات شدت مع دار صاعد فلما جاءت الشذا أحدرت الحراقات وصارت الشذا بين أيديهم فنزلت إليها حتى وصلت إلى دار المعتضد.

كان خمارويه يلى مصر وإليه طرطوس والشام فكانت إليه المحافظة على ثغر طرطوس وجنوده تقوم بذلك خير قيام. لم يزل الحال على ذلك حتى قتل خمارويه (سنة ٢٨٣) ولم يكن عند ولده جيش من المقدرة ما يسوس بها ملك أبيه فاتفق جمع من جنده على الفتك به ولكن عرف أمرهم فهربوا ووردوا بغداد فأكرم المعتضد وفادتهم وبعد ذلك ثار جماعة آخرون بجيشه فقتلوه وولوا أخاه هارون وكانت هذه المنازعات الداخلية سبباً لخروج طرطوس من أيدى بنى طولون فقد قدم وفد من أهلها على المعتضد يطلبون أن يولى عليها والياً من قبله ففعل.

ثم اتفق المعتضد بعد ذلك مع هارون أن يتنازل هارون عن قنسرين والعواصم وتقصر ولايته على مصر والشام على أن يحمل إلى بيت المال ببغداد كل سنة (٤٥٠٠٠٠دينار) ووجهت الخلع والعقد إلى هارون. ومن هذا يتبين أن نفوذ المعتضد فى مصر والشام صار أقوى مما كان قبل لضعف أمر الطولونيين بالخلاف الذى وقع بينهم.

صفات المعتضد:

كان المعتضد قوى القلب جريئاً ولذلك كان للخلافة فى عهده أكثر مما كان فى عهد أبيه من الهيبة وإن كان الأمر فى الحقيقة جل أن يصلح لأن وراءهم عدواً لا ينام يريد إفساد ملكهم ما أمكنه ولو أدى ذلك إلى إفساد البلاد كلها. وكان مع شجاعته قليل الرحمة سفاكاً للدماء شديد الرغبة فى التمثيل بمن يقتله.

وله إصلاحات داخلية جليلة منها أنه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوى الأرحام وأمر بإبطال ديوان المواريث وكان أصحاب التركات يلقون من ذلك عناء ومنها اهتمامه بكرى دجيل وهوأحد روافد دجلة وقلع من فوهته صخراً كان يمنع الماء.

ومن أهم إصلاحه ما يعرف بالتقويم المعتضدى وإنا قائلون كلمة فى شرحه: معلوم أن دين الإسلام يستعمل السنة الهلالية ويجعل أهلة الشهور علامة على عبادات افترضها منها

صوم رمضان وحج البيت فى ذى الحجة فلم يكن هناك معتبر للسنة الشمسية التى تزيد على السنة الهلالية أحد عشر يوماً وربعاً إلا قليلاً، ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين السنتين الشمسية والهلالية ولكن حصل أن المسلمين اضطروا فيما بعد لمراعاة السنة الشمسية لأن جباية الخراج إنما تكون عند إدراك الثمار والغلات وهذه وقتها واحد فكانوا يفتتحون الخراج فى يوم النيروز.

وكانت الفرس تعتبر السنة الشمسية (٣٦٠يوماً) كل شهر ثلاثون يوماً كاملاً وكانوا يضيفون إليها خمسة أيام بين آبان ماه وأذرماه وهما الشهر الثامن والشهر التاسع من شهورهم ويجتمع لهم فى كل (١٢٠سنة) من ربع اليوم أيام شهر تام ومن خمس الساعة الذى يتبع ربع اليوم عندهم يوم واحد فألحقوا الشهر التام بها فى كل (١١٦ سنة)، وبناء على ذلك كانوا يؤخرون النيروز عن وقته شهراً كاملاً كلما مضت هذه المدة. فلما سقط ملكهم أغفلوا هذا الكبس واستمر فتح الخراج أيام النيروز ففى عهد المتوكل دخل بعض بساتينه فمر بزرع فرآه أخضر فقال لعلىّ بن يحيى المنجم: إن الزرع أخضر بعدما أدرك وقد استأمرنى عبيد الله بن يحيى فى استفتاح الخراج فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج فى النيروز والزرع لم يدرك بعد ؟ فقال له علىّ: ليس يجرى الأمر اليوم على ما كان يجرى عليه أيام الفرس ولا النيروز فى هذه الأيام فى وقته الذى كان فى أيامها لأنها كانت تكبس فى كل (١٢٠سنة) شهراً وكان النيروز إذ تقدم شهراً وصار فى خمس من حزيران كبست ذلك الشهر فصار فى خمس من أيار وأسقطت شهراً وردته إلى خمس من حزيران فكان لا يتجاوز هذا، فلما تقلد خالد القسرى العراق وحضر الوقت الذى تكبس فيه الفرس منعهم من ذلك فلما امتنعوا من الكبس تقدم النيروز تقدماً شديداً حتى صار يقع فى نيسان والزرع أخضر فقال المتوكل: فاعمل لهذا عملاً ترد النيروز فيه إلى وقته الذى كان يقع فيه أيام الفرس وعرف بذلك عبيد الله بن يحيى ليكون استفتاح الخراج فيه فكتبت بذلك كتب (سنة ٢٤٣) ولكن أمرها لم يتم لقتل المتوكل. فلما ولى المعتضد وأخبر بخبر المتوكل اهتم بالأمر وحسب المدة التى تقدمها تاريخ النيروز بسبب إهمال الكبس فوجد أنه تأخر ستين يوماً فأخر النيروز بقدره فكان فى (١١حزيران) فجعله كذلك دائماً لا يتأخر عنه وجعله على حساب شهور الروم لتكبس شهوره كلما كبست الروم شهورها فصار لا يتقدم النيروز عن زمنه ولا يتأخر. قال البيرونى فى كتابه الآثار الباقية: وهذا وإن دقق فى تحصيله فلم يعد به النيروز إلى ما كان عليه عند الكبس فى دولة الفرس وذلك أن إهمال الفرس كبيسهم كان قبل هلاك يزدجرد بقريب من سبعين سنة لأنهم كانوا قد كبسوا السنة فى زمان يزدجرد بن سابور بشهرين أحدهما لما لزم السنة من التأخر وهوالواجب ووضعوا اللواحق خلفه علامة

وكان النوبة لأبان ماه كما سنذكر والشهر الآخر للمستأنف ليكون مفرغاً منه إلى مدة طويلة فإذا أسقط من السنين التى بين يزدجرد بن سابور وبين يزدجرد بن شهريار (١١٠سنة) بقى بالتقريب سبعون سنة لا بالتحقيق فإن تواريخ الفرس مضطربة جداً ويكون حصة هذه السبعين سنة من الأرباع قريباً من (١٧يوماً) فكان يجب بالتحليل من القياس أن يؤخر (٧٧يوماً) لا (٦٠) حتى يكون النيروز فى (٢٨حزيران) ولكن المتولى لذلك ظن أن طريقة الفرس فى الكبس كانت شبيهة بالتى يسلكها الروم فيه فحسب الأيام من لدن زوال ملكهم والأمر فيه على خلاف ذلك ا هـ.

أما مسألة اتفاق السنة الخراجية مع السنة الهلالية فإنهم لما رأوا بالحساب أن كل (٣٢سنة)شمسية تساوى بالتقريب (٣٣سنة) هلالية كانوا يضيفون على السنة الخراجية كلما مرت (٣٢سنة) ففى (سنة ٢٤١) الخراجية نسب الخراج إلى (سنة ٢٤٢) الهلالية وأسقطت (سنة ٢٤١) لأن الغلة إنما أدركت (سنة ٢٤٢). ولنضرب لذلك مثلاً يفهم به ما كانوا يعملونه كان أول المحرم (سنة ٢٠٤ وهو٤ مايوسنة ٨٢٤) أول المحرم (سنة ٢٤٢وهو١٠ مايوسنة ٨٥٦) ومن بين هذين (٣٣سنة) قمرية و(٣٢ سنة) شمسية فتكون السنة بالحساب الخارجى (سنة٢٤١) فلكى تتحد مع السنة الهلالية يضيفون عليها واحداً حتى تكون (سنة٢٤٢) ويسقطون من الخراج (سنة ٢٤١).

وقد كتب المعتضد بذلك كتاباً أمر فيه أن تكون جباية الخراج فى العراق والمشرق وما يتصل بهما ويجرى مجراهما على الطريق التى رسمها وإنما قيد بالعراق والمشرق لأن الحال فى مصر كانت على الكبس القبطى وفى الشام على الكبس الرومى وكلاهما لا يتغير به الزمان.

والمعتضد هوالذى ترك سامرا واستبدل بها بغداد فضاعت أبهتها وخربت بعد أن كانت تضارع بغداد بل لم يكن فى الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكاً منها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها إلى بغداد وفى ذلك يقول ابن المعتز:

قد أقفرت سامرا ... وما لشىء دوام

فالنقض يحمل منها ... كأنها آجام

ماتت كما مات فيل ... تسل منه العظام

وبها قبور ستة من الخلفاء وهم الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهدى والمعتمد وبها قبر إمامين من أئمة الشيعة وهما علىّ بن محمد والحسن بن علىّ العسكريان وبها السرداب التى تزعم الشيعـة وهما على بن محمد والحسن بن على العـسكريان وبها السرداب الذى تزعم الشيعة أنه يخرج منه المهدى المنتظر.

وفاة المعتضد:

توفى المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر (سنة ٢٨٩) وكان ولى عهده ابنه المكتفى.

١٧
المكتفى

هو على المكتفى ابن المعتضد بن أبى أحمد بن المتوكل وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك ولد (سنة ٢٣٦) وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بعهد منه وذلك فى (٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩) (١٥ أبريل سنة ٩٠٢) ولم يزل خليفة إلى أن توفى فى (١٢ذى القعدة سنة ٢٩٥) (١٣أغسطس سنة ٩٠٨) فكانت مدته ست سنوات وستة أشهر و١٩ يوماً.

وتولى فى عهده على بلاد المغرب الأقصى من الأدراسة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس بن إدريس بعد اختلافات طويلة كانت بين أفراد هذا البيت وكانت ولايته (سنة ٢٩٢).

وفى عهده تولى إفريقية من الأغالبة زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب وهوآخر أمراء هذا البيت وكانت ولايته (سنة ٢٩٠).

وكان أمير مصر على عهده شيبان بن أحمد بن طولون وهوآخر الأمراء من هذا البيت.

وكان الأمير على زبيد من آل زياد إبراهيم بن محمد (٢٨٩-٢٩١) ثم أبوالجيش إسحاق بن إبراهيم.

وكان الأمير من آل سامان بالمشرق إسماعيل بن أحمد (٢٧٩-٢٩٥) ثم أحمد بن إسماعيل (٢٩٥-٣٠١).

ويعاصره فى بلاد الروم لاون السادس المقلب بالفيلسوف وفى فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج.

وزراء المكتفى:

لما استخلف المكتفى أبقى فى الوزارة وزير أبيه القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب

فدبر الأمور عـلى ما كان فى زمن المعتـضد واستمر فى الوزارة عـظيماً مهيـباً إلى أن توفى (سنة ٢٩١).

فاستوزر المكتفى بعده العباس بن الحسن.

الأحوال فى عهده:

انتكست البلاد فى عهد المكتفى بعد أن كـانت ابتدأت تنتعش فى عهد أبى أحمد الموفق وعهـد ابنه المعتضد فـقد ابتدأت ولايتـه بظهور المنافسـات بين ذوى النفوذ من الدولة فكان أحدهم يكيـد للآخر شر كـيد حتى يورده المهـالك من غير نظر فى ذلك إلى مـا تقتضيه مصلحة الأمة.

ومما حصل مما يدل على ذلك أن بدراً غـلام المعتضد كان يقـود الجيش المحافظ فى إقليم فارس وكـان بينه وبين وزير المكتفى القـاسم عبيـد الله مباعـدة فلم يكن من الوزير إلا أن أرسل للقواد الذين مع بدر بفارس يأمرهم بالمسير إليه ومفارقة بدر ففعلوا. لما رأى ذلك بدر انصرف إلى واسط فلمـا بلغ الخليفـة انصرافة وكل بداره وقـبض على جماعـة من غلمته وقواده فحـبسوا وأمر بمحـواسمه من التراس والأعـلام كلها وكان عليهـا (أبو النجم مولى المعتضد بالله) وذلك كله حصل لإغراء الوزير وتخويفه الخليفة من غدر بدر.

أراد الوزير بعد ذلك اسـتعمال الحـيلة فى القبض على بدر فدعـا بأبى عمر محـمد بن يوسف القـاضى وأمره بالمضى إلى بدر ورفـقائـه وتطييب نفـسه وإعطائه الآمـال من أمير المؤمنين على نفسه ومـاله وولده فذهب إليه القاضى ودفع إليـه الأمان فاستقر الأمـر بينهم على أن بدراً يدخل بغداد سـامعاً مطيـعاً وأمر غلمـانه أن ينزعوا سلاحـهم وأن لا يحاربوا أحداً وبينما هويسـير فى الحراقة إذ وافاه مـحمد بن إسحاق بن كنداج فى شـذا فلما قربه تحول إلى الحراقة وطيب نفس بدر ثم ورد عليه فى ذلك الحين أحد غلمان السلطان فى طيار فأخذه من الحراقة حتى صار به إلى جزيرة فى الصافـية فأخرجه إليها وقتله وتسلم السلطان ضياعه ومستغلاته ودوره وجميع ماله.

وكان بهـذا العمل الخزى للقاضى الذى توسـط فى أمر لم يكن قادراً على تنفيـذه وقد كانت العامـة تدرك ما فى الإخلال بالعهـود والمواثيق من المعرة حتى قال أحـد الشعراء يهجو القاضى على فعلته:

قل لقاضى مدينة المنصور بم أحللت أخذ رأس الأمير

بعد إعطائه المواثيق والعهد وعقد الأيمان فى منشور

أين أيمانك التى شهد الله على أنها يمين فجور

إن كفيك لا تفارق كفيه إلى أن ترى مليك السرير

يا قليل الحياء يا أكذب الأمة يا شاهداً شهادة زور

ليس هذا فعل القضاة ولا يحسن أمثاله ولاة الجسور

أى أمر ركبت فى الجمعة الزهراء من شهر خير الشهور

قد مضى من قتلت فى رمضان صائماً بعد سجدة التعفير

يا بنى يوسف بن يعقوب أضحى أهل بغداد منكم فى غرور

بدد الله شملكم وأرانى ذلكم فى حياة هذا الوزير

فأعد الجواب للحكم العا دل من بعد منكر ونكير

أنتم كلكم فداء أبى حا زم المستقيم كل الأمور

والذى أهاج الناس من هذا أنهم لم يكونوا يتوقعون من القضاة الذين ينفذون فيهم شريعة الإسلام أن يكونوا عوناً على الغدر وعدم احترام الأيمان.

كانت تلك الحال سبباً لازدياد أمر القرامطة واضطرام نيرانهم فى الشام والعراق والبحرين وطريق مكة.

لما رأى داعيتهم زكرويه أهل السواد لا يغنون عن أنفسهم سعى لاستغواء أعراب الكوفة من أسد وطيئ وتميم وغيرهم إلى رأيه فلم يستجيبوا وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر بالسماوة بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وتحمل الرسل وأمتعة التجار على إبلها فأرسل زكرويه أولاده إليهم فبايعوهم وخالطوهم وانتموا إلى علىّ بن أبى طالب فقبلوا منهم ذلك ثم دعوهم إلى رأى القرامطة فقبل ذلك منهم أحد أفخاذهم فبايعوا فى آخر (سنة ٢٨٩) يحيى بن زكرويه ولقبوه الشيخ وزعم لهم أن بالسواد والمشرق مائة ألف تابع ومخرق لهم حتى اعتقدوه وأطاعوه فقصدهم سبك الديلمى مولى المعتضد بناحية الرصافة غربى ديار مضر فاغتروه وقتلوه وحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى أصعدوا إلى أعمال الشام التى كانت فى حوزة هارون بن خمارويه ويليها من قبله

طغج بن جف فهزم القرمطى كل جيش وجهه إليه طغج حتى حصره فى مدينة دمشق فأنفذ إليه المصريون بدراً الكبير غلام أحمد بن طولون فاجتمع مع طغج على حربه فواقعهم قريباً من دمشق وقتل فى الواقعة يحيى القرمطى ثم دارت الدائرة على المصريين فانحازوا وولى القرامطة عليهم الحسين بن زكرويه أخا يحيى فأظهر شامة فى وجهه وزعم أنها آية له فلقب ذا الشامة وظهر على المصريين وعلى جند حمص وغيرها من أرض الشام وتسمى بإمرة المؤمنين على منابرها ـ كان ذلك كله فى (سنتى ٢٨٩ـ٢٩٠).

وكان يكثر القتل فى كل بلد دخلها إلا من اتقت شره بصلحه والدخول فى أمره وكان لا يترك أحداً حتى صبيان المكاتب ومن البلدان التى لم يبق بها أحداً سليمة.

توالت كتب أهل الشام إلى الخليفة ببغداد يشكون مما ألم بهم من ذى الشامة من القتل والسبى وتخريب البلاد فلم ير بدأ من الخروج بنفسه إلى الشام فتأهب وسار إلى الشام وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبو الأغر فى عشرة آلاف فارس فنزل أبو الأغر قريباً من حلب فكبسهم القرمطى فقتل منهم خلقاً كثيراً وسلم أبو الأغر فدخل حلب فى ألف رجل فتبعه القرمطى إلى حلب فحاربه أبو الأغر بمن بقى معه من أهل البلد فرجع عنهم.

سار المكتفى حتى نزل الرقة وسير الجيوش إليه وجعل أمرها إلى محمد بن سليمان الكاتب فسار محمد حتى صار بينه وبين حماه (١٢ ميلا) فالتقوا بأصحاب القرمطى فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت فهزم أصحاب القرمطى وقتلوا وأسر من رجالهم بشر كثير وتفرق الباقون فى البوادى وتبعهم أصحاب السلطان. ولما رأى القرمطى ما نزل بجنده حمل أخاً له مالاً وتقدم إليه أن يلحق بالبوادى إلى أن يظهر فى موضع فيسير إليه وركب هو فى ثلاثة معه وسار يريد الكوفة عرضا فى البرية حتى انتهى إلى موضع نفد معه زاده وعلفه فوجه بعض من كان معه إلى موضع يعرف بالدالية من أعمال طريق الفرات فلما دخلها أنكر زيه وسئل عن أمره فمجمج ثم أقر أن ذا الشامة معه فخرج متولى المسلحة بتلك الناحية وقبض عليه وعلى من معه فصاروا به إلى المكتفى وفى (٢٦محرم سنة ٢٩١) أدخل الرقة مشهراً ثم حمل إلى بغداد وعقب ذلك أقبل محمد بن سليمان بجنده وبالأسرى الذين أخذهم من القرامطة وهم نيف وسبعون أسيراً فأعدموا كلهم ونظفت النواحى الشامية من هذه الفرقة المنكرة إلا أن ذلك لم يكن مبيداً للمذهب القرمطى فإن والد يحيى ذا الشامة لم يزل على قيد الحياة وهوزكرويه رأس الفتنة.

لما بلغه مقتل ذى الشامة أنفذ رجلاً كان معلماً للقرآن بإحدى القرى اسمه عبد الله بن سعيد فتسمى نصراً ليعمى أمره فدار على أحياء كلب يدعوهم إلى رأيه فساعده رجل اسمه

مقـدام واستغـوى له طوائف من أعراب البـادية فذهب بهم إلى جهـات الشام فـأغار على مدينتى بصـرى وأذرعات فـحارب أهلها ثم أمنهم فـلما اسـتسلموا قتلهـم وسبى ذراريهم واستصفى أموالهم ثم سار يؤم دمشق فغلب مقاتلتها ولكنه لم يطمع فى دمشق لدفاع أهلها عنها. ولما علم الخليـفة بفعله نفذ إليه الحسين بن حمدان فورد دمشـق وقد دخل القرامطة طبرية فلمـا اتصل بهم خبـره عطفوا نحوالسـماوة وتبعـهم الحسين فى برية السـماوة وهم يتنقلون من مـاء إلى ماء فلما أوغلوا انقطع عنهم. أما هم فـأسرعوا إلى هيت فصـبحوها وأهلها غارون فنهبوا نعمها وقتلوا من قدروا عليه من أهلها ثم رحل عنها إلى البرية فأرسل إليهم الخليفة محمد بن إسحاق فى جـيش وأمر الحسين بن حمدان أن يصمد نحوهم. ولما علم بنوكلب بتوجه هذه الجيوش إليهم عمـدوا إلى نصر فقتلوه وتقربوا برأسه إلى السلطان وأظهروا الخضوع فعفا عنهم أما بقية القرامطة فانحازوا إلى البادية.

ولما بلغ زكرويه كل ذلك أرسل إليهم داعية بدل نصر اسـمه القاسم بن أحمد وواعدهم أن يوافوه بالكوفة ليغـيروا عليها يوم النحر من (سنة٢٩٣) فامتـثلوا أمره ووافوا باب الكوفة منصرف الناس من صـلاة العيد وعـددهم نحو(٨٠٠رجل) فأوقـعوا بمن لحقـوه من العوام وسلبوا جماعة وبادر الناس إلى الكوفة فدخلوها وتنادوا السلاح فنهض العامل بمن عنده من الجند وصادف القرامطة فهزمهم ثم بعث يطلب نجدة من بغداد فأرسل من هناك جند لمحاربة القرامطة بجهة القـادسية ولكن هذا الجند لم يحافظ على خط رجعتـه فجاءته القرامطة من خلفه فانهزم أقـبح هزيمة واحتوى القرامطة على ما فى معـسكرهم فأخذوه وصارت لهم به قوة ثم أرسلوا إلى زكرويه فاستخرجوه من مخبئه فسار معهم وهومحتجب يدعونه السيد لا يبرزونه والقاسم يتولى الأمور دونه ويمضيها وجعلوا مقر أعمالهم الصحراء.

ومن أخبث مـا فعلوه فى (سنة ٢٩٤) أنهم أغاروا على قـوافل الحج الآيبة من مكة إلى المشرق خراسان والعراق فلم يتركوا من هؤلاء الحـجاج من يخبر بخبر وأخذوا من الأموال شيئاً عظيماً وورد خبـر ذلك إلى بغداد فعظم الأمر على الناس وعلى السلطان فاهتم الوزير بالأمر وندب إليهم جيشـاً عظيماً ذهب إليهم فى جادة مكة وقاتلهم فقـتل منهم كثيراً وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصته واحتوى الجند على ما فى معسكره وعاش زكرويه بعد الواقعة خمسة أيام ثم مات والذين هربوا من القرامطة لقيهم الحسين بن حمدان فأوقع بهم.

ولنذكر هنا نص كتـابين أحدهما من ذى الشامة إلى عامل من عمـاله والثانى من عامل إلى ذى الشامـة ليتـضح لنا كيف كان لسـان هؤلاء القوم فى دعـاويهم التى بها يسـتحلون سفك دماء الناس والسعى فى الأرض بالفساد.

الكتاب الأول: من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدى المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بأمر الله الحاكم بحكم الله الداعى إلى كتاب الله الذاب عن حرم الله المختار من ولد رسول الله أمير المؤمنين وإمام المسلمين ومذل المنافقين خليفة الله على العالمين وحاصد الظالمين وقاصم المعتدين ومبيد الملحدين وقاتل القاسطين ومهلك المفسدين وسراج المبصرين وضياء المستضيئين ومشتت المخالفين والقيم بسنة سيد المرسلين وولد خير الوصيين ﷺ وعلى أهل بيته الطيبين كثيراً، إلى جعفر بن حميد الكردى سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأسأله أن يصلى على جدى محمد رسول الله ﷺ أما بعد فقد انتهى إلينا ما حدث قبلك من أخبار أعداء الله الكفرة وما فعلوه بناحيتك وأظهروه من الظلم والعبث والفساد فى الأرض فأعظمنا ذلك ورأينا أن تنفذ إلى ما هناك من جيوشنا من ينتقم الله به من أعدائه الظالمين الذين يسعون فى الأرض فساداً وأنفذنا عطيراً داعيتنا وجماعة من المؤمنين إلى مدينة حمص وأمددناهم بالعساكر ونحن فى أثرهم وقد أوعزنا إليهم فى المسير على ناحيتك لطلب أعداء الله حيث كانوا ونحن نرجو أن يجزنا الله فيهم على أحسن عوائده عندنا فى أمثالهم فينبغى أن تشد قلبك وقلوك من معك من أوليائنا وتثق بالله وبنصره الذى لم يزل يوعدناه فى كل من مرق عن الطاعة وانحرف عن الإيمان وتبادر إلينا بأخبار الناحية وما يتجدد فيها ولا تخف عنا شيئاً من أمرها إن شاء الله سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمدَ لله رب العالمين وصلى الله على جدى محمد رسول الله وعلى أهل بيته وسلم كثيراً.

الكتاب الثانى: بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أحمد الإمام المهدى المنصور بالله ـ ثم الصدر كله على مثال صدر نسخة كتابه إلى عامله ـ ثم بعد ذلك من عامر بن عيسى العنقائى سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته أما بعد أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام الله عزه وتأييده ونصره وسلامته وكرامته ونعمته وسعادته وأسبغ نعمة الله عليه وزاد فى إحسانه إليه وفضله لديه فقد كان وصل كتاب سيدى أمير المؤمنين أطال بقاءه يعلمنى فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قواده إلى ناحيتنا لمجاهدة أعداء الله بنى القصيص والخائن ابن دحيم وطلبهم حيث كانوا والإيقاع بهم وبأسبابهم وضياعهم ويأمرنى أدام الله عزه عند نظرى فى كتابه بالنهوض فى كل من قدرت عليه من أصحابى وعشائرى للقائهم ومكاتفة الجيش ومعاضدتهم والمسير بسيرهم ولعمل كل ما يومون إليه ويأمرون به وفهمته ولم يصل إلى هذا الكتاب أعز الله أمير المؤمنين حتى وافت الجيوش المنصورة فنالت طرفاً من ناحية ابن دحيم وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن أحمد الداعية ليلقوه بمدينة أفامية ثم ورد على كتاب مسرور بن أحمد فى درجة الكتاب

الذى اقتصصت ما فيه فى صدر كتابى هذا يأمرنى فيه بجمع من تهيأ من أصحابى وعشيرتى والنهوض إلى ما قبله ويحذرنى التخلف عنه وكان ورود كتابه على وقت صح عندنا نزول المارق سبك عبد مفلح مدينة عرقة فى زهاء ألف رجل ما بين فارس وراجل وقد شارف بلدنا وأطل على ناحيتنا وقد وجه أحمد بن الوليد عبد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه إلى جميع أصحابه ووجهت إلى جميع أصحابى فجمعناهم إلينا ووجهنا العيون إلى ناحية عرقة لنعرف أخبار هذا الخائن وأين يريد فيكون قصدنا ذلك الوجه ونرجوأن يظفر الله به ويمكن منه بمنه وقدرته ولولا هذا الحادث ونزول هذا المارق فى هذه الناحية وإشرافه على بلدنا لما تأخرت فى جماعة أصحابى عن النهوض إلى مدينة أفامية لتكون يدى مع أيدى القواد المقيمين لمجاهدة من بتلك الناحية حتى يحكم الله بيننا وهوخير الحاكمين وأعلمت سيدى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه السبب فى تخلفى عن مسرور بن أحمد ليكون على علم منه ثم إن أمرنى أدام الله عزه بالنفوذ إلى أفامية كان نفوذى برأيه وامتثلت ما يأمرنى به إن شاء الله على أمير المؤمنين نعمه وأدام عزه وسلامته وهنأه كرامته وألبسه عفوه وعافيته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبى وعلى أهل بيته الطاهرين الأخيار.

هكذا ضعف سلطان هذه الطائفة بالعراق بعد قتل زكرويه وأولاده وقتل أكثر دعاتهم ولكن قد بقى ذنب الأفعى وهوالجنابى بالبحرين ولم يكن له فى عهد المكتفى كبير عمل وإنما كانت مصائبه ورزاياه فى عهد المقتدر وسنبين ذلك فى حينه.

خبر المشرق:

انتظمت بلاد خراسان وما وراء النهر لإسماعيل بن أحمد السامانى وكان رجلاً عاقلاً مدبراً ذا عزيمة ثابتة ولم يزل أمره على ما هوعليه والمكتفى راضٍ عنه حتى توفى (سنة ٢٩٥) فولى بعده ابنه أحمد بن إسماعيل وعقد له المكتفى بيده لواء وأرسله إليه.

خبر المغرب:

وفى عهد المكتفى انقرضت دولتان إحداهما دولة بنى طولون بمصر على يدى العباسيين وآخر أمرائها شيبان بن أحمد بن طولون (سنة ٢٩٢) والثانية دولة الأغالبة بإفريقية انتهت على يدى أبى عبد الله الشيعى داعية الفاطميين بالمغرب.

العلاقات مع الروم:

كانت العلاقات فى أول الأمر حسنة مع ملك الروم حتى أنه تبودلت الهدايا بين الملكين.

وفى (سنة ٢٩٠) وردت رسل صاحب الروم يسألون المكتفى المفاداة بمن فى أيدى المسلمين من الأسرى ومعهم هدايا فأجيبوا إلى طلبهم ولم يتم هذا الفداء إلا (سنة ٢٩٣) فكان جملة من فودى به من المسلمين نحو(١٢٠٠٠) وكان المتولى للفداء أمير الثغور رستم بن برد ولم تستمر العلاقات حسنة.

ففى (سنة ٢٩١) سار جيش إسلامى من طرطوس وصمد نحوأنطاكية ففتحها بالسيف عنوة وهى من أهم مدن الروم وثغورهم البحرية وقد قتل فى فتحها نحو(٥٠٠٠) من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من أسارى المسلمين مثل ذلك وأخذوا من الروم ستين مركباً فحملت فيها الغنائم من الأموال والمتاع والرقيق وقدر نصيب كل رجل ألف دينار وغزا من المسلمين أمير الثغر رستم مرتين وبلغ فى غزوته الثانية سلندوا ففتحها وصار إلى آلس فأسر من الروم عدداً كبيراً وغزا ابن كيغلغ من طرطوس وفى (سنة ٢٩٤) استأمن إلى السلطان بطريق اسمه أندرونقس وكان على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم فأجيب طلبه وأخرج نحواً من مائتى نفس من المسلمين كانوا أسرى فى حصنه وكان ملك الروم قد وجه من يقبض عليه فأعطى المسلمين الذين كانوا أسرى فى حصنه السلاح وأخرج معهم بعض بنيه فكبسوا البطريق الموجه إليه للقبض عليه ليلاً وقتلوا من معه خلقاً كثيراً وغنموا ما فى معسكرهم.

وكان رستم قد خرج فى أهل الثغور فى جمادى الأولى قاصداً أندرونقس ليخلصه فوافى رستم قونية بعقب الواقعة وعلم البطارقة بمسير المسلمين إليهم فانصرفوا ووجه أندرونقس ابنه إلى رستم ووجه رستم كاتبه وجماعة من البحريين فباتوا فى الحصن فلما أصبحوا خرج أندرونقس وجميع من معه من أسرى المسلمين ومن صار إليه منهم ومن وافقه على رأيه من النصارى وأخرج ماله ومتاعه إلى معسكر المسلمين وضرب المسلمون قونية ثم قفلوا إلى طرطوس هم وأندرونقس وأسارى المسلمين ومن كان مع أندرونقس من النصارى وقد وصل هذا البطريق إلى بغداد فأكرم.

وحصل فى آخر عهد المكتفى مفاداة ثانية تمت (سنة ٢٩٥) وكان عدة من فودى به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس.

وفاة المكتفى:

توفى المكتفى فى (١٢ذى القعدة سنة ٢٩٥).

١٨
المقتدر

هو جعـفر المقتدر بالله بن المعـتضد بن أحـمد بن المتوكل وهوأخوالمكتـفى وأمه أم ولد اسمـها شغب (ولد سنة ٢٨٢) وبويع بالخـلافة بعد وفـاة أخيــه ولم يزل خليفـة إلى أن قتـل فى (٢٨شوال سنة ٣٢٠) (١نوفـمبـر سنة ٩٣٢) فتكون مـدته (٢٤سنة و١١شـهراً و١٦يوماً).

كان يعـاصره فى الأندلس عبـد الله بن محمـد إلى (سنة ٣٠٠) ثم أمير المؤمنين عـبد الرحـمن الناصـر المتـوفى(سنة ٣٥٠) وهـوأول من تسـمى بأمـيـر المؤمنين من بنى أمـيـة بالأندلس.

ويعاصره بإفريقية عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين بالمغرب (٢٩٧ـ٣٢٢).

ويعـاصره فى بلاد الروم لاون السـادس ثم أخوه الإسكندر بن بسـيل (٩١١ـ٩١٢) ثم قسطنطين السـابع بن لاون السادس وكانت تدبره أمـه زوا ثم رومانس الأول الأرمنى الذى اغتـصب الملك (سنة ٩١٩) ولم يبق لقسطنطين إلا الاسم وشـارك رومانس فى الملك أبناؤه خريستـوف واسطفانس وقسطنطين أحـدهم بعد الآخر وتصرف به تصـرف مالك (٢٥سنة) إلى (سنة ٩٤٤) فأغـرى قسطنطين السابع ابنى رومـانس هما اسطفانس وقـسطنطين الثامن بالمناصبة لأبيهما فثارا به وثلا عرشه وحبساه فى دير حيث مات (سنة ٩٤٨) وعاد قسطنطين السابع إلى ملكه (سنة ٩٤٥) حـيث مات مستبـدًا به إلى (سنة ٩٥٩) حيث مات مسـموماً على ما يقال.

ويعـاصره فى فـرنسا شـارل الثالث الملقب بالسـاذج ثم روبرت الأول (٩٢٢ـ٩٢٣) ثم راوول من أقارب الكاباسيان (٩٢٣ـ٩٦٢).

ويعاصره فى خراسان وما وراء النهر أحمد بن إسماعيل بن أحمد السامانى.

كيف انتخب:

لما ثقل المكتفى كان فى منصب الوزارة العباس بن الحسين ففكر فيمن يتولى الخلافة بعده لأنه لم يكن ولى أحداً العهد فى صحته وكان من عادة الوزير أن يسايره إذا ركب واحد من هؤلاء الأربعة الذين يتولون الدواوين وهم أبوعبد الله محمد بن داود بن الجراح وأبوالحسن محمد بن عبد الله وأبوالحسن على بن محمد بن الفرات وأبوالحسن على بن عيسى فاستشار الوزير يوماً محمد بن داود الجراح فى ذلك فأشار بعبد الله بن المعتز ووصفه بالعقل والأدب والرأى واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات فقال: هذا شئ ما جرت به عادتى أن أشير فيه وإنما أشاور فى العمال لا فى الخلفاء فغضب الوزير وقال: هذه مقاطعة باردة وليس يخفى عليك الصحيح وألح عليه فقال: إن كان رأى الوزير قد استقر على أحد بعينه فليفعل فعلم الوزير أنه يعنى ابن المعتز لاشتهار خبره فقال: لا أقنع إلا أن تمحضنى النصيحة فقال ابن الفرات: فليتق الله الوزير ولا ينصب إلا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصبه بخيلاً فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعاً فيشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ويرجوالثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقى الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم فقال الوزير: صدقت ونصحت فيمن تشير؟ قال: أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد فقال: ويحك هوصبى قال ابن الفرات: إلا أنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا. فمالت نفس الوزير إلى مشورة ابن الفرات وانضاف إلى ذلك وصية المكتفى فإنه أوصى لما اشتد مرضه بتقليد أخيه جعفر الخلافة فلما مات المكتفى اختار الوزير جعفراً للخلافة بالاتفاق مع صافى الحرمى ولقب المقتدر بالله وسِنُّه يوم ذاك ثلاث عشرة سنة.

وكأن ذلك لم يرق للناس لصغر سن المقتدر فاجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن واتفقوا على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز فراسلهم فى ذلك فأجابهم على ألا يكون فيه سفك دم ولا حرب فأخبروه باجتماعهم عليه وأنه ليس لهم منازع ولا محارب وكان رأس هذا التدبير الوزير ومحمد بن داود بن الجراح وأحمد بن يعقوب القاضى ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمى ووصيف بن صوارتكين ثم إن الوزير أراد الانفصال عنهم لأنه رأى حاله صالحاً مع المقتدر وأنه على ما يحب فقام عليه الآخرون فقتلوه، قتله الحسين بن حمدان وبدر ووصيف فى (٢٠ربيع أول سنة ٢٩٦) وفى غده خلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز وحضر البيعة الناس والقواد وأصحاب الدواوين سوى أبى الحسن بن الفرات وخواص المقتدر وكتبت الكتب بذلك إلى العمال ووجه المقتدر يأمره

بالانتقال من دار الخلافة فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الإمهال إلى الليل. ولم يكن بقى مع المقتدر من القــواد إلا مؤنس الخادم ومؤنس الخــازن وغريب الخال وحاشيــة الدار. فلما هم المقتدر بالانتقال قال بعضهم لبعض: لا نسلم الخلافة من غير أن نبلى عذراً ونجتهد فى دفع ما أصابنا فــأجمع رأيهم على أن يصعدوا فى المســاء إلى الدار التى فيها ابن المعــتز ويقاتلوه وعاونهم المقتدر بالســلاح والزرديات وغير ذلك فركبوا فى السميــريات واصعدوا فى المساء فلما رآهم من عنــد ابن المعتز هالهم كــثرتهم واضطربوا وهربوا على وجــوههم من قبل أن يصلوا إليهم وكان قد حصل قبل ذلك أن الحــسين بن حمدان فارق بغداد بأهله وتركهم فى هذا المأزق ولا يدرى لم فعل ذلك.

فلما رأى ابن المعــتز هذه الحال ركــب ومعه وزيره الذى اخــتاره له وهومحــمد بن داود وهربا وغلام له ينادى يا معشر العامة أدعوا لخليفتكم السنى البربهارى (ينسبونه إلى الحسين بن القاسم بن عبيد الــله البربهارى مقدم الحنابلة وأهل السنة وللعامة فيــه اعتقاد فأرادوا من تلك النسبة استمالتهم بهذا القول) سار ابن المعتز على هذه الصفة نحوالصحراء ظناً منهم أن من بايع ابن المعتز من الجند يتــبعونه فلم يلحقه منهم أحد ولما رأوا ذلك اختــفى محمد بن داود فى بيــته ونزل ابن المعــتز عن دابتــه ومــعه غــلامه وانحــدر إلى دار أبى عبــد الله بن الجصاص فاستــجار به واستتر أكثر من بايع ابن المعتز ووقعت الــفتنة والنهب والقتل ببغداد وثار العيــارون والسفل ينهبــون الدولة لأن صاحب الشرطة كــان ممن بايع ابن المعتز فــهرب أيضاً.

فى ذلك الوقت خرج المقتــدر بالعسكر وقبض على من كان لهم يد فى بيعــة ابن المعتز فقتلهم وأرسل إلى ابن الفــرات فاستوزره. ثم عثر على ابن المعتــز فأخذ وحبس إلى الليل وعذب حتى مات وأخذ وزيره محمد بن داود فقتل ثم أرسل خلف الحسين بن حمدان فلما يدرك وأخيراً رضى عنه المقتدر فحضر إلى بغداد مرضياً عنه.

وانتهت بذلك هذه الفتنة التى بها ابــتدأ ضعف الخلافة وسقوط هيبتــها واشتد الانتكاس فى عهد المقــتدر حتى لم يعد للخلافــة أدنى سلطان ولا احترام فإن المقــتدر حين ولى كان شاباً غراً لا يعــرف من السياسة ولا من الشــجاعة شيئــاً وكانت له أم وقهرمانة صــار لهما الحكم فى كل ما يجرى من الشؤون وإليهما يقترب بالرشوة من يريد عملاً أو وزارة والمقتدر لاه بما هوفيــه من اللعب واللهو والسرف لا يــفكر فى صلاح ولم يعد بيــده شئ. ولنصور لكم الحال تماماً نبدأ بذكر الوزراء أيام دولته وكيف كانوا ينالون الوزارة وكيف كان يفعل بهم إذا قدمت رشوة من يريد أن يحل محلهم.

كان أول وزرائه أبوالحسن على بن محمد موسى بن الفرات استوزره يوم الأحد لعشر بقين من شهر ربيع الأول (سنة ٢٩٦) فنظر فى الأمور نظر جد واهتمام وأمر جماعة من القواد بطواف البلد ليلاً والإيقاع بأهل الدعارة ومن يرونه متعرضاً لنهب دار وأخذ مال وعلى يد ابن الفرات كانت عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز فصادر من صادر وقتل من قتل وكان ممن دخل فى هذه الفتنة أبوعمر محمد بن يوسف القاضى فأخذ فيمن أخذ وحضر أبوه يوسف وهو شيخ كبير مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاء شديداً رق له منه وسأله حراسه نفس ولده أبى عمر والتصدق عليه به فقال الوزير الجناية عظيمة ولا يمكن تخليته إلا بمال جليل يطمع الخليفة فيه من جهته فبذل يوسف أن يفقر نفسه وابنه طلباً لبقائه وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر وقرر أمر أبى عمر على مائة ألف دينار فأدى منه تسعين ألفاً من جملتها ٤٥ ألفاً كانت عنده وديعة للعباس بن الحسين وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره وألا يخرج منها لئلا يجعل له حديث مجدد.

مضى ابن الفرات فى وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً اختلفت عليه الأمور فيها وحدثت الحوادث وحضر عيد النحر من (سنة ٢٩٨) فاحتيج فيه من النفقات إلى ما جرت العادة به وكانت المواد قصرت والمؤن قد تضاعفت وطلب المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه فى نفقات هذا العيد فمنعه من ذلك وألزمه القيام به من جهته فوجد بذلك أعداؤه الطريق إلى الوقيعة فيه.

فركب فى يوم الأربعاء لأربع خلون من ذى الحجة إلى دار الخلافة وهوعلى غاية السكون والطمأنينة وجلس فى الموضع الذى كان يجلس فيه قبل الوصول إلى السلطان فقبض عليه وعلى كاتبه ومضى القواد للقبض على أسبابه وكتابه فقبضوا عليهم وصار مؤنس الخادم إلى دار الوزارة فوكل بها وأنفذ يلبق إلى دار ابن الفرات فأحاط عليها وتسرع الجند والعوام إلى دور أولاده وأهله فنهبوها وأخربوها وأخذوا ساجها وسقوفها وعظم الأمر فى النهب حتى ركب أبوالقاسم فى الحال بعد العصر فى القواد والغلمان وطلب النهابة وعاقب قوماً منهم فقامت الهيبة وسكنت الفتنة وأحضر الوزير الثانى.

محمد بن عبيد الله بن خاقان:

يقلد الوزارة وقبض ما كان لابن الفرات من الضياع والأقطاع والأملاك والعقار والأموال والغلات وصح له ما مقداره ألف ألف دينار عيناً وستمائة ألف دينار سوى الأثاث والرحال والكراع والجمال.

تولى ابن خاقان فبدأ وزارته بالمصادرات والمضايقـات يريد بذلك سد حاجة الخليفة حتى لا يقع فيما وقع فيه سلفه وحـول من بيت مال الخاصة إلى بيت مال العامة ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار على سبيل القرض ولم يؤد من عـوض ذلك سوى أربعين ألف دينار وكان فى ابن خاقـان إهمال للأمور واطراح للأعمال وتلون فى الأفـعال فكانت الكتب ترد عليه تصـدر جواباتها عنه مـن غير أن يقف عليـها أو يأمر بشىء فـيها وإذا أخـرجت إليه جوامعها تركها أياماً فلم يطالعها وربما وردت رسائل بحـمول وكتب فيها سفاتج بمال فتبقى أيامـاً لا تفض وإذا قلد عامل أتبـع بمن يعزله قـبل وصوله إلـى عمله وأتبع الصـارف بمن يصرفه فقيل إنه اجتمع فى خان بحلوان سبعة أنفس وقد قلد كل واحد منهم ماء الكوفة فى عشرين يوماً وبالموصل خمسة قد قلدوا قردى وبازبدى وأنهم اجتمعوا وتشاكوا ما دفعوا إليه وخرج عن أيديـهم من نفقاتهم ومـا بذلوه عن تقليدهـم على أن ينالوا من مال العـمل ما قدموه وأنفقوه واستظهروا لنفوسهم به وخلوا العمل على آخر من ورد من الناحية.

وكان إذا سئل حاجة دق صدره بيديه وقال: نعم وكرامة حتى لقب دق صدره وبسط يده وأيدى أولاده وكتابه بالتوقـيعات بالصلات والإطلاقات والإقطاعات والتسـويغات وتخفيف الطسوق والمعـاملات وأخذ الموافق على إضـاعة الحقوق وإسـقاط الرسوم فسـخفت الوزارة وأخلقت الهيبـة وزادت الحال فى إخلال الأعمال ووقوف الأحوال وُقـصور المواد وتضاعف الاسحقاقات واشتداد المطالبات وشغب الجند شغباً بعد شغب وتسحبوا على السلطان تسحباً بعد تسحب وأخرج إليهم من بيت مال الخاصـة شيئاً بعد شىء، حتى إذا انحل النظام وبان الانتشار وتصور المقتدر الصورة فيما تطرق من الوهن على المملكة شاور مؤنسـاً الخادم فيمن يقلده الوزارة فاستقر الأمر على وزارة:

علىّ بن عيسى:

وكان بمكة بعيداً عما يجرى ببغداد خوفاً على نفسه فأنفذ إليه فلما حضر قلد الوزارة فى عاشر محرم (سنة ٣٠١) فكانت مدة سلفة سنة واحدة وشهراً وخمسـة أيام فسلم إلى الوزير الجـديد هو وولداه وأبوالهـيثم بن ثوابة. ولمـا نظر على فى الأمـور وجد فى أيدى القـواد والحاشية والرعيـة توقيعات كثيرة بخط ابن خاقان وخط ابنيـه وكتابه فى فك وإثبات وتقرير إيجاب ومظالم وتسويغات وإقطاعات ومقـاطعات بما مثله يأتى على ارتفاع المملكة وقد كان الخاقانى أذن لهذه الجـماعة فى التوقيع عنه بكل ما رأوه وكانوا على فـاقة وضغطة وخروج من نكبة وعطلة وعـرضهم الارتفاق وأخـذ ما لاح: تأمل على بن عيـسى هذه التوقيـعات فأسقطهـا وكان منها ما ثبت فى الدواوين ومـا لم يثبت وعمل على إعلام المقـتدر ما على

الملك وبيت المال من الوهن والنقص بإمضائـها فقال له أحد خلصائه: لا تفعـل فإن الخليفة على ما تـعرفه من التـدبر بآراء النساء والقـبول من الحـاشية وأكـثر هذه التـوقيـعات لهم وللمتعـلقين عليهم والملتجئين إليـهم فاعدل إلى أن تنظر ما قـد أنشئ الكتاب به من ديوان الدار إلى أصحاب الدار فـتمضيـه وما كان بخلاف ذلك أبطلتـه فإنك تمضى القليل وتبطل الكثير وتأمن عداوة الناس ومتى استأذنت الخليفة لم تأمن أن يأمرك بإمضائها كلها فتقع فى الطويل العريض. فلم يقبل ومضى فطالـع المقتدر بالصورة واستأمره فى إسقـاط التوقيعات وقد كان الحـواشى سبقوا إليه بالشكوى فـقال له: ارجع إلى الخاقانى وابنه فمـا عرفاك أنه بتوقيعهما أمضيته وما كان بتوقيع أصحابهما رددته. فأمر بجمع الرقاع وأنفذت إلى الخاقانى وابنه فى السجن فأقر الخاقانى بصدور كلها عـن إذنه فقامت قيامة علىّ بن عيسى من ذلك الجواب واضطر إلى إمضاء الأكثر وإسقاط من استضعف صاحبه واستلان جانبه ولم تكن له جهـة يشفع له وعـرف الحاشيـة ذلك وشكروا للخاقـانى وتعصـبوا له وقامـوا بأمره كما سيجىء.

كان علىّ بن عيسى رجلاً عاقلاً متديناً متصوناً متعففاً، وعارفاً بالأعمال حافظاً للأموال كثـير الوقار والجـد بعيداً من التـبذل والهزل على شح غـالب فى طباعـه وتجهم ظاهر فى أخلاقه وعمد فى نظره إلى تخفـيف المؤن وحذف الكلف ونقص الخرج المضايقة فى الجارى والرزق ورد كثيراً مما وقع به الخاقانى من الإثبات والزيادات فأوحش خواص المقتدر وعاداهم فكثرت السعـاية عليه والوقيعـة فيه واستثقل أكـثر الناس موضعـه وضاقت صدورهم بنظره ووقع الشروع فى إفساد أمره ورد ابن الفرات.

عرف الوزير ما يجـرى من ذلك فبدأ بالاستعـفاء وكان فيما كـتب من رقاعة بذلك إلى السيدة أم المقتدر.

بسم الله الرحـمن الرحيـم أطال الله بقـاء السيـدة وأدام عزها وتـأييدها وكـلاءتها وحراستها وأسبغ نعمه عليها وزاد فى إحسـانه إليها ومواهبه الجميلة وآلائه الجزيلة وأقسامه الهنيئـة وفوائده السنية عندها وبلغـها فى سيـدنا أمير المؤمنين أطال الله بقـاءه وأدام له العز والتمكين والنصر والتأييد غاية محبتها وأفضل أمنيتها ووصل أيام سرورها بعافيته واغتباطها برؤيته ووقاها فيه وفى نفسها وفى الأمراء استودعهم الله واستوهبه أيامهم كل سوء محظور ومخوف بمـنه ورأفته وصلت الرقعـة أعز الله السيدة وعـرفت ما تضمنت فأمـا الفتنة التى كانت ملتـحمة مع أعظم الأعـداء مضرة وأقـربهم محلة وأشـدهم على المطالبة جرأة فقد تكلفت الإنفاق عليها وقمت بتدبيرها حتى بلغ الله أميـر المؤمنين والسيدة فى جميعها المحبة وانتظمت فى صدور الأعـداء شرقاً وغرباً الهيـبة وما أنفقت مع ذلك من بيت مـال الخاصة

بعد الذى رددته إليه نصف عشر ما أنفقه محمد بن عبيد الله الخاقانى وابن الفرات قبله وأنا عامل بعون الله على رد ذلك عن آخره ومتى لم ينفق المعتضد بالله فى أسفاره على مائدة أعدائه من بيت مال الخاصة أضعاف هذه النفقة وقد أنفق المكتفى بالله وكان من النظر فى القليل اليسير على ما عرف به من بيت مال الخاصة جملة بعد جملة مع قلة النفقات فى أيام المعتضد بالله وما أقول قولاً يدفع لأن الدواوين تشهد به وحسابات بيوت الأموال تدل عليه ومؤنس خازن بيت مال الخاصة منذ أيام المعتضد بالله وإلى هذه الغاية يعلمه وإن سئل عنه صدق هذا مع رفقى بالرعية وعمارتى النواحى المحتلة وإزالتى عنها كل ظلم ومؤونة حتى صارت أيام أمير المؤمنين أطال الله بقاءه منذ خدمته أيام الخير وفيها الآثار الموصوفة وامتلأت قلوب الرعية هيبة بعد أن كانت تثب على الرؤساء وترمى بالحجارة على ما قيل لى عند اجتيازهم فى دجلة. وأما الاستحقاقات المتأخرة فلست أعرفها وبباب أمير المؤمنين الكبير من الغلمان والحاشية والفرسان والرجالة وما أحسب صنفاً من هذه الأصناف يقدر أن يقول إنه قبض فى وقت من الأوقات قبضاً متصلاً وليس يقول أحد منهم إنه دفع عن استحقاق ولا تأخر له شئ من رزقه ونزله كذلك الفرسان والعساكر الخارجة مع مؤنس وغيره مستوفية وأكثر من بالحضرة فهذه سبيلهم. وقد حضروا منذ مدة بباب العامة وطالبوا فأدخلت طائفة منهم ونوظرت فلم تكن لهم حجة فى الاستحقاقات وإنما التمسوا الزيادة والنظر والصلة وهذا خارج عن الواجب ولومنع بعضهم فلم يعط شيئاً لكان ذلك واجباً صالحاً ومتى كان الجند يوفون حتى لا يكون لهم شئ متأخر ما كان هذا فى زمن من الأزمان وما تركت أن قلت لسيدنا أمير المؤمنين أعزه الله فى ذلك ما يجب أن أقوله وخاطبت أم عيسى مرة بعد مرة فيه وأما ما قيل للسيدة أعزها الله فى استعفاء فلم أستعف بصاً ولوحملت الرماد على رأسى لما تكرهت ذلك ولا تأبيته وإنى لألزم نفسى الصبر على كل نائبة فى خدمة سيدنا أمير المؤمنين، أيده الله وأرى ذلك ديانة ولكنى أعز الله السيدة أضجر كما يضجر الناس إذا خوطب بما لا يحب وأنا أبلغ جهدى فى النصيحة وتأدية الأمانة فإن كان ذلك واقعاً موقعه فهوالذى أقصد وإن كان يظن بى غير ما أنا عليه فهى مصيبة وقد يحرم الإنسان ثمرة اجتهاده ويقع ما يفعله على خلاف مذهبه واعتماده وما يعنى وما يحل لى أن أؤخر الصدق فى جميع الأحوال قاضياً بذلك حق الله عز وجل وحق سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وحق السيدة أعزها الله وأسأل الله أولاً وآخراً أن يصلح لهما أمورهما ظاهراً وباطناً صغيرها وكبيرها ويكفيهما المهم ويسهل الصلاح بهما وعلى أيديهما بمنه وقدرته وجوده وكرمه.

وإنما كتبنا هذا الكتاب بطوله ليتبين كيف كان تداخل النساء فى سياسة المملكة. إن علىّ

بن عيسى كان أحسن وزراء المقتدر وقد كان مما فعله فى وزارته هذه أن أسقط المكس بمكة والتكملة بفارس وسوق بحر الأهواز وحصن مهدى ونهر السدرة وكان يعترض فى هذه المواضع على ما يجهز إلى البحر ويرد منه وتؤخذ الضرائب المسرفة عنه وأزال جباية الجمهور بديار ربيعة وأشار على المقتدر بوقف المستغلات بدار السلام وغلتها نحوثلاثة عشر ألف دينار والضياع الموروثة بالسواد الجارية فى ديوان الخاصة وارتفاعها نيف وثمانون ألف دينار على الحرمين والثغور فقبل رأيه ونصب على بن عيسى لهذه الوقوف ديواناً سماه ديوان البر. ولما كان بمكة وجد الماء ضيقاً على أهلها وعلى أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقله من جدة إليها فابتاع عدداً كبيراً من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء وأقام لها العلوفة الراتبة ومنع من السخرية وحظرها وحفر بئراً عظيمة فخرجت عذبة شروباً وسماها الجراحية. وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار وفتحها ووسعها حتى كثر الماء بمكة ووصل الرفق به إلى أهل الضعف والمسكنة.

ومع كل ما أجراه من الإصلاح فإن حكومة النساء لم تتركه هادئ البال. قرب عيد الأضحى واحتيج إلى ما جرت العادة بإطلاقه للحرم فجاءته أم موسى القهرمانة فى آخر ذى القعدة مخاطبة فى ذلك ومقررة للأمر فيه وكان محتجباً فلم يأذن لها حاجبه واعتذر لها عذراً لطيفاً وصرفها صرفاً جميلا فغضبت وانصرفت وأعلم علىّ بن عيسى خبرها فى حضورها وانصرافها فأنفذ إليها واستعذرها فلم تعذر وصارت إلى المقتدر بالله وإلى السيدة وأغرتهما به وتكذبت عندهما عليه وأدى ذلك إلى القبض عليه فى يوم الإثنين ثامن ذى الحجة (سنة ٣٠٤) فكانت مدة وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر و٢٨ يوماً.

وفى يوم القبض عليه أطلق الوزير ابن الفرات وأعيد من محبسه إلى دست الوزارة ورد عليه المقتدر ما كان قبض عنه وعن أهله وكُتّابه وأسبابه من الضياع والأموال فارتجع ما كان حصل فى أيدى الناس والقواد وخواص الدولة من ذلك وكان قد تعهد وهو فى السجن أنه متى رد للوزارة أطلق المولد والحرم والخدم ومن بالحضرة من الفرسان برسم التغاريق مثل ما كان يطلقه فى وزارته الأولى تماماً وإدراراً وأن يحمل إلى المقتدر كل يوم ألف دينار وإلى السيدة والأمراء (٥٠٠) دينار فوفى بما تعهد به.

كان حامد بن العباس قد تضمن واسطاً وضياعها بمال يخرجه ضمنه إياها علىّ بن عيسى فلما وزر ابن الفرات كان يعلم أن حامد بن العباس يربح منها ربحاً كثيراً فلما انتهت مدة ضمانه أراد أن يخرجها عنه إلى غيره وأن بواسط قسيماً الجوهرى يشرف للسيدة أم المقتدر على ضياعها بواسط ويكثر هناك المقام ويحضر عند حامد فيبسطه فاتفقا على أن قسيماً يسفر له فى نيل الوزارة فذهب قسيم إلى بغداد وخاطب نصراً الحاجب فى ذلك

وأطمعه في حامد وملأ يده منه وعرفه سعة صدره وسخاء نفسه وضمن له منه تصحيح المال الكثير من ابن الفرات وأسبابه وراسل السيدة أيضاً ووافق هذا القول والسعى سوء رأى نصر الحاجب فى ابن الفرات وخوفه منه وكثرة الوقـيعة فيه قول الناس إنه قد قلد ولده الدواوين وأقاربه الأعمال إلى غير ذلك من الوشـايات التى تروج فى حكومة النساء فاتفق الأمر على إصعـاد حامد وتوليـته فأرسل إليـه فحضـر وفى يوم حضوره قـبض على ابن الفرات يوم الخميس لثـلاث بقين من جمادى الأولى (سنة ٣٠٦) وكانت مـدة وزارته هذه الدفعة (سنة وخمسة أشهر و١٩ يوماً).

حامد بن العباس:

لم يكن لحامـد من الخصـال ما يؤهله للوزارة فظهر ذلك لحـاشية المـقتدر فـعابوه عنده ونسبـوه على الجهل بأمور الوزارة فأمـر بإطلاق علىّ بن عيسى من مـحبسه وجـعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد فكان يراجعه فى الأمور ويصدر عن رأيه ثم إنه استبد بالأمر دون حامد ولـم يبق لحامد غير اسم الوزارة حتى قيل فيهما:

هذا وزير بلا سواد وذا سواد بلا وزير

ثم إن حامـداً أحضـر ابن الفرات ليـقابله على أعمـاله ووكل بمناظرته علىّ بن أحـمد المادرئى ليصحح عليه الأحوال فلم يقدر على إثبات الحـجة فانتدب له حامد وسبه ونال منه وقام إليه فلكمه وكان حامد سفـيهاً فقال له ابن الفرات: أنت على بساط السلطان وفى دار المملكة وليس هذا الموضع مما تعرفه من بيدر تقسمه أوغلة تـستفضل فى كيلها ولا مثل أكار تشتمه ثم قال لشفيع اللؤلؤى: قل لأمير المؤمنين عنى إن حامداً إنما حمله علىّ الدخول فى الوزارة وليس من أهلهـا إننى أوجـبت عليه أكـثـر من ألفى ألف دينار من فـضل ضمـانه وألحت عليـه فى مطالبتـه بها فظن أنها تندفع عنه بدخـوله فى الوزارة وأنه يضيف إليـها غيرها فاستشـاط حامد وبالغ فى شتمه فأنفذ المقتدر فـأقام ابن الفرات من مجلسه ورده إلى محـبسه وقال علىّ بن عـيسى ونصر الحـاجب لحامد: قد جنيت علـينا وعلى نفسك جناية عظيمة بما فعلت بابن الفرات وأيقظت منه شيطاناً لا ينام.

ولما رأى حامد أنه لا عمل لـه مع علىّ بن عيسى شرع فى عمل له آخر فـضمن أعمال الخراج والضياع الخاصة والعامة والمستـحدثة والفراتية بـسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان واستأذن فى الانحدار إلى واسط ليدبر أمر ضمانه الأول فأذن له فانحدر واسم الوزارة عليه وعلىّ بن عيسى يدبر الأمور وأظهـر حامد زيادة ظاهرة فى الأموال فسر المقتـدر وبسط يد حامد فى الأعـمال حتى خافـه علىّ بن عيسى ثم إن الـسعر غلا ببـغداد

فثارت العامة والخاصة واستغاثوا وكسروا المنابر وكان حامد يخزن الغلال وكذلك غيره من القواد فأمر المقتدر بإحضار حامد بن العباس فحضر فعاد الناس إلى شغبهم فأنفذ حامد جنداً لمنعهم فقاتلهم العامة وأحرقوا الجسرين وأخرجوا المحبوسين من السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة ولم يتركوا له شيئاً فأنفذ المقتدر جيشاً قاتل العامة حتى هربوا ودخلوا الجامع بباب الطاق فوكل بأبواب الجامع وأخذ كل من فيه فحبسوا وضربوا بالمقارع وقطعت أيدى من عرف بالفساد فسكنت الفتنة وأمر المقتدر بفتح مخازن الغلة التى لحامد ولأم المقتدر وغيرهما وبيع ما فيهما فرخصت الأسعار وسكن الناس وأفهم علىّ بن عيسى المقتدر أن سبب غلاء الأسعار إنما هوضمان حامد لأنه منع من بيع الغلال فى البيادر وخزنها فأمر المقتدر بفسخ الضمان عن حامد وصرف عماله عن السواد وأمر علىّ بن عيسى أن يتولى ذلك فسكن الناس.

ضج الأولاد والحرم والخدم والحشم إلى المقتدر مستغيثين من تأخير أرزاقهم فإن علىّ بن عيسى كان يؤخرها فإذا اجتمع عدة شهور أعطاهم بعضاً وأسقط بعضاً وحط من أرزاق العمال فى كل سنة شهرين فزادت عداوة الناس له وضجر المقتدر من هذه الاستغاثة وكذلك ضجر حامد بن العباس من مقامه ببغداد وليس له من الأمر شئ غير لبس السواد وأنف من اطّراح علىّ بن عيسى لجانبه فاستأذن حامد وسار إلى واسط. وجرى بين حامد وبين مفلح الأسود كلام فقال حامد: لقد هممت أن أشترى مائة خادم أسود وأسميهم مفلحاً فحقدها عليه مفلح وكان خصيصاً بالمقتدر فسعى ومعه المحسن بن الحسن بن الفرات للحسن بالوزارة وضمن أموالاً جليلة وكتب على يده رقعة يقول إن تسلم الوزير وعلىّ بن عيسى وابن الحوارى وشفيعاً اللؤلؤى ونصراً الحاجب وأم موسى القهرمانة والمادرائيين يستخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار وهذه رشوة عظيمة لا يستهان بها فأصاب ذلك السعى وقبض على على بن عيسى فى ربيع الآخر (سنة ٣١١) وأطلق ابن الفرات وعهدت إليه وزارته الثالثة وسمع حامد بالخبر واختفى ببغداد ثم لبس زى راهب وخرج من مكانه الذى اختفى فيه ومشى إلى نصر الحاجب وسأله أن يوصل حاله إلى الخليفة فدعا نصر مفلحاً فلما حضر ورأى حامداً قال: أهلاً بمولانا الوزير أين مماليكك السودان الذين سميت كل واحد منهم مفلحاً ولم يكن لحضوره نتيجة تفيده بل سُلِم إلى ابن الفرات الوزير فاستحضر المحسن ابنه وكان وقحاً سئ الأدب ذا قسوة شديدة وكان الناس يسمونه الخبيث فعذب حامداً بأنواع العذاب وأخيراً أنفذه إلى واسط ليبيع أملاكه بها ثم دس من سَمَّه فى الطريق فمات وظهر فى هذه الوزارة من المحسن شر عظيم لكثرة ما نكب الناس وطاردهم وعذبهم بأنواع العذاب لاستخراج أموالهم حتى مات أكثرهم تحت العذاب من غير شفقة ولا رحمة

وفـيهم كـبار الدولة ورؤسـاؤها وكتـاب دواوينهـا وصادف ذلك أن وقع الشـر العظيم من القرامطة بالحجـاج فتضاعفت المصـائب على أهل بغداد رؤساؤهم تقتل وحـجاجهم تنهب وتموت عطشاً ولا مـدافع ولا محام فكـثر الإرجاف على ابن الفـرات وأخيراً صـدر الأمر بالقبض عليه من ثامن ربيع الأول (سنة ٣١٢) بعد أن استقر فى هذه الوزارة الأخيرة عشرة أشهر وثمانية عشر يوماً فقبض عليه ثم قبض على ابنه المحسن وتولى الوزارة.

عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان:

بعد أن تكفل بمصـادرة ابن الفرات بألفى ألف دينار فكان ذلك سبباً لتضييـقه على ابن الفرات وولده ثم عذب المحسن بـأنواع العذاب ليجيب إلى مصادرة يبذلهـا فلم يجبهم إلى دينار واحد وقـال: لا أجمع لكم بين نفســى ومالى واشتد عـليه العذاب بحـيث امتنع عن الطعام والشراب فلمـا علم بذلك المقتدر أمر بحمله مع أبيه إلى دار الخـلافة ثم اتفق رجال الحاشية على قتلهـما فذبحوهما كما تذبح الغنم وكان عـمر ابن الفرات حين قتل (٧١سنة) وعمر ولده المحسـن (٣٣سنة) كـان ابن الفرات يقول إن المقتدر يقتلنى. عـاد يوماً وهومفكر كثير الهمٍّ فقـيل له فى ذلك فقال: كنت عند أمير المؤمنين فما خـاطبته فى شئ من الأشياء إلا قال لى نعم فقلت له الشئ وضده ففى كل ذلك يقول نعم فقيل له: هذا لحسن ظنه بك وثقتـه بما تقول فـقال: لا والله ولـكنه أذن لكل قائل ومـا يؤمننى أن يقال له يقـتل الوزير فيقول نعم والله إنه قاتلى. وكان ابن الفرات كـريماً ذا رياسة وكفاية فى عمل حسن السؤال والجواب ولم يكن له إلا ولده المحسن.

لم يكن الوزير الخاقانى بأحسن حظاً من غيره من الوزراء فقد وجد من يساوم عليه فرفع إلى المقتدر رقعة من أبى العباس الخصيبى يذكر مـعايبه ومعايب ابنه عبد الوهاب وعجزهما وضيـاع الأموال وطمع العـمال ثم إن الوزير مرض فـوقفت الأموال وطلـب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل إليه المقتدر فى ذلك فلم يقدر على شئ فعزل فى رمضان (سنة ٣١٣) وولى الوزارة.

أبو العباس الخصيبى:

وكان هذا الوزير الجديد لا يصلح لعمل فإنه كان شروباً فكان يصبح سكراناً لا قصد فيه لعمل وسـماع حديث وكان يتـرك الكتب الواردة للدواوين لا يطالعها إلا بعد مـدة ويهمل الأجوبة عنـها فضـاعت الأموال وماتـت المصالح ثم إنه لضجـره وتبرمـه بها وبغـيرها من

الأشغال وكَّل الأمـور لنوابه وأهمل الاطلاع عليهم فباعـوا مصلحته بمصلحـة نفوسهم ولما ظهر هذا الاختـلال أشيـر على المقتـدر بعزله وولاية عليّ بن عيـسى فقـبض عليه فى ذى القعدة (سنة ٣١٤) بعـد وزارة مدتها سنة وشهران وأخـذ ابنه وأصحابه فحبسـوا واستدعى عليّ بن عيـسى من مكة وكان بهـا مقـيماً ليـدبر أمر الوزارة وأمـر عبيـد الله بن محمد الكلوذانى بالنيابة عن عليّ بن عيسى إلى أن يحضر فسـار عليّ بن عيسى فحضر بغداد فى أول (سنة ٣١٥) وبه صلحت الأموال نوعـاً وكان من أقوم الأسباب فى ذلك أن الخصيبى كان قد اجـتمع عنده المصادرون وكفـالات من كفل منهم وضمانات العـمال بما ضمنوا من المال بالسـواد والأهواز وفارس والمغـرب فنظر فـيهـا عليّ وأرسل فى طلب تلك الأموال فأقـبلت إليه شيـئاً بعد شئ فـأدى الأرزاق وأخرج العطاء وأسقط مـن الجند من لا يحمل السلاح ومن أولاد المرتزقة من هو فى المهد فإن آبـاءهم أثبتوا أسماءهم ومن أرزاق المغنين والمساخرة والندماء وغيرهم وتولى الأعمال بنفسه ليلاً ونهاراً واستعمل العمال فى الولايات واختـار الكفاة ومع ما أظهـره من الهمـة وظهر على يده من الصلاح لم يـكن ممن يعجب حاشية المقـتدر لأنه كان يرى أن الإصلاح لا يكون إلا مع الاقتصاد فى النفقـة ونفقة الخدم والحرم ولاسيـما أم المقتدر كـانت هائلة فلابد من الاقتصـاد فيها ولما علمـوا بذلك شرعوا يشون به فلما أحس عليّ بذلك استعفى من الوزارة واحتج بالشـيخوخة وقلة النهضة فأمره المقتدر بالصـبر وقال: أنت عندى بمنزلة والدى المعتضـد فألح فى ذلك ومع أن الرجل كان يستـقـيل ليخـرج من هذه المضايق بسـلام أبى سوء الحـال فى تلك الأزمنة وتغلب النساء والحاشية أن ينيله هذه الراحة فى خروجـه فأمر المقتدر فى منتصف ربيع الأول (سنة ٣١٦) بالقبض عليه وعلى أخيه عبد الرحمن وولى الوزارة.

أبو على بن مقلة:

وكمـا كانت لأبى علىّ يد ماهرة فى الـكتابة حتى ضـرب بها المثل كانت مـاهرة فى أخذ الرشاء على التـولية والعزل وكـان بينه وبين أكبر القواد مـؤنس المظفر مودة فلذلك كـان يثبت قدمه كلما قاربها الزلل حتى حصلت الوحشة بين المقتدر ومؤنس فدعا ذلك إلى عزل ابن مقلة فى آخر جمادى الأولى (سنة ٣١٨) وقبض عليه بعد سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام واستوزر.

سليمان بن الحسن:

ولما لم يكن المقتـدر ميالاً لسـليمان وإنما رضـيه تبعـاً لرأى مؤنس أمر علىّ بن عيسى بالاطلاع على الدواوين وأن لا ينفرد عنه سليمان بشئ وصودر ابن مقلة بمائتى ألف دينار.

لم تطل هذه الوزارة كثيراً لأن الأحوال ضاقت على سليمان: كثرت عليه المطالبات ووقفت وظائف السلطان واتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعاية والضمان بالقيام بالوظائف وأرزاق الجند وغير ذلك. كانت وزارته غير متمكنة لأن علىّ بن عيسى كان معه على الواوين وسائر الأمور وأفرد علىّ بن عيسى بالنظر فى المظالم واستعمل على ديوان السواد غيره فانقطعت مواد الوزير فإنه كان يقيم من قبله من يشترى توقيعات أرزاق جماعة لا يمكنهم مفارقة ما هم عليه من الخدم فكان يعطيهم نصف المبلغ وكذلك إدارات الفقهاء وأرباب البيوت فكانت أحواله رديئة وأدى ذلك إلى القبض عليه لثلاث بقين من رجب (سنة ٣١٩) بعد سنة وشهرين واستوزر.

أبو القاسم الكلوذانى:

ولم تكن وزارته أيضاً عن رغبة المقتدر بل عن رأى مؤنس وقد حصلت حوادث غريبة الشكل تبين لنا ما كان عليه المقتدر من الجهل والغباوة وذلك أنه كان ببغداد إنسان يعرف بالدانيالى وكان ذواقًا ذكياً محتالاً وكان يعتق الكاغد ويكتب فيه بخطه ما يشبه الخط العتيق ويذكر فيه إشارات ورموزاً يودعها أسماء أقوام من أرباب الدولة فيحصل له بذلك رفق كثير. توصل إلى الحسين بن القاسم حتى جعل اسمه فى كتاب ووضعه وعتقه وذكر فيه علامات وجهه وما فيه من الآثار ويقول إنه يوزر للخليفة الثامن عشر من بنى العباس وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعادى وتتغمر الدنيا فى أيامه وجعل هذا كله فى جملة كتاب فيه ذكر حوادث وقعت وأشياء لم تقع بعد ونسب ذلك إلى دانيال وعتق الكتاب وأخذه وقرأه على مفلح الأسود فأخذ الكتاب وأحضره للمقتدر فقال له: أتعرف فى الكتاب من هوعلى هذه الصفة فقال: ما أعرف إلا الحسين بن القاسم فقال المقتدر: صدقت وإن قلبى ليميل إليه فإن جاءك رسول برقعة منه فاعرضها على واكتم حاله ولا تطلع على أمره أحداً وذهب الدانيالى إلى الحسين وعرفه الخبر فكتب رقعة إلى مفلح فأوصلها إلى المقتدر وفيها يطلب الوزارة وضمن أنه يقوم بالنفقات من غير أن يطلب شيئاً من بيت المال الخاص فعزل الكلوذانى فى رمضان (سنة ٣١٩) بعد شهرين وثلاثة أيام وتولاها:

الحسين بن القاسم:

ولما جاء لم يكن من أهل الوزارة ولا من ذوى التدبير فضاقت عليه الأحوال وكثرت الإخراجات فاستسلف جملة وافرة واطلع المقتدر على اضطرابه فعزله فى ربيع الآخر (سنة ٣٢٠) بعد سبع أشهر واستوزر:

أبا الفتح الفضل بن حجر هو آخر وزرائه:

تولى الوزارة فى عهد المقتدر اثنا عشر وزيراً ومنهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثاً وكانت تنال بالرشوة ودخل فى أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية ولم يكن الصالح منهم يبقى فى العمل كثيراً لأن مدار طول المدة كان على رضا أم المقتدر وقهرمانته وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون إلا إذا حوبوا بالأموال الكثيرة التى بها تفسد المالية وتختل موازنتها فمتى حصل التقصير فى ذلك وقدم رجل آخر رشوة فسرعان ما يقبض على الأول ويصادر ويعين الثانى وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت حرمتها حتى لم يكن لها فى نظر العامة ولا فى نظر متغلبى الأطراف حرمة. وليس ذلك كل ما أسقط أمر الدولة فى عهد المقتدر بل أضيف إلى ذلك قوة القرامطة وما كان منهم من الإخلال بالأمن فى العراق والحجاز.

أمر القرامطة:

كان رئيس القرامطة بالبحرين أبوسعيد الحسن بن بهرام الجنابى فقتل (سنة ٣٠١) بعد أن أستولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين فولى بعده ابنه أبا طاهر سليمان الجنابى وكانت له غزوات متتابعة إلى جهة البصرة يريد الاستيلاء عليها وأشد غزواته لها (سنة ٣١١) فإنه سار إليها فى ألف وسبعمائة من القرامطة ودخلها وقتل حاميتها ووضع السيف فى أهلها وأقام بها سبعة عشر يوماً يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان ثم عاد إلى بلده ومنها توجه إلى طريق الحاج ليلقاهم عند رجوعهم إلى مكة فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج وكان فها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم فنهبهم واتصل الخبر بباقى الحاج وهم بفيد فأقاموا بها حتى فنى زادهم فارتحلوا مسرعين إلى طريق الكوفة فأوقع بهم القرامطة وأخذوا جمال الحجاج جميعها وما أرادوا من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان ثم عاد الجنابى إلى هجر وترك الحاج فى مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس فانقلبت بغداد من سوء تأثير هذا الخبر وكان وصوله فى الوقت الذى قتل فيه المحسن بن الفرات من قتل من المصادرين فازدوجت المصيبة وكان ابن الفرات يتهم بالتشيع فذكر بكل قبيح على ألسنتهم.

اضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من أسرى الحاج فأطلقهم وطلب ولاية البصرة والأهواز فلم يجبه المقتدر فسار من هجر يريد الحاج وكان جعفر بن ورقاء الشيبانى متقلداً أعمال الكوفة وطريق مكة فلما سار الحاج من بغداد سار جعفر بين أيديهم خوفاً من أبى طاهر ومعه ألف رجل من بنى شيبان وسار معهم أيضاً قواد السلطان

ومعهم ستة آلاف رجل فلقى أبوطاهر القرمطى جعفراً الشيبانى فقاتله جعفر فبينما هويقاتله إذ طلع جمع من القـرامطة عن يمينه فانهزم من بين أيديهم فلقى القـافله الأولى فردها إلى الكوفة ومعها عسكر الخليفة وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة فقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة ودخل أبوطاهر الكوفة وأقام ستة أيام بظاهرها يدخل البلد نهـاراً فيقيم فى الجامع إلى الليل ثم يخرج فيبيت فى عسكره وحمل منها مـا قدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك ثم عاد إلى هجر وكان أهل بغداد قد خافوا أن يهجم القرامطة عليهم.

وفى (سنة ٣١٥) سار أبوطاهر نحـوالكوفة فأمـر المقتدر يوسف بن أبى الساج أن يسير إليها لحـمايتها من القـرامطة وقد أعد له بالكوفة الإنزال له ولعـسكره فسبقه إلـيها أبوطاهر واستولى علـى كل هذه المؤن وكانت شيئاً كـثيراً ووصل يوسف بعد أبى طـاهر بيوم واحد فلما وصل أرسل إلى القـرامطة يوم الجمعة يدعوهم إلى طاعـة المقتدر فإن أبوا فـموعدهم الحرب يوم الأحد فقالوا: لا طاعة علينا إلا لله والموعد بيننا للحرب بكرة غد فلما كان الغد رأى يوسف قلة القارمطة فـاحتقرهم وقـال: إن هؤلاء الكلاب لا بقاء لهم بعد سـاعة فى يدى وتقدم بأن يكتب كتـاب الفتح والبشارة بالظفر قبـل اللقاء تهاوناً بهم ثم زحف الناس بعضهم إلى بعض واستمر القتـال إلى غروب الشمس فلما رأى أبوطاهر ذلك باشر الحرب بنفسه ومعـه جماعة يثق بهم وحمل بهم فطحن أصحاب يوسف ودقـهم فانهزموا بين يديه وأسر يوسف وعدد كثير من أصحابه وورد الخـبر بذلك إلى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفـاً شديداً وعزموا على الهـرب إلى حلوان وهمذان وجاء المنهزمـون من وقعة الكوفـة إلى بغداد ووصل الخـبر بأن القـرامطة قد سـاروا إلى عين التمـر فأنفذ مـن بغداد خمـسمائة سميرية فيها المقاتلة لتمنعهم من عبور الفرات وسير جماعة من الجيش إلى الأنبار لحفظها ومنع القرامطة من العبـور هنالك. ثم إن القرامطة قصدوا الأنبار ولما وصلوها نزلوا غربى الفرات لأن أهل الأنبار كـانوا قد قطعوا الجسر ثم أنفذ أبوطاهر أصـحابه إلى الحديثة فجاؤوه بسفن عـقدها وعبر عليها نحوثلثمـائة من أصحابه فقاتلوا عسكر الخليفـة فهزموهم وقتلوا منهم جمـاعة واستولوا على مدينة الأنبـار وعقدوا الجسر وعـبر عليه أبوطاهر ولكنه خلف عظم جيـشه فى البر الغـربى ولما ورد الخبر بعـبور أبى طاهر إلى الأنبار خـرج نصر الحاجب بجيش جرار فلحق بمؤنس فلحق المظفر فاجتمعا فى نيف وأربعين ألف مقاتل وكان هذا الجـيش مضطربـاً فى مسـيره قـد تمكن الخـوف من قلب أجناده وكـان يمكنهم لودبروا جيشهم تدبيراً حسناً أن يأخذوا أبا طاهر الذى كان قد عبر وترك جنده ولكنهم تهاونوا حتى عاد إلى جيشـه ثم اقتطع مؤنس من الجيش نحوسـتة آلاف أمرهم بالعبور ليغنمـوا معسكر القرامطة ويخلصـوا يوسف بن أبى الساج ففـشلوا وانهزموا أمـام شجاعة القـرامطة وكانت

نتيجة ذلك أن أمر أبوطاهر بقتل يوسف وجميع الأسرى وكانت عدة القرامطة فى هذه الخرجة (٢٧٠٠) ولما علم المقتدر بعدة عسكره وعدة القرامطة قال لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن (٢٧٠٠) وجاء إنسان إلى علىّ بن عيسى الوزير وأخبره أن فى جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالأخبار فأحضره وسأله فاعترف وقال: ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندى أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم ولا بد لله من حجة فى أرضه وإمامنا المهدى محمد ابن فلان ابن فلان ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب ولسنا كالرافضة والاثنا عشرية الذين يقولون بجهلهم إن لهم إماماً ينتظرونه ويكذب بعضهم البعض فيقول قد رأيته وسمعته وهويقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه. فقال الوزير: قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك ؟ فقال: وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع منى أن أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم لا أفعل ذلك فأمر به فضرب ضرباً شديداً ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة أيام.

أما أبوطاهر فإنه سار من الأنبار وعاثى فى أرض الجزيرة نهباً وقتلاً إلا من اعتصم منه بالأمان والفدية وجيوش السلطان لا تؤثر فيها أثراً وتخاف أن تقدم عليه فلما تم له ما أراد من الجزيرة عاد إلى الكوفة ومنها دخل هووأصحابه البرية بعد أن أخافوا السبل وأهلكوا العدد الجم.

وكانت هذه الانتصارات سبباً فى ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفاً فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلاً يعرف بحريث بن مسعود واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها فى جمع كثير وولوا أمرهم رجلاً يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون إلى المهدى وسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف عمال السلطان عن السواد وسار حريث إلى أعمال الموفق وبنى بها داراً سماها دار الهجرة واستولى على تلك الناحية فكان أصحابه ينتهبون ويقتلون ويسبون. فأرسل المقتدر إلى حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب وإلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافياً البصرى فأوقع كل منهما بمن أرسل إليه من القارمطة وأسر منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسر وأخذ أعلامهم وكانت بيضاء كتب عليها (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) فأدخلت بغداد منكوسة واضمحل أمر من بالسواد منهم وكفى الله الناس شرهم وإن كان كل ذلك مما يعجل بخراب القرى وإتلاف المزارع.

وفى (سنة ٣١٧) فـعل أبو طاهر مـا هو أشنع وأدهـى وذلك أنه سـار بجنده إلى مكة فوافـاها يوم التروية فلم يرع حـرمة البـيت الحرام، بل نهب هو وأصحـابه أموال الحـجاج وقتلوهم حـتى فى المسجد الحـرام وفى البيت نفسه وقـلع الحجر الأسود وأنفـذه إلى هجر فخـرج إليه أمير مكة فى جـماعة من الأشـراف فسألوه فى أموالهم فـلم يشفعهم فـقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وطرح القـتلى فى بئر زمزم ودفن الباقين فى المسجد الحرام حيث قتلوا بغـير غسل ولا كفن ولاصلى على أحد منهم وأخـذ كسوة البيت فقسـمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة. ولم يحصل فى التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت إلى هذا الحد حـتى أن المهدى عـبيد اللـه العلوى لما علم ذلك كتب إلى أبى طاهر ينكر عـليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القـيامة ويقول: قد حققت على شيـعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم تـرد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهـم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا برئ منك فى الدنيا والآخرة ولما وصله هذا الكتاب أعاد الحجـر الأسود واستعاد ما أمكنه من أمـوال أهل مكة فرده وقال: إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم.

المتغلبون وما كان منهم:

فى عهـد المقتدر اشـتد سلطان المتغلبين بأطراف المملكـة وهذه نتيجة طبـيعيـة لما أصاب الدولة من الخلل.

ففى الأندلس قام رجل الدولة الأمـوية عبد الرحمن الناصر وتسـمى باسم أمير المؤمنين لأنه لم يعد هناك ما يراعيه رجال الدولة الأموية من أمـر الخلافة الإسلامية ببغداد لانحطاط شأنها ولعب الفساد بها وخيانة الوزراء فيها وكان عبد الرحمن قد مكنه عقله الواسع وفكره الثاقب من العلووبعد الصيت حتى رهبته ملوك الإفرنجة والروم وهادوه وأرسلوا إليه السفراء وكذلك فعل هو معهم.

وفى إفريقـية قامت الدولة العلوية ومحـت فى طريق غلبتها دولة الأدارسـة من المغرب الأقصى والأغالبـة من إفريقية وجـعلت مقرها مدينة المهدية التـى أسسها عبـيد الله المهدى بالقرب من القيروان وكانت همته بعد ذلك موجـهة إلى الاستيلاء على مصر فكان يناوشها بالجنود ولكنه لم يتهيأ له الاستيلاء عليها.

وفى البحـرين وما صـاقبهـا اتسع سلطان القرامطة واسـتقلوا بملك تلك البـلاد وكانت العراق دائمـاً على خوف مستمر منهم وقـطعوا طريق الحج حتى كـان حجاج العـراق قد اتخذوا لهم طريقاً آخر إلى مكة على الموصل ثم الشام ثم مكة.

وفى خراسان وما وراء النهر استقر ملك الدولة السامانية وكان الديلم يناوشونها من وقت لآخر كما سيأتى فى تاريخهم.

وفى الموصل ابتدأت دولة آل حمدان ولكن لم يتمكن سلطانهم فى عهد المقتدر أما ما فعله الروم بثغور المسلمين فى هذا العهد فهو فى غاية الشنعة ففى (سنة ٣٠٣) أغاروا على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم ولم يكن أمام الروم من الجيوش من يصدهم لأنهم كانوا مشغولين برتق الفتوق الداخلية التى كانت متوالية.

وفى (سنة ٣٠٥) وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء فأكرما إكراماً كثيراً وأدخلا على الوزير وهو فى أكمل أبهة وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة فأديا الرسالة ثم أنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة فأجابهما المقتدر إلى طلب ملك الروم من الفداء وسير مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج منه وسير معه جمعاً من الجنود وأطلق لهم أرزاقاً واسعة وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين وسار مؤنس والرسل وكان الفداء على يديه.

ولم يدم هذا الصفاء طويلاً بل عادت الحروب والغارات من الطرفين وكانت سجالاً وكلما كان يجتمع عند الطرفين أسرى يحصل الفداء كالعادة.

وفى(سنة ٣١٣) كتب ملك الروم إلى أهل الثغور الإسلامية يأمرها بحمل الخراج إليه فإن فعلوا وإلا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذرية وقال إننى صح عندى ضعف ولاتكم فلم يفعلوا فسار إليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية (سنة ٣١٤) فأخربها وسبى منها ونهب وأقام فيها ستة عشر يوماً ولما رأى أهل ملطية ما حل بقراهم من التخريب قصدوا بغداد مستغيثين فلم يغاثوا وعادوا بغير فائدة.

وفى (سنة ٣١٥) خرجت سرية من طرطوس إلى بلاد الروم فوقع عليها العدو وأسر من المسلمين أربعمائة رجل فقتلوا صبراً. وفيها سار الدمستق فى جيش عظيم من الروم إلى مدينة ديبل وهى قاعدة أرمينية وكان معه دبابات ومجانيق ومعه مزارق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد من شدة النار فكان ذلك أشد شئ على المسلمين حتى أصيب الرامى بسهم من سهام المسلمين فخفت الشدة وكان الدمستق يجلس على كرسى عال يشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على ما يراه فصبر لهم المسلمون حتى وصلوا إلى سور المدينة فنقبوا فيها نقوباً كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً حتى أخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم عشرة آلاف قتيل. وكانت هذه السنة سنة نجاح المسلمين على الروم.

وفى (سنة ٣١٩) اشتـدت وطأة المسلمين على الروم وغزوا بلادهم حتى بلغـوا عمورية وانقرة، والفضل فى ذلك كله يرجع إلى قائد عظيم من غلمان المقتدر اسمه ثمل وكان والى الثغور فأمكنه بما أوقعه من الرعب فى قلوب أعدائه أن يسـتعيد بعض الهيبة للدولة بعد أن كادت تذهب من صدر الروم بالمرة.

وعلى الجملة فكانت خلافة المقـتدر فى جميع أيامها شر أيام على الدولة العـباسية لأنه حكم فيها النساء والخدم وبذر فى الأموال تبذيراً مفظعاً وكان يعزل الوزراء ويولى غيرهم بما يقدم من الرشاء له ولأمه ولقهرمانته ولخدمه ولا يأخذ الوزارة بالرشوة إلا من هوعازم على الخيانة ليحـصل على ما دفعه فكان جل هم الكثير منهم أن يسد حاجتـه أولاً ثم حاجة من ولاه، لا يسألون أجاءت تلك الأموال من ظلم أوعـدل ؟ وهكذا نهاية الفـساد فى الدولة وهوالمؤذن بخرابها واضمحلالها.

قتل المقتدر:

كان فى دولة المقتدر قائدان هما فى أرفع الدرجات أولهما مؤنس المظفر وهو القائد العام للجيوش وعليه المعول فى تسييرها ويليه فـى المرتبة محمد بن ياقوت وكان بينهما شئ من المنافسة.

ففى (سنة ٣١٩) قوى أمر مـحمد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسـبة وضم إليه رجال فقوى بهم فعظم ذلك على مؤنس وسأل المقتدر صـرف محمد عن الحسبة وقال: هذا شغل لا يجوز أن يتولاه غير القـضاة والعدول فأجابه المقتدر وعزله وصرف محـمداً عن الحسبة وصرف ابنه عن الشـرطة وأبعدهما عن الحـضرة فأخرجـا إلى المدائن حسبمـا طلب مؤنس وولى بدلهمـا إبراهيم بن رائق وأخاه محـمداً الحسبـة والشرطة وهذا كان بدء الوحـشة بين المقتدر ومؤنس ومتى وجدت الوحشة ساءت الظنون وكان للوهم فى النفوس أكبر الآثار.

بلغ مؤنسـاً أن الوزير الحسين بن القاسم فـقد وافق جماعـة من القواد فى التدبيـر عليه فتنكر له مؤنس وطلب من المقـتدر عزله ومصادرته فأجـاب إلى عزله ولم يصادره فلم يقنع مؤنس بذلك فـبقى الحسين فى الوزارة وكـتب إلى هارون بن غريب أحـد القواد وهو بدير العاقول أن يحضر إلى بغـداد وكذلك كتب إلى محمد بن ياقوت يستقـدمه فزادت الوحشة عند مؤنس وصح عنده أن الحسين يسعى فى التدبير عليه ثم صح عنده أنه قد جمع الرجال والغلمان الحجـرية فى دار الخليفة فأظهر الغضب وذهب نحـوالموصل وأرسل غلاماً له إلى المقتدر برسالة فطلب الوزير منه أن يسلمها إليه فأبى فـسبه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه

وصادره بثلثمائة ألف دينار وأخذ خطه بها وحبسه ونهب داره فلما بلغ مؤنساً الخبر سار نحوالموصل فى أصحابه ومماليكه وتقدم الوزير بقبض أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه فحصل من ذلك مال عظيم وزاد فى محل الوزير عند المقتدر فلقبه عميد الدولة وضرب اسمه على الدينار والدرهم وتمكن من الوزارة وولى وعزل.

أما مؤنس فإنه استولى على الموصل من يد بنى حمدان واستولى على أموالهم وديارهم وخرج إليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لإحسانه كان إليهم وعاد إليه ناصر الدولة بن حمدان فصار معه. فلما اجتمعت إليه العساكر انحدر إلى بغداد فى شوال (سنة ٣٢٠) فلما بلغ خبره جند بغداد شغبوا وطلبوا أرزاقهم ففرق المقتدر فيهم مالاً عظيماً إلا أنه لم يشبعهم وسير العساكر لمقابلة مؤنس فى طريقه فلم يقدروا على رده فجاء حتى نزل بباب الشماسية فحل الخوف فى قلب المقتدر وجنده وكان يريد ترك بغداد لمؤنس والرحيل إلى واسط فرده عن ذلك محمد بن ياقوت وزين له اللقاء وقوى نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم إليه فرجع إلى قوله وهو كاره ثم أشار عليه بحضور الحرب فخرج وهوكاره وبين يديه الفقهاء والقراء معهم المصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل بعيد من المعركة فأرسل قواد أصحابه إليه يسألونه التقدم مرة بعد أخرى وهو لا يريم مكانه فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل وصوله إليهم فلقيه على بن بليق من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الأرض وقال له: أين تمضى ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر فشهروا عليه سيوفهم وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض وذبحه بعضهم ثم رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذ جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوفاً إلى أن مر به رجل من الأكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قتل (٣٨ سنة) ثم تقدم مؤنس وأنفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب.

١٩
القــاهــر

هو أبو محمد بن المعـتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد بربرية اسمــها قتول وبويع بالخلافة يوم أن قتل المقتدر فى (٢٨ شوال سنة ٣٢٠) (١نوفمبر سنة ٩٣٢) ولم يزل خليفة حتى خلع فى (٥جمادى الأولى سنة ٣٢٢) (٢٣ إبريل سنة ٩٣٤) فكانت مدته سنة وستة أشهر وستة أيام.

ومعاصروه من الملوك والمتغلبين هم معاصرو المقتدر ما عدا أحمد بن إسماعيل الساماني.

كيف انتخب:

لما قتل المقتدر كان من رأى مؤنس إقامة ولد أبى العباس أحمد وقال إنه تربيتى وهوصبى عاقل وفيه دين وكـرم ووفاء بما يقول فإذا جلس للخلافة سمــحت نفس جدته والدة المقتدر وإخوته وغلمان أبيه ببــذل المال ولم ينتطح فى قتل المقتدر عنزان فاعتــرض عليه أبويعقوب إسحــاق بن إسماعــيل النوبختى وقال بعــد الكد والتعب استــرحنا من خليفــة له أم وخالة وخدم يديرونه فنعود إلى تلك الحال والله لا نرضى إلا برجل كــامل يدبر نفسه ويدبرنا وما زال بمؤنس حتى رده عن رأيه وذكر له محــمد بن المعتضد وهوأخوالمكتــفى فأجابه إليه على كره منه فإنه كان يقول إنى عارف بشره وسوء نيته ولكنه لا حيلة. فبايعوه واستخلفه مؤنس لنفسه ولحاجــبه بليق ولعلىّ بن بليق وأخذوا خطه بذلك واستقــرت له الخلافة وبايعه الناس واستوزر أبا علىّ بن مقلة واستحجب علىّ بن بليق.

الحال فى عهد القاهر:

كان القاهر كما قال مؤنس شريراً خبيث النيــة فإنه فى أول خلافته اشتغل بالبحث عمن استتــر من أولاد المقتدر وحرمــه واشتغل بمناظرة أم المقتــدر وكانت مريضة قـد ابتدأ بها داء

الاستسقاء وقد زاد مرضها بقتل ابنها ولما سمعت أنه بقى مكشوفاً جزعت جزعاً شديداً وامتنعت من الأكل والشرب حتى كادت تهلك فوعظها حتى أكلت شيئا يسيرا من الخبز والملح. أحضرها القاهر عنده وهى على تلك الحال من المرض والجزع وسألها عن مالها فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشئ من المال والجوهر فضربها أشد ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه وقالت لوكان عندى مال لما أسلمت ولدى للقتل ولم تعترف بشيء ثم أخرجها على تلك الحال لتشهد على نفسها القضاة والعدول أنها قد حلت أوقافها ووكلت فى بيعها فامتنعت من ذلك وقالت: قد وقفتها على أبواب البر والقرب بمكة والمدينة والثغور وعلى الضعفاء والمساكين ولا أستحل حلها ولا بيعها وإنما أوكل فى بيع أملاكى فلما علم القاهر بذلك أحضر القاضى والعدول وأشهدهم على نفسه أنه قد حل أوقافها جميعها ووكل فى بيعها فبيع ذلك جميعه مع غيره واشتراه الجند من أرزاقهم ثم صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته ولم نسمع فى التاريخ ما يقارب فعل القاهر نذالة وجبناً وخسة وشراهة نفس.

بعد قتل المقتدر هرب كبار معينيه وخاصة محمد بن ياقوت وابنا رائق وهارون بن غريب ومفلح وعبد الواحد بن المقتدر فلما صاروا بواسط أرسل هارون بن غريب يطلب الأمان لنفسه ويبذل مصادرة ثلثمائة ألف دينار على أن تطلق له أملاكه فأجيب إلى طلبه وظل رفقته سائرين إلى السوس وسوق الأهواز فأقاموا بالأهواز وطردوا عماله فجهز إليهم مؤنس جيشاً أخرجهم منها ثم طلبوا إليه الأمان فأمنهم وتوجهوا معه إلى بغداد ومعهم محمد بن ياقوت فتقدم عند القاهر وعلت منزلته وصار يخلو به ويشاوره فغلظ ذلك الوزير مؤنس المظفر وبليق الحاجب وابنه لأنهم ما حاربوا المقتدر إلا من أجله وثبت عندهم أن محمد بن ياقوت يسعى عليهم فاستوحشوا من القاهر وضيقوا عليه وأمر مؤنس بتفتيش كل من يدخل الدار ونقل من كان محبوساً بدار الخلافة كوالدة المقتدر التى اشتد عليها المرض مما نالها من الضرب علم القاهر أن العتاب لا يفيد فأخذ فى التدبير على القوم الذين أجلسوه هذا المجلس وكان اعتمد مؤنس على العساكر الساجية فأفسد القاهر قلوبهم عليه وأغراهم بمؤنس وأغرى كاتب ابن مقلة به ووعده الوزارة محله فكان يكاتب القاهر بجميع الأخبار.

أما هؤلاء الخصوم فاتفقوا على خلع القاهر وتحالفوا على ذلك ولكنهم لم يبدوا شيئاً من الحكمة أمام مكر القاهر ودهائه فرأى الوزير أن يظهروا أن أبا طاهر القرامطى ورد الكوفة وأن علىّ بن بليق صائر إليه ليمنعها منه فإذا دخل على القاهر يودعه قبض عليه فكتب ابن مقلة إلى الخليفة بما اتفقوا على إخباره به ولكن لم يتم ذلك لأن الخبر جاء القاهر سر [illegible]

دبر عليه فاحتـاط لنفسه وأنفذ إلى الساجيـة فأحضرهـم وفرقهم فى دهاليز الدار مـستخفين فلما جـاء ابن بليق وطلب الإذن لم يؤذن له ورد رداً قبيحـاً من الساجية فـخرج هارباً من الدار وعلم بليق بما جرى على ابنه فاحتد وقال: لا بد من المضى إلى دار الخليفة حتى أعلم سبب مـا فعل بابنى فـذهب هو وجميع القـواد الذين بدار مؤنس فلمـا حضر أمـر القاهر بالقبض عليه وقبض كذلك على أحـمد بن زيرك صاحب الشرطة ثم أرسل إلى مؤنس فى داره من أحضره بالحيلة وكان قد استولى عليه الضعف والكبر فلما حضر الدار أمر بالقبض عليه واختـفى الوزير ابن مقلة وأمـره القاهر بالختم على دور مـؤنس وبليق وابنه على وابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هارون ونقل دوابهم ووكل بحرمهم وأمر بإحراق دار ابن مقلة فأحرقت وظهر محمد بن ياقوت فولى الحجابة.

ولما تمكن القاهر من هؤلاء الأعداء وضبطهم بداره أمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ورأى الناس من شدة القاهر ما علموا معه أنهم لا يسلمون من يده وندم كل من أعانه من الجنود حيث لم ينفعهم الندم.

ومن الغـريب أن القاهـر بعد أن تم له مـا أراد أمـر بالقبض على أكبـر رجل ساعـده وهوطريف السبكرى الذى كان من قواد مؤنس فخانه.

بقى من أعداء القاهر الوزير ابن مقلة فإنه كان مسـتتراً لم يظهر عليه وكذلك الحسن بن هارون فكانا يراسلان قواد الساجية والحجـرية ويخوفانهم من شر القاهر ويذكران لهم غدره ونكثه مرة بعد مرة وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ليلاً تارة فى زى أعمى وتارة فى زى مكد وتارة فى زى امرأة ويغـريهم به حتى ملأ صدورهم فـاتفقوا على خلعه وزحـفوا إلى الدار وهجمـوا عليها من سـائر الأبواب فلما سمع القـاهر الأصوات والجلبة اسـتيقظ مخـموراً وطلب باباً يهرب منه فلم يجده فقبضوا عليه وحـبسوه ثم سملوا عينيه وبذلك انتهت مدته وكانت جامعة للمعايب والقبائح، ومن ذلك عدا ما تقدم ذكره أنه أمر بتحريم الخمر والغناء وسائر الأنبذة وأما الجوارى والمغنيات فأمـر ببيعهن على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ثم بدا له أن يشترى كل حاذقة فى صنعة الغناء فاشترى منهن ما أراد بأرخص الأثمان وكان القاهر مشتهـراً بالغناء والسماع فجعل ذلك طريقـاً إلى تحصيل غرضه رخيـصاً نعوذ بالله من هذه الأخلاق التى لا يرضاها العامة من الناس.

٢٠
الراضـــى

هو أبو العبـاس أحمد ابن المقـتدر بن أبى أحمـد الموفق طلحة بن المتـوكل وأمه أم ولد اسمـها ظلوم (ولد سنة ٢٩٧) وبويع بالخلافـة بعد خلع القاهر فى (٥جـمادى الأولى سنة ٣٢٢) (٢٣إبريل سنة ٩٣٤) ولم يزل خليـفـة إلى أن توفى فى منتـصف ربيع الأول (سنة ٣٢٩)(٨ديسمبر سنة ٩٤٠)فكانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وعشـرة أيام. لما قبض على القاهر سأل القواد الخدم عن المكان الذى فيه أبوالعـباس بن المقتدر فدلوهم عليه وكان هووالدته محبـوسين فقصدوه وفتحـوا عليه ودخلوا فسلموا عليه بالخـلافة وأجلسوه على السرير يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى ولقبوه الراضى وبايعه القواد.

الحال فى عهده:

كانـت الحال تزيد إدباراً وانتكاسـاً واضطراباً فى عهـده فأصـحاب السلطان فى العراق يتنافسـون ويقتتلون والذين يحـيطون بهم من المتغلبين يجـدون ويجتهـدون فدولة الأندلس زهت وعظمت بهمة الرجل العظيم أمير المـؤمنين عبد الرحمن الناصر الذى أعلن فى بلاده أنه أمير المؤمنين بعد أن لم يكن سلفه يتسـمون بذلك وإنما كانوا يسمون بالأمراء. والدولة العبيدية فى المغرب والمهدية قد اشتـدت وطأتها وهى آخذة فى العلو وتحاول الاستيلاء على مصر. وبنو بويه ظهـروا واستولوا على كثير من بلاد الجبـال والأهواز. والروم انتهزوا هذه الفرص لاقتطاع البلاد الإسـلامية وغزو الثغور وأهل بغداد مع هذا كله مشـغولون بأنفسهم ومتكالبون على ما فى أيديهم من البلاد العراقية كما ترى.

كانت الكلمـة العليا فى أول عهـد الراضى لوزيره ابن مقلة وحاجـبه محمـد بن ياقوت فهما اللذان بأيديهما الحل والعقد فى البلاد. فى (سنة ٣٢٣) نظر ابن مقلة فوجد محمد بن ياقوت قـد تحكم فى البلاد بأسرها وأنه هو لـم يعد بيده شئ فـسعى به إلى الراضى وتمم السعاية فبلغ ما أراد ففى خامس جمـادى الأولى ركب جميع القواد إلى دار الخليفة حسب

عادتهم وحضر الوزير ومحمد بن ياقوت ومعه كاتبه فأمر الخليفة بالقبض عليه وعلى أخيه المظفر بن ياقوت وحبسهما وقد مات محمد فى الحبس ثم أطلق المظفر بعد أن أخذ عليه ابن مقلة العهد أنه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكروه. ظن ابن مقلة أن الوقت قد صفا له بحبس ابنى ياقوت وأنه لم يعد له منافس فى سلطانه ولكنه غفل عن المظفر الذى أطلقه من السجن بعد موت أخيه محمد فإن المظفر كان يظن أن ابن مقلة سمَّ أخاه فكان لذلك يتحين الفرصة للقبض عليه فاتفق مع الجنود الحجرية أن يقبضوا على ابن مقلة فقبضوا عليه وأرسلوا إلى الراضى يعلمونه فاستحسن فعلهم وطلبوا من الخليفة أن يعين وزيراً فرد الاختيار إليهم فاختاروا للوزارة على بن عيسى وعرضوها عليه فامتنع وأشار بوزارة أخيه عبد الرحمن فاستوزره الراضى وسلم إليه ابن مقلة فصادره.

رأى عبد الرحمن أنه لا يمكنه إدارة الحركة لازدياد الفساد فاستعفى فلم يقبل الراضى منه وقبض عليه وصادره على سبعين ألف دينار وصادر أخاه علياً على مائة ألف.

واستوزر بعده أبا جعفر الكرخى فرأى قلة الأموال وانقطاع المواد فازداد عجزاً إلى عجزه وضاق عليه الأمر وما زالت الإضافة تزيد وطمع من بين يديه من العاملين فيما عنده من الأموال وقطع محمد بن رائق والى البصرة ما كان يحمل من البصرة وواسط إلى بغداد وقطع البريدى والى الأهواز ما كان يحمل من الأهواز وأعمالها وكان ابن بويه قد تغلب على فارس فتحير أبوجعفر وكثرت المطالبات عليه ونقصت هيبته واستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته فلما استتر استوزر الراضى أبا القاسم سليمان بن الحسن فكان فى الوزارة كأبى جعفر فى وقوف الحال وقلة المال.

ولما رأى الراضى ذلك اضطرته الحال لمراسلة محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد فحضر مسرعاً فقلده الراضى لقب أمير الأمراء وولاه الخراج والمعاون فى جميع البلاد والدواوين وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر وأنفذ إليه الخلع فانتقل السلطان ببغداد إليه ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من الأمور وإنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الأموال وتغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فيها جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم.

كتب ابن رائق كتاباً عن الراضى إلى أبى الفتح جعفر بن الفرات يستدعيه ليجعله وزيراً

وكان يتولى الخراج بمصر والشام وظن ابن رائق أنه إذا استوزره جبى له أموال الشام ومصر فقدم بغداد ونفذت له الخلع قبل وصوله فلقيته بهيت فلبسها ودخل بغداد وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابن رائق جميعاً.

فكر ابن رائق فيما بيد أبى عبد الله البريدى من بلاد الأهواز وأشار على الراضى بالانحدار معه إلى واسط ليقرب من الأهواز ويراسل البريدى فإن أجاب إلى ما يطلب منه وإلا قرب قصده عليه فأجاب الراضى وانحدر معه إلى واسط ثم تهيأ للمسير إلى الأهواز ولما علم بذلك البريدى جدد ضمان الأهواز كل سنة بثلثمائة وستين ألف دينار يحمل كل شهر قسطه فأجاب الراضى إلى ذلك وعاد إلى بغداد ولكن البريدى لم يحمل مما ضمن ولا ديناراً واحداً.

رأى ابن رائق استفحال قوة البريدى وعدم التمكن من قهره ففكر فى أنه يستوزره فكتب إليه بذلك وطلب منه أن يرسل نائباً عنه فى الوزارة فأجاب وأرسل أحمد بن علىّ الكوفى نائباً عنه فسارت أمور البريد ببغداد على ما يروق وضمت البصرة التى كانت فى يد ابن رائق إلى أبى يوسف ابن البريدى أخى عبد الله فصار بيد البريديين الأهواز والبصرة وأرسل إلى البصرة جنداً للاستيلاء عليها وكان ذلك سببا لتجدد الوحشة بين ابن رائق والبريدى حيث رأى الأول أنه زاد البريدى سلطانًا على سلطانه بما أخذ من البصرة ولم يمكنه أن يعمل معه شيئًا ما ففكر أن يرسل جندًا إلى الأهواز لقتال البريدى فاختار رجلين لقيادة الجند أحدهما بدر الخرشنى والثانى بجكم الديلمى فسار بجكم بالجند إلى السوس واستولى عليه بمن معه من الأتراك والديالمة ثم أخذ تستر ولما رأى ذلك أبو عبد الله البريدى ركب هووإخوته ومن يلزمه السفن، وأخذ معه ما يبقى من الأموال و(٣٠٠ ألف) درهم فغرقت السفينة بهم فأخرجهم الغواصون وقد كادوا يغرقون فركبوا ووصلوا إلى الأبلة فأقام بها وكتب إلى ابن رائق يستعطفه فلم يجبه وكانت الرسل من أعيان أهل البصرة فلما رأوا ذلك منه ازدادوا جداً فى مقاومته فصاروا كلما جهز إليهم جنداً هزموه ولما رأى ذلك ابن رائق سار بنفسه إلى واسط وكتب إلى بجكم وهو فى الأهواز مستول عليها يأمره باللحاق به فأتاه فيمن عنده من الجند فتقدموا وقاتلوا أهل البصرة فقاوموهم مقاومة عنيفة حتى ردوهم منهزمين ورأى البريدى أنه لابد له من معين على ابن رائق وبجكم فسار إلى عماد الدولة ابن بويه وأطمعه فى العراق والاستيلاء عليه فسير معه أخاه معز الدولة فاستولى على الأهواز بعد أن حارب بجكم وانتصر عليه فسار بجكم إلى واسط، لم يستمر الصفاء بين البريدى ومعز الدولة لأن كلا طامع يريد أن يمكر بالثانى وكانت نتيجة المنافسة بينهما أن أنفذ بجكم جماعة من أصحابه فاستولوا على السوس وجنديسابور وبقيت الأهواز فى

البريدى ولم يبق بيد معز الدولة إلا عسكر مكرم ثم عاد فاستولى على الأهواز وأجلى عنها البريدى إلى البصرة.

أما حال ابن رائق ببغداد فكانت حال إدبار لأن بجكم منع منه مال واسط ولم يرسل إليه شيئاً وكان يميل إلى أن يحل محل ابن رائق فى إمارة الأمراء ببغداد وكان يسعى له فيها ابن مقلة وقد كلم الخليفة بذلك فأجاب وأبلغ ابن مقلة ما استقر عليه الأمر لبجكم فسار من واسط نحوبغداد فى غرة ذى القعدة (سنة ٣٢٦) ولم يزل حتى ورد بغداد فقاتلته الجنود الرائقية ولكنهم انهزموا عنه فدخل بجكم بغداد فى (١٣ذى القعدة) ولقى الراضى من الغد وخلع عليه وجعله أمير الأمراء فكتب إلى جميع القواد الذين كانوا مع ابن رائق يطلب إليهم العودة إليه ومنّاهم فجاءه أكثرهم وسقط ابن رائق بعد إمارة استمرت سنة واحدة وعشرة أشهر و١٦يوماً واستتر عن العيون.

فى أول (سنة ٣٢٧) منع ناصر الدولة بن حمدان ما ضمنه من مال الموصل فسار إليه الراضى هو وبجكم فأقام الراضى بتكريت وسار بجكم لحرب ناصر الدولة فقهره فانتهز ابن رائق فرصة غيابهما عن بغداد فظهر واستولى عليها ولما بلغ الراضى وبجكم خبره انزعجا واضطرهما ذلك إلى الإسراع بمصالحة ناصر الدولة بن حمدان على أن يعجل (٥٠٠ألف درهم) وعادا يريدان بغداد فراسلهما ابن رائق يطلب الصلح فاتفقا معه على ذلك وتقلد طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورهما وجند قيسرين والعواصم.

أراد بجكم أن يستعيد بلاد الجبل والأهواز من يد ابن بويه فاتفق مع البريدى أن يسير إلى الأهواز وأمده برجال وأن يسير بجكم إلى بلاد الجبل ولكن علم بجكم أن البريدى يريد استعمال الحيلة معه ليلقيه فى المهالك ويعود هو إلى بغداد ليكون أمير الأمراء فبدلاً من أن يسير إلى بلاد الجبل سار إلى واسط فاستولى عليها وأجلى عنها البريدى.

وهكذا كانت مدة الراضى منازعات سياسية بين هؤلاء المتغلبين الذين كل منهم يود أن تكون له إمارة الأمراء ببغداد والأعداء ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة ولم يعد لها شئ من الهيبة ولا نفوذ الكلمة.

ومما زاد الأمر إدباراً ظهور المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة فقد ظهر بها الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة وإن وجدوا نبيذاً أراقوه وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا فى البيع والشراء ومشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا من يمشى مع امرأة أوصبى سألوه عن الذى هومعه من هو؟ فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فأزعجوا بغداد فركب بدر الخرشنى وهوصاحب الشرطة ونادى فى جانبى بغداد فى أصحاب أبى محمد البربهارى:

الحنابلة لا يجتمع منهم اثنان ولا يناظرون فى مذهبهم ولا يصلى منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الصبح والعشاءين، فلم يفد فيهم وزاد شرهم وفتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد وكانوا إذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت فخرج توقيع الراضى بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره فمنه تارة أنكم تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين والشعر القطط والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيراً ثم طعنكم على خيار الأئمة ونسبتكم شيعة آل محمد ﷺ إلى الكفر والضلال ثم استدعاءكم المسلمين إلى التدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب من رسول الله ﷺ وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات وما أغواه وأمير المؤمنين يقسم بالله قسماً جهداً يلزمه الوفاء به لئن تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعنكم ضرباً وتشريداً وقتلاً وتبديداً وليستعملن السيف فى رقابكم والنار فى منازلكم ومحالكم.

وبذلك يتبين أن الشقاق والنزاع تجاوزا الأمراء إلى عامة الناس وقلما وجدت المنازعات الدينية بين قوم إلا ذلوا وفشلوا.

أمر القرامطة:

لم تزل القرامطة على حالهم فى الإفساد والعبث واعتراض الحجاج وفى (سنة ٣٣٢) أرسل محمد بن ياقوت رسولاً إلى أبى طاهر يدعوه إلى طاعة الخليفة ليقره على ما بيده من البلاد ويقلده بعد ذلك من البلدان ويحسن إليه ويلتمس منه أن يكف عن الحاج جميعهم وأن يرد الحجر الأسود إلى موضعه بمكة فأجاب أبوطاهر إلى أنه لا يعترض للحاج ولا يصيبهم بمكروه ولم يجب إلى رد الحجر الأسود إلى مكة وسأل أن تطلق له الميرة من البصرة ليخطب للخليفة بهجر. فسار الحاج إلى مكة هذه السنة ولم يعترضهم القرمطى. ولكنه فى (سنة ٣٣٣) اعترضهم فخرج جماعة من العلويين بالكوفة إلى أبى طاهر فسألوه أن يكف عن الحاج فكف عنهم وشرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد فرجعوا ولم يحج هذه السنة من العراق أحد وسار أبوطاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها.

وفى (سنة ٣٣٦) أصابهم خلل وفساد فى سياستهم وسببه ما كان من ابن سنبر وهورجل كان من خواص أبى سعيد القرمطى والمطلعين على سره وكان له عدو من

القرامطة يدعى أبا حفص فعمد ابن سنبر إلى رجل من أصبهان وقال له: إذا ملكتك أمر القرامطة أريد منك أن تقتل عدوى أبا حفص فأجابه إلى ذلك وعاهده عليه وأطلعه على أسرار أبى سعيد وعلامات كان يذكر أنها فى صاحبهم الذى يدعون إليه فحضر عند أولاد أبى سعيد وذكر لهم ذلك فقال أبوطاهر: هذا هوالذى ندعوإليه فأطاعوه ودانوا له حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله وكان إذا كره رجلاً يقول إنه مريض يعنى إنه قد شك فى دينه ويأمر بقتله وبلغ أبا طاهر أن الأصبهانى يريد قتله لينفرد بالملك فقال لإخوته: لقد أخطأنا فى هذه الرجل وسأكشف حاله فقال له: إن لنا مريضاً فانظر إليه ليبرأ فحضروا وأضجعوا والدته وغطوها بإزار فلما رآها قال: إن المريض لا يبرأ فاقتلوه فقالوا له: كذبت هذه والدتك ثم قتلوه بعد أن قتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والإفساد فيها.

وفى عهد الراضى ظهرت الدولة الأخشيدية بمصر على يد مؤسسها محمد الأخشيد ابن طغج وهومن موالى آل طولون كان ملكه مصر (سنة ٣٢٣) واستمر الملك فى عقبه إلى (سنة ٣٥٨) وهم الذين تسلم منهم الفاطميون مصر وهذا ثبت ملوكهم:

١ ـ محمد الأخشيد بن طغج	٣٢٣ ـ ٣٣٤
٢ ـ أبوالقاسم أنوجر بن الأخشيد	٣٣٤ ـ ٣٤٦
٣ ـ أبوالحسن علىّ بن الأخشيد	٣٤٦ ـ ٣٥٥
٤ ـ أبوالمسك كافور مولى الأخشيد	٣٥٥ ـ ٣٥٧
٥ ـ أبوالفوارس أحمد بن على بن الأخشيد	٣٥٧ ـ ٣٥٧

وفى عهد الراضى مات عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطمين بالمهدية وولى بعده ابنه أبوالقاسم محمد وكان يريد ملك مصر فلم يتمكن.

ختم الراضى الخلفاء فى أشياء منها أنه آخر خليفة دون له شعر وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين.

وفى أيامه حدث اسم أمير الأمراء فى بغداد وصار إلى أمير الأمراء الحل والعقد والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شىء.

وكان الراضى أديباً له شعر مدون يحب محادثة الأدباء والفضلاء والجلوس معهم وكان سمحاً سخياً.

توفى الراضى فى منتصف ربيع الأول (سنة ٣٢٩) (١٨ديسمبر سنة ٩٤٠) ابن الأثير.

٢١
المتقى

هو إبراهيم المتـقى لله بن المعتمـد بن أبى أحمـد الموفق طلحة بن المتـوكل وأمه أم ولد اسمها خلوب بويع بالخلافـة فى (٢٠ربيع الأول سنة ٣٢٩) (٤ديسمبر سنة ٩٤٠) ولم يزل خليفـة حتى خلع فى (٢٠صفـرسنة ٣٣٣) (١٢أكتوبر سنـة ٩٤٤) فكانت مدته (٤سنوات و١١شهراً).

كيف انتخب:

لما مات الراضى كان بجكم بواسط، فورد كتابه مع وزيره أبى عبد الله الكوفى يأمره فيه بأن يجتمع مع أبى القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضى كل من تقلد بالوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقـضاة والعـباسيـون ووجوه البلد ويشـاورهم الكوفى فيـمن ينصب للخلافة ممن يرتضى مذهبـه وطريقته فجمعهم الكوفى واستشـارهم فاتفقوا على إبراهيم بن المقتـدر فبايعـوه فى التاريخ السـابق ولقب نفسـه المتقى لله وسيـر الخلع واللواء إلى بجكم بواسط.

الحال فى عهده:

كان بجكم أمير الأمراء والتدبيـر كله إلى وزيره أبى عبد الله الكوفى وليس للخليفة ولا لوزيره سليمـان بن الحسن شئ، لم يطل زمن بجكم فى الإمارة فإن البـريدى كان لا يزال يمنّى نفسه بالاستيـلاء على بغداد فأنفذ من البصرة جيشاً إلى المذار فأنفـذ إليه بجكم جيشاً يقوده قائد من كـبار قواده واسمـه توزون فالتقى الجيشـان واقتتلا وكـان النصر أولاً لجيش البريدى، فأرسـل توزون إلى بجكم يطلب أن يلحق به فسار إليه وصـادف أن عادت الكرة لتوزون فأرسل إلى بجكم يخبره بالظفر فـأراد الرجوع إلى واسط فأشار عليه بعض أصحابه أن يتصيد، فسار حتى بلغ نهـر جور وحينذاك اغتاله رجل من الأكراد الذين يسكنون هناك

وكان قتله مفرجاً عن البريدى ومفيداً للمتقى لأنه استولى على داره وما فيها من الأموال فبلغ ما ناله ألف ألف ومائتى دينار. وكانت مدة إمارة بجكم سنتين وثمانية أشهر.

لما قتل بجكم انحدر الديلم إلى البريدى فقوى بهم وعظمت شوكته فسار مريداً الاستيلاء على بغداد ولم يتمكن الخليفة من صده فدخلها فى (١٢رمضان سنة ٣٢٩) ولقيه الوزير والقضاة والكتاب وأعيان الناس فأنفذ إليه المتقى يهنئه بسلامته. ولم يتم له ما أراده من التأمير لأن الأتراك والديالمة اختلفوا عليه ففارق بغداد بعد أن أقام بها(٢٤يوماً) وحينئذ تقدم على الجند كورتكين الديلمى فسماه المتقى أمير الأمراء وخلع عليه. وكانت مدته مضطربة لأن عامة البغداديين تأذوا من الديلم فلم ينكر كورتكين على جنده ما فعلوه لذلك حصلت وقائع بين العامة والديلم ولما رأى المتقى أن كورتكين ليس عنده من المنعة ما يزيل به الاضطراب أرسل إلى ابن رائق وهوبالشام يطلب إليه الرجوع إلى بغداد ليكون أمير الأمراء فعاد. أما كورتكين فإنه خرج إليه وقابله بعكبراء فوقعت الحرب بينهما عدة أيام وفى (٢١ذى الحجة) سار ابن رائق بجيشه ليلاً فأصبح ببغداد وقابل المتقى: أما كورتكين فإنه لما أحس فى الصباح بمسير ابن رائق تبعه إلى بغداد وكانت عليه الهزيمة حتى لاقته جنود ابن رائق فاختفى وأخذ ابن رائق من استأمن إليه من الديلم فقتلهم وكانوا نحو(٤٠٠) وحينئذ خلع المتقى على ابن رائق وسماه أمير الأمراء.

تجددت أطماع البريدى لما علم بضعف الديلم والأتراك بسبب ما قتل منهم ابن رائق فأرسل جنداً فى الدجلة للاستيلاء على بغداد ولم ير مقاومة شديدة فاستولى عليها وهرب المتقى وابنه وابن رائق إلى الموصل أما أصحاب البريدى فإنهم فعلوا ببغداد فعالاً قبيحة قتلوا من وجدوه فى دار الخليفة من الحاشية ونهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب فى بغداد ليلاً ونهاراً وكبسوا الدور وأخرجوا أهلها منها حتى عظم الأمر وغلت أسعار الحنطة والشعير وأصناف الحبوب وكان ذلك كله سبباً لوقوع الفتن والاضطراب وفى آخر شعبان زاد البلاء على الناس فكبسوا منازلهم ليلاً ونهاراً واستتر أكثر العمال لعظيم ما طولبوا به مما ليس فى السواد وعلى الجملة فإن هذه الفترة ببغداد لم ير أهلها مثل ما حصل فيها من الشدة.

طلب المتقى من ناصر الدولة بن حمدان أن يعينه على البريدى فأرسل أخاه سيف الدولة لنصرته فلقيه هو وابن رائق بتكريت فرجع معهما إلى الموصل وهناك جاء ناصر الدولة واغتال ابن رائق لأنه يريد أن يحل محله فى إمرة الأمراء وقد كان ذلك فإن المتقى خلع عليه وسماه أمير الأمراء فى أول شعبان (سنة ٣٣٠) وخلع على أخيه أبى الحسن على ولقبه ذلك اليوم بسيف الدولة.

بعد ذلك تجهز ناصر الدولة وسار إلى بغداد معه المتقى ولما قاربها هرب عنها أبوالحسين

ابن البريدى وسار إلى واسط بعد أن أقام ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ودخل المتقى بغداد ومعه بنوحمدان فى جيوش كثيرة.

ثم خرج بنوحمدان يريدون واسط لأخذها من البريدى فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدى فالتقى به تحت المدائن بفرسخين وكانت مقاومة البريدى شديدة حتى أنه هزم سيف الدولة ومن معه فعاد إلى المدائن فقواهم ناصر الدولة بجنود أخرى فعادوا فقاتلوا أبا الحسين وهزموه ولكن سيف الدولة لم يتبعه إلى واسط لما فى أصحابه من الوهن والجراح ولما اندملت جراحهم وقووا سار سيف الدولة إلى واسط فأخذها وانحدر أبوالحسين إلى البصرة وأقام سيف الدولة بواسط وكان يريد المسير إلى البصرة فلم يمكنه لقلة المال عنده فكتب إلى أخيه فلم يسعفه فحصل بين الأخوين وحشة ووقع سيف الدولة فى أخيه ناصر الدولة وكان القواد الذين معه الأتراك قد قلت عندهم هيبته لقلة المال فسار بنوبويه وكبسوه ليلاً فهرب وترك معسكره ولما علم ناصر الدولة بالخبر سار عن بغداد إلى الموصل وترك إمارة الأمراء بعد أن أقام فيها ثلاثة عشرة شهراً وخمسة أيام.

اختار المتقى بعد رحيل ناصر الدولة لإمارة الأمراء أكبر قواد الديلم واسمه توزون ولم يكن عنده شئ من حسن السياسة فاستوحش منه المتقى وخافه على نفسه فرأى أن يسير إلى الموصل مستعيناً بالحمدانيين فبارح بغداد إليها ولما بلغ ذلك توزون تبعه حتى وصل تكريت وهناك التقى بسيف الدولة فقاتله وهزمه مرتين ثم استولى على الموصل فسار عنها بنوحمدان والمتقى معهم إلى نصيبين. ثم ترددت الرسل بين توزون من جهة وبين الحمدانيين والمتقى من جهة على الصلح فتم على أن يضمن ناصر الدولة ما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف وستمائة ألف درهم وعاد توزون إلى بغداد ولم يعد معه المتقى بل استمر فى الموصل. ثم أرسل إلى توزون يطلب منه أن يعود إلى بغداد فأظهر توزون الرغبة فى ذلك وحلف للمتقى أنه لا يغدر به فاغتر المتقى بتلك اليمين. وسار إلى بغداد فلقيه توزون تحت هيت ولما رآه قبل له الأرض وقال: هأنذا قد وفيت بيمينى، والطاعة لك ثم وكل به وبعد ذلك سمله وخلعه وبذلك انتهت خلافة المتقى.

٢٢
المستكفى

هو أبو القاسم عبد الله المستكفى بالله بن المكتفى بن المعتضد.

لما قبض توزون على المتقى أحضر المستكفى إليه إلى السندية وبايعه هووعامة الناس.

الخلافة العباسية تحت سلطان آل بويه:

يبتدئ هذا الدور من (سنة ٣٣٤) إلى (سنة ٤٤٧) تولى الخلافة فيه خمسة خلفاء وهم المستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم.

تاريخ هذا الدور يرتبط بتاريخ آل بويه الديلميين الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيقى والسلطان الفعلى فى العراق لذلك أردنا أن نسوق فصلاً نبين فيه أحوال الديلم وكيف تصرفت بهم الأحوال إلى أن وصلوا إلى ذروة العظمة باستيلائهم على بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

بلاد الديلم أو بلاد جيلان واقعة فى الجنوب الغربى من شاطئ بحر الخزر سهلها للجيل وجبالها للديلم وقصبتها روزبار.

كانت فى القديم إحدى الولايات الفارسية إلا أن أهلها لم يكونوا من العنصر الفارسى بل عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالمة أوالجيل. ولما أذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالانسياح فى بلاد العجم كانت بلاد الديلم مما فتحه المسلمون واستمر الديلم خاضعين للحكم الإسلامى مع بقائهم على وثنيتهم ولم يكن استيلاء المسلمين عليهم مما ينقص من شجاعتهم أويفقدهم جنسيتهم. وكانت تجاورهم بلاد طبرستان وأكثر أهلها دانوا بالإسلام وكان بين الديالمة والطبريين سلم وموادعة.

على هذا كان الحال فى صدر الدولة العباسية فلا الديالمة تحدثهم أنفسهم بالخروج إلى بلاد المسلمين ولا المسلمون يحدثون أنفسهم بالتوغل فى بلادهم حتى كانت حادثة إقطاع

المستعين محمد بن طاهر تلك القطائع التى يقرب بعضها من ثغور طبرستان وأراد رسول ابن طاهر أن يستلمها ومعها الأرض التى كانت مرافق لأهل تلك النواحى فامتنع من ذلك أهل طبرستان وأظهروا العصيان لمحمد بن طاهر ورأوا أن ذلك لا يتم إلا أن يكون على رأسهم رجل يدينون بطاعته فاتفقوا على الحسن بن زيد الذى قدمنا حديثه فى خلافة المستعين وكان مقيماً بالرى فراسلوه فأقبل إليهم فبايعوه وطلبوا من الديلم أن يساعدوهم على عمال ابن طاهر فبذلوا لهم ما طلبوا من المساعدة لإساءة كانت من عمال ابن طاهر إليهم. استولت هذه القوة على مدن طبرستان ثم الرى وجرجان ولم يزل الحسن مدبر أمرهم حتى مات (سنة ٢٧١) ثم ولى أخوه محمد بن زيد وكانت مدته مضطربة حتى قتل (سنة٢٨٧) وكان وجود الحسن بن زيد وأخيه فى تلك البلاد سبباً لمواصلة أهل الديلم وشيوع الدعوة الإسلامية بينهم.

بعد ذلك دخل بلاد الديلم الحسن بن علىّ الملقب بالأطروش وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ويقتصر منهم على العشر ويدفع عنهم عدوهم فأسلم منهم خلق كثير واجتمعوا عليه وبنى فى بلادهم المساجد. وكان لآل سامان بإزائهم ثغور مثل قزوين وسالوس وغيرهما وكان بمدينة سالوس حصن منيع فهدمه الحسن لما أسلم الديلم والجيل - ثم إنه جعل يدعوهم إلى الخروج معه إلى طبرستان فلا يجيبونه لإحسان عبد الله بن محمد بن نوح الذى كان أميراً على تلك الجهات من قبل آل سامان فاتفق أن أحمد السامانى عزل عبد الله وولى بدله آخر اسمه سلام فلم يحسن سياسة أهلها فهاج عليه الديلم فقاتلهم وهزمهم واستقال من الولاية فأعاد أحمد السامانى عبد الله بن محمد بن نوح فصلحت البلاد - ولما مات جاءها وال غير رسومه وأساء السيرة وقطع عن رؤساء الديلم ما كان يهديه إليهم ابن نوح فانتهز الحسن بن علىّ الفرصة وهيج الديلم عليه ودعاهم إلى الخروج معه فأجابوه وخرجوا معه حتى التقوا بأمير طبرستان فهزموه واستولوا على طبرستان وكان من معينيه ليلى بن النعمان وماكان ابن كالى الديلميان وكان من عظماء الديلم وقوادهم استولى على طبرستان وجرجان باسم الحسن بن على الأطروش. وممن عرف اسمه فى تلك الوقت الحسن بن القاسم الداعى العلوى وكان ختن الأطروش.

وتوفى الأطروش (سنة ٣٠٤) وكان يلقب بالناصر لله وكان له من الأولاد الحسين وأبوالقاسم والحسن وكان الحسن مغاضباً له فلم يوله شيئاً وولى ابنيه الآخرين فكنت طبرستان فى أيديهم بمعونة الحسن بن القاسم الداعى.

وفى (سنة ٣٠٩) قتل ليلى بن النعمان أحد قواد الزيدية وكان يلى بلاد جرجان وكان

أولاد الأطروش يكاتبون المؤيد لدين الله المنتصر لآل رسول الله ﷺ ليلى بن النعمان وكان سبب قتله أنه سار إلى نيسابور بأمر الحسن بن القاسم يريد الاستيلاء عليها وكانت بيد السامانية فكان فى هذه الإغارة حتفه وانهزام جنوده ثم تقدمت جنود السامانية إلى جرجان وبها أبوالحسين بن الناصر فانهزم عنها إلى استراباذ ثم فارقها وقصد مدينة سارية وجعل على استراباذ ماكان ابن كالى وهوثانى القواد المشهورين من الديلم بعد ليلى بن النعمان فاجتمع إليه الديلم وقدموه وأمروه عليهم وكان على يديه إعادة جرجان من الجنود السامانية فأقام بها.

وكان من أصحاب ماكان قائد ديلمى اسمه أسفار بن شيرويه وكان سيئ الخلق والعشرة فأخرجه ماكان من عسكره فاتصل بأمير نيسابور للسامانية وهوبكر بن محمد بن اليسع فأكرمه بكر وسيره إلى جرجان ليأخذها من يد أبى الحسن ابن كالى أخى ما كان وكان أخوه قد ولاه عليها وذهب إلى طبرستان. وكان أبوالحسن قد اعتقل أبا علىّ بن الأطروش عنده فتمكن أبوعلى من الخلاص من هذا الاعتقال واغتال أبا الحسن أخا ماكان وأرسل إلى جماعة القواد يخبرهم بمقتله ففرحوا وبايعوا العلوى وألبسوه القلنسوة وكاتبوا أسفار بن شيرويه وعرفوه الحال واستقدموه إليهم فسار إلى جرجان وضبطها وجاءه ما كان يحاربه فهزمه أسفار وصادف أن مات أبوعلى بن الأطروش وصفت جرجان لأسفار وأسفار هذا هوثالث قواد الديلم. ولما تمكنت قدمه بجرجان أرسل لمرداويج بن زيار الجبلى يستدعيه فحضر عنده وجعله أمير الجيوش وأحسن إليه ثم قصدا طبرستان فاستوليا عليها فعلم بذلك الحسن بن القاسم الداعى وهوبالرى ومعه ما كان بن كالى فسار نحوطبرستان والتقى بأسفار عند سارية فانهزم الحسن وما كان ثم أدرك الحسن فقتل وبقتله صفت لأسفار طبرستان والرى وجرجان وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرج ودعا لصاحب خراسان وهوالسعيد بن نصر السامانى وأقام بسارية ثم استولى على قلعة الموت وهى قلعة على جبل شاهق فى حدود الديلم.

عظمت جيوش أسفار وجل قدره فتجبر وعصى على الأمير السعيد صاحب خراسان وأراد أن يجعل على رأسه تاجاً وينصب سرير ذهب للسلطنة ويحارب خليفة بغداد المقتدر بالله فسير إليه المقتدر جيشاً فحاربه أسفار وانتصر عليه ولما علم السعيد بذلك سار من بخارى حاضرة ملكه ليحارب أسفار ويأخذ بلاده فلما علم أسفار بوصول السعيد إلى نيسابور أدرك أنه لا يمكنه أن يقاومه فراسله فى الصلح واتفقا على شروط منها حمل الأموال والخطبة باسمه فى بلاده.

وبينما هو فى ذروة عزه قام عليه أكبر قواده مرداويج بن زيار وشق عصا طاعته واتحد مع سلار صاحب شميران وتحالفا وتعاقدا على التساعد على حرب أسفار. ومن حسن حظ مرداويج أن أكثر قواد أسفار كانوا ملوه لجبره وظلمه فسرعان ما أجابوا مرداويج حين أعلمهم بأمره وكانت نتيجة هذا الاتفاق أن قتل أسفار (سنة ٣١٦).

ملك البلاد مرداويج وأحبته الجنود لحسن سيرته واتسعت رقعة ملكه وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قواده وإذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفاً بالبعد عنه ولا يخاطبه أحد إلا الحجاب الذين رتبهم لذلك وخافه الناس خوفاً شديداً ودخلت فى حوزته طبرستان وجرجان واجتهد ما كان بن كالى أن يدافعه عنهم واستعان بكل وسيلة فلم يقدر وأقبلت الديلم إلى مرداويج من كل ناحية لبذله وإحسانه إلى جنده فعظمت جيوشه وكثرت عساكره فكثر الخراج عليه فلم يكفه ما فى يده فذهب إلى همذان واستولى عليها من يد جنود الخليفة وبذلك تم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها وبلغت عساكره إلى نواحى حلوان وهى أول حدود العراق.

ثم ملك بعد ذلك أصبهان والأهواز وأرسل إلى المقتدر رسولاً يقرر على نفسه مالاً على هذه البلاد كلها فأجابه المقتدر إلى ذلك وقوطع على مائتى ألف درهم كل سنة.

فى (سنة ٣٢٠) أرسل مرداويج إلى أخيه وشمكير وهوببلاد جيلان يستدعيه إليه فجاء واعتز به. والمؤرخ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى يؤكد فى كتابه الموسوم بالآثار الباقية عن القرون الخالية الذى ألفه باسم شمس المعالى قابوس ابن وشمكير أن هذه الأسرة من أصل شريف الطرفين فأما أحد الأصلين فوردانشاه الذى لا تجهل سيادته فى الجبل وأما الأصل الآخر فملوك الجبال الملقبون بأصفهبذية طبرستان والفرجوار جرشاهية وليس ينكر اعتزاء من كان منهم من أهل بيت الملك إلى ما يجمعهم والأكاسرة فى شعب واحد فإن خاله هو الأصفهبذ رستم بن قارن بن شيرويه بن رستم بن قارن بن شهريار بن شروين بن سرخاب بن شابور بن كياس بن قباذ والد أنوشروان.

ولما استقرت قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم كانوا من قواد ما كان بن كالى وفارقوه لما ضاقت بهم الحال وهم علىّ والحسن وأحمد أولاد بويه ساروا إلى مرداويج ومعهم جماعة من قواد ما كان. وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الأسرة البويهية التى امتلكت ناصية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الإسلامية وهى التى تكون الدور الثانى من أدوار الخلافة العباسية ولما ارتفع شأنهم ظهر لهم ذلك النسب العالى فقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى فى كتابه الذى سماه بالتاج أن بويه ينتهى نسبه إلى بهرام

جور الملك البيرونى السابق ذكره يرجح أن هذا النسب إنما ظهر لهم بعد ثبوت ملكهم وإلا فتلك الأمم ليست معروفة بحفظ الأنساب ولا مذكورة بتخليد ذلك ولا بأنها كانت تعرف ذلك منهم قبل انتقال الدولة إليهم مع أنه فيما سبق يرجح صحة نسب أخوال وشمكير ويسوقها نسقاً حتى يصل بها إلى قباذ ملك الفرس.

لما ورد أبناء بويه على مرداويج خلع على على والحسن وولى القواد الذين وصلوا معهما النواحى وولى علىّ بن بويه بلاد الكرج وكتب لهم بذلك العهود فساروا إلى الرى وبها وشمكير أخومرداويج ومعه وزير مرداويج الحسين بن محمد الملقب بالعميد. صادف أن كان مع ابن بويه بغلة شهباء من أحسن ما يكون فعرضها للبيع فبلغ ثمنها (٢٠٠)دينار فعرضت على العميد فأخذها ونقد ثمنها فلما حمل إلى على أخذ منه عشرة دنانير ورد الباقى ومعه هدية جميلة فكان ذلك بدء الصلة بين العميد وآل بويه.

ندم مرداويج بعد انفصال هؤلاء القواد على توليتهم فكتب إلى أخيه وشمكير وإلى العميد يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير إلى أعمالهم وإن كان بعضهم قد خرج يرده وكانت الكتب تصل إلى العميد قبل وشمكير فيقرؤها ثم يعرضها على وشمكير فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ إلى علىّ بن بويه يأمره بالمسير من ساعته إلى عمله ويطوى المنازل فسار من ساعته ولما أصبح العميد عرض الكتاب على وشمكير فمنع سائر القواد من الخروج من الرى واستعاد التوقيعات التى كانت معهم وأراد أن ينفذ خلف علىّ بن بويه من يرده فقال العميد: إنه لا يرجع طوعاً وربما قاتل من يقصده ويخرج من طاعتنا فتركه. وصل على الكرج وأحسن إلى الناس ولطف بعمال البلاد فكتبوا إلى مرداويج يشكرونه ويصفون ضبطه للبلد وحسن سياسته. وافتتح قاعات كانت للخرمية وظفر منها بذخائر كثيرة صرفها جميعاً إلى استمالة الرجال والصلات والهبات فشاع ذكره وقصده الناس وأحبوه. ولما كان مرداويج بالرى أطلق مالاً لجماعة من قواده على الكرج فاستمالهم علىّ بن بويه ووصلهم وأحسن إليهم حتى مالوا إليه وأحبوا طاعته وبلغ ذلك مردوايج فاستوحش وندم على إنفاذ أولئك القواد فكتب إليهم وإلى على يستدعيهم إليه وتلطف بهم ودافعه علىّ واشتغل بأخذ العهود عليهم وخوفهم سطوة مرداويج فأجابوه جميعاً فجئ علىّ مال الكرج واستأمن إليه سيرازاد وهومن أعيان قواد الديلم فقويت نفسه وسار بمن معه على أصبهان فاستولى عليها من يد المظفر بن ياقوت. بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه وبلغ مرداويج فأقلقه وخاف على ما بيده من البلاد واغتم لذلك غماً شديداً ولكن رأى أن يحتال فراسل علياً يعاتبه ويستميله ويطلب إليه أن يظهر طاعته حتى يمده بالعساكر الكثيرة ليفتح بها البلاد ولم يكلفه سوى الخطبة له فى البلاد التى يستولى عليها وجهز بعقب تلك الرسالة أخاه

وشمكير فى جيش كثيف ليكبس علياً وهومطمئن إلى الرسالة المتقدمة فعلم بذلك فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهرين وتوجه إلى أرجان وبها أبوبكر بن ياقوت فانهزم عنه أبوبكر من غير قتل وقصد رامهرمز فاستولى علىّ على أرجان فى ذى الحجة (سنة ٣١٩) فاستخرج منها أموالاً قوى بها. جاءته وهو بها كتب من أبى طالب زيد بن على النوبندجانى يستدعيه ويشير عليه بالمسير إلى شيراز ويهون عليه أمر ياقوت ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الأموال وكثرة مؤنته ومؤنة أصحابه وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجبنهم فتردد علىّ أولاً ثم عزم على السير فسار نحوالنوبندجان فى ربيع الآخر (سنة ٣٢١)فلقى لها مقدمة ياقوت فهزمها ثم سار منها إلى اصطخر خوفاً أن يقع بين ياقوت ومرداويج لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه فقابله فى الطريق ياقوت بجيوشه فكان النصر لعلى وانهزم ياقوت هوومن معه وكان أحمد بن بويه ممن ظهر أثره فى ذلك اليوم وهوصبى لم تنبت لحيته وكان عمره (١٩سنة). وبعد هذا الانتصار عامل علىّ الأسرى أحسن معاملة وخيرهم بين المقام عنده واللحاق بياقوت فاختاروا المقام عنده فخلع عليهم وأحسن إليهم ثم سار حتى أتى شيراز قصبة فارس فاستولى عليها ونادى فى الناس بالأمان وبث العدل وأقام لهم شحنة تمنع ظلمهم واستولى على كثير من أموال ياقوت وودائعه فسهل عليه أمر استرضاء الجنود والتودد إليهم فأحبوه وثبت ملكه ثم أرسل إلى خليفة بغداد الراضى بالله وإلى وزيره ابن مقلة يعرفهما أنه على الطاعة ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد ويبذل ألف ألف درهم فأجيب إلى ذلك وأنفذت إليه الخلع واللواء.

ولما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد وسار إلى أصبهان للتدبير عليه وبها أخوه وشمكير فرأى أن ينفذ عسكراً إلى الأهواز للاستيلاء عليها ويسد الطريق على ابن بويه إذا قصده فلا يبقى له طريق إلى الخليفة ويقصده هومن ناحية أصبهان ويقصده عسكره من ناحية الأهواز فلا يثبت لهم. فسارت عساكر مرداويج حتى بلغت أيذج فى رمضان ثم استولت على رامهرمز فى شوال (سنة ٣٢٢) ثم استولت على الأهواز وأجلت عنها ياقوت. بلغ ابن بويه أن مرادويج استولى على الأهواز فكان نائبة يستميله ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج ففعل واستقر الأمر بينهما على أن ابن بويه يخطب لمرداويج وأهدى له ابن بويه هدية جميلة وأنفذ له أخاه الحسن رهينة.

من حسن حظ ابن بويه أن مرادويج قتل بعد ذلك (سنة ٣٢٣) تمردت عليه جنوده الأتراك لأنه كان كثير الإساءة إليهم ويفضل عليهم الديالمة الذين هم من عنصره فاتفقوا على اغتياله ففعلوا وكان رؤساء المتألبين عليه من الأتراك بجكم وتوزون وهما اللذان ذكر أنهما توليا إمرة الأمراء بالعراق وياروق وابن بغرا ومحمد بن بنال الترجمان. ولما تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش فأما الأتراك فافترقوا فرقتين فرقة منهم لحقت بابن بويه وفرقة سارت

نحوالجبل مع بجكم. وأما الديلم فذهبوا إلى وشمكير بالرى وأطاعوه. وكان من نتيجة قتل مرداويج أن يخلص الحسن بن بويه الذى كان رهينة عنده وسار إلى أخيه بفارس.

صارت القوى الكبرى ببلاد العجم ثلاثاً قوة علىّ بن بويه بفارس وقوة وشمكير بن شيرويه بالرى وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر. أما ياقوت الذى كان بالأهواز فضعفت قوته جداً حتى لم تعد قادرة على حفظ ما معها فضلاً عن مصادمة غيرها أما القوة الحية النامية فهى قوة ابن بويه. سير أخاه الحسن إلى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على أصبهان وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير وبقى ووشمكير يتنازعان هذه البلاد وهى أصبهان وهمذان وقم وقاشان وكرج والرى وكنكور وقزوين وغيرها حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة وانجلى عنها نواب وشمكير.

خطر ببال علىّ بن بويه أن يمد سلطانه إلى الأهواز والعراق لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد وكان هومشغولاً بإدارة إقليم فارس وأخوه الحسن مشغولاً ببلاد الجبل وأخوهما الأصغر لا شغل له فسيره على الأهواز فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين بجكم الرائقى وانهزم بجكم إلى واسط.

كان من أهم مقاصد ابن بويه المسير إلى العراق بعد الاستيلاء على واسط فصار أحمد بن بويه يسير إلى واسط ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون إليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصلها فى (١١جمادى الأولى سنة ٣٣٤) والخليفة بها هوالمكتفى بالله فقابله واحتفى به وبايعه أحمد وحلف كل منهما لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة وفى هذا اليوم شرف الخليفة بنى بويه بالألقاب فلقب علياً صاحب بلاد فارس عماد الدولة وهوأكبرهم ولقب الحسن صاحب الرى والجبل ركن الدولة ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود.

وهذا اليوم هوتاريخ الدور الثانى للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقى من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيساً دينياً لا أمر له ولا شئ ولا وزير وإنما له كاتب يدبر إقطاعاته وإخراجاته لا غير وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من شاء.

وكان يخطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضاً عن بنى العباس ويوليها علوياً لأن القوم كانوا شيعة زيدية لأن التعاليم الإسلامية وصلت إليهم على يد الحسن بن زيد ثم على يد الحسن الأطروش وكلاهما زيدى فكانوا يعتقدون أن بنى العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل وقال له: إنك اليوم مع

الخليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولوأمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلوأمرهم بقتلك لفعلوا؛ فأعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس وانفرد هوبالسلطان ولم يبق بيد الخليفة شئ البتة إلا أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته.

كان السلطان فى ذلك الوقت ببلاد الأندلس لبنى أمية والقائم بالأمر منهم عبد الرحمن الناصر وقد لقب بأمير المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد إلى ما وصلت إليه من الضعف أمام الأتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد.

وببلاد إفريقية للعبيديين الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغالبة والأدارسة والقائم بالأمر منهم إسماعيل المنصور وهوثانى خلفائهم وكان يلقب بأمير المؤمنين.

وبمصر والشام للأخشيديين والأمير منهم أنوجور بن محمد الأخشيد وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسى.

وبحلب والثغور لسيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان الشيبانى ويخطب باسم الخليفة العباسى.

وبالجزيرة الفراتية لناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الشيبانى يخطب باسم الخليفة العباسى.

وبالعراق للديلم والسلطان منهم معز الدولة أحمد بن بويه ويخطب على منابره باسم الخليفة العباسى ثم باسم معز الدولة من بعده.

وبعمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة للقرامطة ويخطبون باسم المهدى.

وبفارس والأهواز لعلىّ بن بويه الملقب عماد الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسى وجرجان وطبرستان يتنازعهما وشمكير بن شيرويه وركن الدولة وآل سامان.

وبخراسان وما وراء النهر لآل سامان ومقر ملكهم مدينة بخارة ويخطبون على منابرهم باسم الخليفة العباسى.

هذه هى القوى الكبرى التى كانت لأسر ملوكية فى الرقعة الإسلامية فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقاً غريباً بعد أن كان متماسك الأعضاء يرجع كله إلى حاضرة كبرى تجمع شتاته. ومما يستحق النظر أن العنصر العربى لم يبق له شئ من الملك إلا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة فإنهما من عنصر عربى ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيه

يليانه من البـلاد لقواد من الأتراك ولم يكن لهـما استقـلال سياسى بل كـان أمر بنى بويه فوقهما وكانا يذكران اسم معز الدولة فى الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسى.

لم يمكث المستكفى فى الخلافـة بعد استيلاء معز الدولة إلا أربعـين يوماً وخلع لأن معز الدولة اتهمه بالتدبيـر عليهم فصمم على خلعه، ففى الثانى والعـشرين من جمادى الآخرة (سنة ٣٣٤) حضر الخليفة وحضر الناس ورسول صـاحب خراسان ثم حضر اثنان من نقباء الديلم يصيحـان فتناولا يد المستكفى فظن أنهـما يريدان تقبيلها فـمدها إليهمـا فجذباه عن سريره وجعلا عمامته فى حـلقه ونهض معز الدولة واضطربت الناس ونهبت الأموال وساق الديلميان المستكفى ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شئ وقبض على أبى أحـمد الشيـرازى كاتب المستكفـى وكانت مدة المسـتكفى سنة واحدة وأربعة أشهر.

٢٣
المطيـــع

هو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد فهوابن عم المستكفى بويع بالخلافة ثانى عشر جمادى الأخرة (سنة ٣٣٤) (٢٩يناير سنة ٩٤٦) ولم يزل خـليفة إلى أن خلع فى منتصف ذى القعدة (سنة ٣٦٣) (٧أغـسطس سنة ٩٧٤) فكانت مدته (٢٩سنة) وخمسة أشـهر غير أيام ولم يكن له من الأمر شئ والنفوذ فى حياته للملوك من آل بويه وهم:

أولاً: معز الدولة: وهوأحمد بن بويه فاتح العراق وكان أصغر إخوته وكان سلطان معز الدولة بالعراق مبدأ خرابه بعد أن كان جنة الدنيا فإنه لما استقرت قدمه فيه شغب الجند عليه وأسمعـوه المكروه فضمن لهم أرزاقـهم فى مدة ذكرها لهم فاضطر إلى ضـبط الناس وأخذ الأموال من غيـر وجوهها وأقطع قواده وأصحابه بالقـرى جميعهـا التى للسلطان وأصحاب الأمـلاك فبطل لذلك أكـثر الدواوين وزالت أيـدى العمـال وكانت البـلاد قد خـربت من الاختلاف وفى الغلاء والنهب فأخذ القواد القرى وزادت عمارتها معهم وتوفر دخلها بسبب الجاه فلم يمكن معز الدولة العود عليهم بذلك وأما الأتباع فإن الذى أخذوه زاد خراباً فردوه وطلبوا العوض عنه فعـوضوا وترك الأجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسـوية طرقها فهلكت وبطل الكثير منهـا وأخذ غلمان المقطعين فى الظلم وتحصيل العاجل فـكان أحدهم إذا عجز الحاصل تممـه بمصادراته. ثم أن معـز الدولة قد فوض حـماية كل مـوضع إلى بعض أكابر أصحابه فـاتخذه مسكناً فاجتمع إليـه الإخوة وصار القواد يدَّعون الخسـارة فى الحاصل فلا يقدر وزير ولا غـيره على تحقيق ذلك فـإن اعترضـه معترض صـاروا أعداء له فتركـوا وما يريدون، فازداد طمـعهم ولم يقفوا عند غـاية فتعـذر على معز الدولة جمع ذخـيرة تكون للنوائب والحـوادث وأكثـر من إعطائه غلمانه الأتراك والزيادة لهم فـى الأقطاع فحسدهم الديلم وتولد من ذلك الوحـشة والمنافرة ولم تمـض سنة على بغداد حتى اشـتد الغـلاء بها فـأكل الناس الميتـة والسنانير والكـلاب وأكل الناس خروب الشـوك وكانوا يسلقـون حبه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام فى أحـشائهم وكثر فيهم الموت حـتى عجز الناس عن

دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحـومهم وانحدر كـثير من أهل بغـداد إلى البصرة فـمات أكثرهم فى الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز.

فكان نظام الإقطاعـات أول فساد بالعـراق، لأنه أضعف همـة الفلاحين الذين يقـومون بزرع الأرض وإصلاحها وتنيمتها.

السبب الثانـى من أسباب الفساد اخـتلافان: الأول اختلاف عنصـرى بين الأجناد فإنهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك وبين العنصرين غيرة ومنافـسات فكان بينهما فى أكثر الأحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس حيث تقف حركـة التجارة لخوف الناس على ما بيدهم من المال وقـد كادت هذه المـنازعات تؤدى (سنة ٣٣٥) إلـى خلع معـز الدولة بيـد الديلم أنفسهـم فإنهم لما رأوا تقدم الأتراك ثاروا به ومقـدمهم قائد منهم اسمـه روزبهان بن ونداد خورشيـد وساعده على ذلك أخوه ولكن معـز الدولة انتصر عليه بقـوة الأتراك فاصطنعهم عون الديلم وأمـر بتوبيخ الديلم والاستطالة عليـهم ثم أطلق للأتراك إطلاقات، زائدة على واسط والبصـرة فساروا لقـبضهـا مدلين بما صنعـوا فأخربوا البـلاد ونهبوا الأمـوال وصار ضررهم أكبـر من نفعهم. وأما الاخـتلاف الثانى: فهـواختلاف دينى تأججت نـاره ببغداد نفسها وبما جاورها من بلاد فقد كـان أهل بغداد قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعـة يحترمون جـميع الصحابة ويفـضلون الشيخين أبا بكر وعمـر على سائرهم ولا يقدحـون فى معاوية ولا غـيره من سلف المسلمين فلمـا جاءت هذه الدولة وهى مـتشيـعة غالية: نما مذهـب الشيعة ببغداد ووجد له مـن قوة الحكومة أنصاراً فقد كتـب على مساجد بغداد (سنة٣٥١) ما صورته (لعن الله معاوية بن أبى سـفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها «فدكـا» ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جـده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى) والخليفة كان محكوماً عليه لا يقدر على المنع وأما معز الدولة فبأمره كان ذلك فلما كان الليل حكه بعض الناس فأراد معز الدولة إعادته فأشار عليـه وزيره أبومحمـد المهلبى بأن يكتب مكان مـا محى لعن الله الظالمين لآل رسـول الله ﷺ ولا يذكر أحداً فى اللعن إلا معاوية ففعل ذلك.

وفى (سنة ٣٥٢) أمر مـعز الدولة عـاشر المحرم أن يغلقـوا دكاكينهـم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا قباباً عملوها بالمسوح وأن يخرج النساء منشورات الشعور مـسودات الوجوه قد شققن ثيـابهن يدرن فى البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن علىّ رضى الله عنهـما ففعل الناس ذلك ولم يكن للسّنيـة قدرة على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم.

وفى ثامن عـشر ذى الحـجة أمـر معـز الدولة بإظهار الزيـنة فى البلد وأشعلت النيـران

بمجلس الشرطة وأظهر الفرح وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالى الأعياد فعل ذلك احتفالاً بعيد الغدير يعنى غدير خم وهوالموضع الذى يروى أن رسول الله ﷺ قال فيه عن علىّ «من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وضربت الدبادب والبوقات وكان يوماً مشهوداً.

وبهذا الانقسام صارت بغداد وبلاد فارس والرى ميداناً للاضطرابات المتكررة بين العامة والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر. وهوالأكثر عدداً ومن المعلوم أن جميع العداوات يمكن تلافيها فيهون أمرها ما عدا ما منشؤه الدين منها وأعظمه شدة ما كان بين فرقتين من دين واحد فإنها يشتد توهجها إذا وجدت حاضاً يحركها لغايته ولا أشد من يد السلطان فى تحريكها فإذا لعبت فيها أصبعه ماج الناس وهاجوا وأثر ذلك فى الأحوال العامة أسوأ تأثير ولا يزول ذلك إلا بعد أن ينغرس فى نفوس الناس حرية الدين والعقيدة ولم يكن ثَمَّ سبيلٍ إلى ذلك لأن إحدى الفرقتين تحترم شخصاً والأخرى تلعنه فأنىً تتفقان.

ومع ما أدت إليه سياسة معز الدولة من هذا الفساد كانت هناك أمور أخرى تشغل باله فى شمالى بلاده وجنوبها أما فى الشمال فناصر الدولة بن حمدان بالموصل وكان الرجلان يتنازعان السلطان وكل يريد الإغارة على ما بيد الآخر.

ففى السنة الأولى لولاية معز الدولة جاء ناصر الدولة واستولى على الجانب الشرقى من بغداد وكاد أمر معز الدولة يضمحل لولا أن استعمل الحيلة التى خدع بها ناصر الدولة وهزمه فجاء الديلم ونهبوا أموال الناس فكان مقدار ما غنموه من أموال الناس المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف ألف دينار وقتلوا كثيراً ممن اتهموه. واضطر ناصر الدولة يطلب معز الدولة الصلح على مال يؤديه عما تحت يده من البلاد، فقبل ذلك معز الدولة.

وفى (سنة ٣٣٧) سار معز الدولة إلى الموصل مريداً الاستيلاء عليها فسار عنه ناصر الدولة إلى نصيبين فدخلها معز الدولة وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا فكرهه الناس وكان من غرضه أن يستولى على جميع ما بيد ناصر الدولة من البلاد ولكن بلغه من أخيه ركن الدولة أن جيوش السامانية خرجت تريد الاستيلاء على جرجان والرى على أن يؤدى ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام فى كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم ويخطب فى بلاده لأولاد بويه الثلاثة وإذا ذاك رجع معز الدولة إلى بغداد.

ولما قامت فتنة رزبهان الديلمى على معز الدولة أراد ناصر الدولة إعادة الكرة على بغداد فسير أحد أولاده فى جيش لكنه لم يتمكن ممن أراد فلما انتصر معز الدولة على خصمه

ولى وجهـه شطر الموصل للانتقام من ناصـر الدولة فراسله ناصر الـدولة الصلح على مال ضمنه فـقبل ولكن ناصر الدولة لم يف بما ضمن فـسار إليه معـز الدولة (سنة ٣٤٧) فلما قارب الموصل سار عنهـا ناصر الدولة إلى نصيبين فـاستولى عليها مـعز الدولة ثم سار إلى نصيبين ففارقها ناصر الدولة إلى ميافارقين فاستولى عليها معز الدولة.

ولما رأى ناصر الدولة ما صـار إليه سار إلى أخيه سيف الدولة بحلب فلقـيه أخوه وبالغ فى إكرامه وراسل معز الدولة فى طلب الصلح فامـتنع معز الدولة من تضمين ناصر الدولة لإخلافه مـرة بعد أخرى فضـمن سيف الدولة البلاد منه بألفى ألف درهم وتسـعمائة ألف درهم وكان ذلك فى محرم (سنة ٣٤٨).

إنما أجاب مـعز الدولة إلى الصلح لأنه ضـاقت عليه الأمـوال وتقاعد الـناس عن حمل الخراج واحـتجوا بأنهم لا يصلون إلى غـلاتهم وطلبوا الحمـاية من العرب أصحـاب ناصر الدولة فـاضطر بسبب ذلك الانحـدار وأجاب إلـى الصلح وانحدر إلى بغـداد وعاد ناصـر الدولة إلى الموصل ومع كل هذا لم تهدأ الحـروب بين هذين الطرفين فاشتغـلا بها عن كل مصلحة وكان ذلك سبباً فيما يأتى ذكره من الضعف أمام الروم.

لم يكن هذا وحده الذى يشغل مـعز الدولة بل كان له فى الجنوب أيضاً مشـاغل كبرى فقد كان بالبصـرة أبوالقاسم البريدى أميراً عليها باسم معـز الدولة ولكن نفسه كانت تطمع للاستـقلال بها وألا يرسل إلى مـعز الدولة خراجاً. فكان مـعز الدولة يرسل إليه الجـيوش والبريدى يرسل مثلها فيحصل القتال بين الطرفين.

وفى (سنة ٣٣٦) عزم معز الـدولة أن يسير إلى البريدى فسار إليه سـالكاً البرية فأرسل إليه القرامطة ينكرون عـليه مسيره إلى البرية بـغير إذنهم فلم يجبهم على كـتابهم وقال من هؤلاء حتى يستأمروا، ولما وصل إلى الدرهمية استـأمن إليه كثير من عـسكر البريدى وهرب هو إلى هجر والتجأ إلى القرامطة وملك معز الدولة البصرة.

وكانت نتيـجة ما فعله مع القـرامطة والاستهانة بهم أن جـاءوا إلى البصرة (سنة ٣٤١) ومعهم أمير عمان من البحر ولكن البصرة قاومتهم بفضل الوزير المهلبى وزير معز الدولة.

وفوق هذا فقـد حدثت قوة جديدة زادت متاعـبه ومشاغله وهى قوة عـمران بن شاهين وكان فى أول الأمر جابياً فجبـا جبايات ثم هرب إلى البطيحة وهى أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة فاتفق فى أيام كسرى أبرويز أن زادت دجلة زيادة مفرطة وزاد الفرات أيضـاً بخلاف العادة فعجز عن سـدها فتبطح الماء فى تلك الديار والعمارات والمزارع فطرد أهلها عنها فلما نقص الماء وأراد العمارة أدركته المنية ولم يفعل من

بعده شيئاً ثم جاء الإسلام فاشتغلوا بالحروب والجلاء ولم يكن للمسلمين إذ ذاك دراية بعمارة الأرضين فلما ألقت الحروب أوزارها واستقرت الدولة الإسلامية فى قرارها استفحل أمر البطائح وفسدت مواضع البثوق وتغلب الماء على النواحى ودخلها العمال بالسفن فرأوا فيها مواضع عالية لم يصل الماء إليها فبنوا فيها قرى وسكنها قوم وزرعوها الأرز. جاء عمران إلى هذه البطائح خوفاً من السلطان وأقام بين القصب والآجام متحصناً بها واقتصر على ما يصيد من السمك وطيور الماء ثم صار يقطع الطريق على من يسلك البطيحة واجتمع إليه جماعة من الصيادين وجماعة من اللصوص فقوى بهم وحمى جانبه من السلطان فلما خاف أن يقبض استأمن إلى أبى القاسم البريدى فقلده حماية الجامدة ونواحى البطائح وما زال يجمع الرجال إلى أن كثر أصحابه وقوى واستعد بالسلاح واتخذ معاقل على التلول التى بالبطيحة وغلب على تلك النواحى فلما اشتد أمره سير معز الدولة جيشاً لمحاربته قائده وزيره أبو جعفر الصيمرى فانتصر أبوجعفر انتصاراً باهراً وكاد يأخذ عمران لولا أن شغل معز الدولة بوفاة أخيه الأكبر عماد الدولة فاضطر إلى أن يأمر وزيره بقصد شيراز لإصلاحها ففارق البطيحة وكان ذلك منفساً عن عمران فزاد قوة وجرأة فأنفذ إليه معز الدولة جيشاً ثانياً فكان نصيب هذا الجيش الفشل وغنم عمران ما كان فيه من السلاح فقوى وطمع أصحابه فى السلطان فصاروا إذا اجتاز بهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه البذرقة والخفارة فإن أعطاهم وإلا ضربوه وكان الجند لا بد لهم من العبور عليهم إلى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة وغيرها ثم انقطع الطريق إلى البصرة إلا على الظهر فشكا الناس ذلك إلى معز الدولة فكتب إلى وزيره المهلبى بالمسير إلى واسط وأمده بالجيوش فزحف إلى البطيحة وضيق على عمران فانتهى إلى المضايق التى لا يعرفها إلا هو وأصحابه فهجم عليهم المهلبى وكان عمران قد جعل الكمناء فى تلك المضايق فلما تقدم المهلبى خرج عليه وعلى أصحابه الكمناء ووضعوا فيهم السلاح فقتلوا وأغرقوا وأسروا وألقى المهلبى نفسه فى الماء فنجا سباحة وأسر عمران القواد والأكابر فاضطر معز الدولة إلى مصالحته وإطلاق من عنده من أهل عمران وإخوته فأطلق عمران من فى أسره من أصحاب معز الدولة وقلده معز الدولة البطائح فقوى واستفحل أمره وقد استمر ملك عمران بن شاهين بالبطيحة من (سنة ٣٢٩) إلى (سنة ٣٦٩) أى أربعين سنة كان فيها شجاً فى حلق بنى بويه لا يقرون منه على شئ وانتقل الملك منه إلى أعقابه ومواليهم إلى (سنة ٤٠٨) وهذا ثبتهم:

١ـ عمران بن شاهين	٣٢٩ ـ ٣٦٩
٢ ـ الحسن بن عمران	٣٦٩ ـ ٣٧٢
٣ ـ أبوالفرج بن عمران	٣٧٢ ـ ٣٧٣

٤ ـ أبوالمعالى بن الحسن بن عمران	٣٧٣ ـ ٣٧٣
٥ ـ المظفر بن على وزير عمران وابنه الحسن بالتغلب	٣٧٣ ـ ٣٧٦
٦ ـ مهذب الدولة أبوالحسن على بن نصر بن أخت المظفر	٣٧٦ ـ ٤٠٧
٧ ـ أبوالحسن بن مهذب الدولة	٤٠٧ ـ ٤٠٨
٨ ـ عبد الله بن نسبى بالتغلب	٤٠٨ ـ ٤٠٨

ثم صارت البطيحـة متغلباً لكثـير من الأقوياء يتلقاها أحدهم عن الآخـر بطريق التغلب والقوة إلى انتهاء الدولة السلجوقية فعادت إلى خلفاء بغداد.

لم يكن عهد مـعز الدولة ببغداد إلا شـراً كله من جراء الاختلافـات والحروب الداخلية والخراب وضعف هيبة السلطان. ولما أحس بقرب منيتـه وصى ولده بختيار بطاعة عمه ركن الدولة واستشـارته فى كل ما يفعل وبطاعة عـضد الدولة ابن عمه لأنه أكـبر منه سناً وأقوم بالسياسة. ثم أدركته منيته فى (١٣ربيع الآخر سنة ٣٥٦).

ومما حصل من حـوادث أهل بيته فى عـهد وفاة عـمه عمـاد الدولة علىّ بن بويه (سنة ٣٣٨) باصطخـر ولما لم يكن له ولد ذكـر طلب من أخيـه ركن الدولة أن يرسل إليـه ابنه فناخسرو الملقب عضد الدولة فأجابه فـولاه عهده ولما توفى قام عضد الدولة بأمر فارس من بعده وانتقلت إمرة الأمراء إلى أخيه ركن الدولة الحسن.

ثانياً عز الدولة بختـيار: وهو ابن معز الدولة أحمد بن بويه ولى العـراق بعد وفاة أبيه واستمر فى سلطانه إلى أن خلعه ابن عـمه عضد الدولة (سنة ٣٦٧) فكانت مدته (١١سنة) قضى منها سبع سنين فى خلافة الفضل المطيع وكانت البلاد فى سلطانه أسوأ حالاً منها فى سلطان أبيه فإنه اشتـغل باللهوواللعب وعشرة النسـاء والمغنيين وشـرع فى إيحاش كاتبى أبيه أبى الفضل العباس بن الحـسين وأبى الفرج محمد بن العباس مع أن أباه أوصـاه بتقريرهما لكفايتهما وأمانتهما وأوحش سـبكتكين أكبر القواد فلم يحضر داره ونفى كبار الديلم شرها إلى إقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم فاتفق أصاغرهم عليه وطلبوا الزيادات فاضطر إلى مرضاتهم واقـتدى بهم الأتراك فعملوا مثل ذلك ولم يتم لـه على سبكتكين ما أراد من اغتياله لاحتياطه واتفاق الأتراك معـه وخرج الديلم إلى الصحراء وطلبوا بختيار بإعادة من سقط منهم فأحتاج أن يجيبهم إلى مـا طلبوا وفعل الأتراك أيضا مثل فعلهم وفى أول عهده قبض أولاد ناصر الدولة بن حمدان ملك الموصل على أبيهم واستقر فى الأمر منهم ابنه أبو تغلب وضـمن البلاد من عـز الدولة بألف ألف ومـائتى ألف درهم كل سنة وكذلك مـات

سيف الدولة علىّ بن عبد الله بن حمدان صاحب حلب وقام مقامه ابنه أبوالمعالى شريف. ومات كافور الأخشيدى صاحب مصر (سنة ٣٥٦) وبموته اضطرب أمرها وتهيأت الفرصة للفاطميين. ومات وشمكير بن زيار وهويحارب ركن الدولة على بلاد الرى يريد استردادها منه وقام بأمر ملكه بعده ابنه بيستون بن وشمكير (سنة ٣٥٧) ومات أيضاً نقفور الذى ملك الروم وهدد الثغور الشامية والجزرية وأذاقها الوبال.

حال الثغور الإسلامية فى عهد المطيع:

كانت الثغور الإسلامية لذلك العهد فى حوزة سيف الدولة علىّ بن حمدان الذى كان متغلباً على حلب والعواصم وديار بكر فكان هوالذى يقوم بحمايتها ودفع العدو عنها. وكان قد ولى هذه الثغور مولاه نصراً فكانا يتناوبان الغزو ولكن لم تكن بهما الكفاية لمقاومة عدوكانت الخلافة الكبرى تمتد له وتهتم أعظم الاهتمام بأمره.

وفى (سنة ٣٣٧) سار سيف الدولة بنفسه إلى بلاد الروم فلقوه فاقتتلوا فكانت عليه وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرطوس. وفى السنة التى تليها دخل غازياً فكان له النصر أولاً ولكنه توغل فى البلاد فلما أراد العودة أخذ عليه الروم المضايق فهلك من كان معه من الجند أسراً وقتلاً واسترد الروم الغنائم والسبى وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة فى عدد يسير.

وفى (سنة ٣٤١) غزا سيف الدولة البلاد الرومية وكان له بها نصر عظيم وقتل فى تلك الواقعة قسطنطين بن الدمستق وقد عظم مقتله على أبيه فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور فسار إليه سيف الدولة فالتقوا عند الحدث فى شعبان فاشتد القتال وصبر الفريقان وكانت العاقبة للمسلمين فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم وأسر صهر الدمستق وابن بنته وكثير من بطارقته والدمستق عند الروم الرئيس الأكبر للجيش والبطارقة قواده.

وفى (سنة٣٤٥) سار سيف الدولة إلى بلاد الروم فى جيوشه حتى وصل إلى خرشنة وفتح عدة حصون ثم رجع إلى أذنة فأقام بها حتى جاءه رئيس طرطوس فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً ثم عاد إلى حلب فلما سمع الروم بما فعل جمعوا جموعهم وساروا إلى ميافارقين بديار ربيعة فأحرقوا سوادها ونهبوه وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا ولم يكتفوا بذلك بل ساروا فى البحر إلى طرطوس فأوقعوا بأهلها وقتلوا منهم (١٨٠٠رجل) وأحرقوا القرى التى حولها. ثم غزوها مرة ثانية (سنة ٣٤٧) وغزوا الرها ففعلوا بها الأفاعيل وعادوا سالمين لم يكلم أحد منهم كلما.

وفى (سنة ٣٤٩) سار سيف الدولة إلى بلاد الروم فى جمع عظيم فأثر فيها آثاراً شنيعة

وفتح عدة حصون وبلغ إلى خرشنة ثم إن الروم أخـذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرطوس إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهـرك فلا تقدر على العود منه والرأى أن ترجع معنا فلم يقبل منهم وكان معجباً برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأى غيره وعـاد من الدرب الذى دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنـائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف فى أصحابه فأتـوا عليهم قتلاً وأسراً وتخلص هو فى (٣٠٠رجل) بعد جهد وهذا من سوء رأى المستبدين.

وفى (سنة٣٥٠) ســار قفل عظيم من أنطاكـية إلى طرطوس ومـعهم صـاحب أنطاكـية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فـيه من المسلمين وقتل كثيراً منهم وأفلت صاحب أنطاكية وبه جراحات.

وفى (سنة٣٥١) غزا الدمـستق عين زربة وهى من أحصن مدن الثـغور فاستولـى عليها وقتل أهلها ولم يرحم شـيخاً ولا صبياً وأفلت قليل منهم هربوا على وجـوههم فماتوا فى الطرقات وفتح حول عين زربة (٥٤حصناً) للمسلمين بعضــها بالسيف وبعضها بالأمان وقد حصل أن حصنًا من هذه الحصـون التى فتحت بالأمان أمر أهله بالخروج منه فـتعرض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق من ذلك فأمـر بقتل جميع المسلمين وكانوا (٤٠٠ رجل) وقتل النسـاء والصبيـان ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق ولما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العـيد وخلف جيشه بقيسارية وكان صــاحب طرسوس قد خــرج فى (٤٠٠٠ رجل) فأوقع بهم الدمـــستق فقتل أكـثرهم وكان صاحب طرســوس قد قطع خطبة سيف الدولة فلما رأوا مــا أصابهم من الوهن أعاد أهل البلد خطبة سـيف الدولة وراسلوه بذلك وراسل أهل بغراس الدمــستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم.

وفى هذه السنة استولى ملك الروم على مدينة حلب حـاضرة ملك سيف الدولة فخرج عنها سـيف الدولة منهزمًا بعد أن قـتل أكثر أهل بيتـه وظفر الدمستق بأمـوال سيف الدولة وكنوزه وأسلحته وخرب داره التى كانت بظاهر حلب وسـبى من حلب وحدها بضعة عشر ألف صبى وصـبية وقتـل أكثر من ذلك ولم يبق مع الروم مـا يحملون عليه غنائمـهم أمر الدمـستق بإحـراق الباقى وأحـرق المساجـد وأقام بـحلب تسعـة أيام أراد الانصراف عنهـا فانصـرف عازمًـا على العودة. وظهـر بذلك غلبة الروم على المسلمـين إلا أن هؤلاء كانوا يغيرون أحيانًا بقيادة سيف الدولة أو أحد غلمانه ولكنهم لا يؤثرون عظيم أثر.

وفى (سنة ٣٥٣) حصر الدمستق مدينة المصيصة ولكن أهلها أحسنوا الدفاع عنها فأحرق

الروم رستاقهـا ورستاق أذنة وطرسوس لمساعدتهما أهل المصيصة، ثم إن إنسانًا وصل إلى الشام من خراسان ومعه خمسة آلاف متطوع للجهاد فأخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم فوجدوا الروم قد عادوا فتفرق الغزاة الخراسانية فى الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم إلى بلادهم. وبعد تراجع الأسعار عاد ملك الروم إلى طرسوس فحصرها وجرى بينه وبين أهلها حروب كثيرة وقاوم الطرسوسيون مقاومة يحمدون عليها فحصرهم الروم ثلاثة أشهر ولم يأتهم جند يردهم لا من قبل سيف الدولة ولا غيره حتى اشتد الغلاء على الروم وكثر بينهم الوباء فاضطروا إلى الرحيل.

وفى (سنة ٣٥٤) ألح نقفور على المصيصة بالحرب حتى فتحها عنوة ووضع السيف فى أهلها فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف عنها ونقل كل من بها إلى بلاد الروم وكانو نحوًا من مائتى ألف إنسان ثم سار إلى طرسوس فحصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبو الأمان فأجابهم إليه وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقى ففعلوا ذلك وساروا برًا وبحرًا وسير معهم من يحميهم حتى بلغو أنطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلاً لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنه وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا فى طاعة الملك وتنصر بعضهم. ومن غرائب العقول أن يجرى هذا كله بثغور الإسلام والخلاف والشقاق قد استحكم أمرهما بين ولاة المسلمين وأمرائهم.

وفى (سنة ٣٥٨) دخل ملك الروم الشام فلم يمنعه أحد فسار فى البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبى من فيها ثم قصد حمص وكان أهله قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهبًا وتخريبًا وملك ثمانية عشرة منبرًا فأما القرى فكثير لا يحصى وأقام فى بلاد الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف الروم أحيانًا وأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنعت العرب من قصدهم وصار للروم هيبة عظيمة فى قلوب المسلمين وقد عاد ملك الروم ذلك ومعه من السبى مائة ألف رأس ولم يأخذوا إلا الصبيان والصبايا والشبان فأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه.

وكانت هذه الحوادث الجلى سببًا لازدياد الهياج ببلاد خراسان وتنادى الناس بالنفير لحماية الثغور الإسلامية فتطوع منهم عشرون ألفًا عليهم قائد منهم وكان فيهم أبو بكر محمد بن إسماعيل بن القفال الشاشى أحد أئمة الشافعية بما وراء النهر. ومما يحزن أن هـ

الجيش المتطوع اضطـر إلى المرور ببلاد الجبل التى فى حـوزة ركن الدولة وهو ديلمى يكرهه أهل خراسـان ويعتـقدون أن الديلم هم سبب كل هـذه البلايا فحـصلت فتن بين المتطوعين والديلم وكانت نتيجتها أن حاربهم ركن الدولة وشتت شملهم.

وفى (سنة ٣٥٩) مَلِك الروم مدينة أنطاكية وهى حاضرة الثغـور وأضخمها وأخذوا منها سبيًا يزيد على عـشرين ألفًا كلهم شـباب وصـبيان وصـبايا وأخرجـوا المشايخ والعـجائز والأطفـال من البلد ليذهبـوا حيث يشـاؤون. ولما تم لهم ملك أنطاكيـة غزوا حلب وبـها قرعويه السـيفى غلام سيف الدولة وكـان أبو المعالى شريف بن سيف الدولة يحـاربه فلما سمع بخبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عن الروم أما هؤلاء فجاؤوا وحصروا البلد فتحصن قرعويه بقلعتها واسـتولى الروم على البلد ثم صالحهم قرعويه على مال يؤديه لهم وأعطاهم رهائن على ذلك.

وفى (سنة ٣٦١) أغار ملك الروم على الرها ونواحـيها وساروا فى الجزيـرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا كل ذلك بديار بكر ولم يكن من أبى تغلب بن حمدان فى ذلـك حركة ولا سعى فى دفعـه ولكنه حمل إليه مـالا كفه به عن نفسـه فسار جماعـة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنـصرين وقاموا فى الجوامع والمشـاهد واستنفروا المسلمين وذكـروا ما فـعله الروم من النهب والقتل والأسـر والسبى فـاستـعظم ذلك الناس وخوفهم أهل الجزيـرة من انفتاح الطريق وطمع الروم أنه لا مانع منهم فاجتـمع معهم أهل بغداد وقـصدوا دار الخليفـة وأرادوا الهجوم عليـه فمنعوا مـن ذلك وغلقت الأبواب وكان بختيـار حينئذ يتصيـد بنواحى الكوفة فخرج إليه وجـوه أهل بغداد مستغـيثين منكرين عليه اشتغـاله بالصيد وقتال عمـران بن شاهين (صاحب البطيحة) وهو مـسلم وترك جهاد الروم ومنعهم عن بلاد الإسلام حـتى توغلوها فوعدهم التجهز للغـزو وأرسل الحاجب سبكتكين يأمره بالتـجهز وأن يستنفـر العامة ففعل سـبكتكين ذلك فاجتـمع من العامة عدد كـثير لا يحصون كثـرة وكتب بختيار إلى أبى تغلب بن حمدان صـاحب الموصل يأمره بإعداد الميرة والعلوفات ويعـرفه عزمه علـى الغزو فأجابه بإظهـار السرور وإعداد مـا طلب منه ثم أنفذ بختـيار إلى المطيع لله يطلب منه مالا فـقال المطيع إن الغزو والنفـقة عليه وعلى غـيره من مصـالح المسلمين تلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى وتجـبى إلىَّ الأموال وأما إذا كـانت حالى هذه فلا يلزمنى شىء من ذلك وإنما يلـزم من البلاد فى يده وليس لى إلا الخطبة فإن شـئتم أن اعتزل فـعلت وترددت الرسائل بينهما حـتى وصل الحال إلى تهديد الخليفـة فبذل المطيع (٤٠٠ ألف درهم) فاحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وشاع بين الناس من أهل

العراق وخراسان وغـيرهم أن الخليفة قد صودر فلمـا قبض بختيار المال صرفـه فى مصالحه وبطل حديث الغزو.

وفى (سنة ٢٦٢) كانت واقـعة بين الدمسـتق وبين هبة الله بن ناصر الدولة بن حـمدان وكان الروم يريدون الاسـتيلاء على آمد فاسـتعد له أبو تغلب وأرسل أخاه هبـة الله فواقع الدمستق فى مـضيق لا تجول فيه الخيل والروم على غـير أهبة فانهزموا وأسـر الدمستق ولم يزل محبوسًـا إلى أن مرض (سنة ٣٦٣) فبالغ أبو تغلب فى علاجـه وجمع الأطباء له فلم ينفعه ذلك ومات.

هذه كانت الحـال فى خلافة المطيع اسـترد الروم فيهـا جميع الثـغور الإسلاميـة الكبرى وصارت لهم الهيبة فى قلوب المسلمين من أهل الجـزيرة والشام وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضًا وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون.

ومما حصل فى عهد المطيع من الحـوادث انتقال خلفاء الفاطميين إلى مصـر بعد استيلاء جوهر الصقلى عليها وذلك (سنة ٣٦١) فى عهد الخليفة المعز لدين الله معدة الفاطمى.

موت المطيع:

لم يكن للمطيع عمل ولا تاريخ يذكـر وقد فلج فأشار عليه سـبكتكين مقدم الأتراك أن يعتزل فلم يجد من الامتثال بدًا فخلع نفسه فى منتصف ذى القعدة (سنة ٣٦٣).

٢٤
الطـائــع

هو أبو الفضل عبـدالكريم الطائع لله بن المطيع بن المقتدر بن المتـعضد ولد (سنة ٣١٧) وبويع له بالخلافة بعد خلع أبيه المطيـع فى منتصف ذى القعدة (سنة ٣٦٣)، (١٨ أغسطس سنة ٩٧٤) واسـتمـر خليـفة إلى أن خلع فى (٢١ رجـب سنة ٣٨١) (أكتـوبر سنة ٩٩١) فكانت مدته (١٧ سنة) وثمانية أشهر وستة أيام.

كانت خلافة الطائع والسلطان بالعراق لخمسة من بنى بويه وهم:

أولاً: عز الدولة بختيار بن معز الدولة إلى (سنة ٣٦٧).

ثانيًا: عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه إلى (سنة ٣٧٢).

ثالثًا: صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة إلى (سنة ٣٧٦).

رابعًا: شرف الدولة أبو الفوارس سيرزيل بن عضد الدولة إلى (سنة ٣٧٩).

خامسًا: بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة.

ويعـاصره فى بلاد الأندلس الحكم بن عـبدالرحـمن الناصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦) وهشـام بن الحكم (٣٦٦ ـ ٣٩٩) وهو الذى كان يحجبه المنصور بن أبى عامر.

وبأفريقيـة وصقلية يوسف بن بلكين بن زيرى الصنهاجى نيـابة عن الفاطميين إلى (سنة ٣٧٣) وخلفه ابنه المنصور بن يوسف إلى (سنة ٣٨٦).

وبمصر والشام والحجاز المعز لدين الله معدة الفاطمى إلى (سنة ٣٦٥) وخلفه ابنه العزيز بالله إلى (سنة ٣٨٦).

وباليـمن من آل زياد أبو الجيش إسحـاق بن إبراهيم إلى (سنة ٣٧١) ثـم عبـدالله بن إسحاق إلى (سنة ٣٩٠).

وبصنعاء من آل يعفر عبدالله بن قحطان إلى (سنة ٣٨٧) وهو آخر أمراء هذه الدولة.

وبحلب سعد الدولة أبو المعالى شريف بن سيف الدولة إلى (سنة ٣٨١).

وبالموصل عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة إلى (سنة ٣٦٩) ثم أبو طامر إبراهيم وأبو عبدالله الحسين ابنا ناصر الدولة إلى (سنة ٣٨٠) وفيها انتهت الدولة الحمدانية بالموصل وقام على أثرها الدولة العقيلية. وأولها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلى أمير بنى عقيل.

وفى ديار بكر ابتدأت الدولة المروانية الكردية على أنقاض دولة بنى حمدان وأول هذه الدولة أبو على الحسين بن مروان الذى ابتدأ ملكه (سنة ٣٨٠).

وبخراسان وما وراء النهر الدولة السامانية وأميرها نوح بن منصور السامانى (٣٦٦ ـ ٣٨٧).

وبجرجان الدولة الزيادية والأمير ظهير الدولة بيستون بن وشمكير إلى (سنة ٣٦٦) وخلفه شمس المعالى قابوس بن وشمكير إلى (سنة ٤٠٣).

وقد ابتدأت فى أيام الطائع الدولة السبكتكينية بمدينة غزلة وجدت على أطلال الدولة السامانية وصارت تنتقص أرضها الخراسانية التى غربى نهر جيحون وكانت دولة الأتراك الإيلكخانية تنتقص أملاكها فيما وراء النهر. وأما بلاد فارس والأهواز والرى والجبال والعراق فهى بيد بنى بويه يتناوبونها كما سيأتى توضيحه.

ويعاصر الطائع بفرنسا لونار إلى (سنة ٩٨٦) ثم لويز الخامس الملقب بالكسلان إلى (سنة ٩٨٧) ثم هو فى كابات أول الأسرة الكاباسيانية إى (سنة ٩٩٦).

وباستريا أول ملك من جماعة المارغرف وهو ليوبولد الأول كونت دوبابنبرج (٩٨٢ ـ ٩٩٤).

ولى الطائع وأمر بختيار مضطرب لأن الأتراك وفى مقدمتهم سبكتكين قد تباعد ما بينهم وبينه وكانت العامة من أهل السُّنة تنصر سبكتكين لكراهة ما كان عليه بنو بويه من التشيع الشديد الذى كان سببًا لفتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والشيعة سفكت فيها الدماء وأحرقت الكرخ التى كانت محلة الشيعة وظهر أهل السنة عليهم فكتب بختيار إلى عمه ركن الدولة بأصبهان وإلى ابن عمه عضد الدولة يسألهما أن يساعداه على الأتراك فجهز إليه ركن الدولة جندًا مع وزيره ابن العميد وأما عضد الدولة فكان ميالاً إلى ملك العراق

فتربص ببختيار الدوائر كرر إليه بختيـار الكتب يستغيث به ويستحقه فلما رأى عضد الدولة أن الأمر قـد بلغ ببختيـار ما يرجوه سـار نحو العراق ظاهره رحـمة لبختـيار وباطنه إرادة الاستيلاء على العراق فسار إلى واسط منهـا إلى بغداد فتغلب على عساكر الأتراك فى (١٤ جمادى الأولى سنة ٣٦٤) ودخل بغداد ظافرًا وكان يريد القـبض على بختيار فوسوس إلى جنده أن يثوروا عليه ويشغـبوا ويطالبوه بالأموال ففعلوا ولم يكن مع بخـتيار ما يسكنهم به وأشار عليه عضـد الدولة ألا يلتفت إلى شكواهم ويغلظ فى معاملتهم ففعل ذلك فـاستمر هذا الحال أيامًا وحينئذ استدعى بختيار هو وإخوته إليه وقبض عليهم وجمع الناس وأعلمهم استعفاء بختيار عن الإمارة وعجزه عنها ووعد الجنود بالإحسان إليهم وأظهر الخليفة سروره مما تم لأنه كان منافيًا لبختيار وقد قابله عـضد الدولة بأن أظهر من رسوم الخلافة وتعظيمها ما كان قد نسى وترك وأمر بعمارة دار الخلافة والإكثار من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة وحماية أقطاعه.

بلغ ذلك كله ركن الدولة فاستاء منه جدًا كاتبه محمد بذلك محمد بن بقية وزير بختيار الذى استاء أيضًا مما جرى ونافر عضـد الدولة وجمع الجيوش لحربه فأرسل إليه ركن الدولة يقويه ما هو بسبيله ويخبره أنه سـائر بنفسه إلى العراق لإخراج عضد الدولة عنه فكان ذلك سببًا لاضطراب الأمر على عضـد الدولة ولم يقبل فى ذلك قول قائل لأنه كان يحب أخاه معز الدولة والد بختـيار حبًا شديدًا ولما وجـد ذلك عضد الدولة لم يسعه إلا إعادة بـختيار إلى ملكه والمسير إلى فارس.

لم يطل الأمر إلا بمقـدار ما توفى ركن الدولة (سنة ٤٦٦) فـاستولى ابنه عـضد الدولة على ملكه بعهد منه ومـا عتم أن تجهز إلى بغداد وأرسل إلى بختـيار يطلب منه الطاعة وأن يسيره عن العراق إلى أى جهة شاء وضمن مسـاعدته بما يحتاج إليه من مال وسلاح فأجاب بختيـار إلى ذلك وسلم إلى عضد الدولة وزيره الأميـر محمد بن بقيـة ثم سار حتى دخل بغداد وخطب له بها ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحـد ببغداد وضرب على بابه ثلاثة نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر بأن يلقى ابن بقيـة بين قوائم الفيلة لتقتله ففعل به ذلك وصلب على رأس الجـســر فى شـوال (سنة ٣٦٧) وهو الذى رثاه أبـو الحـسين الأنبـارى بقصيدته المشهورة التى أولها:

علـو فى الحـيـــاة وفى الممــات   لحق أنت إحــدى المـعـجــزات

استقر ملك عضد الدولة بالعراق وما معـهما من ملك أبيه ومحمد ثم سار نحو الموصل فملكـها وأقام بهـا مطمئنًا وأزال عنهـا الدولة الحمـدانية وبثّ سـراياه فى طلب أبى تغلب

الحمدانى فهرب أبو تغلب على وجهه إلى بلاد الروم وفتحت الجنود العضديدة جميع ديار بكر وديار ربيعة ثم افتتح ديار مضر إلى الرقة وجعل باقيها فى يد سعد الدولة ابن سيف الدولة صاحب حلب وبذلك اتسعت أملاك عضد الدولة وصار له العراق والجزيرة والأهواز وفارس والجبال والرى ثم دخلت فى حوزته جرجان (سنة ٣٧١) أخذها من صاحبها قابوس بن وشمكير.

لم يقم فى آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة وإقداماً وكان عاقلاً فاضلاً حسن السياسة والإصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأى محباً للفضائل واهباً باذلاً فى موضع العطاء مانعاً فى مواضع الحزم ناظراً فى عواقب الأمور وهو الذى بنى على مدينة رسول الله ﷺ سوراً إلا أنه كان مع ذلك فخوراً يميل إلى اللهو واللعب ومن شعره:

ليس شرب الكأس إلا فى المطر	وغناء من جوار فى السحر
غانيات سالبات للنهى	ناغمات فى تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها	ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة ابن ركنها	ملك الأملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير. ومن فضله أنه كان لا يعول فى أموره إلا على الكفاة ولا يجعل للشفاعات طريقاً إلى معارضه من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به حكى عنه أنه مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع فى بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضى ليسمع تزكيته ويعدله فقال له ليس هذا من أشغالك إنما الذى يتعلق بك الخطاب فى قائد ونقل مرتبة جندى وما يتعلق بهم وأما الشهادة وقبولها فهى إلى القاضى وليس لنا ولا الكلام فيه ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة. وكان يخرج فى ابتداء كل سنة شيئاً كثيراً من الأموال للصدقة والبر فى سائر بلاده ويأمره بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم إذا عملوا. وأما اهتمامه بالعلم فكثير ويذكر ذلك فى تاريخ العلوم فى الدولة الإسلامية.

ومما يعد من سيئاته أنه أحدث فى آخر أيامه رسوماً جائرة فى المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة ومنع من عمل الثلج والقز وجعل ذلك متجراً خاصاً وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق. توفى عضد الدولة فى شوال (سنة ٣٧٢).

اجتمع القواد بعد وفاته على بيعة ابنه أبى كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة وكان

إخوته وبنو أعمامه مـتفرقين فى الولايات فأخوه شرف الدولة شيرزيـل بفارس وعمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه بجرجان.

مكث صمصام الـدولة قائمًا بأمر العراق واضطراب لاحق من جراء خـلاف أخيه شرف الدولة عليه فإنه أظهر مشاقته وقطع خطبته فسير إليه جيشًا كانت عاقبته الهزيمة.

وخرجت عن يده بلاد الموصل استولى عليها الأكراد وعليهم شجاع باذ بن دوستك وهو من الأكراد الحميدية وكان ابتداء أمره أنه كان يغـزو كثيرًا بثغور ديار بكر وكان عظيم الخلقة وله شدة وبأس فلما ملك عضد الدولة حـضر عنده ثم فاته لما تخوف منه وذهب إلى ثغور ديار بكر وأقام بهـا إلى أن استفـحل أمره وقوى ملك ميـافارقين وغيـرها من ديار بكر بعد موت عضد الدولة ووصل بـعض أصحابه إلى نصيبين فاستـولى عليها فجهز إليـه صمصام الدولة العساكر فـانهزمت وقوى أمر باذ وغلب جيوش الديلم ثم سـار إلى الموصل فملكها وحدثته نفـسه بالاستيلاء على بغداد وإزالة الديلم عنهـا فخافه صمصـام الدولة وأهمه أمره وأعد له جيشًا عظـيمًا مستوفى العدة فلقوه بظاهر الموصل وهزمـوه هزيمة منكرة فخرج منها ثم انتـهى الحـال بالصلح بـين الديلم وباذ على أن يكون لبـاذ ديار بكـر والنصف من طور عبدين.

كانت هـذه الاضطرابات والمشاغل سـببًـا لأن شرف الدولة صـاحب فارس تجهـز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق فسار بجيشه (سنة ٣٧٥) فاستولى على الأهواز من يد أخيه أبى الحسن الملـقب بتاج الدولة ثم سار إلى البـصرة فـملكها، بلغ الخبـر صمـصام الدولة فراسله فى الصلح فاستقر الأمر بينهمـا على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق بعد صمصام الدولة ويكون هذا نائبًا عنه فصلح الحال واستقام وخطب لشرف الدولة بالعراق وسيرت إليه الخلع من الطائع لله فلمـا وردته الرسل بذلك ليـحلفوه عاد مـن الصلح وعزم على قـصد بغداد والاسـتيـلاء عليهـا ونفذ تلك العـزيمة فلما وصل واسط ملكـها فاتسع الخـرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند فوقع رأيه على اللحـاق بأخيه والدخول فى طاعته فسار إليه فقبض عليه شرف الدولة وسار إلى بغـداد فدخلها فى رمضان (سنة ٣٧٦) وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا.

ومن أحدث هذا البـيت فى عهـد وفاة عمـه مؤيد الدولة بويه بن ركـن الدولة صاحب جرجان واسـتيلاء أخيه فـخر الدولة على بن ركن الدولة على بلاده باختـيار القواد والوزير الكبير الصاحب بن عباد.

ملك شرف الدولة شيـرزيل بغداد بعد صمصـام الدولة بسنتين وثمانية أشهـر وقد ابتدأ

عهده باضطراب وفتن بين جنود الديلم والترك ببغداد أدى إلى قتال بينهم وقد بذل شرف الدولة جهده حتى أزال من بينهم الخصام ومن فضائل شرف الدولة أنه منع الناس من السعايات ولم يقبلها فأمن الناس وسكنوا.

وكانت وفاة شرف الدولة فى جمادى الآخرة (سنة ٣٧٩).

تولى العراق بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر. ولأول تولية تجددت الاضطرابات بين الترك والديلم وأدت إلى قتال دام خمسة أيام وانضم بهاء الدولة إلى الأتراك فاشتد الأمر على الديلم ومع ما حصل من الصلح بين الفريقين فإن الديلم قد ضعفت شوكتهم وتغلب الأتراك عليهم. وكانت بينه وبين آل بيته فتن كثيرة بسبب طمعهم فيما بيده من الملك ومحاولتهم سلبه منه ولكنهم أخفقوا.

وفى (سنة ٣٨١) قبض بهاء الدولة على الطائع لله وذلك أن الأموال قلت عنده فشعب عليه الجند فأطمعه وزيره فى أموال الخليفة وحسن له القبض عليه فأرسل إلى الطائع وسأله الإذن فى الحضور ليجدد العهد به فأذن له فى ذلك وجلس له كما جرت العادة فدخل إليه بهاء الدولة ومعه عدد كثير فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسى فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل الخليفة فجذبه فأنزل عن سريره والخليفة يقول إنا لله وإنا إليه راجعون ويستغيث فلا يلتفت إليه وأخذ ما فى داره من الذخائر ومن قول الشريف محمد بن الحسين الرضى فى ذلك:

من بعد ما كان رب الملك مبتسمًا	إلى أدنوه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه	لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى	يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسطان ثانية	قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما حمل الطائع إلى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع.

٢٥
القـــادر

هو أبو العباس أحمد القـادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضـد وأمه أم ولد اسمها دمنة بويع بالخلافة فى (١٢ رمضان سنة ٣٨١) (٣ أكتوبر سنة ٩٩١) واستمر خليفة إلى أن توفى فى غاية ذى الحـجة (سنة ٤٤٢) (١٨ ديسـمبر سنة ١٠٣١) فكـانت مدته (٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يومًا).

كان أبو العباس لما مات أبوه إسحاق بن المقتدر جرى بينه وبين أخت له منازعة فى ضيعة وطال الأمر بينهما ثم إنّ الطائع مرض مرضًا أشفى منه ثم أبل فسعت إليه بأخيها وقالت له إنه شرع فى طلب الخلافة عند مرضك فتغـيز رأيه فيه وأرسل فى القبض عليه فلما وصلت إليه رسل الطائع خـرج عن داره واستتر ثم سـار إلى البطيحة فنزل على صـاحبها مـهذب الدولة أبى الحسن على بن نصر صاحب البطيحـة فأكرم نزله ووسع عليه وحفظه وبالغ فى خدمته وكان ذلك فى (سنة ٣٧٩) فأقـام عنده حتى قبض بهاء الدولة على الطائع فذكر من يصلح للخـلافة فأجـمع رأيه ورأى مسـتشـاريه على أبى العبـاس فأرسل إليه بـهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد ليتولى الخلافة وشغب الديلم ببغداد ومنعوا من الخطبة فقيل على المنبر (اللهم أصلح عبدك وخليـفتك القادر بالله) ولم يذكروا اسمه. ولما وصلت الرسل إلى القادر بالله انحدر مـعهم وقام مهذب الدولة بخـدمته خير قيـام وحمل إليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعه فسار القدار بالله إلى بغداد فلما دخل جيل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله وسـاروا فى خدمته فدخل دار الخلافة ثانى عشر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس وخطب له ثالث عشر رمضان.

والقادر هو ثالث خليفة عباسى لم يكن أبوه خليفة.

معاصرو القادر من الملوك:

كان الخليفـة بالأندلس هشام بن الحكم الملقب بالمؤيد إلى (سنة ٣٩٩) ثم خلفه مـحمد

لمهدى بن عبدالجبار بن عبدالرحـمن الناصر إلى (سنة ٤٠٣) وقد ثار عليه سليمان المستعين ن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر فأخذ منه قرطبة وكانت بينهما خطوب إلى أن تل المهدى وانتهت مدة المستعين (٤٠٨) ثم كانت البلاد الأندلسية ميدانًا للنزاع بين أعقاب لأمويين والعلويين من ذرية إدريس بن عبدالله فكانت الحال هناك فى اضطراب يشبه ما كان ى الشرق ويزيد عليه.

وكان الأمير بأفريقيـة من آل زيرى النائبين عن الدولة الفاطمية المنصور بن يوسف بلكين لى (سنة ٣٨٦) ثم ابنه باديس إلى (سنة ٤٠٦) ثم المعـز بن باديس إلى (سنة ٤٥٣) وكان لخليفـة بمصر والشام من الدولة الفـاطمية العزيز باللـه نزال إلى (سنة ٣٧٦) ثم ابنه الحاكم أمر الله منصور إلى (سنة ٤١١) ثم ابنه الظاهر لإعزاز دين الله (سنة ٤٧٢).

وفى عهده ابتدأت الدولة النجاحـية بزبيد على أطلال الدولة الزيادية وكان ابتداؤها على بد المؤيد نجاح (سنة ٤١٢) وهو مولى موالى آل زياد وأصله عبد حبشى سمت به همته إلى أن تولى ملك تهامة اليـمن وعاد إليها وقد اسـتمر ملكها فيـه وفى أعقابه إلى (سنة ٥٥٤) وهذا ثبتهم.

١ ـ المؤيد نجاح	٤١٢ ـ ٤٥٢
فترة على الداعى الصليحى	٤٥٢ ـ ٤٧٣
٢ ـ سعيد الأحوال بن نجاح	٤٧٣ ـ ٤٨٢
٣ ـ جياش بن نجاح	٤٨٢ ـ ٤٩٨
٤ ـ فاتك بن جياش	٤٩٨ ـ ٥٠٣
٥ ـ منصور بن فاتك	٥٠٣ ـ ٥١٧
٦ ـ فاتك بن منصور	٥١٧ ـ ٥٣١
٧ ـ فاتك بن محمد بن فاتك	٥٣١ ـ ٥٥٤

وانتقل الملك عنهم إلى الدولة المهدية وسيأتى حديثها إذ ذاك.

أما الجزيرة الفراتية وما إليهـا من حوض الفرات فكانت منقسمة إلى ثلاث إمارات وهى ديار ربيعة وحاضرتها الموصل وديار بكر وحاضرتها آمد وديار مضر وحاضرتها الرقة:

ففى عهد القادر ظهرت الدولة العقيلية التى أسسها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع

بن مقلد العقيلى بالموصل ولم يكن له تمام الاستقلال بل كان معه نائب من قبل بهاء الدولة الديلمى إلا أن النفـوذ الفـعلى كـان لأبى الذواد ولم يزل كـذلك حـتى توفى (سنة ٣٨٦) فـخلفه أخـوه حسـام الدولة المسيب بن المقـلد. وكان الاتفـاق أن يتولى الموصل والكوفـة والقصـر والجامعين ولم يزل يـليها إلى أن قـتل (سنة ٣٩١) فخلفه ولـده أبو المنيع معتـمد الدولة قرواش بـن المقلد ومن أهم حوادثه السـياسيـة أنه خطب للحاكم بأمـر الله العلوى صاحب مـصر بأعـماله كلها وهى الموصـل والأنبار والمدائن والكوفة وغـيرها وكـان ابتداء الخطبة بالموصل (الحمد لله الذى انجلت بنوره غمرات العصب وانهدت بقدرته أركان النصب وأطلع بنوره شمس الحق من العرب) فأرسل القادر بالـله القاضى أبا بكر بن الباقلانى شيخ الأشعـرية ببغداد إلى بهـاء الدولة يعرفـه ذلك فأكرم بهـاء الدولة القاضى وكـتب إلى نائبه ببغداد يأمره أن يسير لحرب قرواش فسـار عميد الجيوش لحربه. ولما علم بذلك أرسل يعتذر وأعاد خطبة القادر بالله.

وقد اسـتمرت هذه الدولة العربيـة بالموصل إلى (سنة ٤٨٩) وانتهت على يد السلاجـقة كما انتهت الدولة الديلمية وهذا ثبت ملوكها.

١ ـ حسام الدولة المقلد بن المسيب	٣٨٦ ـ ٣٩١
٢ ـ معتمد الدولة قرواش بن المقلد	٣٩١ ـ ٤٤٢
٣ ـ زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد	٤٤٢ ـ ٤٤٣
٤ ـ علم الدولة أبو المعالى قرواش بن بدران بن المقلد	٤٤٣ ـ ٤٥٣
٥ ـ شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قرواش	٤٥٣ ـ ٤٧٨
٦ ـ إبراهيم بن قرواش	٤٧٨ ـ ٤٨٦
٧ ـ علىّ بن مسلم بن قرواش	٤٨٦ ـ ٤٨٩

وفى ديار بكر ظهرت دولة الأكراد من آل مروان على يد مـؤسسها أبى علىّ الحسين بن مروان قام بالأمر (سنة ٣٨٠) بعد خاله باذ الذى قـدمنا حديثه وضبط ديار بكر أحسن ضبط وأحسن إلى أهلها وألان جانبـه لهم ثم تزوج ست الناس بنت سيف الدولة ولم يكن ملكاً إلى أن قتل (سنة ٣٨٧) فـخلعه أخوه ممهـد الدولة أبومنصور بن مـروان إلى أن قتل (سنة ٤٠٢) فتولى بعده أخوه أبونصر نصر الدولة أحمد بن مروان وهوواسطة عقد آل مروان فإن أيامه طالت وأحـسن السـيرة جداً وكان مقـصوداً من العلماء فى كافـة الأقطار فكثروا ببلاده وممن قصده أبوعبد الله الكازروتى وعنه انتشر مذهب الشافعى رحمه الله بديار بكر وقصده

الشعراء فأجـزل مواهبهم وبقى كذلك إلى (سنة ٤٥٣) وكانت الثغور مـعه آمنة وسيرته فى رعيـته أحسـن سيرة وولى ابنه نظام الدولـة نصر إلى (سنة ٤٧٢) ثم منصـور بن نصر إلى (سنة ٤٨٩) وعلى يده انتهت دولتهم بملك آل سلجوق لها.

أما ديار مصـر فقد استولى عليهـا لأول عهد القادر بكجور الذى كـان والياً على دمشق للعزيز بالله الفـاطمى خليفة مصـر وفى (سنة٣٨٧) عزله عنها فـتوجه إلى الرقة فـاستولى عليهـا وعلى الرحبـة وما يجـاورها ثم راسل بهاء الدولة ملك العـراق فى الانضمـام إليه وكاتب أيضاً باذ الكردى والمتغلب على ديار بكر وكذلك راسل سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب بأن يعود إلى طاعته ويعطى مدينة حمص كما كانت له فلم يجبه واحد منهم إلى شئ فبـقى بالرقة يراسل جماعـة من مماليك سعد الدولة ويستـميلهم فأجابوه وحـينئذ أغرى العزيز بالله نزاراً صاحب مصر على قصد حلب فـأجابه وأرسل إليه العسـاكر تتصرف بأمره ولكنه لم ينجح لأن سعد الدولة استعان عليه بوالى انطاكية الرومى وبالعرب الذين مع بكجور فكانت النتيجة فشل بكجور وقتله ثم سـار سعد الدولة إلى الرقة فاستولى عليه من وزير بكجور وأخذ أولاد بكجور وأمواله ثم أن سـعد الدولة هلك بعقب ذلك فأرسل أهل الرحبة إلى بهاء الدولة يطلبـون إليه أن ينفذ من يتسلم بلدهم فأنفذ لهم أمـيراً تسلمها ولم يتمكن من الاسـتيلاء على الرقـة ولـم تمكث الحال على ذلك كثـيراً فإن البـلاد انتقلت إلى حوزة العلويين من أصحـاب مصر، وصاحب يخطب لهم بالرقـة والرحبة إلا أن سلطانهم كان اسمياً والنفوذ إلى رؤساء القبائل المضرية فكان فيها أولاد أبى على بن ثمال الخفاجى ثم استولى عليها عيسى بن خلاط العـقيلى ثم صار أمرها إلى صالح بن مرداس الكلابى وكان محسناً للرعية ويدعوللعلويين.

أما حلب فكان السلـطان بها لأول عهد القـادر بالله لسعد الـدولة بن سيف الدولة ابن حمدان وكان قـد عصى عليه بكجور الذى تقدم ذكره وهوأحد ممـاليك أبيه وغزاه من الرقة بعساكر خليفة مصر العلوى ولكنه لم يفـز وقتل كما قدمنا وتسبب عن ذلك أن سعد الدولة أراد أن يأخذ دمشق لـيأخذها من يد العزيز بالله فـمات عقب خروجـه (سنة ٣٨٢) وعهد لابنه أبى الفضائل وأوصى به لؤلؤاً أحد مماليك أبيه سيف الدولة فلما توفى سعد الدولة قام ابنه مقامه وأخذ له لؤلؤ العهد على الأجناد.

كان خليفـة مصر لا يزال يتطلع إلى الاستيلاء على حلب فـسير إليها جيـشاً من دمشق عليه منجوتكين أحد أمرائه ولما كـانت عـساكره كثيرة ولا قبل للؤلؤ بمقاومـتها استنجد بملك الروم بسيل فأرسل إلى نائبه بأنطاكية يأمره أن ينجـد أبا الفضائل فسار إليه بحلب حتى نزل

على الجسر الجديد بالـعاصى. ولما سمـع منجوتكين الخبر سار إلى الروم لـيقابلهـم قبل اجتمـاعهم بأبى الفضائل وعـبر إليهم العاصى وأوقع بهم وقـعة شنيعة وسار عـلى أنطاكية فنهب بلدهم وقراهـا وأحرقها. وأنفـذ أبوالفضائل إلـى بلد حلب فنقل ما فيـه من الغلال وأحرق الباقى إضراراً بعسـاكر مصـر. وعاد منجوتكين إلى حلب فحصرها فأرسل لؤلؤ إلى رؤساء المصريين يبذل لهم مالاً ليردوا منجوتكين عنهم هذه السنة بعلة تعذر الأقوات ففعلوا ذلك وكان منجوتكين قد ضجر من الحرب فأجابهم وعاد إلى دمشق ولكن ذلك لم يعجب العزيز بالله وكـتب بإعادة الكرة على حلب وأرسل الأقـوات من مصر إلـى طرابلس بحراً ومنها إلى الـعسكر فنازل المصريون حلـب وأقاموا عليـه ثلاثة عشر شـهراً فـقلت الأقوات بحلب وعاد لؤلؤ إلى مراسلة ملك الروم متعضداً به وقال متى أخذت حلب أخذت أنطاكية وعظم عليك الخطب فجاء ملك الروم منجداً له فلمـا علم منجوتكين بقرب وروده سار عن حلب فجاء ملك الروم فنزل عليـها وخرج إليه أبوالفضائل ولؤلؤ ثم سـار بسيل إلى الشام ففتـح حمص وشيزر ونهـبهما وسار إلى طـرابلس فنازلها فامتنعت عليـه وأقام عليها نـيفاً وأربعين ليلة ولما أيس منها عـاد إلى بلاده. ولما علم العزيز بتلك الأخبار عـظم الأمر عليه ونادى فى الناس بالنفير لغزو الروم فحال موته دون ذلك.

لم يزل الأمر لأبى الفـضائل حتى (سنـة ٤٠٢) حيث غزاه صـالح بن مرداس الكلابى وكان السلطان الحقيقى فى حلب للؤلؤ وكـان يخطب باسم الحاكم بأمر الله العلوى بمقتضى اتفاق عقد بين الطرفين بعد الحوادث المتقدمـة. غزاه صالح وبنوكلاب وغلبوه وأخذوه أسيراً وكان صـالح أطلقـه مقابل مـائتى ألف دينار ومـائة ثوب وإطلاق كل أسيـر عنده من بنى كلاب. ثم أن غلامـاً لابن لؤلؤ كان يتولى القلعـة غدر به وكاتب الحاكم بأمـر الله وأظهر طاعته وأظهر العـصيان لأستاذه فخرج ابن لؤلؤ من حلب إلى صاحب أنطاكـية فأقام عنده وصارت حلب من البلاد التابعة لصاحب مصر يتناوبها نواب يرسلها من قبله حتى صار بيد إنسان من الحمدانية يعرف بعزيز الملك قـدمة الحاكم واصطنعه وولاه حلب ولما مات الحاكم وولى الظاهر عصى عليه فوضعت ست الملك أخت الحاكم فراشاً له على قتله فقتله.

وفى (سنة ٤١٤) اتفق ثلاثة من أمراء العرب وهم حسان أمير طيىء وصالح بن مرداس أمير بنى كلاب وسنان بن عليـان على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح بن مرداس ومن الرملة إلى مصر لحـسان ودمشق لـسنان. فقصـد صالح حلب فاستولى عليـها من يد عامل المصريين وكان الحلـبيون يحبون صـالحاً لإحسانه إليـهم ولسوء سيرة أمراء العلـويين معهم فملك من بعلبك إلى عانة وأقام بحلـب ست سنين وفى (سنة ٤٢٠) جهز الظاهر صاحب مصر جـيشاً سيره إلى الشـام لقتال صالح وحسـان وكان مقدم الجيش أبـوشتكين البربرى

والالتقاء عند طبرية فـقتل فى الموقعة صالح وابنه ونجا ولده أبوكامل نصـر بن صالح فجاء إلى حلب وملكها وكان يلقب بشبل الدولة وقد اسـتمرت الدولة المرداسية بحلب إلى (سنة ٤٧٢) وهذا ثبت ملوكها:

١ ـ صالح بن مرداس	٤١٤ ـ ٤٢٠
٢ ـ شبل الدولة أبوكامل نصر	٤٢٠ ـ ٤٢٩
الفاطميون	٤٢٩ ـ ٤٣٤
معز الدولة أبوعلوان طمل بن صالح	٤٣٤ ـ ٤٤٩
الفاطميون	٤٤٩ ـ ٤٥٢
رشيد الدولة محمود بن شبل الدولة	٤٥٢ ـ ٤٥٣
معز الدولة (ثانياً)	٤٥٣ ـ ٤٥٤
أبوذؤاية عطية بن صالح	٤٥٤ ـ ٤٥٤
رشيد الدولة (ثانياً)	٤٥٤ ـ ٤٦٨
جلال الدولة نصر بن رشيد الدولة	٤٦٨ ـ ٤٦٨
أبوالفضل سابق بن رشيد الدولة	٤٦٩ ـ ٤٨٢

وهذا آخرهم وقد انتهى أمرهم على يد الدولة العقيلية التى تقدم ذكرها.

فى المشرق:

كانت المملكة السامانية بما وراء النهر بخراسان تنهار قواعدها وتتزلزل جوانبها كان أميرها نوح بن منصور وقد نـشأ بالشرق دولة تركية صـاحب الأمر فيها شـهاب الدين هارون بن سليـمان بن أيلك خـان المعروف بيـغراخـان وكـانت دولته جـديدة أمام دولة رثت بكثـرة الاختلاف ففى (سنة ٣٨٣)غزا بغراخان فى بخارى بممالأة أبى الحسن سمجور أمير خراسان لنوح وكان القـصد أن يملك الأول ما وراء النهر كله والثـانى إقليم خراسان فـسار بغراخان نحو بخارى واسـتولى على بلادها شيئـاً بعد شىء. ثم نازل بخارى فاختـفى نوح وملكها بغراخان ونزلها وخـرج منها نوح مستخفيـاً فعبر النهر إلى آمد وأقـام بها ولحق به أصحابه يريد إعادة الكرة على بخارى وصادف أن أصاب بغراخان مرض ثقيل اضطر بسببه للانتقال

نحوبلاده وبينما هوسائر أدركه أجله ولما سمع نوح بذلك عاد إلى دار ملكه وولى الترك بعد بغراخان ابنه أيلك خـان ـ ثم مات بعقب ذلك نوح (سنة ٣٨٧) وخلفه ابنـه منصور وبايعه الأمراء والقواد.

ولما بلغ أيلك خان وفاة نوح سار إلـى سمرقند وسير الجنود لأخذ بخارى يقـدمها فائق أحد القواد السامانية قبلاً فاستولى عليها ولكنه اتفق مع منصور بن نوح أن يكون اسم الملك لمنصور والسلطان لفائق فاستمـرت الحال على ذلك إلى أن اتفق فائق وبكتوزون قائد الجنود السامانية على القبض على منصور فقبضا عليه وأقاما مقامه أخاه عبد الملك وهوصبى صغير وأعقب ذلك موت فائق وهومدبر الأمر فارتبك أمرهم وكان نجم الدولة السبكتكينية قد بزغ بخراسان أيلك خان إلـى بخارى وأظهر لعبد الملك المودة والموالاة والحميـة له فظنوه صادقاً ولم يحترسوا منه وخرج إليه بكتوزون وبقية الأمـراء فلما اجتمعوا قبض عليهم وسار حتى دخل بخارى يوم الثلاثاء عاشر ذى الحجة (سنة ٣٨٩) فلم يدر عبد الملك ما يصنع فاختفى فنزل أيلك خـان دار الإمارة وبث الطلب والعيـون على عـبد الملك حـتى ظفر به فـأودعه بافكند فمات بها وهوآخر ملوك الدولة السامانية وانقضت بموته دولتهم كأن لم تغن بالأمس وكانت هذه الدولة قد انتشرت ودخل فى حـوزتها من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر وكانت من الدولة العلمية الكبـرى ولم يزل أمرهم على سداد حتى ظهرت دولة الترك الإيكلخانية فـأخذت منهم ولايات ما وراء النهر وظهرت دولة ابن سـبكتكين فأخذت منهم خراسان.

الدولة السبكتكينية:

من ضمن أعمال الدولة السامانية غزنة وهـى مدينة عظيمة وولاية واسعة طرف خراسان وهى الحد بين خـراسان والهند ويلفظها الخاصـة غزنين وكان صاحب جـيشها إسـحاق بن البتكـين وكان ضمن غلمـانه سبكتكين وهوالمقـدم عنده وعليه مـدار أمره قـدم بخارى أيام الأمير منصـور بن نوح مع أستاذه إسحاق فـعرفه أرباب تلك الدولة بالعقل والعـفة وجودة الرأى والصرامة وعاد معه إلى غزنة فلم يلبث إسحاق أن توفى فاجتمع جنده على سبكتكين لما عوفوه من عـقله ودينه ومروءته وخلال الخيـر فيه فوليـهم وأحسن السيرة فـيهم وساس أمورهم سياسة حسنة وجعل نفسه كأحدهم فى الحال والمال وكان يدخر من أقطاعه ما يعمل منه طعاماً لهم فى كل أسبوع مرتين وكان جنده يطيعونه طاعة تامة فغزا بهم ما جاوره من بلاد الهند حتى خافه ملوك تلك البلاد ثم اسـتولى على مدينة بست وقصدار ولما رأى ملك الهند جيـبال ما دهاه وأن بلاده تملك من أطرافـها حشد جـموعه وسـار حتى اتصل بولاية

سبكتكين فخرج هذا إليه من غزنة وأوقع به وقعة شنيعة على حدود بلاده فأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يطلب صلحه فأجابه إلى ذلك على مال يؤديه إليه وبلاد يسلمها وخمسين فيلاً يحملها إليه واستقر الأمر على ذلك ولما أبعد ملك الهند ورأى نفسه فى مأمن خاس بعهده فسار سبكتكين نحوه حتى وردلفان وهى من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الأصنام وأقام فيها شعار الإسلام ولما علم جيبال حشد الجيوش مرة ثانية لحرب سبكتكين فكان نصيبه الفشل والهزيمة فقوى سبكتكين بهذا الانتصار وأطاعه من أجله الأفغان والخلج.

وفى (سنة ٣٨٤) لما ثارت الفتن والقلاقل بالبلاد الخراسانية رأى الأمير نوح بن منصور أن يكل أمرها إلى سبكتكين ليكسر من جناح قواده الذين جاهروا بعصيانه فكتب إليه وهو بغزنة يطلعه على الأحوال، ويأمره بالمسير إليه لينجده وولاه خراسان فأجاب إلى ذلك سبكتكين وجمع العساكر وحشدها ولما بلغ قائدى نوح الخبر وهما فائق وأبوعلى بن سيمجور راسلا فخر الدولة بن بويه يستنجدانه ويلطبان منه عسكراً فأجابهما إلى ذلك وسير إليهما عسكراً كثيراً وكانت الواقعة بين هذين الجيشين بنواحى هراة فكان الظفر لسبكتكين ثم سار نحو نيسابور التى انهزم إليها أبوعلى وفائق فلما علما بالخبر سارا نحو جرجان واستولى نوح بن منصور بمعونة سبكتكين وجيشه على خراسان فولاه محمود بن سبكتكين وسماه سيف الدولة ولقب أباه ناصر الدولة فأحسن السيرة وأقام محمود بنيسابور وعاد نوح إلى بخارى وسبكتكين إلى هراة.

لما علم أبو علىّ بمبارحة سبكتكين ونوح نيسابور طمع فى استردادها فقدم إليها ومعه فائق فخرج إليهما محمود وقاتلهما ولما كانت رجاله قليلة لم تمكنه المقاومة فانهزم عنهم قاصداً أباه فلما استقر هذا الخبر عند سبكتكين جمع الجند وأتى ممداً لابنه فتقابلت جنوده مع جنود أبى علىّ بنواحى طوس فانهزم أبو علىّ هزيمة منكرة ولم يرتفع له بعد ذلك ذكر وصفت خراسان لسبكتكين.

وفى (سنة ٣٨٧) توفى سبكتكين بعد بلخ وغزنة ودفن بغزنة بعد ملك دام عشرين سنة وكان عادلاً خيراً كثير الجهاد ذا مروءة تامة وحسن ووفاء وعهد بالملك من بعده لابنه إسماعيل. وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعف الجند وأرسل إليه محمود من نيسابور يقول له إن أباك إنما عهد إليك لبعدى عنه وذكره ما يتعين من تقديم الكبير على الصغير ويطلب منه الوفاق وإنفاذ ما يخصه من تركة أبيه فلم يفعل وكان ذلك داعياً إلى أن محمود قصده بغزنة واستولى عليها ولكنه عامل أخاه معاملة كريمة ولما تم له أمر غزنة واستقام له

الملك عاد إلى بلخ ومحـمود هذا هوثالث آل سبكتكين وواسط عقدهم لقبـه الخليفة القادر بيمين الدولة. وكانت هناك بعض مناوشات بينه وبين قواد السامانية انتهت بالنصر والتمكين له فى خراسان فأزال عنها اسم السامانية وخطب للقادر بالله (سنة ٣٨٩) وجعل أخاه نصراً قائداً لجند نيســابور وسار هو إلى بلخ فاتخذها دار ملك له واتـفق أصحاب الأطراف على طاعته.

كان عهـد محمود عهد ارتفـاع وقوة فوسع أملاكه فقـد كانت فى الأصل بلاد غزنة ثم ضم بلاد الغور وهى جبال ووديان بين هراة وغزنة وأكبر ما فـيها قلعة يقال لها فيروزكوه. ثم أدخل جزاءاً عظيماً من بلاد الهـند تحت سلطانه حتى وصل إلى قشمير فأسلم صـاحبها على يده وأسلم كذلك كثيـر من ملوك الهند وقد عبر نهر الكنج فى فتـوحاته. ومن الجهة الأخرى ضمت إليه خراسان والرى والجبال ودانت له ملوك طبرستان وجرجان ولم يزل فى عزه وسلطانه إلى أن أدركـته الوفاة (سـنة ٤٢١) عهد بالملك من بعـده لابنه محمـد وكان أصغر من مسـعود ولقب بجلال الدولة إلا أن ذلك لم يرق لأخيه مسعود فـسار إليه وأخذ الملك منه وتوفى القـادر بالله والملك فى آل سبكتكين لمسـعود بن سبكـتكين وقد استـمرت الدولة فى أعقاب هذا البيت إلى (سنة ٥٨٢) وهذا ثبت ملوكها.

١ ـ سبكتكين	٣٦٦ ـ ٣٨٧
٢ ـ إسماعيل بن سبكتكين	٣٨٧ ـ ٣٨٨
٣ ـ يمين الدولة محمود بن سبكتكين	٣٨٨ ـ ٤٢١
٤ ـ جلال الدولة محمد بن محمود	٤٢١ ـ ٤٢١
٥ ـ ناصر دين الله مسعود	٤٢١ ـ ٤٣٢
٦ ـ شهاب الدولة مودود بن مسعود	٤٣٢ ـ ٤٤٠
٧ ـ مسعود بن مودود	٤٤٠ ـ ٤٤٠
٨ ـ بهاء الدولة أبوالحسن على بن مسعود بن محمود	٤٤٠ ـ ٤٤٤
٩ ـ عز الدولة عبد الرشيد بن محمود	٤٤٤ ـ ٤٤٤
١٠ ـ جمال الدولة فزحزاد بن مسعود بن محمود	٤٤٤ ـ ٤٥١
١١ ـ ظهير الدولة إبراهيم بن عبد الرشيد	٤٥١ ـ ٤٩٢
١٢ ـ علاء الدولة مسعود بن إبراهيم	٤٩٢ ـ ٥٠٨

١٣ ـ كمال الدولة شيرزاد بن مسعود	٥٠٨ ـ ٥٠٩
١٤ ـ سلطان الدولة أرسلان بن مسعود	٥٠٩ ـ ٥١٢
١٥ ـ يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود	٥١٢ ـ ٥٤٧
١٦ ـ معز الدولة خسروشاه بن بهرام شاه	٥٤٧ ـ ٥٥٥
١٧ ـ تاج الدولة خسرو مالك بن خسروشاه	٥٥٥ ـ ٥٨٢

وكان انقضاء هذه الدولة على يد الدولة الغورية.

كان بجرجان من الدولة الزيادية شمس المعالى قابوس بن وشمكير إلى(سنة ٤٠٣) ثم فلك المعالى متوجهر بن بستون بن وشمكير إلى (سنة ٤٢٠) ثم أنوشروان بن قابوس إلى (سنة ٤٣٤) وهو الذى انتهى على يده ملك أهل بيته على يد الدولة الغزنوية. أما السلطان ببلاد العراق فكان لأربعة ملوك من آل بويه يتلوأحدهم الآخر الأول بهاء الدولة أبونصر عضد الدولة وهوالذى ولى القادر الخلافة وكان عهده عهد اضطراب بينه وبين أهل بيته فأضعف ذلك من سلطانه وآذن البيت كله بالانحلال وكانت وفاته (سنة ٤٠٣) وكان فى سلطانه العراق والأهواز وفارس وكرمان.

الثانى سلطان الدولة أبوشجاع بن بهاء الدولة ولم يكن عهده أحسن من عهد أبيه بل كان عهد ضعف واستكانة فإن جنده ما كانوا يطيعونه وكثيراً ما شغبوا عليه يطلبون منه طلبات لا يقدر عليها وكان ذلك سبباً لقيام أخيه وهو.

الثالث شرف الدولة أبوعلى بن بهاء الدولة قام على أخيه وانتزع منه ملك العراق فخطب له ببغداد فى آخر المحرم (سنة ٤١٢) ونفى سلطان الدولة عن العراق فذهب إلى بلاد فارس وضبطها ثم اصطلح الأخوان على أن يكون لشرف الدولة العراق ولسلطان الدولة فارس وكرمان إلا أن مدة سلطان الدولة لم تطل فإنه توفى (سنة ٤١٥) بشيراز وخلفه ابنه أبوكاليجار وفى ربيع الأول (سنة ٤١٦) توفى شرف الدولة وكان كثير الخير قليل الشر عادلاً حسن السيرة.

الرابع جلال الدولة أبوطاهر بن بهاء الدولة خطب له ببغداد بعد وفاة أخيه وكان إذ ذاك بالبصرة والياً عليها وطلب إلى بغداد فلم يصعد إليها وإنما بلغ واسطاً وأقام بها ثم عاد إلى البصرة فقطعت خطبته لابن أخيه أبى كاليجار بن سلطان الدولة الذى كان صاحب الأهواز وكان بها وراسله الجند فى ذلك فوعدهم أن يجئ ولكنه تأخر لما كان بينه وبين عمه أبى

الفوارس صاحب كرمــان من الحرب فازدادت الفتن ببغداد لعدم السلـطان وكثر شر الأتراك بها ولما رأى ذلك عقــلاء القواد راسلوا جلال الدولة ليصــعد إليهم فيمــلك أمرهم وخطبوا باسمه فى جمادى الأولى (سنة ٤١٨) فما عتم أن صعد إليهم وملك أمرهم ولكن لم يكن عنده من المال ما يضــمن راحتهم وراحــته فكثر الشـغب عليه من الجند وأتراك بغــداد حتى كادوا يخلعــونه وكان ينازعه أخــوه أبوكاليجــار. وانتهت مدة القــادر بالله وهما على ذلك النزاع.

لم يكن للخليفة القادر بالله شئ من السلطان كمن مضى فى عهد سلاطين ابن بويه إلا أن ضعف بيت الملك أحيا له شيــئاً من الكلمة والنفوذ وكان فيه من خلال الخــير ما يساعد على ذلك فقد كان حليــماً كريماً خيراً يحب الخير وأهله ويأمــر به وينهى عن الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف كتاباً على مذهب أهل السنة والجماعة وكان يخرج من داره فى زى العامة ويزور قبور الصالحين وإذا وصل إليه حال أمر فيه بالحق.

وكان فى زمنه أحــداث عظام فى جميع الأصقــاع الإسلامية من قــيام دول وإبادة أخرى وكلها تهــتف على منابرها باسمه وتتــقلد الولايات منه إلا ما كــان من البلاد التى تحت يد الدولة المصــرية فإنها كــانت تخطب باسم أئمــتها ومع ذلــك فإن المعز بن باديــس صاحب المغرب والقيروان دعا باسم القادر على منابر بلاده.

توفى القادر بالله فى ذى الحــجة (سنة ٤٣٢) وعمــره ست وثمانون سنة وعشرة أشــهر وخلافته (٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرون يوماً).

٢٦
القـــائم

هو أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله. ولى الخلافـة بعد أبيه بعهد منه وكانت بيعته فى ذى الحجة (سنة٤٢٢) (نوفمبر سنة ١٠٣١) وبقى خليفة إلى (٣شعبان سنة ٤٦٧) (٤ إبريل سنة ١٠٧٥) فكانت مدته (٤٤ سنة و٢٥ يوماً).

كان سلطان العـراق لأول عهده جلال الدولة بن بهـاء الدولة ولم يكن أمره فى سلطانه على سداد لكـثرة شغب الغلمـان والأتراك عليه طالبين مـرتباتهم التى لم يكـن يقدر على أدائها فى أوقاتها لقلة الوارد عليه فلـم تجئ (سنة ٤٢٦) إلا وقد انحل أمر الخلافة والسلطنة جميـعاً ببغداد حـتى أن بعض الجند خرجوا إلى قرية يحـيى فلقيهم أكراد فـأخذوا دوابهم فعادوا إلى قراح الخليـفة فنهبوا شيئاً من ثمـرته وقالوا للعمال فيه أنتم عـرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا فسمع الخليفة الحال فعظم عليه ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الكراد لعجزه ووهنه واجتـهد فى تسليم الجند إلى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتـقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه وإلى الشهود بترك الشهادة وإلى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى ذلك جلال الدولة سأل أولئك الأجناد ليجيبـوه إلى أن يحملهم إلى دار الخلافة ففعلوا فلما وصلوا إليها أطلـقوا عظم أمر العيارين وصاروا يأخذون الأمـوال ليلاً ونهاراً ولا مانع لهم لأن الجند يحملون على السلطان نوابه والسـلطان عاجز عن قهرهم وانتـشر العرب فى البلاد فنهبـوا النواحى وقطعوا الطريق وبلغوا أطراف بغداد حـتى وصلوا إلى جامع المنصور وأخذوا ثياب النسـاء فى المقابر.

ولكثرة تشغيب الجند على جلال الدولة كان الخليفة يتداخل بين الفريقين متوسطاً فى أمر الصلح ومع ما ظهر من ضعف جلال الدولة وسقوط هيـبته سأل الخليفة القائم (سنة ٤٢٢) أن يخاطب بملك الملوك فامتنع الخليـفة من ذلك فاستعان عليه جـلال الدولة بالفقهاء الذين يلجأ إليهم السـلاطين فى مثل ذلك فأفتى بالجواز القـاضى أبو الطيب الطبرى والقاضى أبو عبد الله الصيرفى والقاضى ابن البيضـاوى وأبو القاسم الكرخى وامتنع من الفتيا أبو الحسن

الماوردى وجرى بينه وبين من أفتى بالجواز مراجعات فأجاب الخليفة طلب جلال الدولة وخطب له بملك الملوك وكان الماوردى من أخص الناس بجلال الدولة وكان يتردد إلى دار المملكة كل يوم فلما أفتى بهذه الفتيا انقطع ولزم بيته خائفاً وأقام منقطعا من شهر رمضان إلى يوم النحر فاستدعاه جلال الدولة فحضر خائفا فأدخله وحده وقال له قد علم كل أحد أنك من أكثر الفقهاء مالاً وجاهاً وقرباً منا قد خالفتهم فيما خالف هواى ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحاباة واتباع الحق وقد بان لى موضعك من الدين ومكانك من العلم وجعلت جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك وحدك وجعلت إذن الحاضرين إليك ليتحققوا عودى إلى ما تحب فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف وهكذا يفعل بالإنسان قول الحق حسبما يعتقد لا يخشى فى ذلك لومة لائم ولا غضب سلطان.

قضى جلال الدولة حياته فى منازعات بينه وبين جنوده وبينه وبين أبى كاليجار إلى أن توفى (سنة ٤٣٥) بعد ملك مدته (١٦ سنة و١١ شهراً) قال ابن الأثير ومن علم سيرته وضعفه واستيلاء الجند والنواب عليه ودوام ملكه إلى هذه الغاية علم «أن الله على كل شئ قدير يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء» وكان يزور الصالحين ويقرب منهم وزار مرة مشهدى على والحسين عليهما السلام وكان يمشى حافياً قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحوفرسخ يفعل ذلك تديناً.

استقر فى الملك بعده منازعه ابن أخيه أبو كاليجار المرزبانى بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة ولقبه الخليفة محيى الدين ولم تكن قدمه بأثبت من قدم أبيه ولا سلطانه أوفر بل كان النزاع كثيراً ما يستحكم بين الديلم عنصر السلطان وبن الأتراك قدماء العهد ببغداد وكانت وفاة أبى كاليجار (سنة ٤٤٠).

بويع بالسلطان بعده ابنه أبونصر خسروفيروز وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فلم يجب إلى ذلك وقال لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى فأبى إلا أن يكون ذلك لقبه فكان ما أراد واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة وقد استمر سلطاناً حتى ورد إلى بغداد السلطان طغرلبك فأزاله عن ملكه ونفاه إلى قلعة السيرجان وبذلك انقضت مدة آل بويه التى لم يكن فيها شىء من الصلاح للبلاد بل زادتها فساداً وفرقة بما أظهرته من التشيع فى بغداد مع أن أكثرية أهلها أهل سنّة وجماعة فكان النزاع كثيراً ما يقع بين الفريقين وتحصل حوادث شديدة الوقع فى بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه ولا السلطان لأنه كان يعين طائفته ووجد الخلاف بين أفراد البيت بعد وفاة الرجال الثلاثة الذين أسسوا هذا الملك العظيم وكان هذا الخلاف كثيراً ما يدعو إلى وقوف بعضهم متحاربين وعلى الجملة فإن البلاد التى استولوا عليها لم تستفد من دولتهم شيئاً على طول مدتهم وضخامة دولتهم وأجمل هذه المدة عهد عضد الدولة فخسرو ثالث ملوك هذه الدولة بالعراق.

آل سلجوق

من عشائر الغز الكبير عشيرة السلاجقة تنسب إلى مقدمها سلجوق بن تقاق وكانت هذه العشيرة تقيم فى بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك المسمى بيغوا وكان تقاق مقدم العشيرة إلى قوله يرجعون وعن أمره يصدرون وولد له ابنه سلجوق بذلك الإقليم فلما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم فقربه ملك الترك وجعله قائد الحقد (شباسى) وكانت امرأة تخوفه من سلجوق لما ترى من طاعة الناس له فأغرته بقتله وبلغ سلجوق ذلك الخبر فجمع عشيرته وهاجر إلى ديار الإسلام واعتنق الحنيفية فازدار بذلك عزا إلى عزه وأقام بنواحى جند (على طرف سيحون من حدود الترك) وصار يشن الغارة على بلاد الترك.

فى تلك الأوقات قام النزاع بين أحد ملوك السامانية وهارون بن أيلك خان وقد استولى هارون على بعض بلاده فرأى أن يضرب الحديد بالحديد فاستنجد سلجوق فأنجده بابنه أرسلان فى جمع من أصحابه فقوى بهم السامانى واسترد من خصمه ما أخذه وهذه أول صلة بين عشيرة السلاجقة والسامانية.

لم يزل سلجوق بجند حتى توفى له ثلاثة من الأولاد هم أرسلان وميكائيل وموسى فأما ميكائيل فغزا غزوة فى بلاد الترك فاستشهد وبقيت أولاده وهم بيغوا وطغرلبك محمد وجفرى بك داود فأطاعتهم عشيرتهم.

رحلوا بعد ذلك من جند ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخاً منها. فخافهم أميرها فأساء جوارهم وأراد الإيقاع بهم فالتجأوا إلى بغراخان ملك تركستان وأقاموا فى بلاده ولمزيد حرصهم على أنفسهم اتفق طغرلبك وداود أنهما لا يجتمعان عند بغراخان حذراً من مكر يمكره بهم وكان بغراخان يجتهد أن يجمع بينهما عنده فلم ينجح فقبض على طغرلبك وأسره فثار داود فى عشائره ليخلص أخاه فأنفذ إليه بغراجان عسكراً فانهزم ذلك العسكر وخلص طغرلبك من الأسر وانصرف إلى جند.

لما انفرضت دولة السامانية (سنة ٣٨٩) وملك أيلك خان عظم محل أرسلان بن سلجوق بما وراء النهر وكان علىّ تكين أحد قواد السامانية فى حبس أرسلان خان فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع أرسلان بن سلجوق فامتنعا واستفحل أمرهم وقصدهما أيلك فهزماه وبقيا ببخارى.

لما عبر محمود بن سبكتكين النهر إلى بخارى للاستيلاء على بلاد ما وراء النهر هرب

على تكين من بخـارى وأما أرسـلان بن سلجـوق وجمـاعتـه فإنهم دخلوا المفـازه والرمل فاحتموا من محمود فرأى من قوتـهم ما هاله وأراد أن يستعمل معهم الحيلة فكاتب أرسلان واستماله ورغـبه فورد عليه فلم يكن من محمود إلا أن قبـض عليه وسجنه فى قلعة ونهب حركاته ثم أمر عـشيرته فعبروا نهـر جيحون وفرقهم فى بلاد خراسـان فلم يطمئنوا بها من جور العـمال عليهم فـسار منهم أهل ألفى خـركاه فلحقـوا بأصبـهان ومنها إلى أذربيـجان ودخلوا مراغة (سنة ٤٢٩) وأحـرقوا جامعها وقتلوا مـن عوامها مقتلة عظيـمة فعظم الأمر على أهلها واشتد بهم البلاء.

رأى ذلك أكراد أذربيجان وكانوا مختلفين فاتفقت كلمتهم على هؤلاء المفسدين فانتصفوا منهم رأى الغز أنهم لا مقـام لهم هناك فافترقـوا فرقتين فطائفة سارت إلى الرى ومـقدمهم بوقا وطائفة سارت إلى همذان ومقدمهم منصور وكوكتاش.

أما الذين ذهبوا إلى الرى فإنهم استـولوا عليها ونهبوها نهباً فاحشـاً وسبوا النساء وبقوا كذلك خـمسة أيام حـتى لجأ الحـريم إلى الجامع وتفرق الناس كـل مذهب ومهـرب وكان السعيد من نجا بنفسه وكادوا يستأصلون أهل الرى.

وأما الذين ساروا إلى همذان فإنهم ملكوها أيضاً من يد بنى بويه (سنة ٤٢٠).

ولما دخلوها نهبـوها نهباً منكراً لم يفعلوه بغـيرها من البلدان غيظاً منهم وحنقـاً عليهم حيث قاتلوهم أولاً وأخذوا الحريم وضربت سراياهم إلى أسداذبان وقرى الدينور واستباحوا تلك البلاد.

ولم يزالوا على هذا الإفـساد والتـخريب حتـى ظهرت السلاجـقة وخـرج إبراهيم ينال أخوطغرلبك إلى الرى فلمـا علموا بمسيره جفلوا من بين يديه وفارقـوا بلاد الجبل قاصدين أذربيجان فلم يمكنهم القيام بها لما فـعلوه بها أولاً ولأن إبراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه لأنهم كانوا له ولأخيه طغرلبك رعية فـساروا إلى ديار بكر وأميرها سليمان بن نصر الدولة بن مروان فـأخربوا ونهبـوا أعمالهـا إلى أن بذل لهم سليمان مـالاً ليفارقـوا عمله. إذ ذاك صمـموا على قصـد الموصل وأميرها قـرواش من الدولة العقيـلية فانهـزم عنهم لما حاربوه فدخلوا البـلد ونهبوه ووصل قـرواش إلى مدينة السن وهناك أرسل جـلال الدولة سلطان بغداد يعرفه الحال ويطلب النجدة واستنجـد أيضاً دبيس بن مزيد ملك الحلة وغيره من أمراء العرب والأكراد.

عمل الغـز بأهل الموصل الأعمال الشنيـعة من الفتك وهتك الحـريم ونهب الأموال ولما

اشتد الأمر على أهل الموصل ثاروا بالغز وقتلوا منهم كثيراً فخرج الغز وعسكروا خارج المدينة حتى جمعوا قواهم ثم عادوا إليها متفقين فوضعوا السيف فى أهلها وأسروا كثيراً ونهبوا الأموال على ذلك اثنى عشر يوماً يقتلون وينهبون.

لما طال مقامهم بتلك البلاد كتب جلال الدولة ونصر الدولة بن مروان إلى طغرلبك يشكون ما حل بالبلاد من تلك الفئة.

بقى قرواش بالسن حتى جاءته النجدات فسار إلى الموصل وبلغ الخبر الغز فتهيئو للحرب فاجتمعت القوتان على نهر العجاج وكان النصر أولاً للغز ثم نصر الله العرب فانهزمت الغز شر هزيمة وأخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وملك العرب حللهم وحركاتهم وكفى الله أهل الموصل شرهم وتبعهم قرواش إلى نصيبين ثم عاد عنهم فقصدو ديار بكر وصاروا يعيثون فساداً ولكن قواهم وهنت وتضعضع أمرهم ويسمى التاريخ هذه الطائفة بالغز العراقية وهى بقايا من كان مع أرسلان بن سلجوق.

أما من كان من أولاد ميكائيل بن سجلوق فإنهم اقلعوا بنواحى بخارى كما قدمنا فغص بمكانهم أمير بخارى علىّ تكين فأعمل الحيلة فى الظفر بهم فأرسل إلى يوسف بن موسى بن سلجوق ومنَّاه الإحسان وفوض إليه التقدم على جميع الأتراك الذين فى ولايته ولقبه بالأمير اينانج بيغو وأراد بذلك أن يستعين به وبعشيرته على ابنى عمه طغرلبك وداود وأن يفرق كلمتهم ويضرب بعضهم ببعض فلم تجز هذه الحيلة على يوسف فلم يكن من علىّ تكين إلا أن قبض عليه وقتله بيد أمير من أمرائه فعظم على ابنى عمه فجمعا قومهما للأخذ بثأره وجمع علىّ تكين جيوشه فكان النصر لطغرلبك وأخيه ثم احتشد علىّ تكين مرة ثانية وأوقع بالسلاجقة وقعة كانت عليهم شديدة ألجأتهم إلى عبور النهر. نحوخراسان فكتب إليهم خوارزم شاه هارون بن التونتامش ملك خوارزم يستدعيهم للاتفاق معه فساروا إليه وخيموا بظواهر خوارزم (سنة ٤٢٦) واطمأنوا إلى خوارزم شاه ولكن غدر بهم وكبسهم وهم غارون فقتل منهم جمعاً فساروا عن خوارزم إلى مفازة نسا ثم كتبوا إلى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين يطلبون منه الأمان ويضمنون أن يكونوا عوناً له على من يعاديه فلم يفعل وسير إليهم جيوشه فلقيتهم عند نسا فأوقع السلاجقة بجيش مسعود ولما بلغه ذلك ندم على رده طاعتهم وعلم أن هيبتهم تمكنت من قلوب عسكره فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعدهم فكتب إليه طغرلبك هذه الآية ﴿**إن الله على كل شئ قدير يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن تشاء**﴾ فلما ورد الكتاب على مسعود كتب من ثانية يعدهم المواعيد الجميلة ويأمرهم أن يرحلوا إلى آمل على شاطئ جيحون وينهاهم عن الشر والفساد وأقطع داهستان

لداود «وداهستـان مدينة عند مـازندان بناها عبد الله بـن طاهر بين جرجان وخـوارزم آخر حدود طبرستان» وأقطع نسا لطغرلبك وأقطع فراوة لبيغو «وفراوة بلدة مما يلى خوارزم» بناها عبد الله بن طاهر. استـخف السلاجقة برسل مسعود لعدم ثقـتهم بالرسالة وصاروا يشنون الغارة على البـلاد وعسكر مسعـود قد هابهم ومسعـود قد شغل عنهم بنفسـه وأعرض عن خراسان والسلاجقة فاجتمع وزراؤه وقالوا له إن هؤلاء القوم إذا تركوا وشأنهم استولوا على خراسان سريعاً ثم ساروا منها إلى مدينة غـزنة فأيقظوه من رقدته فجهز لهم الجنود مع أكبر قواده وكان داود قد اسـتولى على مرو وأحسن السيرة فى أهلها وخطب له بهـا أول جمعة فى رجب (سنة ٤٢٨) ولقب فى الخطبة بملك الملوك. جاءت الجنود المسعودية فالتقت بجند داود عند باب مرو فلم يثبت العسكر المسعودى وانهزم أقبح هزيمة وسار مرة أخرى إلى هراة فتبعهم داود إلى طوس وكانت هذه الواقعة هى التى ملك السلاجقة بعدها خراسان ودخلوا قصبـات البلاد فدخل طغرلبك نيـسابور وخطب له بها فى شعـبان ولقب بالسلطان المعظم وفرقوا النواب فى النواحى.

علم ذلك مسعود فـاضطر أن يسير بنفسه من غزنة فى جيوش عظيـمة حتى وصل بلخاً ومنها سار فى أول رمضان (سنة ٤٢٩) واستعد له السلاجقة فلما التقى الفريقان كان التعب قد أخذ من عسكر مسعـود فاجتاجهم السلاجقة واضطر مسعـود أن ينهزم ومعه مائة فارس وغنم السلاجقة من هذا العسكر مالاً يدخل تحت الإحصاء فقسمه داود على عسكره وآثرهم على نفسه.

بعد تلك الواقعة عاد طغرلبك إلى نيـسابور فملكها ثانية آخر (سنة ٤٣١) وسكن الناس وطمـأنهم بعد أن كـانوا فى شـدة من الفوضى ثم مـلك دواد بلخ وفى (سنة ٤٣٣) ملك طغرلبك جردان وطبرستان من يد أنوشروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير، وفى (سنة ٤٣٤) ملك خوارزم.

لما تم له ذلك سار يريد الرى وبلاد الجـبل وكان قد سبـقه إليها أخـوه لأمه إبراهيم ينال واستولى على الرى فلما سمع بقدومه سار إليه وسلمه إياها وجميع ما ملك من بلاد الجبل فأمر طغرلبك بعمارة الرى وكانت قد خربت ثم سار إلى قزوين فملكها صلحاً وملك أيضاً همذان.

بذلك تم له ملك أصقاع كبيرة من البـلاد الإسلامية وهى خوارزم وخراسان وبلاد الرى ووصلت طلائع جنوده إلى البلاد العراقـية أهم ذلك أبا كاليجار صـاحب العراق ولم يجد فى نفسه قدرة على صد ذلك السيل فـأرسل إلى طغرلبك فى الصلح فأجابه إليه واصطلحا

وكتب طغرلبك إلى أخيه إبراهيم ينال يأمره بالكف عما وراء ما بيده واستقر الحال على أن يتزوج طغرلبك بابنة أبى كاليجار ويتزوج الأمير أبومنصور بن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرلبك وتم هذا فى ربيع الأول (سنة ٤٣٩) وفى (سنة ٤٤١) خطب لطغرلبك بديار بكر. خطب له بها نصر الدولة ابن مروان صاحبها وفى (سنة ٤٤٢) استولى على أصبهان ثم أطاعته أذربيجان وأرسل إليه من بها من الأمراء يبذلون له الطاعة والخطبة فأبقى بلادهم بأيديهم وأخذ رهائنهم ثم سار إلى أرمينية وقصد ملازجرد وهى للروم فحصرها وأخرب ما حولها وأثر فى بلاد الروم آثاراً عظيمة وبلغ فى غزوته هذه إلى أرزن الروم (ارضروم) ولما هجم عليه الشتاء عاد إلى أذربيجان ثم توجه إلى الرئ فأقام بها إلى (سنة ٤٤٧).

فى هذا الوقت كانت الأحوال سيئة فى بغداد فإن آل بويه قد تفرقت كلمتهم وزالت من القلوب هيبتهم فلم يكن يمكنهم أن يحفظوا بغداد لا من عدو طارئ ولا من عياريها ولصوصها فأعدوا الجمهور لقبول ما يغير من هذه الحال. ومما زاد الحال فساداً ما كان من أمر أبى الحارث أرسلان المعروف بالبساسيرى وهوغلام تركى من مماليك بهاء الدولة فإنه أراد أن يزيل الخلافة عن بنى العباس وكاتب الخليفة المستنصر العلوى بمصر ليدخل فى طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد والخليفة العباسى عنده علم ذلك. فكتب إلى السلطان طغرلبك مستنجداً مستغيثاً وكانت هذه أمنيته فأظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوى صاحبها وكاتب أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها فأمرهم بإعداد الأقوات والعلوفات فعظم الإرجاف ببغداد وفت أعضاد الناس. وصل طغرلبك إلى حلوان وانتشر أصحابه فى طريق خراسان فأجفل الناس إلى غربى بغداد وأرسل طغرلبك إلى الخليفة يبالغ فى إظهار العبودية والطاعة إلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان فاتفق من ببغداد من الرؤساء والأمراء على مكاتبة طغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة وفعلاً تقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرلبك بجوامع بغداد فخطب له فى يوم الجمعة (٢٢ محرم سنة ٤٤٨) ودخلها طغرلبك فى الخامس والعشرين منه وقبض على آخر سلاطين بنى بويه وهوالملك الرحيم وبذلك انقضت دولتهم ووجدت بالعراق وما وراءه هذه الدولة الفتية وهى دولة السلاجقة.

هذه العشيرة استولت على جل ما ملكه المسلمون وقد انقسمت إلى خمسة بيوت:

الأول: السلاجقة العظمى وهى التى كانت تملك خراسان والرى والجبل والعراق والجزيرة وفارس والأهواز.

الثانى: سلاجقة كرمان.

الثالث: سلاجقة العراق.

الرابع: سلاجقة سوريا.

الخامس: سلاجقة الروم.

أم السلاجـقة الكبرى فـهى الدولة التى أسسهـا ركن الدين أبوطالب طغرلبك وحيـاتها (٩٣سنة) من (سنة ٤٢٩) (١٠٣٩م) إلى (سنة ٥٢٢) (١١٢٧م) وهذا ثبتها.

١ ـ ركن الدين أبوطالب طغرلبك: من	٤٢٩ ـ ٤٥٥
٢ ـ عضد الدين أبوشجاع ألب أرسلان	٤٥٥ ـ ٤٦٥
٣ ـ عضد الدين أبوالفتح ملكشاه	٤٦٥ ـ ٤٨٥
٤ ـ ناصر الدين محمود	٤٨٥ ـ ٤٨٧
٥ ـ ركن الدين أبوالمظفر بركياروق	٤٨٧ ـ ٤٩٨
٦ ـ ركن الدين ملكشاه الثانى	٤٩٨ ـ ٤٩٨
٧ ـ غياث الدين أبوشجاع محمد	٤٩٨ ـ ٥١١
٨ ـ معز الدين أبوالحارث سنجر	٥١١ ـ ٥٢٢

وقد انقضت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم.

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وهو أخـوألب أرسلان ومـدة ملكهم (١٥٠سنة) من (٤٣٢) (١٠٤١م) إلى (٥٨٣) (١١٨٨م) وهذا ثبت ملوكها:

١ ـ عماد الدين قرا أرسلان قاروت بك	٤٣٣ ـ ٤٥٦
٢ ـ كرمانشاه	٤٥٦ ـ ٤٦٧
٣ ـ حسين	٤٦٧ ـ ٤٦٧
٤ ـ ركن الدين سلطان نشاه	٤٦٧ ـ ٤٧٧
٥ ـ تورانشاه	٤٧٧ ـ ٤٩٠
٦ ـ أرانشاه	٤٩٠ ـ ٤٩٤

٧ ـ أرسلانشاه	٤٩٤ ـ ٥٣٦
٨ ـ مغيث الدين محمد الأول	٥٣٦ ـ ٥٥١
٩ ـ محيي الدين طغريل شاه بهرامشاه أرسلانشاه الثانى	٥٥١ ـ ٥٦٣
محمد الثانى	٥٦٣ ـ ٥٦٣

وقد انقضت دولتهم على أيدى الغز التركمان.

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم (سنة ٥١١) (١١١٧) أى من عهد وفاة غياث الدين أبى شجاع محمد سابع ملوك السلاجقة وانتهت (سنة ٥٩٠هـ) (١١٩٤) فبقيت (٧٩سنة) وانقرضت على أيدى شاهات خوارزم وهذا ثبت ملوكها:

١ ـ مغيث الدين محمود	٥١١ ـ ٥٢٥
٢ ـ غياث الدين داود	٥٢٥ ـ ٥٢٦
٣ ـ طغريل الأول	٥٢٦ ـ ٥٢٧
٤ ـ غياث الدين مسعود	٥٢٧ ـ ٥٤٧
٥ ـ معين الدين ملكشاه	٥٤٧ ـ ٥٤٨
٦ ـ محمد	٥٤٨ ـ ٥٥٤
٧ ـ سليمانشاه	٥٥٤ ـ ٥٥٦
٨ ـ أرسلانشاه	٥٥٦ ـ ٥٧٣
٩ ـ طغريل الثانى	٥٧٣ ـ ٥٩٠

وأما سلاجقة سوريا فكانوا من بيت تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم (سنة ٤٨٧) (١٠٩٤)أى فى أول عهد ركن الدين بركياروق خامس ملوك السلاجقة العظمى وانتهت (سنة ٥١١) (١١١٧) فكانت حياتها (٢٤سنة) وانتهت على أيدى الدولتين النورية والأرتقية وهذا ثبت ملوكها:

١ ـ تتش بن ألب أرسلان	٤٨٧ ـ ٤٨٨
٢ ـ رضوان بن تتش	٤٨٨ ـ ٤٨٨
٣ ـ تقاق بن تتش فى دمشق	٤٨٨ ـ ٥٠٧

٤ ـ ألب أرسلان أخرص بن رضوان	٥٠٧ ـ ٥٠٨
٥ ـ سلطانشاه بن رضوان	٥٠٨ ـ ٥١١

وأما السلاجقة الروم ملوك قونية وأقصر فكانوا من بنى قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم (سنة ٤٧٠) (١٠٧٧) فى عهد جلال الدين أبى الفتح ملكشاه ثالث ملوك السلاجقة العظمى وانتهت (سنة ٧٠٠) (١٣٠٠) فمدة حياتها (٢٣٠سنة) فهى أطول دول السلاجقة حياة وقد انتهت دولتهم على أيدى الأتراك العثمانيين والمغول وهذا ثبت ملوكها:

١ ـ سليمان بن قطلمش	٤٧٠ ـ ٤٧٥
٢ ـ قليج أرسلان داود بن سليمان	٤٧٥ ـ ٥٠٠
٣ ـ ملكشاه بن قليج أرسلان	٥٠٠ ـ ٥١٠
٤ ـ مسعود بن قليج أرسلان	٥١٠ ـ ٥٥١
٥ ـ عز الدين قليج أرسلان بن ملكشاه	٥٥١ ـ ٥٨٤
٦ ـ قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان	٥٨٤ ـ ٥٨٨
٧ ـ غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان	٥٨٨ ـ ٥٩٧
٨ ـ ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان	٥٩٧ ـ ٦٠٠
٩ ـ قليج أرسلان بن سليمان	٦٠٠ ـ ٦٠١
غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان ثانياً	٦٠١ ـ ٦٠٧
١٠ ـ عز الدين كيقاوس بن ملكشاه	٦٠٧ ـ ٦١٦
١١ ـ علاء الدين كيقباذ بن ملكشاه	٦١٦ ـ ٦٣٤
١٢ ـ غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ	٦٣٤ ـ ٦٤٣
١٣ ـ عز الدين كيقاوس بن كيخسرو	٦٤٣ ـ ٦٥٥
١٤ ـ ركن الدين قليج أرسلان بن كيخسرو	٦٥٥ ـ ٦٦٦
١٥ ـ غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان	٦٦٦ ـ ٦٨٢
١٦ ـ غياث الدين مسعود بن كيقاوس	٦٨٢ ـ ٦٩١
١٧ ـ علاء الدين كيقباذ	٦٩١ ـ ٧٠٠

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوت بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد فى حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين (٤٤٧) إلى (سنة ٥٩٠) (١٤٣سنة).

استخلف من آل العباس فى عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء وهم:

٢٦ ـ عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بن المقتدر.

٢٧ ـ عبد الله المقتدى بالله بن محمد بن القائم.

٢٨ ـ أحمد المستظهر بن المقتدى.

٢٩ ـ الفضل المسترشد بن المستظهر.

٣٠ ـ المنصور الراشد بن المسترشد.

٣١ ـ محمد المقتفى بن المستظهر.

٣٢ ـ يوسف المستنجد بن المقتفى.

٣٣ ـ الحسن المستضئ بن المستنجد.

٣٤ ـ أحمد الناصر بن المستضئ.

وأولهم القائم بأمر الله هوالذى فى عهده انتهى العصر البويهى وابتدأ ملك السلجوق وآخرهم الناصر لدين الله هوالذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة.

ملك السلطان طغرلبك بغداد وتقرب من الخليفة تقرباً عظيماً حتى إن الخليفة تزوج أرسلان خاتون واسمها خديجة بنت داود أخى طغرلبك وقبل الخليفة العقد بنفسه وذهبت والدة الخليفة وتسلمتها وأحضرتها إلى دار الخلافة. ولم تقف المصاهرة بين البيتين عند هذا الحد بل إن السلطان طغرلبك تطلع إلى أن يتزوج هو أيضاً من البيت العباسى وهوأمر لم تجرِ به العادة فأرسل (سنة ٤٥٣) يخطب بنت الخليفة فانزعج الخليفة من هذا الطلب وأرسل إلى السلطان رسولاً أمره أن يستعفى من الإجابة فإن أعفى وإلا تم الأمر على أن يحمل السلطان (٣٠٠٠٠٠دينار) ويسلم واسط وأعمالها فلما وصل الرسول قال له عميد الملك الكندرى وزير طغرلبك لا يحسن أن يرد السلطان وقد سأل وتضرع ولا يجوز مطالبته أيضاً بطلب الأموال والبلاد فهو يفعل أضعاف ما طلب منه ففوض الرسول الأمر إلى الوزير فبنى الوزير الأمر على الإجابة وطالع السلطان فسر به وجمع الناس وعرفهم أن همته سمت به إلى الاتصال بتلك الجهة النبوية وبلغ من ذلك ما لم يبلغه سواه من الملوك وأمر الوزير أن

يسير إلى بغداد لإتمام ذلك فلما ورد الوزير بغداد رأى من الخليفة امتناعاً ولم يزل المحيطون بالخليفة يرفقون به حتى رد الأمر إلى عميد الملك فحضر إلى دار الخلافة ومعه جمع من الأمراء والحجاب والقضاة والشهود فتكلم وقال للخليفة أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة فأظهر الخليفة نفرة من ذلك وكاد الأمر يفضي إلى فساد ولما رأى الخليفة شدة الأمر أذن في العقد وكل فيه عميد الملك فجرى العقد في شعبان (سنة ٤٥٤) بظاهر تبريز وحمل السلطان أموالاً كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولي العهد ولزوجته ولوالدتها وغيرهم وجعل يعقوباً وما كان بالعراق لخاتون زوجة السلطان التي توفيت للسيدة ابنة الخليفة ولما تم ذلك حضر السلطان إلى بغداد فأراد الخليفة أن يستقبله فاستعفاه من ذلك وأرسل عميد الملك يطلب السيدة من دار الخلافة فنقلت إلى دار المملكة في منتصف صفر (سنة٤٥٥) وجلست على سرير ملبس بالذهب ودخل السلطان إليها وقبل الأرض وخدمها ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وحمل لها شيئاً كثيراً من الجواهر وغيرها وبقى كذلك يحضر كل يوم يخدم وينصرف وخلع على كثير من الأمراء وظهر عليه كثير من السرور.

الحادث العظيم ببغداد:

في السنة التي تلي حكم السلاجقة ببغداد وهي (سنة ٤٤٨) كانت عند مدينة سنجار وقعة شديدة بين البساسيري ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد الأسدي وبين قريش بن بدران العقيلي ومعه قتلمش ابن عم السلطان طغرلبك انهزم فيها قريش وقتلمش فوصل خبر هذه الواقعة إلى السلطان بعد أن أقام ببغداد ثلاثة عشر شهراً لم يقابل فيها الخليفة فسار عنها بجيوشه فقاتل العرب بالموصل والجزيرة وانتصر عليهم وانتهى الأمر باستيلائه على جميع البلاد الموصلية والجزرية وسلمها إلى أخيه لأمه إبراهيم ينال ثم عاد إلى بغداد في أوائل (سنة٤٤٩) وقابل الخليفة لأول مرة وفوض إليه الخليفة أمر إدارة البلاد وقد بالغ طغرلبك في احترام مقام الخلافة العباسية وخلع عليه الخليفة سبع خلع وتوج وعمم إشارة إلى جمعه بين ملك العرب والعجم وقلد سيفاً محلى بالذهب وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب فقبل يد الخليفة دفعتين ووضعها على عينه تبركاً، فعل ما فعل من ذلك التعظيم والإجلال تديناً.

وفي (سنة ٤٥٠) ترك إبراهيم ينال بلاد الموصل وتوجه نحو بلاد الجبل ويقال إن المصريين كاتبوه وأطمعوه في الملك فأهم ذلك السلطان وسار وراءه إلى همذان في ذلك الوقت عاد البساسيري بقوته وكان المصريون يساعدونه ويمدونه ولم يزل يجتاح البلاد حتى

وصل بغداد فى ثامن ذى القعدة (سنة ٤٥٠) واستولى عليها لأنه ليس بها جند يحميها وخطب بجامع المنصور لمعد المستنصر العلوى صاحب مصر وأذن بخير العمل وكانت العامة قد مالت إليه أما الشيعة فلاتحاد المذهب وأما أهل السنة فلما فعل بهم الأتراك.

أما الخليفة القائم فإنه خرج من قصره فى ذمام رئيس العرب قريش بن بدران العقيلى استذم منه بذمام الله وذمام رسوله ﷺ وذمام العربية فأعطاه ذلك ونزع قريش قلنسوته فأعطاها الخليفة ثم حمله إلى معسكره وعليه السواد والبردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله فى خيمة ثم سلمه إلى ابن عمه مهاريش بن المجلى وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله فى هودج وسار به إلى حديثة عانة فتركه بها آمناً مطمئناً فى ذمام العربية الذى يرى الخيانة عاراً.

أما البساسيرى فإنه سار ببغداد سيرة ملك ورفعت على رأسه الألوية البيضاء التى أرسلت إليه من مصر ثم ملك بعد ذلك واسط والبصرة وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل على.

أما السلطان فإنه استنجد بأولاد أخيه أرسلان وياقوتى وقاروت بك فجاؤوه بالعساكر يتلوبعضها بعضاً فلقى بهم أخاه إبراهيم ينال بالقرب من الرى فتغلب عليه وأسره ثم أمر به فخنق بوتر قوسه فى تاسع جمادى الآخر (سنة ٤٥١) ولما تم له ذلك عاد يطلب العراق وليس له هم إلا إعادة القائم بأمر الله إلى خلافته ولما قارب بغداد أدرك البساسيرى أنه لا قبل له بمقاومته فرحل عن بغداد وكان دخوله إليها سادس ذى القعدة (سنة ٤٥٠) وخروجه منها سادس ذى القعدة (سنة ٤٥١) وكان السلطان قد أرسل وهو بالطريق إمام أهل السنّة أب بكر أحمد بن محمد المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على ما فعله بالخليفة ويخبره أنه أرسل ابن فورك للقيام بخدمة الخليفة وإحضاره فأرسل قريش إلى ابن عمه مهارش يقول له أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك لينكف بلاء الغزو عنا والآن فقد عادو وهم عازمون على قصدك فارحل أنت وأهلك إلى البرية فإنهم إذا علموا أن الخليفة عندن فى البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد فأبى ذلك مهارش وقال إن الخليفة قد استحلفنى بعهود ومواثيق لا مخلص منها وسار بالخليفة إلى العراق وقد لقيهما ابن فورك بتل عكبرا فساروا معاً حتى وصلوا إلى النهروان فى (٢٤ ذى العقدة) فخرج السلطان إلى خدمة الخليفة فاجتمع به وقبل الأرض بين يديه وهنأه بالسلامة وأظهر الفرح بسلامته واعتذر عن تأخره بعصيان أخيه إبراهيم وأنه قتله عقوبة لما جرى من الوهن على الدولة العباسية فقلده الخليفة بيده سيفاً وقال لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه وقد تبرك به أمير المؤمنين فكشف غشاء الخركاه حتى رآه الأمراء فخدموا وانصرفوا ثم ساروا جميعاً إلى بغداد وكان دخول الخليفة لخمس بقين من ذى القعدة (سنة٤٥١).

ثم أنفذ السلطان جيشاً لملاحقة البساسيرى الذى توجه سمت الشام وسار السلطان فى أثرهم فقابلته الطلائع ببعض الطريق فوقف لهم فقاتلوه وقتلوه وحملوا رأسه إلى بغداد وكان البساسيرى هذا مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة الديلمى تقلبت به الأمور حتى بلغ هذا المقام المشهور وكنيته أبوالحارث وهومنسوب إلى بسا مدينة بفارس، كان سيده الأول منها.

وبعد أن تم ما أراده عاد إلى الرى التى جعلت دار ملكه وكان له ببغداد محافظ يسمى الشحنة. وفى (سنة ٤٥٥) عاد إلى بغداد ليبنى بابنة الخليفة التى ذكرنا فيما مضى حديثها ثم عاد إلى الرى وبها كانت وفاته فى يوم الجمعة (٨ رمضان سنة ٤٥٥).

ولما توفى أراد عميد الملك أن يقيم فى الملك بعده ابن أخيه سليمان بن داود ولكن لم يتهيأ له ما أراد وتم الأمر للسلطان.

(٢) عضد الدولة أبوشجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد عارضه فى الملك ابن عم أبيه قتلمش بن إسرئيل فقتل دون مراده. استعان ألب أرسلان فى إدارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك وسيأتى التعريف به وبما نال المملكة من الخير العميم على يديه.

كان ألب أرسلان بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقيبة إلى بره بالرعية وإرادة خيرهم وكان إذا أمر ببناء أوعز بأن يكون أسمى بنيان ويقول: آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا. وكانت أظهر أعماله بالبلاد الرومية فقد أقبل لأول عهده (سنة٤٦٢) ملك الروم وأخنى على منبج واستباحها وسبى حاميتها فأساء ذلك ألب أرسلان ولا سيما أنه بلغه أن الروم عازمون على إعادة الكرة فأغذ السير إلى أذربيجان لأنه سمع أن ملك الروم أخذ على سمت خلاط ومعه من الجنود من لا يحصون كثرة ولما قارب خلاط أرسل إليها بعشرين ألف فارس فوقف فى أوجههم مقدم عسكر خلاط وانتصف منهم وذلك فى رابع ذى القعدة (سنة٤٦٣) ثم تلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصراً ونزل على ملازكرد فسلمت حاميتها. حصل ذلك والعسكر السلطانى مجد فى سيره ولم ينتظر السلطان تلاحق جنده بل قال أنا أحتسب عند الله نفسى بالشهادة وكان وصول السلطان فى اليوم الذى سلمت فيه حامية ملازكرد وكان نزول عسكره فى يوم الخميس (٦ذى القعدة) والروم بين خلاط وملازكرد فأرسل السلطان إلى ملك الروم يقول له إن كنت ترغب فى الهدنة أتممنا ما تريد وإلا اعتزمنا وعلى الله اعتمدنا، فظن ملك الروم أن صدور هذه الرسالة عن خور فقال للرسول سوف أجيب عن هذا بالرى فكان ذلك مما ألهب النفوس الإسلامية وزادها حمية وقال إمام السلطان أبونصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى

للسلطان إنك تقاتل عن دين الله الذى وعد بإظهاره، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر. فلما أصبحوا يوم الجمعة وكادت الشمس تزول تهيأ السلطان وعبأ أصحابه تعبئة عسكرية تدل على فهم ثاقب لأنه قسمهم أربع فرق كل فرقة أقامها فى نقطة لا تبرحها لتكون عند اللزوم وراء جند العدو ثم اشعل نار الحرب بهمته العالية واستجر الروم إليه حتى صار الكمين من ورائهم وحينئذ أخذتهم الجنود السلجوقية من أمامهم ومن خلفهم فما عتم الروم أن انهزموا بعد أن أخذ منهم انذعر والرعب وأسر ملكهم، قالوا وكان مع الروم ثلاثة آلاف عجلة لحمل الأثقال ومعهم منجنيقات كثيرة منهم منجنيق له ثمانية أسهم ويمد فيه ألف ومائتا رجل ويحمله مائة عجلة يرمى حجراً وزنه ـ بالرطل الكبير الخلاطى ـ قنطار وكثر عدد الأسرى من الروم وكذلك الغنائم حتى سقطت قيم الدواب والكراع والسلاح والمتاع فبيعت (١٢خوذة) بسدس دينار وثلاثة أذراع بدينار.

وعاد السلطان مؤيدًا ظافـرًا بعد هذه الواقعة التى لم تقم للروم بعدها قائمة فى نواحى أرمينية وكان عهد ألب أرسلان كله عهد نمو وارتقاء فى دولة السلاجقة لا للسيف وحده بل للعلم أيضاً فإن نظام الملك أسس فى عهده أول المدارس النظامية ببغداد وقد تم بناؤها (سنة ٤٥٨) ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهوالشيخ أبوإسحاق الشيرازى ولما رأى ذلك شرف الملك أبوسعد محمد بن منصور مستوفى المملكة ببغداد بنى على ضريح أبى حنيفة رحمه الله بباب الطاق مشهداً ومدرسة لأصحابه وكتب على تلك القبة.

ألم تر هذا العلم كان مشتتاً فجمعه هذا المغيب فى اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة فأنشرها فضل العميد أبى سعد

وفى (سنة ٤٦٥) توجه ألب أرسلان قاصداً بلاد الترك فعبر نهر جيحون ولكن المشيئة سابقته فسبقته. حكى عنه أنه قال وهويقرب من الموت: ما كنت قط فى وجه قصدته ولا عدو أردته إلا توكلت على الله وطلبت منه النصر وأما فى هذه النوبة فإنى أشرفت من تل عال فرأيت عسكرى فقلت أين من له قدر بمصارعتى ومعارضتى وإنى أصل بهذا العسكر إلى بلاد الصين. فكان ما أراد الله وكانت وفاته فى (٦) ربيع الأول (سنة ٤٦٥).

ولى السلطنة بعده ولى عهده السلطان جلال الدولة أبوالفتح ملكشاه.

ولأوائل حكمه توفى الخليفة القائم بأمر الله ثالث عشر شعبان (سنة ٤٦٧) فقام بالأمر بعده ولى عهده حفيده.

٢٧
المقتدى بأمر الله

أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبى العباس محمد بن القائم ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه فإن الذخيرة توفى أيام أبيه ولم يكن له غيره فأيقن الناس بانقراض نسله وانقراض الخلافة من البيت القادرى إلى غيره ولم يشكوا فى اختلاف الأحوال بعد القائم لأن من عدا البيت القادرى كانوا يخالطون العامة فى البلد ويجرون مجرى السوقة فلو اضطر الناس إلى خلافة أحدهم لم يكن له قبول ولا هيبة فقدر الله أن الذخيرة كانت له جارية أرمنية اسمها أرجوان وكان يلم بها فلما توفى ظهر أنها حامل وولدت بعد موت سيدها بستة أشهر وذلك الولد هو عبد الله الذى ولاه جده العهد بعده لما بلغ الحلم وقد بويع بعد وفاة جده واستمر خليفة إلى أن توفى فجأة فى يوم السبت خامس محرم (سنة ٤٨٧). فكانت خلافته (١٩سنة) وثمانية أشهر غير يومين وهو من خيرة بنى العباس كان قوى النفس عظيم الهمة أصلح كثيراً من الأحوال الأدبية ببغداد فأمر بنفى المغنيات والمفسدات منها ووقع الهرادى والأبراج التى للطيور ومنع من اللعب بها لأجل الاطلاع على حرم الناس ومنع الملاحين أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين ولذلك أصلح كثيراً من الماديات فعمرت فى بغداد عدة محال فى خلافته ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة وألزم أربابها بحفر آبار للمياه وأمر أن من يغسل السمك المالح يعبر إلى النجمى فيغسله هناك وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة أكثر مما كان من قبله وكان سلطان السلاجقة فى عهده ملكشاه الذى ذكرنا قيامه بعد أبيه ألب أرسلان. وكان ملكشاه سلطاناً عادلاً ذا فضل وإنصاف شجاعاً مقداماً صائب الرأى والتدبير أيامه فى دولة السلاجقة واسطة عقدها وكان ميمون النقيبة لم يتوجه إلى إقليم إلا فتحه ولما توجه إلى الشام وأنطاكية بلغ إلى حد قسطنطينية وقرر ألف دينار على ملوكها تحمل على خزانته ووضع فى النواحى التى فتحها من الروم خمسين منبراً إسلامياً ولم يزد زمن ذلك العمل على شهرين ثم عاد إلى الرى وقصد سمرقند فظفر بخانها وأسره فحمل غاشية السلطان على كتفه وسار فى ركابه إلى

موضع سرير ملكه ثم من عليه وأعاده إلى ملكه. وتوجه فى السنة الثانية إلى أوزكند فأخضعها وخضع له جميع الملوك والرؤساء بالمشرق والمغرب. وهذه السعادة كلها إنما تيسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك أبى على الحسن بن على بن إسحاق رضى أمير المؤمنين الطوسى، وكان معدوداً من العلماء الأجواد وكان محباً للعلم مجلسه دائماً معمور بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين ،أهل الخير والصلاح. أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية فى سائر الأمصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وسمع الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرهما وكان يقول إنى لست من أهل هذا الشأن ولكنى أحب أن أجعل نفسى على قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ وكان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فإذا فرغ لا يبدأ بشىء قبل الصلاة وأسقط فى زمنه كثيراً من المكوس والضرائب وهو الذى أزال لعن الأشعرية من المنابر وكان سلفه عميد الملك الكندرى قد حسن للسلطان طغرلبك التقديم بلعن الرافضة فأمره بذلك فأضاف إليهم الأشعرية ولعن الجميع فلهذا فارق كثير من الأئمة بلادهم مثل إمام الحرمين وأبى القاسم القشيرى وغيرهما فلما ولى نظام الملك أزال ذلك جميعه وأعاد العلماء إلى أوطانهم.

ومن طريف الأخبار أن نظام الملك كان إذا دخل عليه إمام الحرمين وأبوالقاسم القشيرى يقوم لهما ويجلس فى مسنده كما هوواذا دخل عليه أبوعلى الفارمذى يقوم إليه ويجلسه فى مكانه ويجلس هو بين يديه فقيل له ذلك فقال إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا على يقولون لى أنت كذا وكذا يثنون بما ليس فى فيزيدنى كلامهم عجباً وتيهاً وهذا الشيخ يذكر لى عيوب نفسى وما أنا فيه من الظلم فتنكسر نفسى لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه. وكان ينظر فى الأوقاف والمصالح ويرتب عليه الأمناء ويشدد فى أمرها وعلى الجملة فكان غرة فى جبين آل سلجوق ومن حسناته حجة الإسلام الإمام الغزالى فهو قرينة فى الطلب ازدادت بهما طوس واختالت على ما سواها من بلاد فارس وكان مؤيداً بقرينين مؤيدين لدولته وهما كمال الدولة أبوالرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء والطغراء وشرف الملك أبوسعد بن منصور بن محمد صاحب ديون الزمام والاستيفاء وكلاهما صاحب الرأى والتدبير والدهاء والجود، ومع ما ظهر منه من الكفاية ويمن النقيبة وسعادة الحركة لم يترك المفسدون أديم المودة بينه وبين سلطانه صحيحاً بل ما زالوا فى سعاياتهم حتى نغل ذلك الأديم ومل السلطان طول مدة الوزير واستطالة مدته فأنفذ إليه أحد خاصته برسالة واختار عيناً يحصى على الوزير ما يفوه به. وكان مضمون الرسالة إنك استوليت على ملكى وقسمت ممالكى على أولادك وأصهارك أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك؟ فكان جوابه عن تلك الرسالة ـ قولوا للسلطان إن دواتى مقترنة بتاجك، فمتى رفعتها رفع، ومتى سلبتها سلب ـ فاشتد من ذلك الجواب

غيظ السلطان وكان بعد ذلك أن أحد الملاحة اعتدى على نظام الملك فقتله وذلك (سنة ٤٨٥).

ومن غرائب المصادفات أن السلطان لم يعش بعده إلا (٣٣يوماً) وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقي ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف.

مات ملكشاه بعد أن اتسع ملكه اتساعاً عظيماً فخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام ومن أقاصى بلاد الإسلام فى الشمال إلى آخر بلاد اليمن وحملت إليه الروم الجزية ولم يفته مطلب. وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد: أسقط المكوس والمؤن من جميع البلاد، وعمر الطرق والقناطر والمرابط التى فى المفاوز وحفر الأنهار الخراب، وعمر الجامع ببغداد وعمل المصانع بطرق مكة وبنى البلد بأصبهان.

وكان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود. وكان محمود طفلاً وأمه تركان خاتون فطلبت من الخليفة المقتدى أن يعين ولدها للسلطنة فأجاب إلى ذلك على شروط اشترطها إلا أن جنود نظام الملك ساعدوا أخاه الأكبر بركياروق على أن يكون هوالسلطان، فتم ما أرادوا وأرسل تقليده إلى الخليفة ليوقعه فمات الخليفة والتقليد بين يديه وكانت وفاته فى (١٥ محرم سنة ٤٨٧).

وفاة المقتدى:

فى منتصف المحرم (سنة ٤٨٧) توفى المقتدى بالله فجأة بعد أن قدم إليه تقليد السلطان بركياروق فقرأه وعلم ما فيه ولم يمضه.

٢٨

المستظهر بالله

بويع بالخلافة بعده ولده أبوالعباس أحمد المستظهر بالله واستمر خليفة إلى أن توفى في (١١ ربيع الآخر سنة ٥١٢) فكانت خلافته (٢٤ سنة) وثلاثة أشهر و(١١ يوماً) وكانت سنه حين توفى (٤١ سنة) وستة أشهر وستة أيام.

حال الممالك الإسلامية فى عهده:

وكان بالأندلس والمغرب الأقصى دولة الملثمين والقائم بأمرهم يوسف بن تاشفين إلى (سنة ٤٨٠) ـ ثم من بعده ابنه عليّ إلى (سنة ٥٣٧).

وبأفريقية من آل زيرى تميم بن المعز بن باديس إلى (سنة ٥٠١) ثم يحيى بن تميم على (سنة ٥٠٩) ثم عليّ بن يحيى إلى (سنة ٥١٥).

وبمصر من الفاطميين المستعلى أبوالقاسم أحمد بن المستنصر معد إلى (سنة ٤٩٥) ثم الآمر بأحكام الله عليّ المنصور بن المستعلى إلى (سنة ٥٢٤).

وبزبيد من الدولة النجاحية الأمير جيش بن نجاح (سنة ٤٩٨) ثم فاتك بن جيش إلى (سنة ٥٠٣) ثم منصور بن فاتك إلى (سنة ٥١٧).

وبصنعاء ومهرة ظهر الأمير حاتم بن غاشم الهمدانى من (سنة ٤٩٢) إلى (سنة ٥٠٢) ثم عبد الله بن حاتم إلى (سنة ٥٠٤) ثم معن بن حاتم إلى (سنة ٥١٠) ثم هشام بن قبيط وحاتم بن حماص.

وما عدا ذلك من البلدان الإسلامية فى آسيا فهو محكوم بدولة السلاجقة. كان المستظهر بالله من خيار بنى العباس لين الجانب كريم الأخلاق يحب الاصطناع ويفعل الخير ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات مشكور المساعى لا يرد مكرمة تطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ إلى سعاية ساع ولا ملتفت إلى قوله ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم

بأقوال أصحاب الأغراض وكانت أيامه أيام سرور لـرعيته وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره وإذا تعرض سـلطان أونائب له إلى أذى أحد بالغ فى إنكار ذلك والـزجر عنه وكـان حسن الخط جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد وله شعر رقيق فمن ذلك قوله:

أذاب حر الهوى فى القلب ما جمدا لما مـــددت إلى رسـم الوداع يـدا

وكـيف نسلك نهج الاصطبـار وقـد أرى طرائق فى مـهـوى الهـوى قـددا

قد أخلف الوعـد بدر قد شـغفت به من بعـد مـا قــد وفى دهرى بما وعـدا

إن كنت أنقض عهد الحب فى خلدى من بـعـد هـذا فـلا عـــاينتـــه أبداً

تولى ملك العـراق فى خلافـة المستظهـر بالله ملكان من آل سلجـوق أولهمـا السلطان أبوالمظفر بركياروق بـن ملكشاه ولأول عهده استوزر عز الملك أبا عـبد الله الحسين بن نظام الملك ولم يكن فيه شىء من كـفاية أبيه وكان أخوه عبد الرحـيم إليه منصب الطغراء وتولى ديوان الاستـيفاء الأستاذ عـلىّ بن أبى علىّ القمى وكانوا جمـيعاً سواسـية فى النكوب عن جادة الاعتدال وسياسة المملكة. والسلطان مشغول عما يصلح ملكه باللعب وعشرة الصبيان والوزير منهمك فى شرابه وقـد ذهب الجميع إلى بغداد واختـاروا المقام فيها لاهين بمغـانيها وغوانيـها. وكان ذلك مجـرئاً عم السلطان تتش بن ألب أرسلان صـاحب دمشق أن يكون طالباً السلطنة لنفسه فقام بجنـوده واستولى على بلاد الجزيرة والموصل وديار بكر وأذربيجان ثم بدا له فعاد إلى دمشق لما رأى كثيراً من أمرائه ميالين إلى مساعدة بركياروق وانتظم الأمر لبركـياروق ولكن أمر ذلك لم يطـل إلا بمقدار ما أعـد تتش للأمر عدته فـعاد (سنة ٤٨٧) بجنوده التى أعدها واسـتولى على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجـان وهمذان ثم أرسل إلى الخليفة بـبغداد يطلب الخطبة له فأجـيب طلبه بعد أن وصل إليهم الخبر بأن تتش هزم بركياروق فى وقعة كانت بينهما ولم يزل الأمـر على ذلك حتى لمّ بركياروق شعثه وأصلح من أمر جنوده والتقى بـعمه فى موضع قريب من الرى فكانت الهـزيمة على جند تتش وأما هو فثبت حتى قتل وذلك (سنة ٤٨٧) واستقـام الأمر لبريكاروق بعد أن كاد يضمحل وكان نجاحه بأراء الوزير مؤيد الملك أبى بكر عبد الله بن نظام المـلك الذى استوزره بعد أخيه عز الملك ولم يكن فى أولاد نظام الملك أكفى منه وكـان وحيداً فى بلاغة النظم والنـثر ولما هيأ السـلطان بالفتح قال له كل هذا ببركتـك ويمن نقيبتك إلا أن مدة ذلك الوزير الأيمن لم تطل فإن أم السلطان كانت متداخلة تداخلاً كثيراً فى سياسة دولة ابنها فتغير قلبها على الوزير ولما رأى ذلك أخوه فخر الملك أبوالفتح المظفر أرسل وبذل أموالاً جزيلة فى الوزارة فأجيب إليها وعزل أخوه واعتقل فـاحتال حتى خلص من اعتقاله، وتوجه إلى مـحمد بن ملكشاه الذى

كان ملكاً على أران ومقره مدينة جنزة فقبله محمد واصطفاه واستشاره فى مهماته ثم سلم إليه وزارته فلم يزل يقرب لمحمد قصد أخيه بركياروق والاستيلاء على ملكه حتى حرك منه ما كمن من هواه فسار من أران فى شرذمة يسيرة حتى وصل دار الملك أصفهان فلم تستعص عليه فملكها واستمال إليه العساكر فمالوا إليه.

كانت مطالبة محمد للسلطنة وقيامه فى وجه أخيه بركياروق فاتحة شر مستطير على هذين الأخوين بل على البيت السلجوقى كله بل على الإسلام جميعاً فقد ظلت نيران الحرب بينهما مستعرة من (سنة ٤٩٢) إلى (سنة ٤٩٧) خمس سنين ما أشد وقعها على الرعية والجند حصلت فيها مواقع هائلة والحرب فيها سجال. والإفرنج تحركوا من مرابضهم للإغارة على البلاد الإسلامية لتخليص البيت المقدس كما زعموا وملوك الإسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون ويتخاصمون.

رأى الرجلان أن الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعاً فيها وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإدلالهم وكان السلطان بركياروق حينئذ بالرى والخطبة له بها والجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيها وببلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ما عدا تكريت. وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وببعضها لمحمد وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعاً وأما خراسان فإن السلطان سنجر بن ملكشاه كان يخطب له فى جميعها وهى من حدود جرجان إلى ما وراء النهر ولأخيه السلطان محمد ـ فلما رأى السلطان بركياروق المال عنده معدوماً والطمع من العسكر زائداً أرسل القاضى أبا المظفر الجرجانى الحنفى وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمدانى إلى أخيه محمد فى تقرير قواعد الصلح فسارا إليه ورغباه فى الصلح وفضيلته وذكرا له ما شمل البلاد من الخراب وطمع عدو الإسلام فى أطراف الأرض فأجاب إلى ذلك واستقر الأمر بينهما على أن بركياروق لا يعترض أخاه محمداً فى السبل وألا يذكر معه على سائر البلاد التى صارت له وألا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة بين وزيريهما ولا يعارض أحد من العسكر فى قصد أيهما شاء وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيذه روذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة وهى الحلة وما إليها وقد حلف كل منهما لصاحبه على الوفاء فتحسنت الأحوال وزال الخلف والشغب ولم تطل مدة بركياروق بعد هذا الصلح فإنه توفى فى ثانى ربيع الآخر (سنة ٤٩٧).

بعد موت بركياروق خطب أمراؤه لابنه ملكشاه إلا أن أمره لم يتم فإن عمه محمداً ما عتم أن قدم إلى بغداد بجيوضه الوافرة فلم يكن أمامه من يقدر على رده، وقد حاول أكبر الأمراء البركياروقية أن يوقد نار الحرب ليقوم بما يجب عليه لمولاه ولكن الله حسن الصلح والاتفاق فتم ذلك وخطب لمحمد بالسلطنة بدون منازع ثم عاد إلى دست ملكه بأصفهان.

لم يكن السلطان محمد موفقاً لاختيار كبار مملكته وقد كانت الأعمال الكبرى فى دولة آل سلجوق هى.

(١) الوزارة (٢) استيفاء المملكة ويقال لصاحبها المستوفى. (٣) الطغراء وهو رياسة الديوان ومن جملته ديوان الرسائل والإنشاء (٤) الإشراف وعرض الجيش. قال بعض الكتاب فى حق السلطان محمد: قد كثر تعجبى من السلطان يتأنق فى تخير كلاب الصيد وفهوده وإنما يقتنى منها ما يراه موافقاً لمقصوده فيسأل عن فروعه وأصوله وانقطاعه ووصوله فما باله لا يتخير لديوانه ومراتب سلطانه من الكفاة الأفاضل والصدور الأماثل من عرفه ذاك وعرقه كريم ومجده قديم وطريقه فى الكفاية مستقيم ؟! لقد كان هؤلاء أولى باختيار وأجدر بالاختبار فإنهم أمناؤه على مملكته ووكلاؤه على دولته وسفراؤه فى خدمته. ولعدم حسن الاختيار كثر الاضطراب والتغيير. واستمر ملك محمد هذا إلى (سنة٥١١) حيث توفى فى (٢٤ذى الحجة) وعمره إذ ذاك (٢٧سنة) وكان عادلاً حسن السيرة شجاعاً وقد أطلق فى حياته المكوس والضرائب فى جميع البلاد ولم يعرف منه فعل قبيح وعلم الأمراء سيرته فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه.

فاختير للملك بعده ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين أبوالقاسم حمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين وخطب له ببغداد فى (١٣محرم سنة ٥١٢).

ولم يقم الخليفة المستظهر بالله طويلاً بعد وفاة محمد بن ملكشاه فإنه توفى فى (١٦ من ربيع الآخر) فلم يكن بين رحيليهما من هذا العالم إلا أقل من أربعة أشهر.

كان فى حياة المستظهر بالله أحداث عظيمة فى المملكة الإسلامية فى الشرق والغرب فأما فى الشرق فظهور الباطنية وعيثهم فى البلاد حتى كادوا يميلون ميزانها وأما فى الغرب فأغارت الفرنج على البلاد الإسلامية وبدأت الحروب الصليبية ولا بد أن نشير إلى كل من الحادثتين بكلمة لنبين كيف كان ابتداؤهما فإن استيفاء ما يتعلق بهما يرجع إلى شرح حال الدولة الفاطمية المصرية لأن الحادثين يتعلقان بها فالباطنية أنصارهم.

الباطنية

لما نجح الفاطميون فى إقامة دولتهم بالمغرب ثم بمصر واتسعت رقعة مملكتهم حتى وصلت إلى نواحى الفرات دار فى خلدهم أن يمدوا سلطانهم متجهين إلى المشرق حتى يعم بقاع الأرض ملكهم وكانت الطريقة التى جروا عليها من أول نشأتهم أن يرسلوا الدعاة إلى الأقطار فيدعون الناس إليهم سراً ويزينون لهم ما يدعون إليه بضروب من الزينة مهروا فى إبداعها. وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن عليها رجل كبير يعرف بداعى الدعاة ودرجته تلى قاضى القضاة وكان الدعاة يحصلون على أسرار الدعوة بمصر ثم يبرحونها إلى كل قطر متبعين نظاماً مسنوناً. ومن البلاد التى اهتم الفاطميون بها وأرسلوا دعاتهم إليها: البلاد الفارسية وقد كان أول رواج هذه الدعوة فى عهد ملكشاه، وسبب هذا الرواج أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار. وكان الرسم فى أيام الديلم ومن قبلهم أنهم لا يخلون البلاد من أصحاب الأخبار والبريد فلم تكن تخفى عنهم الأخبار. فلما تولى السلطان ألب أرسلان فاوضه وزيره نظام الملك فى هذا الأمر فأجابه لا حاجة إلى صاحب خبر فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء فإذا نقل إلينا صاحب الخبر خبراً وكان له غرض أخرج الصديق فى صورة العدو والعدو فى صورة الصديق ومن أجل ذلك أسقط السلطان هذا الرسم. فصادف الباطنية بسبب ذلك نجاحاً وأول ما عرف من أمرهم أنه اجتمع منهم (١٨رجلاً) بمدينة ساوة وهى مدينة بين الرى وهمذان فصلوا صلاة العيد ففطن بهم الشحنة فأخذهم وحبسهم ثم سئل فيهم فأطلقهم فهذا أول اجتماع كان لهم. ثم إنهم دعوا مؤذناً من أهل ساوة كان مقيماً بأصبهان فلم يجبهم إلى دعوتهم فخافوه أن ينم عليهم فقتلوه فهوأول قتيل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبره إلى نظام الملك الوزير فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثل به فهو أول قتيل منهم. ولما رأى الباطنية ذلك من نظام الملك أمروا واحداً منهم فقتله وهى أول فتكة مشهورة كانت لهم وقالوا قتل نجاراً فقتلناه به. وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاين وهى بين نيسابور وأصبهان وكان متقدم هذا البلد على مذهبهم فاجتمعوا عنده وقووا به فاجتازت به قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين فخرج عليهم الباطنية فقتلوا القفل أجمعين ولم ينج منهم غير رجل واحد تركمانى فوصل إلى قاين وأخبر بالخبر ؛ فتسارع أهلها إلى جهادهم فلم يقدروا عليهم ثم قتل نظام الملك ومات ملكشاه فعظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم ولا سيما بأصبهان واستولوا على قلعة أصبهان وهى قلعة بناها السلطان ملكشاه.

كان الداعية الأكبر للباطنية بتلك البلاد هوأحمد بن عبد الملك بن عطاش فقدموه عليهم وألبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال ثم ظهر منهم الرئيس الثانى وهو الحسن بن الصباح أخذ

هذا المذهب عن عبد الملك بن عطاش ثم رحل إلى مصر فلقى بهـا الخليفة المستنصر وتلقى بمصر أصول الدعوة الباطنية وكان شهمـاً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم ثم عاد بمرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه فكان أول ما فـعله أن استولى على قلعة الموت وتحصن بها وهى من نواحى قزوين فى موضع حصين. ولم يكن نظام الملك إذ ذاك قد توفى فلما بلغه الخبر بعث إلى تلك القلعة عسكراً فحصروا فـيها ابن الصباح وأخذوا عليه الطرق ولما ضاق ذرعاً بالحصر أرسل من قتل نظام الملك فلما قتل رجع العسكر عنها.

ودخل فى خوزتهم أيضاً بعض قهستـان وطبس وملكوا كذلك قلعة وسنكوه بقرب أبهر وغير ذلك من القلاع التى جـعلوها حصوناً لهم ومعاقل. تمكنت أقدامهم بالبـلاد الفارسية وصار يحـسب لهم حساب وكان الواحـد منهم يهجم على كثـير وهويعلم أنه يقتل فـقتل بذلك من شاء غيلة وكان رؤسـاؤهم يستعملونهم فيما أرادوا ويمنـونهم الأمانى الجميلة التى يخضع لسلطانهـا أمثال هؤلاء الناس فـيأتون بالعجب العـجاب. وقد صارت الناس فـيهم فرقتين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من فـتكهم ومن سالمهم نسبه الناس إلى الارتكاس فى عقـيدتهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهـتين ولما كانوا قد تجمعوا مـن كل صنف تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم ودب إلى البـرآء السقم وتعين على السلطان أن يكاشـفهم مدافعـاً لئلا ينسبه العـوام وأهل الدين إلى الإلحاد وفساد الاعـتقاد وقد حصل ذلك للمـلك تيرانشاه بن تورانشاه بن قاروت بك فقد اتهـمته رعيته بالميل إلى الباطنية والقـول بدعوتهم فثاروا عليه وأخرجوه عن مدينة بردسير التى هى مدينة كرمان واتفقوا بعد خروجه على تولية أرسلانشاه بن كمانشـاه بن قاروت بك. ومن المصيبة أنه ما كـان سلطان يثق بخواصه والناس فى كل جيل يميل بعـضهم إلى الانتقـام من بعض لنيل هذه الدنيا ومظاهرها الكاذبة فلمـا رأوا جد السلطان فى إبادة القـوم سعى بعض الـناس ببعض وأحب وصـمه بالإلحـاد لما بينهمـا من العداوة ولم يبق للناس فى هذا المصاب رأى ولا تدبير.

لما اشتـد أمر الباطنيـة وقويت شوكـتهم وكثـر عددهم صار بينهم وبين أعـدائهم دخول وإحن فلما قتلوا جماعة من الأمراء الأكـابر وكان أكثر من قتلوا ممن هو فى طاعة السلطان محمد أخى بـركياروق مثل شحنة أصبهـان وغيره نسب أعداء بركياروق ذلك إلـيه واتهموه بالميل إليهم فلما ظفر السلطان بركياروق وهزم أخاه محمداً انبسط جماعة منهم فى العسكر واستغووا كثيراً منهم وأدخلوهم فى مذهبهم وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى لم يجـسر أحد من مخالفيهم لا أمير ولا مـتقدم على الخروج من منزله

حاسراً بل يلبس تحت ثيابه درعاً واستأذن السلطان بركياروق خواصه فى الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم من الباطنية وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم وأعلموه ما يتهمه الناس به من الميل إلى مذهبهم حتى أن عسكر أخيه السلطان محمد يشنعون بذلك وكانوا فى المصاف يكبرون ويقولون يا باطنية فاجتمعت هذه البواعث كلها فأذن السلطان فى قتلهم والفتك بهم وركب هووالعسكر معه وطلبوهم وأخذوا جماعة منهم ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف وأخرج الجماعة المتهمون إلى الميدان فقتلوا وقتل معهم جماعة برآء لم يكونوا منهم سعى بهم أعداؤهم. ومن الغريب أنه قد اتهم بتلك التهمة الكيا الهراسى مدرس النظامية ورفيق الغزالى فى الطلب والتلمذة لإمام الحرمين فأمر السلطان محمد فقبض عليه فأرسل الخليفة المستظهر بالله من استخلصه وشهد له بصحة الاعتقاد وعلوالدرجة فى العلم فأطلق.

وفى (سنة ٤٩٤) جمع الأمير بزغش وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر جموعاً كثيرة وقواهم بالمال والسلاح وسار إلى بلد الإسماعيلية فنهبه وخربه وقتل فيهم فأكثر وحصر طبس وضيق عليها ورماها بالمنجنيق فخرب كثيراً من سورها وضعف من بها ولم يبق إلا أخذها فأرسلوا إليه الرشا الكثيرة واستنزلوه عما كان يريد منهم فرحل عنهم وتركهم فأعادوا عمارة ما انهدم من سورها وملأوها ذخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك ثم عاد إليهم (سنة ٤٩٧) بجمع فيه كثير من المتطوعين فخرب طبس وما جاورها من القلاع والقرى وأكثر فيهم القتل والنهب والسبى وفعل بهم الأفعال العظمية ثم إن أصحاب سنجر أشاروا بأن يؤمنوا ويشرط عليهم أنهم لا يبنون حصناً ولا يشترون سلاحاً ولا يدعون أحداً إلى عقائدهم فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح ونعوه على سنجر ثم توفى بزغش بعد عوده من هذه الغزاة.

وكان تركهم بعد هذا التضييق عليهم داعياً إلى اشتداد قوتهم وقوة شوكتهم بعد ذلك ومن جملة أفعالهم الخبيثة أن قفل الحاج تجمع هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند والشام وغيرها من البلاد فوصلوا على جوار الرى فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاءوا وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئاً.

وفى (سنة ٥٠٠) رأى السلطان محمد ما وصل إليه أحمد بن عبد الملك بن عطاش من القوة والهيبة فإن أمره استفحل بالقلعة التى ملكها بجوار أصبهان وكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل من قدروا على قتله فقتلوا خلقاً كثيراً لا يمكن إحصاؤهم وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى فتعذر

بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملاكهم ونسى أمر الباطنية بالخلف الواقع بين السلطانين بركياروق وأخيه محمد فلما صفت السلطنة لمحمد لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم والانتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم فرأى البداية بقلعة أصبهان التى بأيديهم لأن الأذى بها أكثر وهى متسلطة على سرير ملكه فخرج إليهم بنفسه فحاصرهم وصعد جبلاً يقابل القلعة من غربيها ونصب له التخت بأعلاه واجتمع له من أصبهان وسوادها لحربهم الأمم العظيمة للدخول التى يطالبونهم بها وأحاطوا بجبل القلعة ودوره أربعة فراسخ ورتب الأمراء لقتالهم فكان يقاتلهم كل يوم أمير فضاق الأمر بهم واشتد الحصار عليهم وتعذرت عندهم الأقوات ولما اشتد الأمر عليهم كتبوا فتوى فيها (ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين فى قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق وإنما يخالفون الإمام هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم وأن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى) فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك وتوقف بعضهم فجمعوا للمناظرة ومعهم أبو الحسن علىّ بن عبد الرحمن السمجانى وهو من شيوخ الشافعية فقال بمحضر من الناس يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم بمكانهم ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين فإنهم يقال لهم أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع أوحظر عليكم ما أباحه الشرع أتقبلون أمره فإنهم يقولون نعم وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع وطالت المناظرة فى ذلك ثم إن الباطنية سألوا السلطان أن يرسل إليهم من يناظرهم وعينوا لذلك أشخاصاً من العلماء منهم القاضى أبوالعلاء صاعد بن يحيى شيخ الحنفية بأصبهان وقاضيها وغيره فصعدوا إليهم وناظروهم وعادوا كما صعدوا وإنما كان قصدهم التعلل والمطاولة فلج حينئذ السلطان فى حصرهم فلما رأوا منه عين الجد أذعنوا إلى تسليم القلعة على أن يعطوا عنها قلعة خالنجان وهى على سبعة فراسخ من أصبهان وقالوا إنا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلا بد من مكان نحتمى فيه فأشير على السلطان بإجابتهم إلى ما طلبوا فسألوا أن يؤخرهم إلى النوروز ليرحلوا إلى خالنجان ويسلموا قلعتهم وشرطوا ألا يسمع فيهم قول متنصح وإن قال أحد عنهم شيئاً سلمه إليهم وأن من أتاه منهم رده إليهم فأجابهم إليه وطلبوا أن يحمل إليهم من الإقاتة ما يكفيهم يوماً بيوم فأجيبوا وكان قصدهم المطاولة انتظاراً لفتق أوحادث يتجدد ورتب لهم وزير السلطان ما يحمل إليهم كل يوم من الطعام والفاكهة وجميع ما يحتاجون إليه فجعلوهم يرسلون ويبتاعون من الأطعمة ما يجمعونه ليمتنعوا فى قلعتهم ثم إنهم وضعوا من أصحابهم من يقتل أميراً كان يبالغ فى قتالهم فوثبوا عليه فجرحوه وسلم منهم وحينئذ أمر السلطان بإخراب قلعة خالنجان وجدد الحصار عليهم فطلبوا أن ينزل بعضهم ويرسل السلطان معهم من يحميهم إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر

بارجان وهى لهم وينزل بعضهم ويرسل معهم من يوصلهم إلى طبس وأن يقيم باقيهم فى ضرس من القلعة إلى أن يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم فينزلون حينئذ ويرسل معهم من يوصلهم إلى ابن الصباح بقلعة الموت فأجيبوا إلى ذلك فنزل جماعة إلى قلعة الناظر وطبس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم فلم يسلم السن الذى بقى بيده وبان للسلطان منه الغدر فقرر الزحف عليه فزحف الناس كافة عليه وكان قد قل عنده من يمنع ويقاتل فظهر منهم صبر عظيم جداً وشجاعة زائدة وكان قد استأمن إلى السلطان إنسان من أعيانهم فدله على عورة لهم فأتى بهم إلى جانب لذلك السن لا يرام فقال اصعدوا من هنا فقيل إنهم ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال فقال إن الذى ترون أسلحة وكزاغندات جعلوها كهيئة الرجال لقتلهم عندهم وكان جميع من بقى ثمانين رجلاً فزحف الناس من هناك وملكوا الموضع وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة منهم مع من خرجوا معهم وأما ابن عطاش فأخذ أسيراً فترك أسبوعاً ثم قتل هو وولده ومثل بهما وحملت رؤوسهما إلى بغداد والقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثنتى عشرة سنة.

وكما اهتم بأمر ابن عطاش وقعلته كذلك اهتم بأمر الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت وما معها فقد كان يعلم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك وحصونهم وقلاعهم فجعل قصدهم دأبه وكانت أيام ابن الصبح قد طالت وله منذ ملك قلعة الموت ما يقارب ستاً وعشرين سنة وكان المجاورون له فى أقبح صورة من كثرة غزواته لهم وقتله وأسره رجالهم وسبى نسائهم فسير إليهم السلطان العساكر ولكنها لم تبلغ منه غرضاً ولما أعضل داؤه ندب لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير صاحب آية وساوة وغيرهما فملك منهم عدة قلاع وكان كلما ملك قلعة سير بمن فيها إلى الموت ولما تهيأت له الجنود وأمده السلطان بعدة من أمرائه سار إلى قلعة الموت فحصرها وكان أنوشتكين من بين أولئك الأمراء صاحب القريحة والبصيرة فى قتالهم مع جودة رأى وشجاعة فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه وعين لكل طائفة من الأمراء أشهراً يقيمونها فكانوا يغيبون ويحضرون وهوملازم الحصار وكان السلطان ينقل إليه الميرة والذخائر والرجال فضاق الأمر على الباطنية وعدمت عندهم الأقوات وغيرها فلما اشتد عليهم الأمر أنزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين ويسألون أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا فلم يجابوا إلى ذلك وأعادهم إلى القلعة قاصداً أن يموت الجميع جوعاً وكان ابن الصباح يجرى على كل رجل منهم فى اليوم رغيفاً وثلاث جوزات فلما بلغ بهما الأمر إلى هذا الحد الذى لا مزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر إلى العسكر المحاصرة لهم

بعدهم بيوم فعزموا على الرحيل فقال لهم شيركير إن رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددنا من الأقوات والذخائر والرأى أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها وإن لم يمكن المقام ولابد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفذ منا ثقلنا وما أعددنا ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو فلما سمعوا قوله أجابوه ولكنهم لما أمسوا رحلوا من غير مشاورة فتبعهم شيركير فغنم الباطنية ما تخلف عندهم.

هذا حالهم وما أثاروه من الفتن والنكبات إلى وفاة السلطان محمد بن ملكشاه وسنذكر بعد خاتمة أمرهم.

خطر المغرب:

كما كان اختلاف آل سلجوق وتفرق كلمتهم سبباً لنكبتهم بالباطنية كذلك كان سبباً لنكبتهم من المغرب بالحروب الصليبية وليس غرضنا الآن أن نشرح هذه الحروب شرحاً وافياً فإنها حوادث أجيال إذ قد استمر أمرها من (سنة ٤٩٠) إلى (سنة ٦٩٠) أى قرنين كاملين اشترك فيها من الدولة الإسلامية الفاطمية بمصر ودولة السلاجقة ودول الأتابكية التى تفرعت عن السلاجقة ودول الأيوبية ودولة المماليك البحرية بمصر ولما كنا الآن فى اقتصاص أحوال آل سلجوق نسوق من أخبار هذه الحروب ما ارتبط بتاريخهم.

امتد سلطان السلاجقة إلى بلاد الروم (أرمينية والأناضول) وتأسست هناك دولة سلجوقية عظيمة الشأن بقونية وأقصرا وما إليهما وأخذا بمخنق الروم فقصدوا كل حيلة فى استرداد ما أخذ منهم لقوة الهاجمين وخافوا على ما بقى لهم من الملاك فى آسيا. وكان ملك السلاجقة الروميين فى أيام تلك الحوادث السلطان قليج أرسلان داود بن قتلمش (٤٨٥-٥٠٠).

وكذلك امتد على بلاد سوريا وتأسست لهم بها دولة حاضرتها دمشق وكان سلطانها فى هذه الحوادث السلطان رضوان بن تتش بن ألب أرسلان وكان بينه وبين أخيه دقاق بن تتش حروب سببها المنافسة فى الملك.

وكان خليفة مصر الفاطمى هوالمستعلى بالله أبوالقاسم أحمد بن المستنصر (٤٨٧-٤٩٥).

كان بيت المقدس مما ملكه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان مؤسس الدولة السلجوقية بسوريا فأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركمانى فاستمر فى حوزته إلى(سنة ٤٨٩) وهى السنة التى سار فيها الصليبيون قاصدين فى الظاهر الاستيلاء عليه وتخليصه من أيدى هؤلاء المغتصبين.

وقد اضطربت كلمة المؤرخين من العرب فى السبب الذى حد بأولئك المغيرين إلى الخروج من بلادهم بهذه الشدة والكثرة فقال فريق منهم إن هذه الحملة كانت فى الأصل موجهة إلى شمال أفريقية وكانت إذ ذاك تحت يد الدولة الزيرية والقائم بالأمر فيها تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ـ٥٠١) وكان رجار الصقلى قد قام فى عهده واستولى على صقلية وحارب تميماً فى عقر داره حروباً كانت بينهما سجالاً ولما بلغ رجار ما عزم عليه الصليبيون لم يعجبه لأنه قال إذا وصلوا إلىَّ أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى أفريقية وعساكر من عندى أيضاً فإن فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادى وتأذيت بهم ويقول تميم غدرت ونقضت عهدى وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبلاد أفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها ومن أجل ذلك أشار على هؤلاء المتحمسين بقصد بيت المقدس لأن الجهاد فى تخليصه أعظم أثراً وأبقى فخراً.

وقال فريق آخر إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم وقد دخل بعضهم فعلاً إلى بلاد مصر لما رأوا ذلك خافوا وأرسلوا إلى الإفرنج يدعونهم إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين.

وقال فريق من غيرهم إن ملك الروم هو الذى دعا الإفرنج إلى ذلك لما خاف على دولته من السلاجقة فإنهم كما أخافوا المصريين أخافوا الروم فكل من الفريقين خائف وجل.

والذى عليه جمهور المؤرخين أن الغيرة الدينية التى أثارها فى أوروبا بطرس الراهب بمساعدة البابا أوربانس الثانى هى التى أهاجت أنفس الإفرنج لهذه الإغارة.

وكل هذه الأسباب لا يبعدها العقل ولا يبعد أن يكون بعضها قد ساعد بعضاً والإفرنج يميلون إلى جعلها حرباً دينية لا سياسية أثار غبارها ما كان من حمية الجاهلية فى ذلك العصر.

زار بطرس الراهب البيت المقدس فعز عليه ما رآه من ملك المسلمين لهذا البيت الذى فيه آثار المسيح عليه السلام فعاد إلى أوروبا شاكياً باكياً مستغيثاً متضرعاً واستعان بسلطان البابا أوربانس الثانى الذى كان إذ ذاك صاحب الكلمة العليا فى أوروبا فأعانه وعقد المؤتمرات لبث الحمية الدينية فى قلوب المسيحين فنجح فى ذلك ولا سيما أنه أعطى امتيازات لها قيمة لمن يتطوع فى هذه الحرب فتألفت جيوش عظيمة سارت إلى طلبتها فى (٢٥ أغسطس سنة ١٠٩٦) (٤٨٩) يقدمها بطرس الراهب وغيره إلا أن هذه الحملة لم تنجح فى مسيرها لأنها

لم تكن ذات نظام عسكرى فعاثت فى الأرض فساداً فقاومها البلغاريون والهونفريون وأفنوا كثيراً منها والذين تخلصوا وجازوا البحر عند القسطنطينية إلى آسيا أخذتهم سيوف السلطان قليج أرسلان عند قونية فلم ينج منهم أحد وهذه هى الحملة الأولى من الحرب الصليبية الأولى قامت على أثرها حملة أخرى وهى الحملة الثانية يقدمها غودا فرودى بوليون دوق دى لورين السفلى ومعه عدد وافر من قواد فرنسا والنمسا وجيش آخر يقدمه هوكز أخو ملك فرنسا ومعه عدد من القواد وجيش ثالث يقدمه بوهيمند أمير تارنت الإيطالى.

سارت هذه الجيوش ومرت بالقسطنطينية بعد خطوب نالتهم من ملك الروم اليكسيوس ثم عبرت المجاز قاصدة مدينة قونية التى كانت من أعمال قليج أرسلان وعددهم عظيم جداً فلقيهم ذلك السلطان مدافعاً عن ملكه فتغلب عليه الصليبيون لكثرة عددهم ثم حصروا قونية نحوخمسين يوماً وفى نهايته سلمت حامية هذه المدينة لكنها لم تسلم للصليبيين بل سلمت قائد ملك الروم الذى أرسل مع الصليبيين لهذه الغاية وكان هذا العمل سبباً لغيظ قوادهم أصاب هذا الجيش بعد ذلك نكبات شديدة جداً فى مسيره ففنى كثير منه بالحرب والجوع والتعب والأوبئة والاختلاف الكثير بين القواد الذين كان لكل منهم مقصد فى العلو والرفعة وقد انفصل عنهم وهم سائرون أحد القواد وهو بودوين وسار إلى الجزيرة الفراتية فامتلك مدينة الرها وكانت للروم إذ ذاك.

صار القوم إلى أنطاكية وكان حاكمها أحد قواد السلجوقية باغيسيان فحصروها تسعة أشهر وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره فهلك أكثر الإفرنج وبعد هذا الحصر استولوا على المدينة بخيانة أحد المستحفظين للأبراج الذى بذل له الإفرنج مالاً وأقطاعاً وكان الإفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق: إننا لا نقصد غير البلاد التى كانت للروم لا نطلب سواها وإنما فعلوا ذلك معهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية وقد كان ما أرادوا. سار الإفرانج بعد ذلك إلى معرة النعمان فامتلكوها.

كان البيت المقدس فى تلك الأيام قد خرج من حوزة السلاجقة وامتكله المصريون فإنهم لما علموا بما أصاب الأتراك على أنطاكية أرسلوا جيشاً يقدمه الأفضل بن بدر الجمالى فاستولى عليه من يد الأمير لقمان بن أرتق التركمانى واستناب فيه رجلاً يعرف بافتخار الدولة وهوالذى تلقى حملة الصليبيين الذين حضروا إليه بعد أن حصروا عكا ولم يقدروا على فتحها. حصروا بيت المقدس نيفاً وأربعين ليلة وأخيراً استولوا عليه فى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان (سنة ٤٩٢) ولم يكن منهم ما يحمد عليه المحارب الشجاع بل أساءوا معاملة أهله وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد صحبة

القاضى أبى سعيد الهروى فأوردوا فى الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا والسلطانان السلجوقيان بركياروق ومحمد إذ ذاك يتطاحنان يريد كل منهما الانفراد بالملك وإقصاء أخيه عنه.

ولما تم للإفرنج ما طلبوا من الاستيلاء على البيت المقدس انتخبوا القائد غودافر ليكون ملكاً هناك ولكنه لم يرض أن يلقب بلقب ملك بل بحامى قبر المسيح وأقام معه بعض الجنود ورحل سائرهم إلى أوطانهم.

وضع غودافر قانوناً لإدراة مملكته الجديدة إلا أن زمنه لم يطل فإنه توفى فى (١٨يوليوسنة ١١٠٠) فأقيم مقامه بودوين ملك الرها وشقيق غودافر وأعلم بذلك فقبله وأقام بدله فى ملك الرها ابن عمه بودوين دى بورغ ملكاً على الرها وسار هوإلى حاضرة ملكه وهوالمعروف فى التواريخ العربية باسم بردويل. هكذا وجدت مملكة إفرنجية فى وسط أملاك المسلمين لأول مرة ولم يتركها المسلمون براحة بال ولا هى تركتهم بل كانت الحروب متصلة بين الطرفين: المصريون يناوشونهم من الجنود والأتراك من الشرق. ولم تكن المملكة الإفرنجية واحدة فى البلاد التى استولوا عليها بل كانت جملة ممالك مملكة القدس وأنطاكية والرها وغير ذلك إلا أن المملكة الكبرى كانت مملكة القدس. وسنتكلم فى حوادثها عند ظهور الدولة الأتابكية والدولة الأيوبية اللتين أججتا نار الحرب مع هؤلاء الإفرنج.

٢٩
المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر ولاه أبوه بالعهد فبويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه والده (١٦) ربيع الآخر (سنة ٥١٣) (٧أغسطس سنة ١١١٨) واستمر خليفة إلى أن قتل فى يوم الأحد (١٧) ذى القعدة (سنة ٥٢٩) (٣٠ أغسطس سنة ١١٣٥).

كان سلطان العراق لأول عهده هوالسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان السلطان سنجر بن ملكشاه فى ذلك الوقت ملك خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر إلى غزنة وخوارزم وقد عظمت دولته وهوشيخ البيت السلجوقى وعظميه. فلما توفى أخوه محمد وجلس ابن أخيه محمود وهو زوج ابنته لحقه لوفاة أخيه حزن أليم وجزع وجلس للعزاء على الرماد وتقدم الخطباء يذكرون السلطان محمداً بمحاسن أعماله من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك وكان يلقب ناصر الدين فلما توفى أخوه تلقب معز الدين وهولقب أبيه ملكشاه وعزم على قصد الجبل والعراق وما بيد ابن أخيه محمود. ثم إن السلطان محموداً أرسل إلى عمه سنجر وفداً معه الهدايا والتحف وطلب إليه أن ينزل له عن مازندران فغاظه هذا الطلب وقال إن ولد أخى صبى وقد تحكم عليه وزيره وحاجبه وصمم على المسير فسار وكذلك فعل السلطان محمود والتقيا عند الرى بالقرب من ساوة وكان العسكر المحمودى قد استهان بالعسكر السنجرى لكثرة الأولين وشجاعتهم وكثرة خيلهم ولما حصل اللقاء انهزمت ميمنة سنجر وميسرته وسارت جنودهما لا تلوى على شئ أما سنجر فكان واقفاً فى القلب وأمامه السلطان محمود وقد أشار بعض المقربين من سنجر عليه أن ينهزم فقال: إما النصر وإما القتل وأما الهزيمة فلا، وهجم بفيلته على قلب محمود هجوماً شديداً فتراجعت خيل محمود على أعقابها وكان بذلك هزيمة السلطان محمود ولما تم النصر لسنجر أرسل من رد المنهزمين من جنده. ورد الخبر إلى بغداد فى عشرة أيام فأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل. أما محمود فإنه سار إلى أصبهان ومعه وزيره وبعض أمرائه وأما سنجر فسار

إلى همذان وهناك راسل ابن أخيه الصلح وكانت والدة سنجر تشير عليه بذلك وتقول قد استوليت على غزنة وأعمالها وما وراء النهر وملكت ما لأحد قدر عليه وقررت الجميع على أصحابه فاجعل ولد أخيك كأحدهم فأجاب إلى قولها وبعد مطاولات تقرر الصلح وسار محمود إلى عمه سنجر ونزل على جدته أم السلطان سنجر وأكرمه عمه وبالغ فى إكرامه وحمل له محمود هدية عظيمة فقبلها ظاهراً وردها باطناً ولم يأخذ منه سوى خمسة أفراس عربية وكتب السلطان سنجر إلى جميع عماله أن يخطب لمحمود من بعده حيث جعله ولى عهده ورد عليه جميع ما أخذ منه سوى الرى.

ولم يكد السلطان محمود ينتهى من هذا النزاع بينه وبين عمه حتى قام ضده أخوه مسعود بن محمد وكان لمسعود حينئذ الموصل وأذربيجان وذلك (سنة ٥١٤) وقد أجج الأمراء نار هذا الخلاف لينالوا من وراء ذلك حظوظهم ولا يبالون بالمملكة الإفرنجية التى صارت شوكة فى جنوبهم وكان وزير مسعود هوالأستاذ أبوإسماعيل الحسين بن على الأصفهانى وهو الذى حسن لمسعود أن يقوم مطالباً بالمملكة ولما بلغ ذلك محموداً كتب إليهم يخوفهم إن خالفوه ويعدهم الإحسان إن أقاموا على طاعته وموافقته فلم يصغوا إلى قوله وأظهروا ما كانوا عليه وما يسرونه وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النواب الخمس ثم سار كل منهم إلى لقاء صاحبه فالتقوا عند عقبة أسداباذ واقتتلوا من بكرة إلى آخر النهار وأبلت الجنود المحمودية بلاء حسناً فانهزم عسكر مسعود آخر النهار وأسر جماعة من مقدمى جنودهم ومنهم الوزير أبوإسماعيل الطغرائى فأمر السلطان بقتله وقال قد ثبت عندى فساد دينه واعتقاده وكان حسن الكتابة والشعر.

ثم أرسل محمود وراء أخيه من لحقه وأتى به بعد أن بذل له الأمان فاستقبله استقبالاً عظيماً ووفى له بما بذله وخلطه بنفسه فى كل أفعاله فعد ذلك من مكارم محمود ولا عجب فقد علمه سنجر.

كان الخليفة المسترشد بالله فى هذا العصر قد استرد شيئاً من نشاط العباسيين وقاد الجيوش بنفسه لحرب المخالفين عليه وأهمهم دبيس بن صدقة ملك الحلة ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل ولا شك أن الملوك السلجوقيين لا يقع ذلك عندهم موقع الاستحسان فإنهم يتخوفون عاقبته ويرون فيه خطراً على نفوذهم ومما يدل على ذلك منحه قوة لم تكن لسلفه أن شحنة بغداد برنقش الذكوى حصل بينه وبين نواب الخلافة نفرة فتهدده الخليفة فخاف فسارعن بغداد إلى السلطان محمود وشكا إليه وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قاد العساكر ولقى الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله بقصد العراق ودخول

بغداد ازداد قوة وجمعاً ومنعك عنه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده فأثر ذلك الكلام في نفس السلطان وتوجه نحو العراق فأرسل إليه الخليفة يعرفه بالبلاد وما عليه أهلها من الضعف والوهن وأن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والأقوات لهرب الأكرة ويطلب منه أن يؤخر حضوره حتى تصلح الأحوال وبذل له على ذلك مالاً كثيراً فكان هذا مما زاد في إغراء السلطان حتى قصد بغداد فسار مجداً ولما بلغ الخليفة الخبر أظهر الغضب والنزوح عن بغداد واستعد لذلك إن جاء السلطان فأثر ذلك في أنفس العامة تأثيراً عظيماً حتى أكثروا البكاء والضجيج ولما أعلم السلطان بذلك أرسل يستعطف الخليفة ويطلب إليه العودة إلى داره فأبى إلا أن يعود السلطان ولا يحضر إلى بغداد فلم يلتفت السلطان إلى قوله واستمر قاصداً بغداد أما الخليفة فاستعد لمقابلته بالقوة وكان معه كثير من العامة والجند يدافعون عنه تديناً وقد حصلت مناوشات بين الفريقين في أول (سنة ٥٢١) وكان مع كل جمع عظيم ولما رأى المسترشد بالله ذلك جنح إلى الصلح الذي طلبه السلطان محمود فتم ذلك وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد فلم يفعل وقال لا تساوى الدنيا فعل مثل هذا وأقام ببغداد إلى رابع شهر ربيع الآخر (سنة ٥٢١) ثم فارقها بعد أن حمل إليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة.

وفي (سنة ٥٢٤) ملك السلطان محمود قلعة الموت من يد صاحبها الحسن بن الصباح.

وفي (سنة ٥٢٥) توفي السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان حليماً كريماً عاقلاً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفاً عنها كافاً لأصحابه عن التطرق إلى شئ منها.

لما توفي خطب لولده داود بالسلطنة في بلاد الجبل وأذربيجان إلا أنه قام ضده ابن عمه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه فكان الظفر لمسعود وخطب له بالسلطنة على منابر بغداد إلا أن هذا لم يرق لعميد البيت ورئيسه السلطان سنجر فأقبل من خراسان قاصداً دفع مسعود عن السلطنة وسار إليه مسعود فالتقيا بعولان عند الدينور وكانت النتيجة أن انهزم مسعود وفل جيشه وتحكم سنجر فيما بقي ثم أرسل وراء ابن أخيه من يرده فرده إليه فلما حضر عنده قبله وأكرمه وعاتبه على عصيانه ومخالفته ولم يعده إلى السلطنة بل رده إلى كنجه وأجلس الملك طغرك ابن أخيه محمد مكانه وخطب له في جميع البلاد ثم عاد إلى نيسابور فلما رأى ذلك مسعود خرج من مكمنه وتوجه إلى بغداد ثانياً بما جمعه من الجيوش فدخلها فقابله الخليفة بالإكرام ووعده أن يرسل معه جيشاً لمحاربة طغرك وقد وفى بما وعد فسارت الجنود المسعودية صوب طغرك حتى التقوا به عند همذان فكانت بينهما موقعة انهزم فيها طغرك واستقر الأمر ثانية للسلطان (غياث الدنيا والدين أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه).

كان هذا الخلاف بين البيت السلجـوقى مقوياً للمسترشد فصار يعـد نفسه صاحب الأمر الذى يجب أن يطاع لا بالقوة المعـنوية وحدها بل بقوة السـيف أيضاً. فقد صـار تحت أمره أجناد ورجال يلبون دعـوته وينفذون كلمته وقد حصل بسـبب ذلك نفرة بينه وبين السلطان مسعود أدت إلى أن أمر الخليفة بقطـع خطبة مسعود من منابر بغداد ولم يقف عند ذلك بل تجهـز بجيشـه يريد حرب مسعـود بدار سلطنته ومـعه الجنود الكثيـرة إلا أنها لم تكن ذات عصبية تصدق عند الـلقاء فإن العصبية الجنسية غلابة مهـما كانت الأحوال ولذلك لما التقى الطرفان انحاز كثيـر من عسكر الخليفة الأتراك إلى السلطان مسعود فانـهزم جند الخليفة أما هو فبقى ثابتاً حـتى أسر ولما بلغ ذلك الخبر بغداد قامت قيامـة أهلها وخرجوا من الأسواق يحثـون التراب على رؤوسهم ويبكون ويصـيحون وخـرجت النساء حاسـرات فى الأسواق يلطمن.

أما الخليفة فقد جعله السلطان فى خيـمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما فى تقرير قواعد الصـلح على مال يؤديه الخليفة وألا يعود إلى جمع العساكر وألا يخرج من داره فأجيب إلى ذلك ولم يبق إلا أن يعود الخليفة إلى بغداد إلا أنه صادف أن هجم على خيمة الخليفة جمـاعة من الباطنية فقتلوه ومثلوا به وكان ذلك فى يوم الأحد (١٧) ذى القعدة على باب مـدينة مراغة وكان المسترشـد شهماً شجاعاً كـثير الإقدام بعيـد الهمة وكان فـصيحـاً بليغاً حـسن الخط. قال ابن الأثير: ولقـد رأيت خطه فى غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصـحه: ولقد حاول أن يعيد شيئاً من مجد أهل بيته فحالت الأقدار بينه وبين ما أردا.

٣٠

الراشد بالله

بويع بالخلافة بعد المسترشد بالله ابنه أبوجعفر المنصور الراشد بالله وكان ولى العهد فلما مات أبوه جددت له البيعة فى (٢٧) من ذى القعدة وكتب السلطان إلى شحنة بغداد بالبيعة له وحضر بيعته (٢١رجلاً) من أولاد الخلفاء.

ولم يكن السلطان مسعود مع الراشد أسعد حظاً من أبيه معه، بل حاول الراشد أن يثأر لأبيه ويخل سلطنة مسعود فاتفق مع داود ابن السلطان محمود أخى مسعود ومع كثير من أمراء الأطراف على مقاومة مسعود وخلعه. ولما سمع بذلك مسعود أقبل مسرعاً صوب بغداد ولما وصلها حصرها لامتناع الخليفة ومن معه بها ولكن سرعان ما اختلفت كلمة الأمراء الذين حالفوا الخليفة وتفرقوا تاركين بغداد حتى أكبرهم شأنا عماد الدين زنكى صاحب الموصل ولما رأى الخليفة ذلك بارح بغداد فى رفقة عماد الدين ولما رأى مسعود ذلك دخل بغداد ظافراً وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التى حلف الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده إنى متى جندت أوخرجت أولقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسى من الأمر. فأفتوا بخروجه من الخلافة. وكانت خلافته (١١ شهراً و١١ يوماً).

٣١
المقتفى لأمر الله

هو أبو عبد الله الحسين المقتفى لأمر الله بن المستظهر، اختاره السلطان مسعود للخلافة بعد أن كتب محضراً بخلع ابن أخيه الراشد من الخلافة وكانت بيعته فى ثامن ذى الحجة (سنة ٥٣٠) (٧سبتمبر سنة ١١٣٦) واستمر فى الخلافة إلى أن توفى ثانى ربيع الأول (سنة ٥٥٥) (١٢ مارس سنة ١١٦٠) فكانت خلافته (٢٤سنة) وثلاثة أشهر و١٦ يوماً وكان عمره إذ توفى (٦٦ سنة).

ولما بايع السلطان المقتفى صاهره فزوجه أخته فاطمة على صداق مائة ألف دينار وبذلك أمن السلطان أن يكون الخليفة ضده. وقد حاول الخليفة المعزول أن يعيد لنفسه الخلافة فاتحد مع الملك داود ابن السلطان محمود ولكنه مع ما بذله من المجهود العظيم لم ينجح فقد ائتمر به جماعة من الباطنية فسقوه الردى بنواحى أصفهان.

استمر السلطان مسعود فى سلطانه مع كثرة المخالفين والخارجين عليه من أهل بيته ومن أمرائه إلى أن توفى (سنة ٥٤٧) بهمذان وذلك على رأس مائة سنة من الخطبة ببغداد للسلطان طغرلبك، وماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقى فلم تقم له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت إليها. وكان رحمه الله حسن الأخلاق كثير المزاح والتبسط مع الناس وكان كريماً عفيفاً عن أموال الرعية حسن السيرة فيهم. من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الأخلاق وكان مسعود قد عهد بالسلطنة بعده لابن أخيه ملكشاه ابن السلطان محمود.

أما الخليفة فإنه لما بلغه وفاة مسعود طرد شحنة السلجوقية بها وأخذ داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ كل مالهم فيها وكل من عنده وديعة لأحد منهم أحضرها بالديوان وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم بإراقة الخمور من مساكن أصحاب السلطان وأرسل جنوده فاستولت على سائر البلاد العراقية الحلة وواسط وغيرها وخرج بنفسه ليقوى جنده.

أصبح ذلك الملك العظيم الذى أسسه طغريل بك وإخوته ورفع بنيانه ملكشاه أصبح نهباً تقاسمته دول شتى تعرف بالدولة الأتابكية وها نحن أولاء نقص حديثها.

الأتابكية

من الدولة التركية التى زاحمت دولة السلاجقة وسامتها الدولة الأتابكية وبيوتها شتى لا تنتهى إلى نسب واحد إلا أنها يجمعها الاتصال بالبيت السلجوقى. وأتابك كلمة تركية معناها مربى الملك فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قوادهم بهذا الامتياز أطلقوا عليه هذا اللقب واستحق به أعلى درجات التكريم والاحترام.

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكية إلى درجة الملك فى بعض الأقاليم الإسلامية وأورثوا أبناءهم ملكهم ويطلق على هؤلاء الأسر الأتابكية ومعهم دول يتنسبون أيضاً إلى ولاء السلاجقة ولا يلقبون بهذا اللقب بل بلقب شاهات وسنسوق أخبارها بالإجمال حسب ترتيب ظهورها.

١- شاهات خوارزم

ينسبون إلى محمد بن أنوشتكين وكان أبوه أنوشتكين مملوكاً لأمير من أمراء السلجوقيين اسمه بلكباك اشتراه من رجل من غرشستان فقيل له أنوشتكين غرشمه فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف وكان مقدماً مرجوعاً إليه وولد له ولد سماه «محمداً» وهو بانى هذا البيت علمه أبوه وخرجه وأحسن تأديبه وتقدم بنفسه بالعناية الإلهية فولاه الأمير حبشى قائد بركياروق خوارزم ولقبه خوارز مشاه فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب أهل العلم والدين فازداد ذكره حسناً ومحله علواً. ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقر محمداً خوارز مشاه على خوارزم وعمالها فظهرت كفايته وشهامته فعظم سنجر محله وقدره. ولم يزل على جلالة القدر والكفاية إلى أن توفى (سنة ٥٢١) فولى بعده ابنه أتسر فقربه السلطان سنجر وعظمه واعتضد به واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهادة فزاده تقدماً وعلواً ورسخت أقدام هذا البيت فى الملك وقد استمر إلى (سنة ٦٢٨) حيث زال على أيدى التتر الذين هاجموا البلاد الإسلامية بزعامة جنكيز خان كما سيأتى توضيحه؛ وهذا ثبت ملوك الخوارز مشاهية.

١ ـ سبكتكين	٤٧٠ ـ ٤٩٠
٢ ـ قطب الدين محمد بن أنوشتكين	ـ ٥٢١

٣ ـ أتسز بن محمد	ـ ٥٥١
٤ ـ أرسلان بن أتسز	ـ ٥٦٨
٥ ـ سلطان شاه محمود بن أرسلان	ـ ٥٦٨
٦ ـ تكش بن أرسلان	ـ ٥٩٦
٧ ـ علاء الدين محمد بن تكش	ـ ٦١٧
٨ ـ جلال الدين منكبرتى بن محمد	ـ ٦٢٨

وعلى يد هذه الدولة انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما إليها من بلاد الرى والجبل وما وراء النهر.

٢ـ الدولة الأرتقية

تنسب هذه الدولة إلى أرتق بن أكسب التركمانى وهومملوك من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقى وقائد من قواده.

وأول من أسس هذا البيت معين الدولة سقمان بن أرتق استولى على حصن كيفا (سنة ٤٩٥) من يد الأمير موسى التركمانى فى عهد السلطان بركياروق بن ملكشاه ثم ضم إليها ماردين.

وفى (سنة ٦٠٢) انقسمت هذه المملكة الصغيرة إلى مملكتين إحداهما بالحصن والثانية بماردين فأما مملكة الحصن فاستمرت إلى (سنة ٦٢٠) وانتهت على أيدى الأيوبيين ـ وأما مملكة ماردين فاستمرت إلى (سنة ٨١١) أى بعد ظهور آل عثمان بمائة وإحدى عشرة سنة وانتهت على يد قرة قيونلى وهذه أسماء ملوك الحصن:

١ ـ معين الدولة سقمان بن أرتق	٤٩٥ ـ ٤٩٨
٢ ـ إبراهيم بن سقمان	ـ ٥٠٢
٣ ـ ركن الدين داود بن سقمان	ـ ٥٤٣
٤ ـ قمر الدين قره أرسلان بن داود	ـ ٥٧٠
٥ ـ نور الدين محمد بن أرسلان	ـ ٥٨١
٦ ـ قطب الدين سقمان بن محمد	ـ ٥٩٧

٧ ـ ناصر الدين محمود بن محمد	ـ ٦١٩
٨ ـ ركن الدين مودود بن محمود	ـ ٦٢٠

وهذه أسماء ملوك ماردين:

١ ـ نجم الدين غازى بن أرتق	٥٠٢ ـ ٥١٦
٢ ـ حسام الدين تيمور تاش بن غازى	ـ ٥٤٧
٣ ـ نجم الدين ألبى بن تيمور تاش	ـ ٥٧٢
٤ ـ قطب الدين غازى بن ألبى	ـ ٥٨٠
٥ ـ حسام الدين يولق بن أرسلان بن غازى	ـ ٥٩٧
٦ ـ ناصر الدين أرتق أرسلان بن غازى	ـ ٦٣٧
٧ ـ نجم الدين غازى بن أرتق أرسلان	ـ ٦٥٨
٨ ـ قره أرسلان بن غازى	ـ ٦٦١
٩ ـ شمس الدين داود بن قره أرسلان	ـ ٦٩٣
١٠ ـ نجم الدين غازى بن قره أرسلان	ـ ٧١٢
١١ ـ شمس الدين صالح بن غازى	ـ ٧٦٥
١٢ ـ المنصور أحمد بن صالح	ـ ٧٦٩
١٣ ـ الصالح محمود بن أحمد	ـ ٧٦٩
١٤ ـ المظفر داود بن صالح	ـ ٧٧٨
١٥ ـ الظاهر مجد الدين عيسى بن داود	ـ ٨٠٩
١٦ ـ صالح بن داود	ـ ٨١١

وصالح هذا آخر ملك من موالى السلجوقين.

٣ـ أتابكية دمشق

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٤٩٧) وأول ملوكها سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين وأصله

مملوك للملك تتش بن ألب أرسلان أول سلاجقة سوريا ثم صار من قواده الذين يعتمد عليهم وكان أتابك ولده دقاق. وبعد قتل تتش استمر مع ولده دقاق وكان سنده وظهيره فلما توفى دقاق (سنة ٤٩٨) خطب أتابك لولد له صغير وجعل اسم المملكة فيه سنة واحدة ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل وله من العمر (١٢سنة) وأشار عليه أن يقصد الرحبة فقصدها فملكها ولما عاد منها منعه طغتكين من دخوله دمشق وأعاد خطبة الطفل ولد دقاق. وقد حاول بكتاش أن يسترد ملكه واستعان على ذلك بملك الإفرنج فى القدس فلم ينجح واستمر ملك دمشق لطغتكين فأحسن إلى الناس وبث فيهم العدل فسروا به سروراً كثيراً وقد استمر الملك فى عقبه (٥٢سنة) وانتهى على يد آل زنكى (سنة ٥٤٩) وهذا ثبت ملوكهم:

١ ـ سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين	٤٩٧ ـ ٥٢٢
٢ ـ تاج الملوك بورى	ـ ٥٢٦
٣ ـ شمس الملوك إسماعيل	ـ ٥٢٩
٤ ـ شهاب الدين محمود	ـ ٥٣٣
٥ ـ جمال الدين محمود	ـ ٥٣٤
٦ ـ مجير الدين أبق	ـ ٥٤٩

٤ـ أتابكية الموصل

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٢١) وتنسب إلى عماد الدين زنكى بن أق سنقر وكان أق سنقر مملوكاً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى وكان معدوداً من كبار القواد جعله ملكشاه من قواد أخيه تتش ولما ملك حلب استنابه فيها ثم التحق بالسلطان بركياروق بعد وفاة ملكشاه وسار فى خدمته وكان تتش يمنىّ نفسه بملك العراق فجهز الجيوش ليسطو عليها فأرسل بركياروق إليه الجنود عليهم أق سنقر فالتقى الفريقان عند نهر سبعين قريباً من تل السلطان بينه وبين حلب ستة فراسخ واقتتلوا فانهزم من مع أق سنقر وثبت هوفأسر ثم قتل صبراً وكان أحسن الأمراء سياسة وحفظاً لرعيته.

وقد نشأ ابنه أتابك عماد الدين زنكى فى كهف الدولة السلجوقية واهتم به ملوكهم لما لأبيه من الأيدى البيضاء فى حفظ بيتهم ولأنه قتل فى الدفاع عنهم فنشأ نشأة عالية ذا همة مقداماً وكانوا يستعينون به فى مهماتهم فيكفيهم إياها وما زال ينبه ذكره وتقوى همته حتى

ولاه السلطان محمود مدينة الموصل (سنة ٥٢١) ليقوم بحفظها وإصلاح شأنها وجعله أتابك ولده فروخ شاه المعروف بالخفاجى ليربيه.

أظهر زنكى فى ولايته كفاية وقوة وصلاحاً وكان له فى جهاد الصليبيين همة لا تزال تذكر له وهورأس الأتابكية من بيت زنكى. وقد انقسمت إلى أربعة دول.

الأولى: أتابكية الموصل وهذا ثبت ملوكها.

١ ـ أتابك عماد الدين زنكى	٥٢١ ـ ٥٤١
٢ ـ سيف الدين غازى بن زنكى	ـ ٥٤٤
٣ ـ قطب الدين مودود بن زنكى	ـ ٥٦٥
٤ ـ سيف الدين غازى بن مودود	ـ ٥٧٦
٥ ـ عز الدين مسعود بن مودود	ـ ٥٨٩
٦ ـ نور الدين أرسلا نشاه بن مسعود	ـ ٦٠٧
٧ ـ عز الدين مسعود بن أرسلانشاه	ـ ٦١٥
٨ ـ نور الدين أرسلانشاه بن مسعود	ـ ٦١٦
٩ ـ نصير الدين محمود بن مسعود	ـ ٦٣١
١٠ ـ بدر الدين لؤلؤ	ـ ٦٥٧
١١ ـ إسماعيل بن لؤلؤ	ـ ٦٦٠

وبدر الدين لؤلؤ (ليس) من هذا البيت بل هو مولاهم استقل بأمر الملك بعد سيده نصير الدين محمود وقد انتهت هذه الدولة على يد المغول.

٥ـ أتابكية سوريا

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٤١) وهى السنة التى قتل فيها عماد الدين زنكى فإن مملكته انقسمت بين ولديه سيف الدين غازى الذى ملك الموصل ومحمود نور الدين الذى ملك حلب وانتهت (سنة ٥٧٧) على أيدى الأيوبيين ولم يكن منها إلا ملكان أحدهما محمود نور الدين بن زنكى والثانى الصالح إسماعيل بن محمود. ومحمود نور الدين هذا هوأستاذ صلاح الدين يوسف بن أيوب والرجلان كلاهما له القدم الثابتة فى جهاد الصليبيين.

٦ـ أتابكية سنجار

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٦٦) بعد وفاة قطب الدين مودود صاحب الموصل فإن بلاده انقسمت بين ولديه سيف الدين غازى بن مودود الذى كان ولى عهد أبيه وهوأصغر الأخوين وهذا ملك الموصل والثانى عماد الدين زنكى ابن مودود وهذا ملك سنجار وما معها بواسطة عمه نور الدين محمود وانتهت هذه الدولة (سنة ٦١٧) على أيدى الأيوبيين وهذا ثبت ملوكها:

١ ـ عماد الدين زنكى بن مودود	٥٦٦ ـ ٥٩٤
٢ ـ قطب الدين محمد بن زنكى	ـ ٦١٦
٣ ـ عماد الدين شاهنشاه	ـ ٦١٦
٤ ـ عمر	ـ ٦١٧

٧ـ أتابكية الجزيرة

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٧٦) بعد وفاة سيف الدين غازى بن مودود صاحب الموصل فإن بلاده انقسمت بين ولديه عز الدين مسعود وهوالأكبر وهذا ملك الموصل، والثانى سنجر شاه بن مسعود وهذا ملك جزيرة ابن عمر وقد بقيت فى يد أولاده إلى (سنة ٦٤٥) حيث أخذها الأيوبيون الذين تولوها هم:

١ ـ معز الدين سنجرشاه	٥٧٦ ـ ٦٠٥
٢ ـ معز الدين محمود بن سنجرشاه	ـ ٦٤٨
٣ ـ مسعود بن محمود	ـ ٦٤٨

٨ـ أتابكية إربل

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٣٩) أسسها زين الدين على كجك بن بكتكين وهومملوك تركمانى لعماد الدين زنكى جعله أتابك ولده قطب الدين مودود وقد فتح بلاداً كثيرة فى بدء الدولة الزنكية كان بيده مهنا سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية وتكريت وشهر زور وغيرها واستمر كذلك إلى (سنة ٥٦٣) وقبل أن يموت سلم جميع ما بيده إلى قطب الدين مودود ولم يبق له سوى إربل فسار عن الموصل وأقام بها وفى هذه السنة توفى فولى بدله ابنه زين الدين أبوالمظفر يوسف وهوالصغير تعصب له مجاهد الدين

قايماز وكان أخوه الأكـبر مظفر الدين كوكبورى فحـاول أن يكون بدل أبيه فلم يحصل على بغيته فسار إلى الموصل وملكها يومئذ سـيف الدين غازى بن مودود فأقطعه حران فأقام بها مدة ثم انتقل إلى خدمة صلاح الدين يوسف فحظى عنده وتمكن منه وزاد صلاح الدين فى أقطاعه الرها وزوجه أخته وقد حضر معه كـثيراً من مشاهده وأظهر نجدة وعزيمة فلما توفى أخوه يوسف (سنة ٦٨٣) رده صلاح الدين إلـى ملكه بإربل فاستقر فـيه إلى أن مات (سنة ٦٣٠) وأوصى ببلاده قبل موته للخليفة العباسى فبقيت بأيدى العباسيين إلى أن جاء المغول فأخذوها فيما أخذوا.

٩ـ أتابكية أذربيجان

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٣٦) ومؤسسها هوالأمير إيلدكز وكان مملوكاً للكمال السميرى وزير السلطان محمود الـسلجوقى فلما قتل الكمال سار إيلدكز إلـى السلطان محمود. ولما ولى السلطان مسعود السلطنة ولاه أرانية فمضى إليـها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره. ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغـيرها وأصفهان والرى وما إليهما من البلاد وخطب بالسلطنـة لأرسلانشاه بن طغرك وهو ربيـبه وكان عسكره خـمسين ألف فارس سوى الأتباع واتسع ملكه من باب تفليس إلى مكران ولم يكن للسلطان أرسلان معه حكم إنما كانت له جراية تـصل إليه وكان إيلدكز عاقـلاً حسن السيرة يجلس بنفسـه للرعية ويسمع شكواهم وينصف بعضهم من بعض وهذا ثبت ملوك هذا البيت:

١ ـ شمس الدين إيلدكز	٥٣١ ـ ٥٦٨
٢ ـ محمد البهلوان جهان بن إيلدكز	ـ ٥٨١
٣ ـ قزيل أرسلان عثمان بن إيلدكز	ـ ٥٨٧
٤ ـ أبوبكر بن محمد	ـ ٦٠٧
٥ ـ مظفر الدين أزبك بن محمد	ـ ٦٢٢

وقد انتهت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم.

١٠ـ أتابكية فارس (الدولة السلغرية)

ابتـدأت هـذه الدولـة بفـارس (سنة ٥٤٣) وتنسـب إلى سلغر أحد قواد التـركمان

ى عـهـد السـلاجـقـة وكانـــت نهايـتهـا (ســـنة ٦٨٦) على أيدى المغـول وهذا ثبت وكها.

١ ـ سنقر بن سلغر	٥٤٣ ـ ٥٥٧
٢ ـ زنكى بن سنقر	ـ ٥٨١
٣ ـ دكلا بن زنكى	ـ ٥٩١
٤ ـ سعد بن زنكى	ـ ٦٢٣
٥ ـ أبوبكر بن سعد	ـ ٦٥٨
٦ ـ محمد بن سعد	ـ ٦٦٠
٧ ـ محمد شاه بن محمد	ـ ٦٦٠
٨ ـ سلجوقشاه بن سلغر بن سعد	ـ ٦٦٠
٩ ـ أبيش بن سعد بن أبى بكر	ـ ٦٨٦

١ـ أتابكية لورستان (الهزارسبية)

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٤٣) وهـى من فروع الدولة السلغرية أتابكيـة فارس أسـسـه طاهر أحد قوادهم وهذا ثبت ملوكهم:

١ ـ أبوطاهر بن محمد	٥٤٣ ـ ٦٠٠
٢ ـ نصرة الدين هزارسب بن أبى طاهر	ـ ٦٥٠
٣ ـ دكلا بن هزارسب	ـ ٦٥٧
٤ ـ شمس الدين ألب أرغور بن هزارسب	ـ ٦٧٣
٥ ـ يوسف شاه الأول بن ألب أرغو	ـ ٦٨٧
٦ ـ أفراسياب الأول بن يوسف	ـ ٦٩٦
٧ ـ نصرة الدين أحمد بن ألب أرغو	ـ ٧٣٣
٨ ـ ركن الدين يوسف شاه الثانى بن أحمد	ـ ٧٤٠

٩ ـ مظفر الدين أفراسياب الثانى بن يوسف شاه	ـ ٧٥٦
١٠ ـ شمس الدين هوشانج بن أفراسياب الثانى	ـ ٧٨٠
١١ ـ أحمد	ـ ٨١٥
١٢ ـ أبوسعيد	ـ ٨٢٠
١٣ ـ حسين	ـ ٨٢٧
١٤ ـ غياث الدين	

وقد انتهت هذه الدولة على أيدى الدولة التيمورية.

اهات أرمينية

ابتدأت دولتهم (سنة ٥٨٣) ومؤسسها هوالأمير سقمان القطبى بمدينة خلاط وكان مملوكاً طب الدين إسماعيل السلجوقى صاحب مدينة من أذربيجان ومن ثم قيل له القطبى نشأ همماً كافياً وكانت خلاط لبنى مروان وظلموا واشتهر عدل سقمان فاتفق أهل خلاط كاتبوه فجاء وفتحوها له وسلموها إليه وهذه أسماء الملوك من هذا البيت.

١ ـ سقمان القطبى	٤٩٣ ـ ٥٠٦
٢ ـ ظهير الدين إبراهيم شاه أومن	ـ ٥٢١
٣ ـ أحمد	ـ ٥٢٢
٤ ـ ناصر الدين سقمان	ـ ٥٧٩
٥ ـ سيف الدين بكتيمور	٥٧٩ ـ ٥٨٩
كان مملوكاً لهم وهوصاحب ميافارقين	
٦ ـ بدر الدين أق سنقر	٥٨٩ ـ ٥٩٤
اسمه هزار دينارى وهومملوك أق سنقر وزوج ابنته	
٧ ـ المنصور محمد بن بكتيمور	٥٩٤ ـ ٦٠٣
٨ ـ عز الدين بلبان	ـ ٦٠٤

وقد انتهت دولتهم على أيدى الأيوبيين

الدولة الغورية

مما يضاف إلى الدول التى حدثت فى هذا العهد الدولة الغورية وهى دولة قامت على أطلال الدولة السبكتكينية. تنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها وهوالغور وهوجبال وولاية بين هراة وغزنة وهى بلاد باردة واسعة موحشة وهى مع ذلك لا تنطوى على مدينة وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروزكوه قام بهذه البلاد آل سام من (سنة ٥٤٣) وملكوا ما كان يملكه آل سبكتكين من بلاد الغور وأفغان والهند ولم يزل ملكهم قائماً إلى (سنة ٦١٢).

وأول من قام من هذا البيت قطب الدين محمد بن الحسين ملك بلاد الغور وصاهر بهرامشاه مسعود بن إبراهيم صاحب غزنة فعظم شأنه بهذه المصاهرة وعلت همته فعاجله بهرامشاه قبل أن يكون منه حدث عظيم فقتله فعظم قتله على الغورية وولوا بعده أخاه سيف الدين سورى بن الحسين فقوى أمره وتمكن فى ملكه فجمع عسكراً كثيراً وسار إلى غزنة طالباً بثأر أخيه فلما وصل غزنة ملكها وهرب عنها بهرامشاه إلى الهند فجمع جموعاً كثيرة وعاد إلى غزنة هو وأهلها معه فخرج سورى إلى لقائه فلما تصاف العسكران أسلم سورى جنوده فقهره بهرامشاه وصلبه واستعاد ملك غزنة (سنة ٥٤٤) وكان سورى أحد الأجواد له الكرم الغزير والمروءة العظيمة.

اختار الغورية بعده أخاه علاء الدين حسين بن الحسن ولقبه جهان سوز فأعاد الكرة على غزنة (سنة ٥٥٠) وملكها وأخرج عنها بهرامشاه واستعمل عليها أخاه سيف الدين محمداً وأجلسه على تخت المملكة لنفسه ولأخيه سيف الدين من بعده وتلقب علاء الدين بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية.

ومات علاء الدين (سنة ٥٥٦) فملك بعده غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام بن الحسن وكان عضده الأقوى أخوه شهاب الدين وقد حسنت سيرتهما وقويت جموعهما فملكا بلاد الغور والأفغان والهند وعلى يدهما انقرض ملك آل سبكتكين (سنة ٥٨٢) بعد أن ملكوا (٢١٣سنة) تقريباً.

ولما عظم ملك الغوريين وكثرت عساكرهم وأموالهم خطب لغياث الدين وتلقب بألقاب السلاطين وكان يدعى له على المنابر غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين.

وامتد ملك غياث الدين وأخيه على معظم بلاد خراسان ومعظم بلاد الهند تيسر لهما فتح الكثير منها وتدويخ ملوكها وقد بلغا منها ما لم يبلغه أحد قبلهما من ملوك المسلمين وجعل مدينة دهلى كرسى الممالك التى فتحها من بلاد الهند وأقطعها مملوكه قطب الدين

أيبك وقطب الدين هذا هومؤسس بيت سلاطين دهلى الذين استمر ملكهم من (سنة ٦٠٢) وهى السنة التى توفى فيها شهاب الدين الغورى إلى (سنة ٦٨٦) وهذا ثبت ملوك هذا البيت:

١ ـ أيبك قطب الدين	٦٠٢ ـ ٦٠٧
٢ ـ أرم شاه	ـ ٦٠٨
٣ ـ التمش شمس الدين	ـ ٦٣٣
٤ ـ فيروزشاه الأول ركن الدين	ـ ٦٣٤
٥ ـ رضيا	ـ ٦٣٨
٦ ـ بهرام شاه معز الدين	ـ ٦٣٩
٧ ـ مسعود شاه علاء الدين	ـ ٦٤٤
٨ ـ محمود شاه الأول نصر الدين	ـ ٦٦٤
٩ ـ بلبن غياث الدين	ـ ٦٨٦
١٠ ـ كيقباذ معز الدين	ـ ٦٨٦

وغياث الدين الغورى وأخوه شهاب الدين معدودان من ملوك الهند العظام والدولة الغورية هى ثانى مملكة هندية بعد الدولة السبكتكينية.

وفى عهد المقتفى حصلت الحرب الصليبية الثانية وسببها أن الإفرنج بالشام رأوا من محمود نور الدين ما هالهم فقد استولى على كثير من معاقلهم وحصونهم فقرروا طلب الإعانة والنجدة من البابا أوجانيوس الثالث وأرسلوا لذلك رسلاً أقامت عباراتهم الشديدة البابا وأقعدته وحركت من نفسه الغيرة وخشى أن يكون سلفه أسبق إلى الفوز منه فأرسل دعاته إلى فرنسا وملكها لويز السابع فأجاب الداعية وكان أعظم مؤثر فيهم ما أخبروا به من سقوط مملكة الرها بين يدى المسلمين وأرسلت الدعاة أيضاً إلى ألمانيا وملكها كونراد الثالث فأجاب الداعية أيضاً وكان لهذين الملكين الزعامة على جيوش هذه الحرب الثانية.

وقد وصل إلى القسطنطينية أولاً الملك كونراد الثالث بجيشه وكان ملكها عمانويل اليكسيوس الأول وكان يخاف من الصليبيين على مملكته فكاد لهم المكايد ثم تلاه لويس السابع بجيوشه.

ذهب الألمان أولاً مجتازين بلاد قرنية بلاد السلاجقة فلقيهم هؤلاء بحروب شديدة كسرت حدتهم وقتلت أكثرهم وجعلت زعيمهم يرتد خائباً كسيراً حتى قابل الجيوش الفرنسية فسار معهم بفلول جيشه حتى وصلوا إلى القدس بعد أن ذاقوا من العذاب ألواناً وذلك (سنة ٥٤٢) وبعد أن زاروا المدينة المقدسة قرروا الذهاب إلى مدينة دمشق والاستيلاء عليها وكان صاحبها إذ ذاك آخر الدولة الأتابكية وهومجير الدين أبق بن محمد بن بورى بن طغتكين والأمر فى دولته لمولاه معين الدين أنز. سار الملكان بجنودهما ومعهما جنود إفرنج الشام حتى وصلا دمشق (سنة ٥٤٣) وحاصروها فزحف إليهم أهل البلد مجدين فى ردهم وأبلوا بلاء حسنًا. وكان معين الدين قد أرسل يستنجد بسيف الدين غازى صاحب الموصل فأجاب الداعى وأقبل حتى أتى حلب واستصحب منها أخاه محموداً نور الدين وسارا حتى أتيا حمص ولما علم الصليبيون بذلك خافوا أن يقعوا بين نارين فرحلوا عن دمشق خائبين ورجعوا إلى بلادهم من غير أن يحدثوا أثراً وفى (سنة٥٤٩) استولى محمود نور الدين على دمشق.

هذه هى الدول التى ورثت ملك السلاجقة العظيم.

نعود الآن إلى بيان الحال بعد وفاة السلطان مسعود قلنا إنه كان عهد إلى ابن أخيه ملكشاه وخطب له فعلاً ولكن أحد قواد أبيه المعروف بخاص بك أرسل إلى الملك محمد بن محمود وهوبخوزستان يستدعيه وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد إليه فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة وخطب له بها وخدمه وبالغ فى خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم إنه دخل إلى الملك محمود ثانى يوم وصوله فقتله محمد ولم ينتطح فى قتله عنزان واستقر محمد فى السلطنة وأرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع من إجابته إلى ذلك فسار من همذان فى عساكر كثيرة نحوالعراق ووصل إليها فى ذى الحجة (سنة ٥٥١) وقد اهتم الخليفة ووزيره بأمر الدفاع عن بغداد وفرقا السلاح على الجند والعامة ونصبت المنجنيقات والعرادات وجرت بين الفريقين عدة حروب واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وكان بعض الذين يساعدون السلطان محمد لا يناصحونه لأجل الخليفة والمسلمين ففتروا وقصروا وبينما هم على تلك الحال ورد خبر إلى السلطان محمد بأن أخاه ملكشاه بن محمود ومعه إيلدكز صاحب بلاد أران والملك أرسلان بن طغرل قد دخلوا همذان واستولوا عليها وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمد أموالهم فلما سمع ذلك محمد جد فى القتال لعله يبلغ مناه فلم يقدر على شئ ورحل عنها نحو همذان فى أواخر ربيع الأول (سنة ٥٥٢) ولما قارب همذان خرج منها خصومه خائبين خائفين.

استقر محمد فى دار ملكه بأصفهان وصار العراق للخليفة لا يشركه فيه أحد وكانت وفاة السلطان محمد والخليفة المقتفى فى زمنين متقاربين فأما محمد فإنه توفى بهمذان (سنة ٥٥٤) وقد اختلف قواده بعد موته اختلافاً كثيراً فطائفة طلبوا أخاه ملكشاه وطائفة طلبوا عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه وهم الأكثر وطائفة طلبوا أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه وأخيراً تم الأمر لأرسلان بن طغرل بواسطة المقدم إيلدكز وكان هذا السلطان ربيبه.

أما الخليفة المقتفى لأمر الله فإنه توفى ثانى ربيع الأول (سنة ٥٥٥) وهوأول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المنتصر إلى الآن إلا أن يكون المعتضد وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار فى البلاد حتى كان لا يفوته منها شئ وكان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة من الرجال ذوى الرأى والعقل الكبير.

٣٢
المستنجد بالله

هو أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله وأمه أم ولد اسمها طاوس رومية ولي (سنة ٥٥٥) وبويع بالخلافة عقب وفاة والده واستمر خليفة إلى أن مات في تاسع ربيع الآخر (سنة ٥٦٦).

فكانت خلافته (١١سنة) وشهراً وأسبوعاً.

المستنجد معدود من خيرة الخلفاء العباسيين ومن مآثره أنه لما ولي أزال المكوس والمظالم ولم يترك بالعراق منها شيئاً وكان شديداً على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس قبض مرة على خبيث كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال الخليفة أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر إليَّ إنساناً آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيراً من الأموال على أصحابها أيضاً.

ومن أعماله أنه حل المقاطعات وأعادها إلى الخراج وهذا عمل حسن إلا أن بعض العلويين بالعراق تضرروا ومن أجل ذلك يعدون هذا العمل من عيوبه وهو صلاح للجمهور.

وكان ملك السلاجقة لعهده أرسلان شاه بن محمد بن ملكشاه ولم يكن له شئ من السلطان في بلاد العراق نفسها بل استبد الخليفة بأمرها منذ عهد أبيه.

٣٣

المستضئ بالله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة. بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه وكان عادلاً حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ فى أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه فى أمن عام وإحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليماً قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفووالصفح عن المذنبين. فعاش حميداً ومات سعيداً. وكانت وفاته ثانى ذى القعدة (سنة ٥٧٥هـ).

وفى عهده انقرضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الأيوبية بهمة مؤسسها المقدام صلاح الدين الأيوبى يوسف بن أيوب الذى ظهر فى كنف محمود نور الدين الشهيد وكان ذلك فى محرم (سنة ٥٦٧) حيث قطعت خطبة الخليفة العاضد لدين الله واستيفاء ذاك فى تاريخ مصر والذى خطب له من العباسيين هوالمستضئ بالله.

وفى عهده توفى خوارزمشاه إيل أرسلان بن أتسز وملك بعده ابنه سلطانشاه بتدبير أمه ولما علم بذلك أخوه الأكبر علاء الدين تكش جمع العساكر وقصد خوارزم فاستولى عليها واستقل بالملك.

وفى عهده توفى الرجل العظيم ذوالقدم الثابتة فى فعال الخير وفى جهاد الإفرنج وهومحمود نور الدين بن زنكى وكان قد اتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين وباليمن ومصر وسوريا وقد طبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله قال ابن الأثير فى تاريخة: وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحرياً منه للعدل، وله أخبار حسان ألفت فيها الكتب خاصة.

٣٤
الناصر لدين الله

هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضئ بن المستنجد وأمه أم ولد تركية اسمها زمرد.

بويع بالخلافة بعد وفاة والده المستضىء فى (٢)ذى القعدة (سنة ٥٧٥) (٣٠ أكتوبر ١٢٢٥) فكانت خلافته (٤٦ سنة وعشرة أشهر و٢٨ يوماً) وهو أطول خلفاء بنى العباس مدة ولم يزد عليه من خلفاء الفاطميين إلا المستنصر بالله معد. فإنه ولى (٦٠سنة) ولا من خلفاء بنى أمية بالأندلس إلا عبد الرحمن الناصر فإنه ولى (٥٠سنة).

حال الممالك الإسلامية لعهده:

كان فى الأندلس وشمال أفريقيا دولة الموحدين. وفى عهد الناصر ابتدأت الدولة المرينية بمراكش أسسها عبد الحق المرينى (سنة ٥١٩) وهو من أعقاب الموحدين.

وكان بمصر واليمن والحرمين وسوريا الدولة الأيوبية التى أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب (سنة ٥٦٤).

وكان بالموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر بقايا دول الأتابكية.

وكان بقونيه دول سلاجقة الروم.

وكان ببلاد الجبل والعراق من السلاجقة السلطان طغريل الثانى وهو آخر سلاجقة العراق.

وكان بخوارزم وخراسان وما إليها الدولة الخوارزمشاهية والقائم بالأمر منهم السلطان تكش بن إيل أرسلان إلى (سنة ٥٩٦) ثم علاء الدين محمد إلى (سنة ٦١٧) ثم جلال الدين منكبرتى إلى (سنة ٦٢٨) وهو آخرهم.

وكان بالغور والأفغان والهند الدولة الغورية.

فى عهد الناصر لدين الله انتهى ملك السلجوقيين بالعراق (سنة ٥٩٠) بقتل طغريل بن ألب أرسلان على يد خوارزمشاه علاء الدين تكش الذى اتسع ملكه جداً فصار ملكه ممتداً من أقاصى بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الرى التى أخذها بعد القضاء على السلاجقة ولكن ملكه لم يكن بالرى ثابتاً فإن الخليفة الناصر قد طمع أن تكون البلاد له بعد رحيل خوارزمشاه عنها فأرسل إليها جندًا مع وزيره فاستردها بعد أن حارب عسكر خورزمشاه لكن ذلك لم يطل فإن خوارزمشاه لما بلغه ذلك رجع فحارب عسكر الخليفة وأخذ البلاد منهم وفى (سنة ٥٩٦) توفى وخلفه ابنه قطب الدين خوارزمشاه وزاد ملكه اتساعاً.

كان هوى خوارزمشاه بعد اتساع ملكه أن يتشرف بذكر اسمه على منابر بغداد فيخطب له بدل السلاجقة فأبى الخليفة ذلك عليه فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده فاستحكمت حلقات الفساد وهذا الذى جعل كثيراً من المؤرخين يعتقد أن خروج التتر إنما كان باستدعاء الناصر لدين الله وليس ببعيد كان قصده على ما يظهر أن يشتغل بهم خوارزمشاه فتخف عنه وطأته وقد اعتادوا ذلك من قبل.

الحادث العظيم فى البلاد الإسلامية

إغارة المغول والتتار:

من أكبر الحوادث فى التاريخ الإسلامى خروج طوائف المغول والتتر إلى البلاد الإسلامية واستيلاؤهم على معظمها فى آسيا وشرق أوروبا وأول فتح هذا الباب كان على يد جنكيز خان المغولى وخوارزم شاه محمد بن تكش الخوارزمى.

التتر: شعب كبير من الأمة التركية ومنه تتفرق معظم بطونها وأفخاذها وهومرادف للترك عند الإفرنج حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترًا ومنهم العثمانيون والتركمان وقرمان وغيرهم وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سيتيا أواسكوتيا ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون ألنجه خان أحد ملوك الترك فى الأزمنة القديمة ولد له ولدان توأمان هما تتارخان ومغل خان نحو ربيعة ومضر فى الأمة العربية.

وقد استمر أولادهما على صفاء ووداد إلى أن وقع النزاع بين الشعبين فى عهد إيلخان ملك المغول وسونج خان ملك التتر وجرَّ هذا النزاع إلى حروب طويلة انتصر فيها التتار وقتل إيلخان ملك المغول وصارت السادة من ذلك الوقت للتتر فاستعمدوا المغول مدة طويلة

إلى أن جمع المغول جموعهم واتحدوا فقاموا بحرب التتر وكسروا شوكتهم واستردوا ما ضاع من حريتهم فعادت السيادة من ذلك الوقت إلى المغول وصار الملك متوارثاً فيهم إلى زمن يسوكى بهادر خان والد جنكيز.

ولد جنكيز خان (سنة ٥٤٩) وكان اسمه فى صغره تموجين. توفى أبوه وسِنُّه (١٣ سنة) ثم مات بعده مدبر دولته سوغه جمش فاستضعفت قبائل المغول تموجين فتفرقوا عنه وكان ذلك سبباً لحصول الفتن وتمادى الحروب بينهم.

لما كان لتموجين من الهمة العالية والعزيمة الملوكية التى لا تساويها عزيمة اجتهد فى أن يلم شعث قومه فنجح فى ذلك نجاحاً عظيماً وعادت قبائل المغول إلى الانضمام إليه وكثرت جموعه وعظم أمره فحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعاً بعد حروب شديدة ودخل تحت طاعته جميع زعمائهم فصارت له مملكة واسعة مسكونة بتلك الأمم التى لا يعلم عددها إلا الله. وعاصمة ملكه مدينة قراقروم.

ولما لم يبق له معارض فكر فى ترقية هذا المجتمع العظيم بوضع قانون يكون لهم ديناً يسيرون على مقتضاه فوضع لهم السياق أوالياسة وهى كتابهم الذى إليه يرجعون فى معاملاتهم وأحكامهم وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين لا يستجيزون أن يخلوا بشئ منها.

ومما شرعه فيها أن من زنى يقتل لا فرق بين محصن وغيره ومن تعمد الكذب أو سحر أوتجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل. ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل. ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة. ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل. ومن وجد عبدًا هاربًا أو أسيرًا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل. وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه. وأن من ذبح حيوانًا كذبيحة المسلمين ذبح ومن وقع حمله أو قوسه أو شىء من متاعه وهو يكر أو يفر فى حال القتال وكان وراءه واحد فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه فإن لم ينزل ولم يناوله قتل. وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي بن أبى طالب مؤنة ولا كلفة وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القرّاء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤمنين ومغسلى الأموات كلفة ولا مؤنة وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى. وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً ولو أنه أمير ومن يتناوله أسير. وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شىء وغيره

يراه بل يشركه معه فى أكله. وألزمهم أن لا يتميز أحد بالشبع على أصحابه ولا يتخطى أحد نارًا ولا مادة ولا الطبق الذى يؤكل عليه. وإن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منهم منعه. وألزمهم ألا يدخل أحد منهم يده فى الماء ولكن يتناول الماء بشىء يغترفه به. ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى. ومنع أن يقال لشىء أنه نجس وقال جميع الأشياء طاهرة ولم يفرق بين طاهر ونجس وألزمهم أن لا يتعصبوا لشىء من المذاهب. ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط. وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج إلى القتال وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر حتى الإبرة والخيط فمن وجده قصر فى شىء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه وألزم نساء العسكر القيام بما على الرجال من السخر والكلف فى مدة غيبتهم فى القتال وجعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها إليه. وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده. ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات. وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يلقى بنفسه بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه وألزمهم أن لا يتردد الأمراء لغير الملك فمن تردد منهم لغير الملك قتل. ومن تغير عن موضعه الذى يرسم له بغير إذن قتل وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة.

تنبيه - كان من هذه السياسة نسخة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد. روى المقريزى فى خططه عن أحمد بن البرهان أنه رآها ومنه نقلنا ما ذكرناه.

خروج المغول إلى البلاد الإسلامية:

قد أكثر المؤرخون فى ذكر الأسباب التى دعت جنكيز خان وقومه للخروج إلى البلاد الإسلامية فقال بعضهم إن خوارزمشاه لما أظهر الخلاف على الناصر لدين الله وقطع خطبته من بلاده وأراد أن يذهب إلى بغداد للاستيلاء عليها أرسل الناصر لدين الله إلى جنكيز خان يحرضه على الخروج إلى خوارزمشاه والتعرض لمملكته يريد بذلك أن تنكسر شوكة خوارزمشاه ويشتغل عنه بنفسه وقد سبق لخلفاء بنى العباس أن فعلوا ذلك مرارا فهم الذين راسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك البغداديين وتحكمهم فيهم وهم الذين راسلوا طغرلبك شاه السلجوقى ليخلصهم من تحكم البساسيرى حينما أراد تحويل الدعوة إلى المصريين الفاطميين وهم الذين راسلوا خوارزمشاه ليخلصهم من السلاجقة ولكن الفرق

أن هؤلاء كلهم كانوا مسلمين وأما المغول فكانوا كفارًا ولا نبدى هذا الفرق استبعادًا للمكاتبة لأن ذلك الملك لا يبالى بما يفعل لتخليص ملكه ولم يكن الخليفة يبغى إلا أن المغول يشغلون عنه خوارزمشاه فتكون العداوة بين الرجلين ضامنة لاستقلاله كما أنه لم يكن يظن أن يكون من التتر ما كان لأن بينهم وبين العراق أمكنة مترامية الأطراف وبينه وبينهم ذلك الأسد الهصور ولم يكن يظن به من الضعف ما يجعله يجفل أمام جنكيز خان كالحمامة تجفل من صقرها. وهذا السبب وإن كان مطعمًا لجنكيز خان فى البلاد الإسلامية ولكنه كان يتطلب سببًا آخر يبيح له فتح باب الحرب على خوارزمشاه فيقال إنه فى (سنة ٦١٢) أرسل رسلاً إلى خوارزمشاه وكانوا من كبار المسلمين الذين يقيمون ببلاده يطلب منه أن يعاهده لتردد التجارة من كل جانب إلى الآخر وأرسل إليه هدايا عظيمة المقدار فلما وصلت الرسل إلى خوارزمشاه أجاب إلى ذلك فرجعوا إلى جنكيز خان مسرورين من تمام ما أرسلوا له فاستبشر بذلك جنكيز خان ومكث الأمر على سداد مدة والتجار والزوار يترددون آمنين مطمئنين.

وفى (سنة ٦١٥) سافر تجار من بلاد جنكيز خان حتى وصلوا إلى بلدة أترار وهى بلدة بثغر خوارزمشاه بساحل سيحون (سرداريا) وبها وال كان من قبله فلما ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء (٤٠٠ نفس) ومعهم أموال جسيمة طمع ذلك الوالى فى أخذ أموالهم فأرسل قاصدًا إلى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيز خان قد قدموا فى زى تجار فأمره بقتلهم واستصفاء أموالهم فسارع ذلك الوالى المشئوم إلى ذلك وأرسل إلى خوارزمشاه ما كان معهم من الأموال فأخذها وفرقها على تجار بخارى وسمرقند وأخذ منهم ثمنها. فلما بلغ علم ذلك جنكيز خان أخذه المقيم المقعد وأرسل إلى خوارزمشاه يخبر بصورة الحال ويطلب منه غاير خان ذلك الوالى ليقتص منه فلم يكن من الأحمق خوارزمشاه إلا أن قتل الرسول فلما بلغ ذلك جنكيز خان استشاط غضبًا وصمم على قصده وحربه. وعلم خوارزمشاه أنه قد استهدف بعمله لحرب تلك الأمة العظيمة وزاد الطين بلة بأن جمع عساكره وسار بادئًا بالعدوان حتى وصل تخوم تركستان وهجم على بلاد عدوه فلقى هناك جموعًا قليلة متخلفة فى النساء والصبيان لأن جنكيز خان كان غائبًا بجنده فى داخل بلاده فلم يمكن خوارزمشاه أن ينتصر على هذا العدد القليل فعلم أن له يومًا ضروسًا إذا تحرك عليه جنكيز خان وهو لا بد فاعل فأمر خوارزمشاه سكان تلك المدن العظيمة التى على حدود بلاده أن يجلوا عنها خوفًا عليهم من التتر وكانت من جنان الدنيا فأصبحت بذلك بلاقع وسهّل بهذا العمل السبيل إلى عدوه ثم عاد. وأما جنكيز خان فإنه جمع عساكره الجرارة التى تفوق عد العادين وعبر نهر سيحون وليس أمامه من يناوشه قتالا أو يشغله عن

قصده وسار حتى أتى بخارى وكان بهـا عشرون ألفًا من الجنود الخورازمية فلم يكن عندهم طاقة بما دهمهم من ذلك البحر الزاخر فتركوا المدينة من غير حام فأرسل أهلها القاضى بدر الدين قاضيخان يطلب الأمـان للناس فأمنهم جنكيز خـان ودخل هو وجنده البلد فى رابع ذى الحـجة (سنة ٦١٦) وأعلن أهله بـأن كل ما هو للسلطان عـندكم من ذخيـرة وغيـرها أخرجـوه إلينا ثم طلب رؤساء البلد وقـال لهم أريد منكم أمتـعة التجـار التى باعكم إياها خوارزمشاه فإنها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم فأحضر كل من كان عنده شىء منها ما عنده ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا منهـا مجردين من أموالهم وأعمل التتر النهب وقتلوا من وجدوا فيه ثم أمر أصحابه أن يقتسموا الناس فاقتسموهم وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس.

ثم رحلوا نحو سـمرقند وهى قصبـة ما راء النهر والمصر الجـامع لعلمائه وأدبائه وثروته واستصحبـوا معهم من سلم من أهل بخارى فساروا بهم مشاة عـلى أقبح صورة ومن أعيا عن المشى قتل.

ولما وصلوا سمرقند كان بها خمسون ألفًا من جند خورازمشاه فحاموا عن اللقاء لما دخل قلبهم مـن الرعب والخور أما أهل البلـد فخرج منهم ذوو الجلد والـقوة فقـاتلهم العســاكر الجنكيزية ظاهر البلد واحتالوا عليهم بأن تقهقروا أمـامهم وأهل سمرقند يتبعونهم ويطمعون فيهم حـتى أبعدوا عن معقـلهم وكان المغول قد أعـدوا لهم كمينًا يأتيهم من خلفـهم فلما جاوزوا الكمين خـرجوا عليـهم وحالوا بينهم وبين البلد ورجع عليـهم الباقـون من الأمام فأخذهم السيف من كل جانب وقتل عظيمهم ولما رأى ذلك الباقون بالبلد من الجند والعامة ضعـفت نفوسهم وأيقنوا بالهـلاك فقال الجند نحن من جنس هـؤلاء ولا يقتلوننا لأن الكل أتراك فطلبوا الأمان فأمنوا وفتحت البلد فخرجوا إلى التتر بأهلهم وأموالهم فطلبوا منهم أن ينزعوا أسلحـتهم فنزعوها وإذ ذاك وضـعوا فيـهم السيف وقتلوهم عن آخـرهم وفى اليوم الرابع نادوا فى البلد أن لا يتأخـر بها أحد ومن تأخر قـتلوه وهكذا فعل التتر بسـمرقند ما فعلوه ببخارى وكان ذلك فى المحرم (سنة ٦١٧).

ولما تم لجنكيـز ملك سمـرقند سـير عـشرين ألفًـا من أشـداء جنوده وقال لهم اطلبـوا خوارزمشاه أين كان لو تعلق بـالسماء حتى تدركوه وتأخذوه فـساروا وعبـروا جيحون وكان خوارزمشاه مقيمًا بغربيه يستعد وقد مُلِىء قلبه رعبًا فلما علم بقدوم التتر عليه لم ير إلا أن ينهزم عـنهم قبل أن يحصـل بينهم وبينه صدام وقـتال ورحل لا يلوى على شىء، وقـصد مدينة نيسابور فلم يكد يستقر بها حتى أدركه جنود التتر فطار إلى مازندان والتتر على أثره

ولم يعرجــوا على نيسابور فكان كلمــا رحل عن منزلة نزلوها فوصل إلى مـرسى من بحر طبرستان ونزل يريد قلعة له فى البحر فلمــا نزل هو وأصحابه فى السفن وصل التتر فأيسوا من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به.

وهذه الفرقــة من التتر تسمى التــتر المغربة لأنهم سـاروا إلى غرب خراسان وتشــبه هذه الفرقة فـرقة السلاجقة العـراقية التى قصدت البلاد الإســلامية بالتخريب والإفـساد قبل أن ينساح الســلاجقــة ويستولوا على البــلاد ولما أيس التتــر من اللحاق به ســاروا إلى مازندان فملكوها فى أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها. ثم ساروا نحو الرى وقد انضم إليهم كثير من عـساكر المسلمين والكفار من المفسدين من يريد النهب والشر وهم كثـيرون فوصلوا إلى الرى على حين غـفلة من أهلها فـملكوها وفعلوا بها الأفــاعيل وكانوا ينهــبون فى طريقهم كــل قرية مروا عليــها. ثم ساروا إلى همــذان فطلب صاحبــها الأمان فأمنوه هو ومن معه ثم وصلوا إلى قزوين فدخلوها عنوة ويقال أن من قتل من أهلها يبلغون أربعين ألفا. ثم ســاروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى تبريز وبهــا صاحب البلاد أوزبك بن البلهوان فلم يخـرج إليهم ولا حدثتــه نفسه بقتــالهم لاشتغاله بما هو بصــددة من إدمان الشراب لــيلاً ونهاراً لا يـفيق وإنما أرسل إليــهم وصالحــهم فساروا عنــه إلى ساحل البــحر ليشتقوا فيه فوصلوا إلى مــوقان وتطرقوا فى طريقهم إلى بلاد الكرك فحاربهم أهلها لكنهم انهزموا فأرسلــوا إلى أوزبك خان يطلبون منه أن يتفق معهم فى دفع التــتر وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف بن العــادل الأيوبى صاحب خلاط وديــار الجزيزة يطلبون منه الانضــمام إليهم وظنوا جميعا أن التتر لا يتحركون حتى ينحسر الشتاء فلم يفعلوا ذلك بل ساروا نحو الكرج وانضــاف إليهم مملــوك من مماليك أوزبك اسمــه أقــوش وجمــيع أهل تلك الجبــال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم فاجــتمع إليه خلق كثير وأرسل التتر فى الانضمام إليهم فأجــابوا إلى ذلك للجنسية فاجــتمعوا جميــعاً حتى وصلوا تفليس فاجــتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها لكن ذلك لم يفدهم شيئاً فــانهزموا أقبح هزيمة وركبهم التتر من كل جانب فقتل منهم ما لا يحصى وكانت الوقعة فى ذى القعدة (سنة ٦١٧).

ولما دخلت (سنة ٦١٨) كروا راجعين إلــى مدينة مراغة فملكوها عنوة ووضــعوا السيف فى أهلهــا ونهبوا كل مــا صلح لهم وما لا يـصلح أحرقوه ثم رحــلوا عنها قاصــدين إربل لكنهم هابوا الهجــوم عليها لخوفهم أن تجتــمع الجنود عليهم من العراق وغيــرها فعادوا إلى همذان وساروا إلى أذربيجــان ومنها ساروا إلى دربند شروان فاستولــوا على مدينة سماخى عنوة وخرجوا من الدربند إلى البــلاد الشمالية وهى دشت القفــجاق وفيها أمم كثيــرة تركية فأمعن التــتر فيهم قتلاً وســبياً والذى لقى حد هذه الحروب أمــة القفجاق فكثر فــيهم القتل

والأسر فتفرقوا أيدى سبأ فى جميع الأقطار وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ومنهم المعز أيبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم.

ثم قصد التتر بعد ذلك بلاد الروس فاتفق هؤلاء مع فلول القفجاق أن يكونوا يداً واحدة ضد التتر ومع هذا فكان الظفر للتتر وانهزم عنهم الروس والقفجاق أقبح هزيمة ونهب التتر بلادهم ثم عادوا عنهم وقصدوا بلغار أواخر (سنة ٦٢٠) فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم فى عدة مواضع واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فقتل منهم كثير.

هذه أخبار طائفة صغيرة من طوائف التتر وما فعلته.

أما جنكيز خان فإنه لما سير تلك الطائفة لطلب خوارزمشاه أقام بسمرقند وهناك سير جيشاً عليه أحد أولاده لملك خراسان فعبروا النهر وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم وتسلموا البلد (سنة ٦١٧) ولم يتعرضوا له بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة ثم صاروا يستولون على تلك البلاد شيئاً بعد شئ دون صعوبة أومقاومة ولذلك لم يكونوا يتعرضون لأهلها بسوء ولا أذى سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ولم يمضى إلا القليل حتى دخل معظم البلاد الفارسية تحت حكم التتر.

وأرسل جيشاً آخر وجهته الشمال ليملك دشت القفجاق وكان الأمر قد تهيأ لهم بها لما فعله التتر المغربة من إضعاف القوى التى كانت بهاتيك البلاد على أنها لم تكن قوى مجتمعة يخشى بأسها بل كانوا طوائف شتى لا جامعة لهم فسهل على الجيش الجنكيزى أن يستولى على الدشت كله فى أسرع ما يمكن.

فتم بذلك لجنكيز مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدئ شرقاً من بلاد الصين وتنتهى غرباً إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوباً ببلاد الهند وشمالاً بالبحر الشمالى كل ذلك تم له فى مدة قصيرة.

ولما أحس بقرب منيته قسم الممالك الجنكيزية إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة وهم جوجى وجغطاى وتولى وأوكداى:

فجعل دشت قفجاق بأسرها وبلاد الداغستان وخوارزم وبلغار والروس وما يؤمل أخذه إلى منتهى المعمورة وسواحل البحر الغربى لولده الأكبر جوجى.

وجعل بلاد أيغور والتركستان وما وراء النهر بأسره لولده الثانى جغطاى.

وجعل خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقيين إلى منتهى حوافر خيولهم لولده الثالث تولى خان.

وجعل بلاده الأصلية والخطا والصين إلى منتهى المعمورة الشرقى لولده الرابع أوكداى وجعله ولى عهده من بعده ويصير قاآناً على الكل أوملك الملوك وهوعندهم بمنزلة الخليفة عند المسلمين وأمر الباقين بمتابعته وكذا كل من يصير قاآناً من ذريته يجب على الباقين طاعته ومن اتباعه ومن خالفه يجب على الباقين حربه حتى يفئ إلى يساق جنكيز خان.

هكذا قدر الرجل لعظم همته أن يملك أولاده الدنيا بأسرها ولا يبقى فيها لغيرهم كلمة ولا سلطان ولولا ما حصل من الخلاف بعده لتم كل ما توقعه.

وفى (سنة ٦٢٤) أدركته منيته وكان الخليفة العباسى حين وفاته المنصور المستنصر بالله بن محمد الظاهر.

وجد من آل جنكيز خان أربعة بيوت ورثت الملك وتمت الفتح حتى تهيأ لها أن تملك معظم بلاد المسلمين وجزءاً من أوروبا.

وبيت تولىّ هو الذى كان على يده سقوط الخلافة العباسية ببغداد وامتداد سلطان التتر على الجزيرة والشام وبلاد الروم وسنذكر ذلك فى حينه.

حصلت هذه الحوادث الكبرى وخليفة بغداد لاهٍ بما هو فيه من عسف الناس وظلمهم فقد كان قبيح السيرة فى رعيته ظالماً فخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان كثيراً ما يفعل الأشياء ثم ينقضها وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطلت الفتوة فى البلاد جميعاً إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يوخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق إلا من ينتمى إليه. هذه كانت مشاغله العجيبة والتتر يمعنون فى بلاد المسلمين قتلاً وأسراً وتخريباً ومع ذلك أثنى عليه ابن طباطبا فى تاريخه الموسوم بالفخرى ثناء جماً ومن ضمن ما وصفه به أنه كان يرى رأى الإمامية والظاهر أن هذا هوالذى حببه إلى المؤرخ المذكور.

بقى الناصر فى أواخر أيامه ثلاث سنين عاطلاً عن الحركة وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً وفى آخر الأمر أصابته دوزنطاريا عشرين يوماً وكانت بها منيته.

٣٥
الظاهر بأمر الله

هو أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر بويع بالخلافة عقب موت أبيه وكان ولى عهده واستمر خليفة إلى (١٤ رجب سنة ٦٢٣) فكانت خلافته تسعة أشهر و(١٤ يوماً).

لما ولى أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين قال ابن الأثير فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً فإنه أعاد من الأموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله شيئاً كثيراً وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ما جدده أبوه وكان كثيراً لا يحصى. ولما أمر بأخذ الخراج الأول من جميع البلاد حضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الأملاك التى كان يؤخذ منها الخراج قديماً قد يبس أكثر أشجارها وخربت ومتى طولبوا بالخراج الأول لا يفى دخل الباقى بالخراج فأمر ألا يؤخذ الخراج إلا من كل شجرة سليمة وأما الذاهب فلا يؤخذ منه شئ ومن أعماله أن المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه إلى الوزير وأوله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قد بلغنا كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن إلى الصنجة التى يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى فكتب بعض النواب إليه يقول إن هذا مبلغ كبير وقد حسبناه فوجدناه فى السنة الماضية (٣٥ ألف دينار) فأعاد الجواب ينكر على القائل ويقول لو أنه (٣٥٠ ألف دينار) يطلق وكذلك أيضاً فعل فى إطلاق زيادة الصنجة التى للديوان وهى فى كل دينار حبة - وتقدم إلى القاضى كل من عرض عليه كتاباً صحيحاً بملك يعيده إليه من غير إذن ومنها أن العادة كانت فى بغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة فى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع الأصدقاء ببعض كل نزهة أوسماع أوغير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من كبير وصغير فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أى غرض

لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد لنا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له إن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها قال إنا ندعوالله أن يصلحهم ومنها أنه لما ولى الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار إليها. أيام الناصر لتحصيل الأموال فأصعد ومعه ما يزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر ما معه ويستخرج الأمر فى حمله فأعاد الجواب بأن يعاد إلى أربابه فلا حاجة لنا إليه فأعيد عليهم. ومنها أنه أخرج كل من كان فى السجون وأمر بإعادة ما أخذ منهم وأرسل إلى القاضى عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هومحبوس فى حبس الشرع وليس له مال.

ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية فجدد من العدل ما كان دارساً وأذكر من الإحسان ما كان منسياً. وقبل وفاته أخرج توقيعاً على الوزير بخطه عن أرباب الدولة وقال الرسول: أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أونفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال. وقد قرئ التوقيع فإذا فى أوله بعد البسملة (اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالاً ولا إغضاؤنا إغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملاً وقد عفونا لكم ما سلف من إخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة وإظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستداراً كالأغراض التى انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تنفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيعطيكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم آمنًا وبفقركم غنى وبباطلكم حقاً ورزقكم سلطاناً يقيل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهويكرهه لكم يخاف الله ويخوفكم مكره ويرجوالله تعالى ويرغبكم فى طاعته فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام).

ولم تتمتع الأمة بهذا الخليفة طويلاً فإنه لحق بربه قبل أن تمر سنة على خلافته.

٣٦
المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر.

بويع بالخلافة يوم وفاة والده (١٤رجب سنة ٦٢٣) (١١يوليه سنة ١٢٢٦) واستمر فى الخلافة إلى أن توفى لعشرين خلون من جمادى الآخرة (سنة ٦٤٠) (٥ديسمبر سنة ١٢٤٣) فكانت خلافته (١٧سنة) إلا شهراً.

كان المستنصر شهماً جواداً يبارى الريح كرماً وجوداً وله الآثار الجليلة فى بغداد منها وهى أعظمها المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلافة وبنى غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضياقة وكان يقول إنى أخاف ألا يثيبنى الله على ما أهبه وأعطيه لأن الله تعالى يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وأنا والله لا فرق عندى بين التراب والذهب.

ولما ولى سلك فى الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه وأمر فنودى ببغداد بإفاضة العدل، وأن من كانت له حاجة أومظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته.

وفى عهده توفى ملك المغول الكبير جنكيز خان (سنة٦٢٤) وحل محله فى بلاد خراسان وما وراءها ابنه تولى خان فوسع مملكته إلى الغرب وأرسل فرقة إلى بلاد أذربيجان فملكتها وأجلت عنها جلال الدين مكبرتى وخافهم أهل أذربيجان خوفاً شديداً ولم يكن أمامهم من يرد غائلتهم بعد جلال الدين الذى لم يجد له نصيراً لأنه وتر الملوك المجاورين له طراً.

قال ابن الأثير تعليقاً على هذه الحال (فما ترى من ملوك الإسلام من له رغبة فى الجهاد ولا نصرة الدين بل كل منهم مقبلٍ على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو) قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وكان مقتل جلال الدين فى منتصف شوال (سنة ٦٢٨) قتل شريداً طريداً لم يفده هذا

الملك العظيم الذى ورثه عن أبيـه، وبهلاكـه تم للمغول ملـك جميع البـلاد الفارسـية إلى حدود العراق ولم يتهيأ للملوك أن يتفقـوا ضد هذا العدوالشديد المراس بل كانوا فيما بينهم مختلفـين يغير بعضهم عـلى بعض عن عدوهم لاهون غافلون. صار العـراق ينتظر النكبة منهم من آن لآن وخليفة بغداد مستسلم للحوادث مدل بمركزه الدينى.

٣
المستعصم

هو أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضئ بن المستنجد بن المقتفى بن المستظهر بن المقتدى بن محمد الذخيرة بن القائم بن القادر بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهتدى بن المنصور ففى آبائه سبعة عشر خليفة.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله فى عاشر جمادى الآخر (سنة ٦٤٠) (٦ديسمبر سنة ١٢٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن قتل بين يدى هولاكوخان فى (٢٠ محرم سنة ٦٥٦) (٢٧ يناير سنة ١٢٥٨) وبقتله انتهت الخلافة العباسية.

قال ابن طباطبا كان المستعصم رجلاً خيراً متديناً لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطًا مليحاً وكان سهل الأخلاق وكان خفيف الوطأة إلا أنه كان مستضعف الرأى ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعاً فيه غير مهيب فى النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور وكان زمانه ينقضى أكثر بسماع الأغانى والتفرج على المساخرة وفى بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أرذال العوام إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صبحا مساء.

حال التتر:

قلنا فيما تقدم إن جنكيز خان لما حانت منيته قسم ممالكه إلى أقسام أربعة بين أولاده ومنهم تولىّ خان الذى جعل له خراسان وما يؤمل أخذه من ديار العراقين إلى منتهى حوافر خيولهم وقد استمر تولىّ فى مملكته الجديدة يتوسع فى الفتح ويمد بلاده إلى الغرب ويستنزل ملوك فارس عن تخوتها حتى توفى (سنة ٦٥٤) فى عهد المستعصم بالله وكانت حدود بلاده تنتهى عند بلاد العراق فخلفه فى الملك ابنه هولاكوخان حفيد جنكيز خان فأهمه التوسع فى الفتح وأخذ بغداد وكان بها من يحب ذلك.

قال المؤرخون إن أهل السُّنة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كانوا فى نزاع مستمر وقد أدى هذا النزاع بينهم إلى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلة عن المصالح وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة فكان يسؤوه ما يلقاه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السُّنة الذين هم الجمهور الأكبر يزيد فى مساءته أن أهل البيت العباسى كانا يساعدون أهل السُّنة لأنهم عماد بيتهم والشيعة يريدون خروج الأمر منهم وقد حصل فى أواخر عهد المستعصم أن أغار أهل السُّنة على الكرخ وهو محلة الشيعة فأهانوا أهله وأسرفوا فى قتلهم ونهب دورهم وكان ذلك بأمر أبى بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم فيقال إن الوزير كاتب هولاكو يحرضه على قصد بغداد ويطمعه فيها وجل رغبته أن تسقط الخلافة العباسية ولا يهمه بعد سقوط عدوه من يولى الملك بعده فكانت تلك المكاتبة مما ساعد هولاكو على تنفيذ رغبته وأكثر المؤرخين يتهمون ابن العلقمى بهذه التهمة الشنيعة حتى نقل ابن الوردى فى تاريخه ما يؤكد هذه التهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلقمى إلى وزير إربل منها أنه قد نهب الكرخ المكرم وقد ديس البساط النبوى المعظم وقد نهب العترة العلوية واستؤسرت العصابة الهاشمية وقد حسن التمثل بقول شخص من غزية.

أمور تضحك السفهاء منها ... ويبكى من عواقبها اللبيب

وقد عزموا على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمراً فصبر جميل.

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن لم تطفئها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام

فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام

ومنها

وزير رضى من حكمه وانتقامه ... بطى رقاع حشوها النظم والنثر

كما تسجع الورقاء وهى حمامة ... وليس لها نهى يطاع ولا أمر

فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منا أذلة وهم صاغرون.

ووديعة من أسر آل محمد ... أودعتها إن كنت من أمنائها

فإذا رأيت الكوكبين تقارنا ... فى الجدى عند صباحها ومسائها

فهناك يؤخذ ثأر آل محمد ... وطلابها بالترك من أعدائها

وكن لما أقول بالمرصاد وتأول أول النجم واحرص والله أعلم

وابن طباطبا العلوى يبعـد هذه التهمة عن ابن العلقمى قال فى تاريخـه وقد نسبه الناس إلى أنه خامر ولـيس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عـدم مخامرته سـلامته فى هذه الدولة فإن السـلطان هولاكو لما فـتح بغداد وقتل الخليفة سلـم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمـه فلوكان قـد خامـر على الخليـفة لما وقع الوثوق إلـيه اهـ. والله أعلم بمقـدار هذا البرهان فى الإنتاج.

سارت جيوش هولاكو الجرارة قاصـدة بغداد وفى منتصف محرم (سنة ٦٥٦) نزل نفسه على باب بغداد وأعـد عدة الحـصار ولم يكن عند الخليفـة ما يدفع به ذلك السـيل الجارف واكتفى بإقفـال الأبواب فجد المغول فى القتال حتى ملكوا الأسـوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام وبملك الأسوار تم لهم ملك البلد.

ولما رأى الخليفـة ذلك استأذن أن يخـرج إلى هولاكوفأمـر هولاكوأن ينزل باب كلواذى أحد أبواب بغداد وشرعت جنوده فى نهب تلك المدينة التـى كانت حاضرة الإسلام كله ثم تقدم بإحـضار الخليفة فأحـضره ومثل بين يديه وقـدم لهولاكو جواهر نفـيسة ولآلئ ودرراً معبأة فى أطباق ففرق هولاكوذلك على أمرائه.

وفى رابع عشـر صفـر (سنة ٦٥٦) رحل عن بغداد واسـتصحب مـعه الخليـفة فى أول مرحلة قتـله هووابنه الأوسط مع ستة نفر من الخـصيان وقتل ابنه الكبـير ومعه جـماعة من الخواص على باب كلواذى وبهـذا القتل كسفت شمس الخـلافة العباسيـة من بغداد بعد أن مكثت مـشرقة (٥٢٤ سنـة) واشتفت قلـوب العلويين من بنى عمـهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار.

أما بغداد دار الخلافة وعـاصمة الملك فقد جرى عليها مـا جرى على سواها من أمهات المدن الإسلامية فـقد قتل معظم أهلها وقيل مـنهم من نجا وقد استبقى المغـولى جماعة من الشيعـة والنصارى وسكان بغداد بعد أن أفنـى أكثر أهلها قوم جـاءوا مع هولاكو من أقطار شتى وصارت حاضرة دولة لا تدين بدين بعد أن كانت عاصمة المسلمين.

حالة الدولة الإسلامية
عند سقوط الدولة العباسية

١ ـ كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية دولة بنى نصر والقائم بالأمر منها مؤسسها محمد الغالب بالله بن نصر (٦٢٩ـ٦٧١).

٢ ـ بشمال إفريقية دولة الموحدين والقائم بالأمر منهم أبوحفص عمر المرتضى بن إسحاق بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٦٤٦ـ٦٦٥).

٣ ـ وبالجزائر الدولة الزيانية والقائم بالأمر منهم بغمواسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣ـ٦٨١).

٤ ـ وبتونس الدولة الحفصية والقائم بالأمر منهم أبوعبد الله محمد المستنصر بالله أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص (٦٤٧ـ٦٧٥).

٥ ـ وبمراكش الدولة المرينية البحرية والقائم بالأمر منهم أبويوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ـ٦٧٥).

٦ ـ وبمصر دولة المماليك البحرية والقائم بالأمر منهم المنصور نور الدين على بن المعز عز الدين أيبك (٦٥٥ـ٦٥٨).

٧ ـ وباليمن الدولة الرسولية والقائم بالأمر منهم المظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن على بن رسول(٦٤٧ـ٦٧٤).

٨ ـ وبصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦ـ٦٨٠).

٩ ـ وبالروم من السلاجقة ركن الدين قليج أرسلان الرابع (٦٥٥ـ٦٦٦).

١٠ ـ وبماردين من الدولة الأرتقية نجم الدين غازى السعيد (٦٣٧ـ٦٥٨).

١١ ـ وبفارس من الأتابكية السلغرية أبوبكر سعد بن زنكى بن مودود (٦٣٣ـ٦٥٨).

١٢ ـ وبلورستان من الأتابكية الهزراسبية دكلا بن هزارسب (٦٥٠ـ٦٥٧).

١٣ ـ وبكرمان من دولة قتلغ خان قتلغ خاتون (٦٥٥ـ٦٨١).

إجمالي القول في الدولة العباسية:

تولى العباسيون الخلافة الإسلامية (سنة١٣٢) حيث بويع لأولهم أبى العباس عبد الله السفاح بالكوفة واستمرت خلافتهم إلى (سنة٦٥٦) حيث سقط عبد الله المستعصم قتيلاً بين يدى هولاكوخان المغولى من أعقاب جنكيز خان موحد التتر الخارج بهم إلى بلاد الإسلام. جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بنى العباس على عرش بنى أمية وجاءت رايات التتر من المشرق فثلت عرشهم من بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا فمن الشرق أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم استمرت خلافتهم (٥٢٤سنة) استخلف فيها منهم ٣٧ خليفة فمتوسط ملك الخليفة منهم نحو(١٤ سنة) وأكبر مدة قام فيها خليفة عباسى (٤٦سنة) وأقلها سنة فما دونها.

مكثت الدولة العباسية (١٠٠سنة) لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الإسلامى (ما عدا بلاد الأندلس) يقولون فيسمع لهم ويأمرون فيأتمر الناس ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف فى وجه جنودهم إلا منافسيهم فى القرب من رسول الله ﷺ وهم بنوعمهم من آل أبى طالب وبعض الخوارج الذين كانت تخبو نارهم حيناً وتلمع ثم تجئ القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة.

وقام فى هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء وهم السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق متوسط خلافة الواحد منهم اثنتا عشرة سنة ونصف وينتهى هذا الدور بوفاة الواثق (سنة٢٢٢).

ثم جاء بعد ذلك قرن آخر من (٢٢٢إلى ٣٣٤) أخذت الدولة فيه فى النزول شيئاً فشيئاً وضعف تلك المكانة التى كانت لهم فى نفس الأمم الإسلامية واجترا الأمراء بالأطراف على الاستقلال وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبق بيدهم إلا العراق وفارس والأهواز وهذه مملوءة بالاضطراب والفتن وآل الأمر إلى أن يتولى بغداد مملوك تركى أوديلمى يطلق عليه أمير الأمراء له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخلافة من الأمر شئ.

قام فى هذا العصر اثنا عشرة خليفة. وهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر والقاهر والمتقى والمستكفى الذى ملك بنوبويه فى آخر عهده. ومتوسط خلافة الواحد منهم ثمانى سنوات ونصف ولم يمت منهم موتاً هادئاً إلا أربعة والباقون خرجوا من الخلافة بين قتيل ومخلوع. وكان استيلاء بنى بويه على بغداد (سنة٣٣٤).

جـاء بعد ذلك دور ثالـث من (٣٣٤ إلى ٤٤٧) ليس للخليـفة فـيـه إلا اسم الخلافـة والسلطان الفعـلى لأمة فارسيـة هى الأمة الديلمـية التى يمثلها السلطان من نـبى بويه يقيم ببغداد فصار الخليفة كـأنه موظف لهم يتناول منهم ما يقوم بأوده وليس له تصرف ولا نفوذ يؤمر فـيأتمر ويفـعل ما يراد منه لا ما يريد وليـس له على أنفس المالكين شىء من السلطان الدينى لمباينتهم له فـى العقيدة فقد كـانوا شيعة غلاة يدينون بفـضل علىّ وآل بيته على من عداهم وإنما رضوا ببقـاء الخليفة العباسى ليكون أمره عليهم هيناً يبـقونه متى رأوا فى بقائه خيراً لهم ويعزلونه أويقتلونه متى رأوا فى ذلك مصلحتهم.

وقد قام فى هذا الدور المستكفى، والمطيع والطائع والقادر والقائم ومتوسط مدة

الخليـفة منهم (٢٢سنة ونصف) والقـائم هوحلقـة الاتصال بين هذا الدور والذى يلـيه والثلاثة الأولون من خلفاء هذا الدور خلعهم بنوبويه.

جاء بعد ذلك دور آخر من (سنة ٤٤٧) إلى (سنة ٥٩٠) انتـقل السلطان الفعلى فيه إلى أمة تركية يمثلهـا سلطان من آل سلجوق يقيم ببلاد الجبل لا فى بغـداد وكان بنوالعباس مع هذه الدولة أحسن حـالاً منهم مع بنى بويه فإن هؤلاء كانوا يحـترمون الخلفـاء تديناً وكانوا يبدون لهم من مظاهر التعظيم والإجلال ما يقضى به منصبهم الدينى.

وقد ولى فى هـذا الدور المقتدى والمسـتظهر والمسـترشـد والراشد والمقـتفى والمسـتنجد والمستضئ ومتوسط خلافة الواحـد منهم نحوعشرين سنة ونصف ولم يكن الخلفاء فى هذه المدة على حال واحد فإنهم من عهد المسترشد شـرعوا يستردون شيئاً من نفوذهم الفعلى فى بغداد والعـراق والذى ساعدهم على ذلك بعـد آل سلجوق عنهم وتفرقهم ووقـوع الحرب بينهم وقد تم استبدادهم بأمر العراق فى عهـد المقتفى وانقضت دولة السلاجقة (سنة ٤٩٠) على يد خوارزمشاه ونفوذهم فى العراق قد اضمحل تماماً.

مكث العباسـيون بعد سقوط الـدولة السلجوقية (٦٦سنة) لم يكونوا فـيها تحت سلطان أحد بل كانوا مسـتقلين بملك العراق إلى أن قام المغول والتتر بحركـتهم التى ابتدأت بأقصى تركستان وعصفت ريحهم على البلاد الإسلاميـة فأخذت أنفاس الدولة العباسية وأزالتها من بغداد على يد هولاكوحفيد جنكيز خان (سنة ٦٥٦).

فللدولة العباسية أدوار:

(١٠٠سنة) عصر القوة والعمل من ١٣٢ ـ ٢٣٢

(١٠٢سنة) عصر استبداد المماليك الأتراك من ٢٣٢ ـ ٣٣٤

(١١٣ سنة) عصر استبداد الملوك من آل بويه من	٣٣٤ ـ ٤٤٧
(٨٣ سنة) عصر استبداد الملوك من آل سلجوق من	٤٤٧ ـ ٥٣٠
(١٢٦سنة) عصر استعادة العباسيين شيئاً من نفوذهم	
السياسى مع تغلب القواد من	٥٣٠ ـ ٦٥٦

ونريد أن نوضح هنا الأسباب الرئيسية التى أدت بهذه القوة الهائلة إلى الضعف ثم التلاشى.

١ ـ ضعف عصبية الدولة

اعتمدت الدعوة الإسلامية من أول نشأتها على العصبية فهى التى كانت عماداً لتلك الدعوة وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة ﷺ القضاء على العصبيات الجزئية العربية وإحياء العصبية الكلية فقد ورد عنه كثير من الأحاديث التى تنهى عن دعوة الجاهلية وهى قولهم بالفلان وبعض هذه الأحاديث يخرج الداعى بدعوة الجاهلية عن الإسلام كقوله عليه السلام «ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية» وسبب ذلك أن هذه العصبيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذى هو ناصر للدعوة ومؤيد لها وقاهر لمن وقف فى سبيلها وكانت نتيجة ذلك أن تآخى العدنانى والقحطانى والمضرى والربعى والقيسى والكنانى ـ بعد أن كانوا أوزاعاً يكيد بعضهم لبعض وتتفانى قوتهم جميعاً أمام الأمم التى تحيط بهم وبذلك تكونت الأمة العربية... الدين كونها وهى نصرته حتى صار أحدهما مرادفاً للآخر فى نظر الأمم التى غالبها العرب على أمرها.

صارت الأمة العربية على ذلك فى صدر دولة الخلفاء الراشدين فصارعوا الفرس والروم وأجلوهم عن أعز أملاكهم واستولوا عليها تؤيدهم تلك الوحدة التى أنالها الدين قوة لا تقهر.

وكانوا مع هذه العصبية يرون لمن دخل فى دينهم من الأمم الأخرى ما لهم من الحقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات إلا أنهم لا يدلون إليهم بالمناصب الرئيسية كولاية الولايات وقيادة الجنود وهذا أمر طبيعى لا يمكن مقاومته.

ولما حصلت الفرقة بين على ومعاوية لم تكن فرقة عناصر فقد كان مع كل من الرجلين رؤساء وأجناد. من جميع القبائل العربية اليمانيون هنا وهناك والنزاريون هنا وهناك وإنما كانت فرقة أثارها الدين فى صدور قوم والتنافس فى الدنيا فى صدور آخرين وقد أدى

اختصاص كل من الخصمين العظيمين بمكان أن انجلت الحرب على خلاف وتباغض مركزين الأمة العربية فإن عرب الشام أبغضت عرب العراق وعرب العراق أبغضت أهل الشام ونطق بذلك بعض شعرائهم وذلك ناتج من كراهة أهل العراق لمعاوية وكراهة أهل الشام لعلى وقد اضعف ذلك كثيراً من قوة العصبية العربية.

انتقل الأمر إلى بنى أمية وتولاه منهم معاوية بن أبى سفيان شيخ بنى عبد مناف فدانت له الأمة وألقت بأيديها إلا أن عرق العصبية الجزئية قد شرع ينبض بعد أن كاد الإسلام يقضى عليه وظهر على ألسنة الشعراء كلمات الفخر بما لقبائلهم من السابقة وحسن الأثر وقد اتضح ذلك وضوحاً جلياً بعد انتهاء البيت السفيانى وعودة الانقسام أيام قام مروان بن الحكم منازعاً قرنه العائذ بالبيت وهوعبد الله بن الزبير فقد قام بمساعدة مروان عرب اليمن من كلب وغسان والسكاسك وناوأته قيس من عدنان فكان النصر لمروان واليمانية وأسرفوا فى قتل قيس فتأثرت بذلك أنفسها تأثراً تمكن منها حتى قال فى ذلك شيخ قيس وزعيمها زفر بن الحارث الكلابى كلمته التى أولها:

أرينى سلاحى لا أبا لك إننى أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

وفيها:

فلا تحسبونى إن تغيبت غافلاً ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وفيها:

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا وتثأر من نسوان كلب نسائيا

اجتمع شيخان من شيوخ قيس وهما زفر بن الحارث وعمير بن الحباب السلمى بقرقيسيا وصار يطلبان كلباً واليمانية بمن قتلوا من قيس ثم نزل عمير بنواحى الجزيرة مجاوراً لتغلب ومعه عدد عظيم من قيس فأدى هذا الجوار إلى نزاع بين قيس وتغلب تبعته حروب حتى كتب زفر إلى عمير يقول له:

ألا من مبلغ عنى عميراً رسالة ناصح وعليه زارى

أتترك حى ذى يمن وكلبا وتجعل حد نابك فى نزار

كمعتمد على إحدى يديه فخانته بوهن وانكسار

وقتل فى بعض الأيام عمير بن الحباب.

وقد نطق شيطـان التفريق على ألسنة الشعـراء المتباينين فى الأنساب والمتقـاربين بما يهيج الحزازات الكامنة لا يبالون ما يخرج من أفواههم ولا يـدرون قيمة ما تؤثر به كلماتهم فكل ما أصلحه العقـلاء أفسده هؤلاء وقد كان الأخطل التغلبى من شـعراء تغلب ذوى الصوت المسموع فلما صالـح زفر بن الحارث عبد الملك بن مروان وجاء بقومه فـبايعوا قال الأخطل من كلمة لهم:

بنى أمـيـة قـد ناضلـت دونكم   أبناء قـوم هـم آووا وهـم نصـروا

وقـيس عيـلان حتى أقـبلوا رقصـاً   فـبايعـوا لك قـسـراً بعـد مـا قـهـروا

ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم   وقـيس عيـلان من أخـلاقهـا الضجـر

وقال مرة بمحضر عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمى القيسى:

ألا سـائل الجـحـاف هل هـوثائر   بقـتلى أصـيبت من سليم وعـامـر

أجحـاف إن تصطك يوماً فـتصطدم   عليك أواذى البـحـور الزواخـر

تكن مثل أقـذاء الحبـاب الذى جرى   به الماء أوجـارى الرياح الصـراصـر

لقـد حان كل الحـين من رام شاعـراً   لدى السـورة العليـا عل كل شـاعـر

يصـول بمجـر ليس يحـصى عـديده   ويسـدر منه سـاجـيـاً كل نـاظر

فأجابه الجحاف على البديهة:

بل سـوف نبكيـهم لكل مـهند   وننعى عـمـيراً بـالرمـاح الشـواجـر

وسار الجحاف بعقب هذه الكلمة إلى تغلب فأوقع بها وقعة شديدة.

وقد قال هذا الشيطان الخبيث فى تلك الموقعة بعد أن أثار غبارها:

لقـد أوقع الجـحـاف بالبـشر وقـعـة   إلى اللـه منهـا المشـتكى والمعـول

فـسـائل بنى مـروان مـا بـال ذمـة   وحـبل ضـعـيف لا يزال يـوصل

وقال الجحاف:

أيا مـالك هل لمتنى أوحـضـضـتنى   علـى القـتل أم هـل لامنى كـل لائم

أمل أفنكـم قـتـلاً وأجـدع أنوفكم   بفـتيـان قـيـس والسيـوف الصـوارم

بكل فتى ينعى عميراً بسيفه إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

حيت هذه العصبيات الجزئية ولم تجد من الخلفاء من يقطع طريق نموها وكان الولاة بالأمصار قد مسهم طائف من شيطان هذه الجاهلية فكان الوالى اليمانى يحدب على قومه ويعطف عليهم وينصرهم ويوليهم النواحي وكذلك كان الربيعى والقيسى والتميمى وكان يظهر ذلك واضحاً فى الولايات البعيدة عن مركز الخلافة كخراسان ولا يخفى أن الدولة الأموية كانت ترتكز على العصبية العربية لأنها دولة عربية محضة فحياة ذلك النوع من العصبية مضعف للأمة وللدولة التى ترتكز عليها. وكان من الأمم التى ملكها العرب وذلت لهم الأمة الفارسية وهى أمة ذات تاريخ قديم يهمها أن تحيى ما اندرس من تاريخها. رأت نفسها مستضعفة عن مناوأة العرب والخروج من نير حكمها بوحدة عنصرية لأن كثيراً من الفرس كانوا قد دانوا للإسلام فمن الصعب تكوين قوة منهم تضاد العرب أوالإسلام فاتجه فكر قادة الأمة إلى صدمة العرب باسم الإسلام وكان بنوالعباس إذ ذاك قد وجدت عندهم فكرة السعى لاسترداد حقهم من بنى أمية فرأوا من مصلحتهم الاعتماد على الفرس فى مساجلة بنى عمهم من بنى أمية وإنما لم يجعلوا عمدتهم على العرب لأمرين الأول أنه يصعب أن تروج بين جمهور العرب فكرة الخلاص من حكم بنى أمية لأن العرب لم يمسوا بأذى من جانب تلك الدولة بل كانت فى الحقيقة دولتهم وبها عزهم والثانى أن شعب العرب قد انصدع باستعار نار العصبية الجزئية بين قبائلهم فكان اليمانيون فى جانب والربعيون فى جانب والمضريون فى جانب. وأما الفرس فمن السهل إثارة عواطفهم إما بحكم العصبية العنصرية وإما بحكم الإسلام ورد الخلافة إلى نصابها من آل بيت محمد ﷺ وتأثير الأول فى الخاصة من أبناء الأمة الفارسية وتأثير الثانى فى العامة.

قامت الدولة العباسية وليس لها عنصرية تشد أزرها وتحمى بيضتها وإنما عصبيتها هؤلاء الموالى المصطنعون وعصبية الولاء أوالحلف قد تقوم مقام عصبية القرابة لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالى إلى استرجاع ما كان لآبائهم من المجد الذى يتوارثون ذكره. وقد وجد من هؤلاء الموالى فى بدء الدولة جماعة لهم قدم ثابتة فى الفارسية وفى الإسلام جعلهم العباسيون فى مقدمة من يعتمدون عليه.

لم يترك العباسيون فى مبدأ أمرهم عصبية العرب ولم يهملوا شأنها بل استعانوا بها لتكون لهم ملجأ إذ رأوا من الموالى نكوباً عن جادة نصرتهم وميلاً إلى الاستئثار بالسلطان دونهم فاصطنعوا كثيراً من رجال العرب وحماتهم من ربيعة واليمن ومضر إلى أنهم لم يلتفتوا إلى إزالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والنفرة بل بالعكس وجد منهم ما يدل على الميل على إنماء هذه الحمية ليستعينوا بفريق على الآخر.

لذلك كله يمكن أن نقول إنه لم يكن للدولة العباسية فى بدء حياتها عصبية قومية متحدة الأوصال وثيقة العرى وإنما كان الإسلام هوالذى يجمع بين تلك القوى والدين وإن كان جامعاً قوياً لكنه إن لم يكن مدعماً بعصبية قومية متحدة يضعف عمله واعتبر هذا بما قدمناه لك عن رسول الله ﷺ فقد كان مما اعتبره أساساً لقوته ومنبعاً لحياته إماتة العصبية الجزئية وسد الباب دون ذكرها والتلفظ بها.

كان بنوالعباس يسندون أمر وزارتهم إلى رجل يختارونه من الموالى ويجعلون قيادة جنودهم إلى موال وإلى عرب ولكنهم كانوا دائماً تحت تأثير الظنون والريب التى تحوم حول عقولهم من استبداد الموالى بالسلطان فمتى شموا من وزير أوقائد من الموالى الخراسانيين رائحة من ذلك عاجلوه وانظر ما فعله المنصور بقائد الدولة العباسية الأكبر أبى مسلم الخراسانى وزيره الأول ولأبى مسلم ماله من السابقة وحسن الأثر فى إحياء الدولة ولكن ذلك لم ينفعه أمام ريب أبى جعفر وغيرته على ملكه أن يشاركه فيه أحد ولا يمكن أن نبرئ أبا مسلم من قصد تحويل السلطان إلى قومه وليس بنوالعباس فى نظره إلا واسطة لذلك فهو إذا عز مراده معهم يتحول بدون إبطاء إلى بنى عمهم من آل على. ولما قتل أبومسلم قام بالثأر له قائد فارسى على دين قومه من الوثنية سنباد وجمع لذلك جموعاً عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا أن غولب بالعصبية العربية فإن أبا جعفر أعد له جمهور بن مرار العجلى وهومن رجال ربيعه فكسر قوته ويقال إنه قتل من قومه فى الموقعة نحوا من ستين ألفاً. وقام يطلب بثأره أيضاً الراوندية فى الهاشمية نفسها فعوجلوا والذى كان الفارس المعلم فى يومهم قائد عظيم أيضاً من قواد ربيعة وهو معن بن زائدة الشيبانى.

والخلاصة أن الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها وهذه العناصر هى العنصر العربى وهو منشق قد كان ينسى العصبية القومية الكلية وصرع بتأثير العصبية الجزئية والثانى عنصر الموالى وأهمها أهل خراسان ولم يكن بين الفريقين التئام حقيقى لاختلاف الغرض الذى يرمى إليه كل منهما.

واقتصار العباسيين على وزراء من العنصر الآخر وهو الموالى كان منتجاً بطبيعته غلبة العنصر الذى هم منه ونيلهم حظاً فى الدولة لم يتمتع به مناظروهم من العرب فقد أشتهر من الموالى عدد عظيم فى الصدر الأول تمتعوا بالنفوذ والسلطان ونالوا من الألقاب أعلاها سوى لقب الخلافة وانظر إلى بيت خالد البرمكى وما وصل إليه يحيى بن خالد وأولاده فقد توسع الناس حتى أطلقوا عليهم ألفاظ الملوك فى مخاطباتهم وفى القصائد التى مدحوهم

بها ووردت إليهم خزائن الأرض وجبايات الأموال وتزلف إليهم الناس من كل صنف بغية القربى عندهم وأثر عنهم لدى الرشيد ميلهم وخاصة جعفراً منهم كلمات تدل على أنهم يريدون التحول إلى بلاد خراسان ونزع الخلافة من آل عباس وتحويلها إلى آل على كما اتهم بذلك قبله أول وزير من الموالى وهو خالد بن سلمة الخلال ومع هذه التهمة السياسية كانت تتردد كلمات تدل على الغمز عليهم فى دينهم نسبة الزندقة إليهم إلى غير ذلك مما يثير الظنون التى لابد منها فى دولة لا تعتمد على عصبية قومية.

ولا مراء فى أنه كان لبعض هذه الأسرة غرض من حمل الرشيد على البيعة لولده المأمون بولاية العهد بعد البيعة لأخيه الأمين وكان الداعى إليها هوجعفر بن يحيى بن خالد البرمكى وكان الذى ظنه الرشيد هجس فى نفسه أن البرامكة سوف يحرشون بين الأخوين ليفرقوا بينهما حتى يحارب أحدهما الآخر وينتفعون هم بنتيجة ذلك وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التى منشؤها تمكن الريبة من مواليهم وحذرهم منهم ولذلك لم نر وزيراً عباسياً تمكن من حياة هادئة ذات ختام هادئ بل كانوا كلهم عرضة لهذه النكبات من ضياع الأموال واغتصاب النفوس ولا يمكن أن يكون سبب ذلك المال وحده بل إن المنازع السياسة وميل الموالى إلى استرداد عز الآباء كان له دخل كبير.

انتهت حياة الرشيد والمغالبة شديدة بين العنصرين الكبيرين اللذين هما دعامة الدولة يلجأ الخلفاء إلى أحدهما كلما رابهم من الآخر شئ إلا أنه قلما نسب إلى المصطفين من العرب فكرة خيانة الدولة وإرادة تحويلها عن آل العباس أواستهانة بوعد أوغدر بمن ائتمنهم وإنما كانت العيوب التى تسند إلى بعضهم وتدفع الخلفاء إلى عقوبتهم هى التقصير فى أعماله وعدم أخذ الحيطة لها.

جاءت الوقائع بين الأمين والمأمون فكان من نتيجتها ازدياد قوة العنصر الخراسانى لأن قوة المأمون ارتكزت عليه وظهر البيت الطاهرى وهوأول بيت من الموالى منح خراسان على طريقة الاستقلال. والذى كان يزيد فى قوة هذه العناصر أن المأمون وأخاه المعتصم كانا يميلان إلى الاستكثار من شبان الأتراك الذين كانوا يفدون على بغداد بكثرة يقدمهم ملوك ما وراء النهر وآل طاهر ومن هؤلاء الشبان من كان يشترى بالمال ومنهم من كان ذا بيت عريق فى قومه فقدم بغداد ليستزيد عزاً بحلف هذه الدولة الكبيرة وولائها ولم تزل هذه الوفود تتوارد تتوارداً مطرداً حتى كان زمن المعتصم وقد تألفت منهم جيوش ظن الخليفة أنه يعتمد عليها فى إقامة دولته ويستغنى عن العرب وعصبية العرب وعن أبناء خراسان أيضاً أما العرب فلأمر ما كان هووأخوه قليل الاعتماد عليهم ويظهر أن ذلك كان للاختلاف الشديد

بين قبائلهم وأما الأبناء أوالموالى الخراسانيون فقد كثرت منهم الدالة على الخلفاء وخرج كثير منهم عن طاعتهم لذلك خلقت فكرة اصطناع هؤلاء الموالى الأتراك ظناً من الخلفاء أنهم ليس لهم آمال يريدون تحقيقها وأن الخلفاء متى اصطفوهم أمكنهم الاعتماد عليهم والاستغناء عمن عداهم لشجاعتهم وقوة أجسامهم وهذا خطأ غريب ربما كانت الدولة العباسية أول من وقع فيه وهو أن تعتمد دولة من عنصر على عنصر آخر فى تأييد قوتها مع أن هذا العنصر يباينها فى الأخلاق وفى العادات ويذكر وطنه الذى ينتمى إليه ولا ينساه إن هؤلاء الأتراك الذين اصطنعوا لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم فمن البديهى أن يكون صغوهم إليها وميلهم لها وقد كان فيهم من هو ذو بيت عريق فى قومه يميل إلى أن يكون كما كانوا من العز والاستئثار بالنفوذ كما كان الأفشين حيدر بن كاوس فقد كان أبوه ملكاً لأشروسنة وكان هومعظماً فى قومه حتى كانوا فيما يخاطبونه يدعونه بإله الآلهة.

زرع المعتصم وأخوه هذه العنصر الجديد فى الدولة وما دريا أنهما بعملهما هذا قد سلما عز الخلافة إلى غلمان الأتراك يتصرفون فيها إشارة رؤسائهم الذين منحهم المعتصم حق قيادة الدولة ولوكان هؤلاء الرؤساء متحدى الأغراض يسعون لغاية واحدة لكانت المصيبة أعظم ولكن كانوا على غير ذلك حتى إن الأفشين لما علم عنه أنه يعد العدة للرحيل إلى المشرق حتى يستولى على خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر ويؤسس هنالك مملكة تركية عظيمة كان الذين وشوا به من الأتراك الذين لا يرون لهم أن يستأثر الأفشين بهذا الملك العظيم.

كان فى حياة هذا العنصر الجديد ضعف العنصر العربى ضعفاً عظيماً فتفرق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها إلى موطنها فى القفر والصحراء والذين بالمدن لم تبق لهم عصبيات يستندون فى حياتهم إليها وكذلك ضعف الموالى الخراسانيون لضعف ثقة الخلفاء فاختل التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلمان الأتراك أنفسهم منفردين بالملك مستأثرين به. وليس أمام الخلفاء إلا هم فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الآمرين حتى امتدت أيديهم إلى حياة الخلفاء وإلى أموالهم وإلى كل شئ عندهم وخضع الخلفاء لهذه القوة التى لم يجدوا أمامهم ما يردها من العرب ولا من الأبناء العنصر الذى كان أول الخلافة شراً وأما هذا فهو نهاية الشرور.

كان تغلب هذا العنصر ولعبه برقاب الخلفاء من بنى العباس ذا نتائج سيئة فإنه أضعف صولة الخلفاء وقلل من قيمة أقوالهم وأوامرهم وأما فى الأطراف فقد رأى الولاة أن قد آن لهم أن يستقلوا بما تحت أيديهم لأنهم ليسوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ فى

عاصمة الخلافة نفسها ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى صارت الدولة العباسية (فى منتصف القرن الثالث) محاطة بدول مستقلة فى الإدراة عن سلطان الخلفاء وتدفع عنها شر اعتراض الجمهور وغضب الخلفاء بإعلان الدعوة لهم على المنابر وكتابة أسمائهم (أحياناً) على السكة وإرسال شئ من المال والهدايا إلى بغداد قد حصل ذلك فى المغرب والمشرق والجنوب والشمال فى آن واحد ولا قبل للدولة بإرسال الجنود لإعادة الحكم العباسى الفعلى إلى تلك الولايات لأن غلمان الأتراك قلما يهمهم ذلك ما داموا آخذين بحلاقيم الخلفاء فى حاضرة الدولة فاضطر بنو العباس إلى الرضا بما بذل لهم.

صار المتغلبون يقتتلون وينزع بعضهم الولاية من بعض ولا عمل للخلفاء إلا أن يصدروا منشور الولاية للغالب الظافر وقد حاول بعض هؤلاء المتغلبين وهو يعقوب بن الليث الصفار أن يستولى على قلب الخلافة ويزيل عنه المتغلبين عليها من الأتراك لولا ما ظهر من تشدد أبى طلحة الموفق الذى كان ولى العهد وصاحب السلطان فى عهد المعتمد على الله والذى أحيا فيه تلك القوة أن العنصر المستولى على الدولة هوعنصر الأتراك نفس بعضه على بعض ما أتيح له من الغلب والسلطان والمال فضعف أمرهم وطلب كثير منهم أن يتولى قيادة الجيش أحد أفراد البيت المالك وكان الموفق أقرب إليهم فانتخب لقياد الجيش فنجح فى إحياء شئ من قوة الخلافة إلا أن الداء عضال لا يمكن حسمه وذلك الداء هوفقد الدولة للعصبية القومية التى يمكن الاعتماد عليها فكانت هذه القوة كالبرق الخلب لا يلبث أن يزول ويضمحل أمره. فإن الضعف عاد بعد الموفق وابنه المعتضد إلى أشد مما كان كنكسة المريض عسير برؤها شديدأثرها واستمرت الخلافة الإسمية لبنى العباس والسلطان الحقيقى لما بقى بأيديهم من البلاد للأتراك إلى أن تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم يقوده ثلاثة إخوة من بيت عريق فى الشرف القومى وهم أولاد بويه فانتزعوا السلطان من الأتراك ببغداد وجعلوا ملك العراق لواحد منهم يتصرف فيه والخليفة يأتمر بأمره لم يكن هؤلاء القوم يدينون بإمامة بنى العباس ومع ذلك فقد أبقوا عليهم لأمرين: الأول: مرضاة الجمهور البغدادى فقد كان معظمه يدين بإمامتهم ويفضلهم على آل علىّ. والثانى: أن الخليفة العباسى يسهل خلعه متى أحسوا به يحاول خلع النير عن عنقه لأنه لا مانع دينياً يمنعهم من ذلك. أما الخليفة العلوى فإنه يصعب عليهم أن ينالوا منه شيئاً وربما نال منهم بقوته الدينية هكذا لعبت السياسة بالعقيدة فأضاعت أثرها ومع ما ناله الديلم من هذا السلطان فإنهم لم يهملوا العنصر التركى الذى كان كثيراً بحاضرة الخلافة بل اعتمدوا عليه حتى كان بعض الملوك من آل بويه يفضل الأتراك على الديلم.

وفى أوائل المائة الخامسة ظهر بالمشرق عنصر جديد دخل فى الإسلام حديثاً وفارق وطنه

متجهاً إلى بلاد المغرب وهوعنصر الغز من أتراك ما وراء سيحون على رأسه بيت عظيم الفخار ممتاز عندهم بالشرف والمجد وهوالبيت السلجوقى قاد هذا البيت جماعة الغز إلى بلاد خراسان ولم تقدر الدولة التى كانت بأطراف المملكة الإسلامية على صده فلم يزل حتى امتلك بغداد وأزال عنها ملوك آل بويه وكان هذا العمل على رغبة الخلفاء من بنى العباس لأنهم كانوا ميالين إلى إزالة الدولة الديلمية التى كانت غالية فى تشيعها والإدلاء بالأموال إلى دولة أخرى تدين بإمامتهم واحترامهم وقد استمر العراق تحت سلطان آل سلجوق حتى دب إليهم ما دب من قبلهم من داء الخلف والانقسام فكان ذلك مشجعاً بنى العباس إلى اليقظة من هذا السبات الطويل وامتلاك أعنة الخيل والتصرف بما تحت يدهم من البلاد العراقية ولم يكن لهم ما يعتمدون عليه من العصبية إلا بقايا مواليهم من المماليك فأعادوا فى العصر المتأخر ما كان عليه سلفهم فى منتصف القرن الثالث.

وقد استمر الحال على ذلك حتى خرج سيل المغول الجارف وأزال الدولة العباسية من المشرق كله.

من ذلك يفهم أن أساس الاضطراب كان سائراً مع هذه الدولة من بدء نشأتها وهو فقد العصبية القومية التى يعتمد عليها إلا أن توازن القوى فى الأول حفظ للخلفاء نفوذهم فلما اختل هذا التوازن اختل معه هذا النفوذ. والمقام الدينى هوالذى ظل حافظاً لهذه الدولة من الفناء مع هذا الضعف المتوالى.

٢ـ منافسة العلويين

لا مراء فى أن كون الخليفة من آل بيت النبوة أحب إلى قلوب الجمهور من الأمم الإسلامية وهم لهم أطوع، لأن المؤثر الدينى يكون مستحكماً ولذلك صادفت الدعوة إلى أهل البيت نجاحاً عظيماً فى صدر المائة الثانية من الهجرة.

وكان أهل البيت الذين لا يعدوهم هذا الأمر من بيتين اثنين كل منهما يسابق الآخر فى القرب من رسول الله ﷺ فأما أحدهما فهوالبيت العباسى الذى ينتمى إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وعاصبه الوحيد عند وفاته وأما الثانى فهوالبيت العلوى الذى ينتمى إلى علىّ بن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة.

وقد حاول البيت الثانى أن ينال الخلافة قبل العباسيين فى عهد بنى أميه ففشل قام الحسين بن علىّ مطالباً بها فقتل دونها وقام حفيده زيد بن علىّ بن الحسين فقتل دونها بالكوفة وقام على أثره ابنه يحيى بن زيد فكانت نتيجته كأبيه، ذلك مع ميل الجمهور العراقى لهم وعطفه عليهم.

أما العباسيون فقد أحكموا أمرهم واستعانوا بأهل خراسان فى إحياء بيتهم وكانت الدعوة إليهم مبهمة فى أول الأمر لا يزيد الداعى فى دعوته على أنه يدعو للرضا من آل محمد ﷺ إلا أن الدعاة والنقباء يعرفون صاحب الدعوة باسمه وشخصه وكانت النتيجة تمام النجاح وساعدهم ضعف عصبية خصومهم فرقوا عرش الخلافة وقضوا على بنى أمية.

حرك ذلك من غيرة بنى عمهم منهم وحسدهم لهم ومن المعلوم أن جمهوراً كبيراً كان يؤثر العلويين ويتولاهم دون العباسيين وكان بنوالعباس على علم من ذلك يرون أن كل فتق جاءهم من غير ناحية العلويين فهوسهل الرتق والتلافى أما هؤلاء فهم الخصم الذى يخاف جانبه لأنهم يشاركونهم فى السبب الذى قامت عليه خلافتهم وهو القرب من رسول الله ﷺ، وربما كان لهم فى نظر الجمهور الشيعى ما يفضلهم على العباسيين وهو ولادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإذا دعوا إلى أنفسهم أحدثوا فى العصبية التى قامت عليها الدولة انقساماً ولا يدرى حينئذ لمن تكون الغلبة.

لما كانت المدينة النبوية هى مقام أبناء على من بنى حسن وحسين راقبهم العباسيون سراً وإذا كان موسم الحج جمعهم الخليفة وهوأبوالعباس السفاح فأغدق عليهم العطايا ومنحهم الهبات يريد بذلك لفت أنظارهم عن الدرجة العليا وهى درجة الخلافة ويريهم أن خلافة بنى عمهم تحدب عليهم وتنسيهم أيام الشدائد التى مرت عليهم فى عهد أسلافهم من بنى أمية، إلا أن ذلك المعروف الجميل لم يكن إلا معززاً لدواعى الغيرة والحسد وازدياد الشعور بضياع ذلك الحق الذى هم أولى به وإذا كان غصب الأجنبى الحق مؤلماً للنفس فرؤيته عند القريب أشد إيلاماً ولا سيما إذا ظن من ضاع حقه أنه يجد من يساعدونه على نيله.

كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه ولولا ما ظهر من شجاعة أبى جعفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط فى مصادرة موارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية ولكن تلك الصفات من المنصور قضت على محمد بن عبد الله وعلى أخيه إبراهيم الذى ثار بالبصرة.

وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بنى عمهم فضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم وأرهقوا الجند فى استطلاع أخبارهم فتباعد الأمر واشتدت الجفوة ورأى بنوالعباس أنفسهم مجبورين على نبذ فكرة التشيع التى أسسوا عليها دولتهم وصاروا يجنحون إلى تقديم الشيخين أبى بكر وعمر على عليّ بن أبى طالب بعد أن كان دعاتهم يقدمونه عليهما وأشتد تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج

الضيق الذى نالهم وساروا كالطائر المحبوس فى قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى كما فعل الحسين بن علىّ الذى ثار بمكة فى مدة الهادى (سنة ١٦٩) فحيل بينه وبين مراده وقتل بفخ بالقرب من مكة.

أفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى فاتجه الأول غرباً ماراً بمصر ومخترقاً شمال أفريقية حتى أتى المغرب الأقصى فحدب عليه من به من البرابرة وبايعوه بالخلافة وأسس هناك دولة الأدراسة فى طرف الدولة من الغرب واتجه الثانى نحوالمشرق وذهب إلى نواحى الديلم إلا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل. وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين أن من موالى العباسيين وصنائعهم من هواه مع العلويين كواضح مولى بنى العباس الذى كان على بريد مصر فإنه هوالذى سهل لإدريس المرور من أرض مصر مع معرفته به وجعفر بن يحيى البرمكى الذى سهل ليحيى بن عبد الله طريق الإفلات من يد الرشيد فكان ذلك مما دعا الرشيد إلى أن يربى على من كان قبله فى النفور من العلويين وكراهتهم والتشديد فى عقوبة من يتهم بالميل إليهم وشدة التضييق على من بقى بالمدينة منهم وجاء بموسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى بغداد ليقيم تحت نظره.

ظهر الجرح بجنب الدولة العباسية واجترأت أمة من الأمم الإسلامية وهى أمة البربر بالمغرب الأقصى أن تخرج عن طاعتهم معتقدة أنها نالت خطاً أعلى من حظ سائر الأمم لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوى ومن أبناء ابنته واضطر الرشيد أن يزرع بأفريقيا دولة الأغالبة ومقرها القيروان كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من جداره يجتهد أن يفصل بين ما تناولته النار وبين سائر البيت وهذا ما فعله الرشيد.

جاء المأمون فرأى خطر العلويين محدقاً بالدولة ماذا رأى: رأى كثيراً من أبناء الدعوة ورجال الدين يميلون إلى العلويين ويكرهون ما ينالهم من الشرف فأراد أن يتقرب إليهم ببعض ما يرغبون فيكسر من حدتهم ويضعف من قوتهم فاختار منهم علىّ الرضا الذى يتولاه أكثر شيعة آل علىّ وولاه عهده ويظن أنه فعل ذلك إرضاء للحسن بن سهل وزيره الأكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الأعظم فى سوق الخلافة إليه وإخراجها عن أخيه الأمين وكان الحسن يتشيع وينسب إلى الزندقة أيضاً ولكنه رأى أن النتيجة لم تكن على ما يرغب فإنه وإن أرضى العلويين بهذا العهد قد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثاروا ضده ببغداد وخلعوه واختاروا من بينهم عمه إبراهيم بن المهدى فلم يكن أمامه ما يربأ به هذا الصدع إلا أن احتال فى التخلص من الحسن بن سهل بأن وضع له قوماً تناولوه بأسيافهم ثم مات بعقب ذلك على الرضا فنسب قوم ذلك إلى المأمون أيضاً والقرائن تساعدهم ولكن ليس عندنا من الأدلة ما يقوى هذه التهمة.

عادت الأمور بعد موت هذين إلى مجراها ورجع أهل بغداد إلى المأمون وانحرفوا عن عمه. ظل المأمون بعد ذلك على ولاء العلويين والتشيع لعليّ بن أبى طالب وأعلن ذلك فى كلامه وفى كتبه حتى إذا رأى منهم الميل إلى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه بعد ثورة اليمن فأمر ألا يدخلوا عليه واضطر لأن يجارى أبه فى الاحتياط فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بإفريقية وهى الدولة الزيادية والغرض من الدولتين واحد.

واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة وأمرهم إياهم بالإقامة بمرأى منهم فى بغداد أوفى سامرا بعد اختطاطها.

ولم يكن الخلفاء معهم على سيرة واحدة فقد كان المتوكل على الله بن المعتصم على غير ما كان عليه أبوه وعمه من الإحسان إلى العلويين والتصريح بتفضيل عليّ على غيره من شيوخ الصحابة وكان فى ذلك على سيرة جده الرشيد إلا أنه زاد عليه فقد كان يصرح فى مجالسه بانتقاص عليّ بن أبى طالب ويبيح للمجان من جلسائه الهزء والسخرية به ويكره كل من عرف بالتشيع إلى العلويين ويؤذيهم فى أنفسهم وأموالهم ويقدم الشعراء الذين يتطرفون فى قصائدهم فينتقصون آل عليّ ويفيض عليهم بالهبات الوافرة. وهدم قبر الحسين بن عليّ ونهى الناس عن زيارته وشد فى ذلك تشديداً عظيماً فكان الناس من ذلك فى همٍّ وحزن حتى إن شاعره الكبير أبا عبادة البحترى لما مات وولى المنتصر وكان على غير طريقة أبيه مع العلويين مدحه بذلك فقال:

رددت المظالم واسترجعت … يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبى طالب بعد ما … أذيع بسربهم فانذعر
ونالت أدانيهم جفوة … تكاد السماء لها تنفطر
وصلت وشوابك أرحامهم … وقد أوشك الحبل أن ينبتر
فقربت من حفظهم ما نأى … وصفيت من شربهم ما كدر
وأين بكم عنهم واللقا … ء لا عن تباه ولا عن عفر
قرابتكم بل أشقاؤكم … وإخواتكم دون هذا البشر
ومن هم وأنتم يدا نصرة … وحدا حسام قديم أثر
يشاد بتقديمكم فى الكتاب … وتتلى فضائلكم فى السور

وإن علـيـــــاً لأولـى بـكـم وأزكى يـداً عـنـدكم مـن عـمـر
وكـان لـه فـضله والحـجـو ل يوم التـفـاضـل دون الغـرر
بقـيت إمـام الهـدى للهـدى تجـدد مـن نهـجـه مـا دثر

مع أن البحترى له فى المتوكل المدح الجليلة والمراثى المؤثرة.

ثلم آل علىّ ثلمة أخرى فى سياج الدولة من الجهة الشمالية الشرقية بتأسيس الحسن بن زيد دولته فى الديلم ولم يفلح بنوالعباس فى القضاء عليه فاشتد الخرق عليهم من الشرق والغرب وفتحت العيون التى كانت تغضى حياء وتخاف تديناً.

رأى العلويون فى النصف الثانى من القرن الثالث أن ينظموا صفوفهم ويمهدوا لقلب الدولة العباسية بالدعوة لها فسنوا لذلك نظاماً خاصاً عرف بنظام الدعوة ساروا فى ذلك على أثر الدعوة العباسية إلا أنهم حلوها بشىء من المقدمات وبعثوا دعاتهم إلى جميع الأقاليم الإسلامية غرباً وشرقاً ولما تهيأ لهم الأمر أهبوا نار الثورة والاضطراب بشكل مريع على يد القرامطة فزلزلوا جوانب الدولة وحالوا بينها وبين عمل أى شىء يمكنها من القضاء عليهم وفعلوا فى الإسلام ما لم يخطر ببال مسلم أن يقوم به مما قدمنا ذكره. ثم قام على أثرهم الفاطميون بأفريقية فاستولوا عليها وعلى الجزائر والمغرب الأقصى ثم مدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطئ الفرات وكادت نارهم تلفح وجه الدولة العباسية وقد حصل أن اتخذ أحد الثوار العراقيين هذه الدعوة ذريعة إلى التمكن من الأمر وخطب فعلاً للعلويين على منابر بغداد نحو سنة.

وكان العباسيون لما رأوا أنفسهم عاجزين عن دفع هذا العدواللدود عنهم اشتغلوا بما لا يفيد من الطعن فى نسب العلويين المصريين وكتبوا فى بغداد محضراً وقع به العلماء والفقهاء وكبار بنى هاشم وقالوا فيه إن نسب العبيديين بمصر غير صحيح وأنهم أدعياء ملعونون مع أنه نسب للشريف الرضى نقيب الطالبيين ببغداد قوله:

مـا مـقـامى على الهـوان وعندى مـقـول صـارم وأنف حـمـى
وإباء مـحـلـق بى عـن الضـيم كـمـا راغ طائر وحـشـى
أى عـذر له إلى المجـد إن ذ ل غـلام هم عـمـده المشـرفى
ألـبس الـذل فى ديـار الأعـادى وبمصـر الخـليـفـة العلوى
مـن أبوه ومـولاه ومـولا ى إذ ضـامنى البـعـيـد القـصى
لف عـرقـى بعـرقـه سـيـد النا س جـمـيـعـاً محـمـد وعلىّ

إن ذلـى بذلـك الجــــوعــــز   وأومــى بـذلــك الـنـفــع رى
قــد بذل العــزيز مــا لم يشــمــر   لانـطلاق وقـــد يـضـــام الأبـى
إن شـــراً عـلى إســراع عـــزمى   فـى طلاب العـــلا وحظـى بطـى
ارتضـى بالأذى ولـم يقف الـعـــز   م قـــصـــوراً ولـم تعـــز المطى
كـــالذى يـخـــبط الـظلام وقـــد   أقـــمـــر من خلفـــه النهـــار المضى

ولما اشتهر عنه عـتب الخليفة القادر بالله على والده فأنكرها ولم يثبتها فى ديوانه وهى مشهورة عنه ومن طراز شعره وعلى الجملة فإن مثل هذه الأشياء لم تفدهم فائدة ما.

ومما زاد الأمر بلية أن بنى بويه الذين استولوا عـلى بغداد فى منتصف القرن الرابع كانوا شيعـة فأباحوا للشيـعة الظهور فى بغداد بما يشـتهون من العادات التى كانوا يفـعلونها يوم عاشـوراء فقد كانوا يجـعلونه يوم حزن يخرج النســاء فيه حاسـرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن علىّ رضى الله عنه وغـير ذلك من العادات وصار الناس يتـقربون إلى السلطان بالتشيع.

وفى أوائل القرن السادس ظـهرت فئة الباطنيـة بفارس وبالشام فأرهقـوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بنى العباس.

واستمـر هذا النزاع السياسى بمصر حـتى سقطت الدولة الفاطميـة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب واستمر مع الباطنية بفارس والشام. واستمر مع أهل بغداد حتى لِيقال إن السبب فى هيج التتار وإغرائهم على أخذ بـغداد هوحادثة اعتداء وقعت من أهل السُّنة على محلة الشيعة وهى الكرخ.

من ذلك ترى أن النزاع بين العبـاسيين وآل علىّ استمـر من أول خليفة إلى آخر خلـيفة وكان ذلك سبباً من أسـباب ضعف الدولة بعد ما تقدم ذكره من خلل العـصبية التى كانت عمدة العباسيين.

ويمكن أن يعد هذا السبب من متممات السبب الأول

٣- ضعف قيمة العهود

الوفاء بالعهد خُلق عربى حافظ عليه العرب فى جاهليتهم وبذلوا دونه أموالهم وأنفسهم وأبناءهم عرف لهم ذلك من جاورهم من الأمم كـالفرس والروم وحوادثهم فى ذلك مأثورة

قد حفظتها بطون الصحف ولسنا بصدد أن نقتصها. لما جاء الإسلام أيد هذا الخلق وأمر به أمراً حتماً لا هوادة فيه. قال تعالى فى سورة الإسراء ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء: ٣٤) وقال ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل: ٩١) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التى شددت فى وجوب الوفاء بالعهد واعتباره أساساً يقوم عليه الأمة الإسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون كما يعلم من استقراء تواريخهم وكذلك نحا بنوأمية هذا المنحى لأن العنصر العربى كانت له المكانة فيها بل يصح أن يقال أنه كانت دولة عربية محضة وقد اعتد الناس على عبدالملك بن مروان فعلته التى فعلها مع سعيد بن العاص حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته وقالوا إنها أول غدرة فى الإسلام وسأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد فقال حسن لو قتلته وحييت فقال عبد الملك أولست بحى فقال الشيخ العربى حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد، فانظر كيف عد العربى هذه الحياة كلا حياة ولم يصل إلى علمنا فى هذه الدولة حوادث أخرى من هذا القبيل لأن الأمة كانت لها رقابة شديدة على خلفائها.

لما جاءت الدولة العباسية وقد ظهرت على أيدى عنصر غير عربى ظهر منها لأول نشأتها حوادث متكررة تدل على أنه ليس للعهود فى نظر خلفائها قيمة فقد قتل المنصور فى حياة السفاح ابن هبيرة بعد أن أمن أماناً لا شك ولا حيلة فيه وكان الذى أشار بقتله أبومسلم الخراسانى مشيد الدعوة العباسية وكانوا لا يحبون أن ينفذوا أمراً دون مشورته، ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبى مسلم بعد أن أمنه ثم فعل مثل ذلك مع عمه عبد الله بن علىّ بعد أن أمنه وأعلن رضاه عنه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال إنه يعطيه الأمان أجابه محمد بقوله وأما أمانك الذى عرضت فأى الأمانات هو أأمان ابن هبيرة أم أمان أبى مسلم أم أمان عمك عبد الله ابن علىّ والسلام وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير لأنها وصمة عار كبيرة لمن هوقائم مقام رسول الله ﷺ فى حراسة دينه وسياسة الأمة.

وهذا الذى حصل فى صدر الدولة كان مجرئاً لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضى به العهود إذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولا سيما العهود التى تعقد لتولى الخلافة فإنهم جعلوها من الأشياء التى يسهل حلها إن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق. فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذى عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور فقدم عليه ابنه محمداً المهدى وهذا التقديم وإن كان قد تم بطلب عيسى ورضاه إلا أننا نعرف كيف توصل المنصور إلى الحصول على هذا الرضا من الإساءات المتكررة لعيسى والتهديد

المتواصل حتى همَّ الرجل أن يخلع طاعة المنصور ويفتن الأمة وفى رأيى أنه لووجد نصراء لفعل وإن كان قد أثر عنه شعر يفيد أنه آثر مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهوقوله:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما   إما صغار وإما فتنه عمم

وقد هممت مراراً أن أساجلهم   كأس المنية لولا الله والرحم

وفعل المهدى مثل ذلك معه فعزل عن العهد بالمرة وقد ارتكب من الوسائل ما ارتكبوه.

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك إلى الفتنة الشعواء التى كانت بين (سنة ١٩٤) إلى (سنة١٩٨) قاست الأمة فى أثنائها مصاعب هائلة ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق ومن البديهى أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم إلى القواد والأمراء فهؤلاء ينشقون أيضاً ويستسهلون الإقدام على فك تلك القيود التى حلفوا الأيمان الوثيقة على الوفاء بها.

كتب الرشيد أماناً ليحيى بن عبد الله وأكد فيه غاية التأكيد ولما ارتاب منه صار يبحث فى الوجوه التى يبطل بها الأمان وجعل فقهاء وقته الواسطة فى ذلك فمنهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل فى الدين مع الأهواء ومنهم من سارع إلى هوى الخليفة وصار يبدى الأوجه التى ينتقض بها الأمان.

كل هذا من العيوب التى شقت عصا البيت وتعدت إلى فرقة الأمة فأضعفت عصبية الدولة وآل الأمر بخلفائها إلى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم.

وقد بقيت أسباب أخرى ثانوية يمكن استنتاجها مما تقدم فى التاريخ التفصيلى والله تعالى أعلم.

(تم بعون الله تعالى)

فهرس المحتويات

